سلسلة الدراسات العُمانية (٦)

الخليل بن أحمد الفراهيدي

أوراق الندوة الدولية التي نظمتها وحدة الدراسات العُمانية في جامعة آل البيت بالتعاون مع

سفارة سلطنة عُمان في المملكة الأردنية الهاشمية

بتاريخ: ٢١ - ٢٩ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ/ ٢٣- ٢٥ تموز ٢٠٠٦)

إعداد وتحرير

د. سعيد جبر أبو خضر
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة آل البيت

د. محمد محمود الدروبي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة آل البيت

المجلـــــد الأول

منشورات جامعة آل البيت
١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٣/٧/٢٠٠٧)

٩٢٤,١
الدولة الدولية : الخليل بن احمد الفراهيدي (المفرق : ٢٠٠٦)
الخليل بن احمد الفراهيدي/ تحرير سعيد جبر محمد ابو خضر، محمد محمود الدروبي.ـ المفرق : جامعة آل البيت، ٢٠٠٧.
( ) ص. (سلسلة الدراسات العمانية؛ ٦)
ر.إ : (٢٠١٣/٧/٢٠٠٧)
الواصفات: /اللغويون/ / اللغة العربية/ / التراجم/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر : ٢٠١٣/٧/٢٠٠٧
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : ٢٠١٣/٧/٢٠٠٧

❖ جميع حُقوق هذا الكتاب محفوظة، غير مسموح بطبع أي جزء من أجزاء هذا الكتاب، أو اختزانه في أي نظام لاختزان المعلومات واسترجاعها، أو نقله على أية هيئة أو بأية وسيلة سواء أكانت الكترونية أو شرائط ممغنطة أو ميكانيكية، أو استنساخاً، أو تسجيلاً أو غيرها، إلا في حالات الاقتباس المحدودة بغرض الدراسة مع وجوب ذكر المصدر ويعتبر الكتاب ملكاً لجامعة آل البيت.

❖ الآراء والأفكار المذكورة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن سياسة آل البيت.

التنضيد الضوئي والإخراج الفني
أمل عادل الغانم

المتابعة والإشراف
سلطان شفاتره وباسم المومني

تلفون ٥٦٠٨٠٠٠ فاكس ٥٦٧٢٦٣١
ص. ب ٥٩١ – عمان – ١١١١٨ الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيّدنا محمّد النبيِّ العربيِّ الهاشميِّ الأمين، وعلى آله الطيّبين الطاهرين، وصحبه أجمعين، ومن اقتدى بشرعه إلى يوم الدين، وبعد:

فيسرني أن أقدّم للباحثين والمتخصصين في ميادين العربيّة وعلومها وآدابها وثقافتها الإسلاميّة هذا السفرَ الجليل، الذي يضمُّ أوراقَ ندوة الخليل بن أحمد الفراهيديِّ الدوليّة، التي نظّمتها وحدةُ الدراسات العمانيّة في جامعة آل البيت، بالتعاون مع سفارة سلطنة عُمان الشقيقة في المملكة الأردنيّة الهاشميّة، تحت رعاية صاحب السموّ الملكيِّ الأمير غازي بن محمّد المعظّم، المبعوث الشخصيِّ والمستشار الخاص لصاحب الجلالة الملك عبد الله الثاني بن الحسين المعظّم، حفظه الله تعالى ورعاه، في المدة من (٢٧- ٢٩) من شهر جمادى الآخرة عام ١٤٢٧هـ، الموافق (٢٣- ٢٥) من شهر تموز عام ٢٠٠٦م، بمشاركة ثلاثة وخمسين عالما وباحثا يمثلون ثماني وعشرين مؤسسة أكاديميّة رسميّة وأهليّة، أردنيّة وعربيّة، وباضطلاع نخبة من العلماء والمفكرين برئاسة جلساتها السبع المثمرة.

وقد جاء انعقادُ هذه الندوة الدوليّة ترجمةً لرسالة جامعة آل البيت القائمة على التعريف بإنجازات الحضارة العربيّة الإسلاميّة وأعلامها المُبْدعين، وتحقيقاً لأهداف وحدة الدراسات العُمانيّة في إبراز إسهامات أعلام الحضارة العمانيّة، والدور الحضاريِّ العُمانيِّ، واحتفاءً بإعلان مسقط، عاصمة سلطنة عُمان الشقيقة، عاصمةً للثقافة العربيّة لعام ٢٠٠٦م، وبإعلان شخصيّة الخليل، أنجب علماء عُمان وأجلّهم، شخصيّةً عالميّةً من قبل اليونسكو لعام ٢٠٠٦م. والخليلُ بإسهاماته العلميّة الجليلة، وانظاره الرّائدة في عُلوم العربيّة يمثّلُ حلقةً رئيسةً في حلقات المعرفة الإسلاميّة، النّظريّة والتّطبيقيّة، ويُعَدُّ شيخاً وأستاذاً ومُؤسساً ترك موروثاً ثقافيّاً خالداً ما انفكتْ جوانبُـه، على تقادم العهد وتقدّم العلم، مملوءةً إبداعاً وعبقريةً وعطاءً.

والتقى جمعُ العلماء والباحثين من أبناء الأمّة العربيّـة والإسلاميّـة في رحـاب

جامعةِ آل البيت العامرة، ليناقشوا في ثلاثة أيام وبمنجيَة علميَةٍ رصينةٍ وبأنظار سابرةٍ متباينةٍ بَيْنَ القديمِ والحديث، سيرةَ العلامةِ الخليل الفراهيديَ وثقافتَه وميادينَ علمِه وإبداعه وعطائه في الدراسات القرآنيَة، والحديثيَة، واللغويَة، النحويَة والمعجميَة والصوتيَة، والعروضيَة، والأدبيَة. ووطّدَ هذا الملتقى العلميُ المبارك الروابطَ العلميَةَ بَيْنَ تراثِ الأمَة وإنتاجِها العلميَ المعاصر، فكان تنادي المشاركين على اتساعِ الرقعةِ الجغرافيةِ يوحّدُه ويوجّهُه ماضٍ عريقٌ وعميقٌ، وحاضرٌ ناهضٌ وراسخٌ ومتينٌ، ومستقبلٌ . بمشيئة الله . مشرقٌ وواعدٌ بالازدهار، ليخرج المشاركون بتوصياتٍ هادفةٍ من شأنها أن تحققَ المزيدَ من الدراسات العلميَةِ المنهجيَة بما يخدمُ مسيرة علماء الأمةِ للإسهام في نهضتِها العلميةِ والثقافية.

وتولّتْ جامعةُ آل البيت نشرَ الأوراق العلميَةِ التي قُدّمتْ في هذه الندوة الدوليَة المباركة، لتنفيذ توصية المشاركين الأجلاء، ولإعمام الفائدة، ولتسهم بإضافةٍ نوعيَةٍ إلى المكتبة الإسلاميَة والعربيَة بعامة، والعمانيَة بخاصة. وقد عهدت إلى الدكتور محمد الدروبي والدكتور سعيد أبو خضر بإعداد الأوراق العلميَةِ إعداداً منهجياً، وبتحريرها على ما تقتضيه الأصولُ العلميَة، وما يتطلبُه فنُّ التحرير من العناية، رجاءَ أن يكونَ العملُ مناسباً جلالَ المناسبة والمبتغى.

وفي الختام، فإني أرفعُ أسمى آياتِ الشكر والعرفان لصاحب السموّ الملكيَ الأمير غازي بن محمّد المعظّم لرعايته هذه الندوة الدوليَة، وأتقدمُ بالشكر والامتنان للعلماء وللباحثين لإغنائهم الندوة وهذا العملَ العلميَ، والشكر موصول لأعضاء اللجنة التحضيريَة للندوة، ولمحرّزي الكتاب، ولكل العاملين على إخراجه بهذا الشكل المتقن. وفّقنا الله سبحانه وتعالى لمزيدٍ من العطاء والإنجاز في ظلّ صاحب الجلالةِ الهاشميَةِ الملكِ عبدالله الثاني ابن الحسين المعظّم حفظه الله تعالى ورعاه. والحمدُ لله من قبل ومن بعد.

والله لا يضيع أجر العاملين.

رئيس الجامعة

أ.د. عبد السلام العبادي

١٤ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ

٣١ آيـــــار ٢٠٠٧م

توطئـــة

الحمدُ لله عزّتْ قدرتُهُ على نعَمِه التي يتقاصرُ عنها باعُ الشكر، ومِنَحِه التي تقلُّ لديها بسطةُ النشر. ونسألُهُ التوفيقَ لسُبُلِ الصلاحِ والظفر بالسعادة والنجاح، واستقبالَ الصواب في جميعِ المقاصد، ومصاحبةَ الرشد في كافة المطالب. إنّهُ وليُّ كلّ خير. والصلاةُ والسلامُ على سيّدنا محمّدٍ النبيّ العربيّ الهاشميّ الأمين وآله وصحبه ومن التزم بشرعه إلى يوم الدين، وبعد:

فيُدْني هذا الكتابُ الموسومُ بالخليل بن احمد الفراهيديّ إلى الدارسين وفرسان العربيةِ وعشاقِها جَنى ندوةِ الخليل بن احمد الفراهيديّ الدوليّة وقطوفها الناضجة. تلك الندوة المباركة التي عُقدتْ في رحاب جامعة آل البيت في ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ونظّمتْها وحدةُ الدراسات العمانيّة في جامعة آل البيت، بالتعاون مع سفارةِ سلطنةِ عُمان في المملكة الأردنيّة الهاشميّة، تحت رعايةِ صاحبِ السموّ الملكيّ الأمير غازي بن محمّد المعظّم. وجاءت في سياقين مبهجين: إعلان اليونسكو شخصيّةَ الخليلِ شخصيةً عالميةً لعام ٢٠٠٦م، وإعلان مسقط عاصمةً للثقافة العربيّة لعام ٢٠٠٦م.

وارتقت المشاركاتُ في هذه الندوةِ الدوليّة إلى مستوى جلالِ موضوعِها الفريدِ كماً ونوعاً، فأمّ ما يربو على ستين عالما وباحثا متضلّعين من الدراساتِ الخليليّةِ رحابَ جامعةِ آل البيت، يحملُهم على منأى المنازلِ شرفُ الغايةِ وأصالةُ البيتِ العربيّ الهاشميّ وعراقتُه ورحابتُه ملتقى للعلم والعلماء. فقلّبوا على مدار ثلاثة أيام صفحاتٍ مشرقةً من سيرةِ العلامةِ الخليل، وأجالوا الأنظارَ في تآليفِه وإبداعاتِه في القراءاتِ القرآنيّةِ والعلومِ الحديثيّةِ والنحوِ والأصواتِ والعروضِ وصناعةِ المعجمِ والشعر، واستقصوا منزلتَه الرفيعةَ في مصادرِ الأدبِ العربيّ، وأظهروا أثرَه في الثقافاتِ القديمةِ والمعاصرة، وكشفوا عن عنايةِ الدارسين المُحْدَثين به عربا ومستشرقين. مما يجعلُ ضمَّ هذه الأوراق في هيئةِ كتابٍ مطلبا ملحا، لإعمام الفائدة وزيادةِ بيانٍ في التعريف بالخليل وعلمه، لتنهلَ منه الأجيالُ المتعاقبةُ وترتشفَ الضرب.

وقد عهدتْ إلينا جامعةُ آلِ البيت مشكورةً بإعداد أوراقِ هذه الندوةِ الدوليّةِ وتحريرِها، فتوفرنا عليها زهاء عام، إذ ابتدأنا بمراجعةٍ أوليةٍ للأوراق العلميّة التي قُدّمتْ في الندوة، واصطفينا . على أهميّة الأوراق جميعها . منها ما كان مناسبا لضمّه بين دفتي هذا الكتاب، فرغب عددٌ من أصحابِ هذه الأوراق في تجويدها وتعديلها، فأعادوها في المدة المحددة، واستطال الوقت بآخرين منهم فلم نحظ بنشر أوراقهم، وآثر بعضهم نشر بحوثهم مفردةً. ثم بذلنا الوسعَ لتحريرها وإخراجها بالصورة المرجوّة، وجعلنا نقيم النصوصَ وننفي شوائبَها اللغويّة والمطبعيّة، مع العناية بالضبط والترقيم دفعا للبس والغموض ما وجدنا إلى ذلك سبيلا، وأجرينا مسحا ضوئيا للرسومات والأشكال التوضيحية لإثباتها في متون البحوث حيث لزم الأمر، ووحّدنا نظامَ التوثيق على حسب الحواشي الختامية، ورتّبنا البحوثَ على نسق برنامجِ جلساتِ الندوة الذي أقرته اللجنة التحضيريّة، ويُراعى فيه الترابطُ المنهجيُّ والموضوعيُّ بين البحوث.

وإذ أتمم الله علينا بإتمام عقد هذا الكتاب فإننا نتقدم بالشكر الجزيل لمعالي الأستاذ الدكتور عبد السلام العبّادي، رئيس جامعة آل البيت، أن تابع بعناية بالغة مراحل إعداده وتحريره وإخراجه. ونزجي الشكر الجزيل لسفارة سلطنة عُمان في المملكة الأردنيّة الهاشميّة، ولوزارة الأوقاف والشؤون الدينيّة في سلطنة عُمان، ولمكتب سماحة مفتي سلطنة عُمان، الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، ولسماحة الأمين العام لمكتب الإفتاء، الشيخ أحمد بن سعود السيابي، ولجميع الجهات والأشخاص المعنيين بشؤون الوحدة العمانيّة في جامعة آل البيت. على دعمهم الموصول وجهودهم الخيرة في إنجاح هذه الندوة، وإصدار هذا الكتاب. وأوفى الشكر للعلماء والباحثين المشاركين في الندوة، والذين أسهموا في رِفْد هذا الكتاب. ونشكر الزملاء الفضلاء أعضاء اللجنة التحضيريّة للندوة. والشكر موصول لكل من أسهم في إخراج هذا السفر إلى الحياة، ونخصّ بالشكر مديرَ الوحدة العُمانيّة، الدكتور عليان الجالودي، وعميدَ البحث العلمي وعميدَ الدراسات العليا، الأستاذ الدكتور صلاح جرار، اللذين كان لهما فضلُ تذليل الصعوبات الفنيّة والإداريّة التي واجهتنا في مراحل إنجاز هذا العمل، والآنسة أمل الغانم لما بذلته من جهدٍ متقنٍ في إخراج هذا الكتاب.

وعسى أن يكون هذا الكتاب إسهاما متميزا في مشروع وحدة الدراسات العُمانيّة في جامعة آل البيت في دراسة أعلام عُمان النابهين وإبراز دورهم في بناء صرح الحضارة العربيّة والإسلامية، وخدمة الحضارة الإنسانيّة. والله نسألُ ان ينفع بعملنا هذا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

والله الموفق،،،

المحرّران

الدكتور سعيد جبر أبو خضر و الدكتور محمد محمود الدروبي

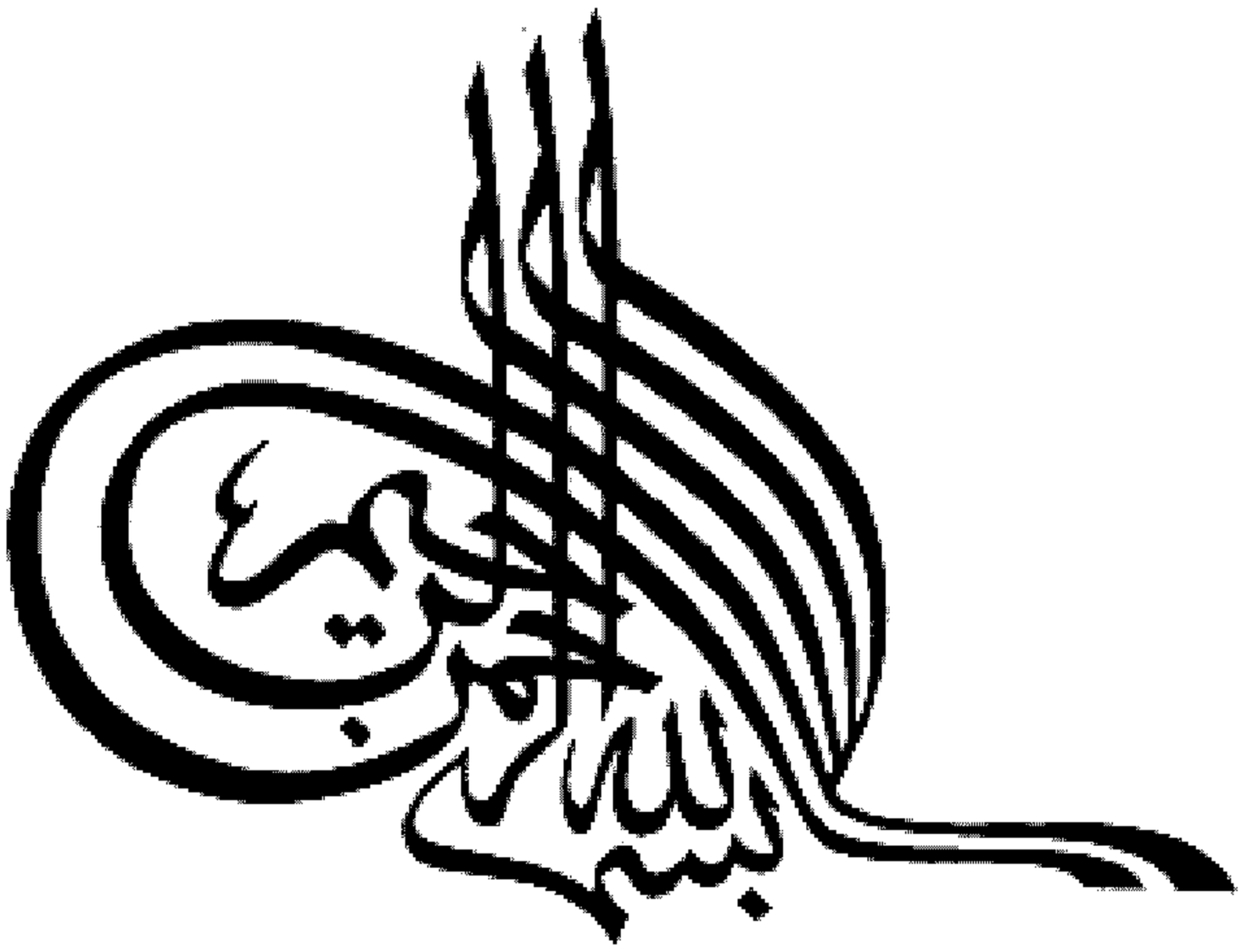

وقائع حفل الافتتاح

* السّلام الملكيّ.
* آي من الذّكر الحكيم.
* كلمة معالي الأُستاذ الدّكتور رئيس الجامعة.
* كلمة سعادة الشيخ الأمين العام لمكتب الإفتاء في سلطنة عُمان.
* كلمة المُشاركين في الندوة.
* كلمة اللجنة التحضيريّة.

كلمة معالي الأستاذ الدكتور عبد السلام العبادي

رئيس الجامعة

الحمدُ لله ربِّ العالمين خالقِ السماواتِ والأرض، وأصلي وأسلمُ على النبيِّ العربي الهاشميِّ الأمين، وعلى آلِ بيته الطاهرين، وصحبه أجمعين، وعلى من التزم بشرعه إلى يوم الدين.

عطوفة نائب محافظ المفرق، الأستاذ نايف المومني الأكرم.

سعادة السفير العُماني، الأستاذ مسلم بن بخيت البرعمي المكرّم.

سعادة الشيخ أحمد بن سعود السيابي / الأمين العام لمكتب الإفتاء .

أصحاب العطوفة والفضيلة والسعادة.

أيها الحفل الكريم،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فيسرّني في بداية كلمتي هذه أن أنقلَ إليكم تحياتِ صاحبِ السموّ الملكي الأمير غازي بن محمّد المعظّم، المبعوث الشخصي والمستشار الخاص لجلالة الملك المعظّم، الذي شرفني بأن أنوبَ عن سموّه في رعاية هذه الندوة نظراً لسفره خارج المملكة، ناقلاً لكم جميعاً تمنيات سموّه لندوتكم بالنجاح والتوفيق، راجياً أن أرفعَ لمقام سموّه اسمى آياتِ الشكر والعرفان على تفضّله برعاية هذه الندوة.

كما يسرّني أن أرحبَ بكم في رحاب جامعة آل البيت ضيوفاً أعزاء تلتقون فيها على مائدةٍ ثرّةٍ من موائدِ العلم والمعرفة، تحيون بها ذكرى علمٍ من أعلام أمتنا الكبار، الذي قدّم لها خيراتٍ جليلةً لا نظيرَ لها في مسيرته العلمية الفذّة.

وذلك بالمشاركة في الندوة الدوليّة، التي تنظّمها وحدةُ الدراسات العُمانيّة في جامعة آل البيت بالتعاون مع سفارة سلطنة عُمان الشقيقة في المملكة الأردنيّة الهاشميّة بعنوان: (ندوة الخليل بن أحمد الفراهيديّ الدوليّة).

هذه الندوة التي ستبيّن جهودَ هذا العالم الفذّ المُبدع في خدمة علوم القرآن الكريم واللغة العربية من خلال عشراتِ البحوث والدراسات المتخصصة التي تسلّط الأضواءَ على ثقافته الموسوعيّة في مجالات اللغة والتفسير والحديث والفقه والمنطق والأصوات

والموسيقى والحساب والكيمياء والأدوية. وبخاصة جهوده المتميزة في تأسيس علم العروض.

والذي قيل فيه إن الخليل بن أحمد دعا بمكة أن يرزق علماً لم يسبقه أحد إليه، ولا يؤخذ إلا عنه، فلما رجع من حجه فتح الله عليه بعلم العروض.

فقد كان له معرفةٌ بالإيقاع والنغم وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض فإنهما متقاربان في المأخذ كما عبر ابن خلكان في وفيات الأعيان.

وقد قال ابن كثير في البداية والنهاية "وهو الذي اخترع علم العروض قسّمه إلى خمس دوائر، وفرّعه إلى خمسة عشر بحراً، وزاد الأخفش فيه بحراً آخر وهو الخبب".

وفيه قال حمزة الأصفهاني: "إن دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول من الخليل، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض، الذي لا عن حكيم أخذه، ولا على مثال تقدمه احتذاه، وإنما اخترعه مما مر له بالصفارين من وقع مطرقة على طست".

وقد وُصف بأنه أوّلُ من كتبَ في العروض والثواني وأول من ضبط اللغة - بعلامات الضمة والفتحة والكسرة المعروفة لدينا- وأوّل من حصر أشعار العرب، وقد قيل إن سيبويه عالم العربية المعروف صنّف كتاباً في ألف ورقة من علم الخليل، وقد نقل ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب انعقاد الإجماع على أنه لم يكن أحد أعلم بالنحو من الخليل.

ومن جميل دعاء عالمنا الفذ هذا "اللهم اجعلني عندك من ارفع خلقك واجعلني في نفسي من أوضع خلقك، وعند الناس من أوسط خلقك". وقد كان ورعاً زاهداً يقول: "لا يجاوز همي ما وراء بابي".

وقد كانت خدماتُ عالمنا الفذّ هذا عظيمةً للعديد من علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة، وبخاصة أنه هو واضعُ أوّل معجم موسوعيّ في اللغة والذي سمّاه بالعين.

فهو بحمد الله وفضله جديرٌ بأن يلتقي من أجله هذا الحشدُ المبارك من العلماء والمفكرين في جامعة آل البيت، جامعةِ الرسالة والحضارة، من تسع دول عربيّة يقومون في جوانب حياته وفكره وموروثه العلمي وإنجازاته المعرفية أكثر من خمسين بحثاً علمياً جاداً.

هذا العالمُ الفذُّ العظيم، العُمانيّ المولد والنشأة فقد ولد من أزد عُمان سنة ١٠٠ للهجرة، والعراقيّ التعلّم والدراسة، فقد عاش في البصرة وتوفي بنهاية ١٧٥هـ، العربيّ

الإنجاز والخدمة، فقد برع وانجز في علوم العربية ما لا يبارى، الإسلامي الروع والعطاء فكانت خدماته لهذا الدين العظيم عظيمة متميزة.

فحقّ لجامعة آل البيت ان تعتزّ وتفتخر بأن تحتضن هذه الندوة، وحقّ لوحدة الدراسات العُمانية فيها أن تضيف لسجلها الحافل في هذه الدراسات هذا الإنجاز الجديد المتميّز.

ولا أنسى هنا أن أتقدم لسلطنة عُمان بعظيم الشكر ووافر التقدير رعايتها لهذه الوحدة ودعمها لها تنفيذاً لتوجيهات جلالة السلطان قابوس المعظّم لدعم جامعة آل البيت ووحدة الدراسات العُمانية فيها، ملتقياً في ذلك مع الرعاية الموصولة لصاحب الجلالة الهاشميّة الملك عبد الله الثاني بن الحسين المعظّم لجامعة آل البيت ونهجها العلمي المبارك تأكيداً لما يربط البلدين الشقيقين من علاقات تميز في ظل قيادتيهما الراشدتين.

أكرر الترحيب بالضيوف الكرام داعياً الله سبحانه وتعالى أن يوفقهم في عملهم المبرور هذا وأن يجزيهم خير الجزاء على جهدهم وعطائهم وتحمّلهم عناء السفر والحضور. والله الموفّق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة سعادة الشيخ أحمد بن سعود السيابي
الأمين العام لمكتب الإفتاء في سلطنة عُمان

الحمدُ لله والصلاةُ والسلامُ على سيّدنا محمّد رسولِ الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه،

صاحب السمو الملكي غازي بن محمد المبعوث الشخصي والمستشار الخاص لجلالة الملك المعظّم.

صاحب المعالي الدكتور عبد السلام العبادي، مستشار جلالة الملك للشؤون الإسلامية، رئيس جامعة آل البيت.

سعادة الشيخ مسلم بن بخيت البرعمي، سفير سلطنة عُمان بالمملكة الأردنيّة الهاشميّة.

الدكتور محمد الدروبي، مدير وحدة الدراسات العُمانيّة.

أيها الحضور الكرام.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

إنها لفرصة جدُّ سعيدة أن نحتفلَ بواحدٍ من أهمّ أعلام العرب والعربيّة، ذلكم هو إمامُ اللغة الخليل بن أحمد الفراهيديّ الأزديّ العُمانيّ، ولعله من الجميل أن نعيش أجواء هذه الأبيات التي جاشت بها قريحةُ أبي حيّان الأندلسي في حقّ الخليل حيث قال:

وما زال هذا العلم تنميه سادة ... جهابذة تنأى به وتعاضده
إلى أن أتى الدهر العقيم بواحد ... من الأزد تنميه إليه فراهده
إمام الورى ذاك الخليل بن أحمد ... أقر له بالسبق في العلم حاسده
وبالبصرة الغراء قد لاح فخره ... فضاءت أدانيه ونارت أباعده
بأذكى الورى ذهناً وأصدق لهجة ... إذا ظن أمراً قلت ها هو شاهده
هو الواضع الثاني الذي فاق أولاً ... ولا ثالث في الناس تُعمى قواعده
ومن كان ربّاني اهل زمانه ... صنوم قتوم راكع الليل ساجده
يقسم منه دهره في مثوبة ... وثوق بأن الله حق مواعده

فعام إلى حج وعام لغزوة فيعرفه البيت العتيق ووافده

ولم يثنه يوماً عن العلم والتقى كواعب حسن تنثني ونواهده

وأكثر سكناه بقفر بحيث لا تناغيه إلاّ عفره وأوابده

وما قوته إلا شعير يسفه بماء قراح ليس تُغشى موارده

عزوباً عن الدنيا وعن زهراتها وشوقاً إلى المولى وما هو واعده

وجميلٌ أن يتزامنَ هذا الاحتفاءُ المباركُ بشخصية الخليل بن أحمد مع كون مسقط العاصمة العُمانيَة، عاصمةً للثقافة العربيَة، ومع إعلان المنظّمة العالميَة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) شخصية الخليل بن أحمد شخصيةً عالمية.

وأرى أنه من المناسب أن أذكر أمامكم بعض المعلومات عن الخليل ونسبه وموطنه، على اعتبار أننا معشر العُمانيين أقرب إليه نسباً وموطناً. ولعل بعضاً من هذه المعلومات لم تصادف أذهانكم أو أذهان الكثير منكم، ولعلها تقرّب الصورة إليكم. وترسم لوحة معلوماتيَة أمامكم عن هذا الإمام الجليل، ولا سيما أنكم أو أن الكثير منكم لمّا يزر عُمان ولم أقل لم يزر عُمان، لأنني أتوقع زيارتكم لها.

أيها الحفل الكريم:

لقد حددت المصادرُ العُمانيَة نسبَ الخليل بن أحمد ومكانَ مولده ونشأته، فهو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، نسبة إلى فراهيد بن مالك بن فهم الأزدي، ومالك بن فهم الأزدي هو القائد العربي الذي انتقل من اليمن إلى عُمان عقب الانهيار التام لسدّ وادي مأرب باليمن، وترك أولاداً عديدين أصبحوا فيما بعد آباء لقبائل عُمانيَة انتشرت في عُمان وخارجها، ومن بينهم فراهيد بن مالك الذي صار أبا لقبيلة فراهيد العُمانيَة العربيَة، وقد أنجبت هذه القبيلةُ العديدَ من العلماء والأدباء والقادة، منهم هذا الإمام إمام اللغة الخليل بن أحمد، والربيع بن حبيب صاحب المسند في الحديث، وأبو العباس المبرد، وابن دريد الأديب واللغوي المشهور، ويلج بن عقبة صاحب أبي حمزة الشناري، وقد كانت مساكن هذه القبيلة في منطقة الباطنة من عُمان في مدينة صحار وما حولها، ثم تفرعت منها قبائل لا يزال بعضها موجوداً في عمان، واختفت النسبة إلى فراهيد.

كان الخليل بن احمد من قرية "ودام" وكانت تنقسم إلى قسمين: ودام الساحل، وهي القسم الذي يقع بجوار البحر، اي بحر خليج عُمان. وودام الغافي: وهي القسم الأعلى من البحر، ولعله نسبة إلى شجر الغاف، وهو شجر يكثر في عُمان.

وقرية "ودام" من ولاية المصنعة من منطقة الباطنة التي يقال عنها إنها بحبوحة عُمان، نظراً لرخاء العيش بها لجوارها البحر ولكثرة مزروعاتها، وذلك ان منطقة الباطنة سهل فسيح بين الجبل والبحر يمتد طوله مسافة ثلاثمائة كيلو متر، وعرضه يتراوح ما بين عشرين إلى خمسين كيلو متر على ساحل خليج عُمان، وهو الذي عناه ذلكم العمانيّ الذي لقيه أبو عمرو بن العلاء بمكة فيما يرويه عنه تلميذه الأصمعي، يقول أبو عمرو لقيت رجلاً بمكة فاستفصحته، وبعد أن وجّه إليه العديدَ من الأسئلة، قال له: صِفْ لي بلادك، فقال العُمانيّ: "سيف افيح، وفضاء صحصح، وجبل صلدح، ورمل اصبح"، فقد وصف الجغرافيا الطبيعية لعُمان بهذه العبارة المختصرة ذات الكلمات القليلة، والمعاني الكثيرة، وإذا أردتم شرح هذه الكلمات فنحن على استعداد لشرحها لغة وأرضاً.

أيها الحفل الكريم:

خرج الخليلُ بن أحمد الفراهيديّ من عُمان إلى البصرة، وهنالك نال شهرةً واسعةً، وتفتّقت عبقريّتُه عن الكثير من العلوم، وتأتي عظمةُ الخليل في كونه مؤسساً لتلك العلوم وأبا عُذرتها، وما الناس فيها إلا تَبَع له وعالةٌ عليه، ناسجين على منهجه وسائرين على منواله، ودعونا نستمع إلى ما يقوله عنه بعض أتباعه المتعشقين خطاه، المترسمين منهجه والمتأثرين به علماً وأدباً، ونختار من أولئك شخصين كان لهما الأثرُ الواضحُ الملموسُ في التراث العربيّ الخالد.

يقول أبو المنذر سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري العمانيّ في كتابيه: الأنساب، والإبانة: "ومن أهل عُمان، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفرهوديّ، وكان خرج إلى البصرة، وأقام بها فنسب إليها، وهو صاحب كتاب العين الذي هو إمام الكتب في اللغة، وما سبقه أحد إلى تأليف مثله، وإليه يتحاكم أهل العلم والأدب فيما يختلفون فيه من اللغة، فيرضون به ويسلمون إليه، وهو صاحب كتاب النحو وإليه ينسب، وهو أول من بوّبه وأوضحه ورتّبه وشرحه، وهو صاحب كتاب العروض والنقط والشكل، والناس تبع له، وله فضيلة السبق إليه والتقدم فيه".

أما تلميذُه غير المباشر أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد فيقول: "وقد ألف أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ رضوان الله عليه كتابَ العين، فأتعب من تصدي لغايته، وعنّى من سما إلى نهايته، فالمنصف له بالغلب معترف والمعاند متكلف، وكل من بعده تبع له اقرّ بذلك أم جحد، ولكنه رحمه الله ألّفَ كتابه مشاكلاً لثقوب فهمه، وذكاء فطنته وحدة أذهان أهل دهره".

فرحمَ الله الخليلَ بن أحمد الفراهيديّ، وجزاه عن لغة الضاد وأهلِها خيرَ الجزاء، لما قام به من أعمال علميةٍ لصيانتها نطقاً وإملاءً، فهي لغة النص الدينيّ، والخطاب الإسلاميّ، فبها الله يُعْبَد ويُوَحَد.

وأخيراً لا يسعني إلا أن أتقدّمَ بالشكر الجزيلِ والثناء المعطّر لوحدة الدراسات العُمانيّة، وجامعةِ آل البيت ممثلةً في رئاستها وإدارتها وهيئتها العلميّة والأكاديميّة على هذا النشاط النوعيّ المتميّز، وهذا يجسّد عمقَ العلاقةِ الحسنة، ووطادتها بين الدولتين والبلدين والشعبين في ظلّ القيادتين الرشيدتين الحكيمتين لصاحبي الجلالة السلطان قابوس بن سعيد البوسعيدي الأزديّ العربيّ، والملك عبد الله الثاني بن الحسين الهاشميّ العربيّ حفظهما الله تعالى.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة الأستاذ الدكتور عوض بن حمد القوزي
باسم المُشاركين في الندوة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلّى الله وسلّمَ على سيّدنا محمّدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

معالي الأستاذ الدكتور عبد السّلام العبادي، رئيس جامعة آل البيت، مندوب راعي الندوة صاحب السموّ الملكي الأمير غازي بن محمّد المعظّم،

صاحب السعادة مسلّم بن بخيت البرعمي، سفير سلطنة عُمان لدى المملكة الأردنيّة الهاشميّة،

سعادة الشيخ أحمد بن سعود السيابي، الأمين العام لمكتب الإفتاء في سلطنة عُمان،

أخي سعادة الدكتور محمّد الدروبي، مساعد رئيس الجامعة، رئيس اللجنة التحضيرية للندوة،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

أقف هذا الموقف لأنطق باسم الوفود المشاركة في ندوة الخليل بن أحمد، ولست بأفصح الوافدين لسانا، ولا بأنصعهم بيانا، ولكنه حسنُ الظنّ، وأرجو أن أكون عند حسن ظنّهم في إيصال الرسالة، التي جئنا نحملُها في قلوبنا، من أصقاع متعددة، في عالمنا العربيّ، إلى الخيمة الهاشميّة، إلى المفرق، بل إلى الملتقى، الذي التقت فيه الأزدُ بالبيت الهاشميّ.

أيّها العلماء،

أيّها الإخوة المشاركون،

أيّها الإخوة جميعا،

نلتقي اليومَ في مناسبةٍ طيبةٍ، مناسبة اختيار مسقط، عاصمة عُمان، عاصمةً للثقافة العربيّة، ونحتفي اليومَ بالخليل بن أحمد الفراهيديّ. وأسأل اللهَ . سبحانه وتعالى . أن ينفعنا بعلمه حين نفع الأوّلين، وكانوا يقتاتون بعلمه وهو يعيش في خصٍّ، زهدا منه لا انتفاعا بعلمه.

أيها الإخوة،

ما عساي أن أقولَ عن الخليل وبرنامجه حافلٌ، وستحظى هذه الندوةُ بمناقشات عميقةٍ، تتناول حياة الخليل في مجملها وبعض تفصيلاتها. إنّ الخليلَ بحرٌ زاخرٌ من العلوم والمعارف، رجلٌ لم يُسبقْ إلى بعض العلوم. إنّ الكثيرَ من العلوم انتهجها على غير قياس، فصارت تخطو على خطاه، وتترسم آماله ومداركه.

إخواني،

باسم الوفود المشاركة في هذه الندوة أرفع الشكر الجزيل إلى إخواننا في جامعة آل البيت، بدءا من أكبر مسئول فيها، معالي رئيسها، إلى مسئوليها المباشرين واللجنة التحضيرية . على الحفاوة التي غمرونا بها، وعلى الكرم الذي لم يكنْ متصنّعا، بل نلمسه ونتحسسه من أنفاسهم دون كلماتهم. اسمحوا لي جميعا أن أرفع باسم الجميع الشكر إلى صاحب السموّ الملكي الأمير غازي بن محمّد المعظّم راعي هذه الندوة. وباسم الجميع نهنئ الخليلَ ونهنئ أنفسنا بالخليل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة الدكتور محمّد محمود الدروبيّ

مدير وحدة الدراسات العُمانيّة، ومساعد رئيس الجامعة

باسم اللجنة التحضيرية

الحمدُ لله اهل الحمدِ والثناء، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمّدٍ خاتم الأنبياء، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه المختارين، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

معالي الأستاذ الدكتور عبد السّلام العبادي رئيسَ جامعة آل البيت مندوبَ صاحب السموّ الملكي الأمير غازي بن محمّد المعظّم المبعوث الشخصي والمستشار الخاص لجلالة الملك المُعظّم.

سعادة الشيخ مسلّم بن بخيت البرعمي سفيرَ سلطنة عُمان الشقيقة لدى المملكة الأردنيّة الهاشميّة.

سماحة الشيخ أحمد بن سعود السيابي الأمين العام لمكتب الإفتاء في سلطنة عُمان الشقيقة.

أيها العلماءُ الأجلاء،

أيها الضيوفُ الفضلاء.

أيها الحفلُ الكريم.

إن الاحتفاءَ بقوافل النابهين من أعلام الأمّة، سدنةِ الحرف شيوخِ المعرفةِ، يحملُ في أعطافه دلالاتٍ كثيرةً عميقةً، لعل أميزَها وعيُ الأمّةِ بقيمةِ موروثها الثقافيّ، ودورُ الإنسانِ المسلمِ في تأسيس قواعدِ البناءِ المعرفيّ، فضلاً عما يثيرُه هذا الاحتفاءُ فينا من معاني العزّةِ والإكبارِ والإجلالِ لهذه الصفوةِ من العلماءِ المبدعين، وما يولّدُ فينا من حوافزَ تدعونا إلى المشاركةِ الفاعلةِ في الحياةِ الإنسانيّةِ والانخراطِ في مسيرةِ العطاءِ العلميّ من غير أن نرتكنَ في قيعانِ الماضي السّحيق.

وانسجاماً مع رسالةِ جامعة آل البيت المتمثلةِ بالعنايةِ بالحضارةِ العربيّةِ الإسلاميّةِ والتعريفِ بإنجازاتها العلميّةِ وأعلامها المبدعين، وتزامناً مع إعلان "مسقط" عاصمةً للثقافة العربيّة لهذا العام، رأت وحدةُ الدراساتِ العُمانيّة في جامعة آل البيت أن تجمع بين الفضليين، فاختارت شخصيةَ العبقريِّ العربيِّ المسلم

الخليل بن أحمد الفراهيديّ، أميزَ من أنجبت عُمان، ليكونَ الشخصيةَ المحتفى بها؛ نظراً لدوره الريادي في تأسيس منظومة المعرفة الإسلاميّة، ومساهماته النظريّة والتطبيقيّة الجليلة في بنيان الثقافة العربيّة الإسلاميّة، وجاء إعلانُ منظمة "اليونسكو" الدوليّة شخصيةَ الخليل شخصيةً عالميّةً لهذا العام مُندغماً مع رؤيتنا التي ناسبت بين ردِّ الجميل لعُمان التي أخرجت الخليلَ للناس، وإلقاء التحيّة على الخليل الجليل الذي بوّأ العِمامة العربيّة منزلتها بين قُبعات منظري المدارس: الوصفيّة والتوليديّة، والتحويليّة، والوظيفيّة وما بعدها من أنظار الدرس اللغويّ الحديث.

وتأسيساً على هذه المنطلقات الثلاثة، جاء انعقادُ هذه الندوة الدوليّة بهذه الرعاية الكريمة من لدن صاحب السموّ الملكيّ الأمير غازي بن محمّد المعظّم، حول حياة الخليل وشخصيته وآفاق إبداعه، بمَحْضر هذه الجِلّة من العلماء والدارسين والباحثين الذين لبّوا الدعوةَ متفضلين، وأتوا من فِجاج أقطار العروبة والإسلام لتكتملَ سعادتُنا بهم في هذا المأتَم العلميّ الكريم، في هذه الأصبوحة النديّة، في هذا المشهد العلميّ الجميل.

والخليلُ بن أحمد الفراهيديّ - والمعرَفُ يا سادةُ لا يُعرّف - علمٌ رائدٌ من أعلام الثقافة العربيّة الإسلاميّة، رسمَ خطّ رحلة العبقريّة بين عُمان والبصرة وخراسان، فجاء نتاجها كتاب "العين" وهو أوّلُ معجم لغويّ عربيّ ضمّ أشتاتَ اللفظ العربيّ وحوسبَها، وفق نظرية التقليب الرياضيّة التي أحصت لأوّل مرة كلامَ العرب واستوعبت ألفاظه، وأصبح هذا الكتابُ من بعدُ قبلةَ صناع المعجمات العربيّة ومعوّلهم. وأفضت الرحلةُ من بعد إلى اكتشاف الدوائر العروضيّة التي هي علمُ هندسة المقاطع الصوتيّة التي تُعرف بها قوانين الشعر العربيّ وأوزانه وعلله، وإن اختراع الخليل لهذا العلم هو أشبه بوضع "إقليدس" أصولَ علم الهندسة و"أرسطو" قواعدَ علم المنطق.

وتجاوزت العبقريّةُ الخليليّةُ هذا الحدّ لترسمَ قواعدَ النحو العربيّ وقياساته وعلله التي أملاها الخليل على تلميذه "سيبويه" فصنع من تلكم الأمالي "الكتاب" الذي غدا دستورَ أهل هذه الصنعة، مما يعني أنّ النحوَ العربيّ مَدينٌ بنضجه لجهود الخليل وأنظاره الرائدة في هذا السبيل. وتوصل الخليلُ فضلاً عن ذلك إلى كثير من الحقائق التي توصل إليها علمُ الأصوات اللغويّة في العصر الحديث، من غير أن يدخل هذا المُبدعُ

مختبرات الأصوات أو يستعملَ تقانات السمع وأجهزته المتطوّرة.

وقدّم الخليلُ بالمثل خدمةً جليلةً للنّص القرآنيّ على نحو ما هو معروف في تاريخ رسم المصحف الشريف، فقد ابتكرَ علاماتِ الضبط والشكل من ضمةٍ وفتحةٍ وكسرةٍ وهمزةٍ وشدّةٍ وروم وإشمام، إلى غير ذلك من العلامات. وانقضى خطُ سير تلك الرحلة بوضع الخليل قواعدَ علم التعمية الذي تستنبطُ به الألغاز وتحلُ به الرموز وتعرف به الألحان.

لقد أتاحت هذه المجالاتُ المعرفيّة للخليل أن يكونَ قارئا ومفسرا ومحدثا ومفكرا وحكيماً ولغوياً ونحوياً ورياضياً وعروضياً وكاتباً وشاعراً وناقداً إلى غير ذلك من الوجوه التي أحلّت الخليلَ عالمَ الخلود. وقد جمع الخليلُ إلى العلم أسمى الفضائل الإنسانيّة من زهدٍ وتقى وصلاحٍ وعفّةٍ وعبادة، وعاش حياته مُجتزأ باليسير من الطعام والكساء، والناس يكسبون بعلمه الأموال، وكان شعاره:

وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

وهكذا كانَ الخليلُ بشخصه وعلمه وسلوكه أنموذجاً فريداً في عصره، وهذا يُستبان من ثناء العلماء عليه وشهاداتهم بحقّه، يقول تلميذه النضر بن شميل "ما رأيت رجلاً أعلم بالسنة بعد ابن عونٍ من الخليل"، ويقول المحدث سفيان بن عيينة: "من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل: "ويقول أبو البركات الأنباري: "الخليلُ بن أحمد سيد أهل الأدب قاطبة في علمه وزهده".

أيها الحفل الكريم

لئن كان الخليلُ تعلّق بأستار الكعبة ودعا الله أن يرزقه علماً لم يُسبق إليه، في العروض، فما أحرى أن يكون في الأمة اليوم أفذاذ يقتدون بالخليل، ويخترعون من العلوم النظريّة والتطبيقيّة ما يحلّ أمتنا منزلةً سنيّةً في ميادين العلم الإنسانيّ الحديث.

ولئن كان الخليلُ يستدلّ بذكائه وفطنته بالعربية على سائر اللغات والألسنة، فما أجدر أن ينفخَ أبناءُ الأمّة اليوم عن لغتهم الشريفة أطيبَ النفح وأصدقه، حتى تعودَ العربيّةُ كما كانت لغةَ العلم ولسانَ العلماء.

يسرّني باسم اللجنة التحضيرية أن أشكرَ لراعي الحفل صاحب السموّ الملكيّ الأمير غازي بن محمّد على تفضّله برعاية هذه الندوة، وانتداب معالي الأستاذ الدكتور عبد السلام العبادي لافتتاحها، راجين أن ترفعوا معاليكم إلى سموّه خالص الشكر وعظيمَ العرفان، داعين الله أن يحفظ سموّه في ظلّ حضرة صاحب الجلالة الهاشميّة الملك عبدالله الثاني ابن الحسين المعظّم. كما نشكرُ لكل من الجهات والمؤسسات والأشخاص الداعمين لهذه الندوة، ونخص بالذكر سماحة الشيخ احمد بن حمد الخليلي، وسعادة الشيخ مسلم بن بخيت البرعمي، وسماحة الشيخ أحمد بن سعود السيابي، وسعادة الأستاذ علي الدرمكي.

كما نشكرُ لجامعة آل البيت التي كرّمت الخليلَ منذ سنواتٍ خلت، فاطلقت اسمه على مبنى مركز اللغات في الجامعة، ونخص بالشكر معالي الأستاذ الدكتور عبد السلام العبادي رئيس الجامعة الذي هيأ كلّ أسباب نجاح هذه الندوة وتابع تفصيلاتها بنفسه.

والشكرُ موصولٌ لكلّ المشاركين ضيوفنا الفضلاء من خارج المملكة وداخلها، ممّن خفوا إلى حضور هذا المشهد العلمي والمشاركة فيه.

رحمك اللهُ أيّها الخليلُ النبيلُ الجليل، فقد أتعبت من تصدّى لغاياتك، وعنّيت من سما لنهاياتك، وتركت ميراثَ علم شغلت الناسَ به، فلعُمان منا أزكى تحيّة، وسلام عليك أبا عبد الرحمن في الخالدين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أعضاء اللّجنة التّحضيريّة للندوة

١-	د. محمّد محمـود الدُروبيّ	مدير الوحدة	رئيساً
٢-	أ. د. عبدالجليل عبدالمهدي		عضواً
٣-	أ. د. عزمي السيـــد أحمد		عضواً
٤-	أ. د. شكري عزيز المـــاضي		عضواً
٥-	أ. د. عـــلي البـــــواب		عضواً
٦-	دة. هنـــد أبو الشعـــر		عضواً
٧-	د. عليـــان الجـــالوديّ		عضواً
٨-	د. محمّـــد العيـــسيّ		عضواً
٩-	د. زيـــد القرالـــة		عضواً
١٠-	د. حســـن الملـــخ		عضواً
١١-	د. سعيـــد أبـو خضـــر		عضواً
١٢-	الفاضل علي الدّرمـــكيّ	السكرتير الأول في السفارة	عضواً

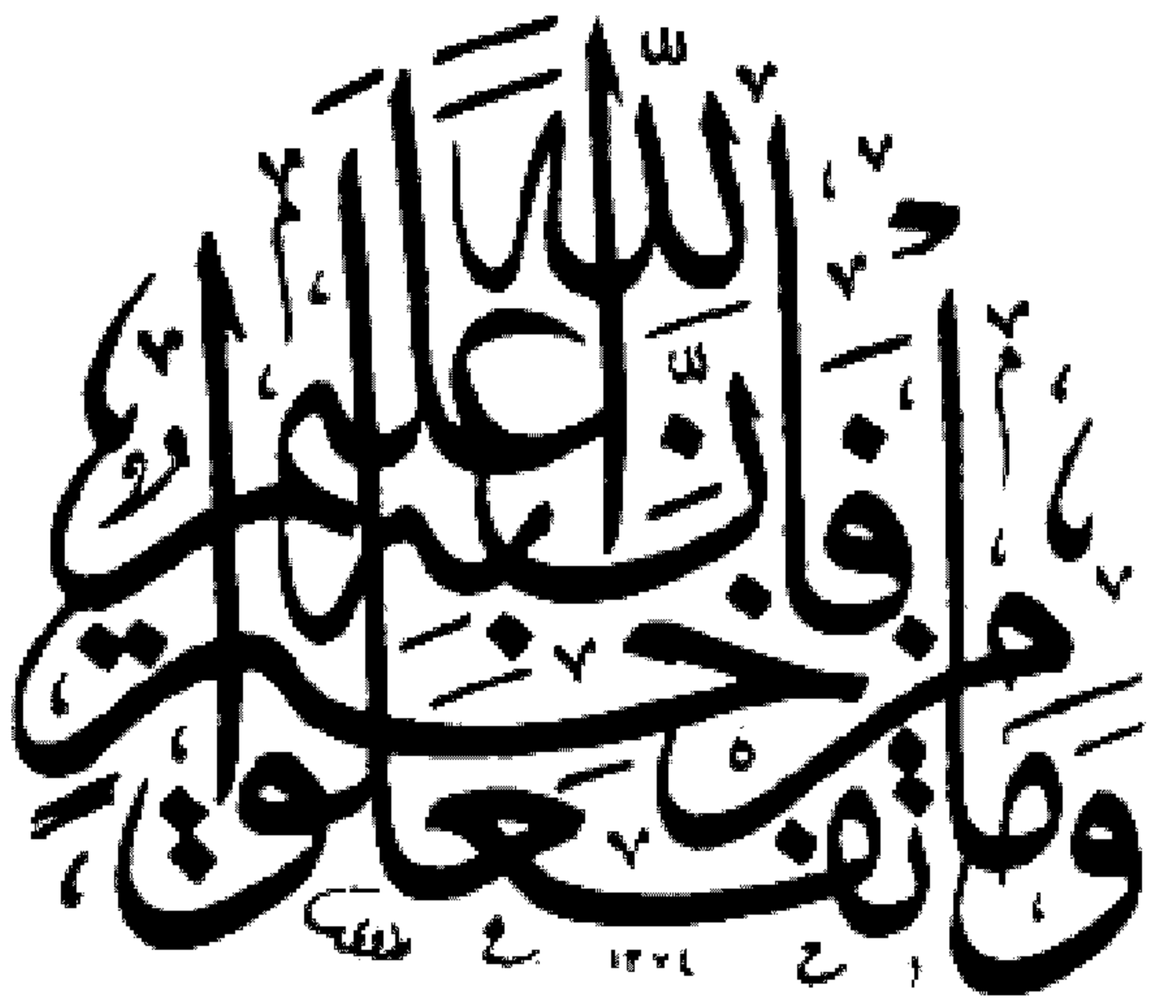
إن الله عليم بذات الصدور

أسماء الباحثين المشاركين في الندوة

(مرتبين وفق الحروف)

الرقم	اسم المشارك	الجنسية	المؤسسة
٠١	أ. إسامة بدر الدين مراد	سورية	معهد الفتح الإسلامي/ سورية
٠٢	دة. امنة سليمان البدوي	أردنية	الجامعة الأردنية/الأردن
٠٣	د. أحمد بن عبد الله السالم	سعودية	جامعة الإمام محمد بن سعود/السعودية
٠٤	د. جاسر خليل ابو صفية	أردنية	الجامعة الأردنية/الأردن
٠٥	د. حسن خميس الملخ	أردنية	جامعة ال البيت/الأردن
٠٦	د. حسين ارشيد العظامات	أردنية	جامعة ال البيت/ الأردن
٠٧	د. حسين علي بطي	عراقية	جامعة العلوم التطبيقية/ البحرين
٠٨	د. حميد لحمداني	مغربية	جامعة سيدي محمد بن عبد الله/ المغرب
٠٩	دة. حنان محمد حمودة	أردنية	جامعة الزرقاء الأهلية/ الأردن
١٠	دة. خلود العموش	أردنية	الجامعة الهاشمية/ الأردن
١١	د. خالد بن عبدالكريم بسندي	أردنية	جامعة الملك سعود/السعودية
١٢	د. خلف خازر الخريشة	أردنية	جامعة اليرموك /الأردن
١٣	د. رائد فريد طافش	أردنية	جامعة البلقاء التطبيقية/ الأردن
١٤	د. زيد خليل القرالة	أردنية	جامعة ال البيت/الأردن
١٥	د. سعيد جاسم الزبيدي	عراقية	كلية التربية /نزوى/ عمان
١٦	د. سعود محمود عبد الجابر	أردنية	جامعة العلوم التطبيقية الخاصة /الأردن
١٧	دة. سلوى ناظم	مصرية	جامعة الملك سعود/ السعودية
١٨	د. سمير محمد عبيد نقد	سودانية	جامعة البحرين/البحرين
١٩	د. صادق عبد الله ابو سليمان	فلسطينية	جامعة الأزهر/غزة
٢٠	د. صالح بلعيد	جزائرية	جامعة تيزي وزو/الجزائر
٢١	د. صلاح محمد جرار	أردنية	الجامعة الأردنية/الأردن
٢٢	د. طه ياسين الخطيب	عراقية	جامعة البحرين/ البحرين
٢٣	د. عاطف فضل محمد	أردنية	جامعة الإسراء الأهلية/الأردن
٢٤	د. عبد الجليل حسن عبدالمهدي	أردنية	الجامعة الأردنية/الأردن

٠٢٥	د. عبدالرحمن بن حسن العارف	سعودية	جامعة أم القرى/السعودية
٠٢٦	د. عبد الستار ابراهيم الهيتي	عراقية	جامعة البحرين/ البحرين
٠٢٧	د. عبد الكريم جرادات	أردنية	جامعة ال البيت/ الأردن
٠٢٨	د. عبد الكريم مجاهد مرداوي	أردنية	الجامعة الهاشمية/ الأردن
٠٢٩	د. عبد الكريم مخلف الهيتي	عراقية	جامعة البحرين/ البحرين
٠٣٠	د. علي ارشيد المحاسنة	أردنية	جامعة مؤتة/ الأردن
٠٣١	د. عمر عبد الرحمن الساريسي	أردنية	جامعة الزرقاء الأهلية/ الأردن
٠٣٢	د. عمر الخزاعلة	أردنية	جامعة ال البيت/ الأردن
٠٣٣	د. عيسى عودة برهومة	أردنية	الجامعة الهاشمية/ الأردن
٠٣٤	د. عودة الله منيع القيسي	أردنية	اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين/ الأردن
٠٣٥	د. عوض بن حمد القوزي	سعودية	جامعة الملك سعود/ السعودية
٠٣٦	دة. ليلى توفيق العمري	أردنية	الجامعة الهاشمية/ الأردن
٠٣٧	د. محسن علي السويدي	عراقية	جامعة بغداد/ العراق
٠٣٨	د. محمد ابو الفضل بدران	مصرية	جامعة الإمارات العربية المتحدة/الإمارات
٠٣٩	د. محمد اليوقاعي محمد	مغربية	جامعة سيدي محمد بن عبد الله/ المغرب
٠٤٠	د. محمد خير محمود البقاعي	سورية	جامعة الملك سعود/ السعودية
٠٤١	د. محمد زرمان	جزائرية	جامعة باتنة/ الجزائر
٠٤٢	د. محمد سالم سعد الله	عراقية	جامعة الموصل/ العراق
٠٤٣	د. محمد القاسمي	مغربية	جامعة سيدي محمد بن عبدالله/ المغرب
٠٤٤	أ. محمود عبد القادر الأرناؤوط	سورية	معهد الفتح الإسلامي – سورية
٠٤٥	د. معمر حجيج	جزائرية	جامعة باتنة/ الجزائر
٠٤٦	د. منير تيسير الشطناوي	اردنية	الجامعة الهاشمية/ الأردن
٠٤٧	د. ناصر لوحيشي	جزائرية	جامعة الأمير عبد القادر/ الجزائر
٠٤٨	دة. نهاد قليح العاني	عراقية	الجامعة المستنصرية/ العراق
٠٤٩	د. وليد احمد العناتي	أردنية	جامعة البترا/ الأردن
٠٥٠	د. ياسين ابو الهيجاء	أردنية	جامعة الإسراء/ الأردن
٠٥١	د. يحيى وهيب الجبوري	عراقية	جامعة اربد الأهلية/ الأردن
٠٥٢	د. يوسف محمود قجال	سورية	جامعة الملك سعود/ السعودية
٠٥٣	د. يونس شنوان	أردنية	جامعة اليرموك/ الأردن

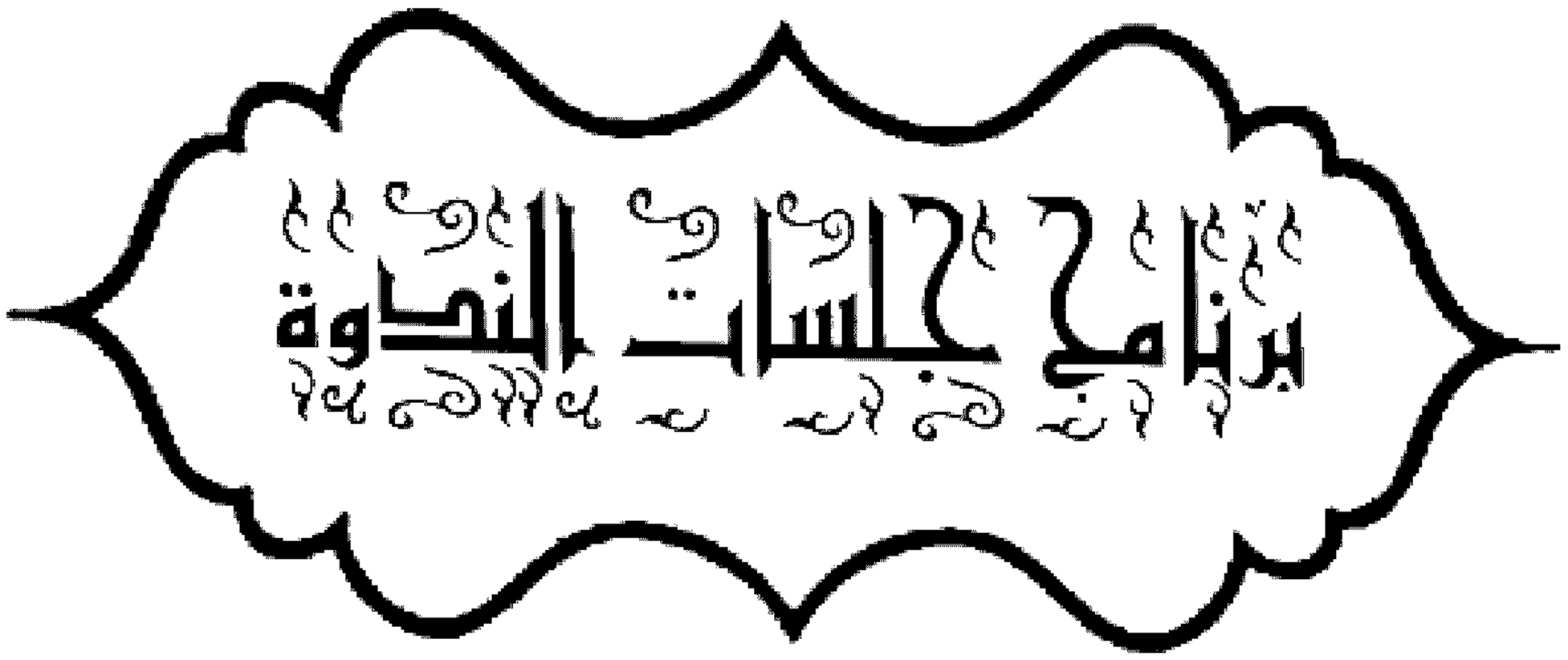
برنامج جلسات الندوة

الجلسة الأولى

الأحد ٢٧ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ / ٢٣ تموز ٢٠٠٦م

الساعة ١١ - ١٢,٤٥ مبنى الإمام مسلم

رئيس الجلسة: أ.د. قحطان عبد الرحمن الدوري / جامعة آل البيت – الأردن

١١ – ١١.١٥ الخليل الفراهيدي والقراءات القرآنية جدلية المبنى والمعنى: دراسة تحليلية
أ.دة. نهاد فليح العاني – الجامعة المستنصرية – العراق.

١١ ١٥–١١ ٣٠ جهود الخليل ومنهجه في تفسير غريب القران من خلال كتاب العين
د. طه ياسين الخطيب – جامعة البحرين – البحرين.

١١ ٣٠ – ١١ ٤٥ الخليل في تفسير التبيان
أ.د. سعيد جاسم الزيدي – كلية التربية بنزوى – سلطنة عمان.

١١ ٤٥ – ١٢ الاستشهاد بالحديث على اللغة في كتاب العين
د. سمير محمد عبيد نقد – جامعة البحرين – البحرين.

١٢ – ١٢ ١٥ الصناعة الحديثية في كتاب العين للخليل الفراهيدي
د. حسين علي بطي – جامعة العلوم التطبيقية – البحرين.

١٢ ١٥–١٢ ٣٠ المصطلحات الفقهية في كتاب العين: تأصيل وتوثيق
د. عبد الستار ابراهيم الهيتي – جامعة البحرين – البحرين.

١٢.٣٠ – ١٢.٤٥ مناقشة.

١٢ ٤٥ – ٢ ٣٠ استراحة غداء للمشاركين فقط (دار الندوة).

الجلسة الثانية

الأحد ٢٧ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ/٢٣ تموز ٢٠٠٦م

الساعة ٢,٤٥ — ٥,١٥ مبنى الإمام مسلم

رئيس الجلسة: أ.د. يوسف حسين بكار / جامعة اليرموك - الأردن

٢٤٥ – ٣ المنجز العروضي الخليلي: حُدُوده، وملامحه، وأبعاده
د. ناصر لوحيشي – جامعة الأمير عبد القادر – الجزائر.

٣ – ٣١٥ الخليل الفراهيدي عروضياً
د. أحمد بن عبد الله السالم – جامعة الإمام محمد بن سعود – السعودية.

٣١٥ – ٣٣٠ قول في نظرية الفراهيدي العروضية
د. محسن علي السويدي – جامعة بغداد – العراق.

٣٣٠ – ٣٤٥ بحر المتدارك وقضية تداركه على الخليل بن أحمد الفراهيدي
أ.د. علي إرشيد المحاسنة – جامعة مؤتة – الأردن.

٣٤٥ – ٤ دوائر الخليل كما رسمها ابن عبد ربه في العقد الفريد وتأثيرها المحتمل في ظهور الموشحات الأندلسيّة/ أ.د. يونس شنوان – جامعة اليرموك – الأردن.

٤ – ٤١٥ الدائرة الخليلية وعروض الشعر العربي: جمالية التماثل بين بيت الشِّعر وبيت الشَّعر / د. خلف خازر الخريشة – جامعة اليرموك – الأردن.

٤١٥ – ٤٣٠ حوسبة اللغة في فكر الخليل: القافية أنموذجاً: دراسة وتحليل ونقد
أ.د. صادق عبد الله أبو سليمان – جامعة الأزهر – فلسطين.

٤٣٠ – ٤٤٥ مدخل لدراسة اللغة الشعريّة عند الخليل بن أحمد الفراهيدي
أ.د. محمّد القاسمي – جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المغرب.

٤٤٥ – ٥ الخليل وعلم التعمية
أ.د. جاسر خليل أبو صفية – الجامعة الأردنية – الأردن.

٥ – ٥١٥ مناقشة.

الجلسة الثالثة

الإثنين ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ/٢٤ تموز ٢٠٠٦م

الساعة ٨,٣٠ – ١٠,٣٠ مبنى الإمام مسلم

رئيس الجلسة: أ.د. سعيد جاسم الزبيدي/كلية التربية بنزوى/سلطنة عُمان

٨٣٠– ٨.٤٥ نظرات في معجم العين للخليل بن احمد الفراهيدي

أ. د. محمد البوقاعي محمد/ جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المغرب

٨.٤٥ – ٩ أثر مقدمة كتاب العين في المعاجم العربية

د. عيسى عودة برهومة/ الجامعة الهاشمية – الأُردن.

٩ – ٩.١٥ أثر كتاب العين للفراهيدي في كتاب الإبانة للعوتبي

أ.د. صلاح محمد جرار / الجامعة الأُردنية – الأُردن.

٩.١٥– ٩.٣٠ أثر الخليل في مجمل ابن فارس

دة. حنان محمد حمودة / جامعة الزرقاء الأهلية – الأُردن.

٩.٣٠ – ٩.٤٥ الخليل بن أحمد في لسان ابن منظور

د. عاطف فضل محمد/ جامعة الإسراء الخاصة – الأُردن.

٩.٤٥ – ١٠ لغات العرب في معجم العين

د. وليد محمد العناتي/ جامعة البتراء الأهلية – الأُردن.

١٠ – ١٠.١٥ الماء في كتاب العين للخليل: دراسة مقارنة

أ.د. حميد لحمداني/ جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المغرب.

١٠.١٥– ١٠.٣٠ مناقشة.

١٠.٣٠– ١١ استراحة قصيرة (مبنى الإمام مسلم).

الجلسة الرابعة

الإثنين ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ/٢٤ تموز ٢٠٠٦م

الساعة ١١ – ١ مبنى الإمام مسلم

رئيس الجلسة: أ.د. محمد القاسمي / جامعة سيدي بن عبد الله / المغرب

١١ – ١١١٥ صورة الخليل بن أحمد الفراهيدي في الشعر العربي القديم
أ. د. عبد الجليل حسن عبد المهدي/ الجامعة الأردنية – الأردن.

١١١٥ – ١١٣٠ صورة الخليل الفراهيدي في التراث النقدي
د. معمر حجيج/ جامعة باتنة – الجزائر.

١١٣٠ – ١١٤٥ صورة الخليل بن أحمد الفراهيدي في المصادر الأندلسيّة
دة. امنة سليمان البدوي/ الجامعة الأردنية – الأردن.

١١٤٥ – ١٢ تصوير الحياة الاجتماعية عند العرب في معجم العين
د. راند فريد طافش/ جامعة البلقاء التطبيقية
و د. منير الشطناوي/ الجامعة الهاشمية – الأردن.

١٢ – ١٢١٥ الخليل بن احمد عبقري العلماء
د. يوسف محمود فجال/ جامعة الملك سعود – السعوديّة.

١٢١٥ – ١٢٣٠ شعر الخليل بن أحمد الفراهيدي: جمع ودارسة وتحقيق
أ.د. سعود محمود عبد الجابر/ جامعة العلوم التطبيقية – الأردن.

١٢٣٠ – ١٢٤٥ شعر الخليل بن أحمد الفراهيدي: جمع وتحقيق
دة. ليلى توفيق العمري/ الجامعة الهاشمية – الأردن.

١٢٤٥ – ١ مناقشة.

١ – ٢٤٥ استراحة غداء للمشاركين فقط (دار الندوة).

الجلسة الخامسة

الإثنين ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ/٢٤ تموز ٢٠٠٦م

الساعة ٣ – ٥ مبنى الإمام مسلم

رئيس الجلسة: أ.د. عبد الجليل حسن عبد المهدي/الجامعة الأردنية / عمان

٣ – ٣١٥ المنظومة المعرفية للخليل
د. محمد سالم سعد الله/ جامعة الموصل – العراق.

٣١٥ – ٣٣٠ الافتعال في الترجمة للخليل بن أحمد الفراهيدي: مظاهر وأسباب
د. حسن خميس الملخ/ جامعة آل البيت – الأردن.

٣٣٠ – ٣٤٥ الخليل بن أحمد الفراهيدي وصلاته برجال الحديث في عصره
أ. محمود عبد القادر الأرناؤوط/ معهد الفتح الإسلامي - سورية.

٣٤٥ – ٤ علاقة الخليل بن أحمد الفراهيدي بسيبويه
أ. أسامة بدر الدين مراد/ معهد الفتح الإسلامي – سورية.

٤ – ٤١٥ علاقة الخليل بسيبويه في كتب التراجم والأدب
د. ياسين أبو الهيجاء/ جامعة الإسراء الخاصة – الأردن.

٤١٥ – ٤٣٠ صورة الخليل بن أحمد نحوياً كما رسمها جعفر عبابنة
دة. خلود العموش/ الجامعة الهاشمية – الأردن.

٤٣٠ – ٤٤٥ جهود أردنية في دراسة الخليل بن أحمد
د. حسين إرشيد العظامات – جامعة آل البيت – الأردن.

٤٤٥ – ٥ مناقشة.

الجلسة السادسة

الثلاثاء ٢٩ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ/٢٥ تموز ٢٠٠٦م

الساعة ٨,٣٠ – ١٠,٣٠ مبنى الإمام مسلم

رئيس الجلسة: أ.د. صالح بلعيد / جامعة تيزي وزو – الجزائر

٨٣٠ – ٨.٤٥ جهود الخليل في العلوم العربية ودعاوى الأثر الأجنبي
أ.د. يحيى وهيب الجبوري/ جامعة إربد الأهلية – الأردن.

٨٤٥ – ٩ الخليل بن أحمد وأثره على اللغة والأدب العبريين
د. سلوى ناظم/ جامعة الملك سعود – السعودية.

٩ – ٩.١٥ جهود الخليل في صناعة المصطلحات النحوية
أ.د. عوض بن حمد القوزي/ جامعة الملك سعود- السعودية.

٩.١٥ – ٩.٣٠ مساهمة الخليل بن أحمد الفراهيدي في وضع المصطلح العربي
أ.د. محمد زرمان/ جامعة باتنة – الجزائر.

٩.٣٠ –٩.٤٥ المصطلح النحوي في كتاب العين
د. خالد عبد الكريم بسندي/ جامعة الملك سعود - السعودية.

٩.٤٥ – ١٠ المصطلح العروضي والدلالة اللغوية عند الخليل
د. عبد الكريم مخلف الهيتي/ جامعة البحرين- البحرين.

١٠ – ١٠.١٥ حول نسبة منظومة نحوية للخليل
د. عمر عبد الرحمن الساريسي/ جامعة الزرقاء الأهلية - الأردن.

١٠.١٥ – ١٠.٣٠ مناقشة.

١٠.٣٠ –١١ استراحة قصيرة (مبنى الإمام مسلم).

الجلسة السابعة

الثلاثاء ٢٩ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ/٢٥ تموز ٢٠٠٦م

الساعة ١١ – ١ مبنى الإمام مسلم

رئيس الجلسة: أ.د. مـــرزوق بن تنباك /جامعة الملك سعـود – السعوديـــة

١١ – ١١.١٥ الأبعاد اللسانية لنظرية التقليب الخليلية

أ.د. عبد الكريم مجاهد مرداوي/ الجامعة الهاشمية – الأردن.

١١.١٥ – ١١.٣٠ خليلي يناجي الخليل

أ.د. صالح بلعيد/ جامعة تيزي وزو– الجزائر.

١١.٣٠ – ١١.٤٥ الخليل الفراهيدي نحويا ولغويا

د. عودة الله منيع القيسي/ جامعة عمان الأهلية– الأردن.

١١.٤٥ – ١٢ منهج الخليل بن أحمد في المخارج الصوتية

د. زيد خليل القرالة/ جامعة آل البيت– الأردن.

١٢ – ١٢.١٥ الألفاظ الفارسيّة في معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: جمع وتحليل

د. عبد الكريم جردات و د. عمر الخزاعلة/ جامعة آل البيت – الأردن.

١٢.١٥ – ١٢.٣٠ المستشرقون الألمان والخليل الفراهيدي إشتيفان فيلد أنموذجاً

أ.د. محمد أبو الفضل بدران/ جامعة الإمارات العربية– الإمارات.

١٢.٣٠ – ١٢.٤٥ آراء المستشرقين في نسبة كتاب العين للخليل غراف دولا سال أنموذجاً

أ.د. محمد خير محمود البقاعي/ جامعة الملك سعود– السعودية.

١٢.٤٥ – ١ مناقشـة.

١ – ٢.٤٥ استراحة غداء للمشاركين فقط (دار الندوة).

أوراق النباوة

الخليل الفراهيديّ والقراءات القرآنيّة
دراسة تطبيقيّة في جدليّة المبنى والمعنى

أ. دة. نهاد فليح العاني
الجامعة المستنصريّة – العراق

الخليل الفراهيديّ والقراءات القرآنيّة: دراسة تطبيقيّة في جدليّة المبنى والمعنى

أ.د. نهاد فليح العاني

المقدمة:

من الحقائق المقررة التي لا مجال للشك فيها ولا مناص من الاعتراف بها أن الخليل بن أحمد الفراهيديّ العربيّ نسباً العراقي البصريّ موطناً من أبرز عباقرة علماء العربية حتى يومنا وأعلاهم وأجلهم شأناً، كان علمه ولا يزال تأكل الدنيا به، لذا كان الاهتمام به وإحياء ذكره والكشف عن عبقريته واجباً حتمياً تفرضه عروبتنا وقوميتنا وتقاليدنا وعناصر شخصيتنا.

إننا ننظر إلى الخليل الفراهيديّ نظرة تصل إلى درجة الإجلال والتقدير، لأنه أول من نهض بعلم لغة القرآن، وجمع أشتاتها مما وصل إلينا من جهود الرواد، هذه حقيقة تميط اللثام عن كثير من أسرار تاريخ البحث اللغوي في الفكر العربي الإسلامي، التي تعزو هذه الجهود إلى غير أصحابها أحياناً ومن ثم وضع الحق في غير نصابه.

وجاء هذا البحث استجابة لدعوة وحدة الدراسات العُمانية بجامعة آل البيت للمشاركة في ندوة الخليل بن أحمد الفراهيديّ، وقد اخترت موضوع (الخليل بن أحمد الفراهيديّ والقراءات القرآنية) ليكون سهمي في الندوة، إيماناً مني بأنّ الخليل قد دُرس لغويا ومعجمياً ونحوياً وعروضيا لكن لم يكشف عن علمه في مجال (علم القراءات) ودرايته به، إذ وجدتُ في مادة كتابه (العين) ما يدلّ على تمكّن هذا الرجل في مجال الدراسات القرآنية، وعلمه بها قائم على منهج عرض أوجه القراءة ومن ثم دراستها في ضوء العلاقة بين صورة القراءة ودلالتها المعجمية أو النحوية أو الصرفية أو السياقية أو الخاصة، لتحقيق المناسبة بين علم القراءات وعلم المعجم ولكي لا يخرج كتابه (العين) عن هدفه ومادته.

وبما أن عناصر اللغة وأقسامها ومفرداتها كثيرة وموزعة في مستويات اللغة المختلفة بين الاسمية والمصدرية والفعلية والوصفية والحرفية مما لا يتسع المجال

لذكرها جميعا هنا اخترت منها موقف الخليل من صيغ الاسم الثلاثي الأصول المجرد من الزيادة ليكون مجالا تطبيقيا للبحث يكشف عن عمل الخليل واختياره للقراءة ومناسبتها لوجه من أوجه العربية الصحيحة ذلك الاختيار القائم على أساس من جدلية العلاقة بين المبنى والمعنى المعروفة في الدرس اللغوي منذ نشأته الأولى، وقد اقتضت طبيعة المادة العلمية المستخلصة من كتاب العين بجميع أجزائه تقسيمها إلى قسمين رئيسيين:

الأول : يقوم على اختيار الخليل لوجهين أو أكثر من صور القراءة من غير مفاضلة لمناسبتها لقياس العربية الدلالي أو لما يقع بينها من الوهم في تداخل الاستعمال بين الاسم والمصدر والصفة.

والآخر: يقوم على اختيار الخليل لوجه واحد فحسب، بذكره في النص على الرغم من درايته بالوجه الآخر، لأن المختار يناسب دلالة الكلمة في سياقها المعجميّ أو النصيّ، ليكشف عن العلاقة بين صيغة المفردة ولفظها ومعناها.

وقد رأيت أنّ من حقّ الخليل علينا من جهة والقارئ من جهة أخرى التعريف بمنْ هو غني عن التعريف فوضعت دراسة تمهيدية مبسطة مناسبة تتناول شخصية عبقري العرب، فيها يُذكر: اسمه ونسبه وولادته ووفاته ونشأته، وسيرته الذاتية، والعلمية، وآراء ذوي العلم والمعرفة به وجهده في الدرس اللغويّ، ومن ثم إبداعه في علم القراءات منذ تلمذته حتى إنجازه العلمي المتحقّق في وضع كتابه (العين)، فكشفتْ عن شواهده من النص القرآني، وأسلوب تناوله للمفردة القرآنيّة، ومن ثم عرضه لأوجه قراءتها، وتعليقه العلميّ عليها وتعقيبه على قرّائها، وكان منهجه فيها عدم تصنيفه القراءة إلى مستويات من الصحة أو الشذوذ لأن القراءة عنده سنّة يلزم قبولها. وعدم نسبتها إلى قارئها بالتعيين بل يكتفي بالإشارة في صيغة المجهول (وقُرئ). لكن في تتبعي للمفردة المستخلصة من كتاب العين في كتب القراءات استطعت عزوها إلى قارئها ولاسيما إذا كانوا من القرّاء السبعة، لتحقيق صحة القراءة بها، والكشف عن جهد الخليل في متابعة أثر القرّاء، ومن ثم بيان رأي الخليل فيها ومناسبة اختياره لها القائم على أساس ربطها بالمسموع من

صحيح اللغة وأوجهه المختلفة، وما لا يصح منها فإنه يذكر فيه وجها واحدا فقط.

وختمت ذلك بأهم النتائج التي توصل إليها البحث، أسأل الله أن يوفقنا جميعا لخدمة لغة القرآن وهو وحده الهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الأول:

الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠- ١٧٥هـ) الرجل، والإبداع العلمي

اسمه ونسبه:

أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم بن فرهود بن فهم بن مالك بن نضر بن الأزد. وقيل في نسبه: الفراهيديّ اليحمديّ الأزدي[١]. والفراهيديّ نسبة إلى فراهيد بطن من الأزد، والفرهود في لغة عمان ولد الأسد، وقيل ولد الوعل، والفرهود اسم أطلق من هذه الدلالة على حيّ من يحمد، وهو بطن من الأزد أيضا، وأهل الحيّ هم الفراهيد نسبة للحيّ، ومنهم الخليل بن أحمد[٢]. واليحمديّ نسب إلى بطن من أزد عمان خرج منه خلق كثير[٣]. أما الأزد فهي من قبائل العرب القديمة، يعود نسبها إلى أزد بن الغوث بن قرن بن مالك بن فهم بن كهلان بن سبأ، تفرّع عنها أربع أبطن رئيسة إحداها (أزد عُمان) وكانوا يعيشون من مهنة الصيد[٤].

ولادته:

ولد الخليل في منطقة، سلطنة عُمان حالياً، على شاطئ الخليج جنوب شبه جزيرة العرب، وأبوه أول من سُميّ بأحمد في الإسلام، فالنسابون لا يعرفون منذ وقت النبي محمد ﷺ إلى الوقت الذي ولد فيه (أحمد) أبو الخليل أحدا سُمّي بهذا الاسم غيره[٥]. وُلد الخليل في عُمان في القرن الأول للهجرة، وانتقل مع أهله صغيراً إلى ظاهرة البصرة قبلة العلماء آنذاك، فنشأ فيها حتى توفى سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة، وبذلك يتفق جميع المؤرخين تقريباً على أنه عاش ومات بين سنتي ١٠٠- ١٧٥ للهجرة[٦].

كانت إقامة الخليل في البصرة أربعا وسبعين سنة، وهذا التاريخ يكاد يشبه الاتفاق بين المؤرخين، ولم يغادرها إلا للحج أو التطواف في بوادي نجد والحجاز وتهامة يسمع من أعرابها، وغادرها مرة إلى خراسان حيث يقيم تلميذه الليث بن المظفر.

محيط البصرة:

هيأ له محيط البصرة الأخذ عن أشهر علمائها وملاقاته لهم وسماعه عنهم ومحاورتهم ومشافهتهم، منهم أيوب بن أبي تميمة السختياني (١٣١هـ) فقيه البصرة ومحدثها، ونصر بن عاصم الليثي (ت ٩٠هـ)، ويحيى بن يعمر العدواني (١٢٩هـ) الذي قيل إنه زاد في النحو أبواباً بعد أن وضع أبو الأسود باب الفاعل والمفعول، ثم نظر فإذا في كلام العرب ما لا يدخل فيه فأقصر عنه[٧]، وعبد الله بن أبي إسحق الحضرمي (ت ١١٧هـ) "أعلم أهل البصرة وأعقلهم فرّع النحو وقاسه وتكلّم في الهمز حتى عمل فيه كتاباً، وكان أشدّ تجريداً للقياس"[٨]، وعيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩هـ) وكان حافظا للقرآن ولغريب كلام العرب، كثير التأليف والكتابة[٩]، وأبو عمرو بن العلاء المازني (ت ١٥٤هـ) أحد القرّاء السبعة، بصريّ ثقة، يتتبع وهو في البصرة قراءات الأمصار الأخرى ويكتب له عنها، كثير الاستقراء لكلام العرب متتبعا لأكثره، استخدم التقدير والتفسير في تخريج ما ورد عن العرب من عبارات توحي بالخطأ أو الوهم اللغوي[١٠]، ويونس بن حبيب الضبي (ت ١٨٢هـ) وكان كثير الحفظ لأشعار العرب ولا يحكم على شيء من غير مشاهدة أو سماع، ولما نظر علم الخليل في كتاب سيبويه قال: يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه كما صدق فيما حكاه عني[١١].

تلاميذه:

أخذ عن الخليل من كان له القدح المعلّى في الدرس اللغوي عند العرب ومنهم: الليث بن المظفر (ت ١٧٥هـ)، وسيبويه (ت ١٨٥هـ) والنضر بن شميل (ت ٢٠٣هـ)، وأبو فيد مؤرج الدروسي (ت ٢٥٢هـ)، وعلي بن نصر الجهضمي (٢٥٠هـ).

جوانب من سيرته الذاتية:

لم يكن الخليل على حظ من اليسار ورفاهة العيش، بل كان زاهدا في الدنيا، عفيف النفس، لا يختار صحبة الملوك والأمراء وذوي النفوذ، وإن جاءته الفرصة المناسبة في مناصب الدولة يرفضها لأنه يفضل عليها زهد العيش والورع، ولم يلتفت إلى ما في الدنيا من متاع وجاه وناس، وحين طلب منه تأديب أولاد أحد أمراء البصرة اعتذر، وكان معاصروه يتهافتون على مثل هذا الأمر. وجاءه طلب الأمير سليمان بن حبيب بن المهلب لاستيزاره، واعتذر وكتب إلى (السند) من وزراء الأمير:

أبلغ سليمان أني عنه في دعه وفي غنى غير أني لستُ ذا مالِ

ولما بلغ ذلك سليمان قطع أرزاقاً كانت تجري له، وأبدل ذلك المنصب بالإقامة في خصّ من أخصاص البصرة لا يقدر على فلس وأصحابه يكسبون الأموال بعلمه[١٢].

قالوا في الخليل: جرى ذكر الخليل على لسان نخبة من علماء العربية وفقهائها ومحدثيها، ومؤرخيها وعلمائها، منها ما نقله الأنباري، أبو البركات (ت٥٧٧هـ) عن المحدث سفيان بن عيينة، إذ قال: "من أحب أن ينظر إلي رجل خُلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد"[١٣]. ونقل القفطي (ت٦٢٦هـ) عن العلماء قولهم: لم يكن بعد الصحابة أذكى من الخليل ولا أجمع لعلم العرب[١٤]. وسئل ابن المقفع يوما، كيف رأيت الخليل؟ قال: رأيت رجلاً عقله أكبر من علمه[١٥]. وذكر أبو الطيب اللغوي (ت ٣٥١هـ) في مراتبه، ما جرى في مجالس الأدباء من مذاكرة أمر العلماء فلما أتى ذكر الخليل، لم يبق أحد إلا قال: الخليل أذكى العرب وهو مفتاح العلوم ومصرّفها[١٦]. وقيل: أكلت الدنيا بعلم الخليل وكتبه وهو في خص لا يشعر به، وقال عبد الله درويش: لقد ظلت أفكار الخليل ونظرياته وتعليلاته وابتكاراته نبراسا وهديا لعلماء اللغة والنحو والصرف والعروض والعلوم اللسانية بصفة عامة[١٧].

علمه وثقافته:

ابتدع الخليل ما اختص به من معارف اللغة وعلومها ولم يقلدها:

١- ابتدع علم العروض وأقام صرحه، وضبط أوزان الشعر، وميّزها وبيّن حدودها حتى ولد هذا العلم متكاملاً على يده على غير مثال سابق، ساعده على ذلك براعته في علم الموسيقى والنغم واختلافه إلى حلقات المربد يأخذ مكانه بين المتحلقين حول الشعراء والخطباء، وكانت التفعيلات التي استعملها كموازين للشعر أشبه شيء بالألغاز على اللغويين[١٨].

٢- اطلع على علوم عصره من فلك ورياضة وموسيقى وفلسفة فوضع في الموسيقى كتابي (النغم) و(الإيقاع) [١٩].

٣- تشهد الدراسات الصوتية أنه أول من بدأ بترتيب الحروف على أساس مواضعها في الجهاز الصوتي وتقسيمه جهاز النطق إلى أحياز يختص كل حيز منها بإصدار مجموعة صوتية، وقسم الحروف على وفق صفاتها كاللهوية والشجرية والأسلية والمهموسة والمجهورة وهي مصطلحات وتسميات مبتكرة لم تكن مألوفة في البحث الصوتي "يعود الفضل إليه في النظر إلى تلك الحروف بمحاولات عدة مكنته من الوصول إلى معرفة الحروف الشديدة والحروف الرخوة وحروف العلة والحروف الصحيحة"[٢٠].

٤- في علم النحو: بلغ الخليل الغاية في استخراج مسائل النحو، وتصحيح القياس فيه، ألف فيه كتاب (العوامل) حتى انعقد الإجماع على أنه لم يكن أعلم بالنحو منه، وأنه أتى في علم النحو بما لم يأت بمثله أحد قبله في تصحيح القياس واللطافة والتصريف[٢١]، ولم تكن هذه النعوت من باب المبالغة وتدبيج العبارات للمدح بما ليس فيه، إذ كانت أفكاره وتعليلاته وأقيسته هدياً ونبراساً لتلميذه سيبويه ليقيم بها كتابه المعروف بـ (قرآن النحو) ولكثرة ما نقله سيبويه في (الكتاب) عن الخليل جعلت بعض الدارسين يعدون مهمة سيبويه جمع أفكار الخليل فيه إلا أن شخص المؤلف وأفكاره وجهوده واضحة فيه، وهو أول من استدرك على أبي الأسود

الدؤليّ (٦٩هـ) بإبدال نقط الإعراب ورموزه بعلاماته (الضمة والفتحة والكسرة)، وإليه الفضل في وضع مصطلحات أبواب النحو في (الكتاب) وما يدور في مسائله مثل المسند والمسند إليه والرفع والنصب والجر والجزم والاستفهام والأمر والنهي والتعجب والدعاء وما يليها[٢٢].

في علم المعجم:

تجمع الدراسات على ريادة الخليل في التأليف المعجمي عند العرب لعقليته الخلاقة وبراعته الرياضية إلى جانب ثقافته اللغوية، وكان كتابه (العين) أول معجم لغوي في الفكر اللغوي الإسلامي قد وصل إلينا بصورته المتكاملة، انفرد مؤلفه بنفسه في وضع منهجه وترتيب أبوابه بما لم يُسبق إليه، لقد "فكّر الخليل في صنع كتاب في اللغة يحصر فيه لغة العرب كلها لا تفلت منها كلمة ولا يشذ منها لفظ وهذه عقلة الفاحص إليه، وخطا في سبيل ذلك خطوات عملية ينبني اللاحق منها على السابق ويؤدي السابق منها إلى اللاحق"[٢٣].

وأبرز ملامحه المنهجية ترتيب الألفاظ بحسب أصولها ومكوناتها الجذرية، فقسمها إلى ثنائية الأصول وثلاثية ورباعية، ثم ترتيب الألفاظ داخل كل أصل من هذه الأصول بحسب مخارج الحروف في الفم بدءاً من حروف الحلق وانتهاء بحروف الشفة، وأخرج من هذا التقسيم كل مهمل لم تستعمله اللغة إذا ما فرضته فكرة تقليب حروف المادة الواحدة، ومن ثوابته المنهجية الاهتمام بذكر الفعل ثم المصدر ويلتزم تقديم الماضي ثم المضارع ثم المصدر، أو أكثر من مصدر إذا توافر في مروي اللغة للمادة اللغوية نفسها عدد من المصادر المسموعة أو يلتزم ذكر الصفة بعد ذلك في كثير من مواده، وتصنيف المفردة إلى مذكر ومؤنث، وذكر دلالتها العددية كالإفراد والتثنية وجمع السالم أو المكسر ومن ثم اعتماده مبدأ الاشتقاق أساساً في الوصول إلى المعنى[٢٤].

الخليل وعلم القراءات القرآنية:

القراءات القرآنية علم بكيفيّة أداء كلمات القرآن واختلافها معزواً لناقله، أو هو: علم يبحث في اختلاف ألفاظ الوحي – المذكور – في كتبة الحروف أو كيفيتها

من تخفيف وتثقيل وغيرهما[٢٥].

ومن أسباب ظهور هذا العلم وارتقائه اختلاف الصحابة ﷺ في رواية كلام الله عز وجل عن رسول الله ﷺ، وعلى الرغم من تعدد صور ألفاظ القرآن المنقولة عن الصحابة إلا أن علم القراءات قد استقر على سبع طرائق، تواتر النقل في أدائها واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بقراءتها أو روايتها، وصارت هذه الصور السبع أصولاً للقراءة ومرجعاً لعلمها. وربما زيدت عليها قراءات أُخر لحقت بها إلا أنها عند أئمة هذا العلم لا تقوى قوة الأولى في النقل الثبات[٢٦]. وحين احتكم المسلمون إلى الرسول ﷺ للاستشارة في كيفية أداء حروف من القرآن لاختلاف صور أدائها عند الصحابة رضي الله عنهم أنفسهم كان رده ﷺ: "أنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه[٢٧]. ويُعزا السبب أيضاً إلى طريقة النسخ إذ كانت صورته خالية من الإعجام أو ضبط الشكل فثبت أهل كل مصر من الأمصار وأهل كل ناحية من بلاد المسلمين على ما كانوا قد تلقوه سماعاً، عن الصحابة شرط موافقته الخط وتركوا ما خالف الخط امتثالاً لأمر الخليفة[٢٨]. فالاختلاف في رسم الكلمة وضم مبناها كان سبباً في اختلاف نطقها، ومن ثم اختلاف معانيها ولاسيما وأن العربية تعتمد تغيير الشكل في التشكيل الصوتي أساساً في اختلاف المعاني وإن كان جذر الكلمة واحدا، وهذا المنهج وهذه الخصوصية قد تبعه تعدد أوجه التفسير والتأويل على المعنى الواحد إذا ما اختلفت الصورة.

ومن هنا توجه العقل الإسلامي نحو التفكير في وضع علم له أصوله ومناهجه ومقاييسه ورجاله يضع في أولى مهماته دراسة اللفظ القرآني.

والخليل من هؤلاء الرجال الذين نظّروا في مجال علم القراءات، وسعى الخليل سعياً جاداً للعناية به في آثاره ولاسيما في معجمه العين، فوجّه صور القراءات توجيهاً لغوياً تجلت فيه خصائص العربية وظواهرها المختلفة، فما من وجه من وجوه القراءات أو أسلوب من أساليب الضبط الصوتي أو الصرفي أو الإعراب إلا له سبب يرتكز عليه من لغة العرب ومن القواعد الإعرابية

والنحوية[٢٩]، وإذا كان من أصول هذا العلم اعتماد مبدأ النقل والرواية والعرض في ضبط القراءة ووضع قواعدها في الدراسة والتأليف فإن الخليل اعتمد إلى جانب هذه المقاييس صحة القياس على الأصل المسموع أساساً في ضبط المادة اللغوية في القراءات، وكل ما خالف الأصل وجب على اللغويين تدبر وجهه في العربية، ولذلك وجدنا من فرضيات هذا العلم تصنيف القراءات إلى: قراءة متواترة وصحيحة وأخرى شاذة وهذا ما لمسناه عند الخليل وهو يرصد القراءة القرآنية ليستشهد بها على دلالة مفردات مادة معجمه بما يناسب وجه العربية الصحيحة وقياسها، لأن اللغة تحكمها قوانين لا يجوز الخروج عليها، ومخالفتها يعرض المفردة إلى مخالفة أصل الوضع في اللغة، ومن ثم يؤدي إلى اختلاف استعمالها، وهذا ما يقصد من جدليّة العلاقة بين المبنى والمعنى، ليقدم في هذا الجهد مادة علمية رصينة لعلماء التفسير القرآني وتأويله وإعجازه إذ كان من أول أسئلتهم "عن معاني ألفاظ مفردة وردت في غير لغتهم أو أنها ليست كثيرة الاستعمال فيها أو أن القرآن الكريم أراد بها غير المعنى المألوف لهم"[٣٠]. وقد تلقى الخليل أصول هذا العلم – زيادة على عبقريته اللغوية – من قراء البصرة وعلمائها، ومنهم : الحسن ابن أبي الحسن البصري (ت ١١٠هـ) وعبد الله بن أبي إسحق الحضرمي (ت ١١٧هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) وعيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩هـ) الذي "له اختيار في القراءة على قياس العربية أخذ عنه اللؤلؤيّ وهارون الأعور والأصمعي والخليل"[٣١]. ومن معاصريه يعقوب بن إسحاق الحضرمي (ت ٢٠٥هـ) أحد القراء العشرة.

وتتبع اهتمام الخليل بالقراءة في مادة العين العلمية يكشف عن ضلوع هذا الرجل بعلم القراءات والاستدلال بها على معنى المفردة اللغوية ولاسيما إذا كان اللفظ من مفردات القرآن، والاستعانة بها للوصول إلى بيان التطور الدلالي الذي أصاب المفردة، أو الكشف عن الفروق الدلالية بين مباني الألفاظ. ومن شواهده نعرض لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾[٣٢]، قرأ ابن عباس رضي الله عنه (ت ٦٨هـ) وقتادة (ت ١١٧هـ) والضحاك بن مزاحم (ت ١٠٥هـ): "وأنه

لَعَلَمٌ" بفتح العين واللام – فَعَل- وقد عدّها ابـــن خالويـــه (ت ٣٧٦هـ) مـــن شـــواذ القراءات[٣٣]. وخالفت رسم المصحف، أما الخليل فقد عدّ (العَلَم) المصدر وهو كل ما جعلته علماً للشيء وهو في سياق الآية خروج عيسى عليه الـــسلام[٣٤]، أي أن خروجه سيكون علامة من علامات الساعة، ومن قرأ (لَعِلْم) على مثال – فِعْل- فقد أراد الاسم يُعلم بخروجه اقتراب الساعة[٣٥]، وبهذا وجّه الخليل كلتا القراءتين نحو المعنى المناسب لهما، وكان لهذا التوجيه أثره في اختيار ابن قتيبـــة (ت ٢٧٦هـ) إذ أقرّ الفرق بين استعمال الصيغتين حين وقف عند المفردة نفسها في تفسيره لغريـــب القرآن[٣٦]. ويعزو الخليل التداخل الصيغي وتبادله بين المفردات إلـــى خـــصائص النظام الصرفي في تسويغ تبادل الصيغ وتناوبها إذا تقاربت معانيها، من شـــواهده، قوله تعالى: ﴿وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً﴾[٣٧].

قال: فارغاً أي خالياً من الصبر، وقرئ: فُرُغا على مثال – فُعُل- بمعنـــى المفعول أي (مُفْرَّغ) وفاعل في معنى المفعول، مثل عُطُل ومُعَطَّل[٣٨].

أما في قوله تعالى:﴿إنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُـــمْ نَصِيراً﴾[٣٩]، فيذكر الخليل أن الدَّرْك للاسم أسفل قعر الشيء والدَّرَك واحـــد مـــن أدراك جهنم وله صيغة أخرى: الدَّرْك – فَعْل لغة في الدرك[٤٠].

وإنما يذهب بذلك إلى قراءة عاصم وحمزة والكسائي، ساكنة الراء دَرْك[٤١] وقال في صيغها: أما الدَّرْك – فِعْل- بالكسر فهو إتباع الشيء بعضه بعضاً في كل شيء، والإدراك المصدر في أدرك بمعنى فناء الشيء، ومنه قولـــه تعـــالى:﴿بَـــلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾[٤٢].

ثم أورد قراءة الحسن البصري للآية : (بل ادّرك) بصيغة افتعل بمعنى أفعل وتنسب القراءة لعبد الرحمن بن هرمز الأعرج (ت ١١٧هـ) أيضاً، وهي من شـــواذ القراءات عند العلماء[٤٣].

ثم بيّن معنى الفعل في هذه الصيغة بأنه بمعنى: لا علم له، أي لا علم لهم فـــي الآخرة وأدرك علمي فيه مثله، أي لا علم لي، وأراد أن أفعل وافتعل بمعنـــى واحـــد للسلب أي لا علم لهم فيه، ثم استشهد بقول الأخطل لتحقيق ما ذهب إليه، قال[٤٤]:

وأدرك علمي في سواءة أنها تقيم على الأوتار والمشرب الكدر

والصواب عند بعض القراء أن (ادرك علمهم) بمعنى علموا، أن الذي كانوا يوعدون به حقّ، أي هم علماء في قيام الآخرة[٤٥].

وذكر في مادة (حرج) قولهم في الوصف: رجل خرِج وحَرَج - فَعِل وفَعَل- سواء كقولهم دَنِفَ ودَنَف، والحَرَج بمعنى الضيق الصدر ولا عنيف، ومنه قوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾[٤٦]. قال: ويُقرأ : يجعل صدره حَرَجاً وحَرِجاً وقد حَرِج صدره أي ضاق ولم ينشرح للخير[٤٧]. والقراءتان سيّان عند الخليل لم يفاضل في صيغتيهما لسماعهما. وتُنسب قراءة الكسر: حَرِج إلى نافع (ت ١٦٩هـ) وأبي جعفر المدني (ت١٣٠هـ) من القرّاء السبعة[٤٨].

وقد يتخذ الخليل من صورة القراءة دليلاً على اختلاف المعنى ففي مادة - رأى- مثلاً السليقة لم تقل في معنى الاستعطاء إلا أرْنا - بسكون الراء أي أعطينا وفيها معنى الطلب أو الأمر بالمطلوب، قال الخليل: "فإذا استعطيته شيئاً ليعطيكه لم يقولوا إلا أرْنا، بسكون الراء يجعلونه سواء في الجمع والواحد والذكر والأنثى كأنهما عندهم كلمة وضعت للمعاطاة خاصة[٤٩]، ومن الظواهر اللهجية فيها من يفرق فيقول في المذكر أرِني بالكسر وفي المؤنث أريني بالياء التامة. ثم استشهد بقراءة قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾[٥٠].

قال: وقد يُقرأ قوله (أرِنا) بالسكون (أرْنا) على هذا المعنى أي معنى طلب المعاينة بالتخفيف والتثقيل[٥١]، فالتخفيف عنده عدم الحركة لسكون الحرف، والتثقيل حركته، وقراءة السكون (أرْنا) وجدناها عند ابن كثير، وابن عامر، وعاصم من السبعة[٥٢]. وعند غيرهم إتباع حركة الكسر فيها حتى تغدو ياءً (أرِينا) قالوا: أرِني الشيء: عاطنيه. فإن كان اللفظ بمعنى الرؤية للبصر بجارحة العين فليس فيه إلا الكسر باتفاق القراء ومنه قوله تعالى:﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾[٥٣] وقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[٥٤].

وقد تكون القراءة عند الخليل شاهداً على تقارب المعاني وتداخل استعمالها إذا تقاربت مادة حروف مبانيها مثل شعف وشغف، وفرغ وفزع وربما وقع ذلك بسبب من التصحيف، قال في مادة (فرغ): فَرَغ يفرُغ، وفَرِغ يفرَغ فراغاً: بمعنى الخلو وتداخل استعمالها بـ : فزع يفزع قال في قوله تعالى:﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾[٥٥] وقرئ: ((حتى إذ فُرِغَ عن قلوبهم)) بالغين المعجمة أي ذهب الخوف إذ في معنى فزع: خاف وفرّغ- بالغين: ذهب عنه الخوف وفرغ منه[٥٦]. ونُسبت القراءة التي اختارها إلى عبد الله بن عمر والحسن البصري وأيوب السختياني[٥٧].

وربما يستدل بالقراءة على تحقيق قياس نحوي "لأنّ القراءة سنّة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها"[٥٨]. إذ وجّه اختلاف القراءة نحو الموقع الإعرابي في التركيب أو المعنى النحوي للمفردة في الجملة، نحو قوله في مادة (حزن): وفيها لغتان الحُزْن والحَزَن إذا ثقلوا فتحوا وإذا ضموا خففوا، قالوا: أصابه حَزَن وحُزْن شديد فإذا كان في موضع النصب فتحوه وإذا جاء في موضع الجر (الكسر) أو الرفع ضموه[٥٩].

واستشهد على هذه المواضع بقوله تعالى:﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[٦٠]، وقوله تعالى:﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[٦١]- فتحوه لأنه في موضع النصب.

قال: ضموا الحاء هنا لكسر النون وكأنه مجرور في استعمال الفعل[٦٢]، وفي موضع النصب ذكر قوله تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً﴾[٦٣]، وتابعه الراغب (ت ٤٢٥هـ) في أن الحُزن والحَزَن يعني خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيه من الغم وضده الفرح وفيه لغتان[٦٤].

إن هذا العرض المتتبع لمواضع القراءات القرآنية في معجم العين إنما يعني عناية هذا الرجل بعلم القراءات وتمكنه من مباحثه وقد اعتمد أوجه القراءات لإقرار حقيقة مباني الألفاظ إذا ترادف في المرويّ أكثر من وجه للمادة الواحدة، ثم لإيجاد الفروق بين معانيها إذا اختلف المعنى لاختلاف المبنى، وقد اهتم بالشاهد القرآني وقراءته ولم يلتزم رسم المصحف فحسب بل لم يعزُ القراءة لصاحبها وإنما يكتفي بعبارة (وقرئ) مسنداً الفعل للمجهول وقد كشف البحث عن نسبتها لأصحابها.

المبحث الثاني: دراسة تطبيقية في جدلية المبنى والمعنى.

تضافرت جهود اللغويين – ومنهم الخليل – للبحث في المفردة القرآنية المفرزة في النص القرآني لتكون المفتاح لدراسة النص القرآني عامة وبيان إعجازه خاصة، ولا ينكر استعانتهم بأصول لغتهم وخصائص أنظمتها في مستوياتها المختلفة الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي لحل ما انعقد عندهم من ألفاظ أشكلت مبانيها وتداخلت معانيها لإظهار الصواب في فصاحتها وفاعليتها في اللغة، والكشف عن إعجازها البياني ومقوماتها المختلفة والحفاظ على تراث الأمة اللغوي وحمايته ومن ثم فهم كلام الله وتأويله لأنه منهجهم في نواحي حياتهم المختلفة، لقد أدرك هؤلاء أن النظام الصرفي Morphology يقوم على مجموعة من المباني الثابتة تمثل مجموعة من المعاني في صيغ مجردة أو مزيدة لتأدية وظيفة التواصل اللغوي السليم، ومن خصائص هذا النظام تقسيم المباني على وفق عناصر ومكونات اللغة إلى مبان اسمية ومبان وصفية ومبان فعلية، ولكل منها خصائصه التصريفية في التجرد والزيادة وتغيير التشكيل الصوتي داخل البنية لإنتاج أبنية مختلفة، وهذا التغيير يعتمد على الصوائت القصيرة Vowels أو الحركات أساساً في تغيير البنية، فحياة الحرف بحركته وموته بفقدها – على حد قول الأصواتيين– ومهمة هذه الحركات الفونيمية تغيير معاني الجذر اللغوي الواحد تبعاً لتغيير مبانيه، إذ تتقابل الحركات في مباني الألفاظ فتحدث تغييراً واضحاً في معانيها وغالباً ما يحصل تغيير المباني عن طريق المغايرة بين الصوائت القصيرة على وفق تبادل منسق يخضع لثوابت النظام وأسلوبه في تركيب الأصوات، ويعرف بنظام تعاقب المصوتات (أو التحول الداخلي) ويعدّ هذا التبادل في إنصاف أحرف العلة (الضمة والفتحة والكسرة) المنبع السهل الذي تستعين به اللغة لتستحدث من أصولها الثلاثية ثروة هائلة من المفردات[٦٥]. ففي كل كلمة يتوافر عنصر ثابت هو الجذر المعجمي المكوّن من مجموعة من الصوامت مرتبة في نسق معين وعنصر متغير هو مجموعة الحركات التي تحدد الصيغة ومعناها[٦٦].

والعربية تضم في نظامها الصرفي – البنائي– مجموعة من صيغ الأسماء

الثلاثية الثابتة في النظام مستخلصة من الاستقراء اللغوي العام وتحليله، وأول ما يتبادر للباحث أن الحدّ بين استعمال هذه المباني للاسم المجرد أو اسم الذات أو صفته ليس بيّنا في استعمالها فالصيغة الواحدة قد تنتج أسماء أعيان وأسماء معان وصفات والمشهور الثابت منها عشر صيغ تكوّن صورها على النحو الآتي:

١- فَعْل نحو سَهْل وسَهْم.
٢- وفَعَل نحو قَمَر وبَطَل.
٣- وفَعِل نحو كَتِف وحَذِر.
٤- وفَعُل نحو عَضُد وخَلُط.
٥- وفِعْل نحو حِمْل ونِكْس.
٦- وفِعَل نحو عِنَب وزِيَم.
٧- وفِعِل نحو إبِل وبِلِز.
٨- وفُعْل نحو قُفْل وحُلْو.
٩- فعَل نحو مُرَد وحُطَم.
١٠- وفُعُل نحو عُنُق وسُرُح.

وزاد المسموع اللغوي عليها صيغتي فُعِل نحو ذُئِل ورُئِم وفِعُل نحو حِبُك ولم يسمع فيها أكثر من هذا ولأجله كثر الجدل بين الصرفيين في إقرارها(٦٧).

وفي تتبعنا هذه الأمثلة – التي اخترناها أنموذجاً تطبيقياً– وهي جزء من عمل واسع يشمل جميع الصيغ في النظام العربي، وجدنا أن اللفظ الواحد له أكثر من صورة بأثر من اختلاف أوجه القراءات إذا ما كانت ألفاظ القرآن الاسمية المجردة على هذه الصيغ وقد وقف الخليل عند هذه الألفاظ وهو يُحصي مفردات اللغة وقد أعطاها حدوداً دلالية وفروقاً معنوية تبعاً لتغيير صورتها أو يعزوها إلى التداخل اللهجي وتعدّد طرائق الاستعمال أو المشاكلة في أصناف الكلام كالتداخل الصيغي بين الاسم والمصدر أو الاسم والوصف أو المصدر والوصف أو العدول عن واحد منهما إلى الآخر. مما يؤكد – ما قدّمناه سالفاً– من براعة هذا العالم في اللغة من ناحية وتمكنه من علم القراءات من ناحية أخرى.

والسؤال الذي استوحيناه من مادة العين العلمية، هل كل تغيير في البنية بأثر من اختلاف القراءة يصاحبه اختلاف في المعنى؟ وإجابة الخليل على هذا قد انقسمت إلى قسمين:

الأول: اختلاف في الشكل (تحول داخلي) في اللفظ من غير اختلاف في المعنى.

الآخر: اختلاف في الشكل (تحول داخلي) في اللفظ لاختلاف المعنى.

وسؤالنا في العرض أيّ القراءات ستكون مجالاً للاختيار والتطبيق؟ وجوابنا أن في علم القراءات ومصادره ألفينا عبارة مشهورة نحو : (القراءات السبع) و(القراءات العشر) و(القراءات الأربع عشرة) . وأحظى الجميع بالشهرة ونباهة الشأن وعلوه القراءات السبع وهي القراءات المنسوبة إلى أئمة القراءة السبعة المعروفين وهم:

١- عبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبي (ت ١١٨هـ).
٢- عبد الله بن كثير بن عمرو المكي (ت ١٢٠هـ).
٣- أبو بكر عاصم بن أبي النجود الكوفي (ت ١٢٧هـ).
٤- أبو عمرو بن العلاء البصري المازني (ت ١٥٤هـ).
٥- حمزة بن حبيب بن عمارة الكوفي (ت ١٥٦هـ).
٦- نافع بن عبد الرحمن بن أبي النعيم (ت ١٦٩هـ).
٧- أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩هـ).

وقد كانت قراءة هؤلاء في المجال الذي اخترناه لعزو القراءة إلى أصحابها مما لم يعزه الخليل، والملاحظ أن هؤلاء القرّاء جميعاً قد عاصروا الخليل أو يكون الخليل قد لاقاهم مشافهة وسمع عنهم ولاسيما قرّاء البصرة والكوفة والحجاز، وقد جمع الإمام ابن مجاهد، أحمد بن موسى (ت ٣٢٤هـ) قراءة هؤلاء السبعة بظواهرها اللغوية المختلفة "وأخذ على نفسه ألاّ يروي إلا عمّن اشتهر بالضبط والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة واتفاق الآراء على الأخذ عنه والتلقي منه"[٦٨].

وقد اتخذنا من صور القراءات عند هؤلاء القرّاء مجالاً للموازنة بين اختيار الخليل لهذه الصور والدلالات المرتبطة بها وتعليله لها بحسب قياس اللغة ونظام

استعمالها، ولكن هذا لا يعني أن الخليل قد أهمل قراءة غير هؤلاء السبعة بل نجده يستشهد بقراءة ابن عباس (ت ٦٨هـ) وعبد الله بن مسعود (ت ٣٢هـ) ويحيى بن يعمر (ت ٩٠هـ) وزيد بن علي (ت ١٢٢هـ) والحسن البصري (ت ١١٠هـ) وغيرهم.

القسم الأول: التحول الداخلي من غير اختلاف المعنى

- بين فعْل وفِعْل:

الاستبدال الفونيمي بين الكسرة والفتحة مع سكون عين البناء، ومما ذكره الخليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾[٦٩].

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بن العلاء ونافع (السَّلْم) في صيغة فَعْل، وعليها رسم المصحف، وقرأ حمزة وأبو بكر وعاصم (السِلْم) في صيغة فِعْل[٧٠].

وعقّب الخليل بقوله: السَّلْم ضد الحرب ويقال: السَّلْم والسِّلْم واحد[٧١] من غير فارق دلالي بين اللغتين ومنه قول الأعشى[٧٢]:

أذاقَتْهُم الحرب أنفاسها وقد تُكْرَهُ الحرب بعد السِّلْمِ

وتحققت صورة الفتح باتفاق أغلب القراء السبعة في قراءة قوله تعالى:﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[٧٣] ، وعليها رسم المصحف وهذا الاختلاف في قراءة الكلمة يؤكد صواب اختيار الخليل في ترادف الصيغتين في الاستعمال.

- بين فُعْل وفُعُل:

الاستبدال الفونيمي بين الضمة والسكون في عين البناء. وجاء هذا في قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ﴾[٧٤].

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم: (الرُعْب) بصيغة فُعْل وتابعهم الجمهور وعليها رسم المصحف، وقرأ ابن عامر والكسائي: الرُعُب بصيغة فُعُل مثقلة حيثما وردت في القرآن[٧٥]. قال الخليل عنها: الرُعْب الخوف، وتصريفه: رَعَبتُ فلاناً رُعْباً ورُعْبا فهو مرعوب ومُرْتَعِب أي : فزع[٧٦]. واستعمال الصيغتين عند الخليل واحد إلا أنه قدم المخفف أولاً. وعدّ الرُعْبَ بضم فسكون اسماً للحدث، والرُّعُبُ بالفتح صيغة ثالثة لشدة صوت الفزع، وأنشد قول الشاعر:

ولا أجيب الرُّعْبَ إذا دُعيتُ(٧٧)

وجاء في اللهجات أن بعض بني تميم وبكر بن وائل تميل إلى تخفيف الصيغة إن لم يؤثر تخفيفها في المعنى نحو قولهم عُنْق وعُنُق وكَرْمَ الرجلُ في كَرُمَ الرجلُ وهكذا في ألفاظ أخرى(٧٨).

وهذا دليل على أن اللهجات العربية تعد مورداً مهما من موارد العين، وكلّ من قرأ حياة الخليل عرف أنه أخذ اللغة عن قبائل العرب الفصيحة في نجد والحجاز وتهامة وإن لم يصرح بأسمائها أحياناً(٧٩).

ونألف التوجيه نفسه في مفردات أخرى من النصّ القرآني، نحو قوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(٨٠).

قرأ السبعة سُحْقاً بضم فسكون وعليها رسم المصحف باستثناء الكسائي إذ قرأ سُحُقاً مثقلة بضمتين، قال الجزري: "وأما الكسائي فروى المغاربة له قاطبة الضم من روايتيه وكذلك أكثر المشارقة"(٨١).

وتعليق الخليل: السُحْق على صورة فُعْل بضم فسكون لغة أهل الحجاز يجعلونه اسماً، والمصدر السَحْق – بفتح وسكون – وهو البُعد، وسُحْقاً في نص الآية مصدر منصوب على المصدرية للدعاء عليه أي: أبعده الله وأسحقه، وسُحُق بضمتين جمع سَحُوق، للأتان الطوال السمان(٨٢). في هذا التعليق ميّز الخليل بين استعمال المصدر والاسم إذا خصّ الضم والسكون فُعْل سُحْق للمصدر، وفي الاسم هو لهجة أهل الحجاز، وتتابع الضمتين صيغة للجمع أبعد ما تكون في معناها في سياق النصّ.

ومما وقف عنده الخليل معلقاً ما جاء في قراءة قوله تعالى:﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾(٨٣).

قرأ عاصم وحمزة: عُقْبا، بضم فسكون وعليها رسم المصحف، وقرأ بقية السبعة: عُقُباً مثقّلة(٨٤). وذهب الخليل إلى أن (عُقُب) بضمتين جمع عاقب بلا هاء، وهو كل شيء آخره، ويقال فيه أيضاً عاقبة وعواقب وعُقَب. والعُقْب مخففة المصدر، وقال: وأعقب هذا الأمر يُعقِب عُقْباناً يعني أواخره، وأعقبه الله خيراً منه والاسم العُقْبى وهي العوض والبَدَل(٨٥)، وهذا يعني أن الخليل قد عدّ الضم

والسكون فُعْل هو المناسب لسياق الآية والمختار من أوجه القراءات لأنه في موضع التمييز المنصوب أي المصدر، والعُقُب بضمتين اسم للجمع وما ختم بألف التأنيث للاسم : العُقبى، والتخفيف أكثر دوراناً على الألسنة لأنه اسم الحدث، يظهر في لهجة هُذيل ومنه قول شاعرهم(٨٦).

فإن كُنْتَ تشكُو من خليل مخافةً فتلك الجوازي عُقْبها ونصورُها

ونلحظ التوجيه نفسه في مادة (نكر) في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً﴾(٨٧) قرأ الجمهور: نُكْر- في صيغة فُعْل ، وعليها رسم المصحف، وقرأ ابن عامر وعاصم- في رواية عنه- نُكُر- في صيغة فُعُل بضمتين وفي كل مواضعها من القرآن(٨٨).

قال الخليل: النُكْر- فُعْل، الدهاء أي المصدر، والنُكُر - فُعُل- نعت للأمر الشديد قالوا: فَعَلَهُ من نُكْرِه أي دهائه، والنُكْر أيضاً يُنقل للوصف فيكون بمعنى المُنكر، والرجُلُ النُكْر: الداهي الذي يأتي بالمُنكر، فالنُكْر للفاعل والمفعول في الوصف. والنُكُر- فُعُل نعت للأمر المُنكر أي المادة المُنْكَرة(٨٩). وهذا التناوب بين الحركة والسكون في حشو المادة الثلاثية يؤكده العلماء من بعد الخليل وهو مما دأب عليه النظام الصوتي ومن ثم الاستعمال اللغوي، قال الأخفش (ت ٢١٥هـ) "كل اسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم فمن العرب من يثقّله ومنهم مَنْ يُخفّفه نحو اليُسْر واليُسُر وهي كثيرة وبها نقرأ"(٩٠).

ويظهر هذا الاستبدال الفونيمي في صيغة الجمع السالم أيضاً فيكون فارقاً في الدلالة على صيغة الاسم المفرد الذي جُمع على هذا التشكيل الصرفي نحو قوله تعالى:﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾(٩١). قرأ ابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم (خُطُوات) بضمتين – وعليها رسم المصحف، وقرأ الباقون ومنها قراءة ابن كثير: خُطْوات – بسكون الطاء مخففة(٩٢).

وتوجيه الخليل أن الاسم المفرد خُطْوَة فُعْلَة والجمع السالم خُطُوات بضم الطاء والجمع المكسر: خُطى فُعَل لاعتلال المفرد مثل زُبية وزُبى ومُدْية ومُدًى، أما الخَطْوة بفتح الخاء فللمرة الواحدة – اسم المرة – ثم استشهد بالآية نفسها، وتابع القول: ومَنْ خفّف قال: خُطْوات أي آثار الشيطان لا تقتدوا به(٩٣)، ومعنى هذا

التعقيب أنه أجاز الوجهين على سنن العربية في التخفيف ومفردها في صيغة واحدة لا غير ثم نبّه على الفرق بين الاسم المفرد واسم المرة – صيغة ثابتة في الاشتقاق الصرفي– ومن سُنن العربية جواز ثلاث حالات في عين الجمع المؤنث السالم: الضم والفتح والسكون إذا كان المفرد مضموم الفاء زُهْرة زُهُرات، زُهْرات، زُهَرات(٩٤).

- بين فُعْل وفَعَل:

من الملاحظ المنهجية في (العين) أن الخليل لم يذكر معنى الكلمة إذا كان عاماً مستعملاً وذا دلالة واضحة مألوفة لدى المتكلم ويكتفي بأنه – معروف – منبّهاً على اختلاف المبنى فحسب، من ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾(٩٥)، قرأ حمزة والكسائي وعاصم (بالبَخَل) بفتحتين هنا وفي سورة الحديد، الآية ٢٤.

وقرأ الجمهور: بالبُخْل– بضم فسكون–(٩٦). وتعليق الخليل في الإجراء الصرفي قال: بَخِلَ بَخَلاً وبُخْلاً فهو بخيل، والبَخْلَة بُخْل المرة والواحدة(٩٧).

فالخليل ذكر في مصدره صيغتين مسموعتين إلا أنّ الضم أشهر وهو المختار عنده فالبُخْل ضد الكرم واسم المرة صيغة ثالثة فيه لأنه مصدر لا يُجمع، وذهب علماء القراءة إلى أن فيه لغتين مسموعتين قُرئ بهما، وصيغة فَعَل بَخَل لغة الأنصار في مكة وعنهم اشتهرت. ولم يختلف تصريفها عند المعجميين عن تصريف الخليل قال ابن منظور: وقد بَخِل بُخْلاً وبَخَلاً فهو باخل ذو بُخْل والبَخْل والبُخُول: ضد الكرم ورجل بَخَل وُصف بالمصدر(٩٨).

وتحقق القول في قوله تعالى:﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾(٩٩). قرأ حمزة والكسائي: حَسَناً بفتحتين وعليها قراءة الأعمش (١٤٨هـ) وخلف بن هشام (ت ١٣٠هـ)، وقرأ الباقون (حُسْنا) بضم فسكون وعليها رسم المصحف(١٠٠).

وليس عند الخليل إلا صيغة (فَعَل) وصف ثابت للموصوف إذْ ذَكَر حَسُن الشيء فهو حَسَن واسم الموضع منه المحْسَن بصيغة القياس مَفْعَل وجمعه محاسن، وفي الوصف المبالغ حسناء وحَسّان وحُسّان مثل رجل كُرّام. أما الحسنى فهو اسم

مؤنث بالألف للجنة ومنه قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَـادَةٌ﴾[١٠١] قـال: الحُسنى الجنة وهي ضد السوْى[١٠٢]. نصل من هذا إلى أنّ الخليل لم يأخذ بقـراءة العامة (فُعْل) حُسْن لضد القبح ونقيضة أو ضد السوء، واختار الوصف فَعْـل فـي سياق الآية، ويرى اللحياني (ت ٢٠٢هـ) أن الحسن وصف يريد به الحال. والحاسن يريد به المستقبل، أي قولوا الشيء الحَسَن في حال الخطاب، الآن[١٠٣].

- بين فعْل وفُعْل:

التداخل بين صيغتي فَعْل وفُعْل بسبب من حرص العربيـة علـى الابتـداء بمحترك فجرى الاستبدال الفونيمي على الحرف الأول بين الفتحة والضمة، واطرد بناء (فَعْل) في مصدر كل فعل ثلاثي لم يسمع مصدره في مـروي اللغـة لخفتـه وشيوعه في لهجة أهل الحجاز ومن جاورهم[١٠٤]. ومنه ما جاء في لفظـة سُـوْء وسَوْء في قراء قوله تعالى: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾[١٠٥].

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بن العلاء: (السُوْء)، فُعْل بـضم فـسكون، وقـرأ غيرهما من السبعة السَوْء – فَعْل– وعليها رسم المصحف[١٠٦].

ويرى الخليل أن السَوْء، بالفتح، نعت لكل شيء رديء وتصريفه، ساء يَسُوء سَوْءاً وساء الشيءُ فهو سيّء: قَبُح، لازم، واستاء – افتعل، من السَوْء – المزيـد– وبمنزلة اهتم من الهمّ، والسُوْء: اسم جمع للآفات والدّاء.

فالأصل في السَوْء عند الخليل المصدر وفعله الأجوف ساءَ والمزيد اسـتاء، والسُوْء اسم جمع لا مفرد له من لفظه يشمل الآفات أو الداء وكل ما قَبُح ورُفض، ويكنّى بالسُوْء عن البرص في معنى الجمع[١٠٧]، ومنزلة التداخل بينهمـا وصـفهم بالمصدر قالوا: رجل سَوْء في النكرة، وهذا الرجل الـسُوْء فـي المعرفـة بنقـل المصدر إلى الصفة أما اسم الجمع فلم يوصف به، وهذه الدقة في الدلالة والبيان لم تتأصل عند القارئ على الرغم من فصاحته فأجاز لنفسه الوجهين.

ومثله يقال في تعليق الخليل على قراءة قوله تعالى:﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾[١٠٨].

إذ قرأ نافع وعاصم وحمزة – شُرْب– فُعْل بضم وسـكون وعليهـا رسـم المصحف وقرأ ابن كثير وابن عامر والكسائي : شَرْب – فَعْل بفتح وسكون[١٠٩].

وأجاز الخليل القراءتين من غير مفاضلة أو فرق صيغي، قال: شَرِبَ شَرْباً وشُرْباً وزاد عليهما: الشِرْب- بالكسر- لوقت الشُرْب، وقد يُستعمل المصدر الميمي بدلهما المَشْرَب للشُرب نفسه ويكون اسماً لموضع الشُرْب(١١٠).

- **بين فُعُل وفَعَل:**

وهذا ما ندر تناوبه في الاستعمال لاختلاف الصائتين القصيرين اختلافاً تاماً وجاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾(١١١). قرأ أغلب السبعة وتابعهم الجمهور (في عَمَد) بفتحتين وعليها رسم المصحف ونقل الفرّاء (ت ٢٠٧هـ) عن حمزة والكسائي قراءتهما : (في عُمُد) بضمتين(١١٢).

وتعليق الخليل: قوله في عُمُد أي شبه أخبية من نار ممدودة ويُقرأ: عَمَد لغة فيها والعُمُد والعَمَد جماعة عَمُود، وعَمَد بمنزلة أديم وأدَم، وعُمُد بمنزلة رَسُول ورُسُل(١١٣). واضح من تعليق الخليل أن الصيغتين واردتان في أبنية جمع التكسير وإنْ اختلفتا في قياس مفردهما على فَعِيل وفَعُول المزيد بحرف مدّ قبل آخره، وهي أوتاد أطباق على أهل النار.

- **بين فَعْل وفَعَل:**

لمسنا الاستبدال الفونيمي بين الحركة وعدمها عند القُرّاء في قراءة قوله تعالى:﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾(١١٤). قرأ نافع وأبو عمرو بن العلاء (الرَهَب) بفتحتين، خلاف رسم المصحف، وقرأ جميع القرّاء بلا خلاف قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾(١١٥)، بالفتح (رَهَباً)(١١٦)، وبذلك تحققت صورتان، الأولى مختلف فيها بين القُرّاء ورسم المصحف، والأخرى متفق عليها.

ويتضح من تصريف الخليل أنّهما لغتان إلا أن الساكن العين تلحقه التاء في اسمه قال رَهِبْتُ الشيء أرهبه رَهَباً ورَهْبَةً أي خفته، والرَّهْب لغة في الرَّهَب للخوف والفزع ومنه قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾(١١٧)، وليس فيه معنى المرة بل مصدر صريح أكثر استعمالاً مما تجرد من التاء(١١٨). وملحظ التداخل عندنا

مرجعه قياس اللغة، إذ اطّرد في بناء (فَعِلَ) المتعدي أن يكون مصدره فَعَل ولـذلك مثّل له الخليل بقوله: رَهِبْتُ الشيء، ليدل على تعديه فإن كان فَعِل لازمـاً فقيـاس مصدره فَعَل سواء أكان صحيحاً أم معتلا نحو فرِح فَرَحا وعَوِرَ عَوَرا، فالتـداخل بين الأثر النحوي الذي يُحدثه الفعل كان السبب في اختلاف تقدير مصدره.

- **بين فعُل وفعِل:**

ظهر الاستبدال الفونيمي بين الضمة والكسرة على فاء الكلمة مـع الحفـاظ على الحشو ساكناً في قوله تعالى:﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[١١٩]، قرأ حفص عن عاصـم : الرُجْز- فُعْل وعليها رسم المـصحف، وقـرأ غيرهمـا (الرِجْـز) فِعْـل بكـسر فسكون[١٢٠]، قال الخليل: الرِجْز العذاب، وكل عذاب أنزل على قوم فهـو رِجْـز، ووسواس الشيطان: رِجز، واسم الشرك كله رِجز.

وقُرئ الرُجز والرِجز وهما واحد يُراد بهما الصنم[١٢١]، يظهر مـن تعليـق الخليل أنّ الرجز بالكسر العذاب واسم يطلق على كل شرك لله في العبادة فإن كان في معنى الصنم حصراً أي في ترك المعبود من الأصنام لا غير ففيه لغتان وهـو مناسب سياق الآية.

نكتفي بهذا العرض لتوضيح المنهج الذي التزمه الخليل في ذكر أوجه القراءات، وإن كان لا يذكر أنها قراءة أو أنها من ألفاظ القرآن ويكتفي بـذكر صـيغة المجهـول (وقُرئ) من غير التصريح باسم القارئ أو تخطئته لأنّ القارئ ابن بيئته ويقرأ بلهجتـه وبما تُملي عليه فصاحته، قال ابن جني في باب (اللغات): اعلم أن سعة القيـاس تُبـيح لهم ذلك ولا تحظره عليهم لأن لكل واحد من القومين ضرباً من القياس يؤخذ به ويُخلد إلى مثله وليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها لأنهـا ليـست أحـق بـذلك مـن رسيلتها... وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العـرب مـصيب غير مخطئ[١٢٢]. ويحرص الخليل في كثير من المواضع على ذكر تـصريف الكلمـة ليصل في النهاية إلى تداخل الأبنية في الاستعمال بسبب السماع والرواية وقـد يُـرجح أحد الوجهين أو لا يختار بينهما.

وهنا أُحيل القارئ إلى مجموعة من ألفاظ الذكر الحكيم التي توافر فيها صيغتان من صيغ النظام الصرفي وقد أفرز الخليل صورتيهما معللاً تداخلهما في الاستعمال من غير اختلاف في المعنى أو بسبب نقل الاستعمال بين عناصر الكلام الاسمية والوصفية والمصدرية نحو:

- بين فَعْل وفَعِل في نَحْس ونَحِس، و وَرْق و وَرِق(١٢٣).
- بين فَعَل وفَعِل في إِثْر وأَثَر(١٢٤).
- بين فُعْل وفِعْل في أُصْر وإِصْر(١٢٥).
- بين فُعْل وفِعَل في رُحْم و رِحَم(١٢٦).
- بين فِعَل وفَعَل في حِرَج وحَرَج، ونِكَد ونَكَد(١٢٧).
- بين فُعَل وفِعَل في الجمع، لُبَد ولِبَد(١٢٨).
- بين فِعْل وفِعَل في قِطْع وقِطَع(١٢٩).

القسم الثاني: التحول الداخلي الصيغي لاختلاف المعنى.

من مناهج العربية في إثراء اللغة ونموّها واتساعها تغيير الحركات داخل الوحدة الصرفية في الأسماء والصفات والمصادر، وبذلك أصبح للحركات الفتحة والضمة والكسرة أو عدمها (السكون) الأثر المباشر في تحديد العلاقة بين اللفظة ومعناها ودراستنا لتبادل مواقع الحركات داخل البنية، لا يعني أننا نهدف إلى خلق عناصر صرفية بل الكشف عن أهمية نسبة التبادل في المواقع واختلاف الصيغ في خلق المعاني المختلفة لتخلع على المادة اللغوية قيماً صرفية دلالية من غير تجزئة المادة اللغوية الواحدة في ترتيبها المعين إلى أجزاء أصغر منها أو أكبر بالنقص أو الزيادة لأن التجزئة تؤدي إلى الإخلال في المبنى ومن ثم إفساد في المعنى الأصلي للجذر في أصل الوضع(١٣٠).

وهذه الخصائص في نظام اللغة قد أعانت الخليل كثيراً في توجيه القراءات لغوياً إذا ما اختلفت صور أدائها الصرفي في هدي من جدليّة العلاقة بين المبنى والمعنى أو اللفظ ومعناه، ولا يخفى ما قدمناه من علم الخليل في اللغة عامة وعلم القراءات خاصة قد ساعده على اختيار المعنى المناسب للفظ في سياق الآية أو في

نظام التركيب اللغوي وبنيته على الآخر من غير أن يلزم على تركه. وإليك المجال التطبيقي في (العين) حصراً.

- بين فَعَل وفُعُل:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[١٣١].

قرأ حفص عن عاصم وحمزة والكسائي: "سَدّاً" مفتوح السين في الموضعين، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: (سُدّاً) مضموم السين في الموضعين خلاف رسم المصحف[١٣٢]. قال الخليل في المادة اللغوية مشيراً إلى هذا الخلاف وافتراق الدلالة: السدود والسّداد تتخذ من قضبان لها أطباق، والواحد سَدّ – فَعْل– والسِّداد، الاسم الشيء الذي تُسد به كوة أو منفذاً والواحد سَدَ أيضاً، والسَدُّ – المصدر – ردّ الثلمة سَدّ يسدّ سدّاً، وانسدّ اللازم للمطاوعة.

أما السُدّ – فُعْل– فهو من السحاب الذي يسد الأفق، والسُدّ: الجراد، قطعة منه سَدّت الأفق[١٣٣].

نستنتج من هذا أنّ الخليل قد فرّق بين صيغ الجمع إذا اتفقت صورة المفرد واختلف معناهما: السُدود والسِداد، ثم نبّه على صورة المصدر ومشاركتها للاسم المفرد وفضل استعمال مطاوعة الفعل انسدّ ليكون المصدر انسداد قياساً للفرق بين الاسم والمصدر، وأما صيغة (فُعل) بالضم، فلها دلالة مختلفة تماماً لا تناسب سياق الآية، في حين يرى غيره من المعجميين كابن منظور (٧١١هـ) –مثلاً– أن السُدّ والسَدّ واحد ويكون في الجبل أو الحاجز وفي المصدر بمعنى الإغلاق وردم الثلم أو المانع بين شيئين من غير فرق بين استعمال الصيغتين[١٣٤]، وهو الذي أُلبس على بعض القرّاء وأجاز لهم القراءة بهما ولم يقبله الخليل إلاّ بوجه واحد.

ومنه ما جاء في قوله تعالى:﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾[١٣٥].

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بن العلاء وابن عامر (قَرْح) بفتح القاف عليها رسم المصحف، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي (قُرْح) بضم القاف في جميعهن[١٣٦].

ويرى الخليل أن: القُرْح يكون في الجسد من عضّ السلاح ونحوه مما يجري

فيه. وفي الوصف: أنه لقَرْحٌ قَريح، وقُرِحَ قلبُه من الحزن، وبه قَرْحَة دامية، فالقُرْحُ والقِرْحُ ما يكون من أثر في الجسد، والقَرْح – بالفتح– جَرَب يأخذ الفصلان لا تكاد تنجو منه، يقال فصيل مقروح(١٣٧).

نخلص من هذا إذا كان المعنى من أثر في الجسد فالسياق يفضل الضم (قُرْح) وأما الفتح القَرْح فلا يكون إلاّ في داء يُصيب الإبل لذلك حرص على أن يكون وصفه في صيغة المفعول لأنه داء يُصيبها على غير إرادتها في الفعل.

وذهب بعده العلماء منهم (ابن السكيت) (ت ٢٢٤هـ) إلى أن القَرح ألم الجراحات وأصابه القَرح من الحزن مجازاً. والقَرْح المصدر، قَرِحَ يَقْرَحُ قَرْحا كناية عن ما ينال الإنسان من القتل والهزيمة، ويرى الآخر أنهما لغتان صحيحتان كالجُهد والجَهْد والوُجْد والوَجْد(١٣٨).

-بين فِعْل وفَعْل:

مما تداخل فيه استعمال الصيغتين فِعْل وفَعْل لعدم ملاحظة افتراق دلالتهما المستوحاة من السياق نحو قراءة قوله تعالى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً﴾(١٣٩).

نقل الزجاج (ت ٣١١هـ) وأبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠هـ) عن بعض القُرّاء السبعة – من دون التصريح بأسمائهم – قراءتهم (مِلْء) – فِعْل– بكسر فسكون– وقرأ بعضهم: مَلْء – فَعْل– بفتح فسكون خلاف رسم المصحف(١٤٠).

أما الخليل فقد عدّ المِلْء – من الامتلاء أي المصدر، والمِلْء الاسم منه أي المقدار والكيل، وفي الوصف: مَلآن للثبوت، في الوصف ومملوء للموقت، وفيه مُمْتَلئ من امتلأ، ومَلِئ من مَلأ فالتمييز عند الخليل قائم على الفرق بين الاسم ومصدره ولفعله ثلاث صيغ مَلِئ وامتلأ ومِلْء وقد خطّأ الزجاج من ساوى بين القراءتين في هذي من قول الخليل لأنّ المِلْء المقدار الذي يُمْلأ أي يُتخذ مقداراً للكيل، والحجم الذي يأخذه كالإناء والصاع وغيرهما من أدوت المقدار. والمَلْء – بالفتح– المصدر، مَلأتُ الشيء مَلْأً فهو مملوء وحَسَنُ المَلْء(١٤١).

ومنه قوله تعالى:﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾(١٤٢).

قرأ بعض السبعة (وِقْراً) فِعْل، وهي قراءة طلحة بن الزبير أيضاً، وعدها ابن خالويه (٣٧٠هـ) من شواذ القراءات، وقرأ غيرهم (وَقْراً) فَعْل وعليها رسم المصحف(١٤٣).

ونص الخليل على فرقهما المعنوي في أصل الوضع، الوَقْر لثقل في الأذن، تقول وَقِرَتْ أذني عن كذا تَقِرُ وَقْراً : إذا ثقلت عن سمعه، فالوَقْر أشبه ما يكون باسم للداء عند الخليل. ومن شواهده:

وكلام سيءٍ قد وَقِرتْ أذني عن سمعه وما بي صَمَمُ(١٤٤)

والوِقْر – فِعْل – اسم للحِمْل، منها حِمْل حمار، وحمل برذون، وحمل بَغْل يقابل الوَسْق لحمل البعير، تقول: أوقرته أي حملت عليه، ونخلة موقرة حَمْلاً أي حاملة حِمْلاً أو وِقْراً(١٤٥). من هذا نكشف عن فكر الخليل إذ ميّز بين معنى اللفظين واختار الفتح (وَقْرا) للقرينة اللفظية (أذن) إذ خصّ هذا الداء بها، ولأجله عدّ علماء القراءة صورة (وِقْر) فِعْل بالكسر من الشواذ لافتراقها عن المعنى السياقي. ومما يُذكر للخليل في هذا المقام، قراءة قوله تعالى:﴿مَا أُخْلِفْنَا مَوْعِدَكَ بِمِلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾(١٤٦).

قرأ نافع وعاصم (مَلْكِنا) بفتح الميم وسكون اللام (مَلْك) فَعْل وعليها رسم المصحف، وقرأ غيرهما (مِلْكِنا) بكسر الميم وسكون اللام، مِلْك، فِعْل، وقرأ حمزة والكسائي (مُلْكِنا) بضم الميم وسكون اللام، فُعْل(١٤٧). واختيار الخليل وتوجيهه على النحو الآتي:

– مُلْك، فُعْل: بالضم، اسم خاص بدلالته الإسلامية لله وحده، أي سلطانه فهو له المُلْك، له السلطة وحده وهي له. وفي الوصف يضاف: مُلْك الله أي المالك فهو فُعْل بمعنى فاعل، للدلالة على عظم ملكه وكبره والمُلْك سلطان الملك في رعيته.

– المَلْك– فَعْل، وصف مشتق لما ملكت اليد من مالٍ وخَوَلٍ، وصف لكل شيء موجود في اليد حصراً، ملكته اليد وتحت تصرفها من كلّ شيء.

– المِلْك – فِعْل: إقرار العبد بالملكة، أو بالملوكة، فهو وصف للإنسان إذا ملكهُ غيره،

والعَبْدُ ملْك أي مملوك فعْل بمعنى المفعول وإقرار المالك بملوكة غيره، وإقرار العبد بملوكته لغيره(١٤٨).

وبذلك كشف الخليل عن دقة الفرق الدلالي بين الألفاظ لاختلاف مبانيها والأنسب في سياق الآية قراءة نافع وعاصم (مَلْك) فَعْل لأنه خطاب من العبد بأنه لم يخلف وعد الله بكل ما ملكت يده من مال وجاه. أما المُلْك فهو وصف مخصّص الدلالة لسلطانه سبحانه ومن أسمائه الحُسنى ، والمِلْك كذلك لا يكون إلا في امتلاك العبد من البشر مما حرمه الإسلام.

- بين فُعْل وفُعُل:

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾(١٤٩).

قرأ السبعة (قُدُس) بضمتين وتابعهم جمهور القُرّاء وعليها رسم المصحف. وقرأ ابن كثير وحده (قُدْس) بضم فسكون في جميع مواضعها في النص القرآني(١٥٠).

وهي عند الخليل في صيغة واحدة فُعْل، قُدْس مصدر بمعنى التنزيه، أي تنزيه الله والوصف منه صيغة مبالغة سماعية قُدّوس فُعّول، واسم المفعول المُقدّس أي فعله قَدّس(١٥١).

أما اللغويون فقد اختاروا فيها الصيغتين التخفيف والتثقيل قُدْس قُدُس، مثل طُنْب وطُنُب، بمعنى العظمة، أو الطهارة أو ما يُنزل من الله ليطهّر به النفوس من القرآن أو الحكمة، أو الفيض الإلهي(١٥٢). أي فيها معنى المصدر أو الحدث وهو التنزيه، وفيها معنى الوصف وهو كل ما ينزل من الله ليطهر النفس البشرية. والخليل اختار فيها صيغة واحدة (فُعْل) قُدْس ولم يسمع غيرها وهي التي قرأ بها ابن كثير ولم يُشر إلى غيرها بل أشار إلى الإجراء الصرفي في اشتقاقها وهو ردّ على من أنكر أن تكون فيها لغة فُعْل مخففة وعليه مراجعة نصّ العين واختياره لمباني الألفاظ(١٥٣).

بل يختار الثقيل (فُعُل) في مفردة أخرى، نحو (نُكْر) و(نُكُر) في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾(١٥٤) وقوله: ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾(١٥٥).

وقرأ السبعة في سورة القمر (نُكُر) في صيغة فُعُل، وقرأ ابن كثير وحده (نُكْر) – خفيفة على نحو ما جاء في (القُدْس).

وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم في سورة الطلاق (نُكُر) ثقيلة، وقرأ فيها ابن كثير وحمزة والكسائي (نُكْر) خفيفة[١٥٦].

وليس في اللفظ ومعناه عند الخليل إلا الوصف الثقيل (نُكُر) – فُعُل– وهو نعت للأمر الشديد جيء به مثقلاً لشدة الأمر[١٥٧]. ولم يسمع فيها صيغة (فُعْل) الخفيفة التي قرأ بها بعض القرّاء وعزف عن ذكرها.

نلحظ أن اختيار الخليل قائم على مروي اللغة من جهة، والمناسبة بين اللفظ ومعناه، إذ في توالي الضمّ ثقل في البناء تناسبه الدلالة على معنى الشدة والصعوبة والقوة في الموصوف. ونقل ابن جني عن الخليل قوله: "كأنهم توهموا في صوت الجُنْدُب استطالة ومدّا فقالوا: صرّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرْصرّ ... فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال"[١٥٨]. وهذا دليل يقرّه الخليل ومن بعده من العلماء أنّ من خصائص اللفظ إحْساس أشباه المعنى أو المعنى نفسه.

وفي قوله تعالى: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾[١٥٩].

قرأ السبعة: (نُزُلهم) بصيغة فُعُل، وهي قراءة اليزيدي (ت٢٠٢هـ)، وعليها رسم المصحف، وانفرد أبو عمرو بن العلاء بقراءة التخفيف (نُزْلُهم) – فُعْل–[١٦٠]. واختيار الخليل يتجه نحو مناسبة اللفظ لسياق النصّ في الآية فالنُزُل: – بضمتين– ما يُهيّأ للقوم والضيف إذا نزلوا مكان ما وهو المراد من سياق النص، أما النُزْل – مخففة، فهو ريع ما يزرع[١٦١]. ويحتمل النص مجازاً على تأويل هذا جزاء ما فعلوا في الدنيا، كما يحصل المزارع ريع زرعه. لكن الخليل خص كل لفظ بمعناه المستقل، وعلى اللغوي تأويل ما يناسب النصّ.

– بين فَعْل وفُعْل:

وظهر الاستبدال الفونيمي بين الضمتين من ناحية والفتحة والسكون من ناحية في قراءة قوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً * عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾[١٦٢].

قرأ الحرميان: ابن كثير ونافع، وابن عامر وعاصم: (نُذْرا) بضم الذال، ثقيلة. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم – في رواية عنه (نُذْرا) بسكون الذال خفيفة. وتعليل

أصحاب القراءات أن التثـــقيل (نُذُر) لهجة معروفة عند أهل الحجاز ولذلك قرأ بهـــا الحرميان وتابعهم الحجازيون(١٦٣).

أما الخليل فقد ميّز بين دلالة الصيغة على اسم الذات، والمصدر أو الحدث، والجمع إذ في لفظ (النَذْر) فَعْل المصدر بمعنى الإنذار لأن في أصل فعلـــه أنـــذر (أفعل) أفصح من نذر.

والنَذْر أيضاً ما ينذره الإنسان فيجعله على نفسه واجباً وفعله نَذَر لا غير لأنه وصف للذات وليس للحدث.

والنُذُر: صيغة قياسية في الجمع مفرده (نذير) لأنه جمع يطّرد فـــي المفـــرد الذي قبل آخره حرف مدّ نحو بريد وبُرُد، وكثيب وكُثُب، والنذير: اسم للشيء الذي يُعطى، وربما جعلت اليهودية ولدها نذيراً للكنيـــسة وإذا كـــان للمؤنـــث فجمعـــه نذائر(١٦٤). ولم يذكر الخليل صورة (فُعَل) نُذُر التي قرئ بهـــا. والـــصواب عنـــده (نَذْرا) بالفتح لأنه مصدر منصوب على المصدرية بمعنى الإنذار. أو (نُذُر) ويعني مجموع ما ينذره الإنسان فيعطيه واجبا عليه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾(١٦٥).

قرأ السبعة – إلا عاصماً– : الجُنُب فُعُل بضمتين وبها قرأ الجمهور أيـــضاً، وعليها رسم المصحف، وقرأ عاصم في رواية عنه: الجَنْب – فَعْل– فتح فسكون– ولم يأتِ به غيره(١٦٦).

وليس في اختيار الخليل إلا التثقيل (جُنُب) لأنه وصف مختص بالجار بهـــذه الصيغة في مروي اللغة، قال: "والجار الجُنُب الذي جاورك من قـــوم آخـــرين، ذو جنابة لا قرابة له في الدار ولا نسب"(١٦٧)، ويراد بالجُنُب الاعتزال أو البُعْـــد فهـــو وصف يجري على موصوفه ويُراد به الجار المجانب لأقاربه المتباعد عنهم وهـــو ما يُراد في سياق النصّ لاقترانه بموصوفه في أصل الوضع. أمـــا الجَنْـــب فهـــو الناحية والجمع جُنوب، ولو جرى على نفس الموصوف لما غاب عن الخليل لكنـــه خصّ المخفف بمعنى الجهة من المكان وعلى قصد الاسمية.

- بين فُعُل وفِعَل:

ظهر التبادل الفونيمي بين الضمتين في مقابل الكسر والفتح في لفظ (قُبُـل) و(قِبَل) في قوله تعالى:﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ﴾[١٦٨]. وقوله تعالى:﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾[١٦٩].

وفي (قبل) أوجه من القراءة، منها قراءة ابن كثير وأبي عمرو بن العلاء إذ قرءا (قُبُلا) بضمتين في سورة الأنعام و(قِبَلاً) بكسر وفتح في سورة الكهف وتابعهما أهل الحجاز وأهل البصرة فيها[١٧٠].

وكان توجيه الخليل واختياره على النحو الآتي:

القُبُل – فُعُل– خلاف الدُبُر وهو في هذه الصيغة حال جامدة مؤول بمشتق بمعنى قبيلا قبيلا أي مضاعف ومرتب صنفا صنفا أو فوجا فوجا أو جماعة جماعة، لأن فُعُل من صيغ جمع التكسير القياسية للمفرد فعيل نحو غفور وغُفُر، وفي الجمع معنى المضاعفة والتكرار وهو ما يناسب سياق سورة الأنعام أي: حشرنا عليهم كل شيء من سائر المخلوقات جنساً جنساً[١٧١].

والقِبَل: – فِعَل– مصدر سماعي بمعنى التلقاء والمواجهة، تقول: لَقِيتُهُ قِبَلاً: أي مواجهة، وأصيب من قِبَله: أي من لدنه أو من عنده وليس من الملاقاة أو من التلقاء[١٧٢]. وسياق الآية في الكهف: لو أتاهم العذاب معاينة أو مواجهة فهم لم يؤمنوا وهو الأنسب في سياق المعنى.

وقد وضح هذا التقدير للصيغتين وارتباطهما المعنوي من بعد الخليل عند علماء التأويل فأخذوا به كالفرّاء، والطبري (ت ٣١٠هـ) ومكي القيسي (ت ٤٣٧هـ) وأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)[١٧٣].

- بين فَعَل وفُعُل:

الاستبدال الفونيمي بين الضمتين والفتحتين على التوالي وقد أنكره الخليل في مادة (سلف) في قوله تعالى:﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِّلْآخِرِينَ﴾[١٧٤].

قرأ حمزة والكسائي: سُلُفا – بضمتين، على خلاف رسم المصحف، وقرأ نافع وأبو عمرو بن العلاء ، وأبو جعفر المدنيّ، وعاصم: سَلَفا – بفتحتين، وتابعهم

الجمهور فيها[١٧٥].

ولم يذكر الخليل صيغة فُعُل في هذه المفردة، بل مصدره (سلوف) فَعُول قال: سلَف يسلُف سُلُوفا، والسلَف تقرر استعماله في الوصف والاسمية، والسلَف في الوصف: كل شيء قدمته على غيره أو على الآخر، ومن القوم من تقدّم عند نفيرهم إذا أرادوا أن ينفروا، والسابق فيهم سلَفٌ لهم، واستشهد الخليل في هذا اللفظ ومعناه بقول الراجز:

نحنُ منعنا منبتَ النصِّ بسلَفٍ أرْعَنَ عنبـــرِيٍّ.... [١٧٦]

وقد عطف عليه في التركيب ما ناسب لفظة فقال: "سَلَفا ومَثَلاً"[١٧٧]، وإجراؤه عند اللغويين: سلَف يسلُف سلَفاً وسلوفاً إذا تقدّم.

والسلَف في الاسم: القرض من المال، أسلفته مالاً: أقرضته والسلَف القرض والسلَم. وليس في مصدره إلا هذه الصيغة سلَف سلَفاً.

وتأول الزجاج قراءة (سُلُف) بالضم على أنها صيغة جمع للمفرد سليف أي جمعاً قد مضى، وقرئت سُلَفاً – فُعَل جمع سُلْفة أي عُصبَة قد مَضَت، وذهب أبو علي الفارسي، وأبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) إلى أن سلَف اسم مفرد يراد به الجمع نحو خادم وخَدَم وطالب وطَلَب وهو في موضع الآية واحد يُراد به الجمع والسُلْفة القطعة من الناس[١٧٨]. وهو توجيه علميّ سليم لكنّا لم نألف عند الخليل إلاّ صيغة (فَعل) في سلَف للاسم ولا صفة وليس السياق في معنى الجمع.

– بين فُعْل وفَعَل:

الاستبدال الفونيمي بين الضم والسكون والفتحتين نحو الرُشْد والرَشَد، في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾[١٧٩].

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بن العلاء وعاصم وابن عامر (الرُشْد) بضم الراء خفيفة وقرأ حمزة والكسائي (الرَشَد) بفتح الراء والشين[١٨٠].

يرى أصحاب مفردات القرآن أن الرَشَد والرُشْد– واحد في مادته اللغوية ويعني

خلاف الغيّ، ويستعمل استعمال الهداية يقال في تصريفه: رَشِدَ يَرْشَدُ ورَشَدَ يَرْشُدُ رُشْداً ورَشَداً[١٨١].

وخالف الخليل بينهما لفظاً ومعنىً كما خالف بين إجراءيهما الصرفيّ، فالرُشْد والرشَاد في رَشَد يرشُد – بضم العين في المضارع وفتحها في الماضي – رُشْداً ورَشَاداً: لنقيض الغيّ. والرَشَد – بفتحتين في رَشِدَ يَرْشَدُ رَشَداً، بكسر عين الماضي وفتحها في المضارع. وهو نقيض الضلال[١٨٢]. فالرُشد في مقابل الغيّ والرَشَدُ في مقابل الضلال في كل شيء. وقراءة الفتح هي الأنسب في تركيب الآية لأن الغيّ مذكور في النصّ ولو كان مرادفاً للرَشَد لما ذكره والنصّ القرآني يحرص على عدم ذكر المرادفات إذا تساوت معانيها فذكر الغيّ ثم الرَشَد في معنى الضلال. ويرى أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) في فروقه أن الغيّ الفساد والضلال الهلاك، وضلّت الناقة: هلكت والضلال في سياق الدين والعبادة أبلغ من الغي[١٨٣]. وهو المراد في النصّ وعليه يكون اختيار الخليل في مناسبة اللفظ لمعنى المفردة.

– بين فُعْل وفِعْل:

الاستبدال الفونيمي بين الضم والكسر في أول الصيغة مع سكون العين، أجازه الخليل على الرغم من اختلاف المعنى لاحتمال السياق النصي لهما، قال تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١٨٤].

قرأ الكسائي وأبو عمرو بن العلاء والحضرمي (ت ٢٠٥هـ) بضم الكاف (كُبْرَه) فُعْلَه. وقرأ الباقون: (كِبْرَهُ) فعْلَهُ وعليها رسم المصحف وتابعهم الجمهور[١٨٤].

وميّز الخليل بين الكُبْر والكِبْر، فالكِبْر الاسم: الكبير، أو كبير الأثم وهو فِعْل بمعنى فَعيل مصدر منقول إلى الوصفية كالخطْء من الخطيئة وبمعناها.

والكُبْر، – فُعْل– من كل شيء عُظْمه أو عظيمه، قالوا: عُظْم هذا القذف، أي كُبْره فمن قرأ: كِبْرَ – بالكسر – ذهب إلى معنى إثمه وخطئه ومنه قول علقمة:

بدت سوابق من أولاه تعرفها وكِبْرُه في سواد الليل مستور[١٨٦]

وكبره: إثمه وخطأه، أو وزره، ومن قرأ بالضم: كبره: ذهب إلى معنى عظم قذفه وفداحته ومكانته الكبيرة[١٨٧]. وأجاز الخليل الوجهين لاحتمال النص لمعنييهما.

وما قدمناه لا يمثل كلّ مادة العين لأنّ للخيل الكثير من الجهد اللغوي في الكشف عن الفروق الدلالية في الألفاظ التي تداخلت صور مبانيها من ألفاظ القرآن بسبب من اختلاف أوجه القراءة نحو:

- بين فعّل وفَعّل في الشّقّ والشّقّ[١٨٨]، والضيق والضَيق[١٨٩].
- بين فُعْل وفَعْل في الهُوْن والهَوْن[١٩٠]. وعُقْب وعَقْب[١٩١].
- بين فُعْل وفُعُل في خُلْق وخُلُق[١٩٢]، وحُمْر وحُمُر[١٩٣].

استنطاق واستنتاج:

- الخليل بن أحمد الفراهيديّ من نوادر علماء العربية ممن اتحدروا من أصول عربية خالصة وُعرف في نسبه إلى أشهر قبائل العربية.
- كان الخليل بارعاً في علم القراءات إلى جانب براعته في علوم عصره الأخرى وقد أودع هذا العلم ضمن مادة معجمه العين.
- مكنته براعته في علم القراءات أن يتخذها دليلاً في الكشف عن المعاني.
- يختار الخليل القراءتين من غير مفاضلة إذا اتحد المعنى وإن اختلف المبنى. يعزز ذلك بنصوص من الشعر في استعمال أحد الوجهين في فصيح اللغة.
- لم يعزُ القراءة إلى صاحبها، بل يكتفي بالإشارة إليها بصيغة المجهول (وقرئ).
- حرص الخليل على التمييز بين عناصر الكلام إذا اتّحد المبنى والمعنى كالقول بالاسم، والمصدر، والصفة، والجمع، والإفراد.
- الاهتمام بالدلالة السياقية في اختيار القراءة المناسبة لسياق النصّ.
- الاهتمام بالإجراء الصرفي للمفردة للكشف عن المعنى، وعن تعدّد صور استعمالها اللهجي لاختلاف المسموع.
- الاهتمام بالتطور الدلالي للمفردة وأثره في المعنى بين التضييق والخصوصية أو العموم والاتساع.
- الاهتمام بالمعنى النحوي والموقع الإعرابي للوصول إلى المعنى الصرفي وإقرار صيغته.

الحواشي

(١) إنباه الرواة، ج١، ص٣٤١. وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥.

(٢) لسان العرب، مادة (فره).

(٣) مدرسة البصرة النحوية، ص٢٣.

(٤) الخليل بن أحمد، ص١٤.

(٥) الفهرست، م١، ص٩٢٠.

(٦) تاريخ علوم العربية، ص١٨٠.

(٧) المدارس النحوية، ص٦٦.

(٨) طبقات فحول الشعراء، ج١، ص١٤. مراتب النحويين، ص١٢-١٣.

(٩) المصدران السابقان، ج١، ص١٥، ١٦، ٢١.

(١٠) طبقات فحول الشعراء، ج١، ص٢٥.

(١١) طبقات النحويين واللغويين، ص٤٩.

(١٢) إنباه الرواة، ج١، ص٣٤٤-٣٤٥.

(١٣) نزهة الألباء، ص٣٧.

(١٤) إنباه الرواة، ج١، ص٣٣٤.

(١٥) طبقات النحويين واللغويين، ص٤٩.

(١٦) مراتب النحويين، ص٥٥.

(١٧) مقدمة كتاب العين للمحقق، ج١، ص٥.

(١٨) العين، ج١، ص٦.

(١٩) الفهرست، ص٤٩.

(٢٠) من مشاهير أعلام البصرة، ص٩٥.

(٢١) أخبار النحويين البصريين، ص٣٠. الفهرست، ص٤٨. المدارس النحوية، ص٨٥.

(٢٢) المدارس النحوية، ص٨٥.

(٢٣) عبقري من البصرة، ص٥٩.

(٢٤) المعجم العربي، نشأته وتطوره، ص٢٣٢-٢٣٤.

(٢٥) البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٣١٨، ومنجد المقرئين، ص٣. والمهذب في القراءات، ص٦.

(٢٦) مقدمة ابن خلدون، ص٢١٨.

(٢٧) صحيح البخاري، ج٦، ص ٥٨٣-٥٨٤.

(٢٨) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج٩، ص٣١.

(٢٩) القواعد النحوية، ص١٢.

(٣٠) مناهج المفسرين، ص١٢٣.

(٣١) غاية النهاية، ج١، ص ٦١٣.

(٣٢) سورة الزخرف، الآية ٦١.

(٣٣) مختصر في شواذ القراءات، ص١٢٦.

(٣٤) العين، ج٢، ص١٥٣، مادة (علم).

(٣٥) نفسه، ج٢، ص١٥٣.

(٣٦) تفسير غريب القرآن، ص٤٠.

(٣٧) سورة القصص، الآية ١٠.

(٣٨) العين، ج٤، ص٤٠٨، مادة فرغ.

(٣٩) سورة النساء، الآية ١٤٥.

(٤٠) العين، ج٥، ص٣٢٧ مادة درك.

(٤١) الحجة للقراء السبعة، ج٢، ص٩٧.

(٤٢) سورة النمل، الآية ٦٦.

(٤٣) مختصر في شواذ القراءات، ص١١٠.

(٤٤) ديوانه، ج١، ص ١٨٣.

(٤٥) العين، ج٥، ص٣٢٧. وتهذيب اللغة، ولسان العرب: مادة: درك.

(٤٦) سورة الأنعام، الآية ١٢٥.

(٤٧) العين، ج٣، ص٧٦ مادة حرج.

(٤٨) إتحاف فضلاء البشر، ص٢١٦.

(٤٩) العين، ج٨، ص٣١٠. مادة رأى.

(٥٠) سورة فصلت، الآية ٢٩.

(٥١) العين، ج٨، ص٣١٠.

(٥٢) التيسر في القراءات السبع، ص١٥٦.

(٥٣) سورة النساء، الآية ١٥٣.

(٥٤) سورة البقرة، الآية ١٢٨.

(٥٥) سورة سبأ، الآية ٢٣.

(٥٦) العين، ج٤، ص٤٠٨ مادة فرغ.

(٥٧) مختصر في شواذ القراءات، ص١٢٢.

(٥٨) العين، ج٣، ص١٦٠-١٦١.

(٥٩) العين، ج٣، ص١٦٠-١٦١.

(٦٠) سورة يوسف، الآية ٨١.

(٦١) سورة يوسف، الآية ٨٦.

(٦٢) العين، ج٣، ص١٦١.

(٦٣) سورة التوبة، الآية ٩٢.

(٦٤) مفردات ألفاظ القرآن، ص١٤٥ حزن.

(٦٥) العربية الفصحى، ص٥٨.

(٦٦) المنهج الصوتي للبنية العربية، ص٤٣-٤٤.

(٦٧) الممتع في التصريف، ج١، ص٦٠-٦١.

(٦٨) مقدمة كتاب الحجة للقراء السبعة، ج١، ص ١٧.

(٦٩) سورة محمد، الآية ٣٥.

(٧٠) القراءات السبع، ص٦٠١.

(٧١) العين، ج٧، ص٢٦٦ مادة سلم.

(٧٢) ديوان الأعشى، ص ٢٠٠.

(٧٣) سورة الأنفال، الآية ٦١.

(٧٤) القراءات السبع، ص١٢٧.

(٧٥) سورة آل عمران، الآية ١٥١.

(٧٦) العين، ج٢، ص ١٣٠ مادة رعب.

(٧٧) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٣٠. ولم ينسبه لقائل ولم يهتد محقق الكتاب إلى قائله.

(٧٨) الأصول في النحو، ج٢، ص ٣٦٥، ٤٤٨، وج٣، ص١٥٩، ١٨٥.

(٧٩) بغية الوعاة، ج٢، ص ١٦٣.

(٨٠) سورة الملك، الآية ١١.

(٨١) النشر في القراءات العشر، ج٢، ص ٢١٦.

(٨٢) العين، ج٣، ص٥٦ مادة (سحق).

(٨٣) سورة الكهف، الآية ٤٤.

(٨٤) النشر في القراءات العشر، ج٢، ص ٢١٦.

(٨٥) العين، ج١، ص ٢٠٤ مادة عُقب.

(٨٦) ديوان الهذليين، ج١، ص ٢١٣. شعر خالد بن زهير.

(٨٧) سورة الكهف، الآية ٧٤.

(٨٨) القراءات السبع، ص٣٩٥، ٣٩٧.

(٨٩) العين، ج٥، ص ٣٥٥ مادة نكر.

(٩٠) الأخفش، معاني القرآن، ج١، ص٣.

(٩١) سورة البقرة، الآية ١٦٨.

(٩٢) القراءات السبع، ص١٢٢، التيسير، ص٦٧.

(٩٣) العين، ج٤، ص٢٩٢. مادة خطو.

(٩٤) المقتضب، ج٢، ص ١٨٩-١٩٠.

(٩٥) سورة النساء، الآية ٣٧.

(٩٦) التيسر، ص٧٩. والجامع لأحكام القرآن، ج١٧، ص٢٥٩.

(٩٧) العين، ج٤، ص ٢٧٢ مادة (بخل).

(٩٨) لسان العرب، مادة (بخل).

(٩٩) سورة البقرة، الآية ٨٣.

(١٠٠) القراءات السبع، ص١٦٣، والنشر، ج٢، ص ٢٩٨.

(١٠١) سورة يونس، الآية ٢٦.

(١٠٢) العين، ج٣، ص١٤٤ مادة حسن.

(١٠٣) لسان العرب، ج٣، ص ١٧٧ مادة حسن.

(١٠٤) كتاب سيبويه، ج٢، ص١١٥ (بولاق ١٣١٦هـ) وشرح الكافية: ج١، ص١٩٢، ١٥١، واللهجات العربية، ص٤٧٦.

(١٠٥) سورة الفتح، الآية ٦.

(١٠٦) القراءات السبع، ص٦٠٢.

(١٠٧) العين، ج٧، ص٣٢٨، مادة (سوء).

(١٠٨) سورة الواقعة، الآية ٥٥.

(١٠٩) القراءات السبع، ص٦٢٣، والتيسير، ص١٦٨.

(١١٠) العين، ج٦، ص٢٥٦، مادة (شرب).

(١١١) سورة الهمزة ، الآية ٨-٩.

(١١٢) معاني القرآن، ج٣، ص ٢٩٠-٢٩١.

(١١٣) العين، ج٢، ص ٥٧، مادة (عمد).

(١١٤) سورة القصص، الآية ٣٢.

(١١٥) سورة الأنبياء، الآية ٩٠.

(١١٦) القراءات السبع، ص٤٩٣.

(١١٧) القراءات السبع، ص٤٩٣.

(١١٨) العين، ج٤، ص٤٧، مادة رهب.

(١١٩) سورة المدثر، الآية ٥.

(١٢٠) التيسير، ص١٧٥.

(١٢١) العين، ج٦، ص٦٦ مادة رجز.

(١٢٢) الخصائص، ج٢، ص١٠-١٢.

(١٢٣) العين، ج٣، ص١٤٤، ٢١٠، مادة نحس، وورق.

(١٢٤) المصدر نفسه، ج٨، ص ٢٣٦ مادة (أثر).

(١٢٥) المصدر نفسه، ج٧، ص١٤٧، مادة (أصر)

(١٢٦) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٢٤ مادة (رحم).

(١٢٧) المصدر نفسه، ج٣، ص٧٦، ج٥، ص٣٣١ مادة (حرج) و (نكد).

(١٢٨) المصدر نفسه، ج٨، ص٣٣ مادة لبد.

(١٢٩) المصدر نفسه، ج١، ص ١٥٨ مادة (قطع).

(١٣٠) في فقه اللغة، ص٨١.

(١٣١) سورة يس، الآية ٩.

(١٣٢) القراءات السبع، ص٥٣٩، والتيسير، ص١٤٩.

(١٣٣) العين، ج٧، ص ١٨٣-١٨٥ مادة سدّ.

(١٣٤) لسان العرب، ج٦، ص٢٠٩، مادة سدّ.

(١٣٥) سورة آل عمران، الآية ١٤٠ ، ومنه كذلك ما جاء في سورة آل عمران الآية ١٧٢.

(١٣٦) القراءات السبع، ص٢١٦، والتيسير، ص٧٥.

(١٣٧) العين، ج٣، ص ٤٣ مادة قرح.

(١٣٨) الحجة في القراءات السبع، ص١١٤. ولسان العرب، ج٧، ص١٤، مادة قرح.

(١٣٩) سورة آل عمران، الآية ٩١.

(١٤٠) معاني القرآن وإعرابه، ج١، ص٤٤٢، التبيان في تفسير القرآن، ج٢ن ص٣٢٨.

(١٤١) العين، ج٨، ص ٣٤٦، مادة (ملأ).

(١٤٢) سورة الأنعام، الآية ٢٥.

(١٤٣) لسان العرب، ج٦، ص٢٠٩، مادة (ملء).

(١٤٤) مختصر في شواذ القراءات، ص٣٦. والتبيان في تفسير القرآن، ج٦، ص٤٨٤.

(١٤٥) من شواهد العين، ج٥، ص٢٠٦، ولم يُنسب لقائل.

(١٤٦) سورة طه، الآية٨٧.

(١٤٧) التيسير، ص١٢٤. الكشف عن وجوه القراءات، ج٢، ص١٠٤.

(١٤٨) العين، ج٥، ص ٣٨٠، مادة ملك.

(١٤٩) سورة البقرة، الآيات ٨٧، ٢٥٣.

(١٥٠) القراءات السبع، ص٧٥. والحجة للقراء السبعة، ج١، ص ٣٣٨.

(١٥١) العين، ج٥، ص ٧٣ مادة قدس.

(١٥٢) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٥٧ قدس.

(١٥٣) الحجة للقراء السبعة، ج١، ص ٣٤٠.

(١٥٤) سورة القمر، الآية ٦.

(١٥٥) سورة الطلاق، الآية ٨.

(١٥٦) القراءات السبع، ص ٦١٧، ٦٢٩، والتيسير، ص ١٦٦.

(١٥٧) العين، ج٥، ص٣٣٥ مادة نكر.

(١٥٨) الخصائص، ج٢، ص١٥٢.

(١٥٩) سورة الواقعة، الآية ٥٦.

(١٦٠) القراءات السبع، ص٦٢٣.

(١٦١) العين، ج٧، ص ٣٦٧ مادة نزل.

(١٦٢) سورة المرسلات، الآية ٥-٦.

(١٦٣) القراءات السبع، ص٦٦٦. والتيسير، ص ١٧٧. الحجة للقراء السبعة، ج٤، ص ٨٩.

(١٦٤) العين، ج٧، ص١٨٠ مادة نذر.

(١٦٥) سورة النساء، الآية ٣٦.

(١٦٦) القراءات السبع، ص١٣٣. الحجة للقراء السبعة، ج٢، ص ٨٠-٨١.

(١٦٧) العين، ج٦، ص ١٤٨ مادة جنب.

(١٦٨) سورة الأنعام، الآية ١١١.

(١٦٩) سورة الكهف، الآية ٥٥.

(١٧٠) القراءات السبع: ص٢٦٦. والحجة للقراء السبعة: ج٢، ص٢٠١. والنشر، ج٢، ص٢٦٢.

(١٧١) العين، ج٥، ص١٦٦ مادة قبل.

(١٧٢) نفسه، ج٥، ص١٦٦.

(١٧٣) ينظر: معاني القرآن للفراء، ج١، ص٣٥١. وجامع البيان، ج٨، ص٢-٣. ومشكل إعراب القرآن، ج١، ص٥٧٤. البحر المحيط، ج٤، ص ٢٠٥.

(١٧٤) سورة الزخرف، الآية ٥٦.

(١٧٥) القراءات السبع، ص٢٨٧. وإعراب القرآن للنحاس، ج٢، ص ٣٦٥. والتيسير، ص١٥٩.

(١٧٦) العين، ج٧، ص ٢٥٨ مادة (سلف).

(١٧٧) العين، ج٧، ص ٢٥٨ مادة (سلف).

(١٧٨) إعراب القرآن للنحاس، ج٣، ص ٣٥٦. الحجة للقراء السبعة، ج٣، ص ٣٧٨. ولسان العرب، مادة سلف.

(١٧٩) سورة الأعراف، الآية ١٤٦.

(١٨٠) الحجة للقراء السبعة، ج٢، ص ٢٦٥. والتيسير، ص ٩٣.

(١٨١) مفردات ألفاظ القرآن، ص٣٥٤، مادة رشد.

(١٨٢) العين، ج٦، ص ٢٤٢ مادة رشد.

(١٨٣) الفروق اللغوية، ص ٢٠٣.

(١٨٤) سورة النور، الآية ١١.

(١٨٥) معاني القرآن للفراء، ج٢، ص ٣٤٧ وهي قراءة مجاهد بن جبر (ت ١٠٣هـ) والحسن البصري.

(١٨٦) شعر علقمة بن عبد، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ج١، ص ١٧٣.

(١٨٧) العين، ج٥، ص ٣٦١ مادة كبر.

(١٨٨) العين، ج٥، ص٣٠ مادة شق.

(١٨٩) نفسه، ج٥، ص ١٨٦، مادة ضيق.

(١٩٠) نفسه، ج٤، ص٩١، مادة هون.

(١٩١) نفسه، ج١، ص٢٠٢، مادة عقب.

(١٩٢) نفسه، ج٤، ص ١٥١ مادة خلق.

(١٩٣) نفسه، ج٣، ص ٢٢٧ مادة حمر.

مظان البحث.

١- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، أحمد بن محمد الدمياطي (ت ١١١٧هـ)، تصحيح : علي محمد الضباع، دار الندوة، بيروت.
٢- أخبار النحويين البصريين، الحسن السيرافي (ت ٣٦٨هـ)، تحقيق: طه محمد ومحمد عبد المنعم خفاجي، ط١، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
٣- الأصول في النحو، أبو بكر بن السراج (ت ٣١٦هـ)، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.
٤- إنباه الرواة على أنباء النحاة، القفطي (ت ٦٤٦هـ) ، تحقيق أبي الفضل، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.
٥- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، الرياض.
٦- البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، مصر، ١٩٥٨م.
٧- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، ط١، مصر، ١٣٢٦هـ.
٨- التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: أحمد شوقي الأمين وأحمد حبيب قصير، النجف، ١٩٥٧-١٩٦٥م.
٩- تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٣٧٨هـ.
١٠- تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: نخبة من العلماء، مصر، ١٩٦٤م-١٩٦٧م.
١١- التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ)، تصحيح: أوتوبرتزل، إستانبول، ١٩٣٠م.
١٢- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

١٣- محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ط٢، القاهرة، ١٣٧٢هـ.

١٤- الحجة للقرّاء السبعة، أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

١٥- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٥٥م.

١٦- الخليل بن أحمد الفراهيدي، أعماله ومنهجه، د. مهدي المخزومي، بغداد، ١٩٦٠م.

١٧- ديوان الأخطل، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، ط٢، بيروت، ١٩٧٩م.

١٨- ديوان الأعشى، تحقيق: د.محمد محمد حسين، القاهرة، ١٩٥٠م.

١٩- ديوان الهذليين، مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٥م.

٢٠- صحيح البخاري، البخاري، ليدن مصورة مطبعة بريل، ١٩٠٨م.

٢١- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر.

٢٢- طبقات النحويين واللغويين، محمد بن الحسن الزبيدي (ت ٣٧٩هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، ١٩٥٤م.

٢٣- عبقري من البصرة، د. مهدي المخزومي، بغداد، ١٩٧٢م.

٢٤- العربية الفصحى، دراسة في البناء اللغوي، هنري فليش، تعريب: د. عبد الصبور شاهين، ط٢، القاهرة، ١٩٩٧م.

٢٥- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، بغداد من سنة ١٩٨٠م - ١٩٨٥م.

٢٦- غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري الدمشقي (ت ٨٣٣هـ)، تحقيق: برجستراسر، القاهرة، ١٩٣٣م.

٢٧- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض.

٢٨- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، ط٣، بيروت، ١٩٧٩م.

٢٩- الفهرست، ابن النديم محمد بن إسحق، تحقيق: رضا تجدد، طهران، ١٩٧٧م.
٣٠- في فقه اللغة وقضايا العربية، سميح أبو مغلي، عمان، ١٩٨٧م.
٣١- القراءات السبع، ابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ)، تحقيق: د. شوقي ضيف، ط٢، مصر، ١٩٨٠م.
٣٢- الكتاب، سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (ت ١٨٠هـ)، بولاق، ١٣١٦-١٣١٧هـ.
٣٣- الكشف عن وجوه القراءات وعللها، مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق: د. محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م.
٣٤- لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، ط٣، بيروت، ١٩٩٩م، طبعة مفهرسة.
٣٥- اللهجات العربية في القراءات القرآنية، عبده الراجحي، الإسكندرية، ١٩٨٢م.
٣٦- مختصر في شواذ القراءات، ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ)، نشر: برجستراسر، دار الهجرة.
٣٧- المدارس النحوية، خديجة الحديثي، جامعة بغداد، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
٣٨- مدرسة البصرة النحوية، نشأتها وتطورها، عبد الرحمن السيد، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م.
٣٩- مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي (ت ٣٥١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، ١٩٥٤م.
٤٠- مشكل إعراب القرآن، مكي القيسي، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، بغداد، ١٩٧٥م.
٤١- معاني القرآن، سعيد بن مسعدة الأخفش (ت ٣١٥هـ)، تحقيق: عبد الأمير الورد، دار الكتب، بيروت، ١٩٨٥م.
٤٢- معاني القرآن، أبو زكريا الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
٤٣- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحق إبراهيم بن سري الزجاجي (ت ٣١١هـ)، تحقيق: د. عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨م.

٤٤- المعجم العربي، نشأته وتطوره، حسين نصار، ط٢، دار مصر، القاهرة، ١٩٦٨م.
٤٥- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي.
٤٦- المقتضب، صنعة أبي العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، ١٣٨٦هـ.
٤٧- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، ط١، دار القلم، بيروت، ١٩٧٨م.
٤٨- الممتع في التصريف، ابن عصفور، علي بن مؤمن (ت ٦٦٩هـ)، تحقيق: د.فخر الدين قباوة، ط٥، بيروت، ١٩٨٣م.
٤٩- مناهج المفسرين، مساعد مسلم، بغداد، ١٩٨٥م.
٥٠- منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥١- من مشاهير أعلام البصرة، عبد الحسين المبارك وعبد الجبار ناجي الياسري، البصرة، ١٩٨٣م.
٥٢- المنهج الصوتي للبنية العربية، رؤية جديدة في الصرف العربي، عبد الصبور شاهين، بيروت، ١٩٨٠م.
٥٣- المهذب في القراءات العشر، محمد سالم محيسن، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٦٩م.
٥٤- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي، بغداد، ١٩٥٩م.
٥٥- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.
٥٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، شمس الدين بن خلكان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨م.

منهج الخليل في تفسير غريب القرآن من خلال كتاب العين

د. طه ياسين ناصر الخطيب
جامعة البحرين - البحرين

منهج الخليل في تفسير غريب القرآن من خلال كتاب العين

د. طه ياسين ناصر الخطيب

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

أما بعد، فالخليل بن أحمد الفراهيديّ علم من أعلام أمتنا الإسلامية، اقترن اسمه باللغة، فكان رأساً في لسان العرب، وكان بكتابه العين يتهيأ ضبط اللغة- كما قال أبو طاهر المقري- لهذا ولغيره، عندما دعت جامعة آل البيت، لعقد مؤتمر حول الخليل، لم أتردد في اختيار علم غريب القرآن؛ لارتباط هذا العلم باللغة، كما زاد من حرصي كون الخليل من المتقدمين، إذ لم يصلنا كتاب في غريب القرآن، قبل مجاز القرآن، لأبي عبيدة، (ت ٢١٠هـ)، ولإغفال كثير من الباحثين كتاب العين عند تناولهم تفسير غريب القرآن، فعشت مع هذا العالم ومع هذا العلم، لأتبيّن منهج الخليل فيه، ولقد رأيت لغوياً ينهل من معين لا ينضب، فجاءت عباراته سلسة عميقة، لا تجد للتقعر ولا للإغراب فيها أثراً.

ولقد كان الخليل يورد الكلمات القرآنية على وجهين:

الأول: يذكر الآية الكريمة في أثناء شرح الكلمة.

الثاني: يشرح الكلمة القرآنية، دون أن يذكر الآية الكريمة، ولم أجد سبباً لذلك، مع وضوح كون اللفظة قرآنية، إلا أن يكون قد منعه ورعه من ذلك، وبخاصة أنه قد وصف بالورع، كما سيأتي[1] وبناء على هذا فإني لن أجعل هذه الكلمات من ضمن ما فسره من غريب القرآن، بل هو تفسير لغوي للفظة، إلا إذا كانت هناك قرينة قوية تدل على أنه عنى بها اللفظة القرآنية بعينها.

وقد قسمت البحث إلى نقاط، تضمنت أهم الجوانب التي تطرق لها، ثم بيان منهجه فيها، أعقب ذلك ذكر أمثلة تؤكد ما ذكرت، وقد بدأت بالجانب اللغوي، إذ هو أوسع ما تناوله، ثم ثنيت بالجانب الصرفي، فهو يلي اللغوي من حيث توسع

الخليل، فالجانب النحوي، فالبلاغي، ثم أوردت جوانب تطرّق لها الخليل لا يمكن إدراك معنى اللفظة دون معرفتها، ذلكم أن هناك ألفاظاً قرآنية، لا يكفي لمعرفة معناها مجرد اللغة، من ذلك التفسير القرآني للقرآن، فقد يكون اللفظ عاماً وأريد منه الخصوص، ومن ذلك أسباب النزول، ومعرفة أحوال العرب، وهذا كله وغيره تجده في منهج الخليل في تفسير غريب القرآن، لكنه بطبيعة الحال قليل جداً.

وقد تقدم ذكر منهجه تمهيد تضمن أمرين: الأول تعريف بالخليل، والآخر بعلم غريب القرآن. ثم ختم البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم نتائج البحث.

والله أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، وأن يجزي القائمين على هذه الندوة كل خير.

التمهيد: ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: الخليل.

هو "الإمام الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الأزديّ الفراهيديّ بالفاء والراء والألف والهاء والياء آخر الحروف وبعدها دال البصري"[٢]، وهو من الأزد، من حي يقال لهم: الفراهيد. وسئل: من أي العرب أنت؟ فقال: فرهيدي. ثم سئل، فقال: فرهودي. قال أبو العباس: قوله: (فراهيدي)، انتسب إلى فراهيد بن مالك بن فهم بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد، وكان من أنفسهم، صحيح النسب معروف الأهل، وقوله: (فرهودي)، انتسب إلى واحد الفراهيد، وهو فرهود، والفراهيد: صغار الغنم، وكان من أهل عمان من قرية من قراها. ثم انتقل إلى البصرة"[٣].

مولده:

لا تسعفنا المصادر بتفاصيل كثيرة عن مولده، غير أنه ولد سنة مائة للهجرة[٤].

شيوخه:

ذكر ابن الجزري في غاية النهاية في طبقات القراء أن الخليل "روى الحروف عن عاصم بن أبي النجود، وعبد الله بن كثير ، وهو من المقليـــن عنهما، وهو الذي روى عن ابن كثير: ﴿غَيرِ المَغضُوبِ﴾ بالنصب، انفرد بذلك عنه"[٥].

وهذا الكلام مع إيجازه، يدلنا على علو كعبه في القراءات، فعاصم، وابن كثير إمامان جليلان من القراء السبعة، وقد أجمعت الأمة على تلقي القرآن عن طريقهم، فتتلمذ الخليل عليهما له أكبر الدلالة على مكانته وتقدمه في هذا العلم، ويؤكد هذا ذكر ابن الجزري -وهو شيخ القراء في زمنه- للخليل في طبقات القراء، ولعل هذا يفسر لنا كثرة ذكره للقراءات، كما سيأتي- إن شاء الله تعالى.

وأما في الحديث فقد "حدث عن أيوب السختياني، وعاصم الأحول، والعوّام ابن حوشب، وغالب القطان. وقد وثقه ابن حبان[٦].

وأما النحو فأخذه عن أبي عمرو بن العلاء[٧]، وعيسى بن عمر[٨].

تلاميذه:

كثر طلاب الخليل ونبغوا، ويكفي أن من بينهم سيبويه والأصمعي؛ لندرك مبلغ علم هذا الإمام، وقد ذكر المترجمون ممن أخذ عنه: أيوب بن المتوكل البصري القارئ، وبذل بن المحبر، وحماد بن زيد، وداود بن المحبر، وسيبويه، والأصمعي، وعلي بن نصر الجهضمي الكبير، وعون بن عمارة، والمؤرج بن عمرو السدوسي، وموسى بن أيوب، والنضر بن شميل، وهارون بن موسى النحوي الأعور، ووهب بن جرير بن حازم، ويزيد بن مرة الذارع[٩]، وبكار بن عبد الله العودي[١٠]، ويحيى بن المبارك اليصري، المعروف باليزيدي[١١].

صفاته وثناء العلماء عليه:

"كان من أزهد الناس، وأعلاهم نفساً؛ وأشدهم تعففاً، ولقد كان الملوك يقصدونه ويتعرضون له لينال منهم، ولم يكن يفعل.وكان يعيش من بستان له خلفه عليه أبوه بالخربية... وكان... يحج سنة ويغزو سنة إلى أن جاءه الموت[١٢].

وقد وصفه الإمام الذهبي بأنه كان "ديناً، ورعاً، قانعاً، متواضعاً، كبير الشأن"[١٣].

وأتوقف قليلاً عند صفة الورع، فإنني لمست ذلك من خلال هذا البحث، عندما كان يفسر بعض الألفاظ دون أن يقول فيها قال الله ﷻ ونحوها، ويبدو أن الخليل هو الذي أثر في تلميذه الأصمعي الذي كان معروفاً بالتحرج من تفسير القرآن الكريم.

ومما يستنبط من كلامه: أنه كان يتحلى بالعفو، يقول في ذلك:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب وإن كثرت منه عليّ الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف فضله وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا تفضلت إن الفضل بالعز حاكم
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن إجابته عرضي وإن لام لائم[١٤]

ولبيان زهده نورد هذه القصة، التي صدرها ابن الأنباري بقوله: "كان رحمه الله تعالى من الزهاد في الدنيا، المعرضين عنها، وروي أنه وجه إليه سليمان بن علي من الأهواز لتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً يابساً، وقال: كلْ فما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي إلى سليمان، فقال له الرسول: فما أبلغه عنك؟ فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة وفي غنى غير أني لست ذا مال
سخّى[١٥] بنفسي أني لا أرى أحداً يموت هَزلاً ولا يبقى على حال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال
فالرزق عن قَدَر لا العجز ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال[١٦]

وفيما يتعلق بعلمه فقد وصفه العلماء بصفات جليلة، نورد بعضها: "الإمام صاحب العربية، ومنشئ علم العروض، أحد الأعلام. كان رأساً في لسان العرب"[١٧].

وفي نزهة الألباء[١٨] "سيد أهل الأدب قاطبة، في علمه وزهده، والغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله".

وفي طبقات النحويين[١٩]"كان الخليل ذكياً، فطناً، شاعراً، واستنبط من العروض، ومن علل النحو، ما لم يستنبط أحد، وما لم يسبقه إلى مثله سابق".

وقال عنه الزبيدي: "كان أعلم الناس وأتقاهم".[٢٠]

وأود أن أذكر نقولاً تتعلق بالقراءات - لكون الخليل أكثر من ذكرها- لأني لم أجد من المترجمين له من توسع في هذه النقطة؛ ولعل مرد ذلك غلبة العلوم

الأخرى عليه، وهذه العبارات من عالم بالقراءات، أعني به: أبا حيان الأندلسي[٢١] إذ يقول: "... وقرأ بعض المكيين فيما روى عنه الخليل بن أحمد وحكاه عن ابن عطية (مردفين) بفتح الراء وكسر الدال مشددة أصله مرتدفين فأدغم"[٢٢].

"قرأ الخليل بن أحمد: فرغاً، بضم الفاء والراء"[٢٣].

"... قراءة ذكرها الخليل بن أحمد في كتابه العين: العبدين، بإسكان الباء..."[٢٤].

آثـــــاره:

"العين، الجمل، كتاب النغم، كتاب العروض، كتاب الشّواهد، كتاب النقط والشّكل[٢٥]. وأود أن أذكر كلمة ابن خلدون بشأن الداعي لتأليف كتاب العين، فإنها نفيسة، ولأن لها تعلقاً بموضوع البحث، يقول – رحمه الله–: " علم اللغة، هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية، وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي، في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب، واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه، ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم، حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم، ميلاً مع هُجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين؛ خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين، وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي. ألف فيها كتاب العين، فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي وتأتي له حصر ذلك بوجوه عددية حاصرة..."[٢٦].

وفاته:

تعددت الأقوال في سنة وفاة الخليل، يقول الصفدي: "مات سنة خمس وسبعين ومائة، وقيل: سنة سبعين، وقيل: ستين ومائة"[٢٧]، وقيل غير ذلك. والله أعلم.

المطلب الثاني: تفسير غريب القرآن

تدور أغلب ألفاظ (غرب) حول البعد والاختفاء، وفي الصحاح: "الغُربة: الاغتراب، تقول منه: تَغَرَّبَ، واغتربَ، بمعنى، فهو غريب وغُرُب أيضاً. والجمع الغُرَباء. والغُرَباء أيضاً: الأباعد. واغترب فلانٌ، إذا تزوّج إلى غير أقاربه"[٢٨]. وفي لسان العرب[٢٩]: "دارُهم غَرْبَةٌ نائِيَةٌ وأَغْرَبَ القومُ انْتَوَوْا وشَأْوٌ مُغَرَّبٌ ومُغَرَّبٌ بفتح الراء بعيد قال الكميت:

عَهْدَك من أُولَى الشَّبِيبةِ تَطْلُبُ... على دُبُرٍ هيهاتَ شَأْوٌ مُغَرَّبُ ".

ويعرف الخطابي الغريب اصطلاحاً، فيبين أنه يقال على وجهين:

"أحدهما: أن يراد به بعيد المعنى غامضه، لا يتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر. والوجه الآخر: أن يراد به كلام من بعدت به الدار ونأى به المحل من شواذ القبائل، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها، وإنما هي كلام القوم وبيانهم[٣٠].

وفي التعريفات[٣١]: "الغرابة كون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى، ولا مأنوسة الاستعمال".

وقد عرفها بعض المعاصرين فقال: "هي أن يكون اللفظ غير ظاهر المعنى، ولا مألوف الاستعمال لدى النابهين من الكتاب والشعراء"[٣٢].

أهمية غريب القرآن:

علم غريب القرآن له أهمية كبيرة، ولذا يقول الزركشي: "هذا الباب عظيم الخطر، ومن هنا تهيب كثير من السلف تفسير القرآن وتركوا القول فيه؛ حذراً أن يزلّوا فيذهبوا عن المراد، وإن كانوا علماء باللسان فقهاء في الدين، وكان الأصمعي وهو إمام اللغة لا يفسر شيئاً من غريب القرآن. وحكى عنه أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾، فسكت، وقال: هذا في القرآن، ثم ذكر قولاً لبعض العرب في جارية لقوم أرادوا بيعها: أتبيعونها وهي لكم شغاف، ولم يزد على هذا. ولهذا حث النبي ﷺ على تعلم إعراب القرآن وطلب معاني العربية.

واعلم أنه ليس لغير العالم بحقائق اللغة وموضوعاتها تفسير شيء من كلام الله. ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركاً وهو يعلم أحد

المعنيين والمراد المعنى الآخر، وهذا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من أفصح قريش، سئل أبو بكر عن الأب فقال أبو بكر: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كلام الله ما لا أعلم. وقرأ عمر سورة عبس، فلما بلغ الأب، قال: الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم قال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف....

وما ذاك بجهل منهما لمعنى الأب، وإنما يحتمل -والله أعلم- أن الأب من الألفاظ المشتركة في لغتهما أو في لغات، فخشيا إن فسراه بمعنى من معانيه أن يكون المراد غيره...

ويحتمل قول عمر... وجهين: **أحدهما**: أن يكون خفي عليه معناه وإن شهر، كما خفي على ابن عباس معنى ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ﴾.

والثاني: أراد تخويف غيره من التعرض للتفسير بما لا يعلم... (٣٣).

لذا حرص الصحابة ﷺ، والتابعون على تعلم لغة العرب، قال مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب"(٣٤).

نشأة هذا العلم:

أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلسان عربي مبين، فلم يجد الصحابة ﷺ عناء في فهم المراد منه، وإن غاب عنهم شيء أو أشكل، سألوا رسول الله ﷺ، "واستمرّ عصره ﷺ إلى حين وفاته على هذا السَّنَن المستقيم. وجاء العصر الثاني -وهو عصر الصحابة- جارياً على هذا النَّمط سالكاً هذا المَنهج. فكان اللسان العربي عندهم صحيحاً محْرُوساً لا يَتَدَاخَلُهُ الخَلل ولا يَتَطرَّقُ إليه الزَّلَل، إلى أن فُتحت الأمصار وخالطَ العربُ غيرَ جنسهم... فاختلطت الفرق، وامتزجت الألسُن، وتداخَلَت اللغاتُ، ونشأ بينهم الأولاد، فتعلموا من اللسان العربي ما لا بدّ لهم في الخطاب منه، وحفظوا من اللغة مالاً غِنَى لهم في المحاوَرَةِ عنه، وتركوا ما عداه لعدم الحاجة إليه، وأهملوه لقلّة الرَّغبة في الباعث عليه، فصار بعد كونه من أهمّ المعارف مُطَّرَحاً مهجوراً.... وتمادت الأيامُ والحالة هذه على ما فيها من التَّماسُك والثَّبات واستَمرَّت على سَنَنٍ من الاستقامة والصلاح إلى أن انقرض عصرُ الصحابة، والشأنُ قريب والقائمُ بواجب هذا

الأمر لقلّته غريب. وجاء التابعون لهم بإحسان، فسلكوا سبيلهم لكنهم قلُّوا في الإتقان عدداً، واقتفوا هديهم، وإن كانوا مدوا في البيان يَدَاً، فما انقضى زمانُهم على إحسانهم إلاّ واللسانُ العربيُّ قد استحال أعجمياً أو كاد، فلا ترى المُستقِلَّ به والمحافظَ عليه إلاّ الآحاد...، فلما أعضلَ الدّاء وعزّ الدّواء، ألهمَ اللّه ﷻ جماعة من أولي المعارف والنُّهى وذوي البصائر والحِجَى، أن صرفوا إلى هذا الشأن طَرَفاً من عنايتهم، وجانباً من رِعايَتهم فشرَّعوا فيه للناس مواردا، ومهَّدوا فيه لهم معاهدا؛ حراسة لهذا العلم الشريف من الضياع، وحفظاً لهذا المهم العزيز من الاختلال...[٣٥] فألّف العلماء الكتب في هذا الشأن، وتعددت مناهجهم، فمنهم من توسع في شرح الألفاظ، مكثراً من الشواهد، ومنهم من أوجز، ومنهم من توسّط، كما تنوعت مناهجهم، فمنهم من رتّب مؤلَّفه حسب ترتيب السور، ويغلب هذا على المحاولات الأولى، كما فعل أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، وابن قتيبة في (تفسير غريب القرآن)، ومنهم من نحا منحى الترتيب على حروف الهجاء، كالسجستاني في (نزهة القلوب)، والراغب الأصفهاني في (مفردات ألفاظ القرآن).

وأتوقف هنا لأبين أن سبب التأليف في علم اللغة، وقد مر على لسان ابن خلدون[٣٦]، هو نفسه الباعث على تأليف الكتب في علم الغريب، كما بينه ابن الأثير.

نكتفي بهذا القدر، والآن إلى موضوع البحث:

تطرق الخليل لجوانب عدة في كتابه العين عند تناوله لغريب القرآن، وسيحاول هذا البحث بيانها بإذن الله تعالى، إجمالاً، ثم يتناولها بشيء من التفصيل...

لما كان كتاب العين كتاب لغة في المقام الأول، فكان الجانب اللغوي هو الأظهر في منهجه، فتراه يعرض لمعاني الألفاظ القرآنية، فيذكر تارة قولاً واحداً وتارة أكثر من ذلك، ثم يستشهد عليه أحياناً بالقرآن الكريم وأحياناً بالحديث الشريف، وفي أحايين كثيرة بالشعر منسوباً لقائله وغير منسوب، وحقل منهجه بالكثير من الجوانب الصرفية، وغير قليل من الجوانب النحوية، وأقل من ذلك الناحية البلاغية، كما أنه يتناول القراءات المتواترة والشاذة، إلى جانب هذا كله فقد تناول ما لا يتم فهم اللفظ إلا به، كأسباب النزول، وذكر أحوال العرب في الجاهلية،

وغير ذلك مما أضفى على غريب القرآن بعداً آخر أو لنقل عمقاً ما كانت الألفاظ لتفهم دون معرفة هذه الملابسات التي تكتنف اللفظ، وقد كان في كل ما تناوله متوخياً دقة التعبير وسهولته، دون إطناب ولا إملال.

والآن إلى شيء من التفصيل:

الجانب اللغوي:

شاء الله ﷻ أن يكون القرآن باللسان العربي، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف:٢]، ولذا كان لزاماً على من يتصدى لتفسير القرآن عامة، ولغريبه خاصة، أن يكون عالماً بأمور كثيرة، منها: المعرفة بلغات العرب. يقول مالك ابن أنس: "لا أتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نكالاً"[٣٧].

وقد كان للخليل المكانة العالية في هذا الباب، فأولاه العناية الفائقة في شرحه لغريب القرآن، وقد كان تناوله لهذا الجانب الآتي:

شرح الألفاظ القرآنية:

يذكر الخليل معنى واحداً للفظ القرآني، هذا هو المنهج الغالب عليه، وقد يذكر في أحيان ليست بالقليلة قولين، أما أكثر من ذلك فهو قليل جداً، وفيما يأتي أمثلة توضح ما ذلك:

أولاً: ذكر معنى واحد للفظ القرآني.

"الفارِضُ في قوله تعالى: ﴿لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ﴾[البقرة: ٦٨]، أي: لا مُسِنَّة". [فرض]

"وتقول: انظُرني يا فلانُ، أي استَمِعْ إليَّ، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ انظُرْنَا﴾: [البقرة: ١٠٤] [نظر]

"الإكْنانُ: ما أضمرت في ضميرك، قال الله ﷻ: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾[البقرة: ٢٣٥]، يعني: الضمير". [كن]

ثانياً: ذكر معنيين:

اللَّمَمُ: الإلمام بالذَّنب الفَيْنَة بَعْدَ الفَيْنة.

يقال: بل هو الذَّنب الذي ليس من الكبائر، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ

الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾"[النجم: ٣٢]. [لم]

"﴿فَتَعاطَى فَعَقَرَ﴾[القمر: ٢٩] قالوا: قام الشَّقيّ على أطراف أصابع رجليه، ثمّ رفع يديْه فضربها فعقرها.

ويقال: بل تَعاطيه جُرْأتُه، كما تقول: تعاطى أمراً لا ينبغي له". [عطو]

"﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[المدثر: ٥١] أي رماة.

ويقال: أسد". [قسر]

ثالثاً: ذكر ثلاثة معان:

"قوله ﷻ: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[النور: ٣٨] اختُلِفَ فيه: يقال: بغير تقدير على أجْرٍ بالنقصان.

ويقال: بغير مُحاسبة، ما إنْ يخاف أحداً بحاسبه.

ويقال: بغير أن حَسِبَ المُعطَى أنّه يعطيه: أعطاه من حيثُ لم يَحتَسِب". [حسب]

ولم أقف على أكثر من ثلاثة معان للفظ، والله أعلم.

ذكر اللغات المتعلقة باللفظة القرآنية:

نزل القرآن بلغة قريش، ولكنه مع ذلك حوى لغات أخرى، وقد كان للقرآن الكريم الفضل في حفظها، ولم يغفل العلماء وهم يتعرضون لتفسير غريب القرآن عن ذكر اللغات المتعلقة بذلك، وكذلك فعل الخليل:

"﴿الدَّرَكِ﴾[النساء: ١٤٥]: واحد من أدْراك جهنم من السبع. والدَّرْك: لغة في الدَّرَك الذي هو من القعر". [درك]

"هو بور وهي بور، وهما بور (وهم بور، وهن بور)، هذا في لغة، وأما في اللغة الفصلى فهو بائر، وهما بائران، وهم بور، أي: ضالون هلكى، ومنه قول الله ﷻ:﴿وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً﴾"[الفتح: ١٢]. [بور]

"(ها)، بمعنى: خُذْ، فيه لغاتٌ للعرب معروفةٌ، ويُقال: ها يا رجلُ، وللرَّجُلَيْن: هاؤما، وللرِّجال: هاؤم. قال الله جلّ وعزّ في هذه اللّغة، لأنّ القرآنَ نَزَل بها: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ﴾[الحاقة: ١٩]... ". [هاء]

استعمال العرب:

يذكر الخليل استعمالاً للعرب فيما يتعلق بالألفاظ التي يتطرق لشرحها مما يضفي على اللفظ معنى عميقاً، من أمثلة ذلك:

"قول العرب: مُرُّ الطَّعْمِ وحُلْو الطَّعْمِ، معناه: الذَّوق، لأنَكَ تقول: اطْعَمْهُ، أي: ذُقْهُ، ولا تُريد به امضَغْه كما يُمْضَغ الخبز، وهكذا في القرآن: ﴿ومَنْ لم يَطْعَمْهُ فإنّه منّي﴾[البقرة: ٢٤٩]. [طعم]

"الضَّرُّ والضُرُّ لغتان، فإذا جَمَعْتَ بين الضَرِّ والنَّفْعِ فتَحْتَ الضادَ، وإذا أفرَدْتَ الضُرُّ ضَمَمْتَ الضاد إذا لم تجعله مصدراً، كقولك ضَرَرْتُ ضُرّاً، هكذا يستعمله العَرَبُ. وقال الله تعالى: ﴿واذا مَسَّ الانسانَ الضُرُّ دعانا لجَنْبِه﴾[يونس: ١٢]. [ضر].

"ظَلَّ فلانٌ نهارَه صائماً، ولا تقول العرب: ظَلَّ يَظَلُّ إلاّ لكل عَمَل بالنهار، كما لا يقولون: باتَ يَبيتُ إلاّ باللَّيل، ومن العَرَب من يحذف لام ظَلِلتُ ونحوها حيث يظهران، فأما أهل الحجاز فيكسرون الظاء على كسرة اللام التي أُلقِيَتْ، فيقولون ظِلْنا وظِلْتُم، والمصدر الظلول، والأمر منه ظَلَّ واظْلَلْ، وقال الله جلّ وعز: ﴿ظَلْتَ عليه عاكفاً﴾[طه: ٩٧] [ظل].

الدقة في تفسير الألفاظ القرآنية:

عندما نذكر أن الخليل كان بارعاً في تفسير الألفاظ؛ فلكونه من أئمة هذا الشأن، وقد تجلى هذا الأمر في مواطن كثيرة، منها:

"البَتْكُ: قطع الأذن من أصلها. قال الله تعالى: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾[النساء: ١١٩]"[٣٨]. [بتك].

"التَحريض: التَحضيض... وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾[يوسف: ٨٥]، أي: مُحْرَضاً يُذيبك الهَمُّ، وهو المُشرِف حتى يكاد يَهلِك. رجلٌ حَرَضٌ ورجال أحراض"[٣٩]. [حرض].

"الأَسَفُ: الحُزْن في حال. والغضب في حال، فإذا جاءك أمرٌ مِمَّنْ هو دونك فأنت أسِفٌ، أي: غضبان، وإذا جاءك ممَن فوقك، أو من مثلك فأنت أسِفٌ، أي: حزين. فقوله جلّ وعزّ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[الزخرف: ٥٥]، أي: أغضبونا". [أسف]

ذكر الفروق اللغوية:

يبين الخليل أحياناً الفروق التي تكون بين الكلمتين اللتين يظن أن بينهما ترادفاً، من ذلك:

"الجنف: المَيلُ في الكلام، وفي الأمور كُلِّها، تقول: جَنَفَ فلانٌ علينا، وأجنَفَ في حُكمه، وهو شبيهٌ بالحَيف، إلا أنَّ الحَيفَ من الحاكِم خاصَّةٌ، والجَنَفُ عامٌّ. ومنه قول اللّه ﷻ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً﴾[البقرة: ١٨٢]".[جنف]

"الفِرقُ طائفة من الناس ومن كل شيء، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] يريد من الماء. والفَريقُ من الناس أكثر من الفِرْق". [فرق]

"درأت عنه الحد أي: أسقطته من وجه عدل، قال الله ﷻ: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾[النور: ٨]، والتَّعطيلُ: أن تُترَكَ إقامةُ الحد، ويقال في هذا المعنى بعينه: دَرَأْتُ عنه الحَدَّ دَرْءاً... "[٤٠]. [درأ]

الكليات:

نجد الخليل في بعض المواطن يورد كليات قرآنية، وهي ما يقول فيه العالم: كل ما ورد في القرآن من كذا فهو بمعنى كذا، وقد أورده بعض العلماء ضمن مبحث الوجوه والنظائر[٤١]، ومن الأمثلة التي نذكرها:

الطُّغْيان: الواوُ لغةٌ فيه، وقد طَغَوْتِ وطَغَيتُ، والاسم الطَّغْوَى.

وكل شيء يجاوز القدر فقد طغَى... ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾[البقرة: ٢٥٦] وتاؤه زائدة مشتق من طَغَى".[طغو]

وقد لا يعبر بـــ (كل)، بل يقول مثلاً: ... في القرآن كذا، مثاله:

"الرِّجسُ في القرآن العذاب كالرِّجز، وكلُّ قَذَرٍ رِجسٌ".[رجس]

"اللَّعْنَةُ في القرآن: العذابُ". [لعن]

ونجد الخليل منحرياً في كلياته، فيستثني منها، كما يبينه المثال الآتي:

"وكلّ شيء في القرآن فيه لولا يُفَسَّر على هلاّ غير الّتي في سورة الصّافّات: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾[الصافات: ١٤٣]، أي: فلو لم يكن.. ". [ولا]

الشواهد:

تعددت الشواهد عند الخليل، فهو يستشهد على اللفظة بالقرآن الكريم، وبالحديث الشريف، وبالشعر منسوباً أحياناً وأحياناً غير منسوب، كما كان يعتمد على أساليب العرب في كلامهم، ولنضرب بعض الأمثلة التي توضح هذا الأمر:

أولا: من القرآن الكريم:

"كانَ أصحابُ النبي- صلى الله عليه وعلى آله وسلّم - يُفْتَتُون بدينهم، أي: يُعَذَّبُون ليَرْتَدّوا عن دينهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، والفِتْنَةُ: العَذاب".[فتن]

"التأذُّنُ من قولك: تَأَذَّنْتُ لأفعَلَنَّ كذا، يُرادُ به إيجاب الفعل في ذلك، أي: سأفعَلُ لا مَحالةَ... وتَأَذَّنْتُ: تَقَدَّمْتُ، كالأمير يَتَأَذَّنُ قبلَ العُقوبة، ومنه:﴿وإذ تأذَّنَ ربُّكَ﴾" [الأعراف: ١٦٧].[أذن]

"الحفايَةُ: مصدرُ الحَفِيّ، وهو اللطيف بك يَبَرُّكَ ويلطفك، ويحتفي بك، ومنه قوله تعالى:﴿إنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[مريم: ٤٧]، أي: بَرّاً لطيفا، وقوله ﷻ:﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أي: كأنّك مَعْنِيٌّ بها".

ثانيا الحديث الشريف:

الخليل مقلّ في الاستشهاد بالحديث الشريف على الألفاظ القرآنية الغريبة، ومن أمثلة ما استشهد به:

"المضاهاة: مُشاكلةُ الشّيء الشّيءَ قال الله ﷻ: ﴿يُضَاهِونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[التوبة: ٣٠]، وربّما همزوا، ﴿يُضَاهِئُون قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: يقولونَ مثلَ قولهم. وفي الحديث: (أشدُّ النّاس عذاباً الّذينَ يُضاهِئُونَ خَلْقَ الله)". [ضهي]

"الوبيلُ من المراعي: الوخيم، لا يُستَمْرَأ. تقول: استوبل القَوْمُ هذه الأرض، قال : لقد عشّيتها كَلأً وبيلاً. وقوله ﷻ: ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾[المزمل: ١٦]، أي: شديداً في العقوبة.. وفي الحديث: (أيّما مالٍ أدّيتَ زكاتَه فقد ذَهَبَتْ أبْلَتُه)، أي: وَبَلَتُه، فجعل الهمزةَ بدلَ الواو، وهي الوَخامة ". [وبل]

"الحافِرة: العَوْدة في الشيء حتى يُرَدَّ آخره على أوّله، وفي الحديث: (إنَّ هذا الأمر لا يُترَكُ على حاله حتى يُرَدَّ على حافرتِه)، أي: على أوّل تأسيسه.

وقوله تعالى: ﴿أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾[النازعات: ١٠] أي: في الخَلْق الأول بعدما نموتُ كما كُنّا".[حفر].

الشواهد الشعرية:

"روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "إذا سألتموني عن غريب اللغة فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب"[٤٢]، فلا غرابة والحال كذلك إذا رأينا الخليل يورد بين الحين والآخر شواهد شعرية لما يذكره من شرح للألفاظ الغريبة، ومن بين أكثر من ستمائة لفظة قرآنية شرحها الخليل، أحصيت له ما يقارب خمسة وستين شاهداً شعرياً منسوباً وغير منسوب، بيتاً أو شطر بيت، ولنبدأ بذكر أمثلة الشواهد المنسوبة:

"الصَّعيد: وجه الأرض قلّ أو كثر، تقول: عليك بالصَّعيد، أي: اجلس على الأرض. وتَيَمَّم الصَّعيد، أي: خذ من غباره بكفيك للصلاة، قال الله ﷻ: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[النساء: ٤٣] قال ذو الرّمة:

قد استحلّوا قسمةَ السجود... والمسحَ بالأيدي من الصّعيد". [صعد]

"﴿مُرَاغَمًا كَثِيرًا﴾[النساء: ١٠٠] أي: متسعاً لهجرته، قال الجَعْديّ:

عزيزُ المُراغَمِ والمَهْرَبِ". [رغم]

"كُبْرُ كل شيء: عظمه. وقوله ﷻ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾[النور: ١١] يعني: عظم هذا القذف. ومن قرأ: ﴿كِبْرَه﴾، يعني: إثمه وخطأه. قال علقمة:

بدت سوابق من أولاه نعرفها... وكُبْرُهُ في سواد الليل مستور". [كبر]

ومما استشهد به من غير أن ينسبه لقائله – وهو أقل مما نسبه –:

"تمنّى كتابَ الله، أي: تلاه، وقوله ﷻ: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] أي: تلا، قال:

تَمَنَّى كتاب الله أوّلَ ليلِهِ... وآخره لاقى حِمامَ المَقادرِ

في مرثية عثمان بن عفّان"[٤٣]. [منا]

سمّي الإنسان من النّسيان. والإنسانُ في الأصل: إنْسيان، لأنّ جماعته: أناسيّ وتصغيرُه أُنيسيان، يرجع المدّ الذي حذف وهو الياء، وكذلك إنسانُ العين، جمعه: أناسيّ، قال:

إذا استوحشتْ آذانُها استأنست لها... أناسيُّ ملحود لها في الحواجب

وقال الله ﷻ: "﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾"[٤٤][الفرقان: ٤٩]. [نسي].

"والذليل مُقمَح: لا يكادُ يرفَعُ بصرَه. وقولُ الله ﷻ: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾[يس: ٨] أي: خاشعون لا يَرفَعُونَ أبصارهم، وقال الشاعر:

ونحن على جوانبِه عُكُوفٌ... نَغُضُّ الطَّرْفَ كالإبلِ القِماحِ "[٤٥]. [قمح]

الجانب الصرفي:

لا شك في أهمية علم الصرف لمن يتناول تفسير غريب القرآن؛ لأنه "ميزان العربية، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها، ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به"[٤٦] ولقد عده بعض العلماء "أشرف شطري العربية"[٤٧]، ولذا أولاه الخليل عناية كبيرة، ولنعرض بعض الأمثلة التي تبين مبلغ اهتمامه:

"والنَّسَلانُ: مِشيةُ الذِّئب إذا أعنَقَ وأسرَعَ، والماشي يَنسِلُ أي: يُسرِع نَسَلاناً. وقولُه تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[الأنبياء: ٩٦] أي: يُهرْوِلون ويُسرِعون.

وأما يَنسِلُ نُسُولاً فخروج الشيء من الشيء وسُقوطُه كتَسيلِ شَعر الدّابّة إذا نَسَل فسَقَطَ قِطَعاً قِطَعاً، والقِطعَةُ: نُسالَتُه". [نسل]

"﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾[القصص: ١٠]، أي: خاليا من الصبر، قرئ: (فُرْغا)، أي: مُفَرَّغاً، يكون (فعل) موضع (مفعل)، مثل: (عطل) سورة(معطل)". [فرغ]

"الإرادة أصلها الواو، ألا ترى أنك تقول: راوَدتُه، أي: أردتُه على أن يفعل كذا، وتقول: راوَدَ فلانٌ جاريتَه عن نفسها، وراوَدَتْه هي عن نفسه إذا حاوَل كلٌّ منهما من صاحبه الوَطْءَ والجماعَ، ومنه قول الله جلّ وعزّ: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف: ٣٠] فجعل الفعل لها". [رود]

الاشتقاق:

لأهمية الاشتقاق، يستحسن أن تفرد له بعض الأمثلة:

"الحَبَط: وَجَع يأخُذُ البعيرَ في بَطْنه من كَلأ يَستَوْبِلُه، يقال: حَبِطَتِ الإبل تحبَط حَبَطاً. وحَبِطَ عَمَلُه: فَسَدَ، وأحبَطَه صاحبُه، واللهُ مُحْبِطٌ عَمَلَ من أشرَكَ". ﴿فأولَـئِكَ حَبِطَتْ أعْمالُهُمْ..﴾[البقرة: ٢١٧] [حبط].

"الرجل يلْتَحِد إلى الشَيء: يلجأ إليه ويميل، يقال: ألْحَد إليه ولَحَدَ إليه بلسانه، أي: مال،... وألْحَد في الحَرَم، ولا يقال: لَحَدَ إذا تَرَكَ القَصد ومال إلى الظلم، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ [الحج: ٢٥] يعني في الحَرَم". [لحد]

"﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾[النور: ٣٥] على فِعّيل: من تَوَقُّده كأنّه يدرأ دُرُوءً، كأنّه يُخرجُ نفسَه من السَّماء". [درء]

"المنسأة: العصا، لأن صاحبها ينسأ من نفسه وعن طريقه الأذى، وبها سميت عصا سليمان عليه السلام: منسأة [يقصد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ [سبأ: ١٤]". [نسأ]

الجانب النحوي:

وُصف الخليل بأنه كان "الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله"[٤٨]. وبالرغم من ذلك، إلا أنه لم يكثر- وهو يشرح الألفاظ القرآنية- من تناول هذا الجانب، وسننتقي بعض الأمثلة التي توضح لنا منهجه:

"(لو): حرفُ أمنيّة، كقولك: لو قَدِم زيدٌ، ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾[البقرة: ١٦٧] فهذا قد يُكتَفى به عن الجواب.

وقد تكون (لو) موقوفةً بين نَفْي وأُمْنيّة إذا وُصِلَتْ بلا. كقولك: لولا أكرمتني، أي: لم تُكرمني، ولا يكون جواب لو إلاّ بلامٍ إلاّ في اضطرار الشِّعر.. وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾[البقرة: ١٦٥]، إنّما اختارَ مَن اختارَ قراءتها بالتّاء حملاً على نظائرها، نحو قوله عزّ من قائل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾[سبأ: ٥١]، وأشباه ذلك يُكْتَفَى بالكلام بها دون جوابها، لأنّ لو لا تجيء إلاّ وفيها ضميرُ جوابها، فإن أظهرتَ الجوابَ أو لم تُظْهِرْه فكُلٌّ حَسَنٌ".

"(ما): حرفٌ يكونُ جحداً، كقوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[النساء: ٦٦]".

"سُبْحانَ الله: تنزيه لله عن كل ما لا ينبغي أن يُوصف به، ونصبُه في موضع فعل على معنى: تَسبيحاً لله، تُريدُ: سبَحْتُ تَسبيحاً لله أي: نزّهتُه تنزيهاً. ويقال: نُصِبَ سُبحانَ الله على الصَّرْف، وليس بذلك، والأول أجود". [سبح]

الذي يود الباحث لفت الأنظار إليه أن ما ذكره الخليل ههنا من أن (سبحان) نصبت على المصدرية قد تابعه عليه جلّ علماء النحو... كما أن شخصية الخليل تبدو جليّة من خلال هذه الأمثلة، وهذا ليس بغريب على مثله.

الجانب البلاغي:

يعد الجانب البلاغي من أقل الجوانب ذكراً فيما نحن بصدده، ولعل مرد ذلك طبيعة الموضوع، إذ هو في غالبه تفسير للألفاظ، ومع ذلك وردت بعض المواضع، منها:

"رَبحَ فُلانٌ وأَرْبَحتُه، وبَيْعٌ مُرْبِحٌ إذا كان يُرْبَحُ فيه، والعرب تقول: رَبِحَتْ تِجارتُه إذا رَبِحَ صاحبُها فيها، قال الله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾[البقرة: ١٦]". [ربح]

لا يخفى أن فيما مر ما يسمى بالمجاز العقلي، وقد تناوله الخليل بيسر ودون أي تعقيد.

"الرَّفَثُ: الجِماعُ، رَفَثَ إليها وتَرَفَّثَ، وهذه كنايةٌ. وفلانٌ يرفُثُ، أي: يقول الفُحْش، وقال ابن عبّاس: الرَّفَث ما قيل عند النِّساء، وقوله ﷻ: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ﴾ [البقرة: ١٩٧] إنّما نَهى عن قول الفُحْش". [رفث]

"الفاكهةُ قد اختُلِفَ فيها، فقال بعضُ العُلَماء: كلّ شيءٍ قد سُمّي في القرآن من الثِّمار، نحو العنب، والرّمّان فإنّا لا نُسمّيه فاكهةً، ولو حَلَفَ أن لا يأكل فاكهةً فأكَلَ عنباً ورُمّاناً لم يَكُنْ حانثاً.

وقال آخرون: كلُّ الثِّمارِ فاكهةٌ، وإنّما كرّر في القرآن فقال ﷻ: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، لتفضيل النَّخْل والرُّمّان على سائر الفواكه. وذلك أسلوب اللّغة العربية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[الأحزاب: ٧] وكرّر هؤلاء للتفضيلِ على النَّبيّين، ولم يُخْرِجوا منهم. وقال من خالف: لو كانا فاكهةً ما كُرِّرا".

ذكر الخليل هنا ما سمي فيما بعد ذكر الخاص بعد العام، وبين دلالته وأنها للتفضيل، وبقي أسلوب الخليل محافظاً على يسره وعمقه.

هذه بعض الأمثلة التي توضح منهج الخليل في الجانب البلاغي وهو يعرض لتفسير غريب القرآن، وكما أسلفنا فقد كان الخليل مقلاً جداً فيه.

جوانب أخرى:

هناك من الألفاظ الغريبة ما لا يمكن معرفة المراد منها دون الإلمام بأمور أخرى لا يكفي لإدراكها مجرد معرفة اللغة، من ذلك، القراءات، وأسباب النزول، ومعرفة أحوال العرب وما كانوا عليه عند نزول القرآن، فلو سئل الإنسان عن معنى كلمة: النسيء الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾[التوبة: ٣٧]، وطلب منه بيان معناها، لربما أدرك من اللغة أن معنى النسيء: التأخير، وهذا صواب، ولكن ماذا لو كان السؤال: تأخير ماذا؟ هنا لا بد من معرفة أحوال العرب، وهذا ما فعله الخليل، فهو لم يكتف بمجرد التفسير اللغوي، وإنما أضاف أمورا أخرى ضرورية لتجلية المراد، من هذه الأمور:

القراءات:

لا يكاد يوجد علم من علوم العربية بله الشريعة إلا وتعد القراءات رافداً من روافده الثرة، فالنحو والصرف وعلوم البلاغة، والمعاجم اللغوية وكتب الغريب زاخرة بالقراءات القرآنية(٤٩).

وعلى هذا النهج سار الخليل، فلقد أحصيت له ما يقارب سبعين موضعاً أورد فيها قراءات متواترة وأخرى شاذة، لا ينسبها في الغالب إلى قارئها، وإذا نسب فإنه لا ينسب إلى القراء المعروفين: أعني القراء السبعة، أو العشرة، أو من فوقهم –فيما سوى الحسن– وإنما ينسبها للصحابة والتابعين، ولعل مرد ذلك تقدمه في الزمن، فكثير من هؤلاء، إما عاصرهم، وإما جاءوا بعده. والأمثلة كفيلة بكشف جانب من منهجه فيها، وقبل ذلك أود أن أبين أن الأصل في منهجه أن يذكر اللفظة الغريبة ثم يورد القراءة الأخرى، لكنه في أحايين أخرى، يصدر كلامه بقوله: وقرئ، أو: ويقرأ، وهو في هذه الحالة لا يذكر إلا قراءة واحدة، وغالباً ما تكون شاذة:

القراءات المتواترة:

قال ابن الجزري: "الذي وصل إلينا اليوم متواتراً وصحيحاً مقطوعاً به قراءات الأئمة العشرة ورواتهم المشهورين، هذا الذي تحرر من أقوال العلماء، وعليه أكثر الناس اليوم... (٥٠).

وتعدد القراءات لا يخلو من ثلاثة أمور:

الأول : أن يتعدد اللفظ والمعنى واحد.

الثاني : أن يتعدد اللفظ والمعنى كذلك، لكنه تعدد تنوع لا تضاد.

الثالث : أن يتعدد اللفظ والمعنى مع امتناع اجتماعها في شيء واحد؛ لاستحالة اجتماعها فيه، ولكنهما يجتمعان من وجه آخر(٥١).

مثال الأول:

"الخلقُ: الجبلةُ، وكلُّ أمّةٍ مضت فهي جِبِلّةٌ على حدةٍ، وقال تعالى:﴿وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾[الشعراء: ١٨٤]... ومن قرأ: ﴿جُبُلاً﴾ فهو الجِبِلة ومعناها واحد ". [جبل]

ومثال الثاني:

"﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾[المدثر: ٣٣] أي: ولّى ليذهب، ومن قرأ: ﴿إِدبَرَ﴾، أي: تبع النّهار". [دبر]. هنا الكلام عن الليل، والمعنيان وإن اختلفا، فمردهما واحد.

ومثال الثالث:

"قوله عز اسمه:﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[آل عمران: ٣٧] أي: هو كَفَلَ مريم لينفق عليها، حيث ساهموا على نفقتها حين مات أبواها فبقيت بلا كافل. ومن قرأ بالتثقيل(٥٢) فمعناه: كَفَّلها الله زكريا". [كفل]

في هذا المثال يظهر الاختلاف، ففي القراءة الأولى كفل زكريا عليه السلام مريم، وفي الثانية: كفل اللهُ تعالى زكريا مريم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يتكامل المعنى، فالله تعالى ألهم زكريا ووفقه لكي يكفل مريم، فقام زكريا بهذه المهمة فكفلها. والله تعالى أعلم.

نسبة القراءات لأصحابها:

الغالب على صنيع الخليل أنه لا ينسب القراءات لأصحابها، وهذه بعض الأمثلة التي توضح منهجه:

"أعْصر القوم: أمْطِرُوا. قال الله ﷻ: ﴿وَفِيهِ يُعْصَرُونَ﴾[يوسف: ٤٩]. ويقرأ ﴿يَعْصِرون﴾ من عصير العنب...". [عصر]

"كُبْرُ كل شيء: عظمه. وقوله ﷻ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾[٥٣][النور: ١١]. يعني: عظم هذا القذف. ومن قرأ: ﴿كِبْرَه﴾، يعني: إثمه وخطأه ". [كبر]

وفي أحيان قليلة جداً نجد الخليل ينسب القراءة لقارئها، وهم الصحابة والتابعون فقط: مثال ذلك:

"وقرأتْ عائشة: ﴿بِظَنِينٍ﴾[٥٤][التكوير: ٢٤]، أي: بمُتَّهم ". [ضن]

"قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً﴾[الأعراف: ٣٨] أي: تداركوا، أدرك آخرهم أولهم فاجتمعوا فيها... عن الحسن: ﴿بَلِ ادْرَكَ علمهم فِي الْآخِرَةِ﴾[٥٥] [النمل: ٦٦] أي: جهلوا علم الآخرة، أي: لا علم عندهم في أمرها". [درك]

توجيه القراءات:

لم أقف على مثال واحد لقراءة متواترة لم يبيّن الخليل توجيهها، أما أمثلة ما وجَه فهي كثيرة، منها:

"ويُقرأ قوله تعالى: ﴿وحِرْمٌ على قَرْيَةٍ﴾[٥٦][الأنبياء: ٩٥]، أي: واجب عليهم، حَتْم لا يَرجعونَ إلى الدنيا بعد ما هَلَكُوا.

ومن قَرَأ: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ﴾[الأنبياء: ٩٥]، يقول: حُرِّمَ ذلك عليها فلا يُبْعَث دون يوم القيامة". [حرم]

"﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾[المؤمنون: ٤٤]، فمن لم يُنَوِّن[٥٧] جَعَلَها مثلَ سَكْرَى وجماعته، ومعناه: وَتْرَى، وجعل بدل الواو تاءً، ومن نَوَّنَ يقول: معناه: أرسَلْنا بَعْثاً، فجَعَلَ تَتْرَى فِعْلَ الفعل، وقيل: تَتْرَى، أي: رسولاً بعد رسول". [وتر]

"قوله تعالى: ﴿يوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ [النور: ٣٥]، رده على النور وأخرجه على التذكير من أوقَدَ وتَوَقَدَ، ومن قرأ تُوقَدُ فقد رده على النار، وتَوَقَّدَ رده على الكوكب، أو

على المصباح وهو السراج في القنديل.

وتَوَقَّدَ[٥٨] برفع الدال: معناه تتَوَقَّدُ أدغم إحدى التاءين في الأخرى ورده على الزجاجة".[وقد]

الترجيح بين القراءات المتواترة:

هذا الصنيع -أعني- ترجيح الخليل بين القراءات المتواترة، لم أقف له - في حدود اطلاعي- إلا على مثال واحد، وهو كاف في معرفة رأيه في هذه المسألة[٥٩]، ولكن ينبغي أن لا نغفل ما سبق أن بيناه وهو تقدم الخليل الزمني، حتى أن مسبع السبعة - كما سمي- وهو ابن مجاهد لم يكن قد ولد[٦٠]، وكذا بعض القراء، على أن ترجيح الأئمة بين القراءات لم يكن تفضيل قرآن على قرآن وإنما لغة على لغة، والمثال المذكور هو:

"الاختِراقُ كالاختِلاقِ، وتَخرُقُ الكذبِ كتَخلُّقِه، وقوله جل وعز، ﴿وخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وبَنَاتٍ﴾[الأنعام: ١٠٠]، بالتخفيف أحسن".

قلت: هما قراءتان متواترتان، قرأ نافع بتشديد الراء والباقون بتخفيفها"[٦١].

القراءات الشاذة:

مر عند الحديث عن القراءات المتواترة ذكر كلام ابن الجزري، ولذا فإن ما سوى القراءات العشر يعد من الشاذ، وبخاصة بعد أن استقر هذا الأمر.

ولقد بين العلماء أهمية القراءات الشاذة، وبخاصة فيما يتعلق بتفسير القرآن[٦٢]، ولذا فقد عني الخليل بها أيما عناية، بل لقد فاق ذكرها ذكر القراءات المتواترة، ومنهجه فيها هو نفسه الذي سار عليه في القراءات المتواترة، فهو في الغالب لا ينسب القراءة لقارئها، لكنه لا يتركها دون توجيه، وقد أسلفنا أنه أحياناً يصدر كلامه بقوله: ويقرأ، وقرئ...، ولنضرب بعض الأمثلة التي تجلي لنا هذه الأمور:

نسبة القراءات الشاذة لقارئيها:

مرّ أن الغالب على منهج الخليل أنه لا يفعل ذلك، ومن الأمثلة:

"شَعفةُ القلبِ: رأسه عند معلق نياطه. شعفني حبّه، وشُعِفتُ به وبحُبّه ، أي: غَشِيَ

الحبّ القلب من فوق. ويقرأ (شَعَفَها حباً) [٦٣]".[شعف]

"الكِذابُ لغة في الكَذِب. ويقرأ(لا يسمعون فيها لغواً ولا كِذاباً) بالتخفيف[٦٤]، والكِذّابُ، بالتشديد لغة... وقوله جل وعز: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً﴾[النبأ: ٣٥]، أي: تكذيباً، وذلك أن العرب تقول: كذَّبته تكذيباً، ثم تجعل بدل التَّكذيب: كِذّاباً".[كذب]

يلاحظ هنا أن الخليل هنا ذكر قراءتين شاذة ومتواترة، عبّر عن الشاذة بـــ ويقرأ، وعن المتواترة وقوله جل وعز.

"﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾[غافر: ٣٢]: يومُ التَّناد، أي: يُنادي بعضُهم بعضاً، أصحابُ الجنةِ أصحابَ النارِ، وقُرئ (يوم التنادّ) بتشديد الدال[٦٥]، أي: يَندّون فيَنفِرون".[ندد]

أما ما نسبه من القراءات الشاذة، فهو قليل جداً، إذا ما قيس بما لم ينسبه، ومن أمثلته:

"...وقال أبو عبيدة: كان الحسن يقرأ (إنها ترمي بشرر كالقَصَرِ. كأنه جمالات صفر)[٦٦] ويفسر أن الشرر يرتفع فوقهم كأعناق النخل ثم ينحط عليهم كالأينق السود".[قصر]

"كَهَرْتُ الرَجلَ أكهَرُهُ كَهْراً: إذا استقبلته بوجهٍ عابسٍ تَهاوُناً به، وبه تفسير قراءة ابن مسعود (فأمّا اليتيمَ فلا تكْهَرْ) [٦٧]".[كهر]

توجيهات القراءات الشاذة:

من خلال الأمثلة السابقة يمكن القول أن الخليل لم يترك قراءة إلا ووجهها، ولسنا بحاجة لضرب مزيد من الأمثلة.

ترجيح المتواتر على الشاذ:

هذا هو الأصل – أعني أن ترجح القراءة المتواترة على الشاذة – إلا إذا أمكن الجمع بينهما، وهذا ما فعله الخليل في المثال الآتي – ولم أجد غيره –:

"الله بديعُ السموات والأرض ابتدعهما[٦٨]، ولم يكونا قبل ذلك شيئاً يتوهّمهما متوهّم، وبدع الخلق... ويُقرأ: (بديعَ السّموات والأرض)، بالنصب[٦٩] على جهة التعجّب لما قال المشركون، بدعاً ما قلتم وبديعاً ما اخترقتم، أي: عجيباً، فنصبه على

التعجب والله أعلم بالصواب. ويقال: هو اسم من أسماء الله، وهو البديع لا أحد قبله. وقراءة العامة الرفع وهو أولى بالصواب".[بدع]

التفسير القرآني للقرآن:

لعل أوضح مثال يبين ذكر الخليل للتفسير القرآني للقرآن هو:

"الظُّلْمُ: الشِّرك، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣] [ظلم]،

هذا المثال يبين سعة اطلاع الخليل؛ لأن هذا هو منهج نبوي شريف، وذلك أنه " لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾[الأنعام: ٨٢]، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾"[٧٠].[لقمان: ١٣].

الظلم هنا فهمه الصحابة ﷺ بمعناه العام، وهو صحيح لغة، ولكن الآية لم ترد هذا، وإنما هو عموم مخصوص، فكان أن بين لهم الرسول ﷺ أن المراد من الظلم في الآية: الشرك.

ولا يخفى أن هذا بالإضافة لكونه تفسيراً للقرآن بالقرآن، فهو تفسير للقرآن بالسنة، إذ إن السنة هي التي أرشدت إليه.

"التبذير: إفسادُ المال وإنفاقه في السَّرَف، قال الله جلَّ وعزَّ:﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ [الإسراء: ٢٦] قيل: التبذير إنفاق المال في المعاصي.

وقيل: هو أن يَبسُطَ يدَه في إنفاقه حتى لا يبقي منه ما يُقتاته. واعتباره قوله ﷻ: ﴿وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾"[الإسراء: ٢٩] [بذر].

"قوله تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ﴾[الإسراء: ١٠٦] بالتخفيف، فمعناه: أحكمناه، كقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان: ٤]".

تفسير السنة للقرآن:

لا يخفى أن الرسول ﷺ هو المفسر الأول للقرآن الكريم، فقد قال له ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ٤٤] ومن هنا وجب على من يفسر كلام الله تعالى أن يكون ملماً بالتفسير النبوي، صحيح أن

النبي ﷺ لم يفسر القرآن كله، وأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، ولكنّ هناك أموراً لا يمكن معرفتها من مجرد اللغة، وقد رأينا كيف أن الصحابة ﷺ، وهم أهل اللسان، غاب عنهم معنى الظلم المراد من الآية، فحملوه على معناه العام حتى بيّن لهم النبي ﷺ المراد، والآن نعرض لبعض الأمثلة:

مر معنا إرشاد النبي لمعنى الظلم الوارد في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] إلى أن معناه الشرك، ثم وجههم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

"﴿تُبَّعٍ﴾[الدخان: ٣٧]: اسم ملك من ملوك اليمن، وكان مؤمناً". [تبع]

ورد هذا في حديث، فقد روي عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لا تَسُبُّوا تُبَّعًا فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ أَسْلَمَ"(٧١).

"قوله ﷻ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التوبة: ١٠٨] يعني: الاستنجاء بالماء". [طهر]

هذا فهم لحديث نبوي شريف، فعن النبي ﷺ قال: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أَهْلِ قُبَاءٍ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾، قَالَ: كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةُ)"(٧٢).

الصحابة ﷺ:

للصحابة الكرام ﷺ مكانة عظيمة، وبخاصة فيما يتعلق بتفسير القرآن، فهم عايشوا نزول القرآن، وعاشوا مع النبي ﷺ الذي كان خلقه القرآن، وتلقوا منه القرآن غضاً لفظاً ومعنى، يضاف لذلك أنهم هم من نزل القرآن بلسانهم، ولهذا فقد أكثر الخليل من الاستفادة من هذا النبع، ولكنه في أغلب الأحيان لا ينسب الأقوال لأصحابها، ومما نسبه لهم:

"الرَّفَثُ: الجِماعُ، رَفَثَ إليها وتَرَفَّثَ، وهذه كناية. وفلانٌ يرفُثُ، أي يقول: الفُحْش، وقال ابن عبّاس: الرَّفَث: ما قيل عند النِّساء، وقوله ﷻ: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ﴾[البقرة: ١٩٧]، إنّما نَهى عن قول الفُحْش". [رفث]

"السمود في الناس: الغفلة والسهو عن الشيء، وقوله ﷻ: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم: ٦١]،

أي: ساهون لاهون، ويقال: دع عنك سمودك. وروي عن علي ﷺ أنه خرج إلى المسجد والناس ينتظرونه للصلاة قياماً، فقال: مالي أراكم سامدين". [سمد]

أما ما لم ينسبه فهو كثير جداً، وها هي الأمثلة:

"ويقرأ قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[الأعراف: ١٢٧]: (ويذرك وإلاهتك)، أي: عبادتك". [أله].

هذا قول ابن عباس[٧٣].

"﴿الرَّعْدُ﴾[الرعد: ١٣]: اسم ملَك يسوق السَّحاب، وتسبيحُه صوته الذي يسمع".

هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم[٧٤].

"التَّخَوُّف: التنقص، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾[النحل: ٤٧].

هذا قول ابن عباس، ومجاهد[٧٥].

التابعون:

تلقى التابعون علمهم عن الصحابة الكرام ﷺ، ويكفينا في إدراك فضلهم ما ذكره مجاهد بن جبر مولى ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرْضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها"[٧٦]. ولذا اعتمد المفسرون واللغويون على أقوالهم...، وكان الخليل من هؤلاء، وقد كان لا يسمي أصحاب الأقوال، وإن فعل ذلك ففي أحيان قليلة، وسنكتفي بإيراد ما سُمي، إذ كنا قد أوردنا أسماء بعض التابعين، في منهج الخليل في الأخذ عن الصحابة.

"تجليتُ الشيءَ: نظرتُ إليه. قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾[الأعراف: ١٤٣] أي: ظهر وبان، قال الحسن: تجلّى، أي: بدا للجبل نورُ العرش". [جلو]

"يقال لمن تفكّر في أمره ليُنظر كيف يُدبّرُه: نظر النُّجوم . وعن الحسن ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾[الصافات: ٨٨]، أي: تفكّر ما الذي يصرفهم عنه إذا كلّفوه الخروج معهم، فقال: إني طعنت، فنفروا عنه هرباً من الطاعون وخوفاً". [نظر]

"﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾[الصافات: ١٦٢]، أي: مُضلّين. عن الحسن ومجاهد ".

"﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[النجم: ٩]، عن الحسن: طول قوسين، وقال مقاتل :

لكل قَوْسٍ قابان، وهما ما بين المقبض والسية". [قوب]

أسباب النزول:

لقد بين العلماء أن "بيان سبب النزول طريق قوي لفهم معاني القرآن"(٧٧)، ولذا فقد أولاها العلماء عنايتهم، وقد كان للخليل بعض الاهتمام بهذا الباب من خلال الأمثلة التي ذكرها، وهي قليلة جداً، ولكنها تبين مبلغ عنايته، فهو لم يخصص معجمه للتفسير المحض إنما هو تفسير لألفاظ قد يتوقف فهم معناها على ذلك، وهذه الأمثلة هي:

"... وكان إذا اشتد الزمان فولدت المرأة ولداً غَرَّقَتْه القابلة في ماء السلا(٧٨)، ثم تخرجه ميتاً، ذكراً كان أو أنثى، فأنزل الله تعالى:﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]. [غرق]

"...وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مقبلا على رجل يعرض عليه الإسلام فأتاه ابن أم مكتوم، فسأله عن بعض ما كان يسأل فشغله عن ذلك الرجل، فعبس رسول الله صلى الله عليه وآله وجهه، وليس من التهاون به، ولكن لما كان يرجو من إسلام ذلك الرجل، فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى* أَن جَاءهُ الْأَعْمَى﴾"[عبس: ١-٢]. [عبس]

ولا بدّ من وقفة هنا، فالخليل لم يشأ أن يترك هذا الكلام دون أن يزيل الوهم الذي قد يعلق ببعض الأذهان، لم عبس النبي ﷺ بوجه ذاك السائل؟، فيكون الجواب سريعاً، حتى قبل ذكر الآية التي نزلت بشأن الحادثة، فيقول رحمه الله تعالى: "وليس من التهاون به...".

"كان المسلمون يقولون للنّبيّ صلى الله عليه وآله: أرْعِنا سمعك، أي: اجعل إلينا سمعك. فاستغنمت اليهود ذلك، فقالوا ينحون نحو المسلمين: يا محمد راعِنا، وهو عندهم شتم، ثمّ قالوا فيما بينهم: إنّا نشتم محمّداً في وجهه، فأنزل الله: ﴿لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا﴾[البقرة: ١٠٤] فقال سعد لليهود: لو قالها رجل منكم لأضربنّ عُنُقَه". [رعن]

أحوال العرب:

هناك ألفاظ لا يمكن معرفة المراد منها ما لم يكن المرء عالماً بأحوال العرب، وقد تعرض الخليل لمثل هذه الألفاظ وبيّن المراد منها أتمّ بيان:

"خِدْنُ الجارية: محدثها، وكانوا لا يمتنعون من خِدْنِ بُخدْنِها فهدمه الإسلام، قال: ﴿ولاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾"[النساء: ٢٥]. [خدن]

"الاستقسام [﴿وأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ﴾[المائدة: ٣]: أنهم كانوا يجيلون السهام أي الأزلام عند الأصنام، فما يَهُمون به من الأمور العظام، مثل تزويج أو سفر، كتب على وجهي القدح: اخْرج، لا تَخرُج، تزوج، لا تتزوج، ثم يقعد عند الصنم بكفره، أيّ الأمرين كان خيراً إليّ فأذن لي فيه حتى أفعله، ثم يجيل، فأيّ الوجهين خرج فعل راضياً به قسماً وحظاً".[قسم]

البَحيرة: كانت الناقةُ تُبْحَرُ بَحْراً، وهو شَقُّ أُذُنِها، يُفْعَل بها ذلك إذا نُتِجَتْ عَشْرَةَ أبطُنٍ فلا تُرْكَب ولا يُنْتَفَعُ بظهرها، فنَهاهُم اللهُ عن ذلك، قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ﴾[المائدة: ١٠٣]، والسائبة: التي تُسَيَّبُ فلا يُنْتَفَعُ بظهرها ولا لبنها، والوَصِيلةُ: في الغَنَم إذا وَضَعَتْ أُنثى تُرِكَتْ، وإن وَضَعَتْ ذَكَراً أكَلَه الرجال دون النساء، وإنْ ماتت الأنثى الموضوعة اشتركوا في أكلها، وإنْ وُلِدَ مع المِيتَة ذَكَرٌ حَيٌّ اتُّصِلَتْ وكانتْ للرجال دونَ النساء، ويُسَمُّونها الوَصيلة".[قسم]

"القَلَمْسُ: الرجل الداهية، المنكر، البعيد الغور. وكان القَلَمْسُ الكناني من نسأة الشهور على معد. كان يقف في الجاهلية عند جمرة العقبة، فيقول: اللهم إني ناسئ الشهور، واضعها مواضعها، وإني لا أغاب ولا أجاب. اللهم إني أحللت أحد الصفرين، حرمت صفر المؤخر، وكذلك في الرجبين، شعبان ورجب، ثم يقول: انفروا على اسم الله، فذلك قوله جل وعز: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾"[التوبة: ٣٧]. [قلمس]

الإسرائيليات:

الإسرائيليات، هي : كل ما تطرق إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني أو غيرهما..."(٧٩).

والعلماء يقسمون الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام:

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فهو صحيح.

والثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

الثالث : ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، ويجوز حكايته"[٨٠].

الإمام الخليل ذكر شيئاً من الإسرائيليات، ولكنه -فيما يتعلق بغريب القرآن- لم يتطرق إلا للقسم الثالث، وهذه أمثلة توضح ذلك:

"سكينةُ بني إسرائيل: ما في التابوت من مواريث الأنبياء، وكان فيه عصا موسى، وعمامة هارون الصفراء، ورضاض اللوحين اللذين رفعا، جعله الله لهم سكينةً، لا يفرون عنه أبداً، وتطمئن قلوبهم إليه، هذا قول الحسن. وقال مقاتل: كان فيه رأس كرأس الهرة، إذا صاح كان الظفر لبني إسرائيل". [سكن]

ذكر الخليل هذا وهو يتحدث عن معنى سكينة، التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٢٤٨] "الأحقاف في القرآن يقال: جبل مُحيطٌ بالدنيا من زَبَرْجَدةٍ خضراء يَلْتَهِبُ يومَ القيامة فيُحشَرُ الناسُ من كُلِّ أفقٍ".[حقف]

والأحقاف وردت في القرآن في قوله ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ..﴾[الأحقاف: ٢١] وأنا أحسب أن ههنا وهماً، وهو أن الخليل قصد جبل قاف، لا الأحقاف، مع أن هذه اللفظة وضعت في مادة حقف، وقد ذكر بعض المفسرين نحو هذا عند الحديث عن (ق) التي في قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[ق: ١] [٨١].

ومما يؤكد ما ذكرته قول الخليل نفسه في موضع آخر عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان: ١٠] فقد قال: "﴿خلق السماوات بغير عمد ترونها﴾ ... ويقال: عَمَدُها جبلُ قاف، وهي مثلُ القُبَّة أطرافُها على ذلك الجبل، والجبلُ محيط بالدنيا من زبرجدة خضراء، وخضرةُ السماء منه، فإذا كان

يوم القيامة صيّرد الله ناراً تحشر النّاس من كلّ أوْب إلى بيت المقدس". [عمد]

وسواء كان جبل الأحقاف، أو جبل قٍ، فكله يدخل ضمن الإسرائيليات، ولكن من قَسم المسكوت عنها، وإن كنا نود أن لا يذكر العلماء مثل هذا، فهو في أحسن أحواله مما لا يصدق ولا يكذب-والله أعلم-.

بقي أن نذكر بعض الأمثلة لألفاظ ذكرها الخليل دون أن يبين أنها تفسير لآية قرآنية، فلم نشأ أن نقوله ما لم يقل، وبخاصة أننا عرفنا أنه كان ورعاً، والورع فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم آكد، وذكر هذه الأمثلة يكمل صورة المنهج عند الخليل في تناوله لغريب القرآن، وقد أكثر من هذا النوع، إذ وقفت له على عشرات الأمثلة، بل إنه قَل أن توجد لفظة قرآنية غريبة إلا فسرها، ولم يفته من ذلك إلا القليل جداً، وسأذكر بعد بيان أمثلة هذا النوع، بعض ما فاته:

"القُمّل: الذر الصغار، ويقال: هو شيء أصغر من الطير الصغير، له جناح أكدر أحمر" [قمل].

لفظة القمل قرآنية وردت في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

"والنَّكْد: قلة العطاء، وألا يهنأه من يعطاه، قال:

وأعط ما أعطيته طيباً.... لا خير في المنكود والنّاكد" [نكد].

وردت لفظة ﴿نكداً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا...﴾ [الأعراف: ٥٨]

"رتّلت الكلام ترتيلاً: إذا أمهلت فيه وأحسنت تأليفه، وهو يترتّل في كلامه، ويترسّل، إذا فصل بعضه من بعض". [رتل]

ورد في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[المزمل: ٤]

"القَبَس: شعلة من نار تقبسها وتقتبسها، أي: تأخذ من معظم النار". [قبس]

وفي القرآن الكريم ﴿... إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾[طه: ١٠].

"عِزَةُ: عصبةٌ من النّاس فوقَ الحِلَقَة، والجماعةُ: عِـزُونَ، ونقصانُها واو. وكـذلك الشُبَة. قال في الحيّة:

خُلِقَتْ نواجذُه عِزينَ ورأسُه... كالقُرص فُلِّطَ من طَحينِ شعيرِ"

وقد وردت لفظة ﴿عِزِينَ﴾ في القرآن الكريم، قال ﷻ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾[المعارج: ٣٧] [عزو].

"الكَمَهُ: العَمَى الذي يُولَدُ عليه ابنُ آدمَ". [كمه]

و﴿الأكمه﴾، لفظة قرآنية، قال تعالى: ﴿...وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾[آل عمران: ٤٩].

"والقَتَرَةُ: ما يغشى الوجه من غبرة الموت والكرب، يقال: غشيته قَتَرَةٌ وقَتَرٌ، كله واحدٌ". [قتر]

﴿قَتَرَةٌ﴾ و﴿قَتَرٌ﴾ لفظتان قرآنيتان، الأولى وردت في قوله ﷻ: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤١]، والثانية في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾[يونس: ٢٦].

نكتفي بهذه الأمثلة، لعلها توضح ما ذُكر.

أما الألفاظ القرآنية الغريبة التي لم يتطرق لها، فهي قليلة جداً، وقد جهدت وأنا أبحث عنها، من هذه الكلمات:

(المتوسمين). لفظة قرآنية، قال تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[الحجر: ٧٥] لم يذكر الخليل سوى: "فلانٌ موسومٌ بالخير والشرّ، أي: عليه علامته، وتوسمتُ فيه الخيْر والشرّ، أي: رأيت فيه أثراً". [وسم]

﴿المقتسمين﴾ لم يذكرها أبداً، وهي كلمة غريبة، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾[الحجر: ٩٠].

﴿تَفَثَهُمْ﴾ لفظة قرآنية غريبة، لم يرد لها ذكر في كتاب العين، وهي في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[الحج: ٢٩].

الخاتمة:

إن من أهم ما توصل إليه هذا البحث:

١. أن العين قد حوى جلّ تفسير غريب القرآن، وما على الباحثين إلا الرجوع؛ إليه للنهل من معينه.

٢. كان جلّ اهتمام الخليل في تفسير غريب القرآن، بالجانب اللغوي، يليه الصرفي، ثم النحوي، ثم البلاغي، بيد أنه لم يغفل الجوانب الأخرى التي تعين على الفهم العميق للفظة.

٣. الخليل وهو يفسر الألفاظ القرآنية، كان – إلى جانب اهتمامه الكبير باللغة– كثيراً ما يربط شرحه بالمعنى العام للآية، وهذا يعطي معجمه أهمية كبيرة فيما نحن بصدده.

٤. تميز منهج الخليل بالعمق واليسر في آن واحد، وهذا قل أن يتوافر إلا لعالم، فلا تجد في شرحه الإغراب والتعقيد.

٥. تميز منهجه بالتوسط، فلا تجد فيه ملالة التطويل، ولا إخلال الإيجاز.

٦. تطرق الخليل وهو يفسر الألفاظ القرآنية، لكثير من القراءات القرآنية، وهذا يدل على باعه الطويل في هذا العلم.

الحواشي.

(١) ص٣.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٣، ص٣٨٥.

(٣) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص٥٤.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٤٣٠.

(٥) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج١، ص٢٧٥.

(٦) انظر: سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٤٣٠.

(٧) التنوخي، تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، ص١٢٣.

(٨) مراتب النحويين، ص٥٤. وقال في ترجمته، ص٤٣ "عيسى بن عمر الثقفي، وكان من أفصح الناس... مات في سنة تسع وأربعين ومائة".

(٩) انظر: المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج٢، ص٤٠٠.

(١٠) غاية النهاية في طبقات القراء، ج١، ص٢٧٥.

(١١) المصدر السابق، ج٢، ص٣٧٦.

(١٢) مراتب النحويين، ص٥٦. بحذف يسير.

(١٣) سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٤٢٩.

(١٤) الأندلسي، طبقات النحويين واللغويين، ص٤٧.

(١٥) في تاريخ العلماء النحويين، ص ١٣٠ "شحاً" بالشين المعجمة.

(١٦) ابن الأنباري، نزهة الألباء وطبقات الأدباء، ص٤٧.

(١٧) انظر: سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٤٢٩.

(١٨) ص٤٥.

(١٩) ص٤٧.

(٢٠) تاج العروس، ج١، ص٣٣.

(٢١) قال عنه الداوودي: "نحوي عصره، ولغويه، ومفسره، ومحدثه، ومقرئه، ومؤرخه، وأديبه"، طبقات المفسرين، ج٢، ص٢٨٦.

(٢٢) البحر المحيط، ج٤، ص٤٦٠.

(٢٣) المصدر السابق، ج٧، ص١٠٢.

(٢٤) المصدر السابق، ج٨، ص٢٨.

(٢٥) الوافي بالوفيات، ج١٣، ص٣٩١.

(٢٦) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٢، ص١٠٥٩- ١٠٦٠.

(٢٧) الوافي بالوفيات، ج١٣، ص٣٨٦.

(٢٨) للجوهري، [غرب].

(٢٩) لابن منظور. [غرب]

(٣٠) الخطابي، غريب الحديث، ج١، ص٧٠-٧١.

(٣١) للجرجاني، ص٢٠٧، برقم (١٠٤٠) وثمة خطأ مطبعي، وهو أنهم أثبتوا: الطرابة، بدل (الغرابة)!.

(٣٢) مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في الآداب واللغة، ج٢، ص١٤٧.

(٣٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٣٩٨-٤٠٠، بحذف يسير.

(٣٤) المصدر السابق، ج١، ص٣٩٦.

(٣٥) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص٥. بحذف يسير.

(٣٦) ص ٦.

(٣٧) البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٣٩٦.

(٣٨) قارن بابن قتيبة إذ يقول: "...أي يقطعونها ويشقونها..." تفسير غريب القرآن، ص١٣٦.

(٣٩) قارن بابن قتيبة، ص٢٢١، و تحفة الأريب، لأبي حيان، ص٨٣.

(٤٠) يقول ابن قتيبة: "... أي: يدفعه". تفسير غريب القرآن، ص٣٠١. وكذا في تفسير غريب القرآن، ابن الملقن، ص٢٧١.

(٤١) كالزركشي في البرهان في علوم القرآن، ج١، ص١٩٥، والسيوطي في الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص٣٠٣.

(٤٢) البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٣٩٦.

(٤٣) هذا البيت غير منسوب في اللسان، وتاج العروس، والفائق، والنهاية في غريب الحديث والأثر.

(٤٤) البيت لذي الرمة، كما في الصحاح (أنس)، واللسان(أنس) و(لحد).

(٤٥) البيت لبشر بن أبي خازم كما في أساس البلاغة (قمح)، ولسان العرب (قمح). وفيهما: "ونحن على جوانبها قعود". قال ابن قتيبة قبيل إيراده هذا البيت: "قال الشاعر – وذكر سفينة وركابها–". تفسير غريب القرآن، ص٣٦٣.

(٤٦) ابن جني، المنصف، ج١، ص١-٢.

(٤٧) ابن عصفور الإشبيلي، الممتع في التصريف، ج١، ص١٧.

(٤٨) نزهة الألباء، ص٤٥.

(٤٩) انظر: بازمول، القراءات وأثرها في التفسير والأحكام، ج١، ص٧٣.

(٥٠) المنجد، ص٢٤.

(٥١) انظر: القراءات وأثرها في التفسير والأحكام، ج١، ص١٧٦.

(٥٢) قرأ الكوفيون: عاصم وحمزة والكسائي بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف. انظر: الكافي في القراءات السبع، ص٩٦.

(٥٣) ﴿كبره﴾ بضم الكاف قراءة يعقوب وهو من ضمن القراءات الثلاث المتممة للعشر، وقرأ الباقون بكسرها. انظر: تقريب النشر في القراءات العشر، ص٣٩٠.

(٥٤) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي ورويس. انظر: تقريب النشر، ص٥٠١.

(٥٥) قرأ ابن كثير والبصريان وأبو جعفر ﴿بل أدرك﴾ بهمزة قطع مفتوحة وإسكان الدال من غير ألف، والباقون بوصل الهمزة وتشديد الدال وألف بعدها". تقريب النشر، ص٤٠٣.

(٥٦) "قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿وحرم على قرية﴾ بكسر الحاء وإسكان الراء من غير ألف، والباقون بفتح الحاء والراء وألف بعدها". تقريب النشر، ص٣٧٩.

(٥٧) "قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ﴿تترا﴾ بالتنوين، والباقون بغير تنوين". تقريب النشر، ص٣٨٦.

(٥٨) قرأ ابن كثير والبصريان وأبو جعفر ﴿توقد﴾، بتاء مفتوحة وفتح الواو وتشديد القاف وفتح الدال، ونافع وابن عامر وحفص بياء مضمومة وإسكان الواو وتخفيف القاف ورفع الدال، والباقون كذلك ولكنهم بالتاء مؤنثاً". تقريب النشر، ص٣٩١.

(٥٩) هناك كثير من اللغويين سلكوا هذا المسلك، وعلى رأسهم الفراء، وفعله بعض المفسرين، كالإمام الطبري، وقد أنكر عليهم هذا المسلك الإمام أبو حيان صاحب البحر المحيط وغيره، وهي مسألة معروفة.

(٦٠) هو أحمد بن موسى بن العباس ابن مجاهد شيخ العصر أبو بكر البغدادي العطشي المقرئ الأستاذ مصنف كتاب القراءات السبعة، ولد سنة خمس وأربعين ومائتين، قال أبو عمرو الداني: فاق ابن مجاهد في عصره سائر نظائره من أهل صناعته مع اتساع علمه وبراعة فهمه وصدق لهجته، توفي في شعبان سنة أربع وعشرين وثلاث مئة. انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، ج١، ص٢٦٩.

(٦١) الكافي، ص١١٠.

(٦٢) انظر ما ذكره ابن جني في المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ص٣٢ ومابعدها.

(٦٣) (شعفها) بالعين المهملة، قراءة شاذة، قرأ بها علي ﷺ، والحسن -بخلاف- وأبي رجاء وابن محيصن، وغيرهم. انظر: المحتسب، ص٣٣٩. والقراءة المتواترة ﴿شغفها﴾[يوسف: ٣٠] بالغين المنقوطة.

(٦٤) هي قراءة علي ﷺ. انظر: المحتسب، ص٣٤٨.

(٦٥) قراءة أبي بكر الصديق، وابن عباس ﷺ، والضحاك، وأبي صالح. انظر: المحتسب، ج٢، ص٢٤٣. والبحر المحيط، ج٧، ص٣٥١.

(٦٦) انظر: المحتسب، ج٢، ص٣٤٦، والقراءة المتواترة ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾[المرسلات: ٣٢] بفتح القاف وسكون الصاد. وفيما يتعلق بـ ﴿جمالات﴾ فهي متواترة، انظر: تقريب النشر، ص٤٩٧.

(٦٧) انظر: البحر المحيط، ج٨، ص٤٨٢. والقراءة المتواترة ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾[الضحى: ٩].

(٦٨) الآية هي: ﴿بديع السموات والأرض﴾[الأنعام: ١٠١].

(٦٩) قال أبو حيان: "قرأ المنصور: (بديع) بالنصب على المدح". البحر المحيط، ج١، ص٥٣٤.

(٧٠) أخرجه البخاري، برقم (٦٩٣٧)، ومسلم، برقم (١٩٧).

(٧١) مسند الإمام أحمد، برقم (٢٢٧٧٨)، وقد ضعفه المحدث أحمد شاكر. وانظر للمزيد من أخباره وما ورد بشأنه: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٤، ص١٨٢-١٨٣.

(٧٢) سنن أبي داود، برقم (٤٤)، وصححه النووي، وابن حجر، والألباني. انظر صحيح سنن أبي داود، الألباني، كتاب الطهارة، باب الاستنجاء بالماء.

(٧٣) انظر: جامع البيان، ج٦، ص٢٧.

(٧٤) انظر: جامع البيان، ج١، ص١٨٥.

(٧٥) انظر: جامع البيان، ج٧، ص٥٩١، وزاد المسير، ج٤، ص٣٤٣.

(٧٦) جامع البيان، ج١، ص٦٥.

(٧٧) الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص٦٢.

(٧٨) "السكى: الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد" العين [سلي].

(٧٩) الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث، ص١٢.

(٨٠) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص١٠.

(٨١) فقد أورد البغوي نحوا من هذا، فقال: "قال عكرمة والضحاك: هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء، منه خضرة السماء والسماء مقببة عليه، وعليه كتفاها". انظر: معالم التنزيل، ج٧، ص٣٥٥، والجامع لأحكام القرآن، ج١٧، ص٢.

المصادر والمراجع.

١. الإتقان في علوم القرآن، للإمام أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي(ت٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١(١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٢. الإسرائيليات في التفسير والحديث، الدكتور محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، عابدين، ط٣ (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٣. البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، دراسة تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١ (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

٤. البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، والشيخ جمال الذهبي، والشيخ إبراهيم الكردي، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط٢ (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

٥. تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

٦. تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، للقاضي أبي المحاسن المفضل بن محمد التنوخي المعري (ت٤٤٢هـ)، تحقيق: د.عبدالفتاح محمد الحلو، أشرف على طباعته ونشره: إدارة الثقافة والنشر بجامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

٧. تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، تأليف أثير الدين أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: د. أحمد مطلوب، ود. خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط١ (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م).

٨. التعريفات، للجرجاني: علي بن محمد بن علي (ت ٨١٦هـ)، حققه وقد له ووضع فهارسه: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

٩. تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، مؤسسة الريان، بيروت، لبنان، ط٤ (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

١٠. تفسير غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).
١١. تقريب النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبي الخير محمد ن محمد ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، تحقيق أنس بن محمد حسن مهرة، ط١ (بلا تفاصيل).
١٢. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للحافظ المتقن جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي، حققه وضبط نصه وعلق عليه: الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).
١٣. جامع البيان في تأويل آي القرآن، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط ٢ (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).
١٤. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي (ت ٦٧١هـ)، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، بلا تاريخ.
١٥. زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١ (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
١٦. سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط، تحقيق: علي أبو زيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣ (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).
١٧. الصحاح، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط٢ (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).
١٨. صحيح البخاري بشرح فتح الباري، للحافظ محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، دار الفكر، بيروت – لبنان، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).
١٩. صحيح سنن أبي داوود، ناصر الدين الألباني، دار غراس، الكويت، ط١ (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).
٢٠. صحيح مسلم بشرح النووي، للحافظ مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، حققه وفهرسه : عصام الصبابطي، حازم محمد، عماد عامر ، دار أبي حيان ،

القاهرة، ط١ (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).
٢١. طبقات المفسرين، للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي (ت ٩٤٥هـ)، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة عابدين، ط١ (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).
٢٢. طبقات النحويين واللغويين، لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٢، (بلا تاريخ).
٢٣. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، للعلامة ابن خلدون المغربي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١ (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).
٢٤. العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت ١٧٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، بلا تاريخ.
٢٥. غاية النهاية في طبقات القراء، شمس الدين أبي الخير محمد ن محمد ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، عني بنشره: ج براجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٣ (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).
٢٦. غريب الحديث، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت ٣٨٨هـ)، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، السعودية، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).
٢٧. القراءات وأثرها في التفسير والأحكام، إعداد: محمد بن عمر بن سالم بازمول، دار الهجرة، الرياض، ط١ (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)
٢٨. الكافي في القراءات السبع، تأليف أبي عبد الله محمد بن شريح الرعيني الأندلسي، تحقيق: أحمد محمود عبد السميع الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١ (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).
٢٩. لسان العرب، لابن منظور محمد بن مكرم الإفريقي (ت ٦٣٠هـ)، قدم له العلامة: عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، نديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت.

٣٠. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: علي النجدي ناصف، د.عبد الحليم النجار، د.عبد الفتاح إسماعيل شلبي، القاهرة، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).
٣١. مراتب النحويين، عبد الواحد بن علي أبو الطيب اللغوي (ت ٣٥١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر- القاهرة.
٣٢. معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ)، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، السعودية - الرياض، ط٤ (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).
٣٣. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت (١٩٧٩م).
٣٤. الممتع في التصريف، لابن عصفور الإشبيلي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار القلم العربي، حلب، ط٢ (١٩٧٣م).
٣٥. المنصف، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: إبراهيم مصطفى، عبد الله أمين، مصطفى البابي الحلبي، مصر، (١٩٥٤م).
٣٦. منجد المقرئين، ومرشد الطالبين، الإمام شمس الدين أبي الخير محمد ن محمد ابن الجزري، (ت ٨٣٣هـ)، وضع حواسبه: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١ (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).
٣٧. نزهة الألباء وطبقات الأدباء، لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري، (ت ٥٧٧هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، بلا تاريخ.
٣٨. النهاية في غريب الحديث والأثر، محيي الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، المعروف بابن الأثير (ت ٦٠٥هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمد الطناحي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، (د.ت).
٣٩. الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، باعتناء محمد الحجيري، دار النشر (فرانز شتايز بفيسبان)، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

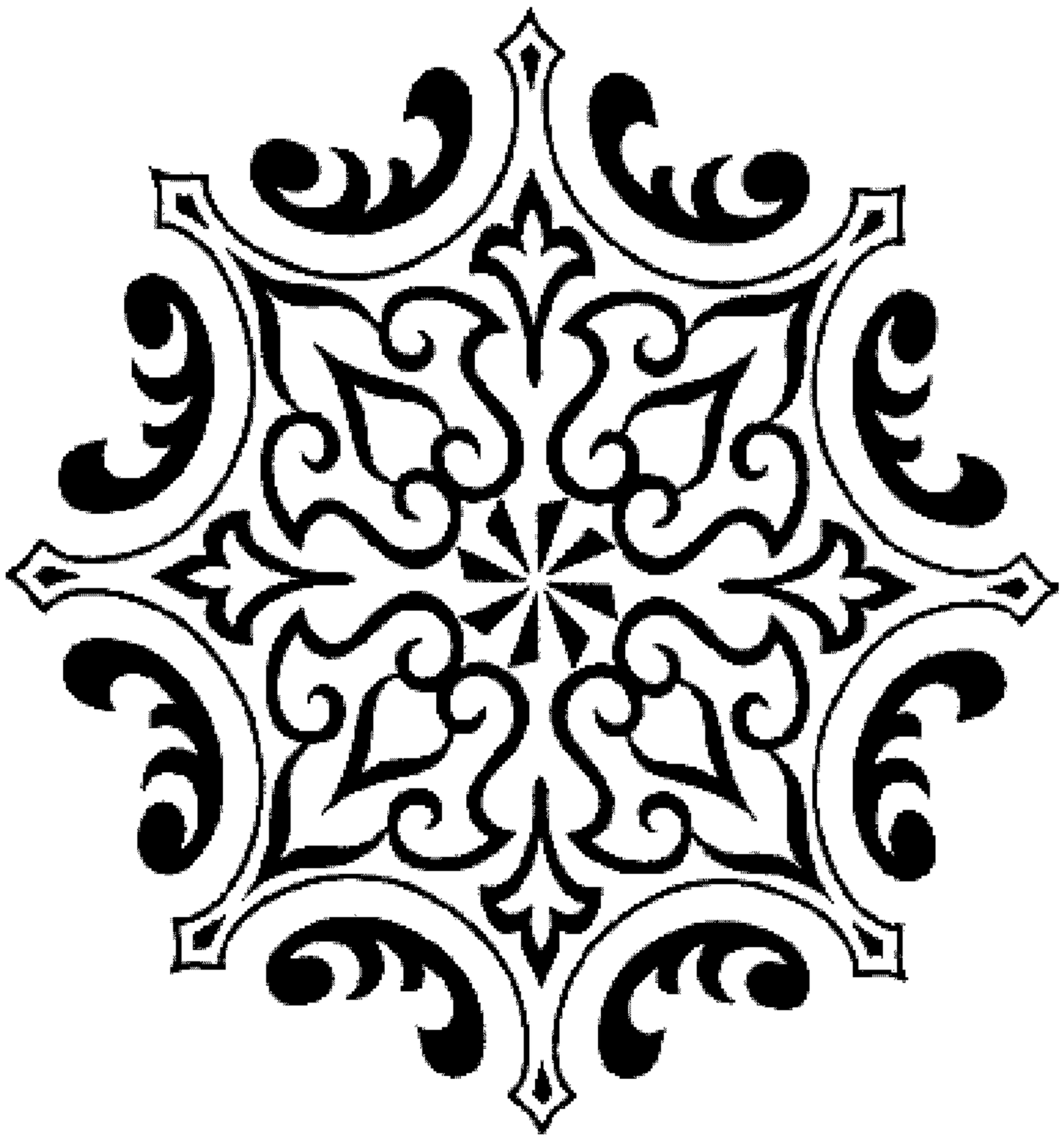

الخليل في تفسير التبيان

أ.د. سعيد جاسم عباس الزبيدي

كلية التربية بنزوى - عُمان

الخليل في تفسير التبيان

أ.د. سعيد جاسم عباس الزبيدي

المقدمة:

يبقى الخليل بن أحمد الفراهيديّ الأزديّ العمانيّ أصلاً ومولداً (١٠٠هـ-١٧٥هـ)، البصري نشأة وعبقرية "تأكل الدنيا بعلمه وكتبه[١]". وتنعقد على آثاره حلقات الدرس فتغتني، وتمتدّ منه آفاق (العربية) إلى كلّ جديد مفيد نظراً، وتطبيقاً. وتجيء هذه الندوة التي تنظمها وحدة الدراسات العمانية في جامعة آل البيت الأردنية بالتعاون مع سفارة سلطنة عمان بالأردن ليتواصل الاهتمام بهذا الرجل الفذّ وتراثه اللذين ما زالت بهما حاجة قائمة إلى دراسات جادة تنير جوانب الإبداع فيهما.

لقد هيأت لي هذه الندوة مشكورةً فرصة ثانية[٢]، وزاوية نظر جديدة في تراث الخليل: (كتاب العين) على وجه الخصوص، لأشارك في المحور الثاني للندوة لبيان عناية الدارسين به قديماً، فكانت هذه الورقة: (الخليل في "التبيان في تفسير القرآن" للطوسي- ت ٤٦٠هـ).

تنطلق هذه الورقة من فكرة منهجية في تحقيق النصوص نرجو أن تشيع بين المحققين، تقوم على أن النقول من مصدر في كتب تالية له يمكن أن تشكل نسخة أخرى لذلك المصدر يتخذها المحقق في المقابلة والموازنة والترجيح لاسيما إذا كانت الكتب التالية لمؤلفين ثقات.

ولأنّ (كتاب العين) مخطوطاً ومطبوعاً أصابه ما أصابه في مسيرته الطويلة من تشويه وتحريف وتصحيف وزيادة و نقصان رأينا أن نتابع نصوصه المنقولة في مصادر قديمة، منها "التبيان في تفسير القرآن للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ت ٤٦٠هـ" وعرض هذه النصوص على مطبوع (كتاب العين) للاستدراك والتصحيح، وسدّ الثغرات التي وقعت في نسخ (العين)، وأخطاء الطباعة. وقد انعقدت خطة هذه الورقة على:

- مقدمة.
- الخليل والعين.
- الطوسي والتبيان.
- نصوص العين في التبيان: عرض، وموازنة، وتقويم.
- خاتمة.
- المصادر والمراجع.

*** الخليل والعين:**

تؤرخ حركة البحث والتأصيل في علوم (العربية) بجيلٍ من الأعلام، يقف في مقدمته (الخليل بن أحمد الفراهيديّ ١٠٠هـ- ١٧٥هـ) تجلّى في جعله النحو علماً أتيح له أن يتمّ تدوينه في (الكتاب)، ووضعه أسس المعجم اللغوي في (كتاب العين) على نحو لم يسبقَ إلى مثله أحد، واختراعه علم العروض، وصدق القائل فيه: "إنّه لم يك قبله، ولا بعده مثله، ولم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى منه، فكان أعلم الناس، وأفضل الناس، وأتقى الناس، فكان مفتاح العلوم، ومصرفها(٣)".

لا أريد هنا أن أبسط الحديث عن (الخليل) فهو أشهر من أن يُعرَّف، ولا في تراثه الذي سار مسير الشمس في الآفاق، ومازال حيّاً يتداوله الباحثون في مشارق الأرض ومغاربها وكفاني مئونة الحديث عن الخليل وأعماله ومكانته:

* أستاذنا المرحوم مهدي المخزومي في كتابيه:

- الخليل بن أحمد الفراهيديّ أعماله ومنهجه، مطبوع طبعتين: ط١ مطبعة الزهراء/ بغداد ١٩٦٠م، وط٢ دار الرائد العربي- بيروت، ١٩٨٦م.
- عبقري من البصرة، مطبوع ثلاث طبعات:
  - دار الشؤون الثقافية/ بغداد ١٩٧٢م.
  - دار الرائد العربي / بيروت ١٩٨٦م.
  - دار الشؤون الثقافية/ بغداد ١٩٨٩م.

* والأستاذ الدكتور جعفر عبابنة:

- الخليل بن أحمد ومكانته في النحو العربي، دار الفكر، عمّان، ط١، سنة ١٩٨٤م. ففيهما غنى وزيادة لكلّ مستزيد.

وإذا كان هناك من فضلة في قول تربط بين (الخليل) و(عينه)، فإنّ (الخليل) أداره كما يريد المهندس الحاذق في خطته، وترتيبه، وتقليبه، وبيان المستعمل منه والمهمل، وشواهده، مما لا يدع مجالاً لمدعٍ أن يشكك في نسبته، فعندي أنّه "كتاب الخليل في تأسيسه وحشوه[٤]". على الرغم مما عرض له من آفات النسخ: تصحيفاً، وتحريفاً، ومن سهو النسّاخ، وزيادتهم، أو نقصانهم، وغير ذلك مما يعرفه الباحثون، وقد تصدى لمناقشة الشكّ في نسبة (العين) للخليل بسبب ذلك جمهرة العلماء المعاصرين، وردّوا كلّ المزاعم التي أثيرت عليه، ومنهم: مهدي المخزومي[٥]، وحسين نصار[٦]، وعبد الله درويش[٧]، وأحمد عبد الغفور عطار[٨]، وشوقي ضيف[٩]، ورشيد عبد الرحمن العبيدي[١٠]، ومحمد حسين آل ياسين[١١]، وصلاح مهدي الفرطوسي[١٢]، ونعيم سلمان البدري[١٣]، وهادي حسن حمودي[١٤]، ومحمد المختار ولد أباه[١٥]، وغير هؤلاء كثير ممن يصعب استقصاؤهم[١٦]، فأصبح (الخليل) و(العين) من المسلمات التي لا يُختلف عليها، وما زال البحث مستمراً للوصول إلى صورة صحيحة للعين بعد نشره وتداوله.

وللعين خمس طبعات هي:

- **الأولى**: قام بها الأب العلامة أنستاس ماري الكرملي فنشر قطعة منه عام ١٩١٤م[١٧].
- **الثانية**: حقق أستاذنا المرحوم د.عبد الله درويش الجزء الأول منه في بغداد – مطبعة العاني، سنة ١٩٦٧م.
- **الثالثة**: قدّم أستاذانا المرحومان د.مهدي المخزومي و د.إبراهيم السامرائي نسخة كاملة تقع بثمانية أجزاء، وطبعت مرتين:

الأولى – وزارة الإعلام العراقية سنة ١٩٨٠م.

الثانية – دار ومكتبة الهلال– بيروت، د.ت. ويبدو أنها مصورة عن الأولى: ومما "يحمد لها أنها أكملت الكتاب كلّه ، ولكنّها لم تستطع أن تنجو من مهاوي التحريفات

والتصحيفات، وأخطاء الإحالة...[١٨]". وينظر اعتذار أستاذنا المخزومي المطبوع في نهاية الجزء الثامن من العين من الطبعة العراقية.

- الرابعة: حققها الزميل الكريم الأستاذ الدكتور هادي حسن حمودي، ونقع في ستة أجزاء قال في مقدمتها: "فقد تمكنا بتوفيق الله من إعادة الحياة (لعين) الخليل بإعادة تحقيقه، ومن ثمّ ترتيبه على حروف (أ، ب، ت، ث،... الخ)[١٩]". وقد اعتمد في تحقيقه هذا على طبعة (المخزومي- السامرائي) وعاد في تصحيح هذه الطبعة وتنقيحها مما وقع فيها من تشويه إلى "الكتب التي هدفت إلى اختصار كتاب العين كمختصر كتب العين للإسكافي، ومختصر أبي بكر الزبيدي في أصولهما المخطوطة... ثم الاستفادة من الذين نقلوا عن الخليل وكتابة العين، كالأزهري في التهذيب، وأبي علي القالي في البارع، وابن فارس في مجمل اللغة، ومقاييس اللغة، وغيرهم[٢٠]". وفاته من ذلك مئة وواحد وعشرون نصاً نقلها المرزوقي في شرح الحماسة، وأربعة وتسعون نصاً نقلها الشيخ الطوسي في التبيان في تفسير القرآن وهو ما يتضمنه هذا البحث.

الخامسة: طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠١م مرتبة وفق (كذا) الترتيب الألفبائي، ونقع في مجلد واحد، قال الناشر في المقدمة ص٤: "بواسطة (كذا) الآلة الحديثة الدقيقة المسماة (الكمبيوتر) والتي (كذا) غزت ميدان هذا العلم استطعنا أن نرتب مضمون هذا الكتاب متبعين التسلسل الألفبائي". وربما تكون هناك طبعة غير التي ذكرناها لم نقف عليها، نرجو أن يستدركها علينا باحث.

وأزعم هنا أن بكتاب العين حاجة إلى طبعة أخرى يقوم بها فريق من المحققين يقف على طبعات العين كلّها ومخطوطاته ومختصراته والمعجمات التي تلته ونقلت عنه، وكلّ المصنفات التي ضمت نقولاً عنه: كتب التفسير، والشروح، وكتب اللغة، والأصول، وغيرها، حتى يستنفد الجهد، ويكتمل الاستقراء، لنعيد إلى (كتاب العين) الصورة التي أرادها الخليل له، ويريدها الراغبون في العلم، لتصحّ مقولة: "حدثني الليث بن المظفر بن نصر بن سيّار عن الخليل بجميع ما في هذا الكتاب[٢١]".

• الطوسي والتبيان:

لعلم التفسير رجاله، ومناهجه التي ينطلق منها المفسّر لبيان مراد الله تعالى ما أمكنه ذلك، أو مقاربته، ومن هؤلاء أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (٣٨٥هـ-٤٦٠هـ/١٠٦٧-١٩٩٥م)[٢٢]، شُهِرَ بشيخ الطريقة، ويقال الشيخ وحسب[٢٣]، فقيه الشيعة، ومصنفهم[٢٤]، انتقل من خراسان إلى بغداد سنة ٤٠٨هـ وأقام فيها أربعين عاماً، ثم تحوّل عنها إلى النجف الأشرف متصدراً حوزتها العلمية حتى وفاته، ودفن هناك، ومازال مسجده تنعقد فيه حلقات الدرس حتّى يومنا.

تلمذ للشيخ المفيد[٢٥](محمد بن محمد بن النعمان ت ٤١٣هـ). وللسيد المرتضى (علي بن الحسين ت ٤٣٦هـ[٢٦]).

وقد أغنتنا رسائل جامعية وأبحاث، وكتب عن التفصيل في حياته، ومؤلفاته، وتلاميذه، وما يتعلق به من أخبار، ومن ذلك:

- الشيخ الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن ٣٨٥هـ- ٤٦٠هـ، للدكتور حسن عيسى الحكيم، رسالة ماجستير مطبوعة، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ط١، سنة ١٩٧٤- ١٩٧٥م.
- منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم، للدكتور كاصد ياسر الزيدي رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٧٦م.
- البحث اللغوي والنحوي في تفسير التبيان، للدكتور عبد علي حسين الخماسي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة، سنة ١٩٩٧م.
- دور الشيخ الطوسي في علوم الشريعة الإسلامية، للباحث ثامر هاشم العميدي، بحث منشور في مجلة تراثنا وهي نشرة فصلية تصدرها مؤسسة آل بيت لإحياء التراث، العدد (٥٢) السنة الثالثة، شوال سنة ١٤١٨هـ، ص٣٦.
- آفاق الفكر السياسي عند الشيخ الطوسي، لمحمد رضا موسويان، كتاب مطبوع في مركز الغدير للدراسات الإسلامية، لبنان، ٢٠٠٤م.
- تفسير القرآن بالقرآن عند الشيخ الطوسي، للدكتور خضير جعفر الخزاعي، رسالة ماجستير منشورة في طهران، د.ت.

- الشيخ الطوسي مفسراً – للدكتور خضير الخزاعي– رسالة دكتوراه منشورة في قم، إيران، د.ت.

أما كتابة (التبيان في تفسير القرآن) فقد قال في مقدمته: "أما بعد فإنّ الذي حملني على الشروع في عمل هذا الكتاب أني لم أجد أحداً من أصحابنا– قديماً وحديثاً– من عمل كتاباً يحتوي على تفسير جميع القرآن، يشتمل على فنون معانيه[٢٧]".

وقال فيه تلميذه الطبرسي (أبو علي الفضل بن الحسن ت ٥٤٨هـ) صاحب تفسير (مجمع البيان في تفسير القرآن): "وهو القدوة أستضيء بأنواره، وأطأ مواقع آثاره[٢٨]". وكتاب الطبرسي عندي نسخة أخرى من كتاب الطوسي. وكلاهما (التبيان ومجمع البيان) من أهم تفاسير الشيعة[٢٩].

في أثناء بحثي (الخليل في شرح الحماسة للمرزوقي) طفقت أتابع هذه الفكرة لاستقراء أقوال الخليل المنقولة من (كتاب العين) فوقفت على كتاب (التبيان في تفسير القرآن للشيخ الطوسي) وذكرته لأستاذنا المرحوم مهدي المخزومي فأعجب بالفكرة وطلب مني أن أواصل التنقير عن أقوال الخليل وعرضها على (العين)، والتنبيه عليها، خدمة للخليل ولكتابه، فوجدت (٩٤) نصاً في (التبيان) وعرضتها على:

- طبعة المخزومي والسامرائي.
- طبعة هادي حسن حمودي.

وسردتها في البحث على ما وردت بـــ(التبيان)، وقرنتها بما ورد في الطبعتين المذكورتين، وعلّقت على ما يستحق التعليق، تاركاً لمن يتصدى لنشر (العين) مرة أخرى أن يفيد من هذه النصوص فيأخذ منها ما يقرّب (العين) كما أراده (الخليل) إن رأى ذلك يخدمه.

ومما رأيته عند الطوسي في نقله:

١– يستعمل عبارة (قال صاحب العين) في أغلب النصوص، وقد يستعمل (قال الخليل) والقول في (العين) أيضاً، مما يؤكد أنّ الطوسي يرى أن (الخليل) هو (صاحب العين)، وليس لديه أدنى شك بين (الخليل) و(العين) مما جعله يعتمد

على أقواله في تفسير مفردات القرآن الكريم ومعانيه، وحسبه بالخليل و(بعينه) حجّةً ومصدراً.

٢- حين ينقل الطوسي عن الخليل رأياً من غير (العين) يذكره باسمه فيقول مثلاً: (وروى الخليل...)[٣٠]، (وقال الخليل...[٣١])، وغير هذا كثير[٣٢].

٣- وقعت نشرة (التبيان) بأخطاء طباعيّة كثيرة جداً مما يصعب عليّ استقصاؤها، وليس هذا من هدف البحث، لذا أدعو إلى تحقيق هذا التفسير وإخراجه من جديد لتتم به الفائدة على أحسن صورة.

٤- إنّ النصوص التي نقلها الطوسي من (العين) من نسخة غير النسخ التي اعتمدها المحققان مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي لذا نجد اختلافاً: قليلاً مرة، وكثيراً مراراً، هذا فضلاً عن أن همّ الطوسي بيان ما هو بصدده من تفسير، فينقل ما يراه مناسباً في مواقف كثيرة، ولعلّ بهذا حاجة إلى مقارنة دقيقة تخرجنا مما نحن فيه من التنبيه على فكرة البحث ومنطلقه.

٥- يطيل الطوسي أحياناً فينقل ما ورد بالعين بجملته مما يدل على دقة الرجل واهتمامه بـ (العين)، وأحياناً نجده يجتزئ نص العين لما يخدم غرضه.

٦- وجدنا في نصوص عدة اختلافاً في ترتيب عبارة (العين) في (التبيان) وفي طبعتي (العين) مما نرجعه إلى اختلاف النسخ أو رواية (العين).

٧- صادفتنا نقول لغوية هي أشبه بالخليل وعينه غير معزوّة، ولولا الإطالة لوقفنا عندها[٣٣]، ونعد أننا سنرجع إليها مستقبلاً، ونظرنا في مادة (حسب) فوجدنا أنها منقولة من العين[٣٤] باختصار مع شواهده القرآنية.

هذا ما رأيناه- وربما فاتتنا نصوص في التبيان لم نقف عليها- في كتاب ما زالت به حاجة إلى درس وبحث وتنقير.

إن نصوص (العين) التي نقلها الشيخ الطوسي، والتي بلغت عدتها (٩٤) نصاً، تقدّم لنا مادة صالحة في البحث اللغوي، وتنتظر منا- نحن الباحثين- أن نقارن، ونوازن، ونصحح في ضوئها ما ورد في طبعات (العين) لنصل في ذلك

إلى نسخة قريبة تركها (الخليل) إرثاً للعربية.

وأقدم هنا جدولاً بالمواد اللغوية مرتبة على وفق ترتيب الخليل مفرداته في العين. ثم أعرض هذه المواد في محورين:

الأول: النصوص المتطابقة.

الثاني: النصوص المختلفة.

وطريقتنا في سرد المواد أن نذكر ما نقله (الطوسي) من (صاحب العين: الخليل) في السورة ثم رقم الآية، ونشفع ذلك بما ورد في طبعة: هادي حسن حمودي، ونختم ذلك كله بتعليق مناسب.

نصوص العين في التبيان:

"جدول المواد"

ع	المفردة	في التبيان	طبعة المخزومي والسامرائي	طبعة هادي حسن حمودي	مختصر الإسكافي	الملاحظات
	عرض	١٣٧/١	٢٧١/١	٢٠٨/٤-٢١٢	١٤١/١-١٤٢	
	ركع	١٩٥/١	٢٠٠/١	٧٤/٣	١٢١/١	٠
	عقل	٢٠٠/١	١٥٩/١	٢٧٨/٤-٢٨٠	١٠٨/١-١٠٩	
	خشع	٢٠٤/١	١١٢/١	١٤٥/٢	٩٣/١	
	وعد	٢٣٢/١	٢٢٢/٢	٣٠٠/٦	٢٢٧/١	
	بعد	٢٣٦/١	٥٢/٢	٢٠٥/١-٢٠٦	١٨١/١	
	منع	٤١٧/١	١٦٣/٢	٦٣/٦-٦٤	٢١١/١	
	سعي	٤١٨/١	٢٠٢/٢	١٩١/٣-١٩٢	٢٢٢/١	
	ضيع	١١/٢	١٩٤/٢	٩٤/٤	٢٢٠/١	
	جوع	٣٧/٢	١٨٥/٢	٣٦٣/١	٢١٦/١	
	نعق	٧٩/٢	١٧١/١	١٤٥/٦	١١١/١	
	عام	١٥٠/٦	٢٦٨/٢	٣٣٦/٤	٢٤١/١	
	عسس	١٨٦/١٠	٧٤/١	٢٢٩/٤-٢٣٠	٨٠/١	
ح	المفردة					
	ذبح	٢٢٢/١	٢٠٢/٣	٢٧٠/٢	٣٥٨/١-٣٥٩	
	حطط	٢٦٤/١	١٨/٣	٦٠/٢	٢٨٨/١	

	سحر	٣٧٢/١	١٣٥/٣	١٩٣/٣ ١٩٤	٣٣٦/١
	حجم	٤٣٧/١	٨٧/٣	٣/٣	٣١٧/١
	حنف	٤٨٠/١	٢٤٨/٣	٩٣/٢	٣٧١/١
	جنح	٤٣/٢	٨٣/٣	٣٥٥/١ ٣٥٩	٣١٤/١
	لعم	٨٦/٢	٢٤٥/٣	٢٦٤/٥	٣٧٠/١
	محص	٣/٣	١٢٧/٣	١٤/٦	٣٣٤/١
	سحت	٥٢٩/٣	١٣٢/٣	١٦٣/٣	٣٣٥/١
	جحد	١٤/٦	٧٣/٣	٢٩٨/١	٣١٠/١
	رحق	٣٠٣/١٠	٤٥/٣	٣١/٣	٢٩٩/١
هـ	السفردة				
	جهر	٣٥٠/١	٣٨٨/٣	٣٥٩/١ ٣٦٠-	٤٣٣/١
خ	المفردة				
	دخل	٣٦١/١	٢٣٠ /٤	٢١٢/٣ -٢١٣	٥٤٢/١ -٥٤٣
	خطأ	٣٦٦/١	٢٩٢ /٤	١٥٤/٣	٥٦٧/١
	نسخ	٣٩٣/١	٢٠١/٤	١١٧/٦	٥٣١/١
	خطو	٧٣/٢	٢٩٣ /٤	١٥٩/٣	٥٦٧/١
	أخو	١٠١/٣	٣١٩/٤	٩٥/١ -٩٦	٥٦٩/١ -٥٧٨
غ	المفردة				
	رغد	١٥٧/١	٣٩٣/٤	٥٩/٣	٦١٦/٣
	غرق	٢٢٧/١	٣٥٤/٤	٣٥٤/٤	٥٩٨/٣
	رغب	٤٦٩/١	٤١٣/٤	٤١٣/٤	٦٢٥/٣
	صبغ	٤٨٥/١	٣٧٤/٤	٣٧٤/٤	٦٠٨/٣
ف	المفردة				
	قرب	١٥٧/١	١٥٣/٥	٩١/٥ -٩٣	٧٠٩/٣
	قرى	٢٦٣/١	٢٠٣/٥	١٠٨/٥ -١٠٩	٧٣٠/٣
	شرق	٤٢٢/١	٣٨/٥	٢٧٥/٣ -٢٧٦	٦١٣/٣
	فتت	٤٢٨/١	١٢٩/٥	١٦٤/٥	٧٠٠/٣
	قضى	٤٣٠/١	١٨٥/٥	١٢٧/٥	٧٢٢/٣
	يقن	٤٣٩/١	٢٢٠/٥	٣٢٤/٦ -٣٢٥	٧٢٨/٣
	سبق	٢٥/٣	٨٥/٥	١٥٥/٣	٦٨٣/٣
	نقص	٣٧/٣	٦٥/٥	١١١/٦	٦٧٣/٣
	قرأ	١٢٢/٣	٢٠٤/٥	٩١/٥	٧٣١/١ -٧٣٢

ك	المفردة					
	مكر	١٤٩/١	٣٦١/٥	١٨٧/٥ ١٨٨	٨٠٠/٢	
	ذكر	١٨١/١	٣٤٦/٥	٢٧٨/٢ ٢٨٠	١٩٢/٢	
	زكى	١٩٤/١	٣٩٤/٥	١٢٥/٣	٨١١/٢	
	فلك	٥٧/٢	٣٧٤/٥	١٠٣/٥ ٥٤	٨٠٣/٢	
	كز	٦٨/٢	٢٧٧/٥	٢٠٢/٥	٧٦٦/٢	
	كبت	٥٨٤/٢	٣٤٢/٥	١٨٦/٥	٧٩١/٢	
	نكو	٤٣٢،٤٣٣/٣	٣٩٩/٥	٢٨٠/٢	٨١٢/٢	
	اكم	٥٦/٤	٤٢٠/٣٨٣،٥/٣	١٢٠/١ ١٢١	٨٢٢/٢	
	مكر	٤٨١/٤	٣٧٠/٥	٥٥/٦	٨٠٢/٢	
ج	المفردة					
	شجر	١٥٧/١	٣٠/٦	٢٥٤/٣ ٢٥٥	٨٣٩/٢	
	جزى	٢١١/١	١٦٤/٦	٣٢٤/١	٨٨٠/٢ ٨٨١	
	نجا	٢١٨/١	١٨٦/٦	٩٧/٦ ٩٨	٨٨٧/٢ ٨٨٨	
	جنف	١١٢/٢	١٤٣/٦	٣٥٧/١ ٣٥٨	٨٧٤/٢	
ش	المفردة					
	شطر	١٥/٢	٢٣٣/٦	٢٨١/٣	٩٠٨/٢ ٩٠٩	
ض	المفردة					
	ضرر	٣٧٩/١	٦/٧	٧٦/٤	٩٤١/٢	
	روض	١٢١/٢	٣٩/٧	٧٨/٣	٩٥١/٢	
ص	المفردة					
	صبر	٢٠٢/١	١١٥/٧	٨/٤	٩٧٨/٢	
	نصر	٢١٦/١	١٠٨/٧	١٣٠/٦	٩٧٢/٢	
	صبا	٢٨٣/١	١٧١/٧	٥/٤	٩٩٦/٢	
	صير	٤٥٩/١	١٤٨/٧	٦٠/٤	٩٨٩/٢ ٩٩٠	
	صوم	١١٤،١١٥/٢	١٧١/٧ ١٧٢	٥٧/٤	٩٩٦/٢ ٩٩٧	
س	المفردة					
	سوأ	٢٢٠/١ ٢٢١	٣٢٧/٧	٢٣٣/٣ ٢٣٥	١٠٤٦/٢	
	نسو	٢٢٢/١	٣٠٣/٧	١٢١/٦	١٠٣٩/٢	
	سلى	٢٥٩/١	٢٩٧/٧	٢١٤/٣	١٠٣٧/٢	
	وسط	٦/٢	٢٧٩/٧	٣٨٦/٦	١٠٣١/٢	
ز	المفردة					

	زلل	١/١٦٠-١٦١	٧/٣٤٨	٣/١٢٨	٢/١٠٥٥
د	المفردة				
	أدم	١/١٣٦-١٣٧	٨/ ٨٨	١/٩٧	٣/١١٣٣
	بدا	١/١٤٥	٨/٨٣	١/١٧٤	٣/١١٣١
دار	١/٣٣٢-٣٣٣	٨/٥٦	٢/٢٥٨-٢٥٩	٣/١١٢٤	دار
دبب	٢/٥٨-٥٩	٨/١٢	٢/٢٠٢-٢٠٣	٣/١١٠٩	دبب
نداء	٢/٧٩	٨/٧٧	٦/١٠٩-١١٠	٣/١١٢٨	نداء
أدى	٢/١٠٣	٨/٨٧	١/٩٨-٩٩	٣/١١٣٤	أدى
راد	٢/١٢٣-١٢٤	٨/٦٤	٣/٩٠-٩١	٣/١١٢٥	راد
دلو	٢/١٣٩	٨/٦٩	٢/٢٤٥	٣/١١٢٦	دلو
ت	المفردة				
	فتن	١/٣٧٧	٨/١٢٧	٥/٩٠٨	٣/١١٥٠
ظ	المفردة				
	نظر	١/٢٢٨	٨/١٥٤	٦/١٣٩-١٤٠	٣/١١٦٣
	ظلل	١/٢٥٦	٨/١٤٨	٤/١٥٢-١٥٣	٣/١١٦١
ذ	المفردة				
	نبذ	١/٣٦٧	٨/١٩١	٦/٨١	٣/١١٧٩
	ذرر	١/٤٤٨	٨/١٧٥	٢/٢٧٣	٣/١١٧٣
	برأ	١/٢٤٤	٨/٢٨٩	١/١٧٦	٣/١٢٢٣
ر	المفردة				
	رأى	١/٢٤٩	٨/٣٠٦	٣/٧-١٠	٣/١٢٢٩
	مرأ	١/٣٧٩	٨/٢٩٩	٦/٢٢	٣/١٢٢٤
	مرى	٢/٢٢-٢٣	٨/٢٩٤	٦/٣٠	٣/١٢٢٤
ل	المفردة				
	ال	١/٢١٩	٨/٣٥٩	١/١٥٣	لم تر
	ليل	١/٢٣٥	٨/٣٦٧	٥/٣٠٦	لم تر
ملة	ملل	١/٤٤٠	٨/٣٢٤	٦/٦١-٦٢	٣/١٢٣٧-١٢٣٨
	لبب	٢/١٠٦	٨/٣١٦	٥/٢٥٢-٢٤٣	٣/١٢٣٥
ن	المفردة				
	نبأ	١/١٣٧	٨/١٣٧	٦/٧٨-٧٩	لم تر
ف	المفردة				
	وفي	١/١٨٢-١٨٣	٨/٤٠٩	٦/٣٠٦	لم تر
ب	المفردة				

	أبى	١٤٨/١-١٤٩	٤١٨/٨	٨٧/١	لم ترد	
م	المفردة					
	أمم	٣٤٥/٢	٤٢٦/٨	١٣١/١-١٣٢	لم ترد	

النصوص المتطابقة.

نعرض هنا النصوص المتطابقة وهي عشرة نصوص للتوضح أن بـــ (كتاب العين) وبـــ (التبيان) حاجة إلى نشرة محققة يقوم بها فريق أو مؤسسة لإظهار نسخة تامة صحيحة تليق بهما.

جاء في التبيان (سورة البقرة ١٤٣)١١/٢: "قال صاحب العين: ضيعة الرجل حرفته. يقال: ما ضيعتك أي ما حرفتك، هذا في الضياع وضاع عمل فلان ضيعة، وضياعاً. وتركهم بضيعة ومضيعة. والضيعة والضياع معروف".

وجاء في العين (طبعة المخزومي و السامرائي) ١٩٤/٢: "وضَيْعَةُ الرَجُلِ: حِرْفَته، تقول: ما ضَيْعَتُك؟ أي: ما حِرْفَتُك؟ وإذا أخذ الرَجُل في أمور لا تعنيه تقول: فَشَتْ عليك الضَيْعة، أي انتشرت".

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي) ٩٤/٤: "وضَيْعَةُ الرَجُلِ: حِرْفَتُه، تقول: ما ضَيْعَتُك؟ أي: ما حِرْفَتُك؟ وإذا أخذ الرَجُلُ في أمور لا تعنيه تقول: فَشَتْ عليك الضَيْعة، أي انتشرتْ حتَى لا تدري بأيّ أمرٍ تأخذ. وضاعَ عِيالُ فلانٍ ضَيْعَةً وضِياعاً، وتركهم بمَضْيَعةٍ، وبمَضِيعةٍ، وأضاعَ الرَجُلُ عيالَه وضيَّعهم إضاعةً وتضييعاً، فهو مُضَيِّعٌ".

وجاء في مختصر العين للإسكافي ٢٢٠/١: "يقال: ما صنيعتك؟ أي: ما حرفتك؟ وضاع الشيء ضيعةً وضياعاً، وترك عياله ضيعةً ومضيعة، والضيعة والضياع معروفة".

في نصّ (التبيان) تحريف في بعض الألفاظ:

- (ضاع عمل فلان) صوابه (ضاع عيال فلان).
- (وتركهم بضيعة ومضيعة) يؤيّدها نصّ الإسكافي.

والنصّ في التبيان مختار لبيان ما هو بصدده، والزيادة التي في (العين) لم يكن بالطوسي حاجة إليها.

جاء في التبيان (سورة البقرة/ ١٥٥) ٢/٣٧: "قال صاحب العين: الجوع اسم جامع للمخمصة، والمجاعة: عام فيه جوع".

وجاء في العين (طبعة المخزومي و السامرائي) ٢/١٨٥: "الجوع: اسمٌ جامع للمخمصة. والفعل: جاع يجوع جوعاً. والنعت جائع، وجَوْعان، والمجاعة: عام فيه جوعٌ".

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي) ١/٣٦٣: "الجُوع: اسم جامعٌ للمَخْمَصَة. والفعل، جاع يجوع جُوعا. والنعت، جائع، وجُوعان. والمجاعة: عامٌ فيه جوعٌ".

وجاء في مختصر العين للإسكافي ١/٢١٦: "الجوع: المخمصة، جائع وجوعان، والمجاعة عام فيه جوع". التطابق واضح، بين النصوص، والزيادات لا تأثير لها في مراد (الطوسي) منها.

جاء في التبيان (سورة يوسف/٤٩) ٦/١٥٠: وقال الخليل: العام حول يأتي على شتوة وصيفة. والحول، والسنة مثل ذلك.

وجاء في العين (طبعة المخزومي والسامرائي) ٢/٢٦٨: "والعامُ: حَولٌ يأتي على شتوةٍ وصيفةٍ".

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي) ٤/٣٣٦: "والعامُ: حولٌ يأتي على شتوةٍ وصيفةٍ".

وجاء في مختصر العين للإسكافي ١/٢٤١: "العام: الحول...".

* ليس بالنصوص حاجة إلى تعليق.

جاء في التبيان (سورة المطففين/٢٥) ١٠/٢٠٢: "قال الخليل: هي أفضل الخمر وأجودها. قال حسان:

يسقون من ورد البريص عليهم برداً يصفق بالرحيق السلسل"

جاء في العين (طبعة المخزومي و السامرائي) ٣/٤٥: "الرَّحيقُ: من أسماء الخَمْر، قال حَسّان:

يَسقُونَ مَن وَرَدَ البَريصَ عليهِمُ كأساً تُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ"

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي) ٣/٣١: " الرَّحيقُ: من أسماء الخَمْر، قال حَسّان:

يَسقُونَ مَن وَرَدَ البَريصَ عليهِمُ كأساً تُصفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ"

وجاء في مختصر العين للإسكافي ١/٢٩٩: "الرحيق: الخمر".

* من قراءة في هذه النصوص نقف على ما يأتي:

إنّ عبارة الخليل في التبيان أكثر دقة وإيضاحاً لغةً، وبيت حسان يتطابق وروايته في الديوان إذ ورد:

يَسقُونَ مَن وَرَدَ البَريصَ عليهِمُ بردى يصفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ"

وعلق المحقق في الهامش: "ويروي برداً"(٣٥).

جاء في "التبيان": (سورة البقرة/٥٨) ١/٢٦٦: "قال صاحب العين: الخطأ ما لم يتعمد. ولكن يخطئ إخطاء وخطاءة وتخطئة... وخطايا وزنها فعائل... والخليل يقول: وزنه فعالى على قلب الهمزة".

وجاء في العين (طبعة المخزومي والسامرائي) ٤/٢٩٢: "وخطايا أصلها خطائي.. وذهبوا به إلى فعالى.. والخطأ ما لم يتعمد ولكن يخطأ خطأ وخطأته تخطئة".

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي) ٢/١٥٤:"وخطايا أصلها خطائي.. وذهبوا به إلى فعالى.. والخطأ ما لم يتعمد ولكن يخطأ خطأ وخطأته تخطئة".

وجاء في مختصر العين للإسكافي ١/٥٦٧: "الخطأ: ما لم يتعمد..."

* ينظر التطابق مع ملاحظة التقديم والتأخير في العبارات، ولعلّ (الطوسي) قدّم وأخرّ بما يناسب مقام التفسير.

وجاء في "التبيان": (سورة البقرة/ ١٦٨) ٢/٧٢: "خطوات الشيطان... وقال الخليل: إثاره". نفسه في مجمع البيان بلفظ (آثاره) بلا عزو إلى الخليل ١/٢٥٢.

وجاء في العين (طبعة المخزومي و السامرائي) ٤/٢٩٢: "وقوله تعالى: ﴿لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾... أي آثار الشيطان".

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي) ١٥٩/٢: وقوله تعالى: ﴿لا تَتَّبِعوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ﴾، ومن خَفَّفَ قال: خُطوات أي: آثار الشَّيْطان.

* لم ترد في مختصر العين للإسكافي.

* سبق أن أشرنا إلى الأخطاء الطباعية في (التبيان) إذ وردت هنا لفظة (إيثاره) وصوابها (آثاره) والنصوص متطابقة.

جاء في "التبيان": (سورة البقرة /١٨٥) ١٢١/٢: "قال صاحب العين: والرمض: حرقة غيظ تقول: أرمضني هذا الأمر ورمضت له. والرمض مطر يكون قبل الخريف."

سقط من هنا وجاء في العين (طبعة المخزومي "الرمض: حرقة القيظ. وقد أرمضني هذا الأمر فرمضت... والرمض. مطر قبل الخريف).

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي) ٧٨/٣: "حُرْقةُ القَيْظ. وقد أرْمَضَني هذا الأمرُ فرَمِضْتُ. والرَّمَضُ: مَطَرٌ قبل الخريف".

وجاء في مختصر العين للإسكافي ٩٥١/٢: "والرمض: حرقة غيظ، وأرمضته فرمض، والرمض مطر قبل الخريف".

* يلاحظ التطابق بين (التبيان) و(مختصر العين) وربما وقع تصحيف في العين بطبعتيه.

جاء في التبيان (سورة البقرة/٦٢) ١/ ٢٨٣: "وقال مجاهد والحسن وابن أبي نجيح: الصابئون بين اليهود والمجوس لا دين لهم. وقال السدي: هم طائفة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور. وقال الخليل: هم قوم دينهم شبيه بدين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب. خيال منصف النهار، ويزعمون أنهم على دين نوح".

وجاء في العين (طبعة المخزومي و السامرائي) ١٧١/٧: "صبأ: وصَبَأَ فلان "أي دان بدينِ الصَّابئين، وهم قَوم دينُهم شبيه بدين النَّصارى" إلا أنَّ قِبْلَتَهم نحو مَهَبِّ الجَنوبِ، حِيالَ مُنتصَف النهار، يزعُمُون أنَهم على دين نُوحٍ، (وهم كاذبون)".

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي) ٥/٤: "وصَبَأَ فلان "أي دان بدينِ الصَّابئين، وهم قَوم دينُهم شبية بدين النَّصارى" إلا أنَّ قِبْلَتَهم نحو مَهَبِّ الجَنوبِ ، حِيالَ

مُنتصف النهار، يزعُمُون أنّهم على دين نُوحٍ، وهم كاذبون."

وجاء في مختصر العين للإسكافي ٩٩٦/٢: "وصبأ صار على دين الصابئين وقبلتهم من مهب الجنوب حيال منتصف النهار، يزعمون أنهم على دين نوح".

في نصّ (الطوسي) خطأ طباعي (خيال) وهي (حيال)، و(منصف) هي (منتصف)، وفي طبعة (حمودي): (شبية) وهي (شبيه). والتطابق واضح في النصوص.

والزيادة التي بين معقوفتين في طبعة (المخزومي والسامرائي) من (تهذيب الأزهري) وليس من مخطوطة أخرى!

جاء في التبيان (سورة البقرة /٤٩) ٢٢٢/١: قال صاحب العين: النسوة، والنسوان، والنسين، كل ذلك مثل النساء".

وجاء في العين (طبعة المخزومي و السامرائي) ٣٠٣/٧: "النِّسْوَةُ، والنِّسوان والنِّسُون كلّه: جملة النِّساء، لا واحِدَ لهُ من لفظه".

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي) ١٢١/٦: "النِّسْوَةُ، والنِّسوان والنِّسُون كله: جملة النساء، لا واحِدَ لهُ من لفظه".

وجاء في مختصر العين للإسكافي ١٠٣٩/٢: "نسوة ونسوان ونسين".

* نصّ (التبيان) أكثر دقة، وخير الكلام ما قلّ ودلّ، فعبارة (مثل النساء) تعني أمرين:

- أن هذه جموع.
- وأنها لا مفرد لها مثل لفظة (النساء).

وينظر تطابق (التبيان) و(مختصر العين) في ألفاظ الجموع.

جاء في "التبيان" (سورة البقرة/١٠٢) ٣٧٧/١: "قال صاحب العين فتن فلان فتوناً فهو فاتن أي مفتن وقوله: "ما أنتم عليه بفاتنين" أي مضلين عن الحسن ومجاهد".

وجاء في العين (طبعة المخزومي و السامرائي) ١٢٧/٨: "فتن فلان يفتن فهو فاتن أي مفتتن والفتون مصدره... وقوله تعالى: "ما أنتم عليه بفاتنين" أي مضلين عن الحسن ومجاهد".

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي) ٨/٥- ٩: "فتن فلان يفتن فهو فاتن أي مفتتن والفتون مصدره... وقوله تعالى: "ما أنتم عليه بفاتـــنين" أي مضلين

عن الحسن ومجاهد".

وجاء في مختصر العين للإسكافي ٣/١١٥٠: "فتن فتوناً، فهو فاتن مفتن... و(ما أنتم عليه بفاتنين) أي مضلين".

• هذه أمثلة مما وقفنا عليه من النصوص المتطابقة.

النصوص المختلفة

ونعرض هنا نصوصاً مختلفة العبارات تقترب أحياناً وتبتعد في أشارة واضحة إلى اختلاف النسخ التي نقلت عن أصل (العين) مما يؤشر بوضوح إلى ما تعرّض له (كتاب العين) في رحلته الطويلة فوقع في آفات النقل: من تحريف أو تصحيف أو إضافة أو تقديم وتأخير أو حذف واختصار.

اخترنا هنا (٥) نصوص مثالاً لذلك بما يناسب بحثاً يقدّم لندوة لإيضاح فكرة واعتماد منهج، ونؤكد أننا سنقدم النصوص كاملة في نشرة قادمة.

جاء في التبيان (سورة البقرة/٣١) ١/١٣٧: "ويقال عرض عرضاً. قال صاحب العين: عرض علينا فلان المتاع يعرض عرضاً للشراء أو الهبة".

وجاء في العين (طبعة المخزومي والسامرائي) ١/٢٧١: "وفلانٌ يَعْرِضُ المتاعَ عَرْضا للبيع والهبة ونحوهما".

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي) ٤/٢٠٨: "وفلانٌ يَعْرِضُ المتاعَ عَرْضا للبيع والهبة ونحوهما".

وجاء في مختصر العين للإسكافي ١/١٤١: "وعرض فلان من سلعته: عارض بها، وعارضه في البيع".

- يبدوا أنّ نصّ (التبيان) وما ورد في (العين) متقاربان أكثر مما ورد في (المختصر).
- إن مادة (عرض) استغرقت في طبعة (المخزومي والسامرائي) صفحتين ١/٢٧١-٢٧٢، وفي طبعة (حمودي) خمس صفحات ٤/٢٠٨-٢١٢، وفي (المختصر) صفحتين ١/١٤١-١٤٢، وقد نقل (الطوسي) ما به حاجة في تفسيره.

جاء في التبيان (سورة البقرة/٤٣) ١/١٩٥: "والركعة: الهوة في الأرض. – لغة يمانية – قال صاحب العين: كل شيء ينكب لوجهه، فتمس ركبته الأرض أولا

تمس، بعد أن يطأطئ رأسه، فهو راكع. قال الشاعر:

ولكني أنص العيس تدمى أيا طلها وتركعُ بالحزون (٣)

وقال لبيد:

أخبر أخبار القرون التي مضت أدب كأني كلما قمت راكع"

وجاء في العين (طبعة المخزومي و السامرائي) ١/٢٠٠: "ركع: كل قومة من الصلاة ركعة، وركَعَ ركوعا. وكلُّ شيءٍ ينكبُّ لوجهه، فتمس ركبته الأرض أولا تمسُّ (ـــها) بعد أن يطأطئ رأسه، فهو راكع. قال لبيد:

أُخبر أخْبار القرون التي مضت أدِبّ كأني، كلّما قمت، راكع"

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي) ٣/٧٤: "ركع: كلّ قومة من الصلاة ركعة، وركَعَ ركوعا. وكلُّ شيءٍ ينكبُّ لوجهه، فتمس ركبته الأرض أولا تمسُّ (ـــها) بعد أن يطأطئ رأسه، فهو راكع. قال لبيد:

أُخبر أخْبار القرون التي مضت أدِبّ كأني، كلّما قمت، راكع"

وقال:

ولكنّي أنصّ العيس تدمى أظلاها وتركعُ بالحزون

وجاء في مختصر العين للإسكافي ١/١٢١: "كل قومة من الصلاة: ركعة، وركع طأطأ رأسه وانحنى".

- الاختلاف يؤيد ما نذهب إليه من اختلاف النسخ!

جاء في التبيان (سورة البقرة/٤٤) ١/٢٠٠: "وقال صاحب العين: العقل: ضد الجهل يقال: عقل الجاهل: إذا علم. وعقل المريض بعد ما هجر وعقل المعتوه ونحوه والعقال: الرباط ويقال: عقلت البعير أعقله، عقلاً: إذا شددت يده بالعقال وإذا أخذ صدقة الإبل تامة لسنة يقال: أخذ عقالاً وعقالين لسنتين، وعقلا لجماعة وقال الشاعر:

سعى عقالاً فلم يترك لنا سبداً فكيف لو قد سعى عمرو عقالين

لا صبح الناس أوباداً وما وجدوا يوم التحمل في الهيجا جمالين"

وجاء في العين (طبعة المخزومي و السامرائي) ١/١٥٩: "العَقْل: نقيض الجَهْل. عَقَلَ يَعْقِل عَقْلاً فهو عاقل. والمَعْقُولُ: ما تَعْقِلُه في فُؤادِك. ويقالُ: هو ما يُفْهمُ، وهو العقل واحد، كما تقُولُ: عَدِمْتَ مَعْقولاً أي ما يُفْهَمُ منك من ذهْنٍ أو عَقْل.

قال دغفل:

فقد أفادَتْ لهُمْ حِلْماً ومَوعِظةً لِمَنْ يكون له إرْبٌ ومَعْقُولُ

وقَلبٌ عاقلٌ، قال دغفل: بلسانٍ سؤولٍ، وقَلْبٍ عَقولٍ، وعَقَلَ بَطْنُ المريض بعدما استَطْلَقَ: استَمْسَكَ. وعَقَلَ المَعْتوهُ ونَحْوه والصَّبيُّ: إذا ادرَك وزَكا. وعَقَلْتُ البَعيرَ عقلاً شَدَدْتَ يَدَه بالعِقالِ أي الرِّباط، والعِقالُ: صَدَقَة عامٍ من الإبِل ويُجْمَع على عُقُل، قال عَمرو بنُ العَداء الكَلْبيّ:

سعى عقالاً فلم يترك لنا سَبَداً فكيف لو قد سعى عمرو عِقالَين "

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي) ٤/٢٧٨: "العَقْل: نقيض الجَهْل. عَقَلَ يَعْقِل عَقْلاً فهو عاقل. والمَعْقُولُ: ما تَعْقِلُه في فُؤادِك. ويقالُ: هو ما يُفْهمُ، وهو العَقْل واحد، كما تقُولُ: عَدِمْتَ مَعْقُلاً أي ما يُفْهَمُ منك من ذهْنٍ أو عَقْل.

قال دغفل:

فقد أفادَتْ لهُمْ حِلْماً ومَوعِظةً لِمَنْ يكون له إرْبٌ ومَعْقُولُ

وقَلبٌ عاقلٌ، عقول قال دغفل: بلسانٍ سؤولٍ، وقَلْبٍ عَقولٍ، وعَقَلَ بَطْنُ المريض بعدما استَطْلَقَ: استَمْسَكَ. وعَقَلَ المَعْتوهُ ونَحْوه والصَّبيُّ: إذا ادرَك وزَكا. وعَقَلْتُ البَعيرَ عقلاً شَدَدْتَ يَدَه بالعِقالِ أي الرِّباط، والعِقالُ: صَدَقَة عامٍ من الإبِل ويُجْمَع على عُقُل، قال عَمرو بنُ العَداء الكَلْبيّ:

سعى عقالاً فلم يترك لنا سَبَداً فكيف لو قد سعى عمرو عِقالَين"

وجاء في مختصر العين للإسكافي ١/١٠٨: "عقَل بعد الجهل، وعقل البعير بعقال، والعقال: صدقة سنة.."

اختلاف العبارة (ضد- نقيض- بعد) يعود إلى اختلاف النسخ.

جاء في التبيان (سورة البقرة/٣١) ١/١٣٦-١٣٧: وقال صاحب العين الأدمة في الناس: شربة من سواد. وفي الإبل والظباء: بياض. وأدمة الأرض: وجهها. والمؤدم "١" من الجلد خلاف المبشر وأدما أنثى. وآدم ذكر وهي الأدم في الجماعة. وآدم أبو البشر. والأدم: ما يؤتدم به وهو الأدام. والأدم جماعة الأديم. وأديم كل شيء: وجهه".

وجاء في العين (طبعة المخزومي و السامرائي) ٨/٨٨: "وقالوا: الأدمة في الناس شرْبة من سواد، وفي الإبلِ والظباء بياض، يقال: ظبية أدماء، ولم أسمع أحداً يقول للذكر من الظِّباء آدَم وإنْ كان قياساً.

وأديم كلِّ شيءٍ: ظاهرُ جلدِه، وأدمة الأرض: وجهُها، وقيل: سمي آدم – عليه السلام– لأنه خُلِقَ من أدَمة الأرض، وقيل: بل من أدمةٍ جُعلت فيه.

"والإدام والأُدْمُ: ما يؤتدم به مع الخُبز، وأدَمْتُ الخُبْزَ أدماً: جعلتُ فيه الأُدْمَ والسَّمْنُ واللَّحْمُ واللَّبن، كُلُّه أُدْمٌ، والادام جماعة، وثلاثة آدِمة".

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي)١/٩٧: "وقالوا: الأدمة في الناس شرْبة من سواد، وفي الإبلِ والظباء بياض، يقال: ظبية أدماء، ولم أسمع أحداً يقول للذكر من الظِّباء آدَم وإنْ كان قياساً.

وأديم كلِّ شيءٍ: ظاهرُ جلدِه، وأدمه الأرض: وجهُها، وقيل: سمي آدم– عليه السلام– لأنه خُلِقَ من أدَمة الأرض، وقيل: بل من أدمةٍ جُعلت فيه.

"والإدام والأُدْمُ: ما يؤتدم به مع الخُبز، وأدَمْتُ الخُبْزَ أدماً: جعلتُ فيه الأُدْمَ والسَّمْنُ واللَّحْمُ واللَّبن، كُلُّه أُدْمٌ، والادام جماعة، وثلاثة آدِمة".

وجاء في مختصر العين للإسكافي ٣/١١٣٣: "الأدمة: خلاف البشرة، وأدمة الأرض: وجهها، وأديم مؤدم غير مبشر، والأدمة في الناس: شربة من سواد، وفي الإبل والظباء: بياض، وآدم أبونا عليه السلام، الأدم: الإدام، والجميع: الآدام".

هذا الاختلاف الواضح يعود إلى اختلاف النسخ سواء في الألفاظ أو في ترتيب المواد المفسرة في هذا الجذر اللغوي.

جاء في التبيان (سورة البقرة/١٠٢) ١/٣٧٩: "قال صاحب العين : امرأة

تأنيث المرء ويقال مرأة بلا ألف. و المرأة مصدر الشئ المرئي الذي يستمرأ يقال ما كان مريئاً، ولقد مرؤ واستمرأته، وهو المريء".

وجاء في العين (طبعة المخزومي و السامرائي) ٢٩٩/٨: "ومرؤ الطّعام، وهو مريء بين المراءة. ويقال: ما كان (الطّعام) مريئاً، وقد مَرؤ مراءةً، واستمرأ، وهذا الشّيء يُمْرِئني الطّعام. والمرأة: تأنيث المَرْء، ويقال: مَرَة بلا ألف".

وجاء في العين (طبعة هادي حسن حمودي) ٢٢/٦: "ومرؤ الطّعام، وهو مريء بين المراءة. ويقال: ما كان (الطّعام) مريئاً، وقد مَرؤ مراءةً، واستمرأ، وهذا الشّيء يُمْرِئني الطّعام. والمرأة: تأنيث المَرْء، ويقال: مَرَة بلا ألف".

وجاء في مختصر العين للإسكافي ١٢٢٤/٣: "وامرأة تأنيث آمرئ، كالمرأة من المرء... ولقد مرؤ، وهذا يمرئني الطعام...".

* يتضح مما تقدم:

- أنّ محقق التبيان لم يضبط لفظ (امرأة) و(مرأة)، مؤنث (امرئ) و (مرء).
- وقع في تحريف (مراءة) فذكر (المرأة).
- ووقع في خطأ ثالث فذكر (مرأة بلا ألف) والصواب (مرة).

ومن هذا تظهر ضرورة إعادة تحقيق (التبيان) ولاسيما في ضوء ما طبع من (العين) و(مختصره)!

الخاتمة:

بعد هذا كلّه يؤكد هذا البحث فكرته التي انطلق منها لتكون نافذة يطلّ منها المهتمون بتحقيق تراثنا ومحاولة تقديمه بصورته الأولى أو مقاربتها على وفق متابعة أي نصّ في أيّة مخطوطة أو مطبوعة. هذا فضلاً عن توجيه النظر إلى كتب التفسير وما تضمّه من نصوص وأقوال وظفّها المفسرون للوصول إلى مراد الله تعالى. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحواشي.

(١) نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، تحقيق إبراهيم السامرائي، بغداد، سنة ١٩٥٩م، ص٤٧.

(٢) كانت الفرصة الأولى في بحثي المعنون (الخليل في شرح الحماسة للمرزوقي) المنشور في كتابي: قضايا مطروحة للمناقشة في النحو واللغة والنقد، دار أسامة للنشر والتوزيع- الأردن، ط١، سنة ١٩٩٨م، ص١٠٦- ١٦٤.

(٣) مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، ط١، سنة ١٩٥٤م، ص٥٤، وينظر محمد المختار ولد أبّاه: تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو، ١٩٩٦م، ص٣٧.

(٤)عبقري من البصرة، مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، سنة١٩٨٦م، ص٧٤. وينظر له: قضايا نحوية.

(٥) ينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، أعماله ومنهجه، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، سنة١٩٨٦م، ص١٥٢، وما بعدها، وينظر: عبقري من البصرة ص٧٣ وما بعدها.

(٦) ينظر: المعجم العربي نشأته وتطوره، حسين نصار، دار مصر للطباعة، ط٤، ١٩٨٨م، ج١، ص٢٧٩- ٢٩٦.

(٧) ينظر: المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي، مكتبة الشباب، القاهرة، د.ت، ص٤٧- ٧٢.

(٨) ينظر: مقدمة تحقيق الصحاح، ط٤، ص٦١- ٧٠.

(٩) ينظر: المدارس النحوية، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٨، سنة ١٩٩٩م، ص٣١- ٣٢.

(١٠) ينظر: مشكلات في التأليف اللغوي في القرن الثاني الهجري، ص١٧٣-٢١٨، وتنظر ص٢٤٢.

(١١) ينظر: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، منشورات دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط١، سنة١٩٨٠م، ص٢٣٥- ٢٤٥.

(١٢) ينظر: محاولة جديدة في دراسة كتاب العين، مقالة منشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الأول، المجلد الثامن والثلاثين، ص٢٤٢.

(١٣) ينظر: كتاب العين في ضوء النقد اللغوي في القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير منشورة، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان ، ط١، سنة ١٩٩٩م، ص١٧٩، وما بعدها.

(١٤) ينظر: الخليل وكتاب العين، خدمات الإعلان السريع، مسقط، رقم الإيداع ١٩٩٤/٧٩م، الفصل الثاني ص٣٩-٦٧، والفصل الثالث ص٧١-٩١، وينظر مقدمة تحقيقه كتاب العيـــن،

ج١، ص٢٠-٤٣.

(١٥) ينظر: تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، مطبعة ديديكو، سلا، المغرب، سنة ١٩٩٦م، ص٧٣.

(١٦) ينظر: مثلاً: كراتشكوفسكي (المستعرب): معجم الخليل، المجلد الأول، ص٣٦٣-٣٦٤ وعبد الله العلايلي، مقدمة لدرس لغة العرب، ص١٠٩.

(١٧) ينظر عبد الله درويش، المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم (العين) قال في ص٦: "ابتدأ العلامة أنستاس الكرملي في عام ١٩١٣م في طبع الكتاب فأخرج قسماً صغيراً منه في (١٤٤) صفحة... ولكن ما حل ببغداد أثناء الحرب العالمية الأولى من اضطراب كان سبباً في توقف الطبع." وذكر محمد حسين آل ياسين في كتابه: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، ص٣٨٥، سنة ١٩١٤م، وأغلب الروايات تشير إلى هذه السنة.

(١٨) الخليل وكتاب العين، هادي حسن حمودي، ص٨٥.

(١٩) مقدمة تحقيق كتاب العين، هادي حسن حمودي، ج١، ص ٢٠.

(٢٠) نفسه، ج١، ص٢٠.

(٢١) كتاب العين (طبعة المخزومي والسامرائي) ج١، ص٤٨. و(طبعة هادي حسن حمودي) ج١، ص٦٩.

(٢٢) ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس، دار المعرفة، بيروت، ج٥، ص٣٧٦- ٣٧٨.

(٢٣) ينظر نفسها، ج١٥، ص٣٧٧.

(٢٤) ينظر الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٧، سنة ١٩٨٦م، ج٦، ص٨٤.

(٢٥) ينظر نفسه، ج٧، ص٢١.

(٢٦) ينظر نفسه، ج٤، ص٢٧٨.

(٢٧) التبيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، ج١، ص١.

(٢٨) مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي، وفضل الله اليزدي الطباطبائي، دار المعرفة، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٦م، ج١، ص١.

(٢٩) من الغريب ألا يقف محمد حسين الذهبي في كتابه: التفسير والمفسرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تاريخ المقدمة سنة ١٩٧٦م، ج١، ص٩٩. على (التبيان) بل وقف على (مجمع البيان) و بينهما نحو قرن من الزمان.

(٣٠) التبيان في تفسير القرآن، ج١، ص٢٧.

(٣١) نفسه، ج١، ص٢٨٣.

(٣٢) ينظر مثلاً: ج٢، ص٢٢٧: "قال الخليل والكسائي: موضعه الخفض بحذف اللام مع أن خاصة. وينظر: ج٢، ص٢٤٥: "وموضع أنْ في الآية جرّ بالجار المقدّر على قول الخليل والكسائي." وينظر أيضا: ج٢، ص٢٤٩:" وموضع أنْ... خفض... عند الخليل والكسائي والزجاج." وينظر: ج٢، ص٣٦٦:" قال الخليل: إذا التقت واوان في أول الكلمة أشبه بنباح الكلاب فرفضوا ذلك إلا فيما هو عارض لا يعتد به، فاستعملوا يذر لأنه لا تظهر فيه الواو، ومثله يدع." وينظر: ج٢، ص٤٢٨: "قيل في زيادة الميم في اللهمّ قولان: أحدهما- قال الخليل: إنها عوض من يا التي هي أداة نداء".

(٣٣) ينظر مثلاً: التبيان، ج٢، ص١٧٤ مادة (حسب) قال: "وتقول من الحساب: حسب الحساب يحسبه حسباً، وحسب الشئ حساباً وحاسبه محاسبة وتحاسبوا تحاسباً، واحتسب احتساباً، واحسبني من العطاء إحسابا أي كفاني (وعطاء حساباً) أي كافياً، والحسبان سهام صغار وقيل منه (ويرسل عليها حسباناً من السماء) وقيل عذابا، والمحسبة وسادة من أدم، والمحسبة غبرة مثل كدرة، وحسب الرجل مآثر آبائه، وأفعل ذلك بحسب ما أوليتني، وحسبي أي يكفيني (ويرزق ما يشاء بغير حساب) أي بغير تضييق (والشمس والقمر بحسبان) أي قدّر لهما مواقيت معلومة لا يعدونها، والتحسيب دفن الميت يجب (كذا) الحجارة." وصوابها- بجب).

(٣٤) ينظر العين (طبعة المخزومي والسامرائي): ج٣، ص١٤٨-١٥٠. وطبعة هادي حسن حمودي، ج٢، ص٤٤- ٤٥.

(٣٥) شرح ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، ط٣، سنة ١٩٨٣م، ص٣٦٥.

الاستشهاد بالحديث على اللغة في كتاب العين

د. سمير محمد عبيد نقد
جامعة البحرين – البحرين

الاستشهاد بالحديث على اللغة في كتاب العين

د. سمير محمد عبيد نقد

الملخص:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله الصادق الأمين، وبعد،

فهذا بحث بعنوان: (الاستشهاد بالحديث على اللغة في كتاب العين).

١- وهدف البحث هو بيان معرفة الخليل بالحديث، وتأثره بعلمائه، واستشهاده به، وبيان منهج الاستشهاد بالحديث والأثر في كتاب العين، ومدى تأثر العلماء بعده بذلك المنهج.

٢- وموضوع البحث هو شواهد الحديث والأثر المنثورة في كتاب العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيديّ.

٣- ومنهج البحث يقوم على استقراء الأحاديث الواردة في كتاب العين المنسوب للخليل وتصنيفها لاستنباط منهج الاستشهاد بها في الكتاب، ثم مقارنة ذلك بمناهج المعاجم الأخرى.

٤- ولد الخليل بن أحمد ونشأ ومات بالبصرة، وهي بلدة سكنها كثير من الصحابة وكبار التابعين، وعند علماء الحديث تأتي في المرتبة الثانية بعد المدينة من حيث كثرة حديث أهلها وصحته.

٥- تعلم الخليل الحديث في البصرة، وتأثر بعلمائه حتى تحول من مذهب الخوارج إلى أهل السنة على يد أيوب، وهو في الثلاثين أو أقل، وصار عالماً بالحديث، إلاّ أن التفرغ للغة غلب عليه لذا لم تكثر أحاديثه، ويدل تحول الخليل على مرونته العقلية والتفاته إلى الأدلة، وعلى كثرة ما تعلمه من أهل الحديث.

٦- ذكر الخليل ما يدل على أن الحديث حجة في اللغة في عدة مواضع من العين.

٧- في كتاب العين واحد وسبعون وخمسمائة من الأحاديث، أكثرها مرفوعة، يشير إليها بقوله: (وفي الحديث). وفيه موقوفات ويذكر راويها من الصحابة وأكثرهم من أهل البصرة. وفيه قليل من المقطوعات وكل رواتها

من التابعين بالبصرة والعراق، وقد يستشهد بأدعية بقوله يوردها: (وفي الدعاء). ولا يحدد قائلها.

٨- أكثر الاستشهاد في العين بروايات صريحة، وورد الاستشهاد الضمنيّ بالحديث في أربعة وثلاثين موضعاً.

٩- قد يساق المتن ناقصاً بقدر ما يكفي للاستشهاد، وقد يستشهد بالرواية الشاذة كما يستشهد بالمشهورة، ويستشهد بالضعيف والبلاغات، كما يستشهد بالصحيح من الحديث، واستشهد بالإسرائيليات في خمسة وعشرين موضعاً، وقد يكرر الحديث في عدة مواضع بحسب ما فيه من غريب.

١٠- حذفت الأسانيد في الروايات كلها، ولم يذكر إلا الراوي الأعلى في الموقوفات والمقطوعات.

١١- يفسر العين كثيراً من مصطلحات الشرع في الحديث وكلام السلف.

١٢- قبل اللغويون منهج كتاب العين في الاستشهاد بالحديث، وتابعته المعاجم الواسعة كتهذيب اللغة ولسان العرب في تفاصيل منهجه إلا فيما ندر، واعتمدت منهجه كتب غريب الحديث المتأخرة كالنهاية لابن الأثير الجزري.

١٣- سار قدامى النحاة على خلاف نهج المعاجم، وأهملوا الاستشهاد بالحديث إعجاباً بسيبويه الذي لم يبين لماذا أهمله على الرغم من أنه تتلمذ على الخليل، ولازمه طويلاً، وانتفع منه حتى قيل إنّه: (ألف كتاباً في ألف ورقة من علم الخليل)، و(أنّ عامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل)، وأنّ الخليل هو الذي أشار على سيبويه بتأليف كتابه، واستشهد بالحديث بعض كبار متأخري النحاة كابن هشام.

١٤- لعل سبب ترك سيبويه للاستشهاد بالحديث يرجع إلى اللحن الذي لحنه عند حماد بن سلمة، وكان سبباً في إعراضه عن الحديث وتفرّغه للغة بجد عند الخليل وغيره حتى برع وفاق غيره فيها.

حياة الخليل بن أحمد:

الخليل هو أبو عبد الرحمن بن أحمد بن عمر الفراهيديّ الأزديّ، ولد سنة مائة، ونشأ بالبصرة، وعاش ومات بها سنة سبعين ومائة، وقيل سنة خمس وسبعين ومائة، وقيل سنة ستين ومائة، ومات وهو ابن أربع وسبعين سنة[1].

ونقل المؤرخون عن علماء العراق الذين عاصروا الخليل الثناء عليه في عبادته وزهده، وقال سفيان بن سعيد الثوري: (من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد)[2]. وقال النضر بن شميل: (كنا نمثل بين ابن عون والخليل بن أحمد أيهما نقدم في الزهد والعبادة فلا ندري أيهما نقدم)[3]، وعبد الله بن عون عالم كبير معروف من أهل البصرة. وقال النضر أيضاً: (ما رأى الراءون مثل الخليل، وما رأى الخليل مثل نفسه)[4].

وأما علم الخليل باللغة والنحو فقد قال السيرافي عنه: (كان الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله)[5]. وقال الواحدي: (الإجماع منعقد على أنه لم يكن أحد أعلم بالنحو من الخليل)[6]. وكان الخليل ويونس بن حبيب إمامي أهل البصرة في العربية[7].

الخليل وعلم الحديث.

سكن الخليل بالبصرة، وهي بلدة قد استوطنها عدد كبير من الصحابة من قبائل مختلفة، ومن أشهرهم أنس بن مالك الأنصاري والحكم بن أبي العاص الثقفي وسلمان بن عامر الضبي وعبد الله بن الشخير العامري وعبد الله بن مغفل المزني وعمران بن حصين الخزاعي ومعاوية بن حيدة القشيري ومعقل بن يسار المزني وأبو بكرة نفيع بن الحارث الثقفي وغيرهم[8].

ومن المشهور عند أهل الحديث أن البصرة تعدّ ثانية أمصار الإسلام من حيث كثرة حديث أهلها وصحته بعد مدينة رسول الله ﷺ.

شيوخ الخليل من المحدثين:

ذكر المؤرخون في شيوخ الخليل جماعة من أهل الحديث وعلمائه، منهم: أيوب السختياني، وعثمان بن حاضر، والعوام بن حوشب، وعاصم الأحول، وغالب القطان[٩]، ولا بدّ من الترجمة لواحد منهم وهو أيوب لشدة تأثيره في الخليل.

أيوب بن أبي تميمة السختياني:

هو عالم بصري ثقة ثبت حجة من كبار الفقهاء والعبّاد، مات سنة إحدى وثلاثين ومائة، وله خمس وستون سنة، وحديثه في الكتب الستة[١٠]، وفي كتب السُنّة كلها، وكان أيوب لا يحب اللحن في الحديث؛ وقال الخليل بن أحمد: (لحن أيوب في حرف فقال: أستغفر الله)[١١].

وكان الخليل بن أحمد إباضياً قبل أن يجالس علماء الحديث بالبصرة، وخاصة أيوب؛ قال رجل: (ما رأيت الإباضية أكثر منهم في جنازة أم الخليل)[١٢]. وقال الأصمعي: (كادت الإباضية تغلب على الخليل حتى منّ الله عليه بمجالسة أيوب)[١٣].

إن هذا التحول الكبير في عقيدة الخليل على يد أيوب كان في فترة مبكرة من حياته، لأنه لمّا مات أيوب كان عمرُ الخليل نحوَ إحدى وثلاثين سنة، ويدل هذا التحول على أن الخليل كان ملازماً للعبادة من أول شبابه، إلاّ أن تعبّده الأول لم يكن عن علم واسع بالشرع، وهو ما أدى به إلى انتحال مذهب الإباضية الذين اشتهروا بالتشدد مع كثرة الصيام والقيام والعبادة كسائر فرق الخوارج في ذلك العصر؛ والشباب المندفع بقوة العاطفة الدينية إذا لم يجد التوجيه الشرعيّ السليم انتهى به المطاف إلى انتحال عقائد متشددة وأساليب متطرفة تضر بالدين والعباد والبلاد كما هو مُشاهد اليوم، ومن ثم فإن التعليم الشرعي الرشيد هو السبيل الأنجع لعلاج تنطع الغُلاة المتشددين.

ومن جهة أخرى يدل تحول الخليل إلى عقيدة أهل السنة دلالةً واضحة على كثرة ما تعلّمه من شيخه أيوب، وعلى شدّة محبته لشيخه، وللحديث وأهله؛ والناس مجبولون على محبة من كان سبباً في هدايتهم. ثم استمر الخليل على مذهب أهل السنة والجماعة حتى اشتهر به، وعاش بعد ذلك نحو أربعين سنة؛ وقال إبراهيم

الحربي: (كان أهل البصرة – يعني أهل العربية منهم- أصحاب الأهواء إلا أربعة: فإنهم كانوا أصحاب سنة: أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب، والأصمعي)[١٤].

وبدل تحول الخليل على أمر آخر، وهو المرونة العقلية والانتباه إلى الأدلة، والنزول إلى ما تقتضيه إذا دلت الدلائل الواضحة على صحتها، وهذه المرونة العقلية هي التي أهلت الخليل لاختراع عدة علوم، ومكّنته من الخطو بعلم اللغة العربية خطوات واسعة إلى الأمام.

ويلاحظ في علماء البصرة أنهم جَمَعوا بين العلم باللغة والعلم بالحديث، وظهرت آثار هذا الجمع في كتبهم، فهم أوّل من ألّف الكتب في غريب الحديث، كما أن أوّل معاجم العربية –وهو كتاب العين- يشتمل على كثير من الأحاديث كما سيأتي بيانه.

إن ملازمة الخليل لأهل الحديث بالبصرة جعلته من أعلم الناس بالسنة حتى قال النضر بن شميل: (ما رأيت رجلاً أعلم بالسنة بعد ابن عون من الخليل بن أحمد)[١٥]. وأورث الخليل هذا العلم لتلاميذه؛ وقد كان كبار أصحاب الخليل من أهل السنة كالأصمعي والنضر بن شميل.

وعلى الرغم من سعة علم الخليل بالحديث والأثر إلاّ أن المتقدمين من علماء الحديث كالبخاري وعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي لم يترجموا له إلا ترجمة مختصرة ذكروا فيها علمه باللغة، وبعض تلاميذه وشيوخه من أهل الحديث[١٦]؛ وذكره ابن حبان في الثقات، ووصفه بقوله: (يروي المقاطيع، روى عنه حماد بن زيد، وكان من خيار عباد الله المتقشفين)[١٧]. وهو صدوق مقبول الرواية عند أهل الحديث إلا أن روايته قليلة عندهم، ولم يخرجوا له حديثاً في الكتب الستة، وإنما روى له ابن ماجة في كتاب التفسير[١٨]، ولم يطعنوا فيه بشيء ترد به روايته.

ولعل السبب في اختصار ترجمة الخليل في كتب الجرح والتعديل المتقدمة يرجع إلى أن الخليل لم يتفرّغ لرواية الحديث مع سعة علمه به، وإنما تفرّغ للغة؛ وكأنه رأى أن أهل الحديث كثيرون، وأنهم يغنون الناس عن جهده في نقل الرواية،

وأنّ مجال اللغة هو المجال الذي يحتاج إلى جهوده أكثر من غيره، لأن اللغة تحتاج إلى جمع وضبط وتقعيد، والعهد عهد تأسيس لعلوم اللغة؛ وقد أعانه التفرغ للغة على ابتكار العروض، وابتكار فكرة المعاجم، والتمهيد لنضج النحو.

ويلاحظ أن علماء الحديث إنما يتوسّعون في ترجمة الراوي إذا كان واسع الرواية كثيرَ الشيوخ والتلاميذ؛ ثم إن كتب أوائل المؤلفين في الجرح والتعديل كان همّها حصر الرواة كلّهم أو جلّهم، وكثرة عدد من يترجم لهم تقتضي الاختصار والتأكيدَ على الجوانب الحديثية في حياة الراوي، لذا جاءت تراجم أكثر العلماء مختصرة في هذه الكتب، خاصة من لم يتفرغ للحديث منهم، والخليل بن أحمد كان من هذا الصنف.

تلاميذ الخليل:

ذكروا في تلاميذ الخليل حماد بن زيد والنضر بن شميل وعلي بن نصر الجهضمي ووهب بن جرير والأصمعي وسيبويه[١٩]. وهؤلاء أكثرهم من أهل العلم بالحديث مع اللغة إلا سيبويه فإنه قد تفرّغ للغة وحدها، ويقال: (نجم من أصحاب الخليل أربعة: عمرو بن عثمان سيبويه، والنضر بن شميل، وأبو فيد مؤرج العجلي، وعلي بن نصر الجهضمي؛ وكان أبرعهم في النحو سيبويه، وغلب على النضر بن شميل اللغة، وعلى مؤرج العجلي الشعر واللغة، وعلى علي بن نصر الحديث)[٢٠].

النضر بن شميل المازني:

هو أبو الحسن النحويّ البصريّ، ثقة ثبت في الحديث، أخذ عن الخليل، وعن فصحاء العرب بالبادية، وقيل مكث في البادية أربعين سنة، وغلبت عليه اللغة، وهو أول من أظهر السنة بمرو وخراسان، وكان أروى الناس عن شعبه، وروى عن حميد الطويل وهشام الدستوائي، وروى عنه علي بن المديني، ويحيى ابن معين، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وغيرهم، وحديثه في الكتب الستة، ومات النضر سنة أربع ومائتين، وعمره اثنتان وثمانون سنة[٢١].

ويرى الحاكم أن النضر هو أوّل من صنّف كتاباً في غريب الحديث، وقد وصل كتابه إلى الحاكم[٢٢]، وبعض علماء الحديث يرى أنّ أوّل من ألّف في غريب

الحديث هو أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري المتوفى سنة ثمان ومائتين[٢٣]، وكلا الكتابين صغير[٢٤]، وهكذا الشأن في أوائل الكتب المؤلفة في كل علم، تبدأ صغيرة ثم تكبر بتراكم الخبرة وزيادات اللاحق على السابق، ويبقى للسابق فضل سبقه وابتكاره، وللاحق فضل زياداته وتفاصيله.

عبد الملك بن قريب الأصمعي البصري:

روى عن عبد الله بن عون وشعبة بن الحجاج وحماد بن سلمة وحماد بن زيد والخليل، وأخذ عنه أبو عبيد القاسم بن سلام وأبو حاتم السجستاني ونصر بن علي الجهضمي، وهو صدوق، ومات سنة ست عشرة ومائتين، وقيل غير ذلك، وقارب التسعين، وروى له مسلم وأبو داود والترمذي[٢٥]، وهو مع سعة علمه باللغة كان من أهل العلم بالحديث.

سيبويه:

هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، إمام النحو، بدأ بطلب الفقه والحديث ثم تحول إلى اللغة؛ وأما بداية طلبه اللغة فإنه لما (قدم البصرة ليكتب الحديث فلزم حلقة حماد بن سلمة، فبينا هو يستملي على حماد قول النبي ﷺ: ليس من أصحابي إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء. فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء. وظنه اسم ليس، فقال حماد: لحنت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت، وإنما (ليس) ها هنا استثناء. فقال: سأطلب علماً لا تلحنني فيه. فلزم الخليل فبرع)[٢٦].

ويقال إن السبب هو ما ذكره عبيد الله بن معاذ العنبري وقال: (جاء سيبويه إلى حماد بن سلمة فقال: أحدثك هشام بن عروة عن أبيه: في رجل رَعُف في الصلاة ؟ فقال حماد: أخطأت ! إنما هو رَعَف.فانصرف إلى الخليل فشكا إليه ما لقيه من حماد؛ فقال: صدق حماد، ومثل حماد يقول هذا)[٢٧].

وحماد بن سلمة البصريّ الذي كان سبباً في تحوّل سيبويه إلى دراسة النحو واللغة كان يمر بالحسن البصري في الجامع فيدعه ويذهب إلى أصحاب العربية يتعلم منهم، ثم طلب الحديث حتى صار إمام أهل الحديث، وشيخ أهل البصرة في العربية، وكان يقول: (من لحن في حديثي فقد كذب علي)[٢٨].

وأما تتلمذ سيبويه على الخليل، وملازمته له، وعناية الخليل به فتدلّ عليها عدّة أخبار، منها قول أبي بكر بن السري: (قيل لسيبويه: هل رأيت مع الخليل كتباً؟ قال: لم أجد معه كتباً إلا عشرين رطلاً فيها بخط دقيق ما سمعته من لغات العرب، وما سمعت من النحو فأملأ من قلبه)[٢٩].

وكان للخليل عناية بسيبويه؛ قال محمد بن صالح بن مهران المعروف بالنطاح: (كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه فقال الخليل: مرحباً بزائر لا يُملّ. قال أبو عمرو المخزومي- وكان كثير المجالسة للخليل- ما سمعت الخليل يقولها إلاّ لسيبويه)[٣٠]. وقال أحمد بن معاوية بن بكر العليمي: (كنت أسمع في ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل بن أحمد)[٣١].

ويبدو أن سيبويه كان كثير الرواية والتلقي عن الخليل، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: (قيل ليونس بعد موت سيبويه: إن سيبويه صنف كتاباً في ألف ورقة من علم الخليل. فقال: ومتى سمع سيبويه هذا كلّه من الخليل؟ جيئوني بكتابه. فلمّا رآه قال: يجب أن يكون صدق فيما حكاه عن الخليل كما صدق فيما حكاه عني)[٣٢].

وهذا الكلام يدلّ دلالةً واضحة على أن الكتاب المرادَ هو كتابُ سيبويه المعروف في النحو، لأنه ليس له كتاب مثله ولا أشهر منه، ويدلّ كذلك على كثرة ما استفاده من مسائل النحو من الخليل في هذا الكتاب حتى كأنهم نسبوا الكتاب كلّه إلى الخليل نفسه لأنه من علمه، ولذا قال السيرافي: (والخليل أستاذ سيبويه، وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل، وكلما قال سيبويه: وسألته. أو قال. من غير أن يذكر قائله فهو الخليل)[٣٣].

ويقال إن الخليل هو الذي أشار على سيبويه بتأليف كتابه، وإن من أيادي الخليل على العرب: (ما نهج لتلميذه سيبويه من التأني لتأليف كتابه حتى علمه كيف يفرق جمهور النحو أبواباً، ويجنس الأبواب أجناساً، ثم ينوع الأجناس أنواعاً حتى أخرجه معجز التأليف، فقيد به على العرب منطقهم حتى سلم أعقابهم للإعراب من هجنة اللحن والخطأ في القول)[٣٤].

وعاش سيبويه نحو اثنتين وثلاثين سنة، وقيل نحو أربعين، ومات سنة ثمانين ومائة، وقيل سنةِ ثمان وثمانين ومائة [٣٥]، ولعل هذا العمر الصغير يدلّ دلالة أخرى على أن أكثر علم سيبويه مستمد من علم الخليل، لأنه قد دلّت تجارب التأليف في العلوم المختلفة على أن الكتب الكبيرةَ الواسعةَ التي تمثل نهايات العلوم مثل كتاب سيبويه لا يؤلّفها في الغالب إلا من كان كبير السن واسعَ الخبرة خاصة إذا علم أن سيبويه لم يطلب اللغة إلا بعد أن صار قوي الشكيمة بحيث يقدر على الردّ على الشيوخ، ويتحول من شيخ إلى آخر، ومن علم إلى غيره، ولا يكون ذلك في العادة إلا لمن تجاوز العشرين.

كتاب العين:

ذكروا للخليل عدة مؤلفات منها: كتاب العروض، وكتاب الجمل، وكتاب الشواهد، وكتاب الإيقاع، وكتاب النغم، وكتاب النقط والشكل، وكتاب فائت العين[٣٦].

وقد اختلف العلماء اختلافاً كبيراً في نسبة كتاب العين إلى الخليل فمنهم من يرى أنه أملاه على الليث بن المظفر، ومنهم من يقول أنه شرع فيه ورتّب أوائله، وسمّاه كتاب العين، وأكمله تلاميذه من بعده[٣٧]. و(قيل كمله النضر بن شميل، وقيل أراد الليث إتمامه فسمّى لسانه الخليل، فإذا قال: أخبرني الخليل. أراد به الخليل بن أحمد؛ وإذا قال: قال الخليل. فإنه يعني به لسانه؛ فجاء في الكتاب خلل لذلك)[٣٨]. وللنضر بن شميل كتاب يسمى المدخل إلى كتاب العين[٣٩].

وإذا صحّ أن للخليل كتاباً يُسمّى: (فائت العين). فإن ذلك يدلّ دلالة واضحة على أن بداية تأليف كتاب العين هي للخليل، وأنه استدرك على بدايته بهذا الفائت؛ وأنه كان يحسّن كتابه ويجوّده إلا أن المنية عاجلته، فلم يستطع إخراجه للناس كما يريد، كما أن كتاب النضر بن شميل المُسمّى: (المدخل إلى كتاب العين)؛ يؤكد هذا الرأي، ولا يُؤلَّف مدخل لكتاب إلا إذا كان الكتاب موجوداً ومعروفاً، وقد اطلع عليه من ألف مدخلاً له.

منهج الاستشهاد بالحديث في كتاب العين.

كثرت شواهد الحديث المتنوعة في كتاب العين حتى بلغت إحدى وسبعين وخمسمائة، واعتمد الكتاب منهجاً واضحاً في الاستشهاد بالحديث على اللغة، وتتضح معالم ذلك المنهج في الآتي:

الإشارة إلى حجية الحديث:

وردت الإشارة الصريحة إلى حجية الاحتجاج بالحديث على اللغة في عدة مواضع من كتاب العين منها قوله: (ويقال: الحُلَّة إزار ورداء، برد أو غيره، ولا يقال حلة حتى تكون ثوبين؛ وفي الحديث تصديقه)[٤٠]. وفي هذا إشارة إلى حديث المعرور بن سويد مع أبي ذر الغفاري ﷺ قال: (رأيت عليه برداً وعلى غلامه برداً فقلت: لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة، وأعطيته ثوباً آخر)[٤١].

ومنها قوله: (والنبوة لولا ما جاء في الحديث لهمز؛ والنبي ﷺ ينبئ الأنباء عن الله عز وجل)[٤٤]. ويعني بذلك ما أورده بعد صفحتين حيث قال: (وفي الحديث: أن رجلاً قال: يا نبيء الله. فقال النبي ﷺ: لا تنبر باسمي. أي لا تهمز)[٤٥]، وهذا دليل صريح على جواز الاحتجاج بالحديث على اللغة عنده ولو خالف قياسها.

ومن ذلك: (قال الخليل: الرجز المشطور والمنهوك ليسا من الشعر. وقيل له: ما هما ؟ قال: أنصاف مسجعة. فلما رد عليه قال: لأحتجن عليهم بحجة فإن لم يقروا بها عسفوا. فاحتج عليهم بأن رسول الله ﷺ كان لا يجري على لسانه الشعر،

وقيل لرسول الله ﷺ:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فكان يقول عليه السلام:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك من لم تزود بالأخبار

فقد علمنا أن النصف الذي جرى على لسانه لا يكون شعراً إلا بتمام النصف الثاني على لفظه وعروضه، فالرجز المشطور مثل ذلك النصف؛ وقال النبي ﷺ في حفر الخندق:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت[٤٦]

فهذا على المشطور؛ وقال النبي ﷺ:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب[٤٧]

فهذا من المنهوك، ولو كان شعراً ما جرى على لسانه، فإن الله عزّ وجلّ يقول: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له)[٤٨].

أنواع المرويات في كتاب العين:

لم يكتف كتاب العين بالاستشهاد بالأحاديث النبوية وحدها، وإنما استشهد أيضاً بما يروى عن الصحابة والتابعين وسلف الأمة لأنهم كانوا من الفصحاء الذين عاشوا في عصور الاستشهاد، وأنواع هذه المتون كما يصنّفها أهل الحديث على النحو الآتي:

المرفوعات:

المرفوع من الحديث هو ما أضيف إلى رسول الله ﷺ خاصة[٤٩]؛ وأكثر شواهد كتاب العين من هذا النوع، وأكثر إشارته إلى الحديث المرفوع تكون بقوله: (وفي الحديث). للعلم بأن الحديث هو المرفوع خاصة، وأحياناً يقول: (وفي حديث النبي ﷺ)، وقد وردت هذه العبارة في ثلاثة مواضع فقط[٥٠]، وقد لا يذكر كلمة (حديث)؛ ويقول: (قال رسول الله ﷺ). وورد هذا التعبير في تسعة وثلاثين موضعاً[٥١].

الموقوفات:

الموقوف من الحديث هو ما يروى عن الصحابة رضي الله عنهم من أقوالهم وأفعالهم ونحوها، لأنه وقف به عليهم ولم يتجاوز به إلى رسول الله ﷺ[٥٢]؛ والموقوفات لا بدّ أن يذكر مَن صدرت عنه من الصحابة لتمييزها عن المرفوعات؛ والموقوفات في كتاب العين أقلّ من المرفوعات بكثير، وبلغت اثنين وثمانين حديثاً، منها خمسة وعشرون عن عمر بن الخطاب ﷺ[٥٣]، وخمسة عشر عن علي بن أبي طالب ﷺ[٥٤]، وثمانية عن عبد الله بن مسعود، وسبعة عن عبد الله بن عباس، وستة عن عائشة بنت الصديق، وأربعة عن معاوية، وثلاثة عن أبي بكر الصديق؛ وحديثان عن كل من عبد الله بن عمر وحذيفة بن اليمان[٥٥]، وحديث واحد عن كل من الحباب بن المنذر وحسان ابن ثابت والحسن بن علي وزيد بن ثابت سلمان الفارسي وعبد الله بن الزبير وعثمان ابن عفان وأبي ذر الغفاري وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين؛ ورواية واحدة عن الأنصار، ولم يسمهم[٥٦].

والملاحظ في هذه الموقوفات أن أكثر من نصفها من رواية الخلفاء الراشدين وخاصة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما؛ أما عمر ﷺ فلطول مدة خلافته، ولكثرة ما فيها من فتاوى وأقضية وفتوح ومكاتبات مع أهل العراق؛ وأما علي بن أبي طالب ﷺ فلأن خلافته كانت في العراق وروى عنه أهلها أكثر من غيرهم.

ويلاحظ أيضاً أن جماعة ممن تروى عنهم هذه الموقوفات هم من الصحابة الذين سكنوا في العراق عامة أو في البصرة خاصة في فترة من فترات حياتهم، أو في آخرها مثل: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وحذيفة بن اليمان والحسن ابن علي وسلمان الفارسي رضي الله عنهم أجمعين.

المقاطيع:

المقطوع من الحديث هو ما جاء عن التابعين موقوفاً عليهم من أقوالهم وأفعالهم[٥٧]؛ والمقاطيع في كتاب العين أقل من الموقوفات، وبلغت ثلاثين حديثاً، منها ست عشرة رواية عن الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله[٥٨]، وخمس

روايات عن الحجاج بن يوسف، وروايتان عن شريح بن الحارث القاضي الكوفي، ورواية واحدة عن كل من: إسماعيل بن عبد الرحمن السدي وعامر بن شراحيل الشعبي ومحمد بن سيرين وعبيد الله بن الحسن العنبري قاضي البصرة، ورواية واحدة عن المسلمين الذي لم يسمهم، وواحدة عن الحرورية وهم من الخوارج، وواحدة قال فيها: (وقد يجيء في بعض الكلام)[٥٩].

ومما تقدم يلاحظ أن أكثر من نصف هذه المقطوعات عن الحسن البصري، وذلك لأن الحسن هو أكثر من تروى عنه الآثار من التابعين في البصرة، وأما الحجاج فإنه لم يكن ممن يقتدى به إلا أنه كان عربياً فصيحاً بليغاً لا يلحن في كلامه، وكانت له خطب معروفة في العراق؛ وسائر رواة المقاطيع هم من أهل البصرة أو الكوفة.

الاستشهاد بالأدعية:

ترد الأدعية المأثورة في كتاب العين، ويوردها بقوله: (وفي الدعاء). ثم يذكر لفظ الدعاء، ولا يذكر من دعا بها، ومنها قوله: (اللهم مخرب الدنيا ومعمر الآخرة). أي خلقها للخراب، وقوله: (وفي الدعاء: اللهم انصر جيوش المسلمين وسراياهم ومرابطاتهم). يريد خيلهم المرابطة؛ وقوله: (وفي الدعاء: لم الله شعثكم، وجمع شعبكم). وقوله: (يقولون في الدعاء: اللهم ارزقنا للبيت معاداً أو عوداً)[٦٠]، ولعل هذه الأدعية وأمثالها من الأدعية التي كانت منتشرة في زمان المؤلف مما يدعو به الناس في مناسبات مختلفة.

الاستشهاد الضمني بالحديث:

أكثر الاستشهاد بالحديث في كتاب العين هو صريح، إلا أنه استشهد بالحديث ضمناً في أربعة وثلاثين موضعاً، ولم يشر إلى أن الجملة المستشهد بها من الحديث، ومن ذلك قوله: (والطير تغدو خماصاً، وتروح بطاناً). وقوله: (والشيطان يوسوس في القلب فإذا ذكر الله خنس). وقوله: (وأرهقتنا الصلاة: أي استأخرنا عنها). وقوله: (والسواك يؤنث، وهي مطهرة للفم). وقوله: (وشجنة الرحم معلقة بالعرش). وقوله: (وأعوذ بالله من الحور بعد الكور). أي من النقصان بعد الزيادة. وقوله (ولخديجة في

الجنة بيت من قصب، لا تعب فيه ولا نصب). أي لا داء فيه ولا عناء. وقوله: (والمضغة قطعة لحم، وقلب الإنسان مضغة من جسده)[٦١].

إيراد جزء من المتن:

قد يرد في كتاب العين جزء من متن حديث يشتمل على مفردة تحتاج إلى بيان، فيكتفي بإيراد ذلك الجزء عن إيراد المتن كله كقوله: (وفي الحديث: تربت يداك. أي هو الفقر، وترب إذا خسر)[٦٢]، وعلى المنهج نفسه سارت معاجم اللغة وما تأخر من كتب غريب الحديث[٦٣]، وتقطيع الحديث للاستشهاد به على مسائل فقهية متعددة كل بحسب مكانها منهج معروف في كتب الحديث المرتبة على الأبواب الفقهية، واشتهر به البخاري في صحيحه[٦٤]، وتقطيع الحديث لأجل تفسير غريبه لا بأس به عند العلماء.

الاحتجاج بوجهي الرواية:

قد يروى الحديث الواحد بأكثر من لفظ، وقد تكون إحدى الروايتين أصح من الأخرى؛ وقد تكون إحداهما صحيحة والأخرى غير صحيحة عند أهل الحديث، وكتاب العين قد يورد اللفظين كل في موضعه إذا كانا من الغريب الذي يحتاج إلى شرح وبيان لأن غرضه هو الاستشهاد على اللغة وشرح غريب الحديث بغض النظر عن ثبوت المتن أو عدمه، ولا حرجَ عليه في ذلك لأن إثبات صحة النص أو ضعفه من واجب العالم بالحديث وليس من واجب العالم باللغة، ومن ذلك قوله: (وفي الحديث: أخنع الأسماء إلى الله من تسمى ملك الأملاك. أي أذلها)[٦٥]، وهي الرواية الأصح. ثم أورد الحديث نفسه بلفظة أخرى، وقال: (وفي الحديث: أنخع الأسماء إلى الله -أي أقتله- من تسمى بملك الملوك)[٦٦]، ومعاجم اللغة وكتب غريب الحديث سارت على المنهج نفسه[٦٧].

الاحتجاج بالرواية الشاذة دون الصحيحة:

قد ترد لفظة في الحديث بروايتين إحداهما صحيحة إلا أنها مشهورة لا تحتاج إلى شرح وبيان، والثانية روايتها شاذة لكنها لفظة نادرة تحتاج إلى بيان، وكتاب

العين لا يورد الرواية الصحيحة المشهورة في مثل هذه الحال، بل يورد الشاذة لأنها هي التي تحتاج إلى التفسير، ومن ذلك قوله: (وفي حديث النبي ﷺ: احتتهم يا سعد فداك أبي وأمي: يعني اردهم)[٦٨]، أما الرواية المشهورة لهذا الحديث فهي رواية علي ﷺ قال: (ما رأيت النبي ﷺ يفدي رجلاً بعد سعد، سمعته يقول: ارم فداك أبي وأمي)[٦٩]. وعلى منهج كتاب العين سارت كتب غريب الحديث ومعاجم اللغة[٧٠].

الاحتجاج بالحديث الضعيف والإسرائيليات:

الاستشهاد بالأحاديث الصحيحة هو الأصل إلا أنه وردت في كتاب العين عدد من الأحاديث المعروفة بضعفها عند علماء الحديث، منها حديث: (إياكم وخضراء الدمن)[٧١]؛ ويستشهد كذلك بالبلاغات وهي الروايات التي يقول فيها الراوي: بلغني كذا وكذا. وغالباً ما لا يكون لراويها إسناد إلى من بلغ عنه، ومن مشاهيرها بلاغات مالك في الموطأ[٧٢].

وإذا كانت البلاغات قد وردت في بعض كتب الحديث فورودها في كتب اللغة لا ينكر، لأنّ همّ معاجم اللغة هو شرح الغريب وتفسيره بغض النظر عن ثبوت النص إلى من ينسب إليه ما دام النص قد أتى من عصور الاستشهاد.

وأما الإسرائيليات فهي ما يروى عن أهل الكتاب من قصص وأخبار ونحوها، وفي كتاب العين استشهاد بالإسرائيليات في خمسة وعشرين موضعاً منها قوله: (ولبينى ابنة إبليس عليهما لعنة الله). وقصة عوج بن عنق[٧٣].

حذف أسانيد الأحاديث:

يلاحظ بوضوح أن كتاب العين قد حذف جميع أسانيد الروايات التي استشهد بها إلا الراوي الأعلى في الموقوفات والمقاطيع؛ وتابعت عامة المعاجم كتاب العين في عدم ذكر رجال أسانيد الأحاديث التي يستشهد بها إلا (تهذيب اللغة) لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة[٧٤]، وقد ظهرت عناية الأزهري بالأسانيد من مقدمة معجمه حيث ذكر أسانيده إلى كثير من الكتب التي تلقاها من أفواه الشيوخ، ومنها غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام، وكان من الكتب التي تورد الأسانيد ؛ ثم ساق الأزهري كثيراً من أسانيد الأحاديث التي أوردها في

معجمه، وقد يكتفي أحياناً بذكر الصحابي الذي روى الحديث(٧٥).

تكرار الحديث:

قد يتكرر الحديث بحسب ما فيه من غريب في أكثر من موضع من كتاب العين، وكذلك تفعل المعاجم وكتب غريب الحديث المتأخرة المرتبة على حروف المعجم كما هو الشأن في حديث: (العجماء جرحها جبار)(٧٦).

تفسير المصطلحات الشرعية:

جاء الشرع الحنيف بكثير من المعاني الجديدة التي لم يعرفها العرب في جاهليتهم، وكان لا بد من استعارة بعض مفردات اللغة لإعطائها المعنى الشرعي الخاص بأساليب متعددة لتستوعب اللغة معاني الشرع، ثم إن حياة المسلمين في عهود الإسلام الأولى بعد عصر الرسالة اقتضت الأمر نفسه، وقد أورد كتاب العين كثيراً من هذه المصطلحات وشرحها لأنها جاءت من عصور الاستشهاد، ومنها: البدعة، والبرزخ، والتحكيم وهو قول الحرورية: لا حكم إلا لله، والحنيفية السمحة، والشفعة، والتشهد، والصدّيق، والأضاحي، والعجماء وهي كل صلاة لا يقرأ فيها، والتعزير، والقنطار، ونفر الحجاج، والتهليل، والموجبات وهي كبار الذنوب التي توجب النار(٧٧).

المعاجم ومنهج الخليل:

سارت معاجم اللغة العربية على منهج الخليل في أصل الاستشهاد بالحديث؛ بل إن بعض أصحاب المعاجم أدخلوا كتباً كاملة من غريب الحديث في معاجمهم، فغريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ثلاث وعشرين ومائتين(٧٨) أدخله أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني المتوفى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة في (مقاييس اللغة)؛ وجعله أحد مصادر مادة معجمه الخمسة(٧٩)، وكذلك فعل محمد ابن مكرم (ابن منظور) الإفريقي الذي أدخل (النهاية في غريب الحديث والأثر) في معجمه المشهور: (لسان العرب)؛ وجعل النهاية أحد مصادره الخمسة(٨٠).

أما كتب غريب الحديث الأولى لعلماء القرن الثالث والرابع ككتاب: (غريب

الحديث) لأبي عبيد القاسم بن سلام؛ و(غريب الحديث)؛ لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة؛ و(غريب الحديث) لأبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي، و(غريب الحديث) لحمد بن محمد الخطابي فقد كانت تذكر إسناد الحديث في الغالب تأثراً بمنهج أهل الحديث لأن مؤلفيها كانوا ممن جمعوا بين العلم باللغة والعلم بالحديث معاً، وتذكر متن الحديث كله وتفسر ما فيه من الغريب في موضع واحد، وهي بهذا تمثل البدايات الأولى لكتب شروح السنة، كما أنها ترتب مادتها في الغالب على أسماء رواة الأحاديث والآثار من الصحابة والتابعين تأثراً بمنهج أهل الحديث في جمعه على المسانيد.

ولما جاء أبو عبيد أحمد بن محمد اللغوي الهروي المتوفى سنة إحدى وأربعمائة[٨١]، ترك تلك المناهج، ورتب كتابه في غريب الحديث على حروف المعجم، وسار على منهج المعاجم الذي ابتكره الخليل في كتاب العين لأنه أيسر في الوصول إلى الكلمة المرادة، وتبعته كتب غريب الحديث على هذا المنهج حتى ختمت بكتاب: (النهاية في غريب الحديث والأثر) لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري المتوفى سنة ست وستمائة[٨٢]، وعليه فإن تأثير منهج الخليل لم يقتصر على معاجم اللغة وحدها، وإنما تعداها إلى كتب غريب الحديث.

الاستشهاد بالحديث على النحو:

يعد كتاب سيبويه أشهر كتب النحو القديمة، ويلاحظ أنه أكثر من الاستشهاد بالشعر والرجز، وأحصوا في كتابه ألفاً وخمسين بيتاً[٨٣]، وجاء فهرس الأشعار والأرجاز الذي أعده عبد السلام هارون لكتاب سيبويه في اثنتين وستين صفحة؛ يليه الاستشهاد بالقرآن الكريم، وجاء فهرس شواهد القرآن الكريم في أربع وعشرين صفحة، ويليه الاستشهاد بالأمثال واستشهد بواحد وأربعين مثلاً، وجاء فهرسها في صفحتين[٨٤].

أما الحديث فإن سيبويه لم يستشهد في كتابه إلا بستة أحاديث، وجاء فهرس هذه الأحاديث في نحو نصف صفحة[٨٥]، ثم إن استشهاده بهذه الأحاديث القليلة جاء ضمنياً وليس صريحاً، ولم يشر في حديث منها إلى أنه من كلام رسول ﷺ ، ولم يذكر اسم

النبي ﷺ في كتابه إلا إذا ورد في بيت شعر، وفعل ذلك في موضعين من كتابه(٨٦).

أما كيفية سياقه للأحاديث التي أوردها في الكتاب فإنه يعبر عن الحديث بقوله: (ومثل ذلك). كما في قوله: (ومثل ذلك: ونخلع ونترك من يفجرك). وقوله: (ومثل ذلك: ما من أيام أحب إلى الله عزّ وجلّ فيها الصوم من عشر ذي الحجة). وقوله: (ومثل ذلك: فبها؛ ونعمت)(٨٧).

ومرة ينسب القول إلى من يخاطبه فيقول: (وتقول: إني عبد الله. مصغراً نفسه لربه، ثم تفسر حال العبيد فتقول: آكلاً كما تأكل العبيد)(٨٨). ومرة ينسبه إلى جماعة فيقول: (وأما قولهم: كل مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه. ففيه ثلاثة أوجه...)(٨٩). ومرة ينسبه إلى قائل مجهول فيقول: (كما قال: إن الله ينهاكم عن قيل وقال)(٩٠). ومرة يأتي به بعد (أما)، أو ينسبه إلى العرب فيقول: (وأما: سبوحاً قدوساً رب الملائكة والروح. فليس بمنزلة سبحان الله، وذلك أنه خطر على باله، أو ذكره ذاكر فقال: سبوحاً قدوساً...ومن العرب من يرفع فيقول: سبوح قدوس رب الملائكة والروح)(٩١).

في كل ما تقدم من استشهادات يتحاشى سيبويه أن ينسب الكلام إلى النبي ﷺ، ولا يشير إلى أن الكلام حديث نبوي، وليس السبب هو ضعف هذه الأحاديث لأن بعضها صحيح.

ولذا لما وجد المتأخرون من النحاة أن سيبويه لم يستشهد بالحديث على النحو صراحة في كتابه، ولم يتعرض للكلام عن ذلك نفياً ولا إثباتاً اختلفوا في هذه المسألة على أقوال؛ فذهب جماعة منهم إلى أنه لا يجوز الاستشهاد به مطلقاً، ومن حججهم أن متقدمي النحاة لم يفعلوا ذلك(٩٢)، ومن هؤلاء أبو الحسن علي بن محمد ابن علي الأشبيلي المعروف بابن الضائع المتوفى سنة ثمانين وستمائة، وهو لغوي تام المعرفة بكتاب سيبويه وقد شرحه، ولكن لا يعرف له اشتغال بالحديث(٩٣).

وذهب جماعة إلى جواز الاستشهاد بما يعتني الراوي بلفظه كأحاديث الأدعية وجوامع الكلم والأمثال النبوية، ومن هؤلاء القاسم بن فيرة بن خلف الشاطبي المتوفى سنة تسعين وخمسمائة(٩٤).

وذهبت طائفة من متأخري النحاة إلى جواز الاستشهاد بالحديث على النحو مطلقاً، ولو روي بالمعنى، ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الإمام المحدث اللغوي النحوي الأندلسي نزيل دمشق، المتوفى سنة اثنتين وستين وسبعمائة[٩٥]، وقال السيوطي عنه: (كان أمة في الاطلاع على الحديث؛ فكان أكثر ما يستشهد بالقرآن؛ فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى أشعار العرب)[٩٦]. ومنهم ابن منظور الذي قال: (وزعمت النحوية أن العرب أماتوا مصدر يدع ويذر، واستغنوا عنه بترك، والنبي ﷺ أفصح العرب، وقد رويت عنه هذه الكلمة)[٩٧].

يلاحظ أن الذين رفضوا الاحتجاج بالحديث مطلقاً هم من الذين لا علم لهم بالحديث، فهم يرفضون ما لا علم لهم به، ومن ثم فإن رفضهم لا قيمة له؛ وإن الذين أقروا الاستشهاد به هم من أهل العلم به، وليت النحاة ساروا على درب الخليل لأنه المؤصل الأول للمسألة، وليتهم لم يتابعوا سيبويه؛ غير أن هؤلاء النحاة الذين صرحوا بترك الاستشهاد بالحديث وتكلفوا الحجج لموقفهم يعدّ رأيهم أشد تطرفاً من موقف سيبويه الذي لم يرفض الاستشهاد بالحديث صراحة، ولم يسق حججاً في رده، ولم يخل منه كتابه إخلاء تاماً، وكل ما في الأمر أنه أقلّ من الاستشهاد به جداً، وكان له سببه في ذلك، وإن كان لا يوافق عليه.

هذا والله أعلم، سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

الحواشي.

(١) انظر ترجمته في: طبقات النحويين، ص٥١. ومعجم الأدباء، ج٣، ص٧٣-٧٧. ووفيات الأعيان، ج٢، ص٢٤٥-٢٤٨. وسير أعلام النبلاء، ج٧، ص٤٣٠. والوافي بالوفيات، ج١٣، ص٣٨٥. والبداية والنهاية، ج١٠، ص١٦٦. والبلغة، ص١٣٣. وبغية الوعاة، ج١، ص٥٦٠.

(٢) نزهة الألباء، ص٤٨. ومعجم الأدباء، ج٣، ص٧٤. وانظر: إكمال تهذيب الكمال، ج٢، ص٢٢١.

(٣) نزهة الألباء، ص٤٨. ومعجم الأدباء، ج٣، ص٧٤.

(٤) إكمال تهذيب الكمال، ج٢، ص٢٢٣. والأعلام، ج٢، ص٣١٤.

(٥) معجم الأدباء، ج٣، ص٧٣. وتهذيب الكمال، ج٢، ص٤٠٠. وبغية الوعاة، ج١، ص٥٥٧.

(٦) شذرات الذهب، ج١، ص٢٧٧.

(٧) سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٤٣٠.

(٨) معرفة علوم الحديث، ص٥٣٧.

(٩) التاريخ الكبير، ج٣، ص١٩٩. والجرح والتعديل، ج٣، ص٣٧٠. وتهذيب الكمال، ج٢، ص٤٠٠. وسير أعلام النبلاء، ج٧، ص٤٣٠. والوافي بالوفيات، ج١٣، ص٣٨٥.

(١٠) تهذيب الكمال، ج١، ص٣١٤. وإكمال تهذيب الكمال، ج٢، ص٣٢١. وتهذيب التهذيب، ج١، ص٣٩٧. وتقريب التهذيب، ص١١٧.

(١١) سير أعلام النبلاء، ج٦، ص٢٠. وتهذيب الكمال، ج٢، ص٤٠٠. وإكمال تهذيب الكمال، ج٢، ص٣٢٦.

(١٢) تهذيب الكمال، ج٢، ص٤٠٠.

(١٣) طبقات النحويين، ص٤٨. ومعجم الأدباء، ج٣، ص٧٣. وتهذيب الكمال، ج٢، ص٤٠٠. وإكمال تهذيب الكمال، ج٢، ص٢٢٠. وتهذيب التهذيب، ج٣، ص١٦٣.

(١٤) تهذيب الكمال، ج٢، ص٤٠٠. وتهذيب التهذيب، ج٣، ص١٦٤.

(١٥) نزهة الألباء، ص٤٨. ومعجم الأدباء، ج٣، ص٧٤.

(١٦) التاريخ الكبير، ج٣، ص١٩٩. والجرح والتعديل، ج٣، ص٣٧٠.

(١٧) كتاب الثقات، ج٥، ص١٨٥. وانظر: سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٤٣٠. وتهذيب التهذيب، ج٣، ص١٦٤.

(١٨) انظر: تهذيب التهذيب، ج٣، ص١٦٤. وتقريب التهذيب، ص١٩٥.

(١٩) التاريخ الكبير، ج٣، ص١٩٩. والجرح والتعديل، ج٣، ص٣٧٠. وتهذيب الكمال، ج٢، ص٤٠٠. وسير أعلام النبلاء، ج٧، ص٤٣٠. والوافي بالوفيات، ج١٣، ص٣٨٥.

(٢٠) تهذيب الكمال، ج٢، ص٤٠١. وانظر: نزهة الألباء، ص٦٢.

(٢١) انظر: نزهة الألباء، ص٦٢ و٨٥. وتهذيب الكمال، ج٧، ص٣٣٠. وتقريب التهذيب، ص٥٦٢. وبغية الوعاة، ج٢، ص٣١٦.

(٢٢) انظر: معرفة علوم الحديث، ص٢٩٥. والتقريب والتيسير، ص٨٧. والتقييد والإيضاح، ص٢٧٥.

(٢٣) انظر: طبقات النحويين، ص١٧٥. ونزهة الألباء، ص١٠٤. والبلغة، ص٢٩٥. وبغية الوعاة، ج٢، ص٢٤٩. والحطة، ص٩٦.

(٢٤) انظر: علوم الحديث، ص٢٤٦. والتقييد والإيضاح، ص٢٧٥. وتدريب الراوي، ج٢، ص١٨٥.

(٢٥) انظر: نزهة الألباء، ص١١٢–١٢٤. وتهذيب الكمال، ج٤، ص٥٦٩. وتهذيب التهذيب، ج٦، ص٤١٥ وتقريب التهذيب، ص٣٦٤.

(٢٦) طبقات النحويين، ص٦٦. ونزهة الألباء، ص٦١. وانظر: البداية والنهاية، ج١٠، ص١٨٢. والبلغة، ص٢٢٢. وبغية الوعاة، ج١، ص٥٨٤.

(٢٧) طبقات النحويين، ص٦٦. وتدريب الراوي، ج٢، ص١٠٦.

(٢٨) طبقات النحويين، ص٥١. ونزهة الألباء، ص٤٠. وبغية الوعاة، ج١، ص٥٤٨.

(٢٩) تهذيب التهذيب، ج٣، ص١٦٤.

(٣٠) طبقات النحويين، ص٦٧. ووفيات الأعيان، ج٣، ص٤٦٣.

(٣١) طبقات النحويين، ص٦٦. ووفيات الأعيان، ج٣، ص٤٦٥.

(٣٢) طبقات النحويين، ص٥٢. ونزهة الألباء، ص٦٢. وبغية الوعاة، ج٢، ص٢٢٩.

(٣٣) نزهة الألباء، ص٤٥. وتهذيب الكمال، ج٢، ص٤٠١. وبغية الوعاة، ج١، ص٥٥٨. وكشف الظنون، ج٢، ص١٤٢٧.

(٣٤) الوافي بالوفيات، ج١٣، ص٣٨٧.

(٣٥) سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٣٥٢. والبلغة، ص٢٢٤. وكشف للظنون، ج٢، ص١٤٢٧.

(٣٦) معجم الأدباء، ج٣، ص٧٤ و٧٥. والوافي بالوفيات، ج١٣، ص٣٩١. وبغية الوعاة، ج١، ص٥٦٠. والأعلام، ج٢، ص٣١٤.

(٣٧) نزهة الألباء، ص٤٦. وتهذيب اللغة، ج١، ص٢٥. ومعجم الأدباء، ج٣، ص٧٤. ووفيات الأعيان، ج٢، ص٢٤٦. وسير أعلام النبلاء، ج٧، ص٤٣١. والوافي بالوفيات، ج١٣، ص٣٩١. والبداية والنهاية، ج١٠، ص١٦٦. والبلغة، ص١٣٣. وبغية الوعاة، ج١، ص٥٥٩. وكشف الظنون، ج٢، ص١٤٤٢.

(٣٨) البلغة، ص١٣٣.

(٣٩) بغية الوعاة، ج٢، ص٣١٧.

(٤٠) كتاب العين، ص٢٠٥.

(٤١) الحديث رواه البخاري (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٤٢) هكذا في المطبوع، ولعلها (موقه).

(٤٣) كتاب العين، ص٩٢٩ وانظر: تهذيب اللغة، ج٩، ص٢٧٢. ولسان العرب، ج٦، ص٤١٢١.

(٤٤) كتاب العين، ص٩٢٣.

(٤٥) كتاب العين، ص٩٢٥. وانظر: لسان العرب، ج٦، ص٤٣١٦. والقاموس المحيط، ص٦٧.

(٤٦) الحديث رواه البخاري (١١٢٤)، ومسلم (١٧٩٦ و١٧٩٧).

(٤٧) الحديث رواه البخاري (٤٣١٥)، ومسلم (١٧٧٦).

(٤٨) سورة يس، الآية ٦٩.

(٤٩) انظر: علوم الحديث، ص٤١. والتقريب والتيسير، ص٣٢. وتدريب الراوي، ج١، ص١٨٣. وتوضيح الأفكار، ج١، ص٢٥٤.

(٥٠) انظر: كتاب العين، ص١٧٠ و٢٧٩ و٣٣١.

(٥١) انظر: المصدر نفسه، ص٣٥ و٣٩ و٤٥ و٥٤ و٦٥ و٧٣ ٩٠ و١٠١ و١١٤ و١٢٤و١٦٩ و١٨٤ و٢٣٢ و٢٥٠.

(٥٢) انظر: علوم الحديث، ص٤١. والتقريب والتيسير، ص٣٣. والتقييد والإيضاح، ص٦٦. وتدريب الراوي، ج١، ص١٨٤.

(٥٣) انظر: كتاب العين، ص٥٣ و٥٤ و٧٤ و١٥٣ و٢٨٥ ٣٠٨ و٤٢٦ و٤٧٦.

(٥٤) انظر: المصدر نفسه، ص٦٢ و٧٨ و١٠٠ و١١٣ و١٧٧ و٢٧٦ و٣٣٦ و٣٦٢ و٤٤٤.

(٥٥) انظر: المصدر نفسه، ص١٠٥ و١٠٦ و٩٢ و٢١٢ و٣١٠ و٣٤٢ و١٢٥ و٣٥٣ و٤٣١ و٨١٤ و٨٧٩ و٩٠٥.

(٥٦) انظر: المصدر نفسه، ص٤٢ و١٢٥ و١٣١ و١٤٣ و١٩٦ و٣٦٠ و٤١٥ و٥٧٨ و٨٠٤ و٨٧١.

(٥٧) علوم الحديث، ص٤٣. والتقريب والتيسير، ص٣٤. والتقييد والإيضاح، ص٦٦. وتوضيح الأفكار، ج١، ص٢٦٥.

(٥٨) انظر: كتاب العين، ص٧٤ و١٥٤ و٢٨١ و٢٨٩ و٢٩٥ و٣٥٠ و٥٧٥ و٧٧٣ و٧٩٣ و٨٢٣ و٨٥١ و٨٦٠ و٨٦٣ و١٠٥٢.

(٥٩) انظر: المصدر نفسه، ص٥٨ و٣٣٥ و٣٣٨ و٦٠٦ و٨٠١ و٩٤٣ و١٠٥٢ و٣٩ و٧٤ و٢٠٤و٥٣١ و٨١٩ و١٠٤٤.

(٦٠) انظر: المصدر نفسه، ص٢٣٥ و٢٤٤ و٣٣٢ و٤٨٢ و٦٩٤ و٧٠٥ و٧٣٨.

(٦١) انظر: المصدر نفسه، ص٢٦٨ و٢٧٠ و٣٧٤ و٤٥٦ و٧٩٢ و٨٥٨.

(٦٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٠١ و١٦٦ و٢٨٥ و٣٧٤و٨١٨.

(٦٣) انظر: تهذيب اللغة، ج١٤، ص١٩٥. والنهاية، ص١٠٧. ولسان العرب، ج١، ص٤٢٤.

(٦٤) انظر: اختصار علوم الحديث، ج٢، ص٤٠٥. وتوضيح الأفكار، ج١، ص٤٧. والحطة، ص١٧١.

(٦٥) كتاب العين، ص٢٧١. والحديث رواه البخاري (٦٢٠٦) ومسلم (٢١٤٣).

(٦٦) كتاب العين، ص٩٤٩.

(٦٧) انظر: غريب الحديث، ج٢، ص٢٥٥-٢٥٦. وتهذيب اللغة، ج١، ص١١٦. ومقاييس اللغة، ص٣١٥ و ٩٨١. والقاموس المحيط، ص٩٢٣ و ٩٨٩.

(٦٨) كتاب العين، ص١٧٠ و ١٠٧ و ١٩٥ و ٢٤٥ و ٣٩٧ و ٣٩٩ و ٩٤٩.

(٦٩) الحديث رواه البخاري (٢٩٠٥)، ومسلم (٢٤١١).

(٧٠) انظر: تهذيب اللغة، ج٣، ص٢٧٢. والنهاية، ص١٨٣. ولسان العرب، ج٢، ص٧٦٨.

(٧١) انظر: كتاب العين، ص٢٥٠ ٢٤٦ و ٣٢٤ و ٣٥٢ و ٤٠١ و ٦٦٦ و ١٠٢٤.

(٧٢) انظر: كتاب العين، ص٤٢ و ١٢٦ و ١٥٣ و ٥٧٨ و ٥٩٤. واختصار علوم الحديث، ج١، ص١١٦. وتدريب الراوي، ج١، ص٢١٢.

(٧٣) انظر: كتاب العين، ص٢٥ و ٢٩ و ٨٢ و ٢١١ و ٢٥٠ و ٢٩٨ و ٥٧٨ ٦٠٨ و ٦٨٣ و ٨٦٥.

(٧٤) انظر: نزهة الألباء، ص٣٢٣.

(٧٥) تهذيب اللغة، ج١، ص٩-٢٤ وص٤٧.

(٧٦) انظر: كتاب العين، ص١٢٤ و ٦٠٦. وتهذيب اللغة، ج١، ص٢٥٠. وج١١، ص٤٣. والنهاية، ص١٣٣ و ٥٨٠. ولسان العرب، ج١، ص٥٦٣، وج٤، ص٢٨٢٧.

(٧٧) انظر: كتاب العين، ص٦٠ و ٦٦ و ٢٠٤ و ٢١٨ و ٤٨٦ و ٤٩٨ و ٥٠٩ و ٥١٢ و ٥٤٤ و ٦٠٦ و ٦٣٠ و ٨١٩ و ٩٧٦ و ١٠١٧ و ١٠٣٥.

(٧٨) انظر: طبقات النحويين، ص١٩٩. ونزهة الألباء، ص١٦٣. والبلغة، ص٢٣٣. وبغية الوعاة، ج٢، ص٢٥٣.

(٧٩) انظر: مقاييس اللغة، ص٢٤. ونزهة الألباء، ص٣٢٠. والبلغة، ص٨٠. وبغية الوعاة، ج١، ص٣٥٢. والأعلام، ج١، ص١٩٣.

(٨٠) انظر: لسان العرب، ج١، ص١١ و ١٢.

(٨١) انظر: بغية الوعاة، ج١، ص٣٧١. والحطة، ص٩٨.

(٨٢) انظر: بغية الوعاة، ج٢، ص٢٤٩. والحطة، ص٩٩.

(٨٣) انظر: بغية الوعاة، ج٢، ص٢٢٩.

(٨٤) انظر: فهارس كتاب سيبويه، ص٧-٣٠ وص٣٠-٣١ وص٤٢-١٠٣.

(٨٥) انظر: المصدر نفسه، ص٢٩.

(٨٦) انظر: الكتاب، ج٢، ص١٥٠، وج٣، ص٨.

(٨٧) انظر: المصدر نفسه، ج١، ص٧٤، وج٢، ص٣٢، وج٤، ص١١٦.

(٨٨) انظر: المصدر نفسه، ج٢، ص٨٠.

(٨٩) انظر: المصدر نفسه، ج٢، ص٣٩٣.

(٩٠) انظر: المصدر نفسه، ج٣، ص٢٦٨.

(٩١) انظر: المصدر نفسه، ج١، ص٣٢٧.

(٩٢) انظر: خزانة الأدب، ج١، ص٤-٦.

(٩٣) انظر: البلغة، ص٢١٨. وبغية الوعاة، ج١، ص٢٠٤. وكشف الظنون، ج١، ص٦٠٤. ومعجم المؤلفين، ج٢، ص٥٢٠.

(٩٤) انظر: بغية الوعاة، ج٢، ص٢٦٠. والأعلام، ج٥، ص١٨٠. ومعجم المؤلفين، ج٢، ص٦٤٧.

(٩٥) انظر: البلغة، ص٢٦٩. وبغية الوعاة، ج١، ص١٣٤. والأعلام، ج٦، ص٢٣٣. ومعجم المؤلفين، ج٣، ص٤٥٠.

(٩٦) بغية الوعاة، ج١، ص١٣٤. وانظر: خزانة الأدب، ج١، ص٤-٦.

(٩٧) لسان العرب، ج٦، ص٤٧٩٧.

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- اختصار علوم الحديث، إسماعيل بن عمر بن كثير، شرح: أحمد شاكر، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١ (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

٣- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٤ (١٩٩٩م).

٤- إكمال تهذيب الكمال، مغلطاي بن قليج، تحقيق: عادل محمد وأسامة إبراهيم، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، ط ١ (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

٥- البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الريان للتراث، القاهرة، ط ١ (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

٦- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ.

٧- البلغة في تراجم أهل اللغة، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: محمد المصري، دار سعد الدين، دمشق، ط ١ (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

٨- التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، مطبعة مجلس دائرة المعارف، الهند.

٩- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط ٢ (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).

١٠- تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عوامة، دار القلم، بيروت، ط٣ (١٤١١هـ/١٩٩١م).

١١- التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١ (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

١٢- التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، عبد الرحيم بن الحسين العراقي، تحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

١٣- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف المزي، تحقيق : بشار عواد معروف،

مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).
١٤- تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر، مطبعة مجلس دائرة المعارف، الهند (١٣٢٥هـ).
١٥- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).
١٦- توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ (١٣٦٦هـ).
١٧- الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري، دار أبي حيان، القاهرة، ط١ (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).
١٨- الجامع الصحيح، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ط١ (١٤١٢هـ/١٩٩١م)
١٩- الجرح والتعديل، عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، مطبعة مجلس دائرة المعارف، الهند، ط١ (١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م).
٢٠- الحطة في ذكر الصحاح الستة، صديق حسن خان القنوجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).
٢١- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب على شواهد شرح الكافية، عبد القادر ابن عمر البغدادي، المطبعة الأميرية ببولاق، ط١، بدون تاريخ.
٢٢- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ونذير حمدان، مؤسسة الرسالة، ط٣ (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).
٢٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٤- طبقات النحويين واللغويين، محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٢.
٢٥- علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح)، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، تحقيق: نور الدين عتر، المكتبة العلمية، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٢٦- غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: حسين شرف، ومحمد مهدي علام، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٢٧- فهارس كتاب سيبويه، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢ (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٢٨- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢ (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٢٩- الكتاب، عمرو بن عثمان (سيبويه)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢ (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٣٠- كتاب الثقات، محمد بن حبان البستي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١(١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).

٣١- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيديّ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٣٢- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، دار الفكر، بيروت (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٣٣- لسان العرب، محمد بن مكرم (ابن منظور الإفريقي)، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

٣٤- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٥- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١ (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).

٣٦- معرفة علوم الحديث، الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، تحقيق أحمد السلوم، دار ابن حزم، ط ١ (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

٣٧- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: محمد مرعب وفاطمة أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

٣٨- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، عبدالرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق : محمد

أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، بدون تاريخ.
٣٩- النهاية في غريب الحديث والأثر، المبارك بن محمد (ابن الأثير الجزري)، بيت الأفكار الدولية، عمان، الرياض، بدون تاريخ.
٤٠- الوافي بالوفيات، خليل بن أيبك الصفدي، مركز الطباعة الحديثة، بيروت (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).
٤١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد (ابن خلكان)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت (١٩٧٠م).

الصنعة الحديثيّة في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيديّ

د. حسين علي حسين بطي
الجامعة التطبيقيّة – البحرين

الصنعة الحديثيّة في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيديّ

د. حسين علي حسين بطي

تمهيد :

الفراهيديّ: الخليل بن أحمد العمانيّ، نزيل البصرة، الإمام العالم، صاحب العربية، أزهد الناس وأعلاهم نفساً، ولد سنة مائة ومات سنة بضع وستين ومائة من الهجرة، وقيل بقي إلى سنة سبعين ومائة[1].

حدّث عن أيوب السختياني وعاصم الأحول والعوام بن حوشب وغالب القطان، وعنه النضر بن شميل وغيره، وثقه ابن حبان[2]. وله حديث في سنن ابن ماجة ووثقه الحافظ ابن حجر[3].

لم يحظ إمامنا العلم بترجمة وافية لحياته ونشاطه العلميّ شأن الكثيرين من الأعلام الجهابذة، ولعلّ العوض بما خلّفه هذا الإمام من ثروة علمية متميزة، فهو فارس أصيل، وإمام متقدّم من أئمة العربية، وصاحب ملكة وسليقة وتذوق، قلّ نظيرُه، يظهر ذلك في تعامله مع اللغة العربية، واقتباسه للنصوص، كما أنه يحظى بثقافة واسعة أهلته لأن يتعامل مع نصوص القرآن والسنة، وبيان المعاني بدقة وإحكام. يضاف إلى ذلك أنّ كتابه العين يعدّ، وبحقّ، ثروةً لا نظيرَ لها في الغريبين: غريب القرآن وغريب الحديث، وذلك لوفرة ألفاظ الغريب سواء في القرآن أو السنة، فله أكثر من خمسمائة شاهد من الحديث. يضاف إلى ذلك تقدّمه، فهو من أعيان القرن الثاني الهجريّ عصرِ الروايةِ واللغة. وفوق كلّ ذلك تمكّنه الواسع من اللغة، واستيعابه لمصادر المعرفة على اختلاف أنواعها، وإجادته لفن التعامل مع تلك المعارف والفنون.

ومن الأمور المهمة التي تميّز بها الفراهيديّ صنعتُه الحديثيّة عند استدلاله بالحديث، فهو لم يستشهد بالحديث فحسب، بل اختار مسلك المحدثين في الاستدلال وصيغ الأداء، مما يدل على أنه متتبع لمناهجهم، وعلى علمٍ ودرايةٍ بعلوم الحديث وكيفية التعامل مع الرواية الحديثية . وللكشف عن إتقانه لصنعة الحديث كان هذا

البحث، الذي يحمل عنوان: **الصنعة الحديثية في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي**.

وسأعرض في هذا البحث أبرز السمات التي تميّز بها الفراهيديّ في تعامله مع النص النبويّ، ومدى إتقانه لصنعة المحدثين في إيراده للنصوص الحديثية، وطرق أدائه لحديث النبي ﷺ، فمن ذلك:

الترجمة للحديث:

هي التوطئة لنص الحديث بآية أو أثر عن الصحابة أو التابعين، وتارة يكون بجملة من الحديث، وفي بعض الأحيان تكون الترجمة اجتهاد صاحب الكتاب بنفسه، فيصدر الحديث بالمعنى الذي يراه مناسباً، مستنبطاً ذلك من الحديث، ثم يورد الحديث المراد.

وقد اشتهر البخاري – رحمه الله– بتراجم الأبواب في كتابه الجامع الصحيح حتى عُرف بذلك، وشاع عند العلماء فقه الإمام البخاري في تراجمه(٤).

وقد سلك الفراهيديّ في كتابه العين هذا المسلك الذي سلكه أمير المؤمنين في الحديث البخاري، ومن الأمثلة التي تدل على ذلك قوله:

المثال الأول: ومن الحديث كلُّ امرئ مُرتهن بعقيقته. وفي الحديث: أنّ رسول الله ﷺ عقّ عن الحسن والحسين بزنة شعرهما ورِقاً(٥).

المثال الثاني: وفي الحديث في الفتنة: "كُنْ حِلْس بيتك حتى تأتيك يدٌ خاطية أو منيّةٌ قاضية"(٦).

المثال الثالث: في قوله: والإرفاهُ: الادهانُ كلَّ يوم وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الإرفاه(٧).

بيانه سبب ورود الحديث:

وهو فن مهم يعين على فهم المعنى، وقد ألّف فيه السيوطي كتاباً سماه اللمع في أسباب ورود الحديث(٨)، وقد سلك الفراهيديّ منهج المحدثين في بيانه لسبب ورود الحديث، والأمثلة توضح ذلك:

المثال الأول: ومن الحديث كلُّ امرئ مُرتهن بعقيقته. وفي الحديث: أنّ رسول الله ﷺ

عقّ عن الحسن والحسين بزِنة شعرهما ورِقاً[٩].

المثال الثاني: في قوله: وقد كانوا يُعابِثون امرأة سائلةً فكانت تأبى إلا أن تستعصي عليهم وتُجيبُهم بغير ما يُريدون، فقال النبيُّ ﷺ: دَعُوها فإنَّها جبّارةٌ وقلبُ الجبّارِ الذي قد دَخَلَه الكِبرُ لا يقبل موعظةً[١٠].

المثال الثالث: وجاء في الحديث أن النّبيّ ﷺ مرّ بامرأةٍ سوداء تُرَقِّصُ صبيًا لها وهي تقول:

ذؤالُ ، يا ابن القَوْم يا ذؤالة
يمشي القُطا ويَجلسُ الهبنقعة

- فقال عليه السّلام: لا تقولي ذؤال، فإنّه شر السباع[١١].

تقطيع الحديث واختصاره:

يقصد به إيراد جزء من الحديث، جوزه بعض العلماء ومنعه آخرون منهم، واستقرّ الأمر على جوازه، وقد فعله البخاري في صحيحه.

قال ابن الصلاح[١٢]: وأما تقطيع المصنف الحديث الواحد على الأبواب فهو من الجواز أقرب ومن المنع أبعد وقد فعله مالك والبخاري وغير واحد من أئمة الحديث ولا يخلوا من كراهة. ولعل الأمثلة توضح صنيع الفراهيديّ ومسلكه.

المثال الأول: وفي حديث الإفك: "وإنمّا يأكُلْنَ العُلْقَة من الطعام"[١٣].

المثال الثاني: ومنه الحديث: "لا نَجشَ في الإسلام"[١٤].

المثال الثالث: فهو في الحديث: "لعن آكل الربا ومُؤْكِلَهُ"[١٥].

دقته في شرح الحديث:

وهي ملَكَة لا يقدر عليها إلاّ من أوتي فقهاً ومعرفة وتوفيقاً. وللفراهيديّ جهد واضح في ذلك، ومن أمثلته على ذلك:

المثال الأول: وفي الحديث: "ليس لعِرْق ظالِمٍ حَقٌّ" وهو الذي يَغرسُ في أرْضِ غَيره، وذلك أن الرجُلَ يَجيءُ إلى أرضٍ قد أحْياها رَجُلٌ قَبْلَه فيغرسُ فيها غَرْساً أو يُحدثُ فيها حَدَثاً يَستَوْجِبُ به الأرض[١٦].

المثال الثاني: وفي الحديث: "يأتي على الناس زمان ليس فيهم إلاّ أصْعَرُ أو أبتر"، يعني رُذالة الناس الذين لا دين لهم. قال سليمان: قد باشر الخدّ منه الأصعر العفر"(١٧).

المثال الثالث: والشِّناقُ في الحديث: ما بين الفريضتين فما زاد على العشرة لا يؤخذ منه شيء حتى تتم الفريضة الثانية، قال الشاعر:

قَرمٌ تُعلقُ أشناقَ الدِّيات به إذا المئون أُمِرَّتْ فوقَه جَمَلا

وشَنَقْتُ رأس الدابة إذا شددته إلى أعلى شجرة أو وتدٍ مرتفع(١٨).

استخراجه الأحكام من الأحاديث:

وهذا أمر يحتاج إلى فقه لأحاديث الأحكام، وللفراهيديّ جهد ملحوظ، فمن ذلك:

المثال الأول: وفي الحديث: "جُرْحُ العجماء جُبار" يقول: إذا أفلتت الدابة فقتلت إنسانا فليس على صاحبها دِيَةٌ وجُبار، أي: باطل، هدر دمه. والعجماء كل صلاة لا يُقْرأُ فيها. والأعجم: كلّ كلام ليس بلغة عربيّة إذا لم ترد بها النسبة(١٩).

والمثال الثاني: وفي الحديث: "إنّ حواء خلقت من الضِّلَعِ القُصَيْرَى من ضلوع آدم عليه السَّلام". والالتواءُ في أخلاق النساء وراثة علقَتْهُنّ من الضِّلَع، لأنّها عوجاء(٢٠).

المثال الثالث: وخِلافُ رسول الله ﷺ مُخالَفتُه في القرآن. ورجلٌ وخالِفٌ وخالفة أي: يُخالف، ذو خِلاف، وخلفة. واختلفت اختلافةً واحدةً. والخلاف بمنزلة "بَعْدَ"، ومنه قوله تعالى: "لا يلبثون خِلافَك" أي بعدك ويقرأ: "خَلْفَك"(٢١).

التثبت من الرواية:

منهج تميز به المحدثون في فحص الروايةَ والتثبت من الرواة، وقد برز في ذلك أئمة كبار أمثال المديني والبخاري والإمام مسلم(٢٢).

قال الفراهيديّ: وفي الحديث: "لا تتمشّع بروثٍ ولا عظمٍ" قال أبو ليلى: لا أعرفه، ولكن يقال لا تمتَش بروثٍ وعظمٍ، أي: لا تستنجِ بهما(٢٣).

استشهاده بالبلاغات:

وقد اشتهر مالك – رحمه الله– في كتابه الموطأ بذلك(٢٤)، ونجد الفراهيديّ يستشهد بها في كتابه العين، **ومثال ذلك:** وبلغنا أن النبي ﷺ كان مقبلا على رجل يعرض عليه الإسلام فأتاه ابن أم مكتوم، فسأله عن بعض ما كان يسأل فشغله عن ذلك الرجل فعبس رسول الله صلى الله عليه وآله وجهه، وليس من التهاون به، ولكن لما كان يرجو من إسلام ذلك الرجل، فأنزل الله: "عَبَسَ وتولّى أنْ جاءَه الأعْمى"(٢٥).

والمثال الثاني: وبَلَغَنا أنَّ بني إسرائيلَ حيثُ قيل لهم: وقولوا حِطَّةٌ إنّما قيل لهم ذلك حتّى يَستَحِطُّوا بها أو زارَهم فتُحَطَّ عنهم(٢٦).

بيانه اختلاف اللفظ في الحديث الواحد:

وهو مما يدلّ على معرفته وطول باعه بألفاظ الحديث وطرقه، مع علمه بدلالة المعاني. واختلاف ألفاظ الحديث أمر شائع عند المحدثين، تلقوه بالرواية فأثبتوه في مصنفاتهم(٢٧).

المثال الأول: وفي الحديث: "مَحاشُّ النساء حرامٌ" ويُرْوَى: مَحاسنٌ بالسين أيضاً(٢٨).

والمثال الثاني: وفي الحديث: وهل يُكَبُّ الناس على مناخرهم في جهنّمَ إلاّ حصا ألسنتهم ويقال: حصائد(٢٩).

دفعه للإشكال:

وهو من أدقّ علوم الحديث، ومن أئمة هذا الشأن الشافعي وابن قتيبة والطحاوي، ويعرف السرخسي في أشكاله على وجه لا يُعرف المراد إلا بدليل يشير به من بين سائر الأشكال(٣٠).

وأما الرَّحِم الذي جاء في الحديث: الرَّحِمُ مُعَلَّقةٌ بالعَرْش، تقول: اللّهُمَّ صِلْ من وَصَلَني واقطَعْ من قَطَعَني فالرَّحِمُ القرابةُ تجمَع بني أبٍ(٣١).

تفسيره للحديث بالآثار:

وهو أجود أنواع البيان، وذلك لقرب العهد بالحديث، وتذوق معانيه، والوقوف على دقائقه ومراميه. وللإمام البخاري في صحيحه باع طويل في هذا الشأن في تراجم أبواب جامعة[٣٢]. ونرى الفراهيديّ في العين يصنع ما صنعه أئمة الحديث في شرح الحديث بأقوال السلف – ومن الأمثلة على ذلك:

المثال الأول: وفي الحديث: "في الصالحين كل خلف عدوله". قال الضرير: يقول: يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله. يعني من كل قوم يحمله العدول من كل خلف من الناس[٣٣].

والمثال الثاني: وفي الحديث: "إن جهنم لا تسكن حتى يضع الله قدمه فيها"، قال الحسن: حتى يجعل الله الذين قدمهم من شرار خلقه فيها، فهم قدم الله للنار والمسلمون قدم للجنة[٣٤].

تفسير الآية بالحديث:

وهو أجود التفاسير، لأن الحديث شرح لكتاب الله العزيز، فتارة تفضيل وبيان، وتارة تخصيص وتقييد، وهو مسلك سلكه عامة أهل العلم من المحدثين والمفسرين، واشتهر من صنف ذلك الإمامُ السيوطي في كتابه القيم الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ولم يُخل إمام العربية كتابه من هذا اللون من التفسير. فجاء " والمضاهاة: مشاكلة الشيء قال الله عز وجل: "يضاهون قول الذين كفروا"، وربما همزوا، "يضاهئون قول الذين كفروا" أي: يقولون مثل قولهم. وفي الحديث: "أشد الناس عذابا الذين يضاهئون خلق الله" "[٣٥].

تعريفه بالأعلام:

وإن كان على وجه الندرة، لكن استعماله في وقته له دلالة على صحة المنهج، وهو بيان الاسم وإظهاره، وللمحدثين جهد ملحوظ في التعريف بالأعلام كالذهبي وابن عبد البر وابن حجر، فنرى من ذلك في كتاب العين: "وهالة: أم حمزة بن عبد المطلب" [٣٦].

إيراده لسند الحديث:

والسند عند المحدثين يعبر عنه علي بن المديني بقوله الإسناد من الدين[٣٧]، ونرى الفراهيديّ لم يخل كتابه العين من هذا النمط المهم- ومثاله: " قال الضرير: سمعت أبا عمرو يقول: البلغ ما يبلغك من الخبر الذي لا يعجبك القول: اللهم سمع لا بلغ أي اللهم نسمع بمثل هذا فلا تنزله بنا[٣٨].

اهتمامه بالمغازي والسير:

وقد أولى المحدثون هذا الجانب اهتماماً كبيراً لارتباطه بأحداث السيرة النبوية المطهرة، ولا أدلّ على ذلك من كتاب المغازي والسير للإمام البخاري الذي ضمنه كتابه الجامع[٣٩]، فنرى الفراهيديّ يعرف ... فيقول:

المثال الأول: وذات السلاسل: أرض من أرض الشام غزاها عمرو بن العاص على عهد النبي- صلى الله عليه وعلى آله وسلم[٤٠].

والمثال الثاني: والحوأب: موضع بئر وذلك حيث نبحت الكلاب على عائشة مقبلها إلى البصرة[٤١].

المثال الثالث: فدك: موضع بالحجاز، مما أفاءه الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم[٤٢].

ذكره لمخرج الحديث:

مخارج الأحاديث مهمة جداً، وهي تحدد بدقة مصدر الحديث من جهة الصحابي أو التابعي، ولذلك صبّ المحدثون جلّ اهتمامهم لمعرفة مخارج الحديث، وفائدته معرفة طرق الحديث، إضافة إلى الوثاقة بالحديث إذا علم مصدره. ولذلك نرى الروايات الصحيحة المعتبرة يتصدرها اسم من أخرج الحديث من الصحابة رضوان الله عليهم. قال الحافظ أبو بكر بن ثابت: "المرفوع ما أخبر فيه الصحابي عن قول رسول الله ﷺ أو فعله فخصصه، فيخرج مرسل التابعي عن رسول الله ﷺ"[٤٣]. ونرى الفراهيديّ يهتم بهذا الجانب في كتابه العين، ومن أمثلة ذلك:

المثال الأول: وفي حديث ابن مسعود: "كنا عند النبي ﷺ، ذات ليلة فأكرينا الحديث"،

أي: أطلناه[٤٤].

والمثال الثاني: وفي حديث ابن عمر أنه دخل صور نخل[٤٥].

المثال الثالث: وحديث عمر: "لا يعجل الرجل بالبيعة تغرة أن يقتل" أي لا يغرن نفسه تغرة بدخوله في البيعة قبل اجتماع الناس في الأمر[٤٦].

عنايته بألفاظ الحديث وإيراده للحديث كاملا:

وهو دأب المحدثين في المحافظة على النص وإيراده كاملاً، وقد بدا ذلك واضحاً في كتاب العين وأنّ نفس الفراهيديّ طويل في ذلك، فنراه لا يقتصر على اللفظة الغريبة، ولكنه يورد النص بأكمله، مثال ذلك:

المثال الأول: وفي الحديث: يخرج رجل في آخر الزمان يُسمى أمير الغضب له أصحاب منحون مطرودون مقصون عن أبواب السلطان يأتونه من كل أوب، كأنهم قَزع الخريف، يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها[٤٧].

والمثال الثاني: وفي الحديث: "إذا صلى أحدكم فليلزم جبهته وأنفه الأرض حتى يخرج منه الرغم" أي حتى يخضع ويذل ويخرج منه كبر الشيطان[٤٨].

المثال الثالث: وفي الحديث: لتركبن سنن من كان قبلكم ذراعا بذراع وباعا بباع حتى لو سلكوا خشرم دبر لسلكتموه[٤٩].

استشهاده بالحديث الموقوف:

ومطلقه يختص بالصحابي، ولا يستعمل فيمن دونه إلا مُقيداً، وقد يكون إسناده متصلاً وغير متصل وقد يطلق عليه البعض الأثر[٥٠]، ومن الأمثلة التي ذكرها الفراهيديّ:

المثال الأول: وفي الحديث: "أن ابن عمر نظر إلى رجل فقال: به سفعة من الشيطان" يريد به الأخذ بالناصية. وقال: "لنسفعا بالناصية"، أي: لنأخذن بها ولنقيمنه[٥١].

والمثال الثاني: وكان ابن عباس سئل عن قوله عزّ وجلّ: ﴿وحلائل أبنائكم الذين

من أصلابكم﴾ فلم يبين أدخل بها أم لا، فقال: أبهموا ما أبهم الله"[٥٢].

المثال الثالث: قال زيد بن ثابت: كنت أجمع القرآن من اللخاف وصدور الرجال[٥٣].

إيراده لأخبار العلماء والقضاة:

هو مما يدل على سعة إطلاعه، وهو أمر في غاية الأهمية، وفيه دلالة واضحة على معرفة أحوال الرجال، ومن أمثلة ذلك:

المثال الأول: وكان عبيد الله بن الحسن قاضي البصرة مولعا بأن يقول: اسفعا بيده، أي: خذا بيده فأقيماه[٥٤].

والمثال الثاني: وأمر معاويةُ الحسنَ بن علي بن أبي طالب عليهما السلام أن يخطب الناس رجاءَ أنْ يحصر فيسقط من أعين الناس لحداثته، وصعد المنبر، وحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ثم قال: إنكم لو طلبتم ما بين جابلق وجابلص رجلا جده نبي ما وجدتموه غيري، وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين، وأشار بيده إلى معاوية[٥٥].

جمعه بين الأحاديث في موضع واحد عند الاستشهاد:

من ذلك:

المثال الأول: وفي الحديث: "تعقم أصلاب المشركين" أي تيبس وتسد. والريح العقيم: التي لا تلقح شجرا ولا تنشئ سحاباً ولا مطراً.

والمثال الثاني: وفي الحديث الآخر: "العقل عقلان: فأما عقل صاحب الدنيا فعقيم، وأما عقل صاحب الآخرة فمثمر"[٥٦].

استدلاله بالحديث المعلق:

وهو ما حذف من مبتدأ إسناده واحد أو أكثر، وقد فعله الإمام البخاري وخاصة في تراجم الأبواب[٥٧]، وقد سلك الفراهيديّ هذا المسلك في استشهاده، من أمثلة ذلك:

المثال الأول: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله: "ومازالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري"[٥٨].

والمثال الثاني: وفي الحديث عن النبي صلى الله وعليه وعلى آله وسلم: "أن رجلا قص عليه رؤيا فاستاء لها"(٥٩).

المثال الثالث: قال رسول الله صلى الله عليه و على آله وسلم يوم حنين: "شاهت الوجوه"(٦٠).

صلاته على النبي ﷺ كلما ذكر:

الصلاة على النبي ﷺ سنة ماضية، وهي دأب الصالحين إلى يوم الدين. قال الخطيب: "ثم يذكر النبي ﷺ ويصلي عليه، فإن ابتاع ذكر الله وذكره واجب والصلاة عليه في تلك الحال أمر لازم"(٦١). وهذا أمر لا يخفى على عالم كالفراهيديّ، فقد التزم بالصلاة على النبي ﷺ في جميع كتابه من أوله إلى آخره عند ذكره للنبي ﷺ.

صيغ الأداء عند الفراهيدي:

اهتم المحدثون كثيراً بصيغ أداء حديث رسول الله ﷺ، واستعملوها في الرواية الحديثيّة، وأثبتوها في مصنفاتهم وفاضلوا بين تلك الصيغ، والفراهيديّ استعمل كثيراً منها في تعامله مع الرواية الحديثية فمن هذه الصيغ:

وفي الحديث: وقد أكثر من استعمال هذه الصيغة، من ذلك: قوله: وفي الحديث: إني أخاف عليكم الجنادع والمربات؟ يعني البلايا والآفات. والمربات؟: الدواهي الشديدة(٦٢). وقوله: وفي الحديث: "إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر" أي فأت بذكر عمر(٦٣). وقوله: وفي الحديث: "إن بيننا وبينكم عيبة مكفوفة"(٦٤).

وجاء في الحديث: ومثاله: قوله: وجاء في الحديث: من غرس شجرة فما أكلت العافية منها كتبت له صدقة(٦٥). وقوله: وجاء في الحديث: إن الله ليبغض البيت اللحم وأهله(٦٦). وقوله: وجاء في الحديث: اللهم اشدد وطأتك على مضر(٦٧).

صيغة التمريض: وهو ما ليس فيه حزم، كيُروى ويُذكر ويُحكي ويُقال، وروى وحكى عن فلان فليس حكم بصحته إلى المضاف إليه(٦٨). وقد استعمل الفراهيديّ هذه الصيغة

مما يدلّ على معرفته بدلالتها، وهذا له اعتبار عند أهل الصنعة، فتأمل مثاله: يقولون: إسماعين في إسماعيل وإسرافين وقد روي في الحديث بالنون[٦٩]، وقوله: ويروى في الحديث. "وأشرب فأتقنح" وأتقمح، يرويان جميعا[٧٠]، وقوله: ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: " إذا أبردتم إلي بريدا فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم"[٧١].

بلغنا: والبلاغات مصطلح استعمله المحدثون، وعلى وجه الخصوص الإمام مالك في الموطأ، والبلاغات مأخوذة من قول المحدث بلغني[٧٢]، مثاله: "وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مقبلا على رجل يعرض عليه الإسلام فأتاه ابن أم مكتوم، فسأله عن بعض ما كان يسأل فشغله عن ذلك الرجل فعبس رسول الله صلى الله عليه وآله وجهه، وليس من التهاون به، ولكن لما كان يرجو من إسلام ذلك الرجل، فأنزل الله: "عبس وتولى أن جاءه الأعمى" وإن رأيته مع ذلك مغضبا قلت: بسل"[٧٣]. ومثال آخر: "وبلغنا أن بني إسرائيل حيث قيل لهم: وقولوا حطة إنما قيل لهم ذلك حتى يستحطوا بها أو زارهم فتحط عنهم"[٧٤].

ومنه الحديث: يستعمل الفراهيديّ هذه الصيغة عندما يريد الدلالة على اللغة من الحديث ومثاله: " ومنه الحديث: "يعتصر الوالد على ولده في ماله"،أي: يحبسه عنه، ويمنعه إياه[٧٥]. و "ومنه في الحديث: من نظر في صير باب فقد دمر أي دخل[٧٦].

العزو إلى موضوع الحديث: وهي طريقة مستعملة وخاصة عند الشرّاح بكثرة[٧٧]، ومثاله: "وفي حديث الإفك: "وإنما يأكلن العلقة من الطعام" "[٧٨].

ومن الحديث: يستعملها الفراهيديّ في اختصار الحديث، مثاله: "ومن الحديث كل امرئ مرتهن بعقيقته"[٧٩].

وفي حديث النبي ﷺ: ومثاله: "وفي حديث النبي ﷺ أنه قال لعبد الله بن عمر حين ذكر قيامه بالليل، وصيامه بالنهار: إنك إذا فعلت ذلك هجمت عيناك، ونفهت نفسك"[٨٠].

قال صلى الله عليه وسلم: صيغة استعملها الفراهيديّ أيضاً، مثال: "وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله : "ومازالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان قطعت

أبهري"[٨١]. قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوم حنين: "شاهت الوجوه"[٨٢]. و"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خمروا شرابكم ولو بعود"[٨٣].

يذكر الحديث من غير نسبة: ومثاله: "و"يحشر الناس يوم القيامة غرلا بهما"، أي: ليس بهم شيء مما كان في الدنيا، نحو العمى والعرج، والجذام والبرص. ويقال: بل عراة ليس معهم شيء من متاع الدنيا"[٨٤].

صيغة الحكم: كقوله نهى رسول الله ﷺ، ومن أمثلته: "وحرم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوم خيبر لحوم الحمر الأهلية"[٨٥]. و"وقد نهي أن يجمر غزاة المسلمين في ثغور المشركين"[٨٦].

استعماله العنعنة: وهي مستخدمة كثيراً عند المحدثين[٨٧]، ومثاله: "وعن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: "لقد هممت ألا أثهب إلا من قرشي، أو أنصاري. أو ثقفي"، أي: لا أقبل هبة إلا من هؤلاء "[٨٨].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وهي صيغة مستخدمة عند مشاهير المحدثين في مصنفاتهم، ومثاله: "وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله: "ومازالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري"[٨٩].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الخاتمة وفيها نتائج البحث بنقاط محددة.

١. سعة علم الفراهيدي وطول باعه في شتى العلوم والمعارف.
٢. أهمية كتاب العين وأنه مصدر رئيس في فنون العلم والمعرفة.
٣. غزارة المادة الحديثية في كتاب العين حيث بلغت النصوص الحديثية والآثار أكثر من خمسمائة حديث وأثر.
٤. صنعته الحديثية المميزة في التعامل مع الرواية الحديثية.
٥. دقته في عرض الحديث وطرق أدائه.
٦. براعته في بيان معاني الأحاديث.
٧. يعتبر كتاب العين أهم مصدر في معرفة غريب الحديث.
٨. تنوع أسلوبه في عرضه للأحاديث.
٩. عنايته الفائقة بنصوص الأحاديث.
١٠. تمرسه في الاستدلال والاستنباط.

الحواشي.

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٧، ص٤٢٩.
(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٤٢٩.
(٣) تهذيب التهذيب، ج٣، ص١٤١. وانظر: تهذيب الكمال للمزي، ج٨، ص٣٢٦.
(٤) الجامع الصحيح، البخاري، ج٨، ص١٣٠- ٤١٥، وغيرها من المواضع.
(٥) العين، ج١، ص٥.
(٦) المصدر نفسه، ج١، ص١٩٨.
(٧) المصدر نفسه ج١، ص٢٧٠.
(٨) تدريب الراوي، ج٢، ص٣٩٤.
(٩) العين، ج١، ص٥.
(١٠) المصدر نفسه، ج١، ص٤٧٨.
(١١) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٠٤.
(١٢) المقدمة، ص١٩٤. والكفاية في معرفة أصول الراوية، ج٢، ص٥٣٧.
(١٣) العين، ج١، ص٣٤.

(١٤) المصدر نفسه، ج١، ص٤٦٢.

(١٥) المصدر نفسه، ج١، ص٤٥١.

(١٦) المصدر نفسه، ج١، ص٣٠. والحديث في صحيح مسلم وانظر شرح النووي، ج١١، ص٢٢٤.

(١٧) المصدر نفسه، ج١، ص٦٩.

(١٨) المصدر نفسه، ج١، ص٣٧٤.

(١٩) المصدر نفسه، ج١، ص٥٤.

(٢٠) المصدر نفسه، ج١، ص ٦٥.

(٢١) المصدر نفسه، ج١، ص٣٢٣.

(٢٢) المقدمة، الإمام مسلم، ج١، ص٩٠. والمحدث الفاصل بين الراوي والواعي، ص٤١١.

(٢٣) العين، ج١، ص٦٢.

(٢٤) تدريب الراوي، ج١، ص٥٢.

(٢٥) العين، ج١، ص٨٠.

(٢٦) المصدر نفسه، ج١، ص١٦٥.

(٢٧) صحيح مسلم، ج٢، ص١٧.

(٢٨) العين، ج١، ص١٦٤.

(٢٩) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٧.

(٣٠) مسلم، الثبوت شرح فواتح الرحموت، ج٢، ص٢١.

(٣١) العين، ج١، ص٢١٣.

(٣٢) الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، ج١، ص٥٤ وغيرها.

(٣٣) العين، ج١، ص٣٢٣.

(٣٤) المصدر نفسه، ج١، ص٣٩١.

(٣٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧٦.

(٣٦) المصدر نفسه، ج١، ص٢٨١.

(٣٧) المقدمة، مسلم، ج١، ص١٥.

(٣٨) العين، ج١، ص٣٥٧.

(٣٩) الجزء الثامن مع شرحه فتح الباري.

(٤٠) العين، ج٢، ص٥١.

(٤١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٧.

(٤٢) المصدر نفسه، ج١، ص٤٣٥.

(٤٣) مقدمة ابن الصلاح، ص٤١.

(٤٤) العين، ج١، ص٤٥١.

(٤٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٣.

(٤٦) المصدر نفسه، ج١، ص٣٤٢.

(٤٧) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣.

(٤٨) المصدر نفسه، ج١، ص٣٥٧.

(٤٩) المصدر نفسه، ج١، ص٣٣٧.

(٥٠) مقدمة ابن الصلاح، ص٤١. وانظر: الباعث الحثيث، ص٤٣.

(٥١) العين، ج١، ص٨٠.

(٥٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧٤.

(٥٣) المصدر نفسه، ج١، ص٣٢٣.

(٥٤) المصدر نفسه، ج١، ص٨٠.

(٥٥) المصدر نفسه، ج١، ص٤١٨.

(٥٦) المصدر نفسه، ج١، ص٤١.

(٥٧) نزهة النظر شرح نخبة الفكر، ص٤٠.

(٥٨) العين، ج١، ص٢٧٠.

(٥٩) المصدر نفسه، ج٢، ص٨٠.

(٦٠) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧٦.

(٦١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج٢، ص٧٠.

(٦٢) العين، ج١، ص١٥٤.

(٦٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٦٢.

(٦٤) المصدر نفسه، ج١، ص١٤٢.

(٦٥) المصدر نفسه، ج١، ص١٤١.

(٦٦) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢١.

(٦٧) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٠.

(٦٨) تدريب الراوي، ج١، ص١٢٠.

(٦٩) العين، ج١، ص١٤٦.

(٧٠) المصدر نفسه، ج١، ص١٧٥.

(٧١) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٦.

(٧٢) الباعث الحثيث، ص٢٨.

(٧٣) العين، ج١، ص٨٠.

(٧٤) المصدر نفسه، ج١، ص١٦٥.

(٧٥) المصدر نفسه، ج١، ص٦٩.

(٧٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٣.

(٧٧) انظر: فتح الباري، ج٨، ص١٣٠.

(٧٨) العين، ج١، ص٣٤.

(٧٩) المصدر نفسه، ج١، ص٥.

(٨٠) المصدر نفسه، ج١، ص٢٥٥.

(٨١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧٠.

(٨٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧٦.

(٨٣) المصدر نفسه، ج١، ص٣٢٣.

(٨٤) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧٤.

(٨٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٨١.

(٨٦) المصدر نفسه، ج١، ص٤٧٩.

(٨٧) الجامع الصحيح، ج٨، ص٢٦٥. وتوضيح الأفكار للصنعاني، ج١، ص٣٢٩.

(٨٨) العين، ج١، ص٢٨٣.

(٨٩) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧٠.

المصادر والمراجع:

* الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير، تأليف: أحمد محمد شاكر، ط دار الفكر – بيروت.
* تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للحافظ السيوطي، ط مكتبة دار التراث – بيروت.
* تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، مؤسسة الرسالة – بيروت.
* تهذيب الكمال للمزي، ط مؤسسة الرسالة – بيروت.
* توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار للعلامة الصنعاني، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت.
* الجامع الصحيح بشرح فتح الباري، ط دار الفكر – بيروت.
* الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، تحقيق : د. محمود الطحان، ط مكتبة المعارف – الرياض.
* سير أعلام النبلاء للذهبي، ط مؤسسة الرسالة – بيروت.
* صحيح مسلم بشرح النووي، ط دار الفكر – بيروت.
* علوم الحديث لابن الصلاح، المكتبة العلمية – بيروت، تحقيق: د. نور الدين عتر.
* فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ط دار الفكر– بيروت.
* كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، ط موقع الوراق – الشبكة العنكبوتية http://www.alwarraq.com
* الكفاية في معرفة أصول علم الرواية للخطيب البغدادي، تحقيق: إبراهيم الدمياطي، ط دار الهدى – مصر.
* المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي، تحقيق: د. محمد عجاج الخطيب، ط دار الفكر – بيروت.
* معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري، ط. دار ابن حزم.
* نزهة النظر شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر لابن حجر العسقلاني، الناشر مكتبة الإرشاد – صنعاء.

المنجز العروضيّ الخليليّ:
حدوده وملامحه وأبعاده

د. ناصر لوحيشي
جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة– الجزائر

المنجز العروضيّ الخليليّ: حدوده وملامحه وأبعاده

د. ناصر لوحيشي

المقدمة:

يعدّ الشعر - بعامة- أحد الأساليب الإبلاغية، وأهمّ الفنون القوليّة، لأنّ مادّته هي الأصوات اللّغوية التي إذا اتّحدت في صورة ما، وفي انتظام معيّن، نتج من ذلك جرس خفيٌّ يعضُد الدلالة، ويقوّي الأثر. ولذا كان الشعر موسيقا ومضمونا ذا طبيعة خاصّة(١).

ولعلّ ذلك هو الذي حمل القدماء وكثيراً من المحدثين على اشتراط الوزن في القول الشعري، فجعلوا الوزن من أعظم أركانه وأولاها به خصوصيّة(٢).

ويبدو أن تعريف ابن خلدون للشعر كان تلخيصا للتعريفات السابقة، فهو يرى أن الشعر؛ "هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصّل بأجزاء متّفقة في الوزن والرويّ، مستقل كلّ جزء منها في غرضه ومقصده عمّا قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به"(٣).

والظاهر أن الشعر في لسان العرب يختص وينماز بصفات كان ابن خلدون قد اختصرها في عبارة: "غريب النزعة، عزيز المنحى" ثم قال: "هو كلام مفصّل قطعا قطعا، متساوية في الوزن، متّحدة في الحرف الأخير من كلّ قطعة. وتسمّى كلّ قطعة من هذه القطعات عندهم بيتًا، ويسمّى الحرف الأخير الذي تتّفق فيه رويًا وقافية، ويسمّى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة"(٤).

لذلك ألفينا العروضيين والنقاد يضعون موسيقى الشعر في المحلّ الأسمى، ويعدّون ذلك من أهم عناصر التشكيل الفنّي في النّص الشعري، فليس الشعر عند أكثرهم إلاّ كلاما منغّما موقّعا، تنفعل لموسيقاه النّفس فتهتزّ وتتأثّر(٥).

كان ذلك من أبرز السّمات والخصائص التي تميّز بها الشعر من غيره، فحين تتآزر تلك الموسيقى مع العناصر الأخرى في التشكيل الشعريّ، فإنّ التعبير يبلغ مقصده ومرماه، وينتهي إلى وجدان المتلقّي، فيملك الحواسّ كلّها، ولعلّ هذه

القيمة الفنّية هي التي أعانت على حفظ الشعر وتناقله، وكشف الجوانب الجمالية فيه، وتعميق رؤية الإنسان إلى الكون والحياة(٦).

وإذ كانت أواخر القرن الأوّل الهجريّ، وبداية القرن الثاني هي المرحلة الأولى في التدوين والتقنين في مختلف العلوم والمعارف، وبخاصة علوم الدين واللغة، فإنّ الشعر - بدءاً من ذلك- قد حاز سهمًا من اهتمام العلماء الأوائل، ولا غرو في ذلك، لأنّه الفنّ الشريف عند العرب وديوان علومهم وأخبارهم، وشاهد صوابهم وخطئهم، والأصل الذي يعدلون إليه في كثير من المواقف والأحوال، والوعاء الفنّي الجميل لفكرهم وحضارتهم. لذلك نجد جلّةً من العلماء يولون الشعر اهتمامًا عجيبًا، يكاد يساوي اهتمامهم بالدراسات القرآنية(٧).

ولما كان الشعر ديوان العرب وترجمان الأدب، فقد كان علم العروض ينزل منزلة الأساس من البناء المرصوص، والأصل لكلّ متشعّبات الفروع، إذ به يعرف المستعمل والمهمل والتامّ والمشطور والمنهوك، وبه يجبر الخلل ويقام الوزن. ومنفعته ليست باليسيرة، إذ ليس العروض هذيانًا، وليس يُنكر فضله إلا المعادي المكابر(٨).

فالعروض إذًا ملكةٌ تعين على التذوّق الشعري، وعلى إدراك ضوابط اللغة، لتتأكّد لنا صحة الشواهد، ونتحقّق من العزو والنسبة. فلقد تعهّد علماء اللّغة العربية العروض شرحًا وبسطًا واختصاراً ونظمًا وتنبيهاً على خطورته وخفاياه(٩).

ولقد ظلّ الخليل بن أحمد الفراهيديّ، وهو العالم اللّغوي العارف بالنغم والرياضة مشغولاً بحماية اللغة والشعر، وكان الدافع إلى ذلك صون كلام الله، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم من اللّحن والفساد. فقد سارع الخليل وتلاميذه إلى وضع الأسس والقواعد التي تحفظ للعربية بناءها، وللشعر العربي خصوصيته وتميّزه. فكان علم العروض علمًا مكتمل القواعد، ثابت الأساس ركينًا(١٠)، أو يكاد يكون كذلك.

والذي لا خلاف فيه، تميّز الخليل بن أحمد، بسعة اطّلاعه، ودقة ملاحظته، وثقوب فطنته، وبداهته وحذقه في مسائل المقارنة والمقايسة والاستدلال والاستنباط(١١)، وذلك الذي مكّنه من وضع أسس العروض وقواعده.

ولقد أجمع كتاب التراجم والسير والأعلام والطبقات(١٢) على ذلك، وذهبوا في

بعض المواضع مذاهب فيها بعض المغالاة والمبالغة، ممّا لا يقبله العقل والمنطق.

ولعل ذلك يخفي شدّة إعجابهم بهذا العَلَم الفذّ والعقل النّفّاذ.

قال عنه مهدي المخزومي: "شبّ الخليل فشبّ معه ذهن نكيٌّ، وفطرة نادرة، وعقل مستوعب فاحص، فاستخدم كل هذه الأدوات كأحسن ما يكون الاستخدام، فتفجّر عقله نبوغًا وعبقريةً، وتدفّقت نفسه زهدًا وورعًا، وخلقًا سمحًا، وتواضعًا جمًّا"(١٣).

ومن ثمّ فإنّ المنجز المعرفي الخليلي لا يمكن إلاّ أن يكون إنجازًا ذاتيًا فرديًّا كما يقول صلاح يوسف عبد القادر(١٤)، على الرغم من أنّ بعضهم يرى أنّ الخليل كان مسبوقًا إلى العروض، وأنّ العرب كانت على علم ببعض أجزائه.

وقد استدلوا على ذلك بنص لابن فارس، ومفاده؛ "فإن قال قائل فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية، وأن الخليل أول من تكلّم في العروض، قيل له؛ نحن لا ننكر ذلك، بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام في أيدي الناس، ثم جددهما هذان الإمامان، وقد تقدم دليلنا في معنى الإعراب. وأما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفا معلوما، اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قالوا أو من قال منهم: إنه شعر فقال الوليد بن المغيرة منكرا عليهم: لقد عرضت ما يقرؤه محمد على أقراء الشعر، هزجه ورجزه، وكذا وكذا، فلم أره يشبه شيئا من ذلك؟".(١٥)

فعلي يونس(١٦) يرى أنّ قصّة النابغة الذبيانيّ حين أقوى ولم يدرك الإقواء إلاّ بعد زمن ما، دليل على أنّ العروض كان معروفًا في العصر الجاهلي، وأنّ الجاحظ يحدّثنا عن معرفة العرب لبعض جوانب ذلك العلم.

غير أنّنا لا نرى رأيه هذا، فأمّا قصّة إقواء النابغة، فواجبة المراجعة والتّثبّت والنّظر، وأمّا رأي الجاحظ فليس فيه إشارة إلى أنّ الجاهليين كانوا على علم ببعض جوانب العروض.

وها نحن ننقل النصّ كما هو، قال الجاحظ: "وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابًا، لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب، وتلك الأوزان بتلك الأسماء، كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر

والكامل وأشباه ذلك، وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزّحاف"(١٧).

يقول الجاحظ: "لم تكن العرب تتعارف الأعاريض..." وهذا توكيد صُراح، ودليل على أنّ الخليل هو المؤسّس الواضع، على الرّغم من أنّه ذكر بُعيد ذلك أن العرب تذكر في أشعارها السّناد والإقواء والإكفاء.

ويبدو لنا أن العرب تعرف لذلك الدلالة اللغوية (المعجمية) دون الاصطلاح، ثمّ إنّ السّناد والإقواء والإكفاء ممّا يختصّ به علم القافية وهو علم مستقل عن العروض، وإن كانا متكاملين متداخلين أحيانًا.

وإذا كان من المتقدّمين من حاول أن ينقض عروض الخليل ويبطل نظام الدوائر مثل بُزرُخ(*) العروضيّ، وأبي الحسن علي بن هارون بن المنجم الذي ألّف كتابًا في الردّ على الخليل، فإنّ أكثر المتقدّمين حاول أن ينصف الرجل ويذكر فضله وتصدّره(١٨)، ومن هؤلاء الزّجاج، وتلميذه العروضي (أبو الحسن) الذي اعترف بفضل الخليل ونباهته فقال: "فما أحسبك تحشر الخليل في الرواية، ولا تتقدّمه في الدراية، إذ كان هذا الرّجل قد أظهر من علمه وبراعته، ما قد بان به فضله عند العامّة والخاصّة من أهل العلم والنباهة والفضل والرياسة"(١٩).

وإذا كان بعض المحدثين المعاصرين يعتقد -بحسن نية أو بخلافها - أن العروض العربي لا يزال بحاجة إلى دراسات متريّثة ثابتة، تقوم على العرض والتحليل والنظر فيما أنتجه القدماء(٢٠)، وذلك من أجل وضع قواعد جديدة وتعديل أخرى، فإنّ هناك فريقًا يتّخذ من ذلك ذريعةً ومسوّغًا لاتّهام الخليل وتقويض نظريته، ونعتها بما لا يليق بالباحث المنصف الأمين.

فكمال أبو ديب يصف عمل الخليل بالمعقّد المعوّق لكونه يخفي النوى الإيقاعية المؤسسة بتركيزه على التفعيلات الوزنية الكبيرة التي تضلّ الباحث.

وعلى الرّغم من اعترافه بعبقرية الخليل وريادته، إلاّ أنّه يؤاخذ الخليل بإضاعة "أرابيسك" التشابك والكثافة والانعتاق، وبتقييد الإبداع وقسره(٢١).

والتراث- في نظر كمال أبو ديب- يعلّمنا الإخلاص لذواتنا، ولفكرنا، فلماذا نصرّ على خيانته بالإخلاص له ولفكره(٢٢)؟.

وهذه النظرة نجدها عند بعض من كتبوا عن العروض وموسيقى الشعر، فمحجوب موسى[٢٣] يرى أن علم العروض من أيسر علوم العربية، ولكنّه نكب بالعرض المعقّد، فهو كالنبع الصّافي الذي تغطّيه طبقة كثيفة من الشوائب، وإن موقفنا – برأيه– لتكتنفه قدسيّة مبالغٌ فيها.

والعروض الخليلي قاصر– في نظر مدحت الجيار– عن احتواء ما يحمله الشعر من نغم لغوي وشعري، لأنّه يقف عند مجرّد التقسيم المعتاد إلى حركة وسكون، مغفلاً قيمة الصّوت المفرد في مساحته الصّوتية ومدّته الزمنية، متغافلاً عن طرق الإنشاد[٢٤].

ومن الذين يشاطرون الجيّار هذا الرأي؛ محمد توفيق أبو علي[٢٥]، حيث يرى أنّ العروضيين لم يدركوا مسألة التوازن الإيقاعية، فزرعوا بذلك شرخاً كبيراً بين الواقع الإيقاعي، والمعيار الافتراضي، ومن ثمّ وقع العروض الخليليّ في مغالطات كبرى.

ومن الذين رأوا أن هناك تعسّفاً في الافتراض، وفساداً في التأويل، في الدرس العروضي، حسين أبو النّجا، إذ يرى أنّ الباحث أو العروضي المعاصر يقف أمام جملة من التعقيدات التي أوجدها التعسّف في الافتراض وفي التأويل، والتي عمّقها اختلاف العروضيين، ممّا جعل الرؤية غائمة والمدخل إلى العروض صعبًا عويصًا، حيث يتلاشى الوضوح، ويشتدّ التعقيد والارتباك[٢٦].

ويظهر لنا أن في تلك الآراء والاتّهامات كثيرًا من التعسّف والشطط، إذ لا يستند أغلبها إلى المنهج العلمي الموضوعي. فالذي ينبغي– بدءًا– هو أن نفرّق بين المعرفة العروضية الخليليّة، وبين طرائق إيصال تلك المعرفة وتعليمها، أو ما سمّاه أحمد كشك[٢٧]؛ الاعتبارين التعليمي والعلمي في الدّرس العروضي. أضف إلى ذلك أنّ جملة من الأحكام التي أطلقها كمال أبو ديب وغيره، كانت مبنيةً على أساس رخْوٍ، إذ إنّ هناك أبياتًا كثيرةً مصحّفة محرّفة في "العقد الفريد"؛ لابن عبد ربه كان أبو ديب قد اعتمدها، كما أنّ هناك أخطاءً كثيرةً لم يصوّبها المحقّقون في الطبعات – التي اطلعنا عليها– والتي ربّما يدركها المبتدئ بله الباحث المتخصّص.

ثم إن تقسيم كمال أبو ديب كان غريبا، فلم تكن فرضيته صحيحة، ذلك أنه كان منفعلا متحمّسا - كما قال عنه مصطفى حركات- [٢٨] وربما عاد إلى المنطلق الخليليّ بصيغة أخرى وأسماء سمّاها هو.

وأما محجوب موسى، فربما استخفته فورة الحماسة، واستبدّ به الشطط والتكلف- كما قال الباحث حسين بركات-، فانبعث معمّما الأحكام، محاولا أن ينفي ثابتا، أو يهدم قائما أو يجحد واقعا، ولم يتروّ، أو يتريّث، فكان صوته من الأصوات العجلة التي تفعل هذا مستترة بستار التيسير والتجديد[٢٩].

ثم إنّ من الباحثين من ينسى أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو صاحب أوّل معجم في العربية يرتّب ترتيبا صوتيًا، وهو العارف بمدارج الأصوات ومخارجها ومواقعها، ممّا أكّده البحث العلمي اليوم. ومعرفة الخليل بالإيقاع والنّغم لا ينكرها إلاّ جاحدٌ مكابر باتفاق أهل العلم وأصحاب التراجم والطبقات، وهل هناك فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع؟!. فكيف إذن نتّهمه بأنه غفل عن أمور عروضية إيقاعية صوتية، أو لغوية تركيبية، وتراثنا العربي كان مبنيًا على أذن مرهفة مميّزة، ولغة قويمة، وفكر صاف يستند - أساسا- إلى المحكّم السّمعي، والذائقة العربية المتميّزة[٣٠].

فلقد كان الخليل يتبع مسالك الرصد والاستقراء، مستندا في كل ذلك إلى السماع والنقل والرواية [٣١]، فلم يكن مدوّنا ساذجا لظواهر خاصة بوزن الشعر، وإنما كان منظّرا بل هو أكبر منظّر عرفه التاريخ في ميدان العروض [٣٢]

ولذلك فإنّ الإضافات التي طرأت على العروض العربيّ، لم تمسّ الجوهر، ولم تقدّم أيّ بديل جذري، ولقد كشف هذا قول إبراهيم السّامرائي: "جاء الخليل بن أحمد الفراهيديّ نابغة العرب فوضع بما رُزق من ذكاء في الذّهن وصفاء في النّفس "علم العروض"، ولم يستطع مَن خلفه من العلماء، أن يزيدوا على ما أصّل من أصول هذا الفنّ الذي أحكمه... لقد صار لنا ممّا أبدعه الخليل بن أحمد مادّة كاملة في موضوع جديد يشتمل على أصوله وفروعه ومصطلحاته الدقيقة"[٣٣].

وهو الذي له في كل معرفة سهم ومجال (في النحو والتصريف - والشكل

والنقط- والمعجمية- والنغم والإيقاع - والحساب والفقه والفرائض...).

إنّ الخليل بن أحمد الفراهيديّ هو مؤسّس ذلك النظام العروضي، وقد استطاع أن يحدّد معالمه تحديدًا هندسيًّا وإيقاعيًّا، من خلال معطيات شعرية أساسها الاستقراء[٣٠] والمقايسة والموازنة والسّماع، ولا ريب في أنّه كان مدركًا -الإدراك كلّه- ما يحيط بذلك النظام من أمور جزئية بسيطة، وربّما سكت عن أمور رفقًا بنا ورحمة.

إن الأسس التي أقام عليها الخليل نظريته العروضية أسس دقيقة ثابتة تتّسق أجزاؤها وأبعاضها بشكل لافت مثير ومن هذه الأسس:

١- الاستقراء اللغوي الشامل، وإدراكه طبيعة اللغة والأسس التي تقوم عليها في أصواتها ومقاطعها وأوزان صيغها كما يقول: د. زهير غازي زاهد [٣٥]

٢- القياس وأبعاده اللغوية.

٣- التعليل والتسويغ بالاستناد إلى المقايسة والاستقراء وإلى البناء أو الواقع الشعري والاستعمال.

٤- التحليل الرياضي المنطقي لظواهر العروض والإيقاع المختلفة، ومن ذلك:

أ- المقاطع الوزنيّة ولا سيما ظاهرة الوتد.

ب-نظام الدوائر

ج- الزحافات والعلل، أو التبدلات الإيقاعية.

دقة عروض الخليل:

كل شيء في النظام الخليليّ مرتّب ترتيبا دقيقا، ومن أوجه الإعجاز والإعجاب ذلك التوافق الفريد المؤسّس اللافت.

١. الترتيب الصّعدي في النظام العروضي الخليلي:

الاهتزاز (الصوت)← المتحرك والساكن←الأسباب والأوتاد←الفواصل←التفعيلات ← الوزن ← الشطر (القسيم) ← البيت ← القطعة ← القصيدة... إلى غير ذلك.

٢. مبدأ الاتّساق والتواطؤ بين النظامين اللغوي والعروضي:

• مبدأ الثلاثي: (العروض- المعجم):

أ. التفعيلات التي تبتدئ بالوتد المجموع ثلاث ٣ [فعولن – مفاعيلن – مفاعلتن].

ب. التفعيلات السباعية التي تبتدئ بالوتد ثلاث ٣ [مفاعيلن– مفاعلتن – فاع لاتن].

ج. الوتد المفروق يتكون من ثلاثة ٣ أحرف (فهو مسكّن بين محركين)، /٠/.

د. التفعيلات التي تشتمل على الوتد المفروق ثلاث٣ [فاع لاتن– مستفع لن–مفعولات].

هـ. كل تفعيلة من هذه التفعيلات الثلاث ٣ نجدها في ثلاثة ٣ أبحر:

١– فاع لاتن← المنسرد – المضارع – المطّرد .

٢– مستفع لن← المتئد – الخفيف – المجتثّ.

٣– مفعولات ← السريع – المنسرح – المقتضب.

و. التفعيلة السباعية هي ثلاثة ٣ مقاطع [مقطع ثلاثي٣– ومقطعان ثنائيان– أي وتد وسببان].

ز. ضوابط الإيقاع الخليلي في الأوزان ثلاثة ٣ [المعاقبة – المراقبة – المكانفة].

• مبدأ ٢–٣ : ويسميها الأستاذ مصطفى حركات[٣٦] مبدأ الاقتصاد والصعود.

التفعيلة الخماسية:

فعولن: (٣) (٢)

فاعلن : (٢) (٣)

التفعيلات السباعية:

مفاعيلن: (٣) (٢) (٢)

مفاعلتن: (٣) (٢) (٢)

فاع لاتن: (٣) (٢) (٢)

متفاعلن: (٢) (٢) (٣)

مستفعلن: (٢) (٢) (٣)

مفعولات: (٢) (٢) (٣)

فاعلاتن: (٢) (٣) (٢)

مستفع لن: (٢) (٣) (٢)

* ظاهرة الوتد: يحافظ الوتد في العروض الخليلي على موقعه ومرتبته، (هناك ثلاث ٣ مراتب) في كل البحور: أمثلة:

بحر الطويل : المرتبة الأولى (الابتداء) فعولن – مفاعيلن...

بحر المديد : المرتبة الثانية (التوسط) فاعلاتن – فاعلن...

بحر البسيط : المرتبة الأخيرة (التطرف) مستفــعلن– فاعلن...

بحر الخفيف : المرتبة الثانية (التوسط) فاعلاتن – مســتفع لن...

قاعدة لا يتجاور في الشعر وتدان، ولا يتجاور أكثر من سببين.

* نظام الدوائر: يمثل نظام الدوائر المنطلق النظري الذي انطلق منه الخليل بن أحمد –عليه رحمة الله– لحصر الأوزان، وكشف المستعمل والمهمل مثلما كان شأنه في حصر لغة العربية وذلك في معجمه "العين"، حيث اعتمد مبدأ التبديل، والقلب والاحتمال.

ولا شك في أن الدوائر العروضية بإحكام نظامها ودقته تعدّ ملمحا ودليلا على ألمعية الخليل وذكائه،[٣٧] وليست الدوائر العروضية عبثا أو لغوا كما يظنّ بعض المستشرقين وأتباعهم.

فأوزان الشعر العربي لم تنشأ متناثرة منعزلة بل إنها نشأت متآلفة منسجمة، وهي تسبح في فلك إيقاعي واحد، وفي بنية كبرى، ومن عناصر هذه البنية الدائرة العروضية التي تمثل أصناف التكافؤ وفق العلاقة الدورانية بين سلسلة من الرموز[٣٨] كما يرى مصطفى حركات.

وهذا الذي جعل الفرنسي "جاك روبو" (Jaque Roubaud) يفضل اختيارات الخليل على كل الاختيارات، ويعجب بتقنين الخليل للغة العربية (تركيبا ووزنا)، انطلاقا من السواكن والمتحركات[٣٩].

واللافت أن الدائرة الخليلية لم تستند إلى التجريد والتنظير فحسب، بل إنها راعت البناء والاستعمال والواقع الشعري ويظهر ذلك في:

* تقديم المركّب على البسيط، ومثال ذلك: (الدائرة الأولى ١) دائرة المختلف، حيث يتقدم الطويل وهو ذو تفعيلتين أصليتين (فعولن – ومفاعيلن) وهو الوزن الذي كان

شائعا في الشعر العربي القديم.

* مسألة البحور المجزوءة، (المديد – الهزج – المضارع – المقتضب– المجتث).

* تبتدئ الدوائر العروضية بالوتد إلا الدائرة الرابعة (المشتبه، السريع). والعلّة في ذلك، أن السريع أشيع من المضارع (الذي تبتدئ تفعيلته بالوتد)، وأن المضارع بحر مجزوء وجوبا، وأن (مفاعيلن) لا ترد بحسب الواقع الشعري سالمة، بل لابد من المراقبة [زحاف أحد السببين وسلامة الآخر].

* نظام الزحافات والعلل (التبتلات الإيقاعية): إن القواعد الإيقاعية– عموما – ليست قواعد خرافية[٤٠] وهمية وإنما هي جبلة وفطرة، فطر الإنسان على تحسّسها وإدراكها، ولا شك في أن إدراك تلك القواعد هو مما يتفاوت الناس فيه، غير أن هناك ملامح عامة يدركها عامة الناس بالسليقة والذوق، وخفايا أخرى لا يدركها إلا الخاصّة.

لذلك قسم الخليل بن أحمد – رحمه الله – تلك التبتلات الإيقاعية، وميّز بينها وفق بعض القوانين التي تتحد مع النظام العروضي جملةً (نظريةً واقعا).

فقد جعلها "وهو يحدد العلاقة بين الوحدات المختلفة وسيلةً لتميز إيقاع بحر عن آخر، لا وسيلةً لخلط إيقاع هذا بذاك وإدماجه فيه"[٤١].

والزحافات ليست أوبئة – كما كان يرى ميخائيل نعيمة– وليست عبئا على العروض ثقيلا، كما يرى بعض الباحثين والدارسين، وإنما هي تنويعات، أو كما أسميناها "تبتلات إيقاعية"، تغني الشعر العربي وتثريه، حيث إنّ متأمّلها يدرك تلك القوانين الدقيقة التي تحكمها، ويظهر ذلك من خلال:

* ضبط المفاهيم والأسس التي بنيت عليها:

أ. الزحاف يصيب ثواني الأسباب.

ب. العلة تصيب الأسباب والأوتاد.

ج. لا يلتزم الزحاف غالبا.

د. العلة تلتزم غالبا ولا سيما في النهايات (الأضرب).

هـ. تقسيم الزحافات والعلل وترتيبها، وفق الذائقة الخليلية التي لم تخرج عن الأسس

العلمية الإيقاعية التي أثبتها دارسو الموسيقى والإيقاع الآن، فكان منها: السائغ، والحسن، والصالح، والمقبول، والثقيل، والقبيح...

بل إنّ بعض الزحاف يكون أفضل من السلامة والتمام، كالخبن، في الخفيف والطيّ في المنسرح، وهذا ما يؤكد استناد النظرية الخليلية إلى الواقع الشعري، ولذلك يرى ابن واصل الحموي،(٤٢) أن "بعضها إذا لم يزاحف نبا الطبع السليم عن قبوله، وإذا زوحف قبله واستحلاه".

و- تحديد الضوابط التي تحكم نظام الزحافات والعلل (التبدّلات الإيقاعية) كالمعاقبة والمراقبة والمكانفة، استنادا إلى البناء أو الاستعمال والواقع الشعري.

ولقد أنصف أحمد كشك - برأينا- الخليل بن أحمد الفراهيديّ، حين نظر إلى العروض العربيّ نظرة كلّية شاملة (غير تجزيئية)، فقال في كتاب آخر: "تبدو براعة الفكر الإنساني في نتاج من أخذوا على عاتقهم، أن تكون رؤيتهم رؤية تسير تجاه الشمول، وتتنزّع إلى الوعي بكل أطراف موضوعاتهم ونظرياتهم، والخليل بن أحمد- الذي يحقّ للحضارة العربية أن تجعله مفخرة لها، ومصداقا على نضوجها ووعيها- رائد من رواد الفكر الإنساني الذي وعى في نتاجه طاقة الشمول، ومصداق ذلك أن رؤيته لنظام الإيقاع الشعري تجمع بين جانب المثال وجانب الواقع، أي تجمع بين النظام والاستعمال، في صورة تنبئ عن نفاذ بصيرة تؤكّد الإحساس بما هو موجود، والتطلّع إلى ما يمكن وجوده، وفي سبيل هذا الجمع، لم يكُ نظام الخليل في رصد إيقاع الشعر وتفسيره معتمدًا على منظور واحد فحسب، بل بانَ حدّ العروض عنده منوطاً بفهمٍ يأخذ من الرياضة تجريدها، ومن اللّغة واقعها، ومن الموسيقى فنّها"(٤٣).

أفهل نقول بعد هذا؛ إنّ الخليل قد غفل عن أشياء كثيرة في العروض والإيقاع الشعريّ، وهو الذي ترك المجال واسعًا فسيحًا لمن أراد أن يمدّ الشعر العربي بإيقاعات وأنغام أخرى، يسيغها الذّوق ولا ينبو عنها، ولعلّ ذلك قد جلب له عتاب قوم ولومهم، وكان ابن عبد ربّه قد أخذه بذلك وعاتبه في اختصار الفرش(٤٤) فقال:

ولا نقول غير ما قد قالوا لأنه من قولنـــا محـــــال
وإنه لـــو جاز في الأبيات خلافها لجاز في اللغـــات
وقد أجاز ذلك الخليـــــل ولا أقول فيه ما يقـــــول
لأنه ناقض في معنـــــاه والسيف قد ينبو وفيه ماه
وقد يـــزل العالم النحرير والحبر قد يخونه التحبير
وليس للخليـــل من نظير في كل ما يأتي من الأمور
لكنه فيـــه نسيـــج وحـــده ما مثله من قبلـــه وبعـــده

وكذلك الزّجاج [٤٥] في كتابه "العروض" المحقّق أخيراً.

وهل يمكن أن نقول بعد هذا كلّه، إن زوايا كثيرة في النظام العروضي ما زالت مجهولة خفية، وهل أخطأت "جوليا كريستيفا" حين ذكرت الخليل بن أحمد في كتابها "اللغة ذلك المجهول" فقالت: "لم يكن الخليل بن أحمد الفراهيديّ عالم أصوات وعلامة فحسب، بل كان أيضا عالما منظّرا بارعا في الإيقاع الموسيقي".؟

الحواشي.

(١) يراجع: حسين نصّار، القافية في العروض والأدب، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ج. م. ع، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٣٣.

(٢) يراجع: أبو علي الحسين بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابـــه ونقـــده، تحقيـــق: عبدالحميد هندلوي، ج١، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، لبنـــان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص١٢١. ومحمد بوزواوي، تاريخ العروض من التأسيس إلى الاستدراك، دراسة في نشأة علم العـــروض وتطوّره، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٢م، ص١٢.

(٣) عبد الرحمن المغربي، تاريخ العلاّمة ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتـــدأ والخبـــر، م١، ج٢، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ص١١٠٤.

(٤) المرجع السابق، ص١٠٩٧-١٠٩٨.

(٥) يراجع: إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ط٣، مطبعة لجنة البيان العربي، القـــاهرة، مـــصر، ١٩٦٥م، ص١٧. وكذلك: سيد البحراوي، موسيقى الشعر عند شـــعراء أبوللـــو، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ج. م. ع ١٩٩١م، ص٣.

(٦) يراجع: شعبان صلاح، موسيقى الشعر بين الاتباع والابتداع، ط٣، دار الثقافة العربية، القاهرة،

ج. م. ع، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص٩، وكذلك: محمد حماسة عبد اللطيف، البنـــاء العروضـــي للقصيدة العربية، مكتبة الزهراء، عابدين، ج. م. ع، ص٧.

(٧) يراجع: صلاح يوسف عبد القادر، في العروض والإيقاع الشعري، دراسة تحليلية تطبيقيـــة، ط١، شركة الأيام، دار الملكية، الجزائر، ١٩٩٦-١٩٩٧م، ص ٢١، وكذلك: ابن خلـــدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، ج٢، ص١٠٩٨.

(٨) يراجع: المحلي: محمد بن علي، شفاء الغليل في علم الخليل، تحقيق: شـــعبان صـــلاح، ط١، دار الجيل، بيروت، لبنان ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٤٦، وكذلك: محمد العروضي: أبو الحسن أحمد بـــن محمد، الجامع في العروض والقوافي، تحقيق: زهير غازي زاهد، هلال ناجي، ط١، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٣٥.

(٩) يراجع: أحمد محمد الشيخ، دراسات في علم العروض والقافية، ط١، المنشأة العامـــة للنـــشر والتوزيع، طرابلس، الجماهيرية الليبية، ١٩٣٤و. ر/١٩٨٥م، ص٩٠، وكذلك محمد حماسة عبد اللّطيف، البناء العروضي للقصيدة العربية، ص٣.

(١٠) يراجع: الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة، كتاب العـــروض، تحقيـــق ودراســـة: ســـيد البحراوي، ط١، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٩٩٨م، ص١٨ (المقدمة). وكذلك: شكري محمد عياد، موسيقى الشعر العربي- مـــشروع دراســـة علميـــة، ط١، دار المعرفة، القاهرة، ج. م. ع ١٩٦٨م، ص٢٥.

(١١) يراجع: مهدي المخزومي، عبقري من البصرة، ط٢، دار الرائد العربي، بيـــروت، لبنـــان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٩٤.

(١٢) يراجع: ابن النّديم، محمد بن إسحاق أبو الفرج، الفهرست، تحقيق: الشيخ إبراهيم رمـــضان، ط١، دار المعرفة بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص٦٥، ٦٦. ويراجع: القفطي، الـــوزير جمـــال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبـــراهيم، ج١، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، مـــصر، مؤســـسة الكتـــب الثقافيـــة، بيـــروت، لبنـــان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٣٧٧، ٣٨١. ويراجع: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيـــروت، د. ت، د. ط، ص٢٤٥، ٢٤٦. ويراجع: أبو الطيّب اللغوي، كتاب مراتب النحويين، تحقيق: محمـــد زينهم محمد عزب، دار الآفـــاق العربيـــة، القـــاهرة، ج. م. ع ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص٤٦-٥٣. ويراجع كذلك: الذهبي، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعـــلام النـــبلاء، ج٧، ط١، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، علي أبو زيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٤٢٩-٤٣١. ويراجع: ياقوت الحموي، شهاب الدين عبد الله الرومي البغدادي، معجم الأدباء، المعروف بـــ (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنـــان،

١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٣٠٠-٣٠٣.

(١٣) عبقري من البصرة، ص٣٠.

(١٤) يراجع: في العروض والإيقاع الشعري، ص٢٣.

(١٥) أبو الحسن أحمد بن زكرياء الرازي اللغوي، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها، وسنن العرب في كلامها، تحقيق: د. عمر فاروق الطباع، ط١، مكتبة المعارف بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص٤١-٤٢.

(١٦) يراجع: النقد الأدبي وقضايا الشكل الموسيقي في الشعر الجديد، دار الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ١٩٨٥م، ص١٩٩.

(١٧) أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: درويش جويدي، ج١، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص٩٢.

(*) هو بزرخ: وليس برزج كما أورده المحقق... ويقال إنّه كان كذّابا لا يؤتمن.

(١٨) يراجع: العروضي، الجامع في العروض والقوافي، ص٧ (الرأي للمحقّق).

(١٩) المرجع السابق، ص٦٠.

(٢٠) يراجع: صفاء خلّوصي، فن التقطيع الشعري والقافية، ط٥، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص٤٤٥.

(٢١) يراجع: في البنية الإيقاعية للشعر العربي، نحو بديل جذري لعروض الخليل ومقدّمة في علم الإيقاع المقارن، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٨١م، ص٨، ٥١٢، ٥١٣.

(٢٢) المرجع السابق، ص٥٢٤.

(٢٣) يراجع: مشكلات عروضية وحلولها، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ج. م. ع، ١٩٩٨م، ص٧٠.

(٢٤) يراجع: موسيقى الشعر العربي، قضايا ومشكلات، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ج. م. ع، ١٩٩٥م، ص١٤.

(٢٥) علم العروض ومحاولات التجديد، ط١، دار النفائس، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٢٦، ٢٧.

(٢٦) يراجع: في أصول العروض، نشر خاص، البليدة، الجزائر، ١٩٩٨م، ص٩-١١.

(٢٧) يراجع: الزّحاف والعلّة، رؤية في التجريد والأصوات والإيقاع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ج. م. ع، ١٩٩٥م، ص١٠.

(٢٨) يراجع: مصطفى حركات، نظرية الوزن، الشعر العربي وعروضه، دار الآفاق، الجزائر ٢٠٠٥م، ص٣١٧. ٣١٩.

(٢٩) يراجع: بحثه، العروض.. المشكلة والحل، - عرض ونقد، مجلة الدراسات اللغوية، المجلد

السابع، ع٤، شوال، ذو الحجة ١٤٢٦هـ/ نوفمبر، ديسمبر ٢٠٠٥م، الرياض المملكة العربية السعودية، ص١٩٥.

(٣٠) يراجع: محمد طارق الكاتب، موازين الشعر العربي باستعمال الأرقام الثنائية، ط١، مطبعة مصلحة الموانئ العراقية، البصرة، العراق، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص٢٠.

(٣١) يراجع: حسين بركات، العروض... المشكلة والحل، مجلة الدراسات اللغوية، ص٢١٢، ص٢٣١.

(٣٢) يراجع: مصطفى حركات، نظرية الوزن، ص٣٠٨.

(٣٣) محمد طارق الكاتب، موازين الشعر العربي، ص١٥.

(٣٤) يراجع: أحمد كشك، الزّحاف والعلّة، رؤية في التجريد والأصوات والإيقاع، ص٩.

(٣٥) يراجع: لغة الشعر وعروضه.

(٣٦) يراجع: نظرية الوزن، ص٣٢٥.

(٣٧) يراجع: حسين بركات، العروض... المشكلة، والحل، ص٢٣٥، وكذلك: عبد الحميد الراضي، شرح تحفة الخليل، مطبعة العاني، بغداد ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص٣٨، ٣٩.

(٣٨) يراجع: نظرية الوزن، ص١٠-١٧.

(٣٩) المرجع السابق، ص١١، ١٢.

(٤٠) يراجع: المرجع السابق، ص٢١.

(٤١) محمد العلمي، العروض والقافية: دراسة في التأسيس والاستدراك، ط١، دار المعارف، القاهرة، ج.م.ع ١٩٨٤م، ص١٦٣.

(٤٢) الدر النضيد في شرح القصيد، ص٦٨، ٦٩، نقلا عن: حسين بركات، العروض.. المشكلة والحل، ص٢٠٨.

(٤٣) محاولات للتجديد في إيقاع الشعر، ط١، مطبعة المدينة، القاهرة، ج. م. ع، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٧. ويراجع كذلك: خلفان بن ناصر الجابري، رؤية خاصة حول الدوائر العروضية، مجلة نزوى، ع٣١، مؤسسة عُمان، مسقط، سلطنة عُمان، ربيع الثاني، ١٤٢٣هـ/ يوليو ٢٠٠٢م، ص١٠٥، ١٠٦.

(٤٤) يراجع: ابن عبد ربّه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، شرحه وضبطه أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، ج٥، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٤٤١، ٤٤٢.

(٤٥) يراجع: الزجّاج، كتاب العروض، تحقيق: سليمان أبو ستة، www.arabic_prosody.150m.com.

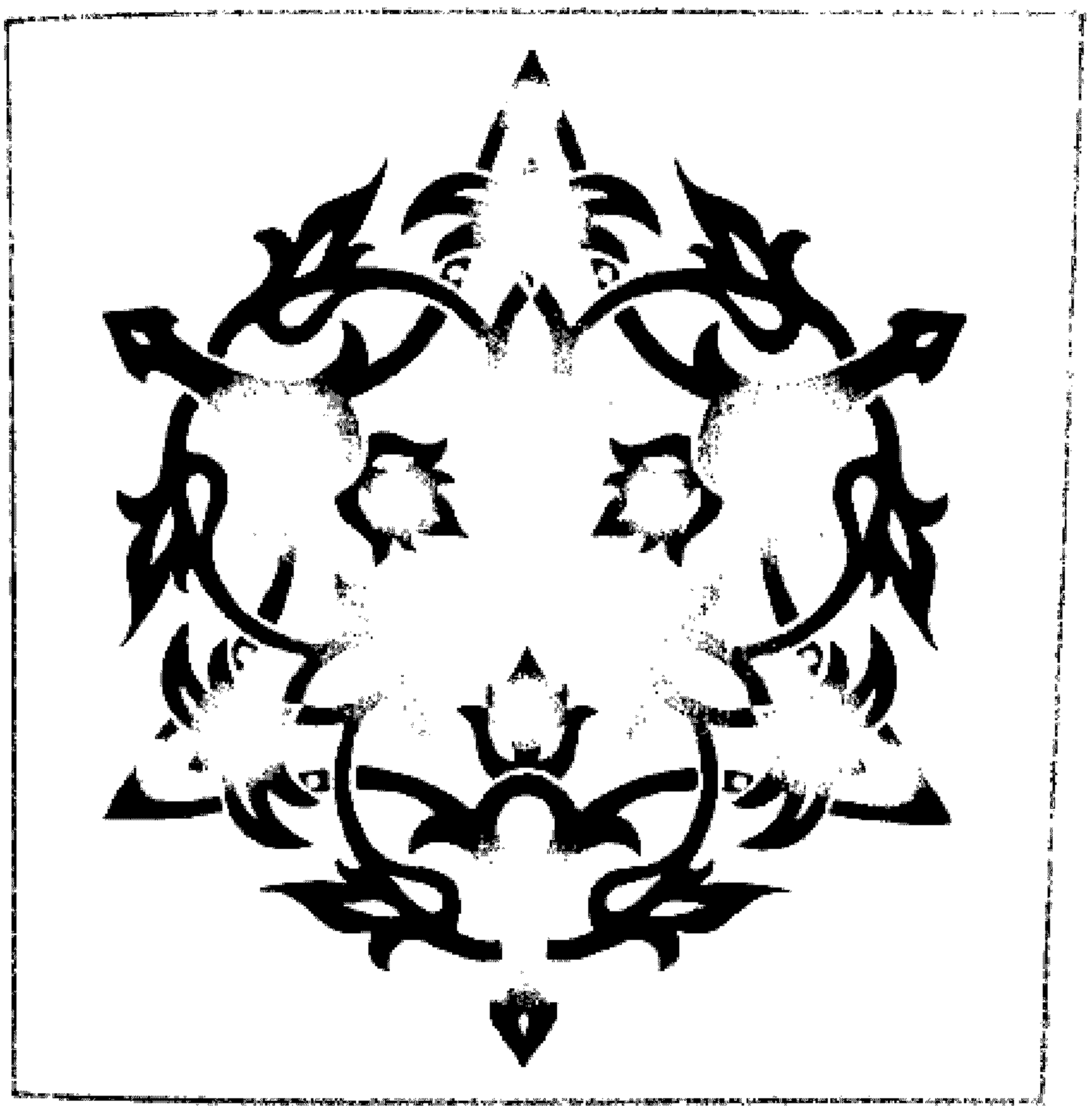

الخليل بن أحمد عروضيّاً

د. أحمد بن عبد الله السالم

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ السعودية

الخليل بن أحمد عروضياً

د. أحمد بن عبد الله السالم

توطئة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فإن لعلم العروض أثرَه البالغ في تذوُّق الشعر العربيّ والتأثر بموسيقاه، وفي توجيه الذوق إلى السليم منه، وكشف صحيحه ومكسوره ثم هو، أيضاً، من أهم أسلحة النقد فلا غنى لناقد الشِّعر عنه.

يقول الدكتور محمد أبو حمدة: "إنّ في علم العروض وأسراره من البدهيات والنظريات ما يجعله يداني هندسة إقليدس اتساقاً ومنطقاً وترابط هوادٍ وأعجاز إن لم يكن يوازيها"(١).

لقد أعجبتني هذه الكلمة المنصفة بحق هذا العلم وواضعه الذي أبدع وضعه وتأصيله أيّما إبداع، علماً بأن لغة الإنصاف يجيدها كل من تخلّق بأخلاق العلماء.

الخليل نسيج وحده في الذكاء والفطنة والإبداع والورع، لقد فطن – وهو الموسيقي البارع – إلى الإيقاع الشعري، وأنه مبنيٌّ على مقاطع أشبه بالمقاطع الموسيقية وأن هذه المقاطع بتضامّها تكوّن أجزاء هي ما يسمى بالتفعيلات العروضية.

لقد قام الخليل باستقراء ما وصل إليه من الشعر العربي فوجده لا يخرج عن ستة(٢) عشر وزناً، تجمعها خمس دوائر، ثلاثٌ بسيطة تتركب من تفعيلات متشابهة خماسية أو سباعية، وثنتان مركبتان تفعيلات كلٌّ منها خماسية وسباعية في آنٍ واحد.

ومع أن الخليل بن أحمد لم يدّعِ الكمال لما وضعه وأبدعه، إلا أنني أؤكد كما أكّد كثيرون غيري أنّ عمله عليه مآخذ يسيرة جداً ليست من الكثرة بحيث يؤلف عروضٌ غير عروض الخليل(٣).

مهما قيل وألّف اعتراضاً فإن عروض الخليل القادح الأول لأذهان كلٌّ من

يأتي بعده إذ لولاه لما فطن أحد لما أتى به أو بعضه.

وفي الختام؛ لا أدلّ على تمكن الخليل من علم العروض وضعف كل من اعترض عليه من تآليفه المتصلة به، ومنها: كتاب النغم، وكتاب العروض، وكتاب الإيقاع، وكذلك معجم العين الذي رتّبه على مثال ما رتب به الدوائر العروضية، حتى إن القارئ لهذا المعجم إذا كان قد قرأ عن الدوائر العروضية ليكاد يجزم بأن مؤلفهما واحد.

الخليل بن أحمد في نظر من جاء بعده من العلماء.

أوثر أن أبدأ هذه الأقوال التي هي قليل من كثير قيل في عبقرية الخليل وكلها بسبب علم العروض؛ - لأن العلوم الأخرى يشاركه فيها علماء آخرون- أوثر أن أبدأها بقول أحد الرهبان وقد ناظر الخليل فأعجبته عبقريته:

يقول: "إنك لأوحد الدهر حقًّا"[٤]. وهذه العبارة لم تأتِ من أحد تلامذة الخليل أو أقرانه من العلماء.

ويقول أبو سعيد السيرافي: "وهو أول من استخرج، وحصر أشعار العرب بها"[٥].

ويقول القفطي: "نحويٌّ، لغويٌّ، عروضيّ، استنبط من العروض وعلله ما لم يستخرجه أحد ولم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم"[٦].

قيل لابن المقفّع: كيف رأيت الخليل؟ فقال: "رأيت رجلاً عقله أكبر من علمه"[٧].

يقول حمزة الأصفهاني: "إن دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول من الخليل، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم آخذه ولا عن مثال تقدمه احتذاه"[٨].

وقد نقل القفطي عن ابن خلكان قوله: "إن الخليل كان يقطّع بيتاً من الشعر فدخل عليه ولده في تلك الحالة، فخرج إلى الناس، وقال: إن أبي قد جنّ، فدخل الناس عليه وهو يقطع البيت فأخبروه بما قال ابنه فقال له:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ... أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتي فعذلتني ... وعلمت أنك جاهلٌ فعذرتكا"

وهو شعر العلماء تلمس منه العقل الراجح، والنظر الصائب، وآية العقل،

والحكمة قوله: "أربعٌ تعرف بهن الأخرة: الصفح قبل الاستقالة، وتقديم حسن الظن قبل التهمة، والبذل قبل المسألة، ومخرج العذر قبل العتب"(٩).

ويقول ابن العماد: "استنبط علم العروض وحصر أقسامه في خمس دوائر واستخرج منها خمسة عشر بحراً"(١٠).

ويقول صاحب دائرة المعارف الإسلامية: "يتفق كتّاب السير جميعاً على أن الخليل بن أحمد هو واضع علم العروض وقواعده"(١١).

ويقال: إن أبا إسحاق الموصلي لما وضع كتاباً في النغم عرضه على إبراهيم بن المهدي فقال له: أحسنت يا أبا محمد وكثيراً ما تحسن، فقال الموصلي: بل أحسن الخليل؛ لأنه جعل السبيل إلى الإحسان(١٢).

الأسس:

هناك من يقول بأن أسس علم العروض كانت موجودة من قبل، وأن الفضل يرجع إلى الخليل في إبرازه تلك الأسس والقواعد وصقلها والتقنين لها حتى خرجت لنا علماً ذا أصول وقواعد(١٣).

ومهما يقال فالمعروف أن الوزن العروضي كان موجوداً قبل الخليل لكنه لم يُعرف بهذا الاسم ولم توزن به الأوزان العربية، والحكايات التي تُقال عن القادح الأول لهذه الأوزان في ذهن الخليل بعضها لا يصدَّق، فحكايات مروره بسوق الصفارين والحدادين رويت أيضاً عن (فيثاغورس) وأنه اخترع نسب النغم من أصوات المطارق وكذلك قضية طلبه من الله أن يعلمه علماً لم يعلمه أحداً من قبله، وكذلك نستبعد اعتماده على ما ذكره له الشيخ الذي يعلم غلاماً بيت التنعيم أو التنغيم نعم لا، نعم لا لا، نعم لا.

وهذا أمر مستبعد؛ لأن معاصري الخليل أجمعوا على أنه أول واضع لعلم العروض، يقول الشاعر:

قد كان شعر الورى صحيحاً من قبل أن يخلق الخليلُ

يقول ابن خلكان: "إن دولة الإسلام لم تخرج أبدعَ للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول من الخليل، وليس على ذلك برهانٌ أوضح من علم

العروض؛ الذي لا عن حكيم أخذه، ولا على مثال تقدمه احتذاه"[١٤].

يقول الشيخ جلال الحنفي: "قد يكون علم الخليل بالأوزان الصرفية هو الذي نبه إلى اتخاذ أوزانٍ تماثلها في قياس ملفوظات الشعر ومقابلة مقاطعه"[١٥].

استنبط الخليل من علمي العروض والقافية ومن علل النحو والتصريف ما لم يستنبط أحد، وأتى منهما ما لم يسبقه إلى مثله سابق، يقول عنه ابن المقفع: "رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه".

والخليل هو القائل:

اعمل بعلمي ولا تنظرْ إلى عملي ينفعكَ علمي ولا يضررك تقصيري

كذلك بصره بالمعجم وتقليبات مواده اللغوية أفاده كثيراً في ترتيب المقاطع الصوتية على الدوائر العروضية.

كل هذه العوامل ساعدته على أن يضع علمه الجديد على نظام التفعيلات العروضية التي كل واحدة منها تتكون من مقطعين صوتيين فأكثر، وكل مقطع يتكون من حركة وسكون فأكثر حيث إن مجموع التفعيلات في البيت الواحد تلحقه ببحر دون آخر ويختلف إنشاد هذا البحر أو ذاك بحسب ما بداخله من التفعيلات العروضية.

ولأن الخليل -رحمه الله- يدرك أن مثل هذه المقاطع الصوتية وما يعتريها من التغيير لا يمكن أن تترسخ في الأذهان إلا إذا قرّبت إليها بربطها بالبيئة العربية، ربطها بجعل بيت الشّعر في مقابلة بين الشّعر ففيهما العروض والضرب والأسباب والأوتاد والفواصل والصدر والعجز[١٦]. وهذا أقرب إلى الذهن وألصق من مقاطع لا يجمعها جامع ولا يمكن أن يدركها مدرك.

وقد أحسن أبو العلاء المعري[١٧] في وصف التقارب بين بيت الشّعر وبيت الشّعر بقوله:

والحسن يظهر في شيئين رونقُهُ بيتٌ من الشّعر أو بيتٌ من الشّعر

وكذلك فيما يتعلق بعلم القافية فقد رتّب الخليل بيت الشّعر ترتيب بيت الشّعر، فالإقواء وهو اختلاف إعراب حرف الروي مأخوذ من أقوى القائل الحبل إذا جاءت قوةٌ منه تخالف سائر القوى وسمي السناد سناداً من مساندة بيتٍ إلى بيتٍ

إذا كان كل واحد منهما يُلقى على الآخر، والإيطاء من طرح بيت على بيت وأصله أن يوطى شيئاً شيئاً وهذا كله في لسان العرب[١٨].

ولا يلتفت إلى قول من[١٩] قال إن واضع علم القوافي هو مهلهل بن ربيعة خال امرئ القيس، فالخليل هو أوّل من أصله بدءاً من التعريفين المشهورين لعلم القافية.

لكل ما سبق قوله من تأسيس الخليل وتأصيله سندٌ من مكونات شخصية الخليل التي تنطوي على قدر كبير من الحس المرهف والفطنة والذكاء وصفاء الذهن، يضاف إلى ذلك بصره بالنغم والإيقاع والكتابة فيهما.

طرف من دفاعي عن عروض الخليل:

الاعتراض على الخليل كان منذ القدم وهو إذا كان له وجهٌ يكون مقبولاً، والخليل بن أحمد نفسه لم يدّع الكمال، فالأخفش اعترض عليه في بحري المضارع والمقتضب، ويقال: إنه زاد المتدارك، والجاحظ يقول في وصف العروض: "كلام مجهول يستكدّ العقل بمستفعل ومفعول"[٢٠].

ويقول السكاكي: "إن هذا الفن لكثرة ما اخترع فيه من الألقاب وأنشئ فيه من الأوضاع يتصور الكلام فيه من جنس التكلم بلغة مخترعة"[٢١]. علماً بأن السكاكي ألّف في العروض على نهج الخليل، وقد سمّى الخليل البحر الزاخر وعلى من وجد شعراً لم يحصره الخليل إلا بعده من نقص الحصر[٢٢].

ومن المحدثين الذين اعترضوا على منهج الخليل: الحسّاني حسن عبد الله، والأستاذ كمال إبراهيم، والأستاذ ممدوح حقي، والدكتور عبد الرزاق محيي الدين، والدكتور إبراهيم السامرائي، والدكتور شكري محمد عياد، والدكتور إبراهيم أنيس وغيرهم كثير[٢٣]. وسأعرض في هذا الدفاع لبعض الاعتراضات على الخليل مما أريد بها وضع بديل لعروض الخليل دون ذكر أصحابها محاولاً تفنيد ما جانب الصواب، وما كان من الضعف بحيث يكتب عليه بعض النقوض.

- أحدهم يرى أن تقطيع البيت:

ليس كلُّ من أراد حاجةً ثم جدّ في طلابها قضاها

على طريقة الخليل:

فاعلاتُ فاعلاتُ فاعلا فاعلاتُ فاعلاتُ فاعلاتن

فاعلن فاعلن

فيه من التعسف والثقل ما يدعو إلى رفض هذا التصور ثم يقطّعه على الشكل الآتي:

o/Xo//o// Xo//o//Xo//o/ o// o// X o//o//Xo//o/

ويثني على طريقته بقوله: "ليس هنا من زحافات أو ثقل أو تعسف، وهذه ميزة لا تتكر لهذه الطريقة".

وأعجب شديد العجب هل الزحافات إلا نقص صوتٍ أو زيادته فرضته طبيعة الإيقاع.

هذا البيت يعدّه من الرمل وتفعيلاته عنده:

فاعلن فا فاعلن فا فاعلن فا

فهل تنطبق على البيت؟ ثم إذا أتينا إلى التفعيلة الثانية عند الخليل صوتيا بانتهاء مقاطع التفعيلة نجد أنها (فاعلاتْ) ويقابله من حروف الشاعر (من أرادْ) وعند المجدد (لمن أرا) انظر الثقل الشديد الحاصل من المتحرك الأول الذي هو ثاني اللامين من (كلٌّ) ثم (دحاجتن) هذا هو التعسف بعينه، فالخليل يقول (حاجتن) والمجدد يقول (دحاجتن) وللسامع الحكم.

ثم هذا السبب الخفيف الذي برز في آخر البيت (/o) هل يعقل أن يحصل هذا، وماذا نسمّي هذه التفعيلة، وإذا افترضنا ضمّها إلى ما قبلها لتكون التفعيلة من ثمانية أحرف جدلاً فماذا يكون اسم التفعيلة هل هي (علن علن فا) وهل هي تفعيلة وهل وردت في أصل وزن المديد عنده أرى أنها من باب: لا تته عن خُلُقٍ..

ألسنا عرباً نريد تفعيلة ذات حروف لها معنى، ما معنى (علن فا) أو (فافا علن) (أو (فافافا) أو (علن علن).

ثم إن الخليل في البيت قطّع الصوت الذي ورد عن الشاعر، الشاعر لم يحسن في آخر البيت إذ لو انتهى البيت عند (قضى) وليس قضاها، لكانت الموسيقى جيدة/

فاعلاتْ فاعلاتْ فاعلن فاعلاتْ فاعلاتْ فاعلن

أي حذف غير ما حذفه الخليل فهو أمين على أصوات الحروف.

• البيت:

فدعوا أبا سعيد عامراً وعليكم أخاه فاضربوه

يقول: بتصور وجود زحاف في (كاف) (عليكم) ثم إشباع ميم جمع الذكور بعدها والهاء في (أخاه) وفي كل ذلك ثقل واضح.

أما تبعاً للطريقة الجديدة فليس هناك من زحاف، ولا حاجة لإشباع (الهاء). وتبقى ضرورة واحدة هي إشباع (الميم) ويكون الرمل في البيت مثله مثل الرمل السابق.

أقول: ما الذي يبعد الزحاف ويبقيه هل هي رغبة الكاتب أم الصوت الإيقاعي الذي فرضته قراءة البيت قراءة صحيحة أو إنشاداً منغماً.

إنّ إشباع ميم الذكور (عليكمْ) واجب ولا يتصور إلا هو؛ لأنها منطوقة حسب قاعدة الخليل العامة ما ينطق يكتب أما حذفه لهاء أخاه فهذا أيضاً لا يجوز، كيف تحذف صوتاً موجوداً ليس عند الخليل وإنما عند قراءة البيت كما أرادها الشاعر ويقول: قراءته بطريقة الخليل تفترض تحليله كما يلي:

o/o//o/Xo/o//o/ /o///Xo//o/Xo/o//o/X/o///

مع أن تحليله على طريقة الخليل هو الصواب، والدليل على أنه يقع في ما وقع فيه الأوائل قوله: ويكون الرمل في البيت (٩١) مثله في البيت (٩٠) مع أن تفعيلة الرمل الأولى في البيت (٩٠) ليس كل.... الثاني منها ساكن وتفعيلة البيت (٩١) الأولى الثاني منها متحرك فدعوا.. أليس هذا هو الزحاف، ثم أليست التفعيلة الأولى ستختلف عن الأولى في البيت الآخر مع أن البحر هو الرمل أم أنه سيتمحل تفعيلة ليس فيها زحاف وكان هذا هو همُّهُ في تجديده وهل هذا هو التأصيل للعلوم؟

• في البيت:

يا خليليْ أربعا فاستخبرا رسماً بعسفانْ

هذا النموذج ذكره أحد المجددين وقد قرأه قراءة خاطئة حيث يحتمله على أحد القراءتين: يا خليليْ أربعا.... بهمزة أو يا خليليَّ أربعا أيضاً بهمزة والثانية لا تتأتى؛ إلا بحذف الهمزة وهو قد ذكرها في احتماله لقراءته على نظام الخليل مع أن البيت على قراءة التشديد (يا خليليَّ اربعا فاستخبرا) وهذا هو الحسُّ الموسيقي الذي ينقص هذا المجدِّد.

على افتراضه الخاطئ قطعه:

يا خليلي بأربعا

o//o//o/o//o/

وبدايته على هذا النحو تجعله من الخفيف في تفعيلتيه الأولى والثانية في حين أنه بيت من الرمل ولا يجعله منه في أوله وآخره إلا على تقطيع الخليل وقراءته.

يا خليلي/ يربعا فاس/ تخبرارس/منبعسفانْ*

فالهمزة لا وجود لها أبداً؛ لأنها وصل كما هو حكم الشاعر نفسه وهو نفسه على القراءة الأولى.

يا خليليْ اربعافس/ تخبرارس/ منبعسفانْ

أما الخطأ الآخر فهو تحريك النون في آخر البيت بالفتح ليمدَّها إشباعاً كما هي قاعدة الخليل في آخر البيت إلا أنه أخطأ في قراءة آخر البيت فهو بعسفانْ بالسكون لتكون التفعيلة (منبعسفانْ) فاعلاتان وقد دخلها التسبيغ بنظر البيت في الإرشاد الشافي (٩٠)، وبغية المستفيد (٤٣) [٢٤]، والعقد الفريد (٤٨٧/٥)، ولسان العرب (٤٣٣/٨) (عسف).

* يقول أحد المجددين: التتابع (/oo) يرد في موضع أخرى من البيت الشعري ويعتبره الخليل مؤلفاً من (/o).

أقول: لا وإنما هو من (/o/) الوتر المفروق ثم زُحِفَ ويطرح قضية قصور نظر الخليل فلم يعترف بالمتتابع (/oo) والذي مثل بوجوده في اللسان العربي بالآية الكريمة (ولا الضالين) حيث سكون الياء والنون.

والرد عليه بالآتي:

ورد هذا التتابع في نصف بحور الخليل وهي سبعة على النحو الآتي:

ضرب المديد المقصور (فاعلاتْ) وضرب الكامل المذال (متفاعلان) وضرب الرمل المسبّغ (فاعلاتان) وضرب السريع الموقوف (مفعولاتْ) وضرب المنسرح الموقوف (مفعولاتْ) وضرب المتقارب المقصور (فعولْ) وضرب المتدارك المذال (فاعلان) والأخفش تلميذ الخليل إذا قلنا إنه زاد المتدارك.

وورود هذا في الأضرب وفي النادر جداً من الأعاريض دليل على أن الخليل لم يتمحّل وإنما ورد هكذا سجية وطبعاً كما ورد عن الشاعر والذي يفرض الإيقاع على صانع القاعدة.

• أحد المجددين يريد أن يلزم الخليل ما لم يلزمه الخليل نفسه يقول:

ما دام الخليل يجعل المتحرك آخر البيت يشبع وجوباً فينشأ بعده ساكن مثل: فحوملِ فحوملي.

فلماذا مفعولات لا تشبع؟

والجواب عن هذا الاعتراض واضحٌ وهو أن مفعولاتْ لم ترد عن العرب لا في آخر الشطر الأول ولا في آخر الشطر الثاني وإنما ورد مفعولا (مفعولن) أو (مفعولاتَ) (مفعولانْ).

والأول كسفٌ والثاني وقف وهذا دليل دقة عمل الخليل رحمه الله والمؤلف لم يمثل ببيت واحد عن العرب ورد في آخره مفعولات المتحركة وحتى لو صنعنا بيتاً ووضعناها فيه لكان إيقاعه بارداً لا تطريب فيه كما لو كان مفعولا أو مفعولاتْ مثلاً لو قلنا:

[بيوتنا بيوتنا مهجوراتْ] ثم أنشدناه لكان غير سائغ بخلاف لو قلنا:

[بيوتنا بيوتنا مهجوراتْ] مفعولات أو [بيوتنا بيوتنا مهجوره] مفعولا (مفعولن)، فالأخير يقبله الذوق والأول يمجُّه الذوق، ولا أدلّ على ذلك من إنشادهما ليرى صاحب الحس المرهف دقة عمل الخليل وعدم التكلف والتمحل والتعسف كما يدعي كثير من المجددين.

كذلك فنظام الخليل قائم على أنّ الإشباع في الموزون وليس الميزان وهـذا النظام لا يتعارض مع الذوق العربي الذي لا يمكن بحال أن يقبل (مفعولاتو) وإنما الساكن عن طريق الإشباع يقابله حرف النون من الميزان أو الألف من الميزان بعد حذف النون أو تسكين أحد حروف الميزان.

* يقول أحدهم:

لسبب ما ينبع من تصور الخليل للميزان الصرفي، فرض حدّاً أقصى على التفعيلات وهو أن تكون سباعية.

وأقول:

المسألة في هذه مسألة ضبط أوزان ينطلق من نظام اللغة التي يتبعها النص الموزون والتقعيد الذي لا يرتكز على أساس وأصل يعدُّ ضعيفاً والتفعيلات العشر متضمنة حروف الزيادة فـ(فاعلاتن) فيها من الزوائد الألف والألف الثانية والتاء والنون ثم في العروض الزيادة أكثر من ذلك لا يقبلها الذوق ولا يستقيم معها الوزن لو قلنا في الشطر الذي افترضناه:

[بيوتنا بيوتنا مهجوراتْ] (مهجوراتن) وحاولنا إنشاده لما استطعنا ذلك ولما جرى على وتيرة واحدة، وبالتالي فالشطر يعدُّ مكسوراً وسببه آخر التفعيلة الثالثة.

إذن المسألة ليست بأن نقول ما نشاء ومن أجل هذا خرج من الأوزان ما يسمّى بالأوزان المولّدة إلى أن انحدرت موسيقى الشعر حتى وصلت إلى ما يعرف بقصيدة النثر.

ولنا أن نقبل مثل هذه الأوزان لكن لا يقال: إن ذلك هو عروض الخليل بصورة أخرى أو هو بديل عن عروض الخليل وإنما تقبل على أنها مرحلةٌ تاليـة للشكل الخليلي يقبله من يقبله ويرفضه من يرفضه.

* يقول أحد الذين يضعون بديلاً لعروض الخليل:

إن الشكل: o/// X o//o/o/ X o//o/o/

يمكن أن يرد في قصيدة بهذا الشكل:

١ – o/// X o//o/o/ X o//o///

٢ – /o/// X /o//o/o/ X /o//o/o/

والخليل يعتبره في الأولى من الكامل وفي الثانية من السريع، مع أنه هو هو لم يتغيّر. وأقول:

الأول من الكامل: متفاعلن متفاعلن متفا (فَعِلُنْ)

/o// /o/// /o/// /o//o/o/ /o///

ولا يجوز أن يكون من السريع بأي حال لوجود (متفاعلن) ///o//o التي لم يدخلها الإضمار.

أما الثاني فهو من السريع بوزن: مستفعلن مستفعلن فعلا (فَعِلُنْ) ولا يمكن أن يريد هذا الوزن (الثاني) في قصيدة وفيها تفعيلة واحدة بوزن (مُتَفَاعِلُنْ) وأكثر ما يأتي الثاني على المشطور من السريع والكامل وهو النموذج الأول لا يأتي مشطوراً.

وهو بهذا يريد البيت الذي مثل به الخليل وهو لأبي العتاهية:

الموتُ بين الخلق مشتركٌ لا سوقةً يبقى ولا ملكُ[٢٥]

فهو: متفاعلن متفاعلن مُتَفَا.

إلا أن في القصيدة ما لا يمكن أن يجعله من السريع؛ لأن أبا العتاهية يقول بعده:

عجباً تشاغُلُ أهل ذي الدنيا وما فيها لهم درَكُ

والتفعيلة الأولى متفاعلن بثلاثة متحركات في التفعيلة الأولى ولا يمكن أن يكون من السريع.

بل بعده أيضاً من القصيدة نفسها:

طلبوا فما نالوا الذي طلبوا منها وفاتهم الذي تركوا

فالتفعيلة الأولى من الشطر الأول والثانية من الشطر الثاني (/o//o///) فكيف يرى هذا المجدّد جواز أن تكون من السريع وهذا دليل أن الخليل لا يؤسس على بيت قدر الإمكان وإنما على قصيدة كاملة فهو يذكر الأبيات على أنها نماذج لأنه لا يمكن أن يأتي بالقصيدة الكاملة فهل قرأها المجدّد ليعترض على عروض الخليل.

أما ما مثّل به الخليل للشكل [/o/// X /o//o/o/ X /o//o/o/] فهو بيت

المرقش الأكبر.

النشر مسك والوجوه دنا نيرٌ وأطراف الأكفِّ عَنَمْ

مستفعلن مستفعلن معلا مستفعلن مستفعلن معلا

فَعِلُنْ فَعِلُنْ

من قصيدته التي مطلعها:

هل تعرف الدار عفا رسمها إلا الأثافيُّ ومبنى الخِيَمْ

حيث يدّعي المجدد بل يفترض أن الخليل يعده مرة من الكامل ومرة من السريع فهو يمثّل بهذا البيت (النشر مسك) فقط؛ لأنه لا يمكن أن يأتي بقصيدة[٢٦] عدد أبياتها ستة وثلاثون بيتاً وإنما أخذ ما يتردد على ألسنة الناس بعد أن رجع إلى القصيدة التي هو منها وقد قرأتها من أولها إلى آخرها فلم أجد فيها مُتَفَاعِلُنْ وإنما وجدت ما يعضد نسبة الخليل إياه إلى السريع وهو ورود بعض تفاعيل الحشو على (مستعلن) التي تحوّل إلى (مفتعلن) والتي لو أردنا جعلها بقية من تفعيلة الكامل (متفاعلن) حيث تكون على (مُتْفَعِلن) أن تفعيلة الكامل بهذه الصفة تكون مخزولة وهو ما أنكره كثير من العروضيين، والمجدد نفسه يطالب بطرح مثل هذا الزحاف المزدوج وهو ينتهي إلى تفعيلة غير مقبولة إلا أن يحور إلى (مفتعلن) فكيف نقدّم الفاء؟ أما لو جعلناها بقية (مستفعلن) لدخلها الطي فقط وهو حسن، كذلك دليل آخر وهو وجود التفعيلة (o//o//) ومعلوم أنها لا يمكن أن تكون بقية تفعيلة الكامل (متفاعلن) وإنما تفعيلة السريع (مستفعلن) والغريب أنه يحاكم الخليل حيث يقول: والأدق أن يعترف بأن القصيدة تنتقل من بحر إلى بحر، القصيدة موضوع الحديث يستحيل أن تنتقل من بحر إلى بحر مع أنها ستة وثلاثون بيتاً.

أما وزن المجدد وهو فاعلن من سبب ووتد ومقلوبه الذي هو فعولن.

فأقول عنها:

١- هذا وزن مأخوذ من تفعيلتي الخليل.

٢- هذه الأسباب والأوتاد التي راح يكررها دون أن يكون لها معنى من خلال تفعيلة لها مثل من اللسان العربي هي نفسها بيت التنغيم أو التنعيم الذي ادّعى

بعض المعترضين على الخليل أن شيخاً كان يعلمه لغلام وهو:

نعم لا نعم لا لا نعم لا نعم لا لا

ويظهر ذلك جلياً في بحر المتقارب فهو عنده

علن فا علن فا علن فا علن فا

نعم لا نعم لا نعم لا نعم لا

ويظهر أكثر فأكثر بل هو مأخوذٌ منه في بحر الطويل الذي هو عنده:

علن فا علن فا فا علن فا علن فا فا

نعم لا نعم لا لا نعم لا نعم لا لا

فهو بيت التنغيم أو التنعيم نفسه وهو بالجملة وزن الخليل إلا أن الخليل أتى بتفعيلة لها وزن موجود في البنية العربية ويؤدي معنى وإيقاعاً مطابقاً للحروف الموزونة فـ (طموحٌ) عند الخليل (فعولن) وعند المجدّد (علن فا) فأيهما أقرب وكيف للمتعلم المبتدئ أن يحفظ وزناً مختلفاً عن إيقاع موزونه.

والهزج الذي هو عنده:

علن فا فا علن فا فا علن فا فا

نعم لا لا نعم لا لا نعم لا لا

إذن أوزانه هي بيت التنغيم نفسه أو معكوسه والدليل أنه احتذى عروض الخليل أنه لم يأتِ بالهزج تامّاً وإنما على الصور التي وضعها الخليل وقال عنها بأن الهزج يأتي عليها.

إن ما اعترض به هذا المعترض لا يرقى بأية حال إلى أن يكون بديلاً لعروض الخليل لعدة أسباب:

الأول : أن التميز والأصالة في وضع قواعد العلوم لا تظهر في هذه المحاولة التي لم تتجح كعشرات المحاولات.

الثاني : لا يمكن أن يحفظ المتعلم الأوزان التي وضعها لتشابهها من جهة وبعدها عن الموزونات في الإيقاع والتصويت وهذا يضعف الثقة بالعروض الجديدة.

الثالث : إن اعتماد إلغاء الزحافات والعلل يتعارض مع ما طالب به وهو أن تكون القصيدة على أكثر من بحر، ثم إن بعض القصائد الواحدة منها ربما تكون من عشرة أبحر، وهذه فوضى في الوزن وإفساد للذوق، مع أن إنشاد القصيدة وغناءها يجعل أبياتها على نمط واحد.

الرابع : هل وثقت الجامعات والمعاهد بهذه العروض الجديدة فاستبدلتها بعروض الخليل وهي التي رأت النور قبل ثلاثين سنة؟ أم أنّ البقاء للأصلح.

الخامس: إذا ألغينا الزحافات والعلل تمت المساواة بين الشعراء في الملكة الشعرية في حين أن عروض الخليل تميز بينهم فالذي لا يرتكبها أو يرتكب القليل منها أقوى ملكة من الآخر فهي من أدوات النقد الرئيسة.

* ردود على الدكتور أحمد سليمان ياقوت في كتابه (عروض الخليل ما لها وما عليها):

مع أن الدكتور أحمد سليمان ياقوت خليليّ المذهب وهو الذي دافع كثيراً عن عروض الخليل ورد على كثير ممن حاولوا النيل منها، إلا أني لا أسلم بكل ما قاله على عروض الخليل، ولي معه وقفات منها:

- في قوله[٢٧]: إن عروض الطويل لم تجئ عند الخليل إلا في صورة واحدة وهي (مفاعلن) وقد أنتجتها الدائرة (مفاعيلن) دون قبض.

أقول: مفاعلن ليست تفعيلة كاملة من التفاعيل فهو يقول: إن الأصل مفاعيلن وهي وإن كانت (مفاعلن) فهي لن تخرج عن الطويل، وقد بنى الدوائر على التفعيلات التامة وهذا دليل على أصالة علمه؛ لأنه يرتكز على ما في اللسان العربي وليس أذواق الشعراء وإلا لبلغت الدوائر ثلاثاً وثمانين دائرة أو تزيد.

* يقول[٢٨]: إن الدائرة أنتجت البحر السريع وهو مكون من (مستفعلن مستفعلن مفعولات) ولكنه لا يأتي إطلاقاً على هذه الصورة بل إن عروضه وضربه لا تخرج عن فاعلن (مَفْعُلا) أو فاعلان (مفعلاتْ) وفَعِلُنْ (فَعُلا).

أقول:

١- الثلاثة متفرعة عن (مفعولاتْ).

٢- الذي يدل على أصالة (مفعولات) في أصل وزن البحر السريع: أن المشطور

منه وزنه مستفعلن مفعولا مفعولن

والمشطور نصف بيت التزم حرف رويّه في جميع أبيات القصيدة فصار الشطر بيتاً كاملاً و(مفعولا) لا يمكن أن تكون تطوراً لـ (فاعلن) لو افترضنا على رأي الأستاذ أن وزن السريع:

مستفعلن مستفعلن فاعلن

- ما قيل[٢٩] عن الطويل يقال عن المنسرح فالتفعيلات التي هي تطور عن مستفعلن في الضرب والعروض لم تخرجه عن المنسرح وهذه التطورات لا يمكن أن تكون تفعيلات جديدة؛ لأن التفعيلات كما قلت مرتبطة بلسان العرب فـ(مفتعلن) المحولة عن (مستعلن) المطوية لا يمكن أن تكون تفعيلة مستقلة يقبلها الذوق السليم.

وبرغم هذا فالدكتور ياقوت لا يعدّ محاولات المجددين شيئاً بإزاء عروض الخليل فضلاً أن تكون بديلاً عنه كما أنه فنّد كون الخليل أخذ علمه ومصطلحاته عن الهنود وهو ما ادعاه البيروني.

كما أنه فنّد ادعاء الجوهري الذي يرى الاستغناء عن (مفعولات) مفروقة الوتد بقوله إن (مستفع لن) مفروقة الوتد تماثلها في الكم الصوتي فهما يتكونان من سببين خفيفين ووتد مفروق والرد عليه من وجهين: أحدهما تكفل به الدكتور ياقوت بقوله: إن الوتد المفروق في (مفعولات) في الآخر وفي (مستفع لن) في الوسط.

وأضيف: إن الفارق الأهم هو أن إيقاع كل تفعيلة يختلف عنه في الأخرى فإذا ضمت إلى مثيلتها في بيت كامل اختلف إنشاد كل بيت عن الآخر وهذا دليل الافتراق بين التفعليتين.

مف/عو/لات مس/تفع/لن

o/ /o/ o/ /o/ o/ o/

رؤية في عروض الخليل.

إن لعروض الخليل من القوة ودقة التأصيل ما جعل كل المحاولات في نقضه وتقديم بديل عنه لا يكتب لها النجاح أمام القدماء فضلاً عن المحدثين، ولعل إجازة الأخفش جواز أن تأتي عروض الطويل محذوفةً ثم سقوط هذا الرأي أمام

قوة رأي الخليل هو الدليل القاطع على علو كعب الخليل في علم العروض.

المثال المستشهد به على ذلك هو قول النابغة الذبياني:

جزى الله عبساً عبس آل بغيض جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

جز للا / هعبسنعب/ سآال/ بغيضي

o/o// /o// o/o/o// o/o//

فمع إمكان تحويل (مفاعي) إلى فعولن إلا أن موسيقى الشطر تكون عندئذ باردة لا حرارة فيها ومما يؤكد قوة رأي الخليل أمران:

١ – رواية الديوان مفاعلن كما هو رأي الخليل؛ لأن البيت فيه:

جزى الله عبساً في المواطن كلها فالعروض (نكللها) مفاعلن.

٢ – ندرة وروده فالوارد منه لا يمكن أن تبنى عليه قاعدة وإنما يمكن أن يحمل الشاعر هذه المخالفة.

* ومع كل هذه القوة والتميز في عروض الخليل – رحمه الله – فإنها لا تسلم من بعض المآخذ التي لا يمكن أن تلغيها أو تجعل متعلميها يطلبون البديل الأقوى ولا أظنه متحققاً.

ومع ذلك فإن إهمال البحور الستة (المستطيل، الممتد، المتوفر، المطرد، المتئد، المنسرد) مع أنه اعتبرها في تشكيل دوائره العروضية يعدُّ ملحظاً.

إن اتساق الدوائر بوجود هذه البحور التي أهملها من بحوره الخمسة عشر أو الستة عشر لدليل على أن بين النوعين من البحور روابط وصلات فإما حذفها من الدوائر أو احتسابها لتكون عدة البحور اثنتين وعشرين بحراً.

مع أن الدوائر فيها الدليل على حذق الخليل لعلمه ودقة تأليفه وقوة ملكته؛ لأنها ليست ترفاً فكرياً فحسب وإنما هي دليل على أن بين بحور الخليل وشائج قربى تربط بعضها ببعض.

* كنت أظن أن يوجد الكامل مع الرجز في دائرة واحدة لقربهما من بعضهما بل إن البيت من الكامل إذا أضمرت جميع تفاعيله جاز عده من الرجز، وكذلك لم يأت الوافر والهزج في دائرة واحدة مع شدة التقارب بينهما فإن الوافر التي عصبت

جميع تفاعيله يجوز عده من الهزج إذا كان البيت مفرداً ولكن التحاكم إلى القصيدة الكاملة من الكامل والرجز والوافر والهزج.

• أن (فاعلن) إذا دخلها تغير بحيث تصبح (فَعَلُن) بجعلها بعضهم مقطوعة، وبعضهم أن ذلك من التشعيث وبعضهم أن ذلك من الخبن والإضمار معاً.

وعلى أنه من وضع الخليل ترك هذا الأمر للاجتهادات وأرى أن يكون من القطع للأسباب الثانية:

١ – أن القطع يدخل فاعلن والإضمار لا يدخلها؛ لأن ثانيها ليس متحركاً.

٢ – أن التشعيث قليل الحدوث والقطع كثيره، فالقطع يدخل أربعة من بحور الشعر هي: البسيط والرجز والكامل والمتدارك وثلاثة منها كثيرة الاستعمال، أما التشعيث فيدخل الخفيف والمجتث مع أن المجتث قليل الاستعمال وما يدخله التشعيث من صور البحرين هو ما لا يعتد به وإنما ينكرون ذلك على أنه من باب الجواز.

٣ – حتى وإن كان التشعيث تغييراً واحداً كما هو القطع، إلا أن (فاعلن) بعد قطعها تؤول إلى تفعيلة مقبولة مستساغة موجودة في البحور الأخرى فـ (فاعل) مقطوعة في البسيط، أما (فالن) التي تحول إلى (فَعَلُن) فهي قبل التحويل لا تُساغ وبعد التحويل لا توجد إلا في المتدارك على وجه لا يعد صورة من صوره.

٤ – أن فاعلن بعد القطع تصبح (فاعلْ) ففيها بعد القطع محافظة على نسق الحروف في التفعيلة الأصل أما في التشعيث والخبن والإضمار ففيها بعد عن نسق الأصل.

٥ – أن المحذوف في التشعيث (العين) وفي القطع النون، والعين أكثر أصالة من النون، فحذف النون كثير حيث تحذف في جميع التفعيلات العروضية، أما العين ففي التشعيث، وهو موطن خلاف بين المشتغلين بعلم العروض.

٦ – أن الزحاف المزدوج قبيح[٣٠] في بابه (هو أن يجتمع زحافان مفردان في تفعيلة واحدة) فكيف به إذا كان باجتماع زحافين لا يجتمعان أصلاً.

٧ – أن الزمخشري[٣١] حصر ما يدخل (فاعلن) من التغييرات باثنين: الخبن (فعلُن) والقطع (فاعلْ) وتحول إلى (فَعَلُن).

٨ – أن المبرد جعل التشعيث في فاعلاتن قطعاً، وذلك بحذف ساكن الوتد المجموع (علا) وإسكان اللام فتصبح (فاعِلْتُن) فتحول إلى (مفعولن) ولم يذكر (فالاتن) حيث قال: وأما التشعيث فهو دخول القطع في الوتد من (فاعلاتن) التي من الضرب الأول من الخفيف فيعود مفعولن(٣٢).

وهذا يدل على أن من العروضيين من يجعله قطعاً إذا كان الوتد ليس آخراً، ومنهم من يجعله حذف أول الوتد المجموع.

ومهما يكن من أمر عروض الخليل فإنها تبقى الإبداع الأمثل الذي يحتذيه كل من كتب في العروض حتى وإن كان معترضاً عليه، والدليل الأقوى أن الجامعات والمعاهد العلمية لم يزُقْ للقائمين على مناهجها سواه، ولذلك لم يجدوا عند من جاء بعده كبير فائدة فبقي الأصلح الأصح.

الحواشي.

---

(١) محمد علي أبو حمدة، نظرية العروض كما وردت في العقد الفريد، دار عمان للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ، ص٦.

(٢) على اعتبار أن الخليل هو الذي وضع المتدارك؛ لأن له قصيدة عليه لا أنه الأخفش كما يزعم بعض الباحثين وليس في الرأيين ما يغير وضع الخليل للعروض.

(٣) يراجع: كمال أبو ديب، في البنية الإيقاعية للشعر العربي (نحو بديل جذري لعروض الخليل)، ط١٩٨٧،٣م.

(٤) عبد النعيم علي عبد الله، أوزان الشعر العربي وقوافيه، نشر جامعة الأزهر، ص١١.

(٥) عبدالحميد السيد عبد الحميد، الطريق المعبّد إلى علمي الخليل بن أحمد، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، ط١، ٢٠٠٠م ، ص٩.

(٦) المرجع نفسه، ص١١.

(٧) المكان نفسه.

(٨) انظر هوامش إنباه الرواة على على أنباه النحاة، للقفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار الفكر العربي (القاهرة)، مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت) ط١، ١٩٨٦م، ج١، ص٣٧٧.

(٩) المصدر نفسه، ج١، ص٣٨٢.

(١٠) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ط١، ١٣٥١هـ، ج١، ص٢٧٥.

(١١) دائرة المعارف الإسلامية (ناشرون)، ج٨، ص٤٣٦.

(١٢) أبو سعيد السيرافي، أخبار النحويين البصريين، الطبعة الأولى، ص٣٨- ٤٠.

(١٣) محمد أبو الفتوح شريف، العروض دراسة تطبيقية، نشر مكتبة الشباب، ١٩٨٤م، ص٧.

(١٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ، ج٢، ص٢٤٥.

(١٥) الشيخ جلال الحنفي، العروض تهذيبه وإعادة تدوينه، مطبعة العاني، العراق، ١٣٩٨هـ، ص٢٤.

(١٦) الصاحب بن عباد، الإقناع في العروض وتخريج القوافي، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٠م، ص٤.

(١٧) هاشم صالح مناع، الكافي في العروض والقوافي، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م، ص١٧.

(١٨) القاضي التنوخي، القوافي، تحقيق: عمر الأسعد، ومحي الدين رمضان، دار الإرشاد، بيروت، ط١، ١٩٧٠م، ص١٣٧.

(١٩) حاشية الدمنهوري على متن الكافي، ص١٨. (محمد الدمنهوري، الإرشاد الشافي على متن الكافي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٩٥٧م).

(٢٠) الشيخ جلال الحنفي، العروض، ص٩.

(٢١) السكاكي، مفتاح العلوم، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت)، ص٢٢١.

(٢٢) المصدر نفسه، ص٢١٨.

(٢٣) الشيخ جلال الحنفي، العروض، ص٦ – ١٥.

(٢٤) إبراهيم أبو الخشب، بغية المستفيد من العروض الجديد.

(٢٥) ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م، ص٣١٠.

(٢٦) ديوان المرقشين الأكبر والأصغر، تحقيق: كارين صادر، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص٦٧ – ٧٢.

(٢٧) أحمد سليمان ياقوت، عروض الخليل ما لها وما عليها، دار المعرفة الجامعية، ط١، ١٩٨٩م، ص٥٤.

(٢٨) المرجع نفسه، ص٥٥.

(٢٩) المكان نفسه.

(٣٠) الطريق المعبد، ص٥٥.

(٣١) جار الله الزمخشري، القسطاس في علم العروض، تحقيق: فخر الدين قباوة، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م، ص٣٢، ٣٣.

(٣٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، طبعة دار الفكر، بيروت (د.ت)، ج٦، ص٢٨٢.

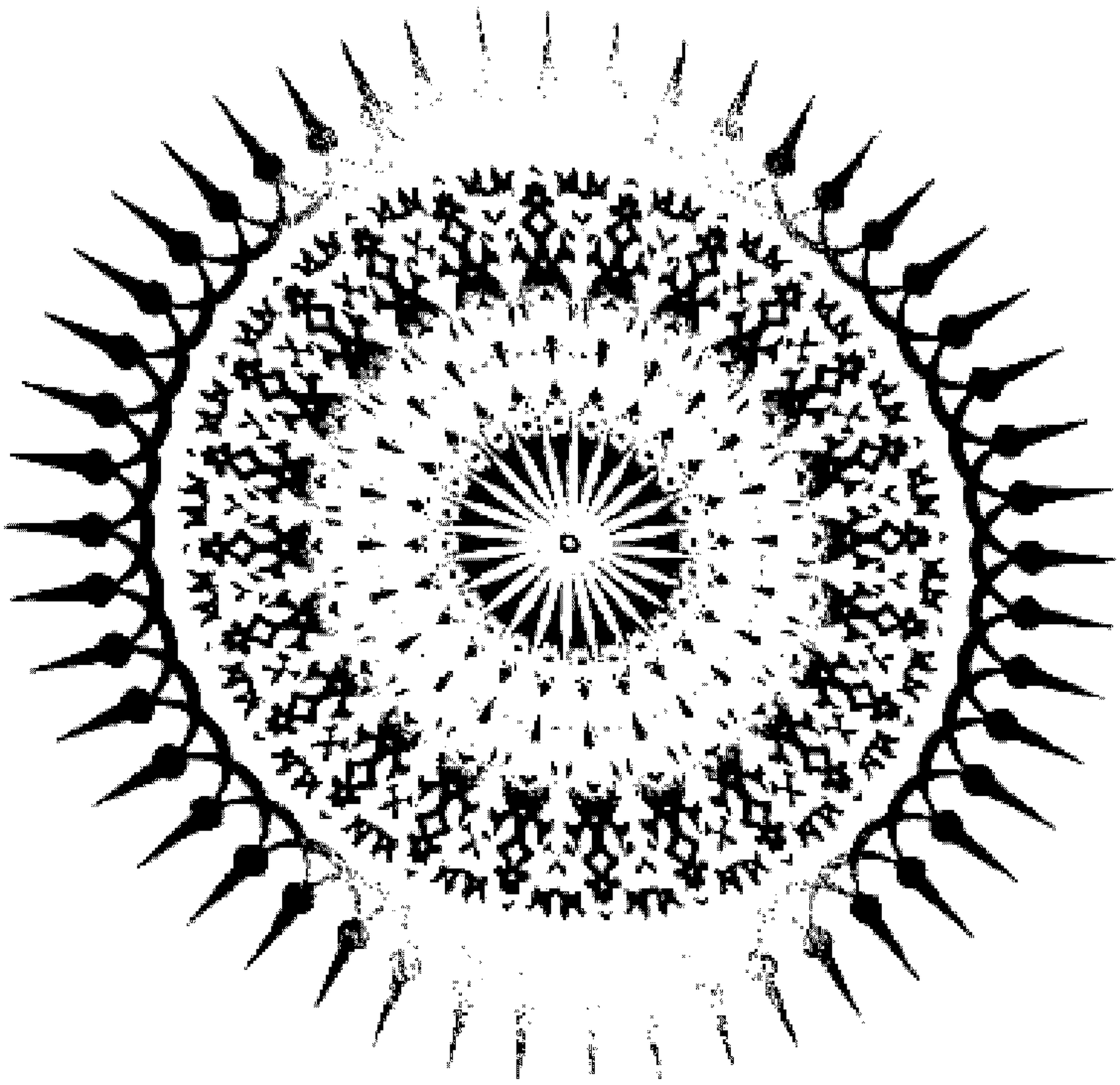

قول في نظريّة الفراهيديّ العروضيّــة

د. محسن علي عريبي السويدي
جامعة بغداد – العراق

قول في نظريّة الفراهيديّ العروضيّة

د. محسن علي عريبي السويدي

المقدمة:

لا يختلف اثنان في أن الخليل بن أحمد الفراهيديّ، العمانيّ المولد، العراقيّ النشأة، الذي وضع أول معجم عربي هو مؤسس علم العروض. لكن الآراء تتعدد في بحث بواعث تأسيس هذا العلم، وفي كيفية ظهوره، وفي تحليل كنهه، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى التشكيك في أصالة نسبته للعرب، والتلميح إلى تأثر واضعه بما لدى الأمم الأخرى من علوم أفاد منها[1]. وهو أمر لا أعتقد أن من المفيد إعادة بحثه الآن، لأني لست بصدد الموازنة بين الآراء التي قيلت في الخليل ومنجزاته العلمية لترجيح أحدها أو مناقشتها، كما إني لست بصدد الدفاع عن هذا العالم، أو علمه. فعبقرية الفراهيديّ أمر مفروغ منه، ومن يبحث في أولية علوم اللغة العربية يجد ما يشاء من الأدلة عليها، فقد كان إمام علماء عصره. وسواء أكان مرد ذلك إلى قدراته الفردية وما حباه الله به من حدة ذكاء ونباهة[2] أم إلى طبيعة عصره التي غلبت عليها سمة الإبداع والتأسيس، فإن المحصلة النهائية تتلخص في أننا نتحدث عن رجل أهدى العربية علمين لم يسبقه إليهما عربيّ، هما علم العروض ومعجم العين.

والقاسم المشترك بينهما هو قيامهما على نظام رياضي دقيق، هو التقليب، الذي اتفقت كلمة الباحثين على وجوده في العين، وأغفلوا ذكره في العروض، على الرغم من أنّ الخليل وضع العروض قبل أن يضع العين. فإذا كانت أبواب المعجم ومادته العلمية قد رتبت على وفق ترتيب نطق الأصوات، فإن حصر المفردات جاء نتيجة تقليب حروف جذورها. فقد رتبت الحروف بحسب مخارجها ابتداء من حروف الحلق، فجاء العين أولها لأنه يخرج من أقصى الحلق يليه الحاء والهاء، ثم الحروف الأخرى حتى يصل إلى ما ينطق منها من الشفتين.

ثم خصّص باباً لكل حرف منها، ورتّب الكلمات فيه بحسب أبنيتها، معتمداً في ذلك تقليب حروفها.

فكلمة (ذهب) مثلاً، تذكر في باب الهاء، وهي تقلّب إلى (بهذ) و(هبذ) و(بذه) و(ذبه) و(هذب)، وكل تكوين منها يمثل جذراً تتفرع منه مفردات متعددة، بعضها مستعمل، ذكره وذكر ما يدل عليه، وبعضها الآخر مهمل.

وقد مكّنه هذا النهج العلمي الدقيق من حصر المفردات والوقوف على كل تكويناتها، فأحصى جميع كلام العرب وألفاظهم ولم يخرج منها عنه شيء[٣].

ونعلل هذه الدقة في تأليف العين، بأن الأساس الذي قام عليه تأليفه (التقليب) قد سبقت الإفادة منه في ابتكار علم العروض بدليل ورود أسماء البحور ومصطلحات العروض في أكثر من موضع في العين[٤].

إذ إن الخليل وضع نظريته العروضية في قالب رياضيّ هو (الدوائر العروضية). وأساس بناء كل دائرة من هذه الدوائر هو التقليب الذي جاء بثلاثة مستويات، أولها تقليب التفاعيل الذي يؤدي إلى تكوين البحور، وهو يقوم على تقليب آخر يسبقه هو تقليب مكونات كل تفعيلة من أسباب وأوتاد، الذي يؤدي إلى قيام التفاعيل، والذي يقوم على مستوى أدق، هو تقليب الحروف بحسب نطقها الذي يؤدي إلى قيام الأوتاد والأسباب.

فالمرتكز الأول صوتي (كما هو في العين)، ويقوم على حصر الأصوات بساكن ومتحرك، وتقليبهما الذي ينتج عنه تحديد المقاطع الصوتية، التي تأتي بنوعين هما: المقطع القصير(ن)، وهو الحرف المتحرك الذي ينطق به منفرداً، والمقطع الصوتي الطويل (ـــ) الذي يعني النطق بحرفين مندمجين أولهما متحرك والآخر ساكن.

وهو إعادة ترتيب للحروف بحسب نطقها، ولكن باعتماد سكونها أو حركتها، وهو يقابل ترتيب الحروف بحسب مخارجها في العين، مع فارق المعيار. ثم رتب تلك المقاطع على وفق ما يؤدي إليه تقليبها. فإنْ تجاور حرفان متحركان (ن ن)، فذلك سبب ثقيل، وإن اندمج المتحرك بساكن فهو سبب خفيف (ـــ). وإن تجاور

حرفان متحركان وتلاهما ساكن (ن ـ) فهو وتد مجموع، وإن توسطهما ساكن فذلك وتد مفروق (ـ ن).

ويقود تقليب الأسباب والأوتاد إلى تكوين التفاعيل، وهي على نوعين: خماسية وسباعية.

فالخماسية تفعيلتان، هما (فعولن) و(فاعلن)، وتتألف كل منهما من وتد مجموع وسبب خفيف، ولكن بترتيبين مختلفين.

إذ إنّ (فعولن) وتد مجموع وسبب خفيف (ن ـ ـ)، و(فاعلن) سبب خفيف ووتد مجموع (ـ ن ـ)، فالثانية هي ناتج تقليب الأولى، والعكس صحيح.

والسباعية ست تفاعيل، ثلاث منها تتألف من سببين خفيفين ووتد مجموع، وبترتيب مختلف لكن تفعيلة، حيث (مستفعلن) تتألف من سببين خفيفين ووتد مجموع (ـ ـ ن ـ) و(مفاعيلن) تتألف من وتد مجموع وسببين خفيفين (ن ـ ـ ـ) و(فاعلاتن) تتألف من سببين خفيفين يتوسطهما وتد مجموع (ـ ن ـ ـ).

وواضح أن كل تفعيلة من هذه التفاعيل الثلاث هي نتيجة لتقليب أختها، وهن جميعا نتيجة زيادة سبب خفيف على تكويني التفعيلتين الخماسيتين (فاعلن) و(فعولن).

والتفعيلة الرابعة من التفاعيل السباعية هي (مفعولاتْ) التي تتألف من سببين خفيفين ووتد مفروق (ـ ـ ـ ن).

والتفعيلتان الخامسة والسادسة (مفاعلتن) و(متفاعلن)، وتتكون كل منهما من سبب ثقيل وآخر خفيف ووتد مجموع، وترتيب ينم عن أن كل واحدة منهما هي نتيجة لتقليب الأخرى، إذ تتألف (متفاعلن) من سبب ثقيل وآخر خفيف ووتد مجموع (ن ن ـ ن ـ)، وتتألف (مفاعلتن) من وتد مجموع وسبب ثقيل وسبب خفيف (ن ـ ن ن ـ).

ولو أعدنا قراءة مكونات هذه التفاعيل بحساب ما هو متحرك وساكن منها لوجدنا أنها تنتظم في نمطين من أنماط التقليب، الأول منهما يقوم على تقليب ساكنين وثلاثة متحركات، فينتج عنه (فعولن وفاعلن)، أوخمسة متحركات فينتج عنه (مفاعلتن ومتفاعلن).

فترتيب المتحركات والسواكن في تلك التفاعيل على النحو الآتي:

١- فعولن: متحرك متحرك ساكن متحرك ساكن

٢- فاعلن: متحرك ساكن متحرك متحرك ساكن

٣- متفاعلن: متحرك متحرك متحرك ساكن متحرك ساكن

٤- مفاعلتن: متحرك ساكن متحرك متحرك متحرك ساكن

ويقوم النمط الثاني على تقليب ثلاثة سواكن وأربعة متحركات، فينتج عنه (مستفعلن) و(مفاعيلن) و(فاعلاتن) و(مفعولاتُ).

وترتيب المتحركات والسواكن في هذه التفاعيل على النحو الآتي:

١- مستفعلن: متحرك ساكن متحرك ساكن متحرك متحرك ساكن.

٢- مفعولاتُ: متحرك ساكن متحرك ساكن متحرك ساكن متحرك.

٣- مفاعيلن: متحرك متحرك ساكن متحرك ساكن متحرك ساكن.

٤- فاعلاتن: متحرك ساكن متحرك متحرك ساكن متحرك ساكن.

أما المستوى الثالث في التقليب فهو المستوى الذي تقوم عليه الدوائر العروضية، ويمثل المرحلة الأخيرة من مراحل ابتكار العروض عند الخليل.

إذ انتظمت التفاعيل في خمسة أنماط تسمى الدوائر، نتج عنها ستة عشر تشكيلاً هي بحور الشعر[٥].

أول دائرة من هذه الدوائر هي **دائرة المختلف**، وتضم خمسة أبحر، ثلاثة منها مستعملة، هي الطويل والمديد والبسيط، واثنان مهملان هما المستطيل[٦] (وهو مقلوب الطويل) والممتد وهو مقلوب المديد[٧].

وتتألف هذه الدائرة من أربعة أجزاء يمثل كل منها تفعيلة من تفاعيل هذه الأبحر، وأولها الطويل الذي يقوم بناؤه على تفعيلتي (فعولن) الخماسية و(مفاعيلن) السباعية، وصورة كل شطر منه:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

ن ـ ـ ن ـ ـ ـ ن ـ ـ ن ـ ـ ـ

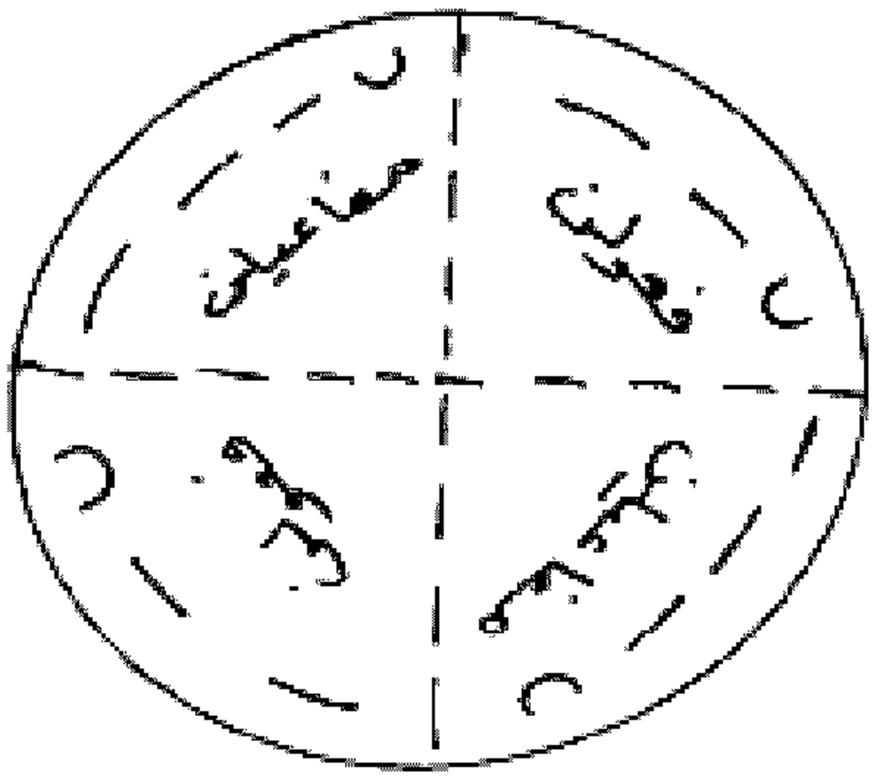

وبتقليب مكونات هذه التفاعيل تخرج إلى صور أخرى، لتشكل بحراً آخر، وذلك بنقل سبب خفيف من آخر كل تفعيلة إلى أول التفعيلة التي تليها، فتصبح التفاعيل الخماسية سباعية، والسباعية خماسية، على النحو الآتي:

فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن

ـ ن ـ ـ ـ ن ـ ـ ن ـ ـ ـ ن ـ

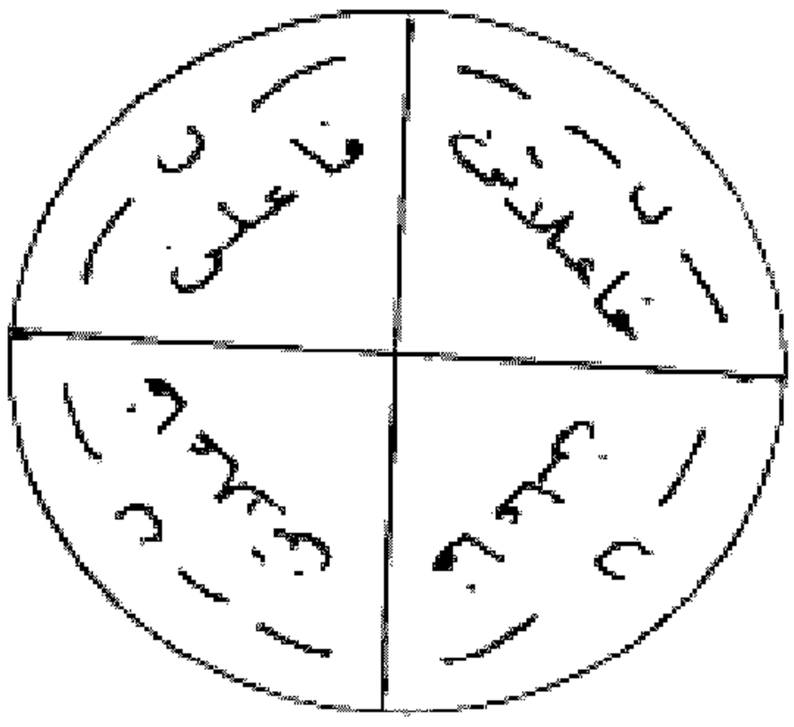

وهي صورة تفاعيل المديد.

وبتكرار التقليب نفسه تصبح:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

ـ ـ ن ـ ـ ن ـ ـ ـ ن ـ ـ ن ـ

وهي صورة البسيط.

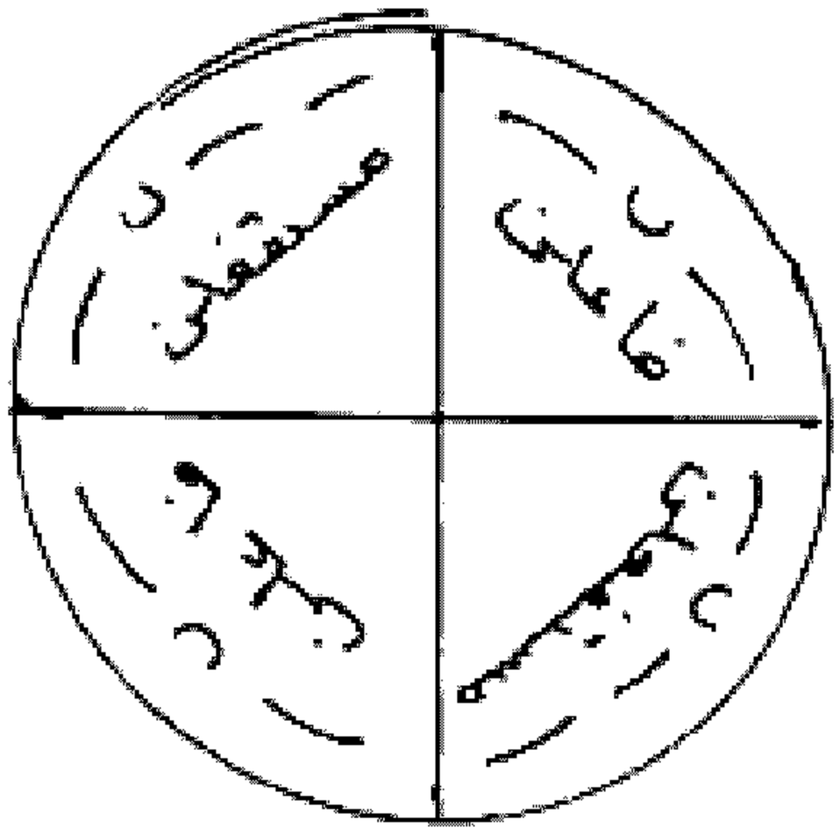

أما الوزنان المهملان، فأحدهما مقلوب الطويل، ويسمى المستطيل، وصورته:

مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن

ن — — — ن — — ن — — — ن — —

والثاني مقلوب المديد، ويسمى الممتد، وصورته:

فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن

وتضم دائرة **المؤتلف** (وهي الثانية في ترتيب دوائر الخليل) ثلاثة أبحر، هي الوافر والكامل، وهما بحران مستعملان والمتوفر (أو المستوفر) وهو بحر مهمل(٨).

وتتألف الدائرة من ثلاثة أجزاء يمثل كل منها تفعيلة، إذ يقوم بناء كل بحر من هذه البحور على تكرار التفعيلة ثلاث مرات في كل شطر، وأولها الكامل، وصورة التام منه:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

ن ن — ن — ن ن — ن — ن ن — ن —

وتفعيلته تبدأ بسبب ثقيل وتنتهي بوتد مجموع.

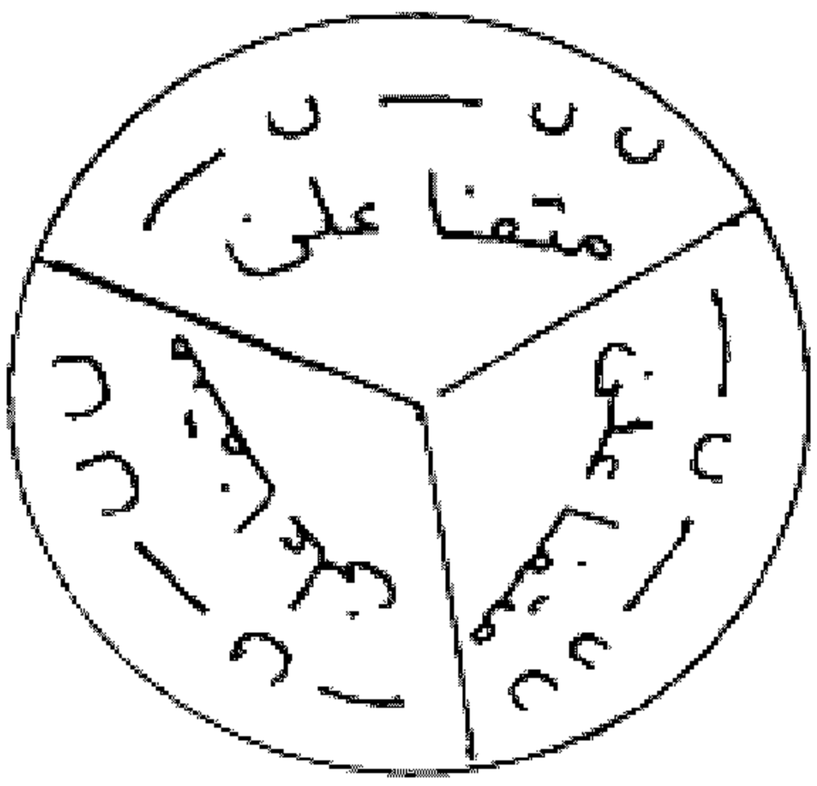

وبتغيير أول كل تفعيلة وآخرها، بإسقاط أولها (وهو هنا السبب الثقيل) وإضافته إلى آخر التفعيلة التي تسبقها، تصبح التفاعيل:

فاعلاتُكْ فاعلاتُكْ فاعلاتُكْ

ـ ن ـ ن ن ـ ن ـ ن ن ـ ن ـ ن ن

وهي صورة المتوفر، وهو بحر مهمل.

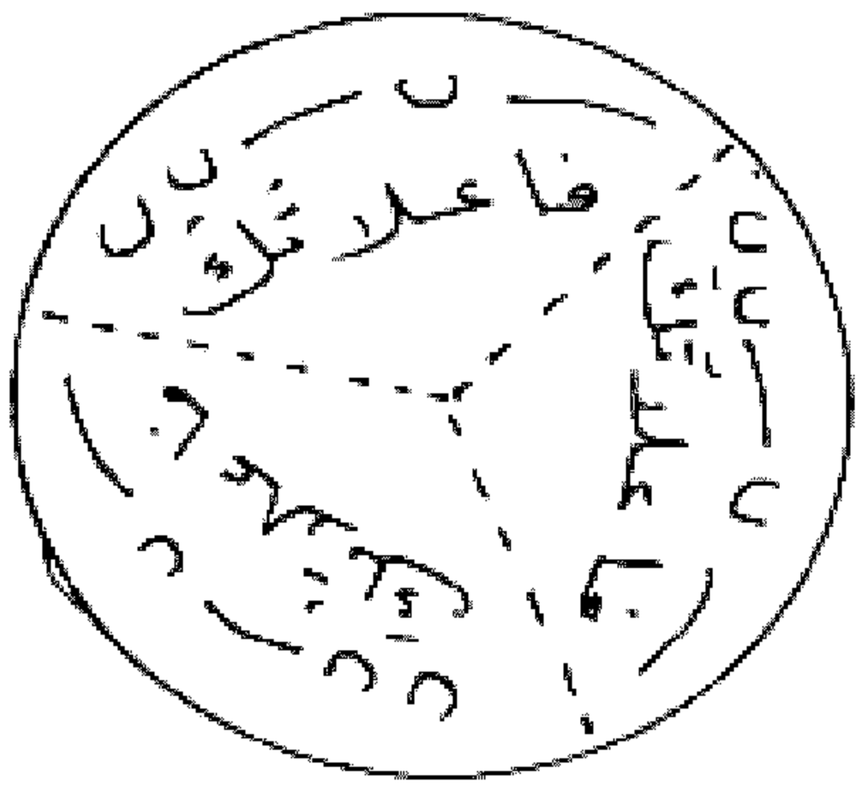

وبتكرار التقليب السابق، أي نقل مبتدأ كل تفعيلة إلى آخر التي تسبقها، تصبح التفاعيل:

مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن

ن ـ ن ن ـ ن ـ ن ن ـ ن ـ ن ن ـ

وهي صورة الوافر.

وبتكرار التقليب تعود التفاعيل إلى صـــورتها الأولـــى، أي متفـــاعلن، لأن مفاعلتن تبدأ بوتد مجموع (أي بما تنتهي به متفاعلن). وهي تبدأ بسبب خفيف (أي بما تنتهي به تفعيلة الوافر) وتنتهي بسبب ثقيل.

أما الدائرة الثالثة فهي دائرة المجتلب التي تضم ثلاثة أبحر مـــستعملة، هـــي الهزج والرجز والرمل.

وتقسم هذه الدائرة إلى ثلاثة أجزاء، مثلها في ذلك مثل الدائرة الثانية، يـــضم كل جزء منها تفعيلة من تفاعيل هذه الأبحر، وأولها الهزج وصورته:

مفـــاعيـــلن مفـــاعيـــلن مفـــاعيـــلن

ن ـــ ـــ ن ـــ ـــ ن ـــ ـــ

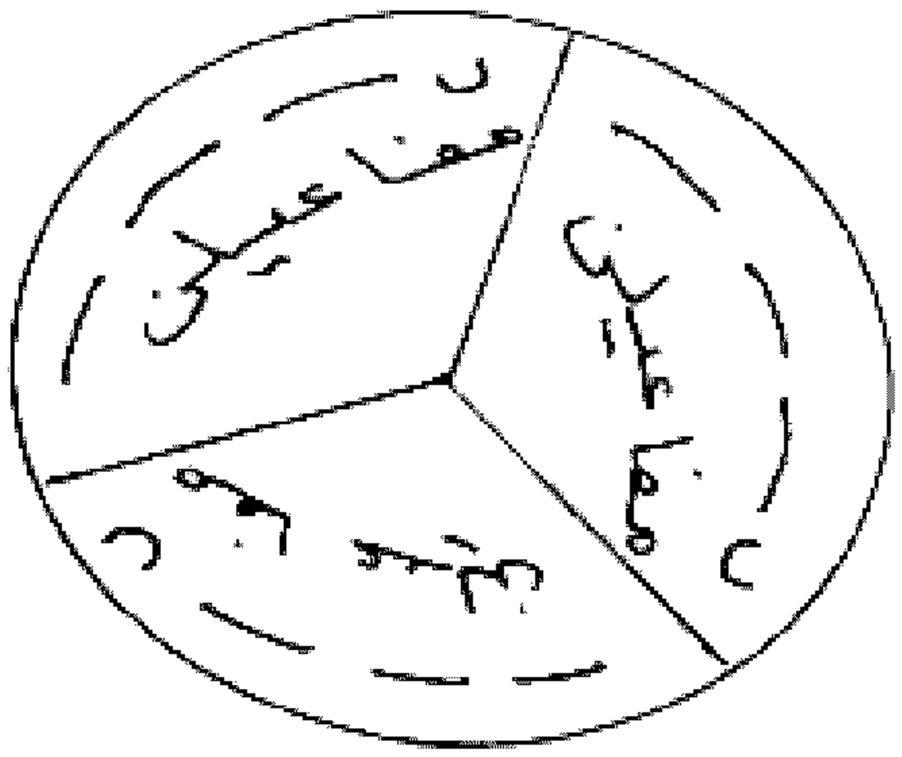

وتقلب تفاعيل هذه الدائرة بنقل أول كل تفعيلة إلى آخر التي تـــسبقها. وأول (مفاعيلن) وتد مجموع، وبنقله إلى آخر كل تفعيلة تصبح التفاعيل:

مســـتفعـــلن مســـتفعـــلن مســـتفعـــلن

ـــ ـــ ن ـــ ـــ ن ـــ ـــ ن ـــ

وهي صورة الرجز التام.

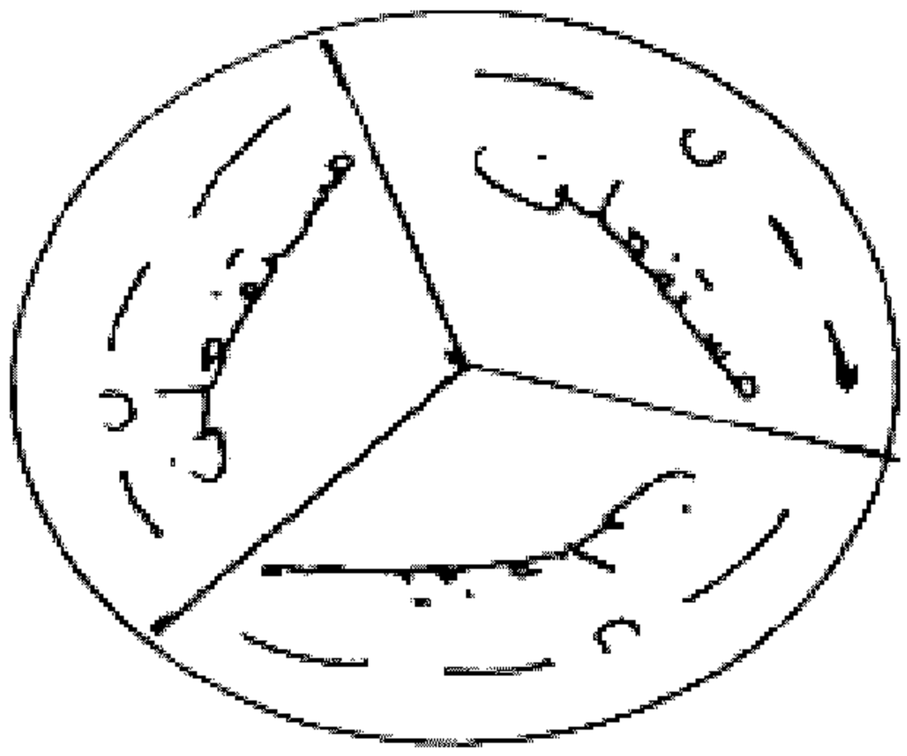

وبتكرار التغيير عينه، أي نقل أول التفعيلة (وهو السبب الخفيف الأول في مستفعلن) إلى آخر التفعيلة التي تسبقها، تصبح التفاعيل:

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

— ن — — — ن — — — ن — —

وهي تفاعيل بحر الرمل.

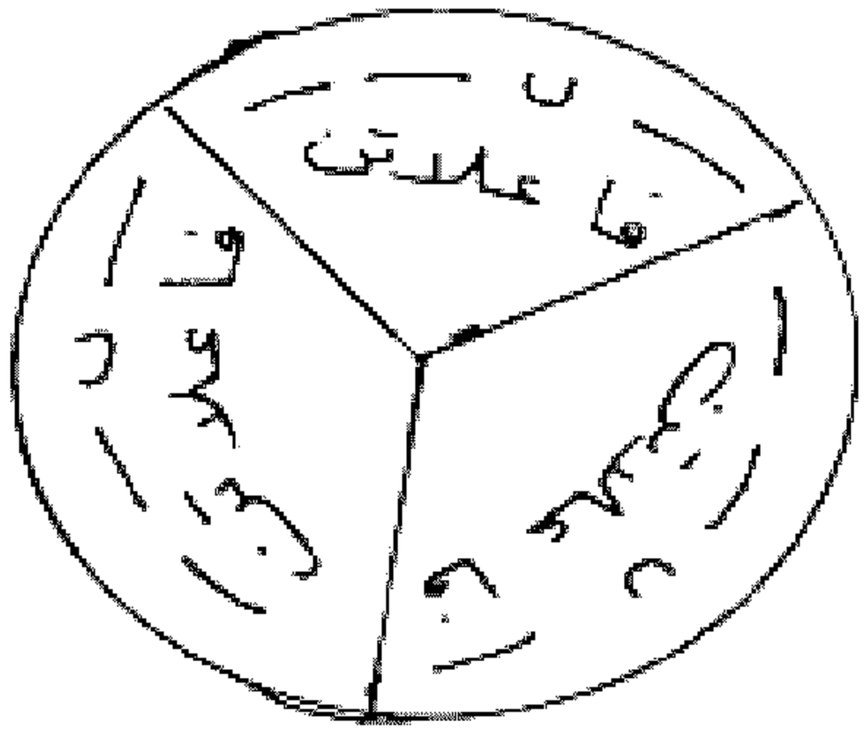

والدائرة الرابعة هي **دائرة المشتبه**، وتضم تسعة أبحر، ستة منها مستعملة هي: السريع والخفيف والمنسرح والمضارع والمقتضب والمجتث، وثلاثة مهملة هي: المتئد، والمنسرد والمطرد.

وتقليب تفاعيل بحور هذه الدائرة لا يختلف عن تقليب تفاعيل الدوائر التي مر بنا ذكرها. فأول البحور المستعملة السريع، وصورته:

مستفعلن مستفعلن مفعولاتُ

— — ن — — — ن — — — ن

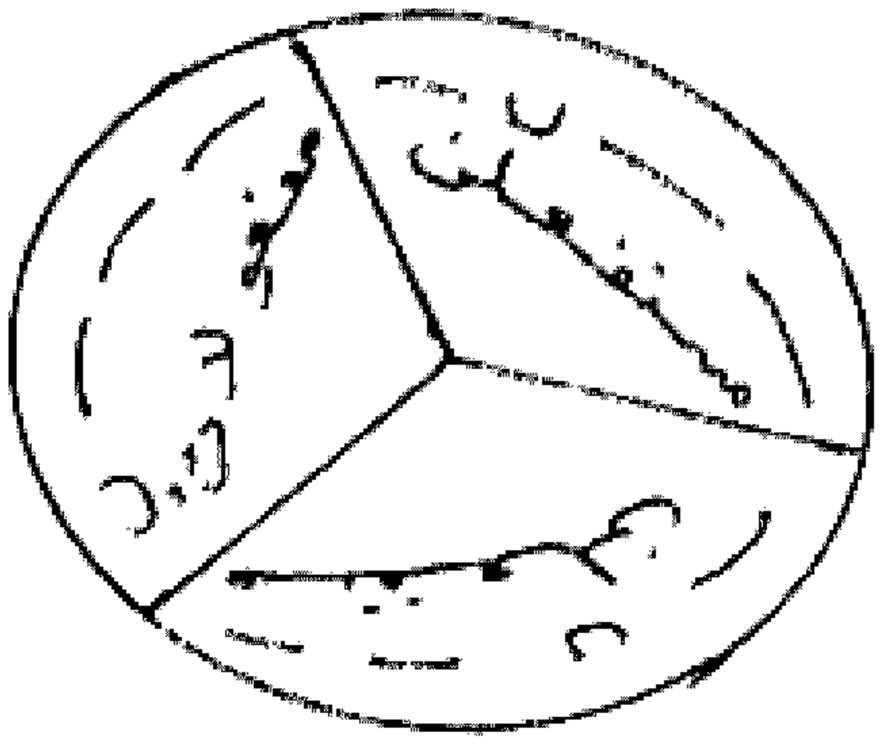

وهي صورة تتغير بتغير موضع السبب الخفيف الأول في كل تفعيلة، من أولها إلى آخر التي تسبقها، لتصبح التفاعيل:

فـا عـلاتن فـا عـلاتن مستفـعـلن

ـ ن ـ ـ ـ ـ ن ـ ـ ـ ـ ـ ـ ن ـ

وهي تفاعيل وزن مهمل يسمى (المتئد).

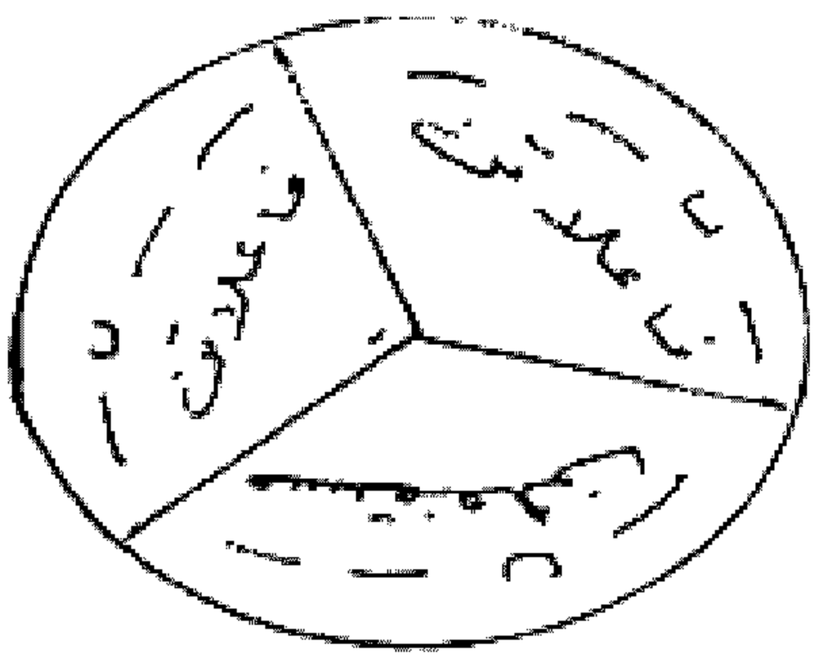

وبتكرار الأمر نفسه، أي تغيير موضع سبب خفيف من أول كل تفعيلة إلى آخر التي تسبقها، تتكون تفاعيل المنسرد، وهو وزن مهمل أيضاً، صورته:

مفـاعـيلن مفـاعـيلن فـا عـلاتن

ن ـ ـ ـ ـ ن ـ ـ ـ ـ ـ ـ ن ـ ـ

ولأن أول التفاعيل في هذا الوزن أوتاد، فالتقليب هنا يقوم على تغيير مواضعها، فينتقل الوتد من أول كل تفعيلة إلى آخر التي تسبقها، لتصبح:

مستفعلن مفعولاتْ مستفعلن

ـ ـ ن ـ ـ ـ ـ ن ـ ـ ن ـ

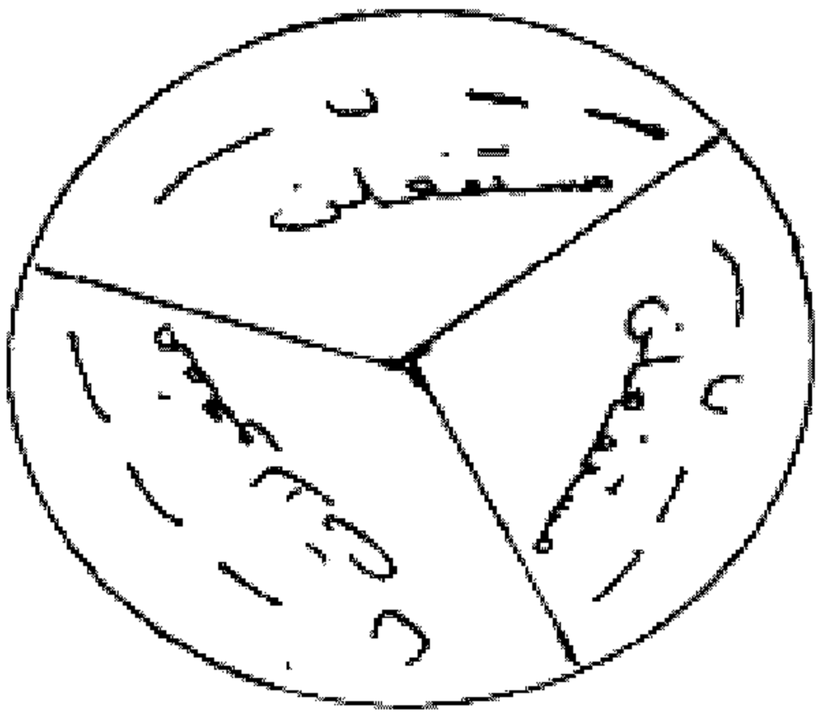

وهي صورة بحر المنسرح.

ويتكرر الأمر نفسه، أي نقل أول التفعيلة إلى آخر التي تسبقها، وهو سبب خفيف، تصبح التفاعيل بتغيير موضعه:

فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

ـ ن ـ ـ ـ ـ ن ـ ـ ن ـ ـ

وهي تفاعيل بحر الخفيف.

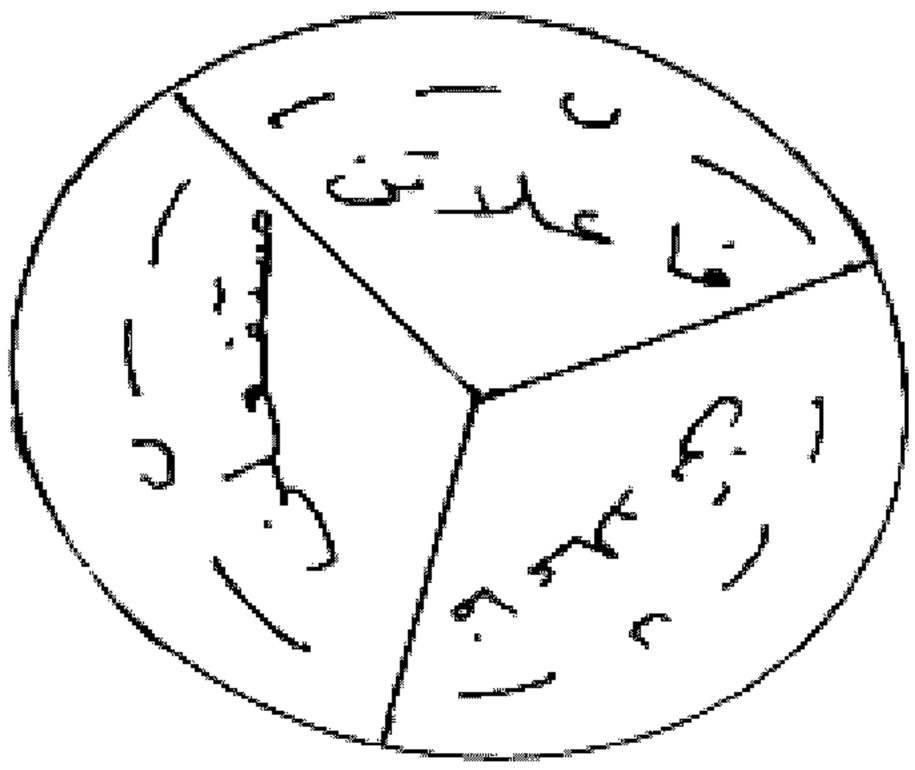

وبنقل سبب خفيف من أول كل تفعيلة إلى آخر التي تسبقها، تصبح التفاعيل:

مـــفاعيـــلن فـــاعـــلاتن مـــفاعيـــلن

ن ـــ ـــ ـــ ن ـــ ـــ ن ـــ ـــ

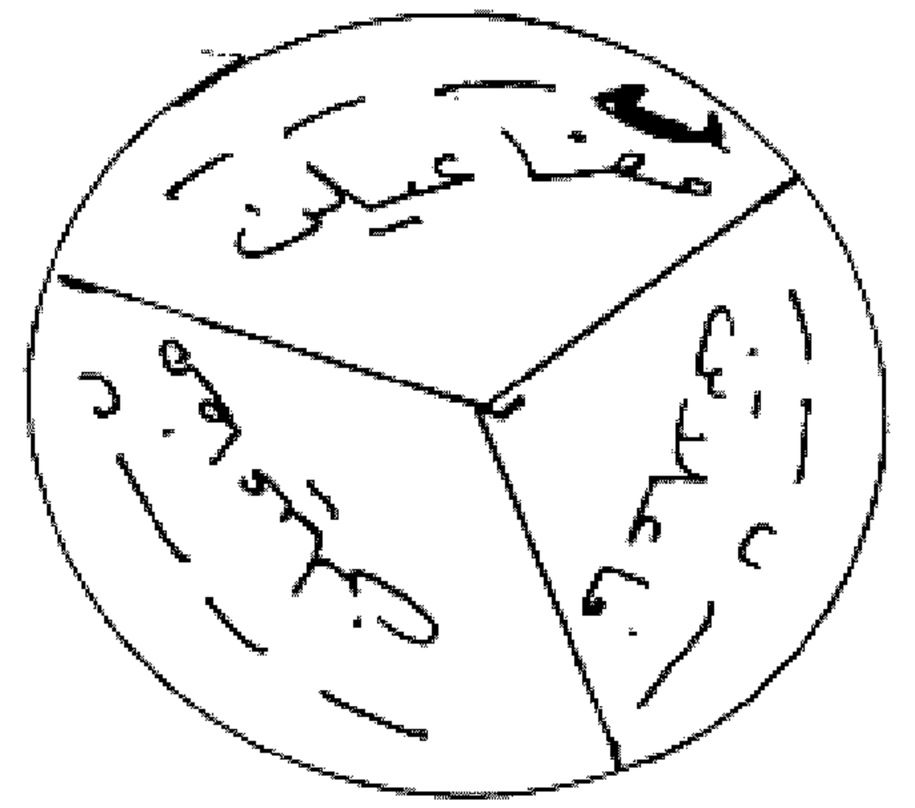

وهو صورة انتظام تفاعيل بحر المضارع، التي تتبدل بنقل ثلاثة أحرف (أي ما يوازي وتداً) من أول كل تفعيلة إلى آخر التي تسبقها، لتصبح:

مفعـــولاتُ مســـتفعـــلن مســـتفعـــلن

ـــ ـــ ن ـــ ـــ ن ـــ ـــ ن ـــ

وهي صورة المقتضب.

ثم يعود التقليب إلى تغيير مواضع الأسباب مرة أخرى، وذلك بنقل الـــسبب الأول من كل تفعيلة إلى آخر التفعيلة التي تسبقه، لتكون التفاعيل:

مســـتفعـــلن فـــاعـــلاتن فـــاعـــلاتن

ـــ ـــ ن ـــ ـــ ن ـــ ـــ ن ـــ ـــ

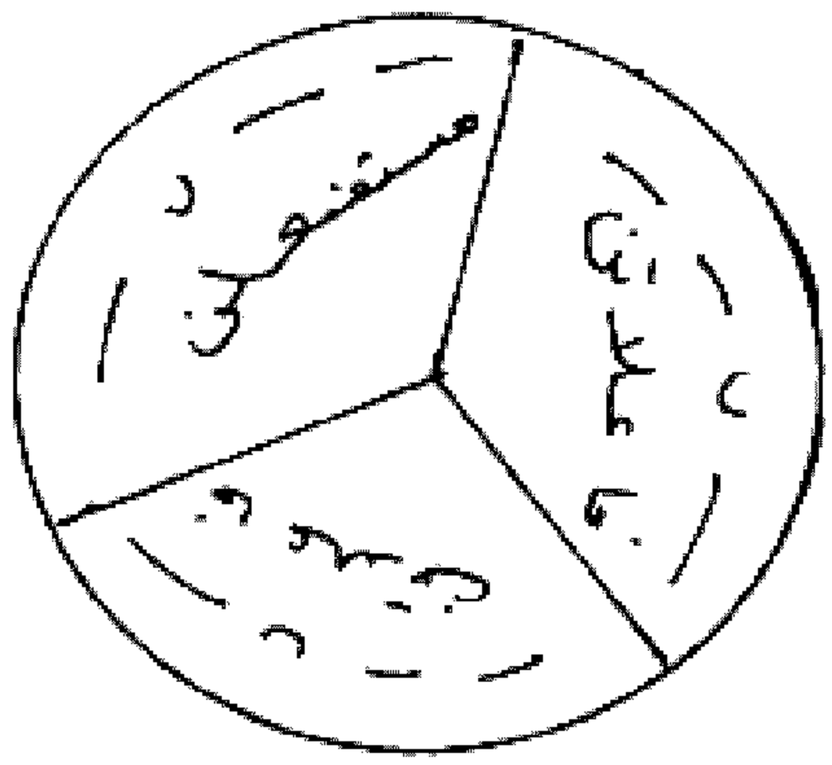

وهي صورة المجتث.

وبتكرار التغيير نفسه في هذه التفاعيل، تتكون صورة جديدة لانتظام تفاعيل وزن مهمل آخر يسمى المطرد، على النحو الآتي:

فـــاعـــلاتن مـــفاعيـــلن مـــفاعيـــلن

— ن — — ن — — — ن — — —

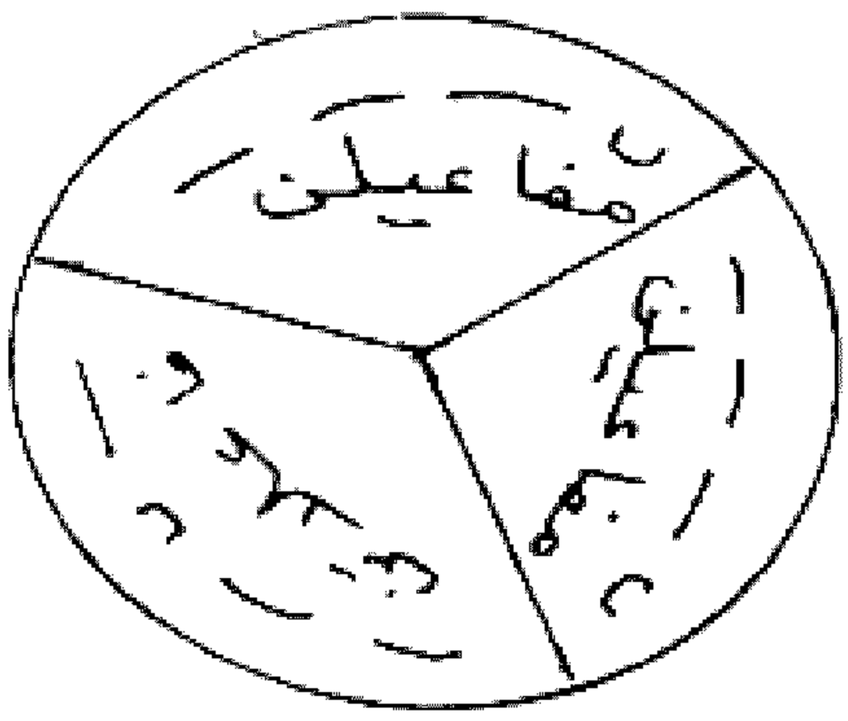

وبتكرار التغيير ذاته، تعود صورة انتظام التفاعيل إلى ما كانت عليـــه فـــي بحر السريع، أول بحور هذه الدائرة.

وخامس الدوائر العروضية التي وضعها الخليل، **دائـــرة المتفـــق**، وتـــضم بحري المتقارب والمتدارك.

وهما بحران يقومان على تفعيلتين خماسيتين، تتكران أربع مرات في كل شطر منهما، هما (فعولن) في المتقارب، و(فاعلن) في المتدارك.

والدائرة مقسمة إلى أربعة أجزاء، يمثل كل منها تفعيلة من تفاعيل شطر البيت، إذ إن صورة شطر المتقارب:

فعولن فعولن فعولن فعولن

ـ ـ ن ـ ـ ن ـ ـ ن ـ ـ ن

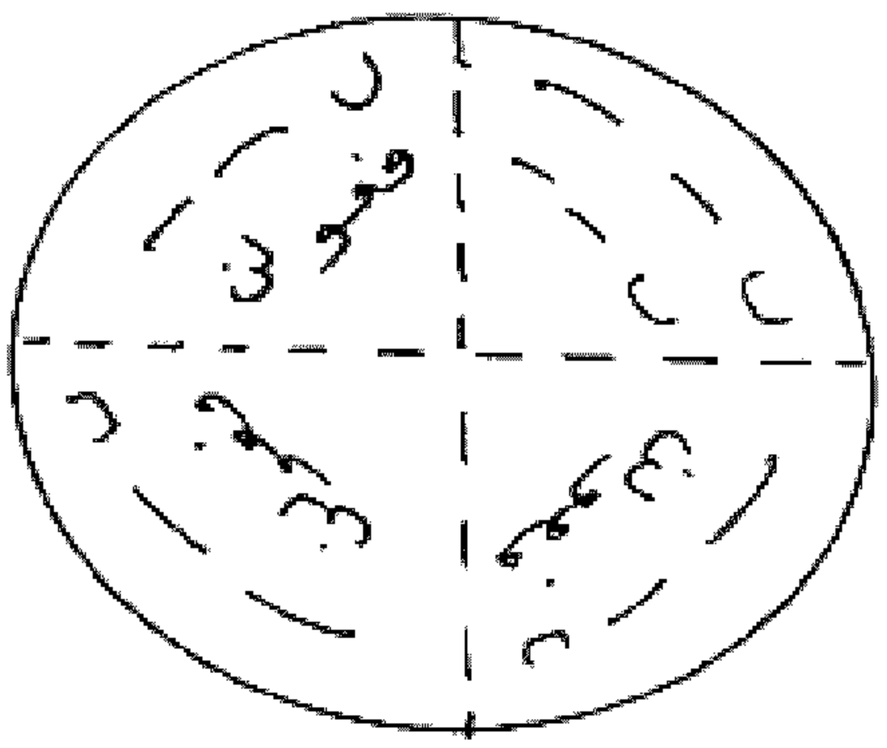

وبتغيير موضع السبب الخفيف الأخير في كل تفعيلة، من آخرها إلى أول التي تليها تصبح التفاعيل:

فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن

ـ ن ـ ـ ن ـ ـ ن ـ ـ ن ـ

إن استقراء أوزان الشعر العربي، قديمه وحديثه، ومقابلتها بما تضمنته الدوائر العروضية يؤكد حقيقة أن تلك الدوائر هي الإطار النظري العام لعدد من القوالب التي تمثل أصول أوزان الشعر العربي التي تتشكل بصيغ يزيد عددها على تلك الأصول بمئات الآلاف من المرات، اعتماداً على ما يطرأ على تفاعيلها من زحافات وعلل (يلجأ إليها الشعراء لتعديل إيقاعات الأوزان ونغماتها)[٩]. بل إن الأمر يصل إلى أبعد من ذلك بكثير، حين يفترق الوزن المستعمل عن صورته في الدائرة العروضية، كحال الوافر والمتدارك والسريع مثلا.

وقد دفعني كل ذلك إلى التفكير بمنجز عروضي يستحضر الأساس العلمي الذي قامت عليه نظرية الخليل العروضية، ويفيد من معطيات تقانة الحاسوب لرصد ما يمكن أن يؤدي إليه تقليب تفاعيل العروض الثمانية، فوجدت أن تلك التقليبات تصل إلى (٦٧٤٨٣٣) ستمائة وأربعة وسبعين ألفاً وثمانمائة وثلاثة وثلاثين وزناً مستعملاً. وقد توزعت تلك الأوزان على طائفتين، تضمنت الأولى منهما أوزان الشعر العمودي التي بلغت (١٢٤٢١٥) مائة وأربعة وعشرين ألفاً ومائتين وخمسة عشر وزناً. فقد جاء الطويل، مثلاً، بألف ومائتين وستة وتسعين وزناً، منها:

ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
ن – –	ن – ن –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
ن – –	ن – – ن	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعيل	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
ن – ن	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعول	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
ن – ن	ن – – ن	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعول	مفاعيل	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
ن – ن	ن – ن –	ن – ن	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعول	مفاعلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
ن – ن	ن – – ن	ن – ن	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعول	مفاعيل	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
ن – –	ن – ن –	ن – ن	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعيلن	فعول	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
ن – –	ن – ن –	ن – ن	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعلن	فعول	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
ن – –	ن – – ن	ن – ن	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعيل	فعول	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
ن – ن	ن – – –	ن – ن	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعول	مفاعيلن	فعول	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
ن – ن	ن – ن –	ن – ن	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعول	مفاعلن	فعول	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
ن – ن	ن – – ن	ن – ن	ن – – –	ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعول	مفاعيل	فعول	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن

ن – –	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
ن – –	ن – ن –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعلن	فعولن	مفاعيلن
ن – –	ن – – ن	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعيل	فعولن	مفاعيلن
ن – ن	ن – – –	ن – –	ن – – –
فعول	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
ن – ن	ن – ن –	ن – –	ن – – –
فعول	مفاعلن	فعولن	مفاعيلن
ن – ن	ن – – ن	ن – –	ن – – –
فعول	مفاعيل	فعولن	مفاعيلن
ن – –	ن – – –	ن – ن	ن – – –
فعولن	مفاعيلن	فعول	مفاعيلن
ن – ن	ن – ن –	ن – ن	ن – – –
فعول	مفاعلن	فعول	مفاعيلن

ن – –	ن – ن –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعلن	فعولن	مفاعيلن
ن – –	ن – ن –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعلن	فعولن	مفاعيلن
ن – –	ن – ن –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعلن	فعولن	مفاعيلن
ن – –	ن – ن –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعلن	فعولن	مفاعيلن
ن – –	ن – ن –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعلن	فعولن	مفاعيلن
ن – –	ن – ن –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعلن	فعولن	مفاعيلن
ن – –	ن – ن –	ن – –	ن – – –
فعولن	مفاعلن	فعولن	مفاعيلن

وجاء البسيط، بأنواعه كلها: التام والمخلع والمجزوء، بثلاثة عشر ألفا وخمسمائة وخمسة وثلاثين وزناً، من أمثلتها:

-ن--	-ن-	-ن--	-ن-
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
-ن--	ن ن –	-ن--	-ن-
مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
ن – ن –	-ن-	-ن--	-ن-
متفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
ن – ن –	ن ن –	-ن--	-ن-
متفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
-ن ن-	-ن-	-ن--	-ن-
مستعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
-ن ن-	ن ن –	-ن--	-ن-
مستعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
ن ن ن –	-ن-	-ن--	-ن-
متعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن

-ن--	-ن-	-ن--	-ن-
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
-ن--	-ن-	-ن--	-ن-
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
-ن--	-ن-	-ن--	-ن-
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
-ن--	-ن-	-ن--	-ن-
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
-ن--	-ن-	-ن--	-ن-
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
-ن--	-ن-	-ن--	-ن-
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
-ن--	-ن-	-ن--	-ن-
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن

ن ن ن ـ	ن ن ن ـ	ـ ن ـ ـ	ـ ن ـ
متفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
ـ ن ـ ـ	ـ ن ـ	ن ـ ن ـ	ـ ن ـ
مستفعلن	فاعلن	متفعلن	فاعلن
ـ ن ـ ـ	ن ن ـ	ن ـ ن ـ	ـ ن ـ
مستفعلن	فعلن	متفعلن	فاعلن
ن ـ ن ـ	ـ ن ـ	ن ـ ن ـ	ـ ن ـ
متفعلن	فاعلن	متفعلن	فاعلن
ن ـ ن ـ	ن ن ـ	ن ـ ن ـ	ـ ن ـ
متفعلن	فعلن	متفعلن	فاعلن
ن ن ن ـ	ـ ن ـ	ن ـ ن ـ	ـ ن ـ
مستفعلن	فاعلن	متفعلن	فاعلن
ن ن ن ـ	ن ن ن ـ	ن ـ ن ـ	ـ ن ـ
متفعلن	فعلن	متفعلن	فاعلن
ـ ن ـ ـ	ـ ن ـ	ـ ن ن ـ	ـ ن ـ
مستفعلن	فاعلن	مستعلن	فاعلن
ـ ن ـ ـ	ن ن ـ	ـ ن ن ـ	ـ ن ـ
مستفعلن	فعلن	مستعلن	فاعلن
ن ـ ن ـ	ـ ن ـ	ـ ن ن ـ	ـ ن ـ
متفعلن	فاعلن	مستعلن	فاعلن
ن ـ ن ـ	ن ن ـ	ـ ن ن ـ	ـ ن ـ
متفعلن	فعلن	مستعلن	فاعلن
ـ ن ـ ـ	ـ ن ـ	ـ ن ن ـ	ـ ن ـ
مستفعلن	فاعلن	مستعلن	فاعلن
ـ ن ـ ـ	ن ن ـ	ـ ن ن ـ	ـ ن ـ
مستفعلن	فعلن	مستعلن	فاعلن
ن ـ ن ـ	ـ ن ـ	ـ ن ن ـ	ـ ن ـ
متفعلن	فاعلن	مستعلن	فاعلن
ن ـ ن ـ	ن ن ـ	ـ ن ن ـ	ـ ن ـ
متفعلن	فعلن	مستعلن	فاعلن

متعلن	فعلن	مستعلن	فاعلن
- ن - -	- ن -	ن ن ن -	- ن -
مستفعلن	فاعلن	متعلن	فاعلن
- ن - -	ن ن -	ن ن ن -	- ن -
مستفعلن	فعلن	متعلن	فاعلن
ن - - ن -	- ن -	ن ن ن -	- ن -
متفعلن	فاعلن	متعلن	فاعلن
ن - - ن -	ن ن -	ن ن ن -	- ن -
متفعلن	فعلن	متعلن	فاعلن
- ن ن -	- ن -	ن ن ن -	- ن -
مستعلن	فاعلن	متعلن	فاعلن
- ن ن -	ن ن -	ن ن ن -	- ن -
مستعلن	فعلن	متعلن	فاعلن
ن ن ن -	- ن -	ن ن ن -	- ن -
متعلن	فاعلن	متعلن	فاعلن
ن ن ن -	ن ن -	ن ن ن -	- ن -
متعلن	فعلن	متعلن	فاعلن
- - ن -	- ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
- - ن -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
ن - - ن -	- ن -	- ن - -	- ن -
متفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
ن - - ن -	ن ن -	- ن - -	- ن -
متفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن ن -	- ن -	- ن - -	- ن -
مستعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن ن -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
ن ن ن -	- ن -	- ن - -	- ن -
متفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
ن ن ن -	ن ن -	- ن - -	- ن -
متفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن

مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن - -	- ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن - -	- ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن - -	- ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن - -	- ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن - -	- ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن - -	- ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن

- ن - -	- ن -	ن - ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فاعلن	متفعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن - -	ن ن -	ن - ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فعلن	متفعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
ن - ن -	- ن -	ن - ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
متفعلن	فاعلن	متفعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
ن - ن -	ن ن -	ن - ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
متفعلن	فعلن	متفعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن ن -	- ن -	ن - ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فاعلن	متفعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن ن -	ن ن -	ن - ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فعلن	متفعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
ن ن ن -	- ن -	ن - ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
متفعلن	فاعلن	متفعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
ن ن ن -	ن ن -	ن - ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
متفعلن	فعلن	متفعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن - -	- ن -	- ن ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فاعلن	مستعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن - -	ن ن -	- ن ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستفعلن	فعلن	مستعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
ن - ن -	- ن -	- ن ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
متفعلن	فاعلن	مستعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
ن - ن -	ن ن -	- ن ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
متفعلن	فعلن	مستعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن ن -	- ن -	- ن ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستعلن	فاعلن	مستعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
- ن ن -	ن ن -	- ن ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
مستعلن	فعلن	مستعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن
ن ن ن -	- ن -	- ن ن -	- ن -	- ن - -	ن ن -	- ن - -	- ن -
متعلن	فاعلن	مستعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعلن

أما المتدارك فقد بلغت أوزانه (٥٨٦٣٠) ثمانية وخمسين ألفاً وستمائة وثلاثين وزناً، ومن أمثلتها:

ن ن —	— ن ن	— ن —	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعلن	فعلن
— —	— ن ن	— ن —	ن ن —
فالن	فاعل	فاعلن	فعلن
— ن ن	— ن ن	— ن —	ن ن —
فاعل	فاعل	فاعلن	فعلن
— ن —	— ن —	ن ن —	ن ن —
فاعلن	فاعلن	فعلن	فعلن
ن ن —	— ن —	ن ن —	ن ن —
فعلن	فاعلن	فعلن	فعلن
— —	— ن —	ن ن —	ن ن —
فالن	فاعلن	فعلن	فعلن
— ن ن	— ن —	ن ن —	ن ن —
فاعل	فاعلن	فعلن	فعلن
— ن —	ن ن —	ن ن —	ن ن —
فاعلن	فعلن	فعلن	فعلن
ن ن —	ن ن —	ن ن —	ن ن —
فعلن	فعلن	فعلن	فعلن
— —	ن ن —	ن ن —	ن ن —
فالن	فعلن	فعلن	فعلن
— ن ن	ن ن —	ن ن —	ن ن —
فاعل	فعلن	فعلن	فعلن
— ن —	— —	ن ن —	ن ن —
فاعلن	فالن	فعلن	فعلن
ن ن —	— —	ن ن —	ن ن —
فعلن	فالن	فعلن	فعلن
— —	— —	ن ن —	ن ن —
فالن	فالن	فعلن	فعلن
— ن ن	— —	ن ن —	ن ن —
فاعل	فالن	فعلن	فعلن
— ن —	— ن ن	ن ن —	ن ن —
فاعلن	فاعل	فعلن	فعلن
ن ن —	— ن ن	ن ن —	ن ن —
فعلن	فاعل	فعلن	فعلن

ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن

فعلن	فاعل	فعلن	فعلن
— —	— ن ن	ن ن —	ن ن —
فالن	فاعل	فعلن	فعلن
— ن ن	— ن ن	ن ن —	ن ن —
فاعل	فاعل	فعلن	فعلن
— ن —	— ن —	— —	ن ن —
فاعلن	فالن	فعلن	فعلن
ن ن —	— —	ن ن —	ن ن —
فعلن	فاعلن	فالن	فعلن
— —	— ن —	— —	ن ن —
فالن	فاعلن	فالن	فعلن
— ن ن	— ن —	— —	ن ن —
فاعل	فاعلن	فالن	فعلن
— ن —	ن ن —	— —	ن ن —
فاعلن	فعلن	فالن	فعلن
ن ن —	ن ن —	— —	ن ن —
فعلن	فالن	فعلن	فعلن
— —	ن ن —	— —	ن ن —
فالن	فعلن	فالن	فعلن
— ن ن	ن ن —	— —	ن ن —
فاعل	فعلن	فالن	فعلن
— ن —	— ن ن	— —	ن ن —
فاعلن	فالن	فالن	فعلن
ن ن —	— ن ن	— —	ن ن —
فعلن	فالن	فالن	فعلن
— —	ن ن —	— —	ن ن —
فالن	فالن	فالن	فعلن
— ن ن	— ن ن	— —	ن ن —
فاعل	فالن	فالن	فعلن
— ن —	— ن ن	— —	ن ن —
فاعلن	فالن	فالن	فعلن
ن ن —	— ن ن	— —	ن ن —
فعلن	فالن	فالن	فعلن
— —	— ن ن	— —	ن ن —
فالن	فالن	فالن	فعلن
— ن ن	— ن ن	— —	ن ن —
فاعل	فالن	فالن	فعلن
— ن —	— ن ن	— —	ن ن —
فاعلن	فالن	فالن	فعلن
ن ن —	— ن ن	— —	ن ن —
فعلن	فاعل	فالن	فعلن

فعلن	فاعل	فعلن	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعل	فاعل	فعلن

— —	— ن ن	— —	ن ن —	ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فالن	فاعل	فالن	فعلن	فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
— ن ن	— ن ن	— —	ن ن —	ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فاعل	فاعل	فالن	فعلن	فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
— ن —	— ن —	— ن ن	ن ن —	ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فاعلن	فاعلن	فاعل	فعلن	فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
ن ن —	— ن —	— ن ن	ن ن —	ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فعلن	فاعلن	فاعل	فعلن	فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
— —	— ن —	— ن ن	ن ن —	ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فالن	فاعلن	فاعل	فعلن	فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
— ن ن	— ن —	— ن ن	ن ن —	ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فاعل	فاعلن	فاعل	فعلن	فعلن	فاعل	فاعل	فعلن
— ن —	ن ن —	— ن ن	ن ن —	ن ن —	— ن ن	— ن ن	ن ن —
فاعلن	فعلن	فاعل	فعلن	فعلن	فاعل	فاعل	فعلن

وجاءت أوزان الشعر الحر بطائفتين، تضمنت إحداهما الأوزان التي تقوم على تكرار تفعيلة واحدة، وتضمنت الثانية الأوزان التي يقوم بناؤها على تفعيلتين مختلفتين.

وقد كانت هذه الأوزان مادة برنامج حاسوبي، يضع بين يدي مستخدمه كل الاحتمالات التي يمكن أن ترد بها أوزان الشعر العربي.

وما عليه فعله هو كتابة البيت الذي يريد معرفة وزنه، فيقوم الحاسوب بتقطيعه عروضياً، ومقابلته مع ما أودعته فيه من احتمالات.

ويحمل البرنامج اسم الفراهيديّ، عرفانا بجميل هذا العبقري على كل مهتم بالعروض.

الحواشي.

---

(١) يعتقد مؤلفو كتاب العروض بين التنظير والتطبيق (ص ١٤) أن دافع الخليل إلى وضع علم العروض — هو سد النقص في درس علم الوزن وتجارب قدراته في أحكام التقسيم.... والأساس الجوهريّ في بناء النظم، فيما يرى إبراهيم أنيس في كتابه (موسيقى الشعر) ص٤٩ (أن الخليل لما رأى ما اجترأ عليه الشعراء المحدثون في عصره من الجري على أوزان لم تسمع عن العرب، هاله ذلك فاعتزل الناس في حجرة له، يقضي فيها الساعات والأيام، يوقّع بأصابعه ويحركها، حتى حصر أوزان الشعر العربي).

وقد ذكر الشيخ جلال الحنفي رحمه الله في كتابه (العروض تهذيبه وإعادة تدوينه) طائفة من هذه الآراء، وردّ على بعضها، انظر تفصيل ذلك في ص٢٦- ٣٥.

(٢) كان الخليل عالماً يساعده ذكاء عجيب، وانقطاع تام إلى العلم، وتسعفه ثقافة واسعة متنوعة، وتهيمن عليه تقاليده الحقة فيما يقوله أو يفعله. انظر ص٢٥ وما يليها من كتاب (مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي) للدكتور جعفر نايف عباينة.

(٣) العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، ج١، ص٤٧ بتصرف.

(٤) انظر على سبيل المثال: مادة بسط التي يشير فيها إلى البسيط، ومادة سرع، وهزج.... وغيرها.

(٥) لست من المؤيدين لفكرة أن الخليل اكتشف خمسة عشر بحراً زاد عليها الأخفش بحر المتدارك فصارت ستة عشر، لأن الخليل اكتشف البحور كلها، واختار منها ما هو مستعمل، ولأن المتدارك لم يكن مستعملاً في عصره فقد أهمله كغيره من البحور التي يمكن استخراجها من الدوائر العروضية و لم ينظم عليها أحد.

(٦) معجم مصطلحات العروض والقافية، د. محمد علي الشوابكة ود. أنور أبو سويلم، ص٢٦٤.

(٧) معجم مصطلحات العروض والقوافي، د. رشيد عبد الرحمن العبيدي، ص٨٢.

(٨) المصدر السابق، ص٣١.

(٩) الفن ومذاهبه في الشعر، د. شوقي ضيف، ص٧٤.

مصادر البحث ومراجعه

- دراسات في علم أصوات العربية، د. داود عبده، مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع، الكويت د. ت.
- العروض بين التنظير والتطبيق، د. محمد الكاشف ود. أحمد هريدي ود. محمد عامر، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٨٥.
- العروض تهذيبه وإعادة تدوينه، الشيخ جلال الحنفي، مطبعة الإرشاد - بغداد ١٩٨٥م.
- العروض القديم، د. محمد علي السمان، دار المعارف، القاهرة ط٢، ١٩٨٦م.
- العروض والقافية، د. عبد الرضا علي، دار الكتب، الموصل، ١٩٨٩م.
- العمدة في محاسن الشعر ونقده، ابن رشيق، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٣، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٣م.
- فن التقطيع الشعري والقافية، د. صفاء خلوصي، مكتبة المثنى، بغداد، طه ١٩٧٧.
- معجم مصطلحات العروض والقافية، د. محمد علي الشوابكة ود. أنور أبو سويلم، دار البشير، عمان ١٩٩١م.
- معجم مصطلحات العروض والقوافي، د. رشيد عبد الرحمن العبيدي، مطبعة جامعة بغداد، بغداد ١٩٨٦م.
- موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٤، ١٩٧٢م.
- نظرية في العروض العربي، سليمان أبو سته، دار الإبداع للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٢م.

بحر المتدارك وقضية تداركه على الخليل بن أحمد الفراهيديّ

أ.د. علي ارشيد محاسنة
جامعة مؤتة – الأردن

بحر المتدارك وقضية تداركه على الخليل بن أحمد الفراهيديّ

أ.د. علي ارشيد محاسنة

الملخص:

يرى أكثر المصنّفين المُحْدَثين في العروض أن بحر المتدارك لقب بهذا اللقب لأن الأخفش سعيد بن مسعدة تدارك البحر على الخليل دون استناد إلى دليل يذكر. وبتتبّع هذه المسألة تاريخياً، وبدءاً من الأخفش، الذي يُعدّ كتابه في العروض من أوائل ما وصل إلينا من كتب العروض، وبالنظر في كتابه فإننا لا نعثر على إشارة من قريب أو بعيد تفيد أن الأخفش تدارك البحر، ولو فعل هذا لما توانى في نسبة هذا الشرف إلى نفسه، بل نُفَاجَأ أيضاً عندما نرى أن حديثه عن البحور الشعرية يختلف عمّن جاء بعده من العروضيين إذ يتم الحديث عندهم عن أعاريض البحر وأضربه، يعقبه حديث عن زحافاته المُمكنة.

وبالنظر في كتب العروضيين القدماء نرى أن أقدم إشارة إلى هذا اللقب "المتدارك" عُرِفَتْ بعد زمان الأخفش، وأول إشارة إليه كانت عند ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ) والإشارةُ ليست منه، ولكنه يحيلها على الجوهري وفي كل الإشارات هذه لم يذكر أحدٌ منهم أن اللقب جاء لأن الأخفش تدارك هذا البحر.

وهناك ألقابٌ أخرى أطلقها العروضيون على هذا البحر فهناك ركض الخيل وقطر الميزاب، والغريب، والمحدث، والشقيق، والمتسق، والخبب، والمخترع، والمتقاطر، والركض، والمتدارك، ودق الناقوس. فلماذا الوقوف عند لقب المتدارك لنخترع بعد ذلك تعليلا لا يصمد أمام الدليل، وهو أن الأخفش تدارك البحر. يُضاف إلى هذا أن لقب المتدارك، والألقاب الأخرى جاءت بعد زمان الأخفش.

ويبدو لي أن عدم ورود شواهد شعرية على هذا البحر حتى زمان الخليل هو السبب الذي جعل الخليل بن أحمد الفراهيديّ يهمل ذكر هذا البحر مثله مثل بقية البحور الشعرية المهملة، والتي لم يجد الخليل نماذج عليها في زمانه.

أمّا أن الخليل كان على علم بهذا البحر فهذا مما لا شكّ فيـــه، لأن الدوائـــر

العروضيّة هي من ابتداع الخليل، ولأن المتدارك يُفَكّ من أصل دائرة "المتفق"، وذلك بعد أن نحذف الوتد المجموع من بداية المتقارب، ونبدأ من السبب الخفيف، ونفك المتدارك.

وقد يقول قائل إذا كان الخليل – رحمه الله – على علم بالبحر ولكنه أهمله لدواع كثيرة فلماذا لم يذكره الخليل، وينص على أنه يفك من دائرة المتفق ؟

أقول: هناك بحر ثالث في دائرة "المؤتلف" وهو بحر "المتوافر" ويفك من ثاني بحور الدائرة وهو الكامل، لم يذكره الخليل، وضرب العروضيون عنه صفحاً، ولا يتعرضون له من قريب أو بعيد، باستثناء إشارة ابن عبد ربه الأندلسي الذي قال عنه:

ينفك منها وافرٌ وكاملٌ وثالث قد حار فيه الجاهل

وبالإضافة إلى ما سبق كلّه، هناك أيضاً جملةٌ من الملاحظات، قد تكون هي وغيرها سبباً لإهمال الخليل لهذا البحر من جهة، كما قد تكون سبباً في اختلاف العروضيين حول ورود بعض الصور الشاذة من هذا البحر، وإلى اختلافهم في التسميات والألقاب الكثيرة التي أطلقت عليه، وهي:

أولاً: إن إيقاع هذا البحر إذا جاءَ تاماً، نلحظ فيه سماجةً في الإيقاع، تذهب عنه رَونَق الشعر الذي نحس به عادةً عند إنشاء الشعر، وقد يلحظ القارئ لنماذجه هذا الشيء كقول الشاعر:

لم يدع من مضى للذي قد غبر فضل علم سوى أخذه بالأثر

أو قول الشاعر:

يا بني عامر قد تجمعتُمُ ثم لم تدفعوا الضيم إذ جئتُم

أو قول الشاعر:

جاءنا عامرٌ سالماً صالحـــاً بعد ما كان ما كان من عامر

ولذلك نصّ أكثر العروضيين القدماء على أن استعمال صورة المتدارك التام تُعدّ شاذة.

ثانياً: وردت صورة للمتدارك المجزوء، ولها أضرب ثلاثة هي: الضرب الصحيح، والمذال، والمرفّل. وهذه الصور جميعها تُعدّ شاذة عند العروضيين. وبعد إيراد هذه الصور عند الخزرجي الزنجاني قال: "وجميع هذا غريب وكأنه محدث". وقد أشار الإسنوي إلى هذه الصورة الشاذة شعرا فقال:

وشذ فيه تمام يا بني وكذا مجزوُه بثلاثة أتت دللا

دار مرفلها هذه مذيلها قف مثلها واقطعن مالي إذن قبلا

ثالثاً: هذا البحر في بعض صوره، وهي دخول القطع في حشوه، يُعدّ شذوذاً أيضاً، وخروجا على الأصول التي وضعها الخليل، إذ إنّ القطع لا يدخل الحشو، بل هو علّة تدخل على الأعاريض والأضرب، والعلل لا تكون حشواً أبداً، ولا يحدث هذا إلا في هذا البحر ولهذا حاول بعض العروضيين أن يتجهوا في تسويغ هذه الصورة بطريقة مفترضة خيالية وغير منطقية، وذلك عند عدم إقرارهم بدخول القطع في حشوه، سمّوه مضمراً بعد الخبن. وسماه بعضهم تشعيثاً . ولدخول القطع في حشو هذا البيت رأى بعض العروضيين أن هذا البحر يقوم على إيقاعين يختلف كل منهما عن الآخر تمام الاختلاف، فالإيقاع الأول يقوم على توالي الأسباب والأوتاد كما هو الحال في البحور الأخرى، والآخر يقوم على النبر ولذلك يرى عبد الصاحب المختار أن "لا علاقة للمتدارك ببحري دق الناقوس والخبب".

رابعاً: وردت بعض صور جديدة لهذا البحر، وهي تحوّل تفعيلة "فاعلن" (/٥//٥) التامة أو فعلن (///٥) المخبونة إلى صورة جديدة أخرى هي، فَاعِلْ (/٥//) كما حدث عند نازك الملائكة وغيرها من الشعراء، وهذا يزيد ربما في صورة البحر الشاذة والخارجة على قواعد الخليل.

خامساً: إن اختلاف إيقاع البحر في تشكيلاته المختلفة ما بين الصحيح التام، والمقطوع الأجزاء، والمخبون الأجزاء، هو السبب في كثرة الألقاب التي أشرنا إليها سابقاً.

سادساً : إن إيقاع هذا البحر لا يكون متجانساً ومقبولاً إلاّ إذا جاءت أجزاؤه مقطوعة

ومخبونة معاً، أي على خلاف الأصل، كما في الكثير من القصائد الشعرية المغناة بينما يأتي إيقاعه سمجاً خالياً من الرونق ــ على حد تعبير ابن رشيق القيرواني ــ إذا جاء صحيحا تاما، كما نص على ذلك كثير من العروضيين. لذلك كله "لا جرم أن الخليل رحمة الله عليه لم يذكر المتدارك في البحور البتة". "ولم يجزه الخليل ودفعه مرّة واحدة".

* * * * *

سمي بحر المتدارك بهذا الاسم – على رأي أكثر المصنفين المُحْدثين في العروض – لأن الأخفش تداركه على الخليل، واستقر هذا الرأي على شكل مسلّمة من المسلّمات بين الناس دون استناد إلى دليل يذكر، ودون نتتبع لهذه المسألة. وسنحاول تتبع هذه المسألة تاريخياً لطبيعتها التي سنحاول دراستها؛ لنصل بعد ذلك إلى رأي يمكن أن نركن إليه في هذا الجانب.

وعندما نصل إلى أول المصنفين تاريخياً ممن وصلت إلينا كتبهم، وهو الأخفش، سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥هـ)، الذي زعم الباحثون أنه صاحب الاستدراك، فإننا لا نعثر على إشارة من قريب أو بعيد تفيد أن الأخفش تدارك البحر على الخليل، وكتابه يخلو خلواً تاماً من ذكر بحر المتدارك. ولو قام بهذا العمل لبادر بإسناد هذا الشرف إلى نفسه، حتى إن المطالع لهذا الكتاب يرى أن معالجة الأخفش للبحور تأتي مختلفة عن معاصريه ومن جاؤوا بعده؛ فهو لا يتناول البحر، ليتحدث عن أعاريضه وأضربه، ثم يتحدث عن زحافاته، كما نرى عند الصاحب بن عبّاد وابن جني، والتبريزي، وغيرهم. وقد فعل هذا مع بحر المتدارك الذي جاء آخراً في كتابه[1]. ولم يأت على ذكر المتدارك البتّة. مما دعا أحدهم أن يدعي أن كتابه ما زال مفقوداً، وأن ما وصل إلينا منه هو بعضه وليس كله[2].

وبعد الأخفش يأتي ابن عبد ربه الأندلسيّ (ت ٣٢٧هـ)، الذي أفرد في كتابه "العقد" باباً للعروض سمّاه "الجوهرة في أعاريض الشعر وعلل القوافي"[3]. يشير ابن عبد ربه إلى أن هذا البحر (المتدارك) يفك من دائرة المتقارب. وأنه لم ترد شواهد شعرية تبنى على هذا البحر حتى عهده، وهو يقتفي أثر الخليل في هذا

الأمر، فهو لا يقبل به لأنه لم يكن من بحور الخليل مع أن الخليل أجاز أن يكون هناك بحور غير البحور التي أشار إليها، فما لا يذكره الخليل، لا يَعتدّ به ابن عبد ربه وهو يعترف للخليل بالفضل الكبير وبالسبق في هذا الأمر، يقول[٤]:

وبعدها خامسة الـدوائـر ... للمتقارب الذي في الآخـر
ينفكُ منها شطره وشطرُ ... لم يأت في الأشعار منه الذكر
هذا الذي جربه المجرّب ... من كل ما قالت عليه العرب
فكل شيء لم تقل عليـه ... فإننـا لـم نلتفت إليـه
وقد أجاز ذلك الخليـل ... ولا أقـول فيـه ما أقول

ويأتي الصاحب بن عبّاد (ت ٣٨٥هـ) بعد عصر الأخفش ولا يذكر أن الأخير تدارك بحراً على أستاذه الخليل، وذكر أن العرب لم تفك من دائرة المتفق غير بحر المتقارب، ويذكر أن بعضهم قد تعاطى الفك فأخرج منه (فَاْعِلُنْ) بتقديم السبب على الوتد، وسموه الغريب، والمتسق، وركض الخيل، وأورد بيت شعر منه وذكر أنه للجنّ مما يطعن في روايته[٥]. وكأنّ الصاحب بن عباد لا يعترف به بحراً مقتفياً بذلك أثر السابقين عليه ممن صنفوا في هذا العلم.

ولم يُشر ابن جني (ت ٣٩٢هـ) إلى هذا البحر، وختم حديثه عن بحور الشعر العربي، بالبحر المتقارب، ولكن مُحقق الكتاب ذكر أن دائرة المتفق، تضمنت رموز البحر السادس عشر في كتاب ابن جني على الرغم من أن نُسخ الكتاب جميعها لم تتحدث عنه، وسمي الغريب[٦].

وبعد ابن جني يأتي أبو الحسن علي بن عيسى الربعي (ت ٤٢٠هـ) الذي تحدث عن دائرة المتفق، فذكر البحر المتقارب وأعاريضه وأضربه وزحافاته، وشواهده الشعرية فيها هي الشواهد نفسها التي رأيناها عند الصاحب بن عبّاد[٧]. لكنه لم يذكر فيها المتدارك البتة. وقال: "... ودائرة المتقارب وفيها على ما زعم الخليل باب واحد هو المتقارب"[٨] وقد علّق الدكتور محمد أبو الفضل بدران على ذلك، يقول:"مما يوحي أنه غير راضٍ عما ذكره الخليل إذ إنّ لفظة زعم تدل على ذلك وتوضح لنا أنه مخالف الخليل"[٩]. وإذا كان الرجل مخالفاً للخليل – عـلى حدّ قول المُحقق – فلماذا لم يذكـر

البحر المتدارك؟ ولماذا لم يوضح لنا عدم رضاه عن ذلك؟

أما ابن رشيق القيرواني(ت ٤٥٦هـ)، فقد أورد اسم المتدارك وبذا يُعدّ أول المصنفين الذين يوردون هذا الاسم للبحر ولكنه لم يذكر أنه مستدرك على الخليل من قبل الأخفش، وقد جاء حديثه عنه آخراً بعد الحديث عن المتقارب، يقول عنه:"مثمن قديم، مسدّس مُحدث، أجزاؤه (فَاْعِلُنْ) ثماني مرات". وذكر من زحافاته: "الخبن والقطع والإذالة والترفيل[١٠]" ولكن ابن رشيق القيرواني يذكر في مكانٍ آخر من كتابه أن الخليل بن أحمد عدّ أجناس البحور خمسة عشر باباً لم يذكر من بينها المتدارك[١١]. ويتحدث - نقلاً عن الجوهري- أن الأخير جعل أجناس الشعر اثني عشر باباً خلافاً للخليل ومن بينها المتدارك، وأن بحر المتدارك يأتي بعد بحر الرجز وبعد المتدارك المديد، وأن المتدارك الذي ذكره الجوهري مقلوب من دائرة المتقارب[١٢].

وما أن نصل إلى بداية القرن السادس الهجري، حتى نصادف أبا زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢هـ)، يذكر لنا اسما جديدا للبحر هو "المحدث" وأن البحر لم ينفك من دائرة المتفق عند الخليل الفراهيديّ وانفكّ من الدائرة عند غيره، يقول: "ومن أصل الخليل أن هذه الدائرة لم ينفكّ منها من المتقارب غيره فأفرده في دائرة ومن أصل غيره أنه لمّا انفكّ منه المُحدث وهو من موضع لن من فعولن"[١٣] وذكر من أسمائها: الغريب والمتسق، وركض الخيل، وقطر الميزاب[١٤].

ومن علماء القرن السادس الهجري ابن القطاع، أبو القاسم علي بن جعفر (ت ٥١٥هـ) الذي قصر دائرة المتفق على المتقارب وحده[١٥]، وبعد أن تحدث عن زحافات المتقارب قال: "وقد أخرج بعضهم من بحر المتقارب جنسا يسمى المخترع، ويسمى الخبب، وركض الخيل، وهو يبني على فاعلن ثماني مرات[١٦]. وبعد حديثه عن بعض ما شذَّ من أوزان هذا البحر، قال: "ولم يجزه الخليل ودفعه مرّة واحدة"[١٧]. ثم يؤكد مرة ثانية أن دائرة المتفق متركبة من جزء واحد يتكرر ثماني مرات -وهو فعولن- وأنها للمتقارب وحده[١٨]. ونلاحظ أن ابن القطاع يذكر

أسماء أخرى لهذا البحر هي: المخترع والخبب وركض الخيل. ومع أن ابن القطاع لم يثبت بحر المتدارك بحراً مستقلاً، وأسنده إلى "بعضهم"–أي بعض العروضيين– وأوضح أن دائرة المتفق هي للمتقارب وحده في موضعين من كتابه[١٩]. لكنه أثبت أيضاً بحر المتدارك على الدائرة، وانفكاكه من بحر المتقارب من أول السبب الخفيف بعد حذف الوتد المجموع وهو بداية المتقارب[٢٠]. ويبدو لي أن هذا الذي أثبته ابن القطاع قد نقله عن غيره من العروضيين.

أما الزمخشري، جار الله، أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ)، فقد أثبت بحر المتدارك وأقرَّ بوجوده، يقول: "ثم إن من تعاطى التصنيف في العروض، من أهل هذا المذهب، فليس غرضه الذي يؤمه أن يحصر الأوزان التي إذا بُني الشعر على غيرها لم يكن شعراً عربياً، وأن ما يرجع إلى حديث الوزن مقصور على هذه البحور الستة عشر لا يتجاوزها"[٢١]. وعندما يتحدث عن تركيب البحور الشعرية يذكر البحر ويطلق عليه اسم "الركض"، يقول: وقد سلكوا في تركيب بحور الشعر من هذه الأجزاء الثمانية أربعة طرق أحدها أنهم كرروا الجزء الواحد بعينه كما هو من غير أن يُصْحبُوه غيره، وذلك في جميعها، ماخلا واحدا وهو"مفعولات"، و"فعولن" ثماني مرات وهو المتقارب، و"فاعِلن"ثماني مرات يسمى الركض[٢٢]. وبعد حديثه عن أعاريض المتقارب وأضربه وزحافاته ذكر (الركض)، وذكر من أسمائه (المُحْدث) أيضاً، وأنه في البناء مُثَمن كما هو في الدائرة أيضاً، وأثبت أنه قد يأتي مخبوناً أو مقطوعاً أو مخبوناً كله، أو مقطوعاً كله، وأورد الشواهد الشعرية على ذلك[٢٣].

ومن علماء القرن السادس الهجري، أبو بكر بن السّراج (ت ٥٥٠هـ)، وعند حديثه عن الدوائر جعل دائرة المتفق أولى الدوائر، لأنها من الدوائر البسائط حسب تعبيره[٢٤]، ويُفكُّ منها بحْران: المتقارب والمتدارك، يقول: "وجملة الدوائر المحيطة بهذه الأجناس خمس دوائر: ثلاث منها بسائط، واثنتان مركبتان. أما البسائط فأولها دائرة المتفق ولها من الأجزاء فعولن مكرراً ثماني مرات. وهو مركب من وتد مجموع وسبب خفيف. فأول الوتد مفك المتقارب، وأول السبب مِفكّ المتدارك"[٢٥].

ويبدو من كلامه أن بحر المتدارك غير مستعمل عند الخليل، ولكنه مستعمل عند غيره، ثم ذكر من أسمائه المخترع، والخبب، وركض الخيل. وهو ليس شعراً عند الخليل، ويُروى أنه نصَّ على طرحه وتحدث عن علله وزحافاته وما شذّ منها(٢٦) ومن علماء هذا القرن أيضاً: نشوان الحميري (ت ٥٧٣هـ)، الذي أطلق على البحر اسماً جديداً لم يتكرر عند غيره، وهو المتقاطر، ومن أسمائه أيضاً: الخبب والمخترع، وينسب إلى العروضيين أنَّ منهم من جعله من المتقارب، ثم يتحدث عن علل البحر(٢٧).

وفي القرن السابع الهجري يبرز اسم الخزرجي الزنجاني (ت ٦٦٠هـ)، الذي يذكر اسم المتدارك والمتداني، والمتسق. وأشار إلى أن العرب لم تستعمله تاماً والبيت الذي أورده على تام البحر أشار إلى أنه مصنوع، وأن الصور المستخدمة فيه هي (فَاْعِلُنْ) المخبونة أو المقطوعة في جميع أجزائه، فله إذن عروضان وضربان: المخبون فَعِلُنْ، والمقطوع فَعِلُنْ(٢٨). وينقل عن أبي زكريا أن الصورة التامّة المقطوعة يمكن أن تجعل(مَفْعُولاتُنْ) أربع مرات، وهو خطأ، لأن فيه إخراجاً للبحر عن طريقة أجزائه، وأن العرب لم تؤلف من مفعولاتن شعراً، وأشار أيضاً إلى بعض صوره الغريبة والشاذة، وهو أول من يشير إلى أن أبا العتاهية صنع على هذا البحر شعراً(٢٩) ويلاحظ المرء أن الخزرجي الزنجاني، نصّ على أن الأخفش أثبت البحر ولم يُثْبته الخليل، ولم يقل تداركهُ، مع العلم أن الأخفش لم يأتِ على ذكر المتدارك كما أشرنا سابقاً.

وفي نهاية القرن السابع الهجري يُبرز اسم محمد بن علي المحلي (ت ٦٧٣هـ)، الذي يتحدث عن الدوائر العروضية، ويذكر الدوائر البسائط والمركبة، وهي كما نلاحظ من مصطلحات أبي بكر بن السراج ويذكر دائرة المتفق، يقول: "ثم جعلوا هذه الأجزاء الثمانية – تفعيلة فعولن– دائرة لا يعرف أولها من آخرها بل أي جزء بدأوا به ختموا بالذي قبله، وسمّوها دائرة المتفق... ثم فكّوا منها بحرين: المتقارب والمتدارك"(٣٠) وبعد أن يتحدث المحلي عن بعض صور المتدارك الشاذّة عقّب قائلاً: " لا جرم أن الخليل رحمة الله عليه لم يذكر المـــتدارك

في البحور البتّة"[٣١].

ومن علماء القرن الثامن الهجري جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي الشافعي (ت ٧٧٢هـ)، ففي شرحه لعروض ابن الحاجب الذي يقول فيه:

وخمسة عشر بحراً دون ما مُتَدَا ركٍ وما عدّه الخليل بل عَدَلا

يذكر الإسنوي – في شرح كلام ابن الحاجب أن بحور الشعر "عند الخليل خمسة عشر وعند غيره ستة عشر، ومنشأ الخلاف أن المتدارك هل هو منها أو من السجع؟ فالخليل لم يَعُدّه بل منعه[٣٢]".

وعن دائرة المتقارب يقول المصنف –ابن الحاجب–[٣٣].

والمتقارب مفرد بدائرةٍ فالدائراتُ إذاً خمسٌ لمن عقلا

وفي حديثه عن المتدارك قال: "هذا هو البحر الذي لم يذكره الخليل، وتداركه غيره، ولهذا سُمي المتدارك"[٣٤]. ثم يُورد بعض ألقاب البحر عند ابن الحاجب وعند غيره، فهو المخترع عند ابن الحاجب، وهو الخبب وركض الخيل، والمُحدث، والغريب، وقطر الميزاب عند غيره[٣٥].

ونلاحظ أن الإسنوي لم يقل بعدم علم الخليل بالبحر، بل قال" لم يذكره" وعدم الذكر لا يعني عدم العلم بالشيء، ثم قال "وتداركه غيره"، وهذا الكلام وإن كان متناقضاً مع قوله "لم يذكره" لكن على كل حال لم ينص على هذا "الغير" الذي تدارك البحر على الخليل.

ثم يرى أن بحر المتقارب "هو آخر دائرة المتفق، وسميت بذلك لاتفاق أجزائها، لأنه لم يوجد فيها إلاّ المركب من فعولن على مذهب الخليل... وأمّا على رأي الجمهور فلأن البحرين متفقان في أن كل جزء من تلك الأجزاء خمسة أحرف"[٣٦].

ومن علماء القرن التاسع الهجري محمد بن أبي بكر الدّماميني (ت ٨٢٧هـ) الذي يذكر لأول مرّة أن المتدارك هو من عمل الأخفش، يقول: "وبقي المتدارك الذي زاده الأخفش مدرجاً له في دائرة المتفق كما قدّمته ويسمى بالمُحدث والمخترع والخبب"[٣٧]. وهذه الإشارة الوحيدة لا تنهض دليلاً على أن الأخفش تدارك هذا البحر. كما نلاحظ أيضاً أن الدّماميني نفسه يذكر ألقاباً أخرى للبحر هي

المُحدث والمخترع والخبب، يُضاف إلى هذا أن الدّماميني لم يوضّح لنا كيف تدارك الأخفش هذا البحر؟

ثم ذكر الدّماميني أعاريض البحر وأضربه، فتامّهُ له عروض وضرب مخبونان. ولمجزوئه عروض صحيحة وثلاثة أضرب: صحيح ومرفّل ومذيّل، وزحافه الخبن والإضمار تشبيهاً لثانيه بثاني السبب الثقيل[٣٨].

أما القنائي(ت ٨٥٨هـ)، فذكر بحر المتدارك بهذا اللقب، وأشار إلى أعاريضه وأضربه، كما أشار إلى بعض زحافاته، وأجاز القطع في حشوه[٣٩].

ومن علماء القرن الحادي عشر الهجري، ياسين الشهابي المصري، الذي يذكر البحر بلقب (المخترع)، ويشير في منظومة أنّه مُثمّن الأجزاء، وأنه يستعمل تاماً وإن كان شاذاً، كما أشار إلى وروده في أجزائه جميعها مخبوناً، وإلى ورود القطع في حشوه وخبن باقي الأجزاء، وأشار كذلك إلى عروضه الثانية المجزوءة، وأضربها الثلاثة، مشيراً إلى أبيات شواهده على شكل بيت شعري، يقول: [٤٠]

مُثمّنُ الأجزاء بحر المخترع ... له عروضٌ مع ضربٌ مُتّبع

وخبنها جميعها مُستعملٌ ... كَفَعلُنْ وشذّ نحو فاعِلنْ

والقطع في عروضه قد سُمِعا ... والخبن في الباقي منها وقعا

وقد أتى ما تمَّ جزءاً مُنصّفْ ... بالجزء أيضاً والعروض قد عُرفْ

لها ثلاثة من الأضرب قد ... جاء صحيحاً أولٌ وقد وَرَدْ

الثاني مخبوناً مع الترفيلِ ... ثالثها أُعلَّ بالتذييل

ويدخل القطع بكل جزءٍ ... منه إذا لم يتّصف بجزء

قُل كرةٌ فأنت عامر الرضا ... دارُ زبورٌ درهمٌ قد انقضى

أمّا الصبّان (ت ١٢٠٦هـ)، فقد ذكر البحر بلقب (المتدارك)، وأشار إلى عدم ذكر الخليل له "إما لأنه لم يَبْلُغْهُ، أو لأنه مخالفٌ لأصوله بدخول التشعيث في حشوه، وهو مختص بالأعاريض والضروب"[٤١] وأورد ألقاباً أخرى للبحر وردت عن سابقيه مع ذكر سبب التلقيب[٤٢]. وأشار إلى الجائز والشاذ من أعاريضه وأضربه وزحافاته[٤٣].

رأي المحدثين:

تنقسم آراء الباحثين المحدثين في هذا الجانب إلى قسمين، قسم يتعلق بقضية النسبة، والثاني يتعلق بوزن بحر المتدارك وإيقاعاته. وفيما يتعلق بالقسم الأول، موضوع بحثنا، فإن أكثر المؤلفين في العروض قالوا بتدارك الأخفش للخليل ببحر المتدارك دون استناد إلى دليل وهم الجمهرة تقريباً(٤٤).

وذهب بعضهم الآخر إلى عدم قبول هذا الرأي لأن الخليل نظم عليه شعراً(٤٥). والحقيقة أن هذا الكلام ليس صحيحاً على علاّته، وسوف نناقش المسألة لاحقاً بمزيد من التفصيل. بينما يرى آخرون أن هذا البحر وصل إلى علم الخليل الفراهيديّ، ولكنه عافه وأهمله لأنه يغاير أصوله بدخول القطع أو التشعيث في حشوه وهي من العلل التي تدخل الأعاريض والأضرب(٤٦). وذهب فريق آخر إلى أن الخليل كان على علم بالبحر، ولكنه لم يثبته لأن العرب لم تكتب عليه شعراً(٤٧). أما ما رواه أبو الطيب اللغوي (ت ٣٥١هـ) وتابعه فيه القفطي في أنباه الرواة من "أن للخليل بن أحمد قصيدة على "فَعَلُنْ" ثلاثة متحركات وساكن، وأخرى على"فَعَلن" بمتحرك وساكن فالتي على ثلاثة متحركات قصيدته التي فيها:

سئلوا فأبوا فلقد بخلوا فلبئس لعمرك ما فعلوا
أبكيت على طلل طرباً فشجاك وأحزنك الطلل

والتي على "فعلن" ساكن العين، قوله:

هذا عمرو يستفعي من زيد عند الفضل الكافي
.... إلخ

فاستخرج المحدثون من هذين الوزنين وزناً سموه: المخلّع، وخلطوا فيه بين أجزاء هذا وأجزاء هذا(٤٨).

ونحن نردُّ هذا الكلام بأدلة خارجيّة وأدلة داخليـّة، وما يدخل تحت الأدلة الخارجية أقول: إذا كنّا على يقين أن الخليل كان على علم ببحر المتدارك لكنه أهمله لعدم ورود شواهد شعرية عليه إلى زمانه وبعد زمانه أيضاً فكيف يستقيم هذا مع ما أورده أبو الطيّب اللغوي؟ وإذا كان الخليل على علم بالبحر ولكنه أهمله لأنه

خارج على الأصول التي وضعها الخليل نفسه بدخول القطع في حشوه، فكيف يضع الخليل أصول العروض ويخرج هو نفسه عليها؟

والأبيات التي أوردها أبو الطيّب اللغوي وتابعه فيها القفطي، على رويّ الضاد وعلى رويّ اللام، وزعما أنها للخليل، لم ترد إلا في هذين الموضعين يضاف إليها مصدر ثالث وهو نور القبس، وهذا قد يطعن في صحة نسبة هذه الأبيات للخليل. كما أن شهرة الخليل لم تكن بالشعر، بل "كان يقول الشعر فينظم البيتين والثلاثة ونحوها"(٤٩). وهاتان المقطوعتان هما الوحيدتان اللتان تأتيان متوافقتين مع وزن المتدارك في مجموع شعر الخليل بن أحمد الفراهيدي(٥٠). والحقيقة أن في كلام أبي الطيّب اللغوي السابق الذكر ما يستوجب الوقوف عنده، يروي أبو الطيّب اللغوي "وأحدث الخليل أنواعاً من الشعر ليست من أوزان العرب"(٥١). والعبارة فيها تعميم، فلا ندري ما الأوزان التي يتحدث عنها أبو الطيّب اللغوي والتي أحدثها الخليل، وليست من أوزان العرب؟

ثم يقول في آخر العبارة "فاستخرج المحدثون من هذين الوزنين وزنا سمّوه المخلّع، وخلطوا فيه بين أجزاء هذا وأجزاء هذا"(٥٢). والعبارة فيها ضبابيّة وعدم وضوح أيضاً، فوزن المتدارك وإيقاعه يختلف عن إيقاع مخلع البسيط، وهذا الوصف يطلق على البسيط عندما يكون مجزوء، وعروضه وضربه مخبونين مقطوعين، ومثاله:

أصبحتُ والشيب قد علاني يدعو حثيثاً إلى الخضاب

/٥/٥//٥/٥//٥/٥ /٥/٥//٥/٥//٥/٥

فأين هذا الإيقاع من إيقاع المتدارك؟!

مناقشة الآراء السابقة:

بالنظر إلى موقف العروضيين القدامى بدءاً من الأقدم منهم وهو الأخفش سعيد بن مسعدة وبالنظر في كتابه "العروض"، فإننا لا نعثر على أية إشارة تفيد أنه استدرك هذا البحر على الخليل ، فلو كان الأخفش هو الذي تدارك هذا البحر لما تأخر في نسبة هذا الشرف إلى نفسه، بل نفاجأ إذا طالعنا كتابه لنرى أن حديثه عن البحور الشعرية يختلف عمّن جاء بعده من العروضيين، إذ يتم الحديث عندهم عن البحر وأعاريضه وأضربه، يعقبه حديث عن زحافاته كما نرى عند ابن عبد ربه وابن جني، والتبريزي والصاحب بن عباد وغير هؤلاء أيضاً. لكننا لا نرى شيئاً شبيهاً بهذا عند الأخفش وقد يشكل هذا صدمةً لِمنْ يظن أن الأخفش تدارك البحر على أستاذه الخليل.

وبالنظر إلى موقف العروضيين القدماء أيضاً والألقاب التي أطلقها هؤلاء على البحر، نجد أن ألقاباً أخرى كثيرة للبحر إلى جانب المتدارك؛ فهناك:"ركض الخيل، وقطر الميزاب، والغريب، والمُحدث، والشقيق، والمتدارك، والمتّسق، والخبب"[٥٣]. والمتقاطر والمخترع[٥٤]، والركض[٥٥]. ويبدو أنه اختصار للقب "ركض الخيل".

فهناك اثنا عشر لقباً لهذا البحر، فلماذا الوقوف عند لقب المتدارك لنختلق بعد ذلك تعليلاً لا يصمد أمام الدليل وهو أن الأخفش تدارك البحر على الخليل؟ يضاف إلى هذا أن لقب المتدارك والألقاب الأخرى جاءت بعد زمان الأخفش.

ويبدو أن تجاهل الخليل لهذا البحر وعدم إطلاق لقب مُحدّد له، هو السبب في كثرة ألقاب البحر التي تصف علله وزحافاته، ولهذا قال الصبّان: "ولما لم يُسَمِّه الخليل لعدم ذكره له سمّاه كل قوم من العروضيين باسم"[٥٦].

أما أن الخليل كان على علم بالبحر، فهذا لا شكّ فيه، لأن الدوائر العروضية من ابتداع الخليل، ولأن المتدارك يُفكُّ من المتقارب أصل دائرة المتفق، وذلك بعد أن نحذف الوتد المجموع من بداية المتقارب، ونبدأ من السبب الخفيف ونفك المتدارك، كما في الشكل الآتي:

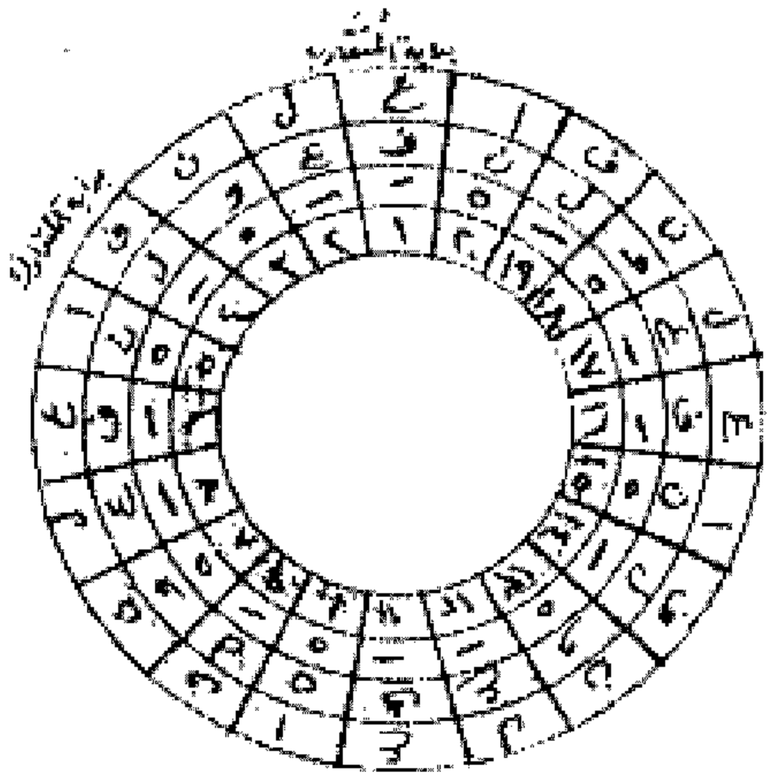

وإذا حذفنا السبب الخفيف من بداية المتدارك، ونبدأ بالوتد المجموع فإننا نعُود مرّة ثانية إلى المتقارب وبذلك تُغلق الدائرة، ونعود إلى أصلها كما بدأنا.

وقَد يقول قائل، إذا كان الخليل –رحمه الله– على علم بالبحر، لكنه أهمله لدواعٍ كثيرة، فلماذا لم يذكره الخليل، وينص على أنه يفك من دائرة المتفق؟ أقول: هناك بحر ثالث في دائرة المؤتلف وهو بحر المُتوافر، ويُفكّ من الكامل، ثاني بحور الدائرة لم يذكره الخليل، وضرب العروضيون عنه صفحاً، ولا يتعرضون له من قريب أو بعيد، وهو الذي قال فيه ابن عبد ربه:

ينفكُّ منها وافرٌ وكاملٌ وثالثٌ قد حار فيه الجاهلُ[٥٧]

ويبدو لي أن سبب هذه الحيرة التي تحدث عنها ابن عبد ربه هو أن هذا البحر هو البحر الوحيد الذي ينتهي بسبب ثقيل ، على خلاف البحور الأخرى التي تنتهي إمّا بوتد مجموع، أو سبب خفيف، أو وتد مفروق. ولتوضيح الأمر ننظر في تشكيلات هذه الدائرة (دائرة المؤتلف):

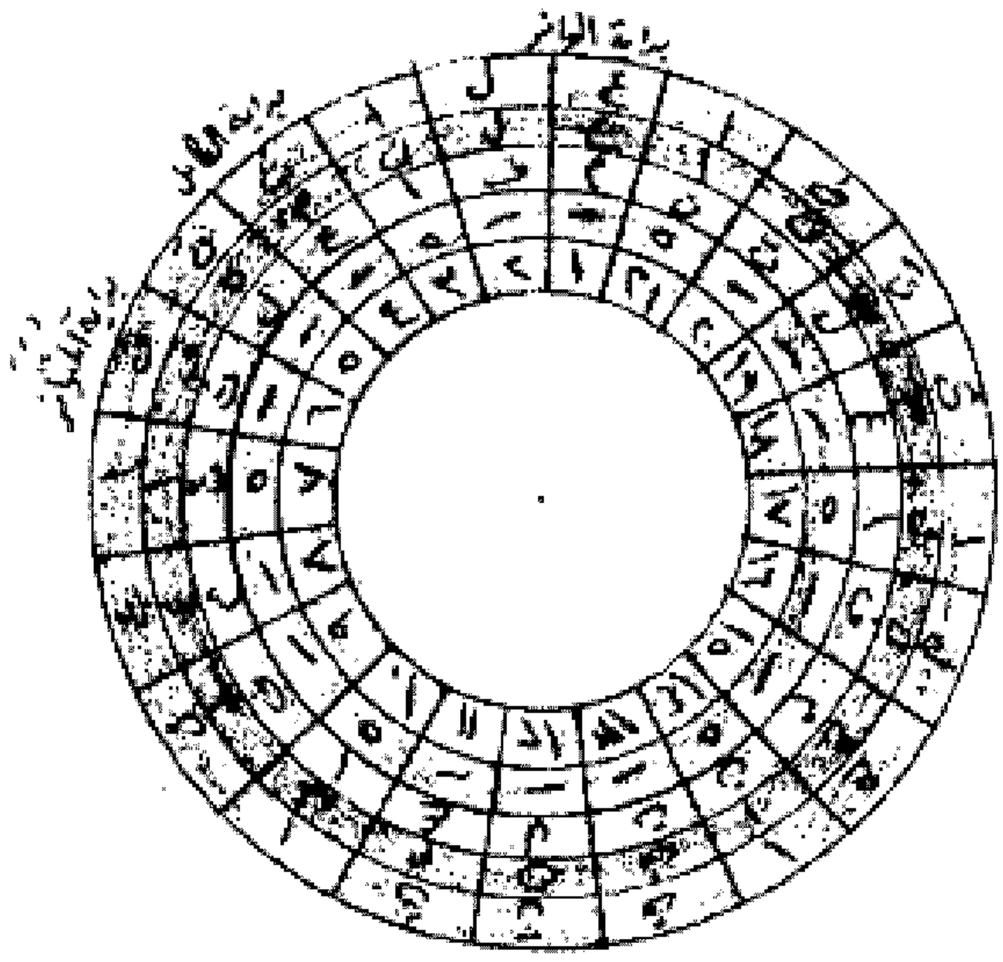

إن أقدم إشارة إلى لقب المتدارك- على ضوء ما اطلعنا عليه- هي عند ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ)، والإشارة ليست منه، ولكنه يحيلها على الجوهري. وقبل هذا وتحديداً في عصر الصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ) وعن حديثه عن دائرة المتفق وبحر المتقارب ذكر أن العرب لم تفك من المتقارب شعراً، وقال: "وبعضهم قد تعاطى الفك فأخرج منه ((فاعلن)) بتقديم السبب على الوتد، وسموه الغريب والمتّسق، وركض الخيل[٥٨]. فنحن نرى أنه لم يذكر المتدارك من ضمن هذه الألقاب. وهناك جملة من الملاحظات قد تكون هي وغيرها مما ذكرناه سبباً لإهمال الخليل لهذا البحر، وهي:

١- لعل أوّل إشارة إلى لقب المتدارك كانت عند ابن رشيق القيرواني، لكنه لم يشر إلى مسألة تدارك هذا البحر، وقبله أشار الصاحب بن عباد وابن جنيّ، أن بعضهم تعاطى الفك من دائرة المتفق، بحراً آخر سمّوه الغريب، والمتسق، وركض الخيل، ولم يكن لقب المتدارك من بين هذه الألقاب، وما أن نتقدم إلى القرن السادس الهجري حتى نحصل على ألقاب أُخرى من مثل قطر الميزاب، وليس المتدارك من بين هذه الألقاب، كما نرى عند الخطيب التبريزي.

٢- أنّ إيقاع هذا البحر إذا جاء تامّاً نلحظ فيه سماجة في الإيقاع، تذهب عنه رونق الشعر الذي نحس به عادةً عند إنشاد الشعر، وقد يلحظ القارئ هذا الشيء، كقوله:

لم يَدَعْ من مضى للذي قد غبر فضـــل علم ســـوى أخذه بالأثر

أو قول الشاعر:

يا بني عامرٍ قد تَجَمَّعْتُمُ ثم لم تدفعوا الضيم إذ جئتم

أو قول الشاعر:

جاءنا عامرٌ سالماً صالحاً بعدما كان ما كان من عامر

ولذلك نصّ بعض العروضيين على أن استعمال صورة المتدارك التام تُعَدُّ شاذّة[٥٩].

٣- وردت صورة للمتدارك المجزوء، ولها أضرب ثلاثة هي: الضرب الصحيح، والمُذَال والمُرَفَّل، وهذه الصورة جميعها عُدَّت شاذّة. أوردها بعض المتأخرين، والأكثرون لم يثبتوه.

وبعد إيراد هذه الصورة الشاذّة من قِبل الخزرجي الزنجاني:"وجميع هذا غريب وكأنه محدث"[٦٠]. وقد أشار الإسنوي إلى هذه الصورة الشاذّة شعراً، فقال[٦١]:

وشذّ فيه تمام يا بني وكذا مجـــــزوُه بثلاثـــة أتـــت ذُلُلاَ

دارٌ مرقّلها[٦٢] هذه مُذَيِّلها قِفْ مثلها واقطعن مالي إذن قبلا

٤- هذا البحر في بعض صوره، وهي دخول القطع في حشوه يُعَدُّ شذوذاً أيضاً وخروجاً عن الأصول التي وضعها الخليل، إذ إنّ القطع لا يدخل الحشو، بل هو علة تدخل على الأعاريض والأضرب والعلل لا تكون حشواً. ولا يحدث هذا إلاّ في هذا البحر. ولذلك حاول بعض العروضيين أن يتجهوا في تسويغ هذه الصورة بطريقة خاطئة وغير منطقية، وذلك أنه عند عدم إقرارهم بدخول القطع في حشو هذا البحر؛ "أنكر بعضهم أن يكون مقطوعاً، وسمّاه مضمراً بعد الخبن، فزعم أن الألف من (فَاْعِلُن) سقطت للخبن، بقي فَعِلُنْ على صورة سبب ثقيل وسبب خفيف فأسكنت العين للإضمار لأنها الثاني المتحرك بقي فَعْلُنْ، وهذا مُشكلٌ أيضاً، لأنّ العين على الحقيقة في وتد، والإضمار زحافٌ، والزحاف لا يدخل الأوتاد"[٦٣]. ونحن نرى أن هذا التعليل غير مقبول وغير منطقي، وهو خروج بالتفعيلة عن أصلها، فالمدى الذي يمكن أن تتحمّله التفعيلة (فاعِلُنْ=/٥//٥)، هي الخبن- حذف

الثاني الساكن (=/٥). والقطع في العروض والضرب وهو حذف الخامس الساكن وحذف حركة الرابع في الوتد المجموع، فتصبح التفعيلة (/٥/٥).

أما زحاف الإضمار فهو ما يدخل على ثاني السبب الثقيل في تفعيلة مُتَفاعِلُنْ (///٥//٥=ب ب ـب-) في بحر الكامل، وهو زحاف يكون بحذف حركة هذا السبب الثقيل فتتحول التفعيلة (مُتَفاعِلُن) إلى (مُتْفاعِلُن =/٥/٥//٥).

وقد علل آخرون ما يجري على هذه التفعيلة وقالوا بدخول التشعيث على أصل التفعيلة[٦٤]، وهذا التعليل غير صحيح وغير مقبول أيضاً، لأن التشعيث علة تجري مجرى الزحاف وتدخل على الأضرب في بحر الخفيف فتتحول التفعيلة فاعلاتن (/٥//٥/٥) إلى فالاتن (/٥/٥/٥)، وهي عله جائزة لكنها لا تُلتزم. أما في تفعيلة فاعِلُنْ عندما يصيبها ما زعمه العروضيون أنه تشعيث فتتحول فَاعِلُن، إما إلى (فالن) أو (فاعن)، وتدخل الحشو، فهذا مخالف لأصول العروض، الذي وضعه الخليل، ثم أن تعليل ما يحدث من صور البحر الشاذة بالقطع أو التشعيث في حشوه، هو تعليل افتراضي أيضاً.

ولحدوث القطع في حشو هذا البيت رأى بعض العروضيين أن هذا البحر يقوم على إيقاعين يختلف كل منهما عن الآخر تمام الاختلاف، فالإيقاع الأول يقوم على توالي الأسباب والأوتاد كما هو في البحور الأخرى، والآخر يقوم على النبر، النوع الأول يمثل الصور المستخرجة من الدائرة الخامسة، دائرة المتفق، والتي ذكر العروضيون أن لها عروضين صحيحين ومجزوءة والأولى لها ضرب صحيح مثلها، والمجزوءة لها أضرب ثلاثة ذكرناها قبل قليل. والنوع الثاني الذي لا يخضع لصور العروضيين وقواعدهم، ولم ينبه عليه القُدامى من العروضيين، والذي أعطى للإيقاع حدة وسرعة، وسماه بعض القدامى والمتأخرين أيضا بـــ "ركض الخليل"[٦٥]. ولذلك يرى عبد الصاحب المختار أن "لا علاقة للمتدارك ببحري دق الناقوس والخبب، ولعل اعتبارهما من المتدارك مما جعل الخليل يترك وضع اسم للمتدارك بين البحور لأن وزنه لا يجتمع مع وزني الخبب ودق الناقوس"[٦٦].

وترى نازك الملائكة أن ما يحدث من قطع في حشو المتدارك هو سلوك من الشعراء، ليتخففوا من تقطع النغم في تشكيلة الخبب؛ بسبب توالي الحركات في الفاصلة الصغرى وهي تحول تفعيلة (فاعلُن)، (/٥//٥) إلى (فعلن، ///٥) بعد خبنها(٦٧).

ومن الصور الجديدة في ايقاع المتدارك، وهو تحول تفعيلة (فاعلن) التامة، أو (فعلن) المخبونة إلى صورة جديدة هي (فَاْعِلُ)- كما حدث مع نازك الملائكة- وقد اعترفت أنها وقعت في هذا الخطأ الذي لم تنتبه إليه، الاّ بعد أن نبهها إليه خالها جميل الملائكة وقد اعترفت أنها وقعت في هذا الخروج من غير تعمد، وجرت في هذا على وحي سليقتها(٦٨). وكانت نازك الملائكة لا تقرّ بهذه الصور الجديدة كما يتضح من اعتذارها وإقرارها بأن تفعيلتها دخيلة ولكنها مع ذلك ترى إن ذلك تطوير سارت إليه وهي غافلة. وهو تحول تقبله الأذن الموسيقية وكأن نازكاً تركنُ إلى ذائقتها الموسيقية. لكنها، من جهة أخرى، تساءلت: هل من حقي أن أثبت تفعيلة جديدة في بحر عربي ضبط منذ عصور طويلة؟(٦٩) وتترك أمر تفعيلتها الجديدة رهناً بموافقة العروضيين، تقول: "الواقع أنه ليس من حقي، كما أنه ليس من حق أي شاعر أن يفعل ذلك. إنما يقدر القواعد القبول العام. نعم لقد قرر الخليل قواعد جديدة غير أن تقريره ذلك لم يكن هو الذي إلى انتهاء، وإنما تثبت حين تقبلها الشعراء المتمكنون والعارفون في عصره، وكذلك لن تثبت تفعيلتي الجديدة إلا إذا ثبتت موافقة العروضيين. وبعد تحليلها تفعيلتي فَعِلن وفاعِلُ، رأت "أن إقرار ذلك قاعدة في بحر الخبب يضيف سعة وليونة إلى هذا البحر الذي يطيق بفواصله الصغرى".

وقد جاء بعد نازك الملائكة أحد الشعراء ليتحمس للتنويعة الجديدة على بحر المتدارك، ولكن بإقرار تفعيلات جديدة غير موجودة أصلاً، ولم يقرها الخليل، ويحتاج إلى موافقة العروضيين، وذلك بتغيير مواضع الأسباب والأوتاد في التفعيلة، فتفعيلة (فاعلنْ=/٥//٥)، التي تتشكل من سبب خفيف (فا) ووتد مجموع (علن). يمكن أن تتحول عنده إلى (فاعِ لن)، فتتشكل عندئذ من وتد مفروق، وسبب خفيف. وفي رأيه عندما يحدث فيها القبض فتتحول إلى (فاعِ لُ).

وبذلك يمكن قبول هذه التنويع على بحر المتدارك، على غير ما قررت نازك الملائكة[٧٠]. ولكن هل يحق لهذا الشاعر أو لغيره أن يقرروا ما شاء لهم من قواعد عروضية، ليسوغوا لأنفسهم الخروج على غير ما قرر العروضيون، أظن أنَ الإجابة بالنفي.

٥- إن اختلاف إيقاع البحر في تشكيلاته المختلفة ما بين الصحيح التام والمقطوع الأجزاء والمخبون الأجزاء، هو السبب فيْ كثرة هذه الأسماء، والألقاب الكثيرة التي أشرنا إليها سابقا.

٦-إن إيقاع هذا البحر لا يكون متجانسا ومقبولا، إلا إذا جاءت أجزاؤه مقطوعة ومخبونة معا، أي على خلاف الأصل، كما في كثير من القصائد الشعرية المغناة، قديما وحديثا، بينما يأتي إيقاعه سمجاً خالياً من البهاء والرَّونق، -على حد تعبير ابن رشيق القيرواني- إذا جاء صحيحا تاما، كما نص كثير من العروضيين.

ومن أجل ما سبق كله ولأجل غيره أيضا، لا عجب أن رأى فيه المصنفون القدماء بعد عرض صُوره الشاذة: "لا جرم أن الخليل رحمة الله عليه لم يذكر المتدارك في البحور البتة" وقال عنه ابن القطاع: "ولم يُجِزْهُ الخليل ودفعه مرة واحدة".

الحواشي:

(١) العروض، الأخفش، سعيد بن مسعدة، تحقيق: الدكتور أحمد محمد عبد الدايم عبد الله، مكتبة الزهراء، القاهرة، ١٩٨٩م، ص١٦٤- ١٦٥.

(٢) شرح الكافية الشافية في علمي العروض والقافية، أبو العرفان محمد بن علي الصبّان، دراسة وتحقيق: د. فتوح خليل، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٠م: ص٣٤ (مقدمة المحقق) .

(٣) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٢م، ص٤٢٤-٥١٨.

(٤) العقد الفريد، ج٥، ص٤٤١-٤٤٢.

(٥) الإقناع في العروض وتخريج القوافي، الصاحب بن عباد، تحقيق: د. إبراهيم محمد أحمد الإدكاوي، ط١، ١٩٨٧: ص١٧٦.

(٦) العروض، ابن جني، أبو الفتح عثمان، تحقيق: د. أحمد فوزي الهيب، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط٢، ١٩٨٨م، ص١٥٨-١٥٩.

(٧) الإقناع في العروض، الصاحب بن عباد، ص١٦٨-١٧٧.

(٨) العروض، علي بن عيسى الربّعي، تحقيق: د.محمد أبو الفضل بدران، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٦١-٦٤.

(٩) المصدر السابق، ص٣٤-٣٥ (الهامش) .

(١٠) العمدة، ابن رشيق القيرواني، ج٢، ص٣٠٤.

(١١) المصدر السابق، ج١، ص١٣٥.

(١٢) المصدر السابق، ج١، ص١٣٦-١٣٧.

(١٣) الكافي في العروض والقوافي، الخطيب التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي، تحقيق الحساني حسن عبدالله، مكتبة الخانجي بمصر، ص١٣٨.

(١٤) المصدر السابق، ص١٣٩.

(١٥) البارع في علم العروض، ابن القطاع، أبو القاسم علي بن جعفر، تحقيق: د.أحمد محمد عبد الدايم، دار الثقافة العربية، ط١، ١٩٨٢م، ص٧٢.

(١٦) المصدر السابق، ص١٩٠.

(١٧) المصدر السابق، ص١٩٢.

(١٨) المصدر السابق، ص١٩٥.

(١٩) البارع في علم العروض، ابن القطاع، ص٧٢، ص١٩٥.

(٢٠) المصدر السابق، ص١٩٥.

(٢١) القسطاس في علم العروض، الزمخشري، جار الله، أبو القاسم محمود بن عمر، تحقيق: فخر الدين قباوة، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م، ص٢٣-٢٤.

(٢٢) المصدر السابق، ص١٢٨.

(٢٣) المصدر السابق، ص١٢٨- ١٢٩

(٢٤) قسّم أبو بكر السراج الدوائر العروضية إلى قسمين: بسائط ويعني بها البحور التي يدخل في تركيبها تفعيلة واحدة، ويسميها بعضهم البحور الصافية، أما المركبة فهي التي يدخل في تركيبها تفعيلتان، ويطلق بعضهم عليها البحور الممزوجة.

(٢٥) المعيار في أوزان الأشعار، ابن السّراج، أبو بكر محمد بن عبد الملك، تحقيق: د.محمد رضوان الداية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٦٨م، ص١٦.

(٢٦) المصدر السابق، ص٨٤-٨٥.

(٢٧) الحور العين، نشوان الحميري أبو سعيد،ع: كمال مصطفى، المكتبة اليمنية، صنعاء، دار آزال للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٥م، ص١٢١-١٢٢.

(٢٨) معيار النظام في علوم الأشعار، الخزرجي الزنجاني، عبد الوهاب بن إبراهيم بن عبد الوهاب، تحقيق: د.محمد علي رزق الخفاجي، دار المعارف، ١٩٩١م، ص٨٤.

(٢٩) المصدر السابق، ص٨٥.

(٣٠) شفاء الغليل في علم الخليل، محمد بن علي المحلّي، تحقيق: د.شعبان صلاح، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص١٢٤-١٢٥.

(٣١) المصدر السابق، ص١٨٣.

(٣٢) نهاية الراغب في شرح عروض ابن الحاجب، جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي، تحقيق: د.شعبان صلاح، مطبعة التقدم، ط١، ١٩٨٨م، ص٩١.

(٣٣) المصدر السابق، ص٩٢.

(٣٤) نهاية الراغب في شرح عروض ابن الحاجب، جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي، تحقيق: د.شعبان صلاح، مطبعة التقدم، ط١، ١٩٨٨م، ص٩٢.

(٣٥) المصدر السابق، ص٢٣٤.

(٣٦) نهاية الراغب، الإسنوي، ص٢٣٨- ٢٣٩.

(٣٧) العيون الفاخرة على خبايا الرامزة، الدّماميني، بدر الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ص٨١.

(٣٨) المصدر السابق، ص٨١.

(٣٩) الإرشاد الشافي الكافي على متن الكافي في علمي العروض والقوافي، لأبى العباس أحمد بن شعيب القنائي، السيد محمد الدمنهوري، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٩٥٧م، ص١٩٤-١٩٥.

(٤٠) الجوهرة في العروض والقافية، ياسين بن حمزة الشهابي المصري (كان حيّاً سنة ١٠٨٦) تحقيق: عبدالحسين علك المبارك، وفاخر جبر مطر، مركز دراسات الخليج العربي ١٩٨٧م، ص١٢٦-١٢٧.

(٤١) شرح الكافية الشافية في علمي العروض والقوافي، أبو العرفان محمد بن علي الصبّان، تحقيق: د.فتوح خليل، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٠م، ص٢٤٢.

(٤٢) المصدر السابق، ص٢٤٣.

(٤٣) المصدر السابق، ص٢٤٣-٢٤٧.

(٤٤) انظر: الإرشاد الشافي الكافي في علم العروض والقوافي (حاشية الدمنهوري)، ص١٠٧. قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٧٤م، ص١٢٦. معجم مصطلحات العروض والقافية، د. محمد الشوابكة، د. أنو أبو سويلم، دار البشير، عمان، الأردن، ١٩٩١م، ص٢٣٤. دراسات في علم العروض والقافية، أحمد محمد الشيخ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٨٥، ص١٨٣. موسيقى الشعر العربي، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٥، ١٩٨١م، ص١٠٣. العروض الجديد، محمود السمان، دار المعارف بمصر، ١٩٨٣م، ص٦٥. العروض والقافية، د.عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٢٧. مبادئ العروض، د. زيان أحمد الحاج إبراهيم، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٩٨٦، ص٧٧. التسهيل في علمي الخليل،د.إياد إبراهيم الباوي، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٣م، ص٨٦. العروض والقافية، دراسة وتطبيق في شعر الشطرين والشعر الحر، د. عبد الرضا علي، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٩م، ص٦٨. العروض والقافية، د.يوسف بكار، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٨٤م، ص١٥، ١١٩. علم العروض التطبيقي، د. نايف معروف، د. عمر الأسعد، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ص١٧١. ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، السيد أحمد الهاشمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٧٣، ص٩٧. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبدالله الطيب المجذوب، الدار السودانية، الخرطوم، ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٧٠م، ج١، ص١٤، ٨٠. العروض العربي(صياغة جديدة)، زين كامل الخويسكي، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦م، ص١٨٣. الصوت القديم الجديد، عبدالله الغذامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٨٩، أهدى سبيل إلى علمي الخليل،محمود مصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص١٣٢. المنهل الصافي على فاتح العروض والقوافي، نور الدين السالمي العُماني، وزارة التراث القومي والثقافة، ط٢، ١٩٩٣م، ص١٥٢. علم العروض والقوافي، د.حميد ثويني، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط٤، ٢٠٠١م، ص٢٢٣. القوافي، الأخفش، سعيد بن مسعدة، تحقيق: د.عزة حسن، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٠م، ص٦- ٧. العروض والقوافي، أحمد عبد المنعم الرصد، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٩م، ص١١٥. قول متدارك على البحر المتدارك، صالح عبدالله الجيتاوي، دار الفرقان، ط١، ١٩٨٣م، ص١٤.

(٤٥) انظر: مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٤م، ص٥٩. إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، تحقيق: محمد أبو الفضل

إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ص٣٧٧-٣٧٨. الدليل إلى البلاغة وعروض الخليل، د.علي جميل سلّوم، د. حسن محمد نور الدين، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠م، ص٣٢٦. الشافي في العروض والقوافي، د. هاشم صالح مناع، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٩م، ص٢١٣. العروض، الأخفش، سعيد بن مسعدة، ص٩٨- ٩٩.

(٤٦) حاشية الدمنهوري: ص١٠٨. العروض الجديد، د.محمود علي السّمان، ص٦٥. فن التقطيع الشعري والقافية، صفاء خلوصي، مكتبة المثنى، بغداد، ط٥، ص١٩٥.

(٤٧) انظر على سبيل المثال: العروض، جلال الحنفي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٨م، ص٢١٥. العروض الواضح، جعفر ماجد، رحاب المعرفة، تونس، ط٢، ١٩٩٥م، ص٣٠. العروض بين الأصالة والحداثة، د. إبراهيم عبد الجواد، دار الشروق لنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٢م، ص٩٩.

(٤٨) انظر: مراتب النحويين، أبو الطيّب اللغوي، عبد الواحد بن علي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٤، ص٥٩. إنباه النحاة على أنباه الرواة، القفطي، جمال الدين علي بن يوسف، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ج١، ص٣٧٧- ٣٧٨.

(٤٩) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٨، ج١١، ص٧٤.

(٥٠) انظر: شعراء مقلون، د.حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، بيروت- لبنان، مكتبة النهضة العربية، ط١، ١٩٨٧م، ص٣٣٥-٣٦٨. عشرة شعراء مُقلّون، د.حاتم صالح الضامن، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، ص٢١٩- ٢٤٠.

(٥١) مراتب النحويين، ص٥٩.

(٥٢) مراتب النحويين، أبو الطيّب اللغوي، ص٥٩.

(٥٣) معيار النظام في أوزان الأشعار، ص٨٤. الإقناع في العروض، ص١٧٦. الكافي في العروض القوافي، ١٣٩. والقسطاس، ص٤٧، ١٢٨. شرح الكافية الشافية، ص٢٤٣. نهاية الراغب، ص٢٣٤- ٢٣٥.

(٥٤) الحُور العين، ص١٢١. الجوهرة في العروض والقافية، ص١٢٦.

(٥٥) القسطاس، ص١٢٩.

(٥٦) شرح الكافية الشافية، الصبّان، ص٢٤٢.

(٥٧) العقد الفريد، ابن عبد ربه، ج٥، ص٤٣٩.

(٥٨) الإقناع في العروض، ص١٧٦.

(٥٩) انظر: البارع، ص١٩٢. المعيار في أوزان الأشعار، ص٨٤. معيار النظام، ص٨٤. شرح الكافية الشافية، ص٢٤٦. نهاية الراغب في شرح عروض ابن الحاجب، ص٢٣٦.

(٦٠) معيار النظام، ص٨٥.

(٦١) نهاية الراغب، الإسنوي، ص٢٣٦.

(٦٢) هذه إشارة إلى الشواهد الشعرية على صور البحر الشاذة، وهي على الترتيب:

١- دار سُعْدى بشحر عُمان قد كساها البلى الملَوانِ

٢- هذه دارهم أقفرت أم زبور محتْها الدُهُورْ

٣- قفْ على دارهم وابكينْ بين أطلالها والدّ منْ

٤- مالي مال إلا درهمْ أو يرُدّوني ذاك الأدْهَمْ

(٦٣) شفاء الغليل، ص١٨٣. البارع في علم العروض، ص١٩١. العيون الغامزة، ص٨١.

(٦٤) شرح الكافية الشافية، ص٢٤٢-٢٤٦. العروض الجديد، ص٦٥. فن التقطيع الشعري، ص١٩٥.

(٦٥) شرح الكافية الشافي، ص٣٥-٣٨.

(٦٦) دائرة الوحدة في أوزان الشعر العربي، د. عبد الصاحب المختار، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٧٥م، ص٨٥. وانظر أيضاً: قضية الشعر الجديد، محمد النويهي، مكتبة الخانجي، دار الفكر، القاهرة، ط٢، ١٩٧١م، ص٢٤٤. موسيقى، الشعر العربي، شكري عيّاد، دار المعرفة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٢م، ص٥٢-٥٣.

(٦٧) قضايا الشعر المعاصر، ص١٢٧.

(٦٨) المرجع السابق، ص١٢٩.

(٦٩) المرجع السابق، ص١٢٩.

(٧٠) قول متدارك، صالح الجيتاوي، ص١٨-٤٦.

جماليّة التماثل بين بيت الشّعر وبيت الشّعر

د. خلف خازر الغريشة
جامعة اليرموك ـ الأردن

جمالية التماثل بين بيت الشّعر وبيت الشّعر

د. خلف خازر الخريشة

المقدمة:

يحاول الباحث استجلاء العلاقة التي تربط بيت الشعر - بكسر الشين - ببيت الشعر - بفتح الشين - مراعيا طبيعة العلاقة التي تربط هندسة بناء البيت الشعري بهندسة بناء البيت المبني، وهذه الهندسة تتضح معالمها إذا ماقمنا بدراسة البيئة التي أحاطت بالإنسان العربي منذ بزوغ فجر القصيدة العربية وارتباطها بالبيئة والإنسان معا، وتتجلى طبيعة هذه العلاقة حينما يتحول المكان إلى زمان، والرسم إلى صورة، وحينما تتراسل جمالية الحواس من الصورة - عبر الخيال والمحاكاة - إلى الحاسة الذهنية التي تحوّلها بدورها إلى حاسة سمعية.

وحينما يلتقي الرسم بالشعر من خلال الصورة الذهنية؛ يتمكن الشاعر كمهندس لبنية البيت الشعري من بناء البيت الشعري، وهذا البناء لا يمكننا فهم مضامينه ما لم نفهم طبيعة العلاقة التي تربط الإنسان بالبيئة، وكيفية توظيف الإنسان لمعطيات البيئة ذاتها.

وإذا كان الإنسان ابن بيئته، فالإنسان العربي كذلك، توحَد مع بيئته بكل تفاصيلها، ولا غرابة أن تأتي مصطلحات علومه مستمدة منها، ومن هنا يجب أن لا يغيب عن بال دارس عروض الشعر العربي أن مصطلحات هذا العلم مستمدّة من بيئة الإنسان العربي في باديته: "من خيمته التي تقيه غائلة الحر، وسطوة القرّ، وناقته التي يجوب على متنها القفار، وما يستخدمه في يومه من أشياء"[1]. فالخليل بن أحمد الفراهيديّ (١٠٠-١٧٠هـ) حينما قام باستقراء الشعر العربي لم يغب عن باله أن مصطلح بيت الشعر مستمد من بيت الشعر - بفتح الشين - وقد كان عمل المشابهة والتماثل هذا يمثل وعيا دقيقا، وتكاملا في النظرة المعرفية للفضاء المكاني و الزماني الذي يحتله بيت الشعر في النقد العربي بعامة، وفي عروض الشعر العربي بوجه خاص، والفراهيديّ هو القائل حينما اصطدم بالبنية الوزنية لبيت الشعر: "رتّبت البيت

من الشعر ترتيب البيت من بيوت الشَعر – يريد الخباء –"[٢]. وترتيبه هذا قاده إلى وضع مجموعة من المصطلحات في الشعر العربي، ظلت مفزع النقاد في نظرتهم النقدية للشعر، ومثال هذه المصطلحات: الإقواء، والإسناد، والإيطاء، " قال: فسميت الإقواء ما جاء من المرفوع في الشعر والمخفوض على قافية واحدة... وإنما سميته إقواء لتخالفه، لأن العرب تقول: أقوى القائل إذا جاءت قوة من الحبل تخالف سائر القوى..." [٣]، وستكون هذه السنة التي سنها الخليل في الوصل بين المصطلح الشعري وشئون الخباء البدوي، والحياة البدوية عامة، مرجعا يستوحي منه علماء النقد والعروض كلما حاولوا وضع مصطلح جديد[٤].

وهذا الأصمعي في "فحولة الشعراء" عندما أراد تقسيم الشعراء امتثق تقسيمه من البيئة المحيطة به؛ فقسم الشعراء إلى فحول، وغير فحول، قاصدا من وراء ذلك انتخاب الألفاظ الدالة على الشعر من صميم الحياة البدوية. فالفحل من الطبيعة – جملا كان أو فرسا أو شاعرا – يتصف بسمات مستمدة من الطبيعة بما يناقض صفة "اللين" التي يكرهها الأصمعي في الشاعر، لأن الفحولة كصفة تجعله يتفوق على من سواه[٥].

ويتناول النقاد بعد ذلك ذات المصطلح إذ يتبع الأصمعي ابن سلام في "طبقات فحول الشعراء"، وابن قتيبة في "الشعر والشعراء"، وقدامة في "نقد الشعر"، ويحاول ثعلب في "قواعد الشعر" استيحاء روح الخليل في صياغة مصطلح مبتكر؛ ويرى أنه إذا كان الفراهيديّ قد نظر إلى الخباء عندما وضع المصطلح العروضي، ونظر الأصمعي ومن تبعه من النقاد إلى الفحل من الإبل في تصور شاعريّة الشاعر، فما أجراه هو أن يقف عند الفرس مستوحيا قول ابن الأعرابي في وصف القافية الشعرية بأنها أشرف ما في البيت؛ لأن حوافر الفرس هي أوثق ما فيه، وبها نهوضه، وعليها اعتماده[٦]. إن الفرس حينما توقع بحوافرها أثناء سيرها على الأرض إنما ترسم بذلك مجرى متوازي الجانبين، حالها حال القوافي التي ترسم مجرى الأبيات حينما تتكرر في العروض والضرب، وتحدد بإيقاعاتها التكرارية تساوي شطرين من البيت الشعري، وينشأ من ذلك خطان متوازيان هما خط

الصدر وخط العجز، فكأن الشاعر يقفز من بيت إلى بيت كما تقفز الفرس بين كل خطوة والتي تليها. إن حافر الفرس يوحي بإيقاع منتظم أثناء سيرها، والقافية توحي بإيقاع البيت الشعري، وتهيئ لبيت تال(٧).

وهانحن نلحظ أن طريقة العرب في البحث عن مصطلح جاءت مستمدة من بيئتهم: "فالعرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات ما أحاطت به معرفتها، وأدركه عيانها، ومرّت به تجاربها ، وهم أهل وبر فصحونهم البوادي، وسقوفهم السماء، فليست تعدو أوصافهم مارأوه منهما وفيهما... فشبهت الشيء بمثله تشبيها صادقا على ما ذهبت إليه في معانيها التي أرادتها"(٨). فهذه الإيماءات التي أوردها ابن طباطبا والنقاد العرب سوف تكون الباعث للقرطاجني في "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لوضع بنية نظرية متكاملة للمقارنة بين بيت الشعر وبيت الشَعر.

بيت الشعر وبيت الشعر:

كانت طريقة الخليل أن يشبه بيت الشِّعر ببيت الشَّعر(٩)، "وأما البيت فسمي بذلك تشبيها ببيت البنيان لأنه على سمت معتدل، ونظم مستقيم، وله ابتداء يقصدونه، ويوقف عنده، "(١٠) فكما أن بيت الشِّعر لا يقوم إلا بالأسباب وهي الحبال، والأوتاد وهي الممسكة للأسباب، والفواصل وهي حبال طوال يضرب منها حبل أمام البيت، وحبل وراءه؛ يمسكانه من الريح، فكذلك بيت الشُعر تركّب من الأسباب والأوتاد والفواصل. ولهذا لا تكون الفاصلة الكبرى إلا ببيتٍ شاذّ من الشَّعر، وقال الأفوه الأودي:

والبيت لا يبتنى إلا بأعمدة ولا عمود إذا لم ترس أوتاد

فإن تجمع أسباب وأوتاد وساكن بلغ الأمر الذي كادوا

وقال المعري:

حسنت نظم كلام توصفين به ومنزل منك معمودا من الخفر

والحسن يظهر في شيئين رونقه بيت من الشِّعر أو بيت من الشَّعر(١١).

ووجه التسمية في هذه أنهم شبّهوا البيت من الشّعر بالبيت من الـشّعر؛ لأن بيت الشّعر لا يقوم إلا بأسباب وهي الحبال، وأوتاد وهي خشبة تضرب في الأرض تربط فيها الحبال ، قال الشاعر:

وبيت على ظهر المطيّ بنيته بأسمر مشقوق الغياشم يرعف

(الأسمر: القلم. والبيت: واحد بيوتات العرب، وهي أحياؤها).[١٢]

ولأن بيت الشّعر يشتمل على الأسباب والأوتاد؛ شبّهوا الأسـباب والأوتـاد التي يتركب منها البيت الشّعري، بأسباب الخباء سواء أكانت من وبر، أو شعر، أو صوف. وشُبّهت الأوتاد بأوتاد الخباء، وهي ما دقّ في الأرض من خشب، وذلـك لاضطراب الأسباب، وثبات الأوتاد[١٣]. فإن كان السبب مركبا من حرف متحـرك بعده ساكن سمّي سببا خفيفا لخفّته، وإن كان من متحركين سمّي ثقيلا لثقل حركته، وقد يسمّى الأول: المضطرب، والثاني: الثقيل المنتشر.وإن كان على ثلاثة أحـرف سمّي وتدا، لأن الوتد أعظم حجما من الحبل، وسمّي الأول: مجموعا؛ لأنه جمع فيه بين متحركين، وسمّي الآخر: مفروقا؛ لأنه فرّق بين متحركين بالساكن[١٤].

وهكذا، نرى أن البيت من الشّعر مشتق من بيت الخباء، وهـو يقـع علـى الصغير والكبير، كالرجز والطويل، وذلك لأنه يضم الكلام كما يضم البيت أهلـه، ولذلك سمّوا مقطّعاته أسبابا وأوتادا على التشبيه لها بأسباب البيوت وأوتادها. فـإذا كان البيت من الشّعر مشبها بالبيت من الخيام وسائر البنيان لم يمتنع أن يكسّر على ما كسّر عليه، وقد سمّي بيتا لأنه كلام جمع منظوما، فصار لبيت جمع من شـقق، وكفاء، وأعمدة، ورواق[١٥]. فسمّي البيت من الشّعر لضمّه الحروف والكلام كمـا يضم البيت أهله[١٦].

وسمّت العرب النصف الأول من البيت مصراعا؛ تشبيها له بمصراع البيت الذي تسكنه، ثم سمّت نهاية المصراع الأول عروضا، لأنه شبيه بعمود البيت فـي ثباته وقلة تبدّله، والعروض هي العمود المعترض في وسط الخباء، قـوام الخبـاء وثباته بها، وسمّي آخر البيت ضربا؛ لأنه ضرب من ضروب العروض، ونوع من أنواعه لكثرة اختلافه وتبدله[١٧]. ونؤكد هنا أنه إنما سُمّي وسط البيت عروضا؛ لأن

العروض وسط البيت من البناء – لا كما ظن كثير من أبناء العربيـــة – ووســـط البيت هو العمود الذي يقوم عليه بناء البيت، لأنه يتوسّط الخباء، وقوام البيت مـــن الكلام عروضه، فلذلك يجب أن تكون العروض أقوى من الضرب[١٨]».

ولمّا شبّهت العربُ البيت من الشّعر بالبيت الذي تسكنه قسّمت أشعار العرب في البناء على ثمانية أقسام: مثمّن، ومسدّس، ومربّع، ومثلّـــث وهـــو المـــشطور، ومثنّى وهو المنهوك. أمّا المثمّن؛ فقد يتوسّط بين صدره وعروضه جزءان، وكذلك بين ابتدائه وضربه؛ لأنه على ثمانية أجزاء، فالأول: صـــدر، والثـــاني والثالـــث: حشوان، والرابع: عروض، والخامس: ابتداء، والسادس والسابع: حشوان، والثامن: ضرب، ومثاله من الطويل:

إذا ما غدرتم عامدين لأرضنا بني عامر فاستوثقوا بالمرائر

إذا ما (صدر)، غدرتم عامدين (حشو)، لأرضـــنا (عـــروض)، بنـــي عـــا (ابتداء)، رفستوثقوابل (حشو)، مرائري (ضرب)، كالآتي:

إذا ما غدرتم عامدين لأرضنا بني عا مر فاستوثقوا بل مرائري

(صدر) (حشو) (عروض) (ابتداء) (حشو) (ضرب).

وأما المسدّس؛ فلا يتوسّط بين صدره وعروضه إلا جزء واحد، وكذلك بين ابتدائه وضربه؛ لأنه على ستّة أجزاء، وأربعة أخر لها أسماء؛ فيبقى جزءان. وأما المربع فلا يمكن فيه الحشو؛ لأنه: صدر، وعروض وابتداء، وضرب، كقوله:

لمن طلل بذات الرمى أمسى دارسا خلقا

وأما المشطور، وهو المثلّث؛ فيكون على ثلاثة أجزاء، كقول الحجاج:

يا صاح ما هاج الدموع الذرفا

وأما المنهوك، وهو المثنّى الذي يكون على جزأين، كقول هند بنت عتبة:

نحن بنات طارق

فالجزء الأول: صدر، والجزء الثاني: قيل عروضه وضربه، ولا يمكن أن يكون له ابتداء إذ لا واسطة له[١٩]. ويرى العروضي في جامعه: " أن العرب إذا بنت بناء من الشّعر، واختارت نوعا من الوزن؛ وجب أن نقتدي بها، ونسلك طريقها، ولا نخالف ما ألفت، ولا ننقص ما بنت إذ كانت الأسماء إنما تؤخذ عنها، ونستعمل الأشياء كما استعملت، ونقف حيث وقفت"[٢٠].

لاحظنا مما سبق أنه لما كان بيت الشّعر كبيت الشّعر، وكلاهما يلتئم من اتحاد الأسباب والأوتاد، ثم الألفاظ والشقق، ثم المصاريع التي تحدّها الأعاريض والأضرب؛ قامت العرب ببناء بيت الشّعر على شكل بيت الشّعر، وقد قصد الشاعر العربي من وراء ذلك الارتماء بين أحضان الطبيعة ببعديها: المكاني والزماني ودخول النص الشعّري في إهاب بيت الشّعر.

بيت الشعر:

يعد "بيت الشّعر" الموطن التقليدي للانسان العربي في العصر الجاهلي ولابن البادية في عصرنا الحاضر، ويعني بالنسبة له المنزل والمسكن، أضيف إليه "الشّعر" ليعبّر عن مادة صنعه، و"بيت الشّعر" يعد رمزا حضاريا للحفاظ على هوية البدو، وجزءا لا يتجزأ من تراثهم، وهو خيمة أفقية الطول تصنع من شعر الماعز أو وبر الجمال على شكل "شقق" "مفردها شقّة"، والشقّة تنسج من شعر الماعز أو وبر الإبل الصافية من خلال ما يُسمّى عند البدو بـ "النول"، وقد يدخل القطن في مادة صناعة الشقّة كي يوشح شعر الماعز بلون أبيض يسميه البدو "المركّب"، والخيمة العادية تحتاج إلى ثماني شقق[٢١]. وتصفّ الشقق بجانب بعضها بعضا، ثم تقوم النساء بضمّها مع بعضها بخيط من شعر الماعز، و تقوم بخياطة "الطرائق: مفردها: طريقة" على أطراف البيت، ومن خلال "الخرب" تربط الطرائق بحبال حتى يتم تثبيتها إبان بناء البيت بالأوتاد. والحبال التي تمسك جوانب الخيمة تسمّى "أطناب"، بينما الحبال التي تمسك أطراف الخيمة الأمامية تسمّى "أيدي" والتي تمسك الأطراف الخلفية تسمّى "أرجل"[٢٢].

أما كيفيّة بناء البيت، فإنه بعد نسج الشقق، وضمّها ، وتهيئة الرواق والأعمدة

والحبال والأوتاد، يقلّ البيت؛ ويتمّ تمديد الحبال، تلفّ حول الأوتاد، ويؤخذ بشدّها أوّلا بأول في الوقت الذي يتمّ تثبيت الأوتاد بـ "الميجمة"، فإننا نبدأ بالمقدمة بشدّ الحبال بادئين بالجزء الأمامي "المجدم"، ثم بالجزء الخلفي "القفا"، ثم بالجزء الجانبي "الكاسر"، وبعد تهيئة الحبال وتثبيتها بالأوتاد أوليا، يؤتى بعد ذلك بالعمدان الأماميّة أولا حيث يبدأ بعمدان "المجادم" أو "المقادم"، وذلك لرفع البيت، وبعد رفع البيت يؤتى بعمود "الواسط" حيث يثبّت بـ "القطب" في وسط البيت، وأخير توضع في الزوايا الخلفية للبيت أعمدة "الكواسر"، وعندما تقف الأعمدة كافة، تكرّب "الأطناب" أي "الحبال"، ويوضع "الرواق" أخيرا ليحمي البيت من حركة الرياح، ثم تثبت أجزاؤه العلوية بجرير من "الأخلّة: مفردها خلال"، بينما تثبت أجزاء الرواق السفلية بأوتاد حتى لا تستطيع الرياح اقتلاعه. ثم يؤتى أخيرا بـ "القاطعة" أو "السّاحة" ما بين الطرائق الأمامية والخلفية؛ لتفصل البيت إلى جزأين: الجهة اليمنى للنساء، وتسمّى "المحرم"، والجهة اليسرى للرجال وتسمّى "الشقّ" أو "الربعة"(٢٣).

واللافت للانتباه أن بيت الشّعر يصنّف تبعا لمكانة أعمدته وعددها حيث توجد ستّة أنماط لبيت الشّعر: النمط الأول (الواسط) أو (العروض) حيث يحتل المرتبة المركزية للبيت، ويقاس بيت الشّعر بعدد (الوسّط)، والنمط الثاني (الكاسر) حيث يحتل الجانب الأوسط لجانبي بيت الشّعر، والنمط الثالث (المجدم) أو (المقدم) حيث يحتل الأجزاء الأمامية للبيت، والنمط الرابع (الرّجل) حيث يحتل الجهة الخلفية للبيت، والنمط الخامس (الإيد) أو (الدافع) حيث يحتل الزاوية الأمامية للبيت، والنمط السادس (الميخر) أو (المؤخر) حيث يحتل الجهة الخلفية(٢٤).

ويكتسي بيت الشّعر مكانته تبعا لعدد (الوسّط) أي (الأعاريض)، ومنها يأخذ مسمياته:

فالخيمة العادية تتكون من (واسط واحد) تسمّى (قطبة) تتكون من جزأين، والخيمة التي تتكون من (واسطين) تسمّى (مدوبل) تتكون من ثلاثة أجزاء، والخيمة التي تتكون من (ثلاثة وسّط) تسمّى (مثولث) تتكون من أربعة أجزاء، والخيمة التي تتكون من (أربعة وسّط) تسمّى (مروبع) تتكون من خمسة أجزاء، والخيمة التي

تتكون من (خمسة وسَط) تسمّى (مخومس) تتكون من ستة أجزاء، والخيمة التي تتكون من (سبعة وسَط) تسمّى (مسوبع) تتكون من ثمانية أجزاء[٢٥].

وتنصب الخيمة تبعا لاتجاه الريح، فالجزء الذي يقابل حركة الريح يكون مغلقا تماما، ويطلق عليه (قفى البيت) أي قافية البيت، ويحميها الرواق، والجهة المقابلة للرواق، وهي الجزء الأمامي من البيت، ويطلق عليها اسم (الحجال)، وهي الجهة التي تحمي البيت من اتجاه الرياح الأمامية، وتستر الجهة الأمامية للبيت، أما الأجزاء الجانبية، فتتم حمايتها ب (الرفّة) التي تقي جانبي البيت، وتسمّى هذه الجهة (كسور البيت)[٢٦].

وكما لاحظنا يتكون بناء بيت الشعر من سقف وحيطان وأعمدة وحبال، والسقف يتكون من مجموعة من الشقق المكوّنة لبيت الشّعر، تسند في وسطها بمجموعة من الأعمدة، وتثبت بدورها بمجموعة من الحبال التي تعمدها مجموعة من الأوتاد. ومعظم سطوح بيت الشعر تتكون من (٦– ٨) شقق موزعة بسلسلة متساوية على جانبين متساويين، وتتوسط البيت (عارضة) خشبية يطلق عليها اسم (الواوية) أو (القتب)، وهي قطعة خشبية يسندها الواسط كعمود البيت الرئيس كونه عمود الارتكاز يتناغم مع مجموعة من الأعمدة المركزية في البيت، وتستند هذه الأعمدة على مجموعة من الطرائق (مفردها طريقة) تمنع البيت من الانفساخ عن بعضه، وترتبط مقدمة الطريقة بحبل أساسي يسمى (الطنب)[٢٧].

وحينما يتابع المرء هندسة بناء بيت الشّعر يجد نفسه أمام سؤال طالما حيّر الباحثين: أهو أمام هندسة بيت شَعر، أم أمام هندسة بيت شِعر ؟!. ولعل الإجابة تكمن في نظرية الفن ذاتها.

التماثل بين بيت الشعر وبيت الشعر:

بدأ الإنسان رؤاه الفنية بمحاكاة الطبيعة وفق مبدأ التماثل والتشابه لإدراك كنه العلاقة التي تربط الواقع بهذه الرؤى. ومن هنا يمكننا أن نفهم كتاب هوراس الذي جاء بعنوان: "الشعر هو التصوير"؛ ليؤكد جوهر العلاقة التي تربط بين "الصورة" و"الشّعر"، ولإيمانه بأن الرسم هو الشعر الذي يكتب على شكل قصيدة

ذات قافية تشكيلية[٢٨]. فالشعر صورة ناطقة، والرسم هو الشعر، وأول رسم كان نوعا من الكتابة يتمثل بالخط الهيروغليفي الذي سمّي بالخط الصوري لاعتماده في أبجديّته على الصورة، فالرسوم المكانية تمددت داخل الكتابة الهجائية حتى خطوط الرمل الستة عشر التي انتشرت بين الكهنة في أفريقيا، قامت بالاعتماد على رسم النقاط كصور تشكيلية حتى تؤدي معانيها، مثل[٢٩]:

- شكل يدل على معنى السلطة والحكم.
- شكل يدل على معنى النساء.
- شكل يدل على معنى الإخاء والمساواة.
- شكل يدل على معنى النفس والحياة.

إن هذه الأشكال البصرية حالها حال الكتابة؛ هي الهادية لنا لفهم التقارب بين بيت الشِّعر والبيت المبني حيث تفسِّره ظاهرة التلقي للنص الشعري، إذ يبدأ التلقي من الصورة الكلية للتشكيل (البيت) عبر الرؤية البصرية التي تقوم بتحريك الطبقات الإرادية المحفِّزة لخيال الشاعر، ومن ثم ستحرك الرؤية للتفكير، وهي خصيصة جديرة بإعلانها كمكسب مبكر، ثم إن المعاني الشعرية المجازية ستحرك

بدورها التخييل والتفكير، وفي الحالتين تتم إثارة الانفعالات للتشكيل الشعري، وسيكون التأمل أول ردّ فعل للقوة المفكرة، فإعمال البصر والفكر معا إنما هو تحريك لحواس الإنسان البيولوجية التي تفعل الأثر الفكري الذي تحوله القدرة الخيالية إلى عمل شعري(٣٠).

إن الفن – بشكل عام، وفن الكتابة الشعرية بشكل خاص – هو انتقال الإنسان خلال محاكاته الطبيعة من عالم المادة إلى عالم الصورة، أو بالأحرى من عالم المادة الجامدة إلى عالم المادة المرنة المتكيّفة مع الرغبات الإنسانية(٣١). وهو يشكل بهذا إدراكاته البصرية للأشياء الموجودة خارج عالمه بينما يجسّد في نفس الحين والآن ما يجري في حياته الذهنية الداخلية، وعند ذلك يتحول الشاعر إلى عقل يشارك في تشكيل الطبيعة ذهنيا عندما يتحوّل المظهر البصري – المادي إلى عملية ذهنية.(٣٢) وقد حاكى الشاعر العربي "البيت المبني" محاكاة شكلية جاءت متآلفة مع أساسيات الجمال الفطري في الفن إبان تساوي الثنائيات الشكلية وتوازيها في الفن، لإيمانه بأن الشعريّة مادة مشتركة لجميع الفنون، وعليه فالشعر من خلال الشعرية موجود في الطبيعة والكون والأشياء، والشعرية عامل مشترك بين الفنون تتشكل ببنى مختلفة حسب طبيعة كل فن، وتقنياته، وأدواته الخاصة(٣٣).

لقد تمكن الشاعر العربي من إذابة الثنائية بين بيت الشعر والبيت المبني؛ بإقامة وحدة انسجامية للصورة الذهنية حتى لا يحدث أي تنافر للثنائية الشكلية داخل المعمار الفني، وقد اعتمد الشاعر العربي على نقل الحيز المكاني إلى حيز خيالي من خلال البيت الشعري. ويجب أن لا يغيب عن بال الناظر إلى بنية البيت الشعري أن المكانية التي أفرزت بيت الشعر هي ذاتها التي أفرزت صور الطلل، والناقة، والديار، وهي ذات المكانية التي صبغت مكونات صوره الشعرية إذ جاءت لوحات البيت المبني مرسومة بامتزاج عالم الألوان بمداد الكلمة الشعرية عبر الحس البصري والمخيلة التي اكتفت بإبراز إيقاعية اللونين: الأبيض والأسود، اللذين عملا على تشكيل الحس العربي نحو الألوان(٣٤). وإنما قصد الشاعر العربي من وراء هذه المحاكاة الثنائية إلى محاكاة البنية الفلسفية للثنائية الجمالية في الفن،

والتي حاكاها كما يحاكي ذاته محاكاة شكلية تستجيب لأساسيات الجمال الفطري في تساوي الثنائيات وتوازيها (٣٥).

إن الشاعر العربي كان واعيا بالطريقة التي نظر من خلالها إلى العالم الخارجي، فقام باستخدام أقصى معانيه البصرية؛ مؤكدا دور الصورة المكانية البصرية لاستيحاء وعيه الرؤيوي، مؤكدا أن الدافع لكتابة بيته الشعري تأتّى من رؤية بنيوية متوحدة مع البيئة والحياة، فصمم بيته الشعري محاكيا بيت الشعر كفن بصري ارتأى من خلاله رسم فضاءات تشكيلية تتداخل بانسجام مع النص الشعري. ففي بيت الشّعر يظهر الانسجام التام بين شطريه "المحرم، والشقّ" فهناك تساو بين الجزأين، وتواز يشبه تماما التساوي والتوازي بين الشطر الأول والشطر الثاني في البيت الشعري، وكما أن هذه الأجزاء تجمعها علاقة وطيدة في بيت الشّعر تتمثل في علاقة الأجزاء بعضها ببعض "الأوتاد، والحبال، والأعمدة، والشقق، والرواق"، وهي ذات العلاقة القائمة في البيت الشّعري الذي يتكون من "الأوتاد، والأسباب، والأعمدة، والأفاعيل، والقافية"، فبهما معا يتحقق المعنى الجزئي لوحدة البيت، ثم بعلاقة الأبيات معا يتحقق المعنى الكلي(٣٦). "إن هذا التساوي والتشابه يؤكد لنا أن الشكل التقليدي للبيت الشعري في القصيدة العربية جاء محاكاة صادقة لأساسيات الجمال الفطري، وكأن العربي يحاكي الطبيعة بنوع من الجمال البحت، البعيد عن تحكم القوانين والغايات الخارجية، وهو جمال ندركه بالحواس (البصر والسمع) لمن ينتمي إلى حقبة زمنية ومكانية واحدة تحقيقا لأبعاد الذوق المشترك"(٣٧). ونتج عن هذا التساوي والتماثل لأساسيات الجمال الفطري ظهور البيت الشعري وحدة متساوية الأبعاد مشكلة تناسبا زمنيا ومكانيا ممثلا في تساوي الوحدات العروضية والتفعيلات؛ فجاء البيت الشعري محاولة لكتابة أساس القصيدة العربية بنقل البيت من بعده المكاني المرئي إلى بعده الزمني المنطوق، فاتخذ الشكل التقليدي في بنائه بتوازي الصدر والعجز وفق وحدات متساوية، وعلى خط أفقي أسود يفصله البياض الذي يعبر عن فاصل الصمت، ولازمة التنفس ليمثل كالآتي:

لقد رسّخ البيت الشعري للقصيدة العربية في ذهنية الشاعر والناقد معا بهذا الشكل الكتابي كترجمة مادية لصورة عقلية ذات تصور مسبق؛ فاكتسب صورة الثبات والاستمرار. وهذا الشكل إنما هو نتاج فلسفة جمالية حاكت الفطرة عندما اعتمدت التناسب والتماثل الثنائي كوسيلة جمالية، وهذا التناسب والتماثل الثنائي يستمد مادته من تآلف الطبيعة والإنسان معا ضمن أساسيات تعتمد على:

أولا: التساوي بين شطري البيت وتوازيهما.

ثانيا: التكرار للوحدات العروضية، والقافية، والروي.

ثالثا: التنظيم لشكل الإطار الخارجي (خط، أو مربع، أو مستطيل)(٣٨).

إن هذا التساوي، والتكرار، والتنظيم هو الذي يدفع مؤلف الكلام أو الشاعر أن يكون "كالبنّاء أو النسّاج، والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال الذي ينسج عليه.... وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب الصحيحة عند العرب"(٣٩).

ويرى ابن طباطبا أن الشاعر قبل مباشرته عملية الصنعة الشعرية؛ يجب أن يعدّ الأدوات اللازمة للصنعة الشعرية حيث يقول: "وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مرامه، وتكلّف نظمه... فمنها: التوسّع في علم اللغة، والبراعة في فهم الإعراب، والرواية لفنون الأدب، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم، والوقوف على مذاهب العرب في الشعر، والتصرُّف في معانيه في كل فن قالته العرب فيه، وسلوك مناهجها في صفاتها، ومخاطباتها، وحكاياتها، وأمثالها، والسنن المستعملة منها، وتعريضها وتصريحها، وإطنابها وتقصيرها، وإطالتها وإيجازها، ولطفها وخلابتها، وعذوبة ألفاظها، وجزالة معانيها، وحسن مباديها وحلاوة مقاطعها، وإيفاء كل معنى حظّه من العبارة، وإلباسه مايشاكله من الألفاظ حتّى يبرز في أحسن زيّ وأبهى صورة"(٤٠) فالشاعر هنا كالنسّاج الحاذق لأجزاء بيت الشّعر "الشقق" الذي يكون لديه الإحساس العميق بكيانات العناصر المشكّلة لمادة صناعته بحيث يجب أن تصاغ وفق مبدأ التآلف والتناسق، وهذا المبدأ ينسحب على أبيات القصيدة كاملة دون

أن يتجاوز كيان البيت الواحد[٤١]. فالشاعر "يكون كالنسّج الحاذق الذي يفوّف وشيه بأحسن التفويف، ويسدّيه وينيره، ولا يهلهل شيئا منه فيشينه"[٤٢].

إن آلية بناء البيت الشعري التي أوردها ابن طباطبا في معياره شبيهة بآلية بناء بيت الشّعر حيث يقول: "فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشّعر عليه في فكره نثرا، وأعدّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني.... فإذا كملت له المعاني، وكثرت الأبيات، وفّق بينها بأبيات تكون نظاما لها، وسلكا جامعا لما تشتت منها"[٤٣]. وهذه الآلية شبيهة بآلية بناء البدوي لبيت الشّعر، فإذا أراد البدوي بناء بيت الشعر، مخّض المعنى الذي يريد بناء بيت الشّعر عليه، فجمع ما تناثر من شعر الماعز أو وبر الإبل، وقام بغزله خيوطا، وأعدّ من تلك الخيوط لحمة و سدى، ونطوا أو "شقق" لكي يلبس بيته بها، فاختار منها مايطابقه، ثم اختار أشكال الزخارف والألوان للرواق، واختار الأعمدة والحبال والأوتاد كي يزن بها بيته حتى يسلس بناؤه، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته ونصبه، وأعمل فكره في شغل الرواق بما يتناسب وحجم البيت. فآلية عمل البيتين تقوم على مراحل متعاقبة أولها: مرحلة التفكير، وثانيها: مرحلة الصياغة والصناعة.

(أجزاء بيت الشعر)

أ: الإيد أو الدافع. ب: المجدم (المقدم). ج : الكاسر. د: الواسط. هـ: الرجل. و: الميخر (المؤخر). ز: الرواق. ح: الحجال. ط: الرفّه[٤٤].

تراسل الحواس بين التماثل والتشابه:

لعل أجمل وصف للتماثل والتشابه بين بناء البيت الشعري والبيت المبني؛ هو ذلك الوصف الذي قدّمه حازم القرطاجني في "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" حينما كشف عن أساس التماثل والتشابه بين البيت الشعري والبيت المبني في عرضه لمفهوم المحاكاة والتخييل الذي يتأتى بإنشاء صورة أو صور في ذهن المتلقي ترتبط بالنفس، وتحرّك فعاليتها. فالتخييل عند حازم هو المعتبر في صناعة الشعر، فإذا حصل التخييل

والمحاكاة كان الكلام قولا شعريا؛ لأن الشعر لا تعتبر فيه المادة، بل يقع في المادة من التخييل. ويحدث بأن تتمثَّل للسامع من لفظ الشاعر المخيِّل أو معانيه، أو أسلوبه، أو نظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها، وينبغي أن يمثِّل حسن المحاكاة في القول بأحسن ما يمكن أن يوجد من ضروب تصاوير الأشياء وتماثلها[٤٥]. ويقود التخييل القرطاجني لتصور التلازم بين البناء الفضائي للبيت الشعري، والبناء الفضائي لبيت الشَّعر من خلال تصوره أن كل شيء له وجود خارج الذهن، وحين يدرك تكون له صورة في الذهن تطابق ما أدرك منه، ولذلك فإذا أراد الشاعر أن يعبِّر عن تلك الصورة الذهنية أقام باللفظ هيئة تلك الصورة في أفهام السامعين وأذهانهم، فالبيت المبني في الطبيعة له معنى ومفهوم في الذهن يتطابق مع المعنى المرئي حين تقيم الكتابة في الأفهام هيئات الألفاظ في الأذهان بتحول المفهوم إلى لفظ[٤٦]. وانطلاقا من مفهوم المحاكاة والتخييل؛ يعرض القرطاجني في رؤية ثاقبة خفايا بناء البيت الشعري للقصيدة العربية حينما يؤكد أن القصيدة الشعرية تتشكل من وحدات متماثلة من "الأبيات"، وحينما يقوم بتفكيك البيت الشعري محاولا استخراج العناصر المكوِّنة له، آخذا بعين الاعتبار الأسس النفسية والتاريخية التي جعلت من الشاعر العربي بانيا للقصيدة، ومشبها لها بتلك الوحدة البنائية "بيت الشَّعر"، "ولمَّا كان أحقّ البواعث بأن يكون–هو السبب الأول – الداعي إلى قول الشعر– هو– الوجد والاشتياق والحنين إلى المنازل المألوفة والآفها عند فراقها، وتذكّر عهودها وعهودهم الحميدة فيها، وكان الشاعر يريد أن يبقي ذكرا أو يصوغ مقالا يخيِّل فيه حال أحبابه، ويقيم المعاني المحاكية لهم في الأذهان مقام صورهم وهيئاتهم، ويحاكي فيه جميع أمورهم حتَّى يجعل المعاني أمثلة لهم ولأحوالهم؛ أحبوا أن يجعلوا الأقاويل – التي يودعونها المعاني المخيِّلة لأحبابهم – المقيمة في الأذهان/ صورا هي أمثلة لهم ولأحوالهم– مرتبة ترتيبا يتنزل من جهة موقعه من السمع منزلة ترتيب أحويتهم وبيوتهم. ويوجد في وضع تلك بالنسبة إلى ما يدركه السمع شبه من وضع هذه بالنسبة إلى ما يدركه البصر ، فقد تقدّم أن المسموعات تجري في الأسماع مجرى المرئيات من البصر، وتوجد لحال حال من هذه أشياء من حال حال من تلك.... فقصدوا أن

يحاكوا البيوت التي كانت أكناف العرب ومساكنها، وهي بيوت الشَّعر، لكونهم يحنّون إلى انكار ملابسة أحبابهم لها، واستصحابهم لها، واشتمالها عليهم بالأقاويل التي يقيمون المعاني المنوطة بها في الأذهان مقام صورهم وهيئاتهم، ويجعلونها أمثلة لهم ولأحوالهم. فيكون اشتمال الأقاويل على تلك المعاني مشبها لاشتمال الأبيات المضروبة على من قصد تمثيله بها، وأن تجعل تذكرة له. ويكون ما بين المعنى والقول من الملابسة مثل ما كان بين الساكن والمسكن، ومتى أمكن أن يهيئ الشيء الذي يجعل تذكرة لشيء آخر، ويقصد به تمثيله في الأفكار بهيأة تشبه هيأة ذلك الشيء المقصود تذكرة من وجوه كثيرة يتسق بها الشبه كان أنجع في التحريك إليه والانصباب في شعب الولوع به"(٤٧).

إن تراسل الحواس هو الذي مكّن الشاعر العربي بنقل المدركات البصريّة من مجالاتها الطبيعية؛ ليضعنا إزاء صورة بعض عناصرها حقيقيّة وبعضها وهميّة، واستطاع أن يمتاح من رؤاه البصرية المختزنة في الذاكرة ضمن سلسلة من الأحاسيس ترجمها البيت الشعري؛ فجاء تراسل الحواس بوصف مدركات حاسة من الحواس بمدركات حاسة أخرى، فألبست الأشياء التي تم إدراكها بحاسة السمع صفات الأشياء التي تم إدراكها بحاسة البصر، فأصبح البيت الشعري أنموذجا تتزاحم فيه الصور القائمة على تراسل مجموعة من الحواس. وتعدّ حاسة البصر من أكثر الحواس أهمية بالنسبة للإنسان في تشكيل الصورة الشعرية لاسيّما التشبيه الذي يعد أكثر أنماط الصور البيانية انتشارا في الشعر القديم، لأن الشعراء كانوا يعتمدون على المشاهدات المرئية أمامهم في تكوين طرفي التشبيه(٤٨)، فالشكل البصري لعرض البيت الشعري على الورق يتصل مباشرة بشكل العرض الإنشادي الشفوي للبيت الذي يستمد مقوماته من جوهر اللغة عندما تتابع حركاتها وسكناتها وأصواتها المتناوبة وفق نظام مرتب متماثل ومتناسق أصبحت معه الصيغة الإنشادية نمطيّة؛ ومن هنا جاءت المماثلة النموذجية للشكلين: البصري والسماعي، أي أن تجري المسموعات من الأسماع مجرى المرئيات من الأبصار(٤٩). ويكشف القرطاجني في ثنائية المرئي والمسموع عن ظاهرة التماثل والتقابل بين بيت الشّعر وبيت الشّعر حينما يمضي في تحليله لكيفية

إنشاء بيت الشّعر: "ولمّا قصدوا أن يجعلوا هيئات ترتيب الأقاويل الشعرية ونظام أوزانها متنزّلة في إدراك السمع منزلة وضع البيوت وترتيباتها في إدراك البصر؛ تأمّلوا البيوت فوجدوا لها كسورا، وأركانا، وأقطارا، وأعمدة، وأسبابا، وأوتادا. فجعلوا الأجزاء التي تقوم فيها أبنية البيوت مقام الكسور لبيوت الشّعر. وجعلوا اطّراد الحركات فيها الذي يوجد الكلام به استواء واعتدالا؛ بمنزلة أقطار البيوت التي تمتدّ في استواء. وجعلوا ملتقى كل قطرين وذلك حيث يفصل بين بعضها وبعض بالسواكن ركنا؛ لأن الساكن لما كان يحجز بين استواء القطرين المكتنفين له صار بمنزلة الركن الذي يعدل بأحد القطرين اللذين هما ملتقاهما عن مساواة الآخر ومساوقته، ولأن الساكن له حدة في السمع كما الركن في رأي العين. وجعلوا الوضع الذي ينبني عليه منتهى شطر البيت وينقسم البيت عنده بنصفين بمنزلة عمود البيت الموضوع وسطه. وجعلوا القافية بمنزلة تحصين منتهى الخباء والبيت من آخرهما، وتحسينه من ظاهر وباطن، ويمكن أن يقال: إنها جعلت بمنزلة ما يعالى به عمود البيت من شعبة الخباء الوسطى التي هي ملتقى أعالي كسور البيت وبها مناطها... وجعلوا العروض والضرب – وهما نهايتا شطري البيت – في أن وضعوهما وضعا متناسبا متقابلا؛ منزلة القائمين في وسط الخباء التي يكون بناؤه عليها. وجعلوا الاعتماد على السواكن، وحفظ نظام الوزن بانبثاثها أثناء متحركاته على النحو المناسب، وتحصين وضعه من الاختلال باعتراضها في المواضع المقدّرة لها وإمرارها سلك الكلام وتلافيها له بما فيها من القوة والجزالة عند توقّع وقوع الفترات بتضاعف الحركات وتواليها بمنزلة الأوتاد التي تحفظ وضع الخباء وتمسك جوانبه(٥٠). وحسب وصف القرطاجني يصبح البيت الشعري شبيها ببيت الشّعر وفق التقابل الآتي:

(بيت الشعر وبيت الشعر)

- أجزاء أبنية البيت = كسور بيوت الشّعر.
- اطراد الحركات = أقطار البيوت المستوية.
- ملتقى الحركات المطّردة = الركن الرابط بين القطرين.
- منتهى الشطر الأول = عمود البيت الموضوع وسطه.

- القافية في آخر الشطر الثاني = تحصين منتهى الخباء من الظاهر والباطن.

وبهذا التساوي يكون القرطاجني قد لمس بدقة عجيبة التلازم بين البناء الفضائي للبيت الشعري، والبناء الفضائي لبيت الشّعر المبني، كما لمس التلازم بين ما هو بصري (إدراك العين)، وما هو سماعي (إدراك السمع) مما أدى إلى الترتيب المكاني للخباء، والترتيب الزماني لبيت الشّعر(٥١).

دائرة البيت:

عاش الإنسان العربي داخل بيت شعره في صحرائه التي تفسر الشعور باللامحدود واللانهائي، "فالسائر فيه يرى الأفق على مرمى النظر محيطا بها من كل جانب، دائرا حوله كما تدور الدوامة الهائلة، وهو يحس بهذه الدائرة العظيمة المقفلة حوله، ولكنه لا يستطيع أن يبلغ مداها أو يصل إلى طرف منها، إنه يسير ولكن الدائرة ما تفتأ تدور، وينظر في كل لحظة حوله، ينظر أمامه، ووراءه، وعن يمينه، وعن شماله؛ فيجد الدائرة مطبقة حوله. تتغير المناظر، وتذهب المعالم، والدائرة هي الدائرة، وهو هو على أبعاد متساوية من محيطها، وإن كان هناك من امتداد أمامه؛ فلم يكن في تلك الصحراء إلا ذلك الخط المستقيم (البيت)، محاطا بالأفق الدائري دائما، وكأن هذا الإنسان مركز هذه الدائرة. هذا الإحساس بالدائرة الخالدة هو الذي انطبع في نفس العربي، فكانت كل وقفة له تحيط بها الدائرة، ويتحرك فتتجدد وقفاته، وتتجدد معها الدائرة، فإذا بكل موقف له دائرته الخاصة، وعلى هذا النحو كانت القصيدة رحلة تتعدد فيها المواقف، ولكل موقف إطار خاص يدور حوله، أو لنقل مجموعة من الأبيات، وكل بيت دائرة مستقلة (وحدة) تتضمّن موقفا بعينه (معنى أو شعورا أو صورة)، ووحدة البيت إذاً مرجعها إلى ذلك الأفق الصحراوي الدائري، ذلك الأفق الذي يستقل فيه كل موقف بدائرة خاصة يلتقي طرفاها حوله، ومن هنا يمكننا أن نفهم كيف حدّد الخليل بن أحمد الدوائر العروضية، وكيف حدّد البلاغيون الدوائر البلاغية(٥٢).

إن حركة العربي من البيت المحدود الجانبين بداية ونهاية هو الذي يشكل لديه الأفق الدائري في أي وجهة تحرك، فإذا هو تحرك منه لا يلبث أن يجد نفسه في دائرة أخرى كما يتضح في الشكل الآتي:

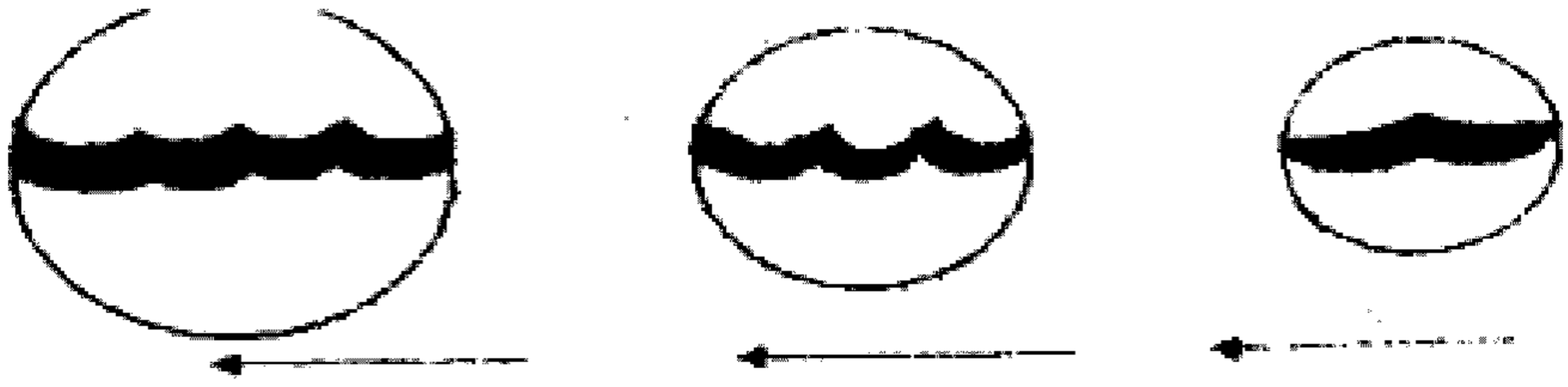

فالحركة في الصحراء معناها الانتقال من دائرة إلى دائرة، فالدائرة ظاهرة دائمة تحيط بالإنسان العربي أينما اتجه، ولذا يمكنه التمييز في حركته بين دائرة وأخرى لأن الوجود أمامه يتكرر في دوائر غير متشابهة، وليس التكرار إلا تكرارا للوحدة المستقلة للبيت المبني للدائرة المغلقة[٥٣]. وعليه يمكننا أن نفهم أن القصيدة الشعرية ليست سوى دوائر متشابهة، كالآتي:

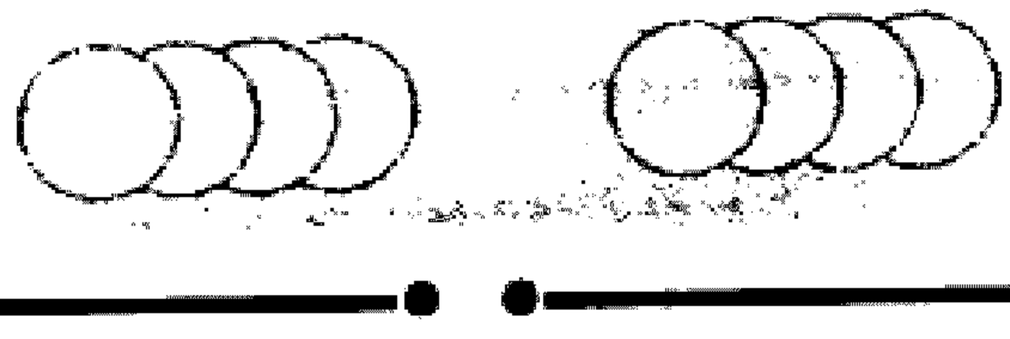

فالقصيدة الشعرية تتأتى وحدة أبياتها من وحدة البيت، وهذه الوحدة ما هي إلا وحدة دوائر متشابهة بل متطابقة ومتماثلة في موسيقاها ونسقها، والتكرار هنا ما هو إلا تكرار لوحدات متشابهة لخط مستقيم داخل الدائرة، ففي الشكل السابق نلحظ أن علاقة كل من الخطوط بالآخر مختلف في كل دائرة عنها في الأخرى، ولذا راعى الشاعر نظم ألفاظه بطريقة خاصة راعى من خلالها وحدة البيت في حدود الدائرة؛ آخذا بعين الاعتبار أن التوازن أو التعادل عنصر إيقاعي لازم في بنية الوحدة، أو الدائرة، أو البيت، وهذا صدى لطبيعة إنسان الصحراء الذي يرى الدائرة تتجدد دائما حوله، ففي كل لحظة ينظر يمينا، أو شمالا؛ يجد الأفق يقع منه على مسافة متعادلة، فإحساس التماثل والتساوي، والتوازن والتعادل نابع من طبيعة

الدائرة، وموقف السائر فيها حيث يحس دائما بأن أبعادها بالنسبة له متساوية[٥٤]. وهذه الدائرة تحتل مكانة مقدسة بالنسبة للعربي؛ فهي حرم بيت الشَّعر الخارجي، ومجموعة البيوت هي الدِّيرة أو حرم العشيرة، ومن هنا يمكننا أن نفهم التناسب الذي أقامه القرطاجني بين حركة الدوران حول "بيت الشَّعر"، وحركة التماوج الصوتي في أبيات القصيدة. فإذا كانت حركة الدوران متصلة حول "بيت الشَّعر" أو "بيت الشَّعر" أي أنك ترجع في كل دورة إلى النقطة التي انطلقت منها؛ لتبدأ من جديد حركة مماثلة للحركة الأولى؛ لأن الانفصال الحاصل في آخر البيت هو اتصال مقدر على استدارة[٥٥]. كالآتي:

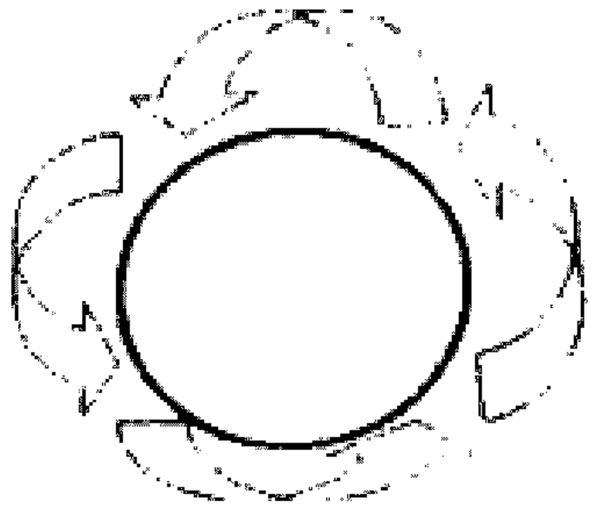

وهذا الذي أشار إليه القرطاجني بقوله: "ويجب أن تعلم أن أبيات الشعر، وإن كانت أوائلها منفصلة عن أوائلها، فإن النظام فيها في تقدير الاتصال على استدارة إذ كان وضع الأوزان الشعرية وترتيبها ترتيبا زمانيا لا يمكنك فيه أن ترجع بالنهاية إلى زمان المبدأ، بل تكون بينهما فسحة من الزمان ولا بد. وترتيب البيت المضروب ترتيب مكاني إذا بدأت بأي موضع شئت منه ثم درت عليه تأتى لك أن ترجع إلى الموضع الذي بدأت منه بنقلة مستديرة على اتصال من غير أن يكون بين المبدأ والنهاية فسحة، والأوزان وإن لم يكن أنْ يعاد بالنهاية فيها إلى زمان المبدأ فإنها في تقدير ذلك، إذ نسبة سرد الشطر الأول من أي بيت وقع تاليا لبيت بعد الانتهاء إلى قافية البيت المتقدِّم، وإعطاء كل متحرك وساكن منه حقَّه من التلفظ نسبة سرد الشطر الثاني، وإعطاء متحركاته وسواكنه حقوقها من التلفظ بعد الانتهاء إلى مقطع الشطر الأول. فلذلك يجب أن يجعل ساكن القافية الأخير مع ما يتقدمه من السواكن أو يتلوه من ذلك في أول البيت التالي له أو على حدِّه ركنا

فاصلا بين ما وقع في صدر جزء القافية الذي هو فيها من اطراد المتحركات الذي هو بمنزلة بعض أقطار البيت التي تمتد بين بعض أركانه وبعض، وبين ما وقع من ذلك في صدر الجزء المفتتح به البيت الذي يليه، أو وسطه، أو آخره(٥٦).

أما قافية البيت؛ فالأمر ليس كما ذهب إليه القرطاجني حيث يحسن في القافية أن يقال فيها أنها جعلت بمنزلة آخر ما يستر به الخباء، فهي الرواق الذي يحيط بالبيت " لأن البيت يساق إلى القافية سوقا لطيفا حتى تكون لفقه وطبقه مما يجعلها مستقرة غير قلقة ولا نافرة، فهناك سوق لطيف للبيت باتجاه القافية، وسوق لطيف للقافية باتجاه البيت، كأنما صناعة الشعر نوع من الخياطة يلصق فيها نسيج البيت جميعا بكلمة ثابتة هي القافية، بوساطة أنامل بارعة وخيوط دقاق امتزج فيها اللونين الأبيض والأسود، فلا ينمزق النسيج، ولا تظهر الخيوط، ونظرة لصورة الرواق في بيت الشّعر المبني تدلل على أهمية القافية في البيت الشّعري كما تظهر أهمية الرواق بالنسبة لبيت الشّعر:

شكل الرواق أو القافية للبيت

وفي الختام؛ فإن تصوّر القرطاجني للبيت في القصيدة العربية يقودنا إلى اعتبار القصيدة العربية واحدة من مطولات الشعر العربي، وموطنا يحوي مجموعة من الخيام، تستقل كل واحدة منها عن الأخرى بينما تتقارب في مجموعها داخل بنية واحدة، فالقصيدة مجموعة من الأبيات قسمت أبياتها أو خيامها إلى مجموعات متقاربة، عددها يساوي عدد الموضوعات أو الأفكار الرئيسة؛ لأن عدد الخيام في كل مجموعة يساوي عدد الأبيات، مع أن كل بيت منها مستقل بذاته(٥٧) ."إن الفكرة البنائية في القصيدة العربية تعبر أحسن تعبير عن ذلك النظام الاجتماعي القبلي الذي كانت حياة العرب مرتبطة به، فالوحدة التي تمثلها القبيلة تتمثل لنا في البيت من الشعر. فإذا كان المجتمع كله عددا هائلا من القبائل المستقلة في كل شئونها

والتي لا يربطها بغيرها إلا الدم، فكذلك الشأن في القصيدة العربية، فهي كما رأيناها – مجموعة من الوحدات (الأبيات) – المستقلة بذاتها، التي لا يربطها بغيرها إلا القافية. والوحدة المستقلة في القصيدة (البيت) تتكون من مجموعة من العناصر المتشابكة المتعاونة التي تعمل جميعها في تفاعل وانسجام داخل إطار هذه الوحدة، تماما كما يعيش أفراد القبيلة الواحدة داخل قبيلتهم، وإذا كانت القبيلة هي الوحدة المتكررة في المجتمع البدوي، فكذلك كان البيت الوحدة المتكررة في القصيدة. وعليه يمكن أن يقدم لنا نظام الحياة الاجتماعية عند العرب في العصر الجاهلي تفسيرا لنظام القصيدة أو لطريقة بنائها حيث يفسر ظاهرة الوحدة والتكرار، فالأفراد المتعاونون في القبيلة هم الذين يشكلون مجموعة الوحدات المستقلة لبناء المجتمع أو القصيدة"(٥٨).

"إن الخضوع للعرف العام في الخلق الفردي والاجتماعي، وفي محاسن الأشياء وعيوبها هو الحكم الذي كان يفيء إليه النقاد العرب في دراستهم للشعر، وكانوا لا يزالون يتساءلون عن أمدح بيت وأغزل بيت وأهجى بيت، ولم يكن هذا السؤال -على سذاجته- وليد اعتقاد بأن البيت هو الوحدة الشعرية، وإنما كان وليد البيئة التي تعتمد على الحفظ، وعلى الاستشهاد والتمثل بالأبيات المفردة السائرة، مثلما هو نتاج المفاضلة الساذجة في نطاق الموضوع الواحد، وسيكون النظر إلى -البيت المفرد السائر- أو الأبيات المفردة السائرة محكا للجودة مادام الحفظ لا يسمح بتصور القصيدة جمعاء"(٥٩). ولذا عقد العرب مشابهة بين بيت الشَّعر وبيت الشِّعر لأن بيت الشِّعر يحتوي على معانيه كما يحتوي بيت الشَّعر على ما فيه، فالعروض عمود الشِّعر وعمود الشَّعر، والضرب ما يماثل العروض من بيت الشِّعر أو ما يماثل الواسط في بيت الشَّعر، والأسباب هي الحبال ما دامت الأوتاد هي الأوتاد، والضابط لهذه وتلك الدائرة. آملا أن يكون هذا البحث نافذة نعود منها لإعادة النظر في هوية الشعر العربي، وأن نفكر لبعض الوقت لماذا ركز النقاد العرب على وحدة البيت الشعري بدلا من تركيزهم على وحدة القصيدة؟ ألا تتحقق وحدة القصيدة الموضوعية والعضوية من خلال وحدة البيت، سواء أكان بيت الشِّعر أو بيت الشَّعر؟!

الحواشي.

(١) عيسى علي عاكوب، موسيقا الشعر العربي، دمشق، دار الفكر العربي، ١٩٩٧، ص٢٠.

(٢) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط ٢، بيروت، دار الثقافة، ١٩٩٢، ص٤٨.

(٣) المرجع السابق، ص٤٨.

(٤) المرجع نفسه، ص٤٨.

(٥) المرجع نفسه، ص٨٥.

(٦) المرجع نفسه، ص٥١.

(٧) مصطفى الجوزو، نظريات الشعر عند العرب، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨١، ص ٣٨.

(٨) محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ) عيار الشعر، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٥، ص١٥– ١٦.

(٩) أبو القاسم الفتوح بن عيسى بن أحمد الصنهاجي، شرح القصيدة الخزرجية، مخطوط، ليدن، OR154 (١)، ص٩.

(١٠) أبو العباس أحمد بن الحسن بن أحمد النحوي الموصلي، تصحيح المقياس في تفسير القسطاس، مخطوط، ليدن، OR 654، ص٣٦.

(١١) الصنهاجي، شرح القصيدة الخزرجية، ص٩.

(١٢) نشوان بن سعيد الحميري، شمس العلوم ودواء كلام العرب من المكلوم، ج١، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، بلا، ص٣٩٥.

(١٣) محمد رضوان الداية، العروض وموسيقا الشعر، ط٣، دمشق: جامعة دمشق، ١٩٩٩، ص١٦–١٧.

(١٤) النحوي الموصلي، تصحيح المقياس في تفسير القسطاس، ص٤٠–٤١.

(١٥) أبو الحسين علي بن إسماعيل بن سيدة (ت٤٨٥هـ) المحكم والمحيط الأعظم، م١، تح: عبدالحميد الهنداوي، بيروت، دار الكتب، العلمية، ٢٠٠٠، ص٥٢٥.

(١٦) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري، كتاب جمهرة اللغة، ج١، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٥هـ، ص١٩٩.

(١٧) أحمد بن محمد بن أحمد الحسني، شرح المنظومة الخزرجية، مخطوط، ليدن، OR 154 (2)، ص١٧٠.

(١٨) انظر: ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، م١، ص٤٠٣.

(١٩) انظر: النحوي الموصلي، تصحيح المقياس في تفسير القسطاس، ص٧٣–٧٤.

(٢٠) أبو الحسن أحمد بن محمد العروضي (ت ٣٢٤هـ) الجامع في العروض والقوافي، تح. زهير غازي زاهد، وهلال ناجي، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٦، ص٦٠.

(21) Alois Musil. Manners and Customs of The Rwala Bedouins, New York: AMS Press ,1928. p.63.

(٢٢) المرجع السابق، ص٦٢.

(٢٣) المرجع نفسه، ص٦٢-٦٤.

(24) Amal Rasmi Abed, Change in Traditional Badu Home Layout as Function of Lifestyle: From Bayt Esh-sha'ar to Vella, M.A Thesis, Architecture, J.U.S.T University, Jordan ,2001. p.35. Engineering.

(25) Alois Musil. Manners and Customs of The Rwala Bedouins, p.72.

(26) Amal Rasmi Abed, Change in Traditional Badu Home Layout as Function of Lifestyle: From Bayt Esh-sha'ar to Vella , p.34.

(٢٧) المرجع السابق، ص٣٤.

(٢٨) فرانكلين ر. روجرز، الشعر والرسم، ترجمة مي مظفر، بغداد: دار المأمون للترجمة والنشر، ١٩٩٠، ص٤٥.

(٢٩) محمد نجيب التلاوي، القصيدة التشكيلية في الشعر العربي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص٥٥.

(٣٠) المرجع السابق، ص٨٣-٨٤.

(٣١) رمضان الصباغ، في التفسير الأخلاقي والاجتماعي للفن، الإسكندرية: دار الوفاء للطباعة والنشر، ١٩٩٨، ص١٧.

(٣٢) غراهام كولير، الفن والشعور الإبداعي، ترجمة منير صلاحي الأصبحي، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٣، ص٢٦.

(٣٣) محمد نجيب التلاوي، القصيدة التشكيلية في الشعر العربي، ص٣٩، ٤٩.

(٣٤) المرجع السابق، ص٥٦-٥٧.

(٣٥) المرجع نفسه، ص٣٩.

(٣٦) المرجع نفسه، ص٣٨.

(٣٧) المرجع نفسه، ص٣٩.

(٣٨) المرجع نفسه، ص٣٦-٣٧.

(٣٩) عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ) مقدمة ابن خلدون، ج٤، تح: علي عبد الواحد وافي، القاهرة، ١٩٦٠، ص١٢٤٢.

(٤٠) محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ) عيار الشعر، ص٦.

(٤١) الأخضر الجمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠١، ص٦٥.

(٤٢) محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ) عيار الشعر، ص٨.

(٤٣) المصدر السابق، ص٧-٨.

(44) Amal Rasmi Abed, Change in Traditional Badu Home Layout as Function of Lifestyle: From Bayt Esh-sha'ar to Vella , p146

(٤٥) أبو الحسن حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح. محمد الحبيب بن الخوجة، بيروت: دار الغرب، الإسلامي، ١٩٨١، ص٨١، ٨٣، ٨٩، ١٢٧.

(٤٦) طراد الكبيسي، في الشعرية العربية: منهاج البلغاء، المجلة الثقافية، ع ٤٠، عمان، الأردن، كانون الأول١٩٩٦- آذار١٩٩٧، ص١٦١- ١٦٢.

(٤٧) أبو الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٢٥٠.

(٤٨) عبد الرحمن محمد الوصيفي، تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، القاهرة، مكتبة الآداب، ٢٠٠٣، ص٥٠- ٥٢.

(٤٩) طراد الكبيسي، في الشعرية العربية: منهاج البلغاء، ص١٦١.

(٥٠) أبو الحسن حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٢٥١.

(٥١) طراد الكبيسي، في الشعرية العربية: منهاج البلغاء، ص١٦١.

(٥٢) عز الدين اسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ط٢، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٨، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٥٣) المرجع السابق، ص٢٦٨.

(٥٤) المرجع نفسه، ص٢٧٠.

(٥٥) جودت فخر الدين، شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى نهاية القرن الثامن الهجري، ط٢، بيروت، دار الحرف، العربي، ١٩٩٥، ص٨٥.

(٥٦) أبو الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٢٥٥.

(٥٧) جودت فخر الدين، الإيقاع والوزن (كتابات في نقد الشعر)، بيروت: دار الحرف العربي، ١٩٩٥، ص٨٧-٨٨.

(٥٨) عز الدين اسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص٣١٣.

(٥٩) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص٤٩.

حوسبة اللغـــة في فكر الخليـــل: القافيـــة أنموذجـــاً دراســـة وتحليل ونقـد

أ.د. صادق عبد الله أبو سليمان
جامعة الأزهر - فلسطين

حوسبة اللغة في فكر الخليل: القافية أنموذجاً
دراسة وتحليل ونقد

أ.د. صادق عبد الله أبو سليمان

الملخص.

يُشكّل اختراع الحاسوب وتطوره إحدى معجزات القرن العشرين، وكان لانتشاره الواسع في أكثر مناطق العالم أثره في أن غدت كلمة الأمية أو الأمي تشمل إلى جانب معانيها المعروفة من يجهل ثقافة استعمال هذه الآلة المعجزة.

ومن البدهيّ القول إن لهذه الآلة العجيبة فوائدَ جمةً في مجالات المعرفة المتنوعة، وليست علوم اللغة العربية وأدبها إلا واحداً منها، ورأينا في هذه الدراسة أنْ نعودَ إلى تراثنا العربيّ لنبين أنّ فيه دراساتٍ يمكن تسليط الأضواء عليها، وبيان ما فيها من جوانب يمكن أن تشكّلَ مادةً ثريةً لعلماء الحاسوب لبرمجتها، وإفادة الدارسين والعلوم منها، وذلك من خلال ما يقدمه الحاسوب من إمكانات السرعة في الوصول إلى المعلومات، والدقة في البيان والإحصاء، واطّراد المنهج، ورأينا في دراسات الخليل بن أحمد اللغوية والموسيقية شواهدَ واضحةً يمكن أن تعززَ التوجه إلى ما نصبو إليه في ابتكار مجالاتٍ أو تخصصاتٍ دراسيةٍ جديدةٍ في لغتنا العربية، ولاسيما إيجاد ما يمكن الاصطلاح عليه بـــ" علم اللغة الحاسوبي"، أو "علم حوسبة اللغة Computational Linguistics".

وعليه فإننا ندعو في هذا المجالِ إلى ضرورةِ إيجادِ جيلٍ من دارسي اللغة العربية- وغيرها من العلوم الإنسانية والطبيعية- يجمع بين التخصصِ في علومها وإمكانات التعامل مع جهاز الحاسوب، ولاسيما مجالات البرمجة؛ الأمر الذي سيوجدُ جيلاً عربيّاً جديداً يجيدُ الغوصَ في علوم اللغة العربية، ويمتلكُ القدرةَ الفائقةَ على تسخير إمكانات الحاسوب لخدمتها في مجالاتها المتنوعة، وذلك دون الحاجة إلى وسيطٍ يمتلك مهاراتِ الحاسوب ولا يمتلك الشيء الذي يريد إفادته منه.

وتجيءُ هذه الدراسةُ لتشكّلَ بدايةً متواضعةً لتأسيسِ تخصصٍ مزدوجٍ يجمعُ

أصحابه بين المعرفة المتعمقة في الحاسوب والدراية المتمكنة في أسرار اللغة العربية؛ فهي- فيما نزعم- تقدمُ القافيةَ أنموذجاً من خصائص العربية وعلومها، وتنبهُ على النواحي التي يمكنُ للآلة الحاسوبية التعاملُ معها وتحليلُها والوصولُ إلى نتائج دقيقة؛ فإنْ آنس العلماءُ فيها فائدةً مرجوةً لعربيتنا، وطريقاً آمنا للوصول إلى حقائق ونتائج سليمة فلْيلجوا- على بركة الله وابتغاء توفيقه- هذا الباب الجديد في الدراسات اللغوية العربية.

مدخل:

يشكّلُ البحثُ في فكر الخليل اللغويّ أساسا حيويّا ومُهمّاً في مجال الدراسات اللغوية العربية، حيثُ يُشكّلُ مصدراً رئيساً من مصادرها الأولى، ودالاً مُفيداً على تقدُّمها ونضْجها منذ بداياتها الأولى؛ الأمر الذي يكشف عن قدرة علمائنا الأوائل ولاسيما الخليل على امتلاك لغتهم، واستطاعتهم الغوصَ في أعماقها، واستكشافَ أسرارها، والتقعيد لها على أسسٍ منهجية تعبّرُ عن أدقّ خصائصها.

ونحن في هذه الدراسة نسعى إلى اللفت إلى جانبٍ مهمٍّ من جوانب الدرس اللغويّ العربيّ: وهو الجانبُ التّقعيديُّ المُطّردُ الذي يُمكنُ للآلة المبرمجة التّعاملُ معه، وتقديمُ نتائجَ سليمة دالّة على خصائص اللغة العربية بسهولة ويُسْر، وذلك من خلال تغذية هذه الآلة بما تحتاجُ إليه من معطياتٍ مطّردة تستندُ إلى منطقية اللغة وقواعدها النّظرية.

إنّ ولوج علماء العربية في هذا المجالِ من الدراساتِ اللغوية سيزيدُ من تعمّقهم في عربيتهمْ واعتزازهم بها، وسيكشفُ لهم فيها عن خصائص وجوانبَ للمنافسة، كما سيقدّمُ للعربية ذاتها خدماتٍ جليلةً في الحفاظ على خصائصها، وتوفيرِ مسالكَ جديدةٍ تسهم في تنميتها وارتقائها، وتيسيرِ التّعاملِ معها، سواء لأصحابها أو لغيرهم من أبناء اللغاتِ الأخرى؛ الأمر الذي سيجلبُ لها متحدّثين وأنصاراً جُدُداً من غيرِ أبنائها.

وفي سبيلِ تحقيقِ هذه الغاية العلمية التي ندعو الله العليَّ القديرَ أنْ يوطّدَ لها، ويُعمّمَ نفْعَها، رأينا أنْ نقفَ عندَ القافية أنموذجاً من "حوسبة اللغة في فكرِ

الخليل" يمكنُ أنْ يصلحَ أساساً أو نواةً لدراساتٍ لغويةٍ وموسيقيةٍ أخرى تكونُ أكثرَ عمقاً، ويجمعُ أصحابها بينَ تخصصي الحوسبةِ واللغةِ العربيةِ، وهو ما ندعو إليه، ونريدُ لجامعاتنا ومعاهدنا العاليةِ أنْ توجدَ مكاناً لهذا التَّخصُّصِ المفيدِ في برامجها التطويريةِ، وأنْ ينشغلَ مستنيرو أساتذةِ العربيةِ وعُشَّاقِها في مؤتمراتهم وندواتهم ومحاضراتهم في الدَّعايةِ لهذا الاتجاهِ الجديدِ- الذي دَعَوْنا إليهِ في غيرِ مقامٍ- في دراسةِ العربيةِ، وتقديمِ دراساتهم الجادةِ، وأفكارِهم المنيرةِ فيهِ للترسيخِ له بينَ أبناءِ العربيةِ ودارسيها الغُيُرِ عليها بصفةٍ عامَّةٍ.

مفهوم القافية:

تعددت مفاهيم علماء العربية لمصطلح" القافية"، فمن قائل: إنها الحرف الأخير الذي يلتزمه الشاعر في أواخر أعجاز أبيات القصيدة كلها؛ ومن قائل: إنها الحرفان أو الكلمتان من أخر البيت؛ ومن قائل: إنها عَجُزُ البيت؛ ومن قائل: إنها التفعيلة الأخيرة من البيت؛ أي تفعيلة الضرب؛ ومن قائل: إنها آخر كلمة في البيت؛ ومن قائل: إنها كل ما يلتزم الشاعر تكراره من حرفٍ وحركةٍ في أواخر أبيات القصيدة.

وقد ناقشنا في مقام علمي سابق[1] هذه المفاهيمَ التي خالف فيها أصحابها ما جاء عن الخليل بن أحمد في تحديده لماهية القافية، وخرجنا فيه إلى أن مفهوم هذا الرجل هو المقبول عندنا؛ لأنه يتماثل بدقة وطبيعةَ الشعر العربي الذي التزم فيه شاعره بتكرار كمية صوتية محددة من الأصوات المتحركة والساكنة في جميع أواخر أبيات القصيدة؛ الأمر الذي ينتج عنه ختمُ أبياتِ القصيدةِ الواحدةِ بخاتمةٍ موسيقيةٍ موحدةٍ، أو إن شئت فقل: ضبطُ إيقاعِ القصيدةِ، وتوحيدُ إيقاعِ خواتيمِ أبياتها.

والقافية عند الخليل هي: "ما بين آخر حرفٍ من البيت إلى أول ساكنٍ يليه- من قبله- مع المتحرك الذي قبل الساكن"[2]، وإذا تفحصنا تعريف الخليل للقافية فسنرى أنه ينماز بتحديده الدقيق لكمية الأصوات المتحركة والساكنة التي تنتهي بها أبيات القصيدة.

ونَسَبَ ابن رشيق (ت٤٥٦هـ)[3]، وأبو يعلي التنوخي (ت. بعد ٤٨٧هـ)[4]، والشنتريني (ت ٥٤٩هـ)[5]، وابن منظور (ت ٧١١ هـ)[6] ــ تعريفاً آخرَ إلى الخليل

ابن أحمد، وهو أن القافية من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه- من قبله- مع حركة الحرف الذي قبل- هذا- الساكن"[٧].

ولعلّ مِنْ حُجج من قال بهذا التعريف أنّ الخليل وعلماء القافية من بعده قد اصطلحوا على كلّ حرف وحركة في قوافي الشعر، ولكنهم في هذا المقام؛ أعني في الحرف الصامت الذي يسبق ساكنَ القافية الأولَ صمتوا فلم يُسَمّوه بأيّ مصطلح، بينما وجدناهم يُسمّون حركتَهُ: فأطلقوا" الرَسّ" على حركة ما قبل الساكن الأول إذا كان ألفاً[٨]، و"الحَذْو" إذا كان واواً أو ياءً مدّيّتين أو لَيِّنَتَيْن[٩].

ونحن في هذا المقام لا نرى أن الخليلَ بنَ أحمدَ يمكنُ أنْ يُقِرّ أنْ تبدأ القافيةُ بحركة؛ وذلك لأنه لا يمكنُ نطقُ الحركة دون اقترانها بصامت؛ فليسَ من خصائص المقطع اللغويّ أو الميزانِ الصرفيّ في العربية البَدْءُ بحركة؛ الأمرُ الذي يتجلّى بوضوح في همزةِ الوصلِ التي تُنطقُ قطعاً عند عدم سبقها بحرف متحرك، وكذلك ليس من خصائص التفاعيل أو تقسيماتها المقطعيّة- المُتَمَثّلة في السبب والوتد والفاصلة- التي صنّفها الخليلُ البدءُ بالحركة.

على أننا وجدنا من علماء العربية مَنْ يُرادفُ بين الحركة والمتحرك، فها هو الإسنويُّ ينسب إلى ابنِ جنّيّ أنه قال: "وَرُبّما عبّرنا بالمُتَحَرّك عن الحَرَكة"[١٠]، ووَضّحَ الدّماميني فقال:"وبعضُ العروضيين يُعبّرُ عمّا قبلَ الساكنِ الأولِ بالمتحرّك كما فعل الناظم[١١]، وبعضهم يعبّرُ بالحركة، فيقول: من الحركة التي قبل الساكن الأول، ووجّهَ أبو الفتح ابنُ جنّيّ قولَ مَنْ عبّرَ بالحركة بأنّ القصدَ ألا يُسمى قافيةً إلا ما تلزمُ إعادتُهُ من كلّ وجه، والحركة التي قبل الساكن بهذه المثابة، بخلاف حرفها فإنّ له أن يأتيَ بمثله أو بحرف آخرَ متحرك، واعترضَهُ الصّفاقسيُّ بأنّ هذه الحركةَ التي قبل الساكنِ الأولِ كحرفها"[١٢]، وأثبتَ وقوعَ هذا الاختلاف من خلال ما لحظه في لاميةِ امرئ القيس، حيث جاء الاختلافُ في الحرف وحركته[١٣].

وأيّاً يكن الرأيُ في اتّفاق أجناس الأحرف والحركات التي تسبقُ ساكنَ القافيةِ الأولَ، فإنّ احتكامنا إلى المنهج العروضيّ العامّ الذي وضعَ أصولَهُ الخليلُ سيُبْرِزُ أنه لم يكن يعنيه من الحركة أو الحرف إلا مجردَ الحركة أو الحرف، فلا

فرق فيه بين القيم الإيقاعية بل العروضية للحركة سواءٌ أكانتْ ضمةً أم كسرةً أم فتحةً، وكذلك حالُ الصامتِ فيه فالجيم أو القافُ أو الغينُ أو غيرُها كلها ذات قيمة عروضية واحدة؛ الأمرُ الذي يجعلُ ما نُسب إلى ابن جنيٍّ من توجيه اعتمدَ التَّماسيَّ غيرَ دقيقٍ، ويجعلنا-هذا المنهج- لا نرى أهميةً للالتفاتِ إلى جنس الحركة أو الحرفِ في علمي العروض والقافية.

ووجدنا أبا يعلي التنوخي يضيفُ تعريفاً ثالثاً نَسَبَهُ للخليل، وهو أنَّ ما بين الساكنين الأخيرين من البيت مع الساكن الأخير فقط"[١٤] هو القافية، وعلق الدكتور عوني عبد الرؤوف محقق كتابه على هذا التعريف بقوله: "لم يردْ ذكرٌ هذا الرأي، فيما رجعتُ إليه من مظان، إلا باللسان"[١٥].

والحق أني رجعتُ إلى مادة (قفا) في "لسان العرب" فلم أجد هذا التَّعريف فيها، حيث جاء فيها قولُهُ: "وقال الخليلُ: القافيةُ من آخرِ حرْفٍ في البيتِ إلى أوَّلِ ساكنٍ يليهِ مع الحركةِ التي قبلَ الساكنِ، ويقال: مع المتحرك الذي قبل الساكن، كأنَّ القافية على قوله من قول لبيد:

عفــتِ الدِّيــارُ محلُّها فمُقامــُها

من فتحة القاف إلى آخر البيت، وعلى الحكاية الثانية من القاف نفسها إلى آخر البيت"[١٦].

وكما هو واضحٌ من هذا النصِّ فإن ابن منظور لم يُشِرْ إلى ما فهمه الدكتور عوني عبد الرؤوف.

ونَسَبَ ابنُ كَيْسان (ت ٢٥٩هـ) إلى الخليل هذا التعريفَ الذي قرأتُهُ في غيره منسوباً إلى الفراء وأكثرِ الكوفيين وقطرب وثعلب[١٧]، حيث يقول: "قال الخليل: القافية الحرف الذي يلزمه الشاعر في آخر كل بيتٍ حتى يفرغ من شعره،... وكان الخليل يسمي الكلمة التي فيها القافية المضرَّب والرَّوِيَّ"[١٨].

ونحن نرى أن هذا الذي نسبه ابن كيسان إلى الخليل ليس صحيحاً؛ لأنه لو كان أمر القافية عند عالمنا الخليل كذلك لَما وجدناه يجعل للقافية حروفاً وحركاتٍ من رَوِيٍّ ووصلٍ وخروجٍ وردفٍ وتأسيسٍ ودخيلٍ ومجرىً ونفاذٍ وحذوٍ ورسٍّ وإشباعٍ وتوجيه.

وأيّاً يكن الأمر، فإننا نستطيع القولَ بأن الخليل بن أحمد الفراهيديّ قد أقام فهمه لمصطلح القافية على أساسين مهمين :

الأول صوتي، حيث جعل الصوت ساكناً (٥)، أو متحركاً أو حركة (-) حدوداً يحدّ به القافيةَ.

والآخرُ كمّيٌّ أو رياضيٌّ، وقد اعتمد فيه على منهج الإحصاء في تحديد كمية القافية من متحركات وسواكن وما ينتجُ عنها من قيم إيقاعية، وهو التحديدُ الذي جعلهُ معياراً يميّزُ من خلاله بين قوافي الشعر، وذلك على النحو الذي نتحدّثُ عنهُ في السُطورِ التّاليةِ.

المعيار الكمي أو الرياضي:

استقرأ الخليلُ القوافيَ وفْقَ هذا المعيارِ فصنّفها باعتبارِ" وجودِ أصواتٍ متحركةٍ بينَ ساكنَيْها وعدمِه" إلى نوعينِ عامّينِ:

أقام أوّلهما على معيارِ عدمِ وجودِ أيّ صوتٍ متحرّكٍ بينَ ساكنَي القافيةِ، وتمثّل في نمطٍ واحدٍ، هو: (-٥)، وسمّاهُ القافيةَ المُتَرادفةَ.

أما الآخر فأقامه على معيارِ عددِ ما فيه بين ساكنَي القافيةِ من أصواتٍ متحركةٍ، وأحصى أنماطَهُ على هذا النحو:

القافيةُ المتكاوسةُ: (-٥ - - - - ٥)، وعددُ أصواتها المتحركة بين الساكنين أربعة.

القافيةُ المتراكبةُ: (-٥ - - - ٥)، وكميةُ متحركاتها التي بين الساكنين ثلاثة.

القافيةُ المتداركةُ: (-٥ - - ٥)، وفيها بين ساكني القافيةِ متحركان ليس غير .

القافيةُ المتواترةُ: (-٥ - ٥)، ويتوالى فيها بين الساكنين تكرارُ متحرّكٍ واحدٍ.

إنّ ممّا يكشفُ عن عقليةِ الخليلِ المتفتّحةِ التي سخّرت المنهج الرياضي التجريدي لخدمةِ قواعد الشعر العربي هذه المواءمةُ بين الإحصاء لأصواتِ القافيةِ المتحركةِ والساكنةِ وما ينتجُ عنهُ منْ قيمٍ موسيقيةٍ، حيث لم يُعْنَ في هذا المقامِ بوحْدةِ الكلمةِ ودلالتِها المعنويةِ، أو إنْ شئتَ فقلْ: لم يُعْنَ باكتمالِ الكلمةِ ومعناها في القافيةِ، وإنما انْصبّتْ عنايتُهُ على تبيُّنِ ما تُنْتِجُهُ أصواتُ القافيةِ من إيقاعٍ موسيقيٍّ يطّردُ لأبياتِ القصيدةِ، حيث وجدنا القافيةَ تجيءُ أحياناً جزءاً من كلمةٍ، كما في:

(مشقَ = – ٥ – ٥) في كلمة (دمشقَ)، وكلمة وجزءا مما قبلها، كما في: (تلأنب = – ٥ – – – ٥) في (من الأدب)، وكلمة، كما في: (صادقَ = – – ٥ – – ٥)، وكلمتين، كما في: (من أتى = – – ٥ – – ٥)، وكلمتين وجزءا من كلمة قبلهما، كما في: (ـــدا ليا = – – ٥ – ٥) من (بدا ليا).

وخلوصا مما سبق، فإنه يمكننا القول: إن الخليل بن أحمد قد تأتى له بهذا المنهج الرياضيّ الإحصائيّ الذي وقع عليه تحديدُ ضوابط الإيقاع الشعريّ لخواتيم أبيات القصائد العربية بدقّة، حيثُ تمكّن من تعيين حدود القافية، والتفريق بين أنواعها، وحصرِ أشكالها على نحو محوسب يمكن للآلة الحديثة التعامل مع معطياته بسهولة، وتقديمُ النتائج السليمة الدقيقة دون أيّ خلل أو خروج على القاعدة الشعرية.

مواقع القوافي في التفاعيل:

وجدنا الخليل يختصّ كلّ نمط منها بعدد من الأوزان، وصل عنده في الجملة- كما يروي الأخفش عن غيره إلى- ثلاثين قافية، ولم يذكرْ في التقسير إلا تسعا وعشرين، فلا أدري أيّهما كان منه الغلط، إلا أنهم رووا هذا هكذا، وقد ذكروا ما أخبرتُك به"[١٩].

وقد ذكرها الأخفش على هذا النحو:" للمتكاوس منها واحدةٌ... وذلك فعلْنْ... وللمتراكب أربعٌ،... وهي: مفاعلتن مفتعلن فعلن: لأن في فعلن نونا ساكنة، وآخر الجزء الذي قبله نونٌ ساكنةٌ، وفعلْ إذا كان يعتمد على حرف متحرك، نحو فعولْ فعلْ...، وللمتدارك ستّ قوافٍ...، وهي: متفاعلن مستفعلن مفاعلن فاعلن، وفعلْ إذا اعتمدَ على حرفٍ ساكنٍ، نحو فعولن فعلْ...، وإذا اعتمد على حرف متحرك، نحو فعولْ فلْ...، وللمتواتر سبعٌ، وهي: مفاعيلن فاعلاتن فعلاتن مفعولن، وفعولن، فعلْنْ، وفلْ إذا اعتمد على حرف ساكنٍ، نحو فعو فعولنْ فلْ. وللمترادف اثنتا عشرةَ، وهي: متفاعلانْ مستفعلانْ مفتعلانْ مفاعلانْ فعلاتانْ فاعلياتْ فعلياتْ مفعولاتْ فاعلاتْ فعلاتْ مفاعيلْ فعولْ"[٢٠].

ولسنا بصدد مناقشة كمية العدد الذي جاء عن الخليل أهو ثلاثون أم تسعٌ

وعشرون، ولكنا نرى الأخفشَ يثبتُ في هذا المقام ثلاثين وزناً لم يوضحْ فيها الوزنَ الذي أضافه إليها، أو هل أنها جميعاً أوزانُ الخليلِ إلا الوزن الذي أضافه؟!

وإذا كان لنا أن نجتهد في هذا المقام فإننا نقول: إن الأخفشَ قد أضاف صورة (عِلْ = – ه) في القوافي المترادفة، وهي من (مفاعيلْ) صورةِ ضربِ الطويلِ التي استدرك بها الأخفش على الخليل[٢١] الذي اعترفَ من قبله بثلاثِ صورٍ لهذا البحر فقط، وكذلك رأيناهُ يذكر قافيتين أخريين في بحر المتقارب، هما: القافية المتراكبة (لنْ فعلْ= – ه– – ه)، والقافية المتداركة (لن فل= – ه – ه)، وكلتاهما لا يجيزهما الخليل في هذا البحر، وجوّزهما الأخفش حين نراه يقول:" وأما المتقارب فذهابُ نون فعولن فيه أحسن...، إلا أنْ يكونَ بعدها فعل أو فَلْ فيَقْبُحُ إلقاؤها؛ لأنّ الحرفَ الذي بعدها قد أخلَّ به، وهو مع قبحه جائزٌ لم نرَ شيئاً امتنعَ من الزحافِ لإخلالِ بما بعده"[٢٢]، وأشار الأخفشُ في كتابه" القوافي" صراحةً إلى أنّ" الخليلَ لا يُجيزُ سقوطَ نون فعولن بعدها فل" مُعللاً لذلك بقوله: "لأنّ الحذفَ قد أخلَّ به؛ فلا يَحتَمِلُ ما قبله الزحاف"[٢٣].

وبذا تكون القوافي التي يمكن أن يكون الأخفشُ قد ذكرها عن الخليل سبعاً وعشرينَ صورةً فقط، ولا ندري لماذا لَمْ يذكر الأخفش الصور التسع والعشرين أو الثلاثين التي نسبها إلى الخليل، أو يُحَدِّدُ ما جاء عنه فيها، ثمّ يضيفُ ما يريد إضافتَهُ إليها؟.

على أن الأخفشَ نراه في موضعٍ آخرَ يذكرُ أنّ الخليلَ" قد وضع... أسماءَ من الأفعالِ للقوافي، منها: فَيْعِل وفاعِل وفال وفِيل، فجعل كلَّ واحدٍ من ذا قافيةً"، وهذا يَعني أنّ الخليلَ في تصنيفه لهذه الأنماطِ من القوافي على هذا النحو قد خالفَ منهجهُ الأولَ الذي ربطَ فيه بين القافيةِ وضربِ القصيدة، أما في هذا المقامِ فنراه يختصُ القوافيَ بصيغٍ أو أوزانٍ مستقلةٍ عن ضروبها، وينحى في تشكيلها– في الأغلبِ– منْحىً صوتيّاً صرفاً يُمكّنُ من المطابقةِ بين صُوَرِ أصواتِ القافيةِ وما يقابلُها من هذه الأوزانِ، وإنّ تطبيقَ هذا المنهجِ الصوتيّ المحضِ في التمثيلِ لأوزانِ القوافي سيتيحُ للدارسين–في الأغلب– تفاعيلَ صوتيةً؛ الأمـــر الذي ينتـــجُ

عنه التفريقَ بين (فال و فيل)، وبين (فاعل) و(فَيْعل)، وذلك على هذا النحو :

أ- فال و فيل:

وتختص هاتان التفعيلتان بالقافية المردوفة المطلقة- أي المتحركة الرَّوِيّ المسبوقة بمدٍّ أو لين- ونظيرتها المقيَّدة- أي الساكنة الروي-، ولكنَّ الفرق بينهما يكْمُنُ في أنَّ (فال) ستختصُّ بالقافية المردوفة بالألف سواءٌ المقيدة كما في: (ثابْ= فالْ- ـ ه)؛ أم المطلقة؛ أي الموصولة، وهي على صنفين:

١- الموصولة بمدٍّ أو هاءٍ ساكنة: وذلك كما في: (ثابا= فالا، ثابو= فالو، ثابي= فالِيْ، بابهْ= فالهْ= - ه - ه).

٢- الموصولة بهاءٍ متحركة: وهي- كما هو معروف عند علماء الشعر- المتبوعة بالخروج، مثل: (بابها= فالها، بابهو= فالهوْ، بابهي= فالهيْ= - ه — ه).

أما (فيل) فتختصُّ بالقافية المردوفة بالواو أو الياء؛ وذلك لجواز المعاقبة بينهما في قوافي القصيدة الواحدة، كما في: (عودْ أو عيدْ = فيلْ =- ـ ه) القافية المردوفة الموصولة بمدٍّ أو هاءٍ ساكنة؛ و (عوداً أو عيداً = فيلاً، عودوْ أو عيدوْ= فيلوْ، عودي أو عيدي= فيليْ، عودهْ أو عيدهْ= فيلهْ= - ه - ه)؛ و (عودها أو عيدها= فيلها، عودهوْ أو عيدهوْ= فيلهوْ، عيدهيْ أو عيدهيْ= فيلهيْ = - ه — ه) القافية المردوفة المتبوعة بخروج، وذلك بخلاف القافية المردوفة بالألف، وهي التي لا يجوزُ أنْ تتعاقبَ مع أيٍّ من الواو أو الياء في قوافي القصيدة.

على أننا نلحظُ أنَّ الخليل قد رجع- في هذا المقام- إلى منهجه الإيقاعيّ التجريديّ؛ وذلك لأنه لم يفرق الواو والياء ولو فعل ذلك لوجدناهُ اختصَّ القافيةَ المردوفةَ بالواو بالصيغة: (فولْ- فولاْ- فولوْ- فوليْ- فولهْ- فولهاْ- فولهوْ- فولهيْ)، والمردوفةَ بالياء بالصيغةِ التي تُغايرُ عن الياء، وهي: (فيلْ- فيلاْ- فيليْ...إلخ)، ولوجدناه أيضاً يفرقُ بين المدِّ واللين في الواو والياء؛ فليس من شكٍّ في أنَّ هناك فرقاً صوتيّاً بين (قَوْل و قَيْل) مفتوحتي الفاء ذاتي الواو والياء اللينتين و (قُول وقِيل) ذاتي الواوِ والياءِ المدّيّتين المسْمُنتين لضمةِ الفاءِ وكسرتها؛ الأمر

الذي يجعل هذا المنهجَ الصوتيَّ غيرَ مُطَّرِدٍ، وقد يدفعنا إلى أنْ نَتَشَكَّكَ في مصداقيةِ نسبةِ هذه الأوزانِ إلى الخليلِ بن أحمد الفراهيديّ صاحبِ العقليةِ المنطقيةِ.

ب- فاعل:

وتختصُّ على افتراض سكون رَوِيِّها بالقافيةِ المُقَيَّدةِ المؤسَسةِ غيرِ الموصولَةِ، مثل: (صادقْ= فاعلْ= - ه - ه)، أما على افتراضِ تحركِ رَوِيِّها فإنها تختصُّ بالقافيةِ المؤسَّسةِ الموصولة، وهي على صنفين:

١- موصولة بمدٍّ أو هاءٍ ساكنةٍ، وذلك مثل: (صادقاْ= فاعلاْ، صادقوْ= فاعلوْ، صادقيْ= فاعليْ، صادقهْ= فاعلهْ= - ه — ه).

٢- موصولة بهاءٍ متحركةٍ، وذلك مثل: (صادقهاْ= فاعلهاْ، صادقُهوْ= فاعلُهوْ، صادقهيْ= فاعلهيْ= - ه - - - ه).

ج- فَيْعِل:

وتختصُّ هذه الصيغةُ على افتراضِ سكونِ لامِها،- أوْ إنْ شئتَ فقل: سكون رويِّها- بالقافيةِ المُقَيَّدةِ المجردةِ من الردفِ والتأسيسِ، مثل: (جَنْدَلْ- زورَقْ- ضَيْغَمْ= فيعلْ= - ه - ه)، أما على افتراضِ تَحَرُّكِ لامِها فتختصُّ بالقافيةِ المُطْلَقةِ المجرَّدةِ كسابقتِها من الردفِ والتأسيس، وهي صنفان:

١- القافيةُ الموصولة بمدٍّ أو هاءٍ ساكنة: وذلك مثل: (جَنْدَلا= فيعلاْ، جندلوْ= فيعلوْ، جَنْدَلِيْ= فيعليْ، جندلهْ= فيعلهْ= - ه - - ه)، ومثلها المتبوعُ رَوِيُّها بزائدٍ كنونِ التوكيدِ الخفيفةِ أو التنوينِ أو كافِ الخطابِ أو ميمِ الجمعِ، كما في: جندلنْ -جندلكْ - ه — ه).

٢- القافيةُ الموصولةُ بهاءٍ متبوعةٍ بالخروج: وذلك كما في: (جَندلهاْ= فيعلها، جندلهوْ= فيعلهوْ- جندلهيْ= فيعلهيْ= - ه - - - ه).

وبالتمَعُّنِ في صيغتي (فاعل) و (فيعل) سنلحظُ أنَّ هناك مماثَلةً بين ألف (فاعل) وألف التأسيس في أصواتِ القافيةِ، وذلك على النحو الذي لمسناهُ تقريباً في أصواتِ الردفِ، حيثُ ماثَلَتْ ألفُ الردفِ في القافيةِ الألفَ في الصيغةِ (فال)، وجاءتْ ياءُ (فيل) مشاكِلةً للردفِ ياءً كانَ أم واواً؛ وذلك- كما أشرنا- لمجيءِ الجمعِ بينهما في قافيةِ القصيدةِ الواحدةِ.

أمّا صيغةُ (فَيْعل) فسنلحظُ أنّ الياءَ اللينةَ فيها جاءت لتقابلَ الصّوتَ الصحيحَ والمعتلَّ في القافيةِ المجرّدةِ من الرّدْفِ أو التأسيسِ، كما في: (كوثر- ضيغم- مَنْجم- حَنْجَر- فُلْفُل- سُؤْدُد...إلخ)، وكانَ الأولى بحسبِ المنهجِ الصّوتيّ أنْ تكونَ هناكَ مشاكلةٌ بينَ الصوتِ الصحيحِ في أصواتِ القافيةِ وما يناظره في الصيغة، فتكون مثلاً: (فَعْلَنْ)، وكذلك بين المعتلِّ في القافيةِ وما يشاكلهُ في الصيغة، فتكون الصيغةُ مثلاً: (فَيْعل) إذا كانَ صوتُ القافيةِ ياءً، و (فَوْعَل) إذا كان صوت القافية واواً.

وإذا كانَ المنهجُ الصّوتيُّ- كما هو معروفٌ- يتطلّبُ المماثلةَ بينَ الصّوتِ ورمزه الكتابيِّ فإنّ صورةَ (فيعل) لا يمكن أنْ تُمثّله؛ وذلك لأنها لا تُعبّر عن أجناسِ الأصواتِ الصحيحةِ والمعتلةِ في القوافي التي تندرج في إطارِها؛ الأمرُ الذي يكشف عن عدم اطّرادِ هذا المنهجِ على جميعِ صيغ القوافي التي نَسَبَها الأخفشُ إلى الخليل.

على أنّ معرفةً بسيطةً بتحليلِ أصواتِ القافيةِ وَفْقَ منهجِ الخليلِ الإيقاعيِّ التجريديِّ تجعلُ مثلَ هذه المماثلةِ الصوتيةِ غيرَ ضروريةٍ؛ لأنها ستكشفُ عن خروجها عن المنهجِ الإيقاعيِّ المطردِ لعلمي العروض والقافية، ولأنها ستوضّحُ أنّ هذا الصوتَ الصحيحَ أو المعتلَّ وإنْ شكّلَ صوتاً من القافيةِ لا يتوجّبُ تكرارُهُ بنفسه؛ لذا فإنّ قيمتَهُ تكمنُ- عند العروضيينَ وعلى رأسهم الخليل- في إيقاعه النّاتجِ عنْ سُكونه ليسَ غير؛ الأمر الذي التفت إليه الخليلُ- رحمه اللهُ- فلَمْ يُسَمِّه باسمِ كباقي أصواتِ القافيةِ التي يتوجّبُ تكرارُها- في الأغلبِ الأعمّ[٢٤]- بنفسها وحركتِها أو سكونِها.

وعليه فإنّ لنا في المنهجِ الإيقاعيِّ الذيْ وضعَ الخليلُ أصولَهُ وطَبّقَهُ بإحكامٍ واطّرادٍ في استقرائه لموسيقا شعرنا العربيِّ ما يُمكنُ أنْ نُبرّرَ به هذا التباينَ بين صوتِ الياءِ في هذه الصيغةِ وما يقابلُهُ في القافيةِ؛ فالنظريةُ الخليليةُ وجدناها في تفاعيلِ البحورِ قد رَمّزَتْ للصوتِ الساكنِ في كلماتِ أبياتِ الشّعْرِ، سواء أكان صحيحاً أم معتلاً بالمقابلِ الصحيحِ والمعتلِّ دون تمييزٍ، فأصواتُ السينِ أو الفاءِ أو النونِ السواكن في (مستَفْعلنْ أو فاعلنْ أو فاعلاتنْ أو مفْعولاتُ أو فاْعلاْنْ...إلخ.)،

والألف أو الواو في (فاْعلن أو مفعوْلاتُ أو فاْعلاْنْ أو فعوْلن أو مفاْعيلن أو مفاْعلتن...إلخ)؛ وذلك لأنه لم يَعنيهِ من الرمزِ إلا قيمتَهُ الإيقاعيةَ فقط.

وعلى هذا فليس غريباً أنْ يتجهَ بنا النظرُ إلى الشكِّ في نسبةِ هذه الصورِ إلى الخليل؛ لأننا- كما لاحظنا- نعتمدُ على منهجٍ صوتيٍّ يكادُ يوافقُ- في الأغلبِ- بين الوزنِ والمنطوقِ، وهو بهذا يتعارضُ ومنهجَ الخليلِ الإيقاعيَّ التجريديَّ المعتمد في علمي العروضِ والقافية؛ حيثُ لا يَعنيهِ من الصوْتِ المتحركِ إلا أنه متحرِّكٌ بحركةٍ، أيّاً كان جِنْسُها، ورَمَزَ له- كما هو معروفٌ- بشرطةٍ سواءٌ أكانت مائلةٌ أم مستقيمةٌ، وكذلك لا يُفْرِقُ بين أجناسِ الصوتِ الساكنِ سواءٌ أكان مدّاً أو ليناً أو صامتاً، حيثُ رَمَزَ لهذهِ الأنماطِ المتنوعةِ جميعِها بدائرةٍ مفتوحةٍ من علُ؛ الأمر الذي ظهر جليّاً في الأوزانِ التسعِ والعشرينَ- التي ذكرَها الأخفشُ عنه- صوراً للقوافي.

وأيّاْ يكن الأمرُ، فسنتولى في هذا المقامِ بَسْطَ صيغِ القوافي وَفقَ الصورِ الصوْتيةِ؛ فقد يجد بعضُنا في منهجها فائدةً تتجهُ به نحو التيسير أو التجديد، أو يُستفادُ منها في تصنيفِ صورِ القافيةِ بحسبِ طبيعةِ الأصواتِ التي تتكون منها، وإمكانِ تغذيةِ الحاسوب بها ليَتَعَرَّفَ عليها في قوافي الشعرِ، وذلك على هذا النحو:

١- الصيغ المنسوبة للخليل:

على أنه يمكن حصرُ القوافي وَفْقَ ما جاء منسوباً إلى الخليلِ في الجدولِ التالي:

فالْ	فالاْ	فالوْ	فاليْ	فالهْ	فالهاْ	فالهوْ	فالهيْ
فيلْ	فيلاْ	فيلذوْ	فيليْ	فيلهْ	فيلهاْ	فيلهوْ	فيلهيْ
فاعلْ	فاعلاْ	فاعلوْ	فاعليْ	فاعلهْ	فاعلهاْ	فاعلهوْ	فاعلهيْ
فيْعلْ	فيعلاْ	فيعلوْ	فيعليْ	فيعلهْ	فيعلهاْ	فيعلهوْ	فيعلهيْ

وبإحصاءِ محتوياتِ هذا الجدولِ منَ القوافي فسنجد أنه يحتوي على اثنتين وثلاثين صورةً؛ (٤×٨=٣٢)، ولكي تكتملَ صورُ أوزانِ ملاحظاتنا وَفْقَ المنهج الصوتيِّ المحضِ، فإنّنا سنضيفُ هذا الجدولَ لنخرجَ بحصيلةِ صورِ القافيةِ المحتملةِ في شعرنا العربيِّ وَفْقَ المنهجِ الصوْتيِّ:

٢- صيغ مستنبطة وفق المنهج الصوتي:

ويمكن عرضُها على هذا النحو:

فَيِلْ	فَيِلاْ	فَيِلوْ	فَيِلي	فَيِلهْ	فَيِلهاْ	فَيِلَهوْ	فَيِلَهيْ
فَوَلْ	فَوَلاْ	فَوَلوْ	فَوَلي	فَوَلهْ	فَوَلها	فَوَلَهوْ	فَوَلَهيْ
فُوَلْ	فُوَلاْ	فُوَلوْ	فُوَلي	فُوَلهْ	فُوَلهاْ	فُوَلهوْ	فُوَلهيْ
فَوْعَلْ	فَوْعَلاْ	فَوْعَلوْ	فَوْعَلي	فَوْعَلهْ	فَوْعَلهاْ	فَوْعَلَهوْ	فَوْعَلهيْ
فَعَلَنْ	فَعَلَناْ	فَعَلَنوْ	فَعَلَني	فَعَلَنهْ	فَعَلَنها	فَعَلَنهوْ	فَعَلَنهيْ

ويحتوي هذا الجدولُ- كما هو واضحٌ- على أربعين صورةً؛ (٥×٨=٤٠)، وهذا يعني أن مجموع الصورِ الصوتيةِ اثنتان وثمانون صورةً، على أنَّ تَمَعُّناً في هذه الصورِ أو الأوزانِ المنسوبةِ إلى الخليلِ أو التي استنبطناها وَفْقَ منهجها الصوتيِّ يبينُ كيف أنها لم تشملْ أنواعَ القوافي الخمسةَ التي صنَّفها الخليلُ نفسُهُ، فبينا تذكرُ المتراكبةَ والمتداركةَ والمتواترةَ والمترادفة نراها تُهْمِلُ القافيةَ المتكاوسةَ (-ه----ه= فافعلتن)، وقد تكونُ ندرةَ وقوعها في الشعرِ سببا في إغفالها؛ وهذا يعني أن المجموعَ هو ثلاثٌ وسبعونَ صورةً.

وإذا سِرْنا مع الزمن خطواتٍ إلى الأمامِ لنتتبعَ أثرَ الخليلِ في الخالفينَ من بعدِه فلا نجد- في مصنفات من اطَّلعنا عليهم- مَنِ التفتَ إلى هذه الصورِ الصوتيةِ، ولكننا وجدنا السكّاكيَ يستفيدُ من منهج الخليلِ التجريديِّ، فنراهُ يستقرئُ على أساسه قوافيَ بحورِ الشعرِ الخمسةَ عَشرَ التي اعترفَ بها سابقُهُ الخليل، ويُحصي لنا ثمانيَ وخمسينَ تفعيلةً شكَّلت مواقعَ القافيةِ في قصائدِ شعرنا العربيِّ، وهي على هذا النحو:

القوافي المترادفة:

ولها كما ذكر "سبعة عشر موقعا"، وهي:"فاعلانْ في فاعلاتن إذا قُصر؛ وفي مفعولاتُ إذا طُويَ ووُقف؛ ومستفعلانْ مذالاً لا غير، ومضمراً مذالاً مفاعلانْ، ومخذولاً مذالاً؛ وفعلتانْ متفاعلانْ وفاعليان وفعلييان وفعلانْ ومفعولانْ وفعولانْ مقصور مفاعيلن في الضربِ الرابعِ للطويلِ عند الأخفش، ومخبوناً موقوفاً في غير

ذلك، وفعولُ"(٢٥).

ويمكن عرضها في هذا الجدول:

التفعيلة	صورها في القوافي المترادفة
فاعلاتن	فاعلانْ (مقصور)- فَعِلاتْ (مخبون مقصور)- فاعلِيّانْ (مسبَّغ)- فعليّان (مخبون مسبغ).
مفعولاتُ	مفْعلاتْ تحوّلُ إلى فاعلانْ (مطوي موقوف)، مفعولانْ (موقوف)، فعولانْ (مخبون موقوف).
مستفعلن	مستفعلانْ (مذال)-مفاعلانْ (مخبوناً مذالاً)-مفتعلانْ (مطويّ مُذال)- فعلتانْ (مخبول مذال).
متفاعلن	مُتفاعلانْ (مذال)- مُستفعلانْ (مضمر مذال)- مُفاعلانْ (موقوصْ مذالْ)- مُفتعلانْ (مجزول مذال).
فعولن	فعولْ (مقصورْ).
مفاعيلن	مفاعيلْ (مقصور)، وهذه صورةٌ أضافها الأخفش إلى صور الطويل الثلاث التي ذكرها الخليل.

القوافي المتواترة:

ولها "أحد وعشرون موقعاً"، وهي: "مفاعيلن، وفاعلاتن، وفعلاتن، ومفعولُن: مقطوعاً لا غير، ومضمراً مقطوعاً، ومكسوفاً(٢٦)، ومشعّثاً،؛ وفعولن: سالماً ومحذوفاً، ومخبوناً مقطوعاً، ومقطوفاً ومخبوناً مكسوفاً، أو مخبوناً مقصوراً؛ وفعلن: مقطوعاً وأبتر، وأحذّ مضمراً، وأصلم؛ وفل: في نحو فعولن، فـل وتن في متفاعلاتن، وفروعه الثلاثة: مستفعلاتن ومفاعلاتن ومفتعلاتن"(٢٧).

وكما هو واضحٌ فإنّ هناكَ غموضاً في نصّ السكاكي يمكن توضيح مواقع القافية المتواترة من خلال الاستفادة من نصّ السكاكي وما جاء في كتب العروض، ومنها كتاب مفتاح العلوم في هذا الجدول:

التفعيلة	صورها في القوافي المتواترة
مفاعيلن	مفاعيلن (صحيح)، مفاعي التي تُحوّلُ إلى فعولن (محذوف).
فاعلاتن	فاعلاتن (صحيح)، فعِلاتن (مخبون)، فالاتن تُحوّل إلى مفعولن (مُشَعَّثْ)، فعَلن (محذوف مقطوع).
فاع لاتن	فاعِ لاتن (صحيح).
مفعولاتُ	مفعو تحول إلى فعَلن (أصلم)، مفعولا تُحَوّلُ إلى مفعولن (مكسوف)، فعولن (مكسوف مخبون).
فعولن	فعولن (صحيح)، لن فلْ (أبتر).
فاعلن	فَعَلن (مقطوع).
مستفعلن	مستفعلْ تُحوّل إلى مفعولن (قطع)، فعولن (مخبون ومقطوع = مُخَلَّع).
مستفع لن	متفعِ لْ تحول إلى فعولن (مقصور مخبون).
مفاعلتن	مفاعيلن (معصوب)، مفاعلْ تُحَوّلُ إلى فعولن (مقطوف).
متفاعلن	متفاعلْ تحول إلى فعلاتنْ (مقطوع)، متْفاعلْ تحول إلى مفعولن (مقطوع مضمر)، متْفا تحول إلى فعَلن (أحَذّ مُضمر)، متفاعلاتن (مرفَّل)، مستفعلاتن (مرفل مضمر)، مفاعلاتن (مرفل موقوص)، مفتعلاتن (مرفل مجْزول).

إنَّ إحصاءً لمواقع القافية المتواترةِ في هذا الجدولِ سيكشف أنها خمسةٌ وعشرون موقعاً، وليس واحداً وعشرين كما جاء في نصِّ السكاكي، وهي زيادةٌ قد تنبه لها السكاكي نفسُهُ حين أعقب حصره لمواقع القافية في الشعر بقوله: "فهذه ثمانيةٌ وخمسون موقعاً لأنواعِ القافية الخمسة، وعساك إذا فتَّشْتَ عنها أنْ تَعثُرَ على مزيد"[٢٨].

ولعلَّنا نعللُ هذه الزيادةَ في أنَّ الرجلَ قد وَحَّدَ بين (فعولن) المتفرعة من (مفعولاتُ) بعد كسفها وخبنها، والمتفرعة من (مستفع لن) بعد قَصْرِها وخبنها[٢٩]،

ولعلّ ما يعضدُ هذا التعليل قوله:" وفعولن... مخبوناً مكسوفاً أو مخبوناً مقصوراً"، ووحّدَ أيضاً بين (فعلاتن) المتفرعة بالخبن من (فاعلاتن)، والمتفرعة بالقطع من (متفاعلن).

وكذلك وجدناه لم يلتفتْ –في هذا المقام– إلى تفرُّعِ (مفاعيلن) بالعصب من (مفاعلَتن) تفعيلة الوافر، واكتفى بالإشارة إلى ورودها سالمة في بحر الهزج، وكذلك اكتفى بـــ (فاعلاتن)، ولم يلتفت إلى (فاعِ لاتن) المنفصلة.

القافية المتداركة:

وقد ذكر السكاكي أنّ لهذه القافية" أحدَ عَشَرَ موقعاً: متفاعلن ومستفعلن سالماً ومضمراً، ومفاعلن مخبوناً ومقبوضاً وموقوصاً ومعقولاً، وفاعلن سالماً ومحذوفاً، وفعلْ في نحو فعولن فعلْ، وفلْ في نحو فعولُ فلْ، على قولِ من يُجوّزُ قبض فعولْ قبل فل"[٣٠].

وكما سبق أنْ أوضحنا أنّ الخليلَ لم يكنْ يُجيزُ وقوعَ (فعول) قبل (فل)؛ وعلى هذا يكونُ عددُ صورِ القوافي المتداركة وَفْقَ مذهب الخليل عشراً، ووفق مذهب الأخفش إحدى عشرة صورة، وكذلك فإنّ السكاكي لم يذكرْ تفعيلة (مستفع لن) المنفصلة التي تقع ضرباً للخفيف المجزوء الصحيح مكتفياً بنظيرتها المتصلة (مستفعلن) و (مفاعلن) الناتجة بالخبن عنها.

ولم يذكر أيضاً صورةَ (فاعلن) المتفرعة من (مفعولاتُ) بعد كسفها وطيّها في بحر السريع[٣١]، ونراهُ يَعتَدُّ ببحر المتدارك أو ما أسماه المُتَداني الذي أغفلهُ الخليل، وذلك حينَ وجدناهُ يذكر أنّ (فاعلن) تجيءُ في القافية سالمةً بل صحيحةً، ورأيناهُ يستشهد لها– في مقامِ حديثه عن صورِ البحور– بقول الشاعر[٣٢]:

زارني زَوْزَةً طَيْفُها في الْكَرى فاعترانيْ لمن زارنيْ ما اعترى
فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن

ولعله قصد هذه الصورةَ السالمةَ والمحذوفةَ من (فاعلاتن) حين قال: "وفاعلن سالماً ومحذوفاً".

وسنسعى في هذا الجدول إلى استقراء إحصاء صور القافية المتدراكة كما فعلنا في الجدول السابق :

التفعيلة	صورها في القافية المتداركة
متفاعلن	متفاعلن (صحيح)، مستفعلن (مضمر)، مفاعلن (موقوص).
مستفعلن	مستفعلن (صحيح)، مفاعلن (مخبون).
مستفع لن	مستفع لن (صحيح)
مفاعيلن	مفاعلن (مقبوض)
فاعلاتن	فاعلن (محذوف).
مفعولاتُ	فاعلن (مطوي مكسوف).
فعولن	لن فعَل (محذوف).
فاعلن	فاعلن (صحيح) أغفل الخليل بحر المتدارك.

وكما هو واضحٌ فقد حصلنا على عشرِ صورٍ وفقَ مذهب الخليل، وإحدى عشرة صورةً وفق غيره.

القافية المتراكبة:

ذكر السكاكي أن" للمتراكب ثمانية: مفاعلتن ومفتعلن: مطويّاً ومخزولاً، وفعلن للساكن قبله مخبوناً لا غير، ومخبوناً محذوفاً، وأخذّ، ومخبولاً مكسوفاً، وفعل في نحو: فعول فعل"(٣٣).

وكما هو واضحٌ فإنَّ السكاكي يكرر صورة فعول فعل التي لم يقرها الخليل، وأقرَّها الأخفش، وهذا يَعني مجيء صور القافيةِ المتراكبةِ سبعاً على مذهب الخليل، وعلى مذهب الأخفش ثمانيا، وذلك على النحوِ الذي أورده السكاكي.

على أنه يمكن توضيح صور القافية المتراكبة على هذا النحو:

التفعيلة	صورها في القافية المتراكبة
متفاعلن	مفتعلن (مجزول)، فعلن (أحذّ).
مستفعلن	مفتعلن (مطوي)
فاعلاتن	فعلن (محذوف مخبون).
مفاعلتن	مفاعلتن (صحيح)
مفعولاتُ	فَعَلن (مخبول مكسوف)
فعولن	فعولُ فعَل (محذوف)، مذهب الأخفش.
فاعلن	فعلن (مخبون).

القافية المتكاوسة:

وقد جاءت المتكاوسة في "موقعٍ واحد فعلتن للساكن قبله"[٣٤].

التفعيلة	صورها في القافية المتكاوسة
مستفعلن	فعلتن (مخبول)

وهكذا فإنه يمكن جمْعُ صورِ القافيةِ الصوتيةِ على هذا النحو:

الخليل	السكاكي	
نوع القافية	العدد	العدد
المترادفة	١٦	١٧
المتواترة	٢٥	٢١
المتدارِكة	١٠	١١
المتراكبة	٧	٨
المتكاوسة	١	١
المجموع	٥٩	٥٨

ولكننا إذا ما استفدنا من منهج الخليل التجريدي الذي يعتمد القيمة الموسيقية للصوت بغض النظر عن جنسه، وقلبنا النظر في صور القافية من هذه الزاوية الإيقاعية، فسنجد هذا المنهج لا تعنيه كمية العدد الناتجة عن تكرار صورة القافية في ضروب بحور الشعر، ولتوضيح هذا الأمر نقول:

تشكل القافية- أيا كان نوعها: متواترة أم متراكبة إلخ.- نسقا إيقاعيا واحدا يتمثل في ضروب الشعر بعدد من الصور أو الأشكال التي كثيرا ما يتكرر ورودها في البحور والبحر الواحد أيضا، وهي صور ناتجة عن الزحافات والعلل التي تصيب التفاعيل العروضية العشرة عند الاستعمال؛ الأمر الذي سيفرز في البحر الواحد للقافية المتواترة مثلا عددا من الصور، وكذلك للمتراكبة أو المترادفة وهلم جرا، ولكن الخليل وفق منهجه-وهو المنهج الإيقاعي- يغفل إحصاء الصور المتعددة للقافية، ويعترف بها في منهجه الإحصائي لمرة واحدة فيدرجها جميعا لتمثل قافية واحدة؛ لأنها تشكل عنده نسقا إيقاعيا واحدا.

وللتمثيل على ذلك فإن التفعيلة (فاعلاتن) تشكل إحدى التفاعيل العشرة، وهي تجيء وما يتفرع منها من صور في أضرب المديد والرمل والخفيف والمضارع والمجتث، حيث تأتي على فاعلاتن وفعلاتن وفالاتن أو مفعولن وفعلن؛ وفاعلن؛ وفعلن؛ وفاعلان وفعلان وفاعليان وفعليان.

وهذا يعني بحسب منهج السكاكي- إذا غضضنا الطرف عن مرات تكرار هذه الصور في البحور- أن لـ" فاعلاتن" وصورها عشر صور: أربعا متواترة، وأربعا مترادفة، وواحدة متراكبة، وأخرى متداركة.

وبحسب ما ورد في الجداول السابقة- وهي المبنية نتائجها على منهج السكاكي- سنجد أن فاعلاتن وصورها- بغض النظر عن تكرار بعضها- قد وردت أربع عشرة مرة، أما بحسب منهج الخليل فسنجد أن لـ" فاعلاتن" نفسها، وصورها أربع صور فقط، هي: المتواترة والمتداركة والمتراكبة والمترادفة، وهو الأمر الذي سنوضحه في الجدول التالي(٣٥):

التفعيلة	قوافيها	بحورها	نوع القافية	عدد ورودها	ق.إ
مفاعيلن	مفاعيلن	الطويل- مجزوء الوافر- الهزج	متواترة	٥	١
	فعولنْ	الطويل- الهزج			
	مفاعلن	الطويل -مجزوء الوافر- الهزج	متداركة	٣	١
مفاعلتن	مفاعلتن	الوافر ومجزوؤه	متراكبة	٢	١
	مفاعيلن	الوافر ومجزوؤه	متواترة	٣	١
	فعولن	الوافر			
فعولن	فعولن	المتقارب ومجزوؤه	متواترة	٤	١
	لنْ فلْ	المتقارب ومجزوؤه			
	فعولْ	المتقارب	مترادفة	١	١
	فعلْ	المتقارب ومجزوؤه	متداركة	٢	١
متفاعلن	متفاعلن	الكامل ومجزوؤه	متداركة	٦	١
	مستفعلن	الكامل ومجزوؤه			
	مفاعلن	الكامل ومجزوؤه			
	فعلاتن	الكامل ومجزوؤه	متواترة	١٣	١
	مفعولن	الكامل – ومجزوؤه			
	متفاعلاتن	الكامل – ومجزوؤه			
	مستفعلاتن	الكامل – ومجزوؤه			
	مفاعلاتن	الكامل – ومجزوؤه			
	مفتعلاتن	الكامل – ومجزوؤه			
	فعلن	الكامل			
	مفتعلن	الكامل ومجزوؤه	متراكبة	٣	١
	فعلن	الكامل			
	متفاعلانْ	مجزوء الكامل	مترادفة	٤	١
	مستفعلانْ	مجزوء الكامل			
	مُفاعلانْ	مجزوء الكامل			

	مفتعلانْ	مجزوء الكامل				
فاعلاتن	فاعلاتن	المديد- الرمل ومجزوؤه- المضارع- المجتث	متواترة	١٥	١	
	فعلاتن	المديد- الخفيف- الرمل ومجزوؤه- المجتث				
	مفعولن	المديد- الرمل- الخفيف-المجتث				
	فعلن	المديد				
	فاعلن	المديد-الرمل ومجزوؤه-الخفيف	متداركة	٤	١	
	فعلن	المديد	متراكبة	١	١	
	فاعلانْ	المديد- الرمل	مترادفة	٥	١	
	فعلانْ	الرمل				
	فاعليانْ	مجزوء الرمل				
	فعليانْ	مجزوء الرمل				
فاع لاتن	فاع لاتن	المضارع	متواترة	١	١	
مستفعلن	مستفعلن	مجزوء البسيط- الرجز ومجزوؤه ومشطوره ومنهوكه.	متداركة	٧	١	
	مفاعلن	مجزوء البسيط- الرجز ومجزوؤه				
	مفعولن	مجزوء البسيط- الرجز.	متواترة	٤	١	
	فعولن	مجزوء البسيط- الرجز.				
	مفتعلن	مجزوء البسيط-الرجز-المنسرح-المقتضب	متراكبة	٤	١	
	مستفعلانْ	مجزوء البسيط	مترادفة	٤	١	
	مفاعلانْ	مجزوء البسيط				
	مفتعلانْ	مجزوء البسيط				
	فعلتانْ	مجزوء البسيط				
	فعلّتن	الرجز	متكاوسة	١	١	
مستفع لن	مستفع لن	مجزوء الخفيف	متداركة	١	١	

	فعولن	مجزوء الخفيف	متواترة	١	١
فاعلن	فعِلن	البسيط	متراكبة	١	١
	فعْلن	البسيط	متداركة	١	١
مفعولاتْ	فاعلن	السريع	متداركة	١	١
	فعْلنْ	السريع	متواترة	٦	١
	مفعولن	مشطور السريع- منهوك المنسرح			
	فعولن	مشطور السريع- منهوك المنسرح			
	فعْلنْ	السريع	متراكبة	١	١
	فاعلانْ	السريع	مترادفة	٥	١
	مفعولانْ	مشطور السريع- منهوك المنسرح			
	فعولانْ	مشطور السريع- منهوك المنسرح			

وبإحصاء قوافي التفاعيل بحسب قيمها الإيقاعية نجدُ هذا الجدولَ يعزز منهجَ الخليلِ -الذي استفدنا فيه من تفصيلِ السكاكي الذي سار فيه أيضاً وَفْقَ منهجِ عالمِه الأولِ الخليلِ-، حيثُ أكَّدَ إحصاءه للقوافي، فجاء عددها فيه تسعاً وعشرينَ قيمةً إيقاعيةً لقوافي الشعر العربي، وليس ثلاثين قافيةً كما جاءَ في كلامِ الأخفش.

وإذا كان لنا من إضافةٍ أو تعليقٍ في هذا المقامِ فإننا نودُّ أنْ نقفَ عند هذين الأمرين: الأول- ويتمثل في أنَّ إثباتنا لصحةِ العددِ الذي جاء عن الخليلِ لا يَعني إنكارنا لصورٍ إيقاعيةٍ أخرى استدركها العلماء على الخليل، أو أبدعتها قرائح الشعراء، ومن ذلك صور بحر المتدارك، وإن لم تخرج في أشكالها عن قوافي البحور الأخرى، وكذلك الصور التي اعتنى بها الأخفش ومن لفَّ لفه، وهلمَّ جرًا.

الأمر الآخر- ويتمثل في هذا المنهج الذي سار عليه الخليل في معجمه "العين" الذي نأى فيه عن التكرار، حيثُ وجدناهُ مثلاً يذكرُ كلَّ الجذور وتفرعاتها لمجرد اشتراكها في صوت الباب الذي تتدرج في إطاره، ولكنَّهُ لا يُعاودُ تكرارَ ما سبقَ له ذِكْرهُ في أيِّ بابٍ سابقٍ؛ حيثُ وجدناهُ في باب صوتِ العينِ مثلاً يذكر جميع جذور اللغة ومفرداتها التي اشتملت عليه، وفي باب الحاء الذي يليه لا

يتعرضُ لأيةِ مفردةٍ فيها صوت العين، ولو اشتملت على صوت الحاء، ونتج عن هذا المنهج- كما هو معروف- قلةُ عددِ مفرداتِ البابِ التالي عن سابقه، وهو ما لمسناه من خلالِ الجدولِ السابق الذي استعرضنا فيه قوافيَ ضروبِ بحورِ الشعرِ العربيِّ، وسيظهر بوضوح في هذا الجدولِ الذي سنحصر فيه الصورَ الإيقاعيةَ لقوافي شعرنا العربي(٣٦):

القوافي الإيقاعية للتفاعيل العشرة

التفاعيل	نوع القافية					المجموع
	ترة	ركة	كبة	وسة	دفة	
فعولن	*	*			*	٣
مفاعيلن	*	*				٢
مفاعلتن	*		*			٢
متفاعلن	*	*	*		*	٤
مستفعلن	*	*	*	*	*	٥
مستفع لن	*	*	*			٢
فاعلن	*		*			٢
فاعلاتن	*	*	*		*	٤
فاع لاتن	*					١
مفعولات	*	*	*		*	٤
المجموع	١٠	٧	٦	١	٥	٢٩

الحواشي.

(١) انظر كتابنا: دروس في موسيقى الشعر العربي (العروض والقافية)، ص١٧٧-١٨٤.

(٢) كتاب القوافي، ص٦. مختصر القوافي، ص١٩. كتاب في علم العروض، ص٢٧٠. الكافي في العروض والقوافي، ص١٤٩. مفتاح العلوم، ص٥٦٨. شرح قصيدة ابن الحاجب في علم العروض وعلم القوافي وعيوب الشعر، ص٩٩. العيون الغامزة على خبايا الرامزة، ص٢٣٨.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج١، ص١٥١.

(٤) كتاب القوافي، ص٦٧.

(٥) المعيار في أوزان الأشعار والكافي في علم القوافي، وللجزء الخاص بالقوافي من هذا الكتاب تحقيقٌ آخَر بعنوان: كتاب الكافي في علم القوافي، ص٣٤.

(٦) لسان العرب، مادة (قفا)، م١١، ص٢٦٥.

(٧) نهاية الراغب، الإسنوي، ص٣٤١.

(٨) أطلق علماء القافية على هذه الألف مصطلح "التأسيس"؛ كما في: (منازل)، الألف "تأسيس"، وحركة الفتحة التي تَخيّلها القدماءُ قبلها "الرَّس".

(٩) اتفق علماء القوافي على إطلاقِ مصطلح" الرِّدف" على الواو والياء؛ كما في: (مسلمون- قومْ- مسلمين- بيْت)، وحركة الضمة أو الكسرة أو الفتحة التي تسبقهما، هي "الحذْو".

(١٠) نهاية الراغب، الإسنوي، ص٣٤١.

(١١) يقصد ضياء الدين عبدالله الخزرجي الذي أقام شرحه "الغامزة" عليه.

(١٢) العيون الغامزة، ص٢٣٨.

(١٣) السابق، ص٢٣٨.

(١٤) كتاب القوافي، ص٦٨.

(١٥) السابق، هامش ص٦٨.

(١٦) لسان العرب، مادة (قفا) م١١، ص٢٦٥.

(١٧) العمدة، ج١، ص١٥٣. المعيار، ص٩٨. كتاب الكافي في علم القوافي، ص٣٤. كتاب القوافي، ص٦٦. نهاية الراغب، ص٣٤٢.

(١٨) تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها، ص٢٦٣. والكتاب منشورٌ في كتاب محققه د. السامرائي: رسائل ونصوص في اللغة والأدب والتاريخ.

(١٩) كتاب القوافي، ص٩.

(٢٠) السابق، ص٨-٩.

(٢١) البارع في علم العروض، ص٨٦. الكافي في العروض والقوافي، ص٢٥، ٢٠٧. نهاية الراغب، ص١٢٥- ١٢٦. مفتاح العلوم، ص٥٢٩.

(٢٢) كتاب العروض، ص٦٩-٧٠.

(٢٣) كتاب القوافي، ص٩.

(٢٤) قلتُ في الأغلب الأعمّ احترازاً من صوت الدَّخيلِ في القافية، حيث لا يُشترَطُ تكرارُهُ بنفسه، ولعلَّ وقوعهُ بين ألفِ التأسيس وحرفِ الرَّويّ، واشتراطَ كونه متحركاً كان السَّببَ في اختصاصه بهذا المصطلح، واختصاصِ حركتهِ بمصطلحِ الإشباع، ولعلّ ما يُرجّحُ هذا التعليلَ أننا وجدنا الخليلَ والعروضيين من بعده لا يُسمّي الحرفَ الذي يسبقُ ساكنَ القافية الأول بمصطلح؛ لأنه لا يلزمُ تكرارهُ بنفسه، وكذلك كان الحالُ في الأصواتِ الواقعةِ بين ساكنيْ القوافي المجردةِ من الردفِ أو التأسيس؛ لأنه لا يلزمُ تكرارُها بنفْسِها أيضاً؛ الأمر الذي يُعزّزُهُ مصطلحُ التوجيه الذي أطلقه الخليلُ على حركة الحرفِ الذي يسبقُ الرويَّ المقيّدَ والمطلق، وهو الحرفُ الذي يُستَحسَنُ تكريرُ حركتِهِ بنفْسِها، ولاسيما إذا كان الرويُّ مقيداً، واشترط بعضُهم تكرارها في هذه الحالة، انظر على سبيل المثال: كتاب القوافي للتنوخي، ص١٣٦-١٣٨، ١٩٠.

(٢٥) مفتاح العلوم، ص٥٧٠.

(٢٦) يسمى الكسف عند العروضيين بالكشف أيضا.

(٢٧) السابق: ص٥٧٠.

(٢٨) مفتاح العلوم، ص٥٧١.

(٢٩) الكسف أو الكشف هو الحرف السابع حالة كونه ثاني سبب، والقصر حذف الحرف السابع من التفعيلة حالة كونه ثاني سبب، وإذا كان هذا الحذفُ نفسُهُ في الوتدِ فهو القطع، أما الخبن فهو حذف الحرف الثاني حالة كونه ثاني سبب.

(٣٠) مفتاح العلوم، ص٥٧٠.

(٣١) انظر حديثه عن هذه الصورة في أثناءِ حديثه عن صورِ بحرِ السريع. انظر: ص ٥٤٩ في مفتاح العلوم.

(٣٢) السابق، ص٥٦٣.

(٣٣) السابق، ص٥٧١.

(٣٤) السابق، ص٥٧١.

(٣٥) (ق. إ) = القيمة الإيقاعية للتفعيلة.

(٣٦) لدواعي الجدول سنكتفي بالمقطع الأخير من أسماء أنواع القوافي، وذلك على هذا النحو: المتواترة= (ترة)، المتداركة= (ركة)، المتراكبة= (كبة)، المتكاوسة= (كسة)، المترادفة= (دفة).

المصادر والمراجع:

١- الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة، كتاب القوافي، تحقيق: د.عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٢- الإسنوى، جمال الدين عبد الرحيم، نهاية الراغب في شرح عروض ابن الحاجب، تحقيق: د. شعبان صلاح، مطبعة التقدم، الناشر، دار الثقافة العربية- القاهرة، ط١، ١٩٩٠م.

٣- التبريزي، الخطيب، الكافي في العروض والقوافي، تحقيق الحساني حسن عبدالله، دار الجيل للطباعة، الناشر، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٧٧م.

٤- ابن التركماني، أبو العباس تاج الدين أحمد بن عثمان بن إبراهيم، شرح قصيدة ابن الحاجب في علم العروض وعلم القوافي وعيوب الشعر، تحقيق: د.محمود محمد العامودي، دار المقداد للطباعة، غزة، ط١، ١٤٢٥هـ /٢٠٠٤م.

٥- التنوخي، أبو يعلي عبد الباقي، القوافي، تحقيق د.عوني عبد الرؤوف، الناشر: مكتبة الخانجي بمصر، ط٢، ١٩٧٨م.

٦- ابن جني، أبوالفتح عثمان، مختصر القوافي، تحقيق حسن شاذلي فرهود، دار المعارف- السعودية، الرياض، ط٢، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٧- أبو الحسن العروضي، أحمد بن محمد، كتاب في علم العروض، حققه وعلق عليه: د.جعفر ماجد، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

٨- الدماميني، بدر الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر، العيون الغامزة على خبايا الرامزة، تحقيق الحساني حسن عبدالله، الناشر: مكتبة الخانجي بمصر، ط٢، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٩- ابن رشيق، القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٧٢م.

١٠- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ضبطه وشرحه: أ. نعيم زرزور، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١١- أبو سليمان، صادق عبدالله محمد مبارك، دروس في موسيقى الشعر العربي (العروض والقافية)، مطابع الهيئة الخيرية، غزة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ١٩٩٥م.

١٢- الشنتريني، أبو بكر محمد بن عبد الملك بن السراج، المعيار في أوزان الأشعار والكافي في علم القوافي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الأنوار، بيروت، لبنان، ط١، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

- كتاب الكافي في علم القوافي، تحقيق: د. علاء محمد رأفت، الناشر: دار الطلائع للنشر والتوزيع والتصدير، ط. ٢٠٠٣م.

١٣- ابن القطاع، أبو القاسم علي بن جعفر، البارع في علم العروض، تحقيق د.أحمد محمد عبد الدايم، مؤسسة الوفاء للطباعة، دار الثقافة العربية، القاهرة، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٤- ابن كيسان، أبو الحسن محمد بن أحمد، تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها، تحقيق د. إبراهيم السّامرّائي، والكتاب منشورٌ في كتاب للسامرائي يحمل عنوان: رسائل ونصوص في اللغة والأدب والتاريخ، دار اقرأ، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٥- ابن منظور، لسان العرب، مؤسسة التاريخ العربي- دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

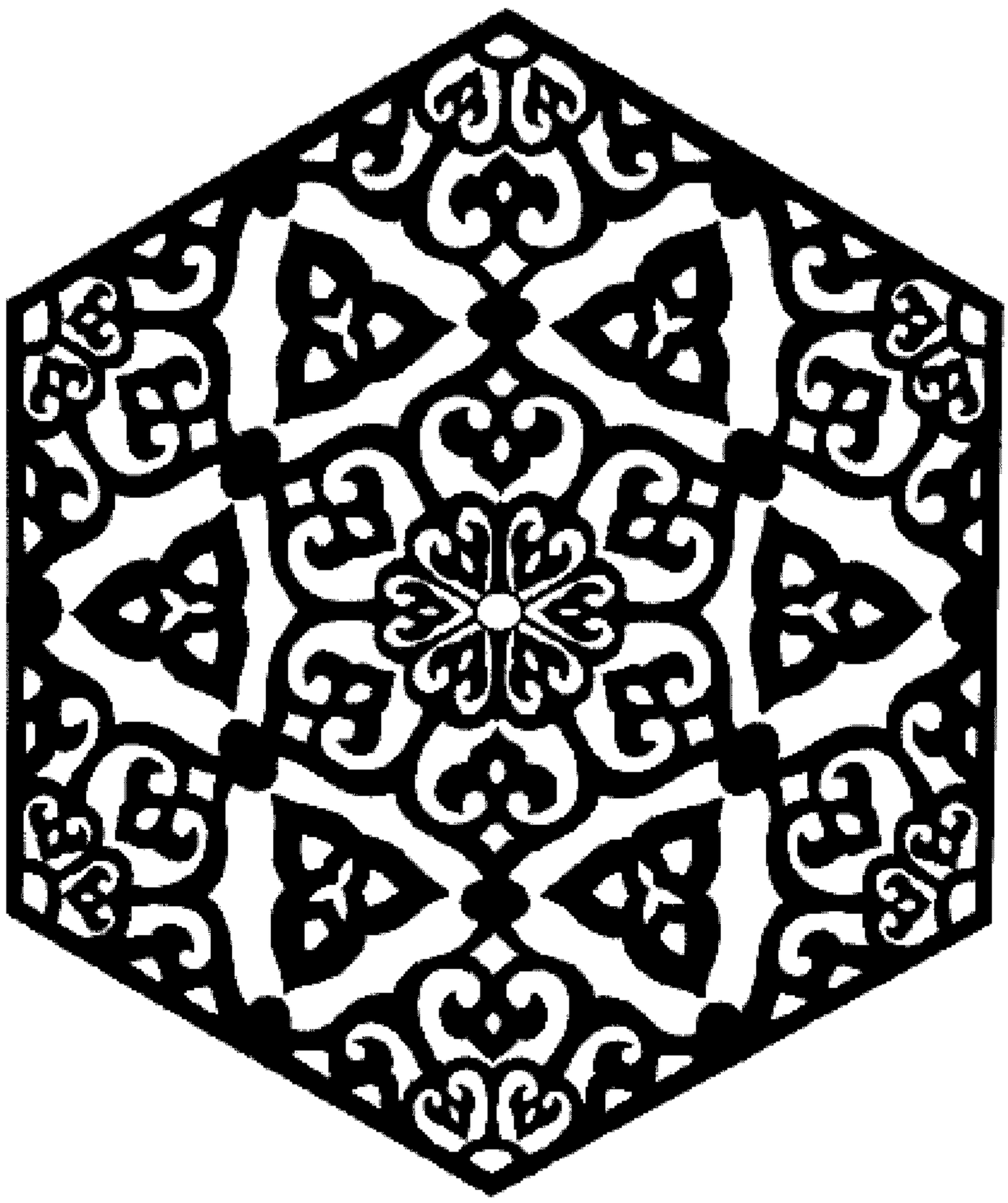

مدخل لدراسة اللغة الشعرية عند الخليل بن أحمد الفراهيديّ

أ.د. محمد القاسمي
جامعة سيدي محمد بن عبد الله ـ المغرب

مدخل لدراسة اللغة الشعرية عند الخليل بن أحمد الفراهيديّ

أ.د. محمد القاسمي

مقدمة

يتفق كل المهتمين بالخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت ١٠٠-١٧٠هـ) على أنه عبقرية لغوية وعروضية، فتح أمام العلوم العربية آفاقا رحبة في مجال التصور والإنجاز. ورغم تسليم الجميع بهذه الحقيقة العلمية فإن معارفنا عن الخليل لا تكاد تراوح مكانها، لأن الباحثين اكتفوا بجعله أنموذجا مثاليا في اللغة، وإطارا مرجعيا في العروض. وتهدف هذه المداخلة إلى الكشف عن أبعاد جديدة في اهتمامات الخليل الأدبية والنقدية وخاصة ما يتصل بموقفه من اللغة الشعرية. فالخليل بن أحمد لم يكن لغويا عروضيا فحسب، بل كان شاعرا متميزا، وطبيعي أن تكون له مواقف وآراء خاصة بالشعر لغة وإيقاعا وتركيبا. وهذا ما حدا ببعض النقاد اللغويين القدماء إلى تصنيف الخليل ضمن العلماء الشعراء. ومن ذلك قول ابن بسام الشنتريني معلقا على شعر العلماء: "على أن أشعار العلماء على قديم الدهر وحديثا بيّنة التكلف، وشعرهم الذي روي لهم ضعيف، حاشا طائفة، منهم خلف الأحمر... والخليل بن أحمد له أيضا بعض ما يحمد"(١). فما هو موقف الخليل من لغة الشعر؟

مما لاشك فيه أن موضوع اللغة الشعرية في التراث النقدي العربي قد حظي باهتمام الدارسين والمنظرين اللغويين والنقاد والبلاغيين، سواء في محاولتهم تحديد مفهوم الشعر أم في المفاضلة بين الشعر والنثر أم في التمييز بين اللغة الشعرية واللغة النثرية وكذا مقاربة بعض القضايا النقدية والبلاغية الكبرى. وكانت تصوراتهم ومواقفهم إزاء تلك القضايا الكبرى تختلف باختلاف مواقفهم ومنطلقاتهم الفكرية وأسسهم المعرفية.

وقد شكلت الضرورة الشعرية مدخلاً أساسياً للتمييز بين اللغة الشعرية واللغة النثرية أو ما يسمى باللغة المعيارية. وهكذا حاول النحاة منذ البداية الكشف عن خصائص اللغة الشعرية، وتحديد خصائص الجملة في الشعر، وبيان أشكال

الاختلاف بينها وبين خصائص الجملة النثرية. وتبدو البوادر الأولى لهذه المحاولة منذ القرن الثاني الهجري، حيث نص الخليل بن أحمد الفراهيديّ، وهو يضع قانونا نقديا في مجال اللغة الشعرية عامة والضرورة الشعرية بصفة خاصة إلى أن "الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ومن تصريف اللفظ وتعقيده ومد المقصور وقصر الممدود والجمع بين لغاته والتفريق بين صفاته واستخراج ما كلت الألسن عن وصفه ونعته، والأذهان عن فهمه وإيضاحه، فيقربون البعيد ويبعدون القريب ويحتج بهم ولا يحتج عليهم ويصورون الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل".(٢) ويستفاد من تتبع هذا النص النقدي الدال أن الخليل بن أحمد كان واعيا أشد الوعي باختلاف لغة الشعر وتميزها عن لغة النثر من حيث كونها لغة خاصة تقوم على مخالفة قوانين اللغة المعيارية وذلك لبناء لغة فنية وإبداعية تسمح للشاعر بالنفاذ إلى جوهر الأشياء وبالجمع بين أعناق المتنافرات: الحق/ الباطل. وبذلك استطاع الخليل أن يضع قاعدة متقدمة في الشعرية العربية وهي أن نظام النحو في الشعر يسمح بما لا يسمح به نظام النحو في النثر، ألم يقل الخليل "الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم، بل إنه يذهب أبعد من ذلك عندما يقر بجواز تصوير الباطل حقا والحق باطلا وكأنه يمهد لفكرة أعذب الشعر أكذبه التي أثارت جدلا كثيرا في تراثنا النقدي.

وقد تلقف النحاة بعد الخليل هذه الإشارات والمبادئ اللغوية والنقدية العامة وتعاملوا معها على أن للشعر ضرورات بدلا من أن يكون له نحوه الخاص ونظامه المخصوص في تأليف جمله، وبناء تراكيبه. مع العلم أنه لم يجر لمصطلح الضرورة ذكر في تعليقات الخليل وملاحظاته النقدية والبلاغية، وكان يميل إلى استعمال مصطلحين أساسيين هما: الجواز والاضطرار، وذلك من قبيل: "ويجوز في الشعر" و"الشاعر مضطر" و"إنما جاز في الشعر" و"واضطروا في الشعر" اعتقادا منه أن قضية الضرورة الشعرية مسألة أسلوبية يلجأ إليها الشاعر لإبراز موهبته وطاقته الشعرية قبل أن تكون استجابة لمتطلبات الوزن أو القافية.

١ـ اللغة الشعرية عند الخليل بن أحمد من خلال مفهوم الضرورة الشعرية:

مما لاشك فيه أن الخليل بن أحمد قد أسهم في إثارة كثير من قضايا اللغة الشعرية تتصل بظواهر اللغة، وتركيب الكلام، وتأليف الجمل، وكثيرا ما يختلف مع النحاة والبلاغيين في الحكم على بيت من الشعر أو بيان قيمته الفنية ومزيته الشعرية أو في الموازنة بين شاعرين كبيرين. ومن ذلك ما ذكره القاضي الجرجاني أن الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب: "تذاكرا الأشعار والشعراء فأكثر يونس من ذكر زهير وتقديمه، وذكر الخليل النابغة وقدمه، فقيل للخليل بم تذكر النابغة؟ فقال للنابغة سهولة السبق وبراعة اللسان ونقاية الفطن لا يتزعر عليه الكلام لسهولة مخرجه وسلامة مطلبه".(٣)

وللخليل آراء نقدية وبلاغية متنوعة تستحق التسجيل والمتابعة، فهو ليس صاحب عروض ولغة ونحو فحسب كما يعتقد الكثير من الدارسين، وإنما جمع إلى ذلك بعض الإشارات البلاغية والنقدية الدقيقة التي أحرز بها قصب السبق. وكان سيبويه ينقلها كما هي في الكتاب من دون مناقشتها أو أن يرد منها شيئا، باستثناء بعض الحالات النادرة. ولا يشكل "الكتاب" المصدر الوحيد الذي جمع آراء الخليل في قضايا اللغة الشعرية وفي مقدمتها قضية الضرورات، بل هي موزعة في بعض الكتب النقدية الهامة كالوساطة والنكت في إعجاز القرآن والعمدة وسر الفصاحة والعقد الفريد، ومنهاج البلغاء وغيرها من المصادر النقدية. ومع ذلك يبقى كتاب سيبويه المصدر الأساسي الذي جمع آراء الخليل المتصلة بقضايا اللغة الشعرية، وخاصة ما يرتبط بالضرورة الشعرية ومكوناتها المختلفة. فكيف تعامل الخليل مع قضية الضرورة في لغة الشعر؟ وكيف تلقفها النحاة والبلاغيون بعده؟

سبقت الإشارة إلى أن الخليل لم يستعمل مصطلح الضرورة أو الضرائر في تعليقاته على بعض الظواهر اللغوية والقضايا الشعرية وإنما كان يؤثر استعمال مصطلحين أساسيين هما الجواز والاضطرار، لاعتقاده أن مسألة الضرورة لا ترتبط دائما بعنصري الوزن والقافية كما يرى الكثير من النقاد(٤). ومن ذلك مثلا قول الشاعر الهذلي: "الوافر"

أبيتُ على معاري واضحات بهن ملوب كدم العباط[٥]

الشاهد في بيت المتنخل الهذلي في قوله "على معالي" حيث أجرى "معاري" وهو الاسم المنقوص الممنوع من الصرف لكونه على صيغة منتهى الجموع مجرى ما كان على هذه الصيغة وهو صحيح، فأبقى لامه وهي "الياء" في حالة الجر وأظهر عليها علامة الإعراب وهي الفتحة النائبة عن الكسرة، وكان الاستعمال يقتضي حذف الياء والإتيان بالتنوين بدلا منها. فالضرورة عند الخليل ما يقع في لغة الشعر ولو كان للشاعر عنه مندوحة كما هو الشأن في هذا البيت. فلو أن الشاعر قال: على معيار كما يقتضيه القياس النحوي، ما كسر وزنا ولا أثر في القافية ولا ارتكب ضرورة غير أنه يصير مزاحفا لأن بيت الهذلي من الوافر، ولو جرى فيه الشاعر على القياس النحوي لتحولت "مفاعلتن بتحريك الخامس إلى مفاعلتن بتسكينه، ويسمى هذا الزحاف–وهو تسكين الخامس المتحرك– عصبا وهو زحاف جائز. أما ما ذهب إليه بعض النحويين من أن الذي حمل الشاعر على مخالفة الأصل هو تجنب الزحاف– زحاف العصب– فقد رده المعري بقوله: "وهذا قول ينتقض، لأن في هذه الطائية أبياتا كثيرة لا تخلو من زحاف.

ومن الجوازات الشعرية التي لا يتدخل فيها عنصر الوزن عند الخليل، إجراء تغييرات على بعض الظواهر اللغوية لاستقامة التركيب النحوي، ومن ذلك تعليقه على قول الفرزدق: الطويل

أتغضـــب إن أذنا قتيبة حزتا جهارا ولم تغضب لقتل ابن حازم[٦]

الشاهد في بيت الفرزدق هو قوله إن بدلا من أن . ويعلق الخليل على هذه الظاهرة اللغوية بقوله:" لأنه قبيح أن تفصل بين أن والفعل، كما قبح أن تفصل بين كي والفعل، فلما قبح ذلك ولم يجز حمل على إن، لأنه قد تقدم فيها الأسماء قبل الأفعال"[٧].

الواقع أن فكرة الحمل التي دافع عنها الخليل لضمان سلامة البناء النحوي تضحي بالمعنى الشعري المقصود لأن تحويل أن إلى إن وحملها على معنى الشرط لتقديم الاسم على الفعل يقتضي أن أذني قتيبة لم تحزا بعد، في حين أن الشاعر لم يقل هذا الكلام إلا بعد قتله وحز أذنيه. غير أن ما يهم الخليل في تعليقه على بيت

الفرزدق هو إثبات أن فكرة الضرورة ليست خروجا عن القياس النحوي، وإنما هي ضرب من معاودة الأصول ومراجعة القياس. وفي هذا السياق ينص أنه يجوز تسكين الياء التي هي في موقع النصب تشبيها لها بألف المثنى حيث عروها من الرفع والجر، ومن ذلك قول رؤبة:

سوى مساحيهن تغطيط الحقق

وقول أحد الشعراء:

يا دار هند عفت إلا أثافيها

الشاهد في المثال الأول هو تسكين ياء "مساحي" للضرورة، لأن قول رؤبة من الرجز التام وتحريك الياء في "مساحيهن" يؤدي إلى خلخلة الوزن وعدم استقامته. ومع ذلك فإن الخليل يشترط عدم خرق القاعدة النحوية الأصلية قبل الحكم على قبول الضرورة أو رفضها. ولهذا يعلل الخليل تسكين الياء في "مساحي" وفي "أثافيها" بقوله: "وإنما اختصت هذه الياءات في هذا الموضع لأنهم يجعلون الشيئين ههنا اسما واحدا فتكون الياء غير حرف الإعراب، فيسكنونها ويشبهونها بياء زائدة نحو ياء دردبيس ومفاتيح"(٨).

غير أن بعض الضرورات الشعرية أو الجوازات والاضطرار حسب الخليل لها علاقة مباشرة بعنصر الوزن، إذ يتدخل الوزن الشعري في بناء بعض الضرورات الشعرية، دون اعتبار لفكرة الرجوع إلى الأصل، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالحذف أو الزيادة. ومن مظاهر ذلك حذف فاء جواب الجزاء للضرورة مثل قول حسان:

"البسيط"

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلان

الشاهد في البيت هو حذف فاء جواب الجزاء للضرورة، لأن تقديم الكلام هو "من يفعل الحسنات فالله يشكرها"(٩). وإذا كان القياس النحوي يقتضي اقتران الجملة الاسمية بالفاء عند وقوعها جوابا للشرط فإن إثبات الفاء يؤدي إلى خلخلة الوزن الشعري، وخاصة الوحدة الإيقاعية الثالثة، وقد حاول الأصمعي تفسير هذه الظاهرة بقوله إن النحويين غيروا الشطر الأول من البيت ووضعوا الحسنات بدل

"الخير" وذلك لأن الرواية الأصلية هي "من يفعل الخير فالرحمن يشكره" بإثبات الفاء لأن جواب الجزاء لا يتم إلا بفعل أو بالفاء(١٠).

بناء على القياس النحوي الذي ينص على ضرورة ربط جواب الشرط بالفاء إذا كان الجواب جملة اسمية أو فعلا جامدا أو فعلا طلبيا.

ومن مظاهر الضرورة الشعرية الأكثر شيوعا عند الخليل ظاهرة الحذف التي تتوزع بين حذف حرف واحد أو جزء من الكلمة أو الكلمة كلها. ومن ذلك حذف حرف الشأن في "أن" و"إن" و"لكن"، كقول الراعي: "الطويل"

فلو أن حق اليوم منكم إقامـــة وإن كان سرح قد مضى فتسرعا(١١)

وقول الأعشى:

إن من لام فـــي بني بنت حسا ن ألمـــه وأعصـــه في الخطوب(١٢)

الشاهد في البيتين حذف ضمير الشأن في "أن" و"إن" لأن تقدير الكلام هو "فلو أنه حق اليوم" و"وإنه من لام في بني بنت حسان ألمه". ولا شك أن كلا الشاعرين قد ضحيا بالبنية التركيبية في البيتين السابقين لإنقاذ الوزن الشعري، ولذلك جعل الخليل من حذف ضمير الشأن خصيصة أسلوبية مميزة للقول الشعري دون الكلام النثري. ويعلق ابن عصفور على هذه الظاهرة بقوله: "فحذف هذا الضمير يحسن في الشعر ويقبح في الكلام، إلا أن يؤدي حذفه إلى أن تكون "إن" وأخواتها داخلة على فعل، فإنه إذ ذاك يقبح في الكلام والشعر، لأنها حروف طالبة للأسماء، فاستقبحوا لذلك مباشرتها للأفعال"(١٣).

وقد يتجاوز الحذف الحرف الواحد مثل همزة الاستفهام وضمير الشأن إلى حذف جزء من الكلمة أو الكلمة بأكملها لعلم المتلقي بالشيء المحذوف، وبوجود قرائن لغوية في السلسلة الكلامية تشير إلى ذلك، ومن صور ذلك حذف جواب "رب" كقول الشاعر:

ودويـــــة قفر تمشي نعامـــها كمشي النصارى في خفاف الأرندج

فالشاعر لجأ في هذا البيت إلى الحذف مرتين ، مرة بحذف "رب" في مقـدمة

البيت ومرة ثانية بحذف الجواب، لأن تقدير الكلام "ورب دوية قطعت" اعتمادا على علم المتلقي بالشيئين المحذوفين. ويعلق الخليل على هذا النوع من الحذف بقوله: "إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر "الجواب" في كلامهم لعلم المخبر لأي شيء وضع هذا الكلام، وقد جاء في القرآن الكريم: "حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها[١٤]" فهذا النوع من الحذف وإن كان فيه ضرورة، فإن المقصود من استعماله في اللغة الشعرية هو قوة الإيجاز ومراعاة حال المتلقي الذي بإمكانه معرفة بقية أجزاء الكلام، ولهذا لم يرد الشاعر أن يثقل على المتلقي بتكرار ما يعلم وإرهاقه بألفاظ لا تضيف شيئا إلى المعنى المقصود. وكأن الشاعر لم يلجأ إلى هذه الضرورة الشعرية إنقاذا لتركيب الكلام أو حفاظا على قاعدة نحوية أصلية أو استقامة للوزن الشعري، وإنما ظاهرة أسلوبية يسعى الشاعر من خلالها إلى نوع من التميز والتفرد ومخالفة اللغة المعيارية.

وكما كان للحذف موضعه وبلاغته عند الخليل بن أحمد، كان للزيادة قيمتها وبلاغتها. فالشاعر قد يلجأ إلى زيادة كلمة أو جزء منها في البيت لتوكيد المعنى من جهة والاستقامة من الوزن الشعري من جهة أخرى. ومن ذلك قول جرير: "البسيط"

يـــا تيم تيم عدي لا أبا لكم لا يلقينكم في سوءة عمر

وقوله أيضا: "الرجز"

يا زيد زيد اليعملات الذبل تطاول الليل عليك فانزل

فالشاعر لجأ إلى تكرار "تيم" في البيت الأول و"زيد" في البيت الثاني لإنقاذ الوزن الشعري، والعمل بفكرة العودة إلى الأصل، ذلك لأن إقحام زيد الثاني بين الأول وما أضيف إليه لا يخل بالتركيب النحوي لأن تقدير الكلام "يا زيد اليعملات زيدها" فحذف الضمير اختصارا، وقدم زيدا فاتصل باليعملات. ويعلق الخليل على هذا النوع من التكرار اللفظي بقوله إن النحاة "قد علموا أنهم لو لم يكرروا الاسم كان الأول نصبا فلما كرروا الاسم توكيدا، تركوا الأول على الذي كان يكون عليه لو لم يكرره"[١٥].

وخلاصة القول إن فهم الخليل بن أحمد لقضايا اللغة الشعرية ومنها الضرورة الشعرية نابع من فهم خاص لطبيعة الشعر ولغته الشعرية، فليست هناك قواعد حتمية يمكن تطبيقها على اللغة الشعرية واللغة النثرية على حد سواء. فالضرورة الشعرية وفق تصور الخليل قد يلجأ إليها الشاعر تحت ضغط التقنيات العروضية ومتطلبات القافية، وقد يتصرف وفق ما يهديه إليه طبعه وحسه الفني، فيختار التعبير الشعري الذي يفي بالمعنى المقصود في ذلك الموقف، أي إنه يختار التعبير الذي يبدو له أكثر مطابقة لمقتضى الحال.

٢ـ موقف النحاة والبلاغيين من الضرورة الشعرية.

يبدو من تتبع مواقف النحاة من الضرورة الشعرية بعد الخليل بن أحمد الفراهيدي أن آراء الدارسين النحاة تراوحت بين الجواز في اللغة الشعرية على وجه الإطلاق وبين الاضطرار الناتج عن متطلبات الوزن وضرورات القافية. وهذه المراوحة بين الجواز والاضطرار أدت إلى ظهور الاختلاف بين أوساط النحاة، فهناك من وضع للضرورة شروطا ومن أهمها ضمان العودة إلى الأصل، ويمثل هذا الاتجاه سيبويه الذي يبدو متأثرا بآراء أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي، ومن اعتبرها أخطاء لا يجوز ارتكابها في لغة الشعر لأن ارتكابها يقلل من القيمة الإبداعية والفنية للمنجز الشعري، ويمثل هذا الاتجاه بصفة خاصة ابن فارس. بالنسبة لسيبويه، فقد حاول في "كتابه" أن يكشف عن خصائص الجملة الشعرية ويبين الفرق بينها وبين مميزات الجملة النثرية، وتظهر سمات هذه المحاولة في الصفحات الأولى من كتابه وذلك عندما عقد بابا سماه "باب ما يحتمل الشعر" ذكر فيه سلسلة من التراكيب التي يجوز استعمالها في الشعر دون النثر، من دون أن يشير إلى أن شيئا من ذلك يسمى ضرورة. غير أنه أشار في نهاية الفصل إلى قانون عام يؤطر مبدأ الجواز بقوله: "وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها"(١٦).

ومعنى ذلك أن اللغة الشعرية محكومة بقوانين لغوية خاصة تسمح بالعدول عن الاستعمالات العادية، وليست ضرورة شعرية خاضعة لإكراهات الوزن ومتطلبات القافية كما يعتقد كثير من النحاة الذين حاولوا حصر فكرة الجواز- التي

أصلها الخليل ودافع عنها سيبويه- في مبدأ الضرورة الشعرية. وقد كشف أبو سعيد السيرافي- أكبر شارحي كتاب سيبويه- ذلك بقوله: "اعلم أن سيبويه ذكر في هذا الباب جملة من ضرورة الشعر ليرى الفرق بين الشعر والكلام، ولم ينقصه، لأنه لم يكن غرضه في ذكر ضرورة الشاعر قصدا إليها نفسها، وإنما أراد أن يصل إلى هذا الباب للأبواب التي تقدمت فيما يعرض في كلام العرب، ومذهبهم في الكلام المنظوم والمنثور"(١٧).

وقد استغل ابن جني هذه الإشارات والمبادئ العامة فأشار إلى أن ارتكاب الشاعر للضرورة الشعرية دليل على اتساع أفقه الشعري ورصيده الفني لأن القول الشعري في نظره "موضع اضطرار وموقف اعتذار، وكثيرا ما يحرف الكلام عن أبنيته، وتحال فيه المثل عن أوضاع صيغها لأجله"(١٨).

إن هذا الموقف الذي عبر عنه ابن جني يشكل امتدادا لآراء الخليل وسيبويه، ولا يمكن تفسيره إلا بإعجابه الشديد بالنص الشعري المحدث، وخاصة شعر أبي تمام والمتنبي. فصلته بالشاعر الكبير أبي الطيب المتنبي قد علمته أن للشعر والشعراء مجالا واسعا للمغامرة مع اللغة في تشكلاتها المختلفة. غير أن هذا الاتجاه العام الذي رسمه الخليل عن الضرورة وسار على نهجه سيبويه (ت١٨٠هـ) ودافع عنه كل من الأخفش (ت ٢١٥هـ) وابن جني (ت ٣٥٨هـ) ــ لم يصمد أمام ظهور مواقف مغايرة تعبر عن رفضها المبدئي لفكرة الضرورة الشعرية، والتماس الأعذار للشعراء تارة بالتوسع الفني وتارة أخرى بالمزية الشعرية، إلى درجة أن ابن فارس فضل استعمال مصطلح "الخطأ" بدل "الضرورة" للدلالة على رفضه المطلق لهذه الظاهرة اللغوية في الكلام الفني وغير الفني، ولذلك جاءت رسالته المعروفة "ذم الخطأ في الشعر"(١٩) رغم صغرها عبارة عن رفض نقدي لكثير من آراء الخليل وتلميذه سيبويه. غير أن إلمامه باللهجات العربية جعله يلين من موقفه في كتابه "الصاحبي في فقه اللغة"(٢٠) مقسما ما اعتبره النحاة ضرورة شعرية إلى ثلاثة أقسام:

١- قسم يباح للشعراء دون غيرهم، وفي هذا السياق ينص على أن "الشعراء أمراء الكلام يقصرون الممدود ولا يمدون المقصور ويقدمون ويؤخرون"(٢١)، وهنا

يعود ابن فارس إلى المبدأ العام الذي سبق للخليل بن أحمد أن أقره في القرن الثاني للهجري عندما نص على أن الشعراء "أمراء الكلام" يصرفونه أنى شاءوا". وهذا التأثّر المباشر بالخليل جعل موقفه من الضرورة الشعرية غير دقيق. وخاصة ما يتعلق ببعض الظواهر اللغوية مثل "قصر الممدود" الذي اعترف بإمكانية ارتكابه في اللغة الشعرية على اعتبار أن لغة الشعر تجيز بعض الظواهر التركيبية، وهذه الإشارة تناقض ما سبق أن أشار إليه في رسالته السابقة "ذم الخطأ في الشعر" حين قال: "... لا يجوز قصر الممدود لأنه نقص في البناء"(٢٢).

٢- قسم يتناوله على أنه من خصائص اللغة العربية ومظهر من مظاهرها المتنوعة.

٣- قسم عدّه خطأ غير مقبول، وهنا خص هذا القسم برسالته السابقة.

خاتمة:

إن هذه المواقف المتشددة لبعض النحاة من الضرورة الشعرية لم تمهد الأجواء للمرور بسلام إلى ميدان البلاغة والنقد، ولم تجد طريقا نحو الصياغة الفنية في مجال النقد الأدبي وظلت الضرورة بعد ذلك تحيل على جانب الاضطرار المخل بالبنية اللغوية دون ظهور المزية الشعرية. بل إن النحويين الذين تلقفوا إشارات الخليل بن أحمد المتنوعة، تعاملوا معها على أن للشعر ضرورات بدلا من أن يكون له نظامه المخصوص في تأليف جمله وبناء تراكيبه، ثم ما لبثوا أن ألّفوا في ذلك كتبا عرفت بكتب ضرورات الشعر أو الضرائر "الألوسي"، أو ما يجوز للشاعر في الضرورة "القزاز القيرواني"، وغير ذلك. فمالوا بذلك عن طريق الخليل وتلميذه سيبويه، وانصرفوا إلى استخراج الضرورات بدل تطوير الإشارات القوية للخليل ومبادئه العامة المتعلقة باللغة الشعرية، ولو قيض للشعريين العرب الأوائل توظيف هذا المبدأ العام في تصوراته النقدية لقدموا إضافات نقدية جمّة وخاصة ما يتعلق بالتمييز بين اللغة الشعرية واللغة العادية.

الحواشي

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني، تحقيق إحسان عباس، القسم الأول، المجلد الثاني، ص٨٢٤.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، ص١٤٣-١٤٤. وانظر: ابن فارس الصاحبي، ص٢٧٥. والسيوطي، المزهر في علوم اللغة، تحقيق: جاد المولى ورفيقيه، ط٢، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ج٢، ص٤٧١.

(٣) الوساطة، القاضي عبد العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٤) انظر: الأصول لابن سراج، ج٢، ص٦٩٣. وتأويل مشكل القرآن، ص١٥٤.

(٥) كتاب سيبويه، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ج٣، ص٣١٥.

(٦) الكتاب، ج٣، ص١٧١.

(٧) نفسه.

(٨) الكتاب، ج٣، ص٣٠٦.

(٩) الكتاب، ج٣، ص٦٤.

(١٠) نفسه.

(١١) الكتاب، ج٣، ص٧٣.

(١٢) نفسه.

(١٣) ضرائر الشعر، لابن عصفور، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ص١٧٩.

(١٤) الكتاب، ج٣، ص٧٣.

(١٥) الكتاب، ج٢، ص٢٠٥-٢٠٦.

(١٦) الكتاب، ج١، ص٢٦.

(١٧) شرح كتاب سيبويه، أبو سعيد السيرافي، حققه وعلق عليه: الدكتور رمضان عبد التواب، الهيئة المصرية للكتاب د.ت، ج١، ص٢٠٠.

(١٨) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، د.ت، ج٣، ص٦٠.

(١٩) ذم الخطأ في الشعر لابن فارس، تحقيق وتعليق الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بمصر، ص١٠٨.

(٢٠) الصاحبي في فقه اللغة، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٣.

(٢١) الصاحبي في فقه اللغة، ص٢٣١.

(٢٢) ذم الخطأ في الشعر، ص٢٤.

مصادر البحث.

١- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م.

٢- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد على النجار، المكتبة العلمية، د.ت.

٣- ذم الخطأ في الشعر لابن فارس، تحقيق وتعليق: الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بمصر.

٤- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني، تحقيق: إحسان عباس،

٥- الصاحبي في فقه اللغة، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٣م.

٦- ضرائر الشعر، لابن عصفور، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.

٧- كتاب سيبويه، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٨- المزهر في علوم اللغة، للسيوطي، تحقيق جاد المولى ورفيقيه، ط٢، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٩- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: حازم القرطاجني، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان.

١٠- الوساطة، القاضي عبد العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

الخليل بن أحمد وعِلم النَّغَمِيَّة

أ.د. جاسر أبو صفيّة
الجامعة الأردنيّة – الأردن

الخليل بن أحمد وعلم التّعمية

أ.د. جاسر أبو صفية

فرش:

عندما صدر الجزء الأوّل من كتاب "علم التّعمية واستخراج المعمّى عند العرب" بتحقيق د. محمّد مراياتي ومحمّد حسّان الطّيّان ويحيى ميرعلم، كتبت مقالة قدّمت فيها عرضًا للكتاب وأهمّيّة موضوعه وما بذله المحقّقون من جهد في التّحقيق وبيان أهمّيّة هذا العلم. وقدّم للكتاب الأستاذ الدّكتور شاكر الفحّام[1].

وذكرت في مقالتي ثلاثة أنواع من التّعمية هي: اللّحْن والإلغاز والرّمز. وضمّنت المقالة نقولات عن ابن وهب الكاتب في تعريف هذه الفنون وبيان الفوارق بينها.

وبعد أن نُشِرت المقالة، وقفت في خزانة الأدب على أنواع من التّعمية غير ما جاء في المقالة، ذكرها قطب الدّين المكّي في رسالة المعمّى الموسومة بـــ "كنز الأسما في كشف المعمّى". وقد نقل منها البغدادي عدّة نقول[2]. وهذه الأنواع هي: الأحجيّة، كما سمّاها الحريريّ، والمعاياة[3] والعويص وأبيات المعاني والمرموس والتّأويل والكناية والتّعريض والإشارة والتّوجيه والمُمَثَّل[4].

وكان ممّا قلته في المقالة بعد بيان أنواع التّعمية: "والتّعمية واستخراج المعمّى من العلوم العربيّة التي كادت تضيع في متاهة العلوم الغربيّة، لولا أن قيّض الله لهذا العلم ثلاثة من الباحثين المحقّقين، فنفضوا عنه غبار السّنين، وألبسوه حُلّته العربيّة، وشرحوا أسراره ودقائقه شرحاً وافياً..."[5].

وجاء في مقدّمة الدّكتور شاكر الفحّام: "لقد استطاعت هذه الدّراسة أن تميط اللّثام عن كنوز العرب في علم التّعمية، وأن تيسّر طرقها للواردين، وأن تبيّن ما للعرب من مبتكرات ومنجزات قَبَس منها المشتغلون في علم التّعمية. ولم يكن الغرب في هذا الباب إلاّ مُتّبعاً وآخذاً لما سبقت إليه الحضارة العربيّة الزّاهرة"[6].

وليس غرضي هنا أن أعيد ما كتبتُه في تلك المقالة ، ولكنّي سأشير إلى مـــا

جاء فيها ممّا له صلة وثيقة بالخليل بن أحمد، وهو منقول عن مقدّمة محقّقَي الكتاب نقلاً عن كتاب الجلدكي "كنز الاختصاص ودرّة الغوّاص في معرفة أسرار علم الخواصّ". قال الجلدكيّ: "... وهذا من أحسن الأبواب الاثني عشر، الذي هو تمام الكتاب، وغنيمة القِسْمَيْن في كشف المدغم، وحلّ المبهم، ممّا أُدغم بكلّ لسان، وما أُبهم في كلّ زمان، وما ستره الأوّلون وسائر الأعوان... وجعلتُ هذا الباب مفتاحاً لكلّ كنز كنزوه، ومُبَيّناً لكلّ ما رَمَزوه... وهذا النّوع يكشف كلّ مُبْهم من المُغَطّيات والأشكال والطّلسمات والحروف والفُلْقطاريات ودوائر الكواكب والفلزّات، وجميع أنواع الرّموز والمخبّآت، وسائر الخطوط القديمة والمصطلحات، وجميع العلوم والمستترات، وما نقش على الأحجار والبَرَبات من كهانة وسحر وطبّ وفلسفة، وما ودَعه الأوّلون في توابيتهم من العلوم وأنواع الخطوط ممّا ذكره كلّ واحد منهم"(٧).

ويُفْهم من قول الجلدكيّ أنّ هذا العلم الذي وضعه العرب، يمكن استخدامه في استخراج كلّ أنواع المعمّيات في مختلف العلوم وفي جميع الألسنة. وقلتُ في المقالة: "وعلى هذا يمكن القول إنّ العرب قد سبقوا الغربيّين في قراءة الخطوط القديمة (اللّغات) والنّقوش الحجريّة. ولا يُستبعد أن يكون شامبليون الفرنسيّ قد اطّلع على ما كتبه العرب في علم التّعمية واستفاد منه في حلّ رموز الكتابة الهيروغليفيّة على حجر رشيد"(٨).

كان هذا سنة ١٩٨٨م، ولم أكن حينها قد حصلت على مخطوطة ابن وحشيّة "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام". وعندما كنت أستاذاً زائراً في جامعة برنستون سنة ١٩٨٩/١٩٩٠م، حصلت على مخطوطة ابن وحشيّة ومخطوطة أخرى مجهولة المؤلّف بعنوان "رسالة في الأقلام القديمة"(٩)، وهي تشبه مخطوطة ابن وحشيّة شبها كبيرا. وبعد قراءة المخطوطتين تأكّد لي أنّ شامبليون قد اطّلع على مخطوطة ابن وحشيّة وغيرها من المخطوطات العربيّة التي بحثت في الرّموز والأقلام والطّلسمات.

والأدلّة التّالية تؤكّد ذلك:

١- نشر جوزيف همّر مخطوطة ابن وحشيّة مع ترجمة إلى اللّغة الإنجليزيّة سنة

١٨٠٦م، تحت عنوان[١٠]:

Ancient Alphabets and Hieroglophic Characters Explained, With an Account of the Egyptian Priests, their Classes, Initiation and Sacrifices in the Arabic Language by A.b. Abu Bekr b. Wahshih and in English by J. Hammer.

ومعروف أنّ الإعلان عن حلّ رموز حجر رشيد كان سنة ١٨٢٢م، أي بعد أن نشر كتاب ابن وحشيّة بعدّة سنوات. وسبق شامبليون في محاولة حلّ الرّموز الباحث البريطاني توماس يَنْغ.

٢-نشر المستشرق الفرنسيّ دوساسي مقالة حول ابن وحشيّة وكتابه سنة ١٨١٠م، أي قبل الإعلان عن حلّ الرّموز الهيروغليفيّة والدّيموطيقيّة[١١].

٣-مخطوطات كتاب ابن وحشيّة "شوق المستهام" موجودة في المكتبات الأوروبيّة مثل: لندن وفيناّ وميونخ وبرلين وباريس، وفي أمريكا في مكتبه برنستون؛ ممّا يسهّل أمر حصول شامبليون على هذه المخطوطة وغيرها[١٢].

الخليل بن أحمد وعلم التعمية:

أشار محقّقو كتاب "علم التّعمية واستخراج المعمّى عند العرب" إلى ما ذكره أبو بكر الزُّبيدي في "طبقات النّحويّين واللّغويّين" عن وضع الخليل كتاباً في علم التّعمية، ونقل عن الزّبيديّ ابن نباتة المصريّ في "سرح العيون".

قال الزُّبيديّ: "ويروى أنّ ملك اليونانيّة كتب إلى الخليل كتاباً باليونانيّة. فخلا بالكتاب شهراً حتّى فهمه. فقيل له في ذلك، فقال: قلت: إنّه لا بُدّ له من أن يُفْتَح الكتاب ببسم الله أو ما أشبهه. فبنيتُ أوّل حروفه على ذلك، فاقتاس لي. فكان هذا الأصل الذي عمل له الخليل كتاب المعمّى"[١٣].

أمّا ما جاء في "سرح العيون" فيتّفق في مضمونه مع ما جاء في كتاب الزّبيدي، ولكنّه يختلف في الألفاظ، قال: "ثمّ استخرج المعمّى، وهو أيضاً أوّل من نظر فيه؛ وذلك أنّ بعض اليونان كتب بلغتهم كتاباً إلى الخليل، فخلا به شهراً حتّى فهمه. فقيل له في ذلك، فقال: علمت أنّه لا بُدّ وأن يُفتَح باسم الله تعالى، فبنيتُ على ذلك، وقست، وجعلته أصلاً ففتحته. ثمّ وضعت كتاب المعمّى"[١٤].

ووجه الاختلاف بين نصّ الزّبيديّ ونصّ ابن نباتة أنّ ابن نباتة نسب الكتاب باليونانيّة إلى بعض اليونان وليس إلى ملك اليونان، وهو أقرب إلى الواقع. ونصّ ابن نباتة على أنّ الخليل أوّل من استخرج المعمّى ونظر فيه، ونسب القول بوضع كتاب المعمّى إلى الخليل، لا إلى غيره، وهو أمر يصعب التّحقّق منه، ولا سيّما أنّ القدماء لم يذكروا ذلك.

وعلى ما تقدّم ينشأ سؤال ذو شقّين:

أ- هل عمل الخليل كتاباً في المعمّى؟

ب- هل كان أهلا لعمل ذلك؟

قبل أن أجيب عن السّؤال بشقّيه، لعلّ من المفيد أن أعرض لما ذكره أصحاب التّعمية حول عُدّة المترجم في استخراج المعمّى، والأمور التي يُستعان بها على حلّ المترجم، والعلوم اللازمة لذلك.

قال الكنديّ: "قمنا نحتال به لاستنباط الكتاب المعمّى، إذا عُرف بأيّ لسان، هو أن يوجد من ذلك اللّسان كتاب قدْر ما يقع في جلد أو ما أشبهه، فنعُدّ ما فيه من كلّ نوع من أنواع حروفه، فنكتب على أكثرها عدداً الأوّل، والذي يليه في الكثرة الثّاني، والذي يلي ذلك في الكثرة الثّالث، وكذلك حتّى نأتي على جميع أنواع الحروف... ونستشهد في البحث في كلّ لسان بالحروف التي يكثر اقترانها، مثل ما في العربيّ من اتّصال الألف باللاّم واللاّم بالألف في قولنا (لا) وقولنا (الكتب) ..."[١٥].

ثمّ قال: "وممّا يعين في الدّلالة أيضاً أن يُعرف في كلّ لسان ما يُقدّمه أهل ذلك اللّسان من التّمجيد، فيستشهد بتلك الحروف في جميع الكتاب؛ كبسم الله الرّحمن الرّحيم في الكتاب العربيّ، وهذه الشّهادة، التي هي فواتح الكتب، ليست بأليفة في كلّ كتاب؛ لأنها ربّما عري منها الكتاب..."[١٦].

ويُفهم من كلام الكنديّ أهمّيّة تواتر ورود الحروف في استخراج التّعمية، وأهمّيّة تواتر الثّنائيات التي سمّاها استعمال الأكثر والأقل من الحروف التي تتّصل[١٧].

وعرض ابن عدّلان في رسالته الموسومة بـ "المؤلّف للملك الأشرف في حلّ التّراجم" للأمور التي يُستعان بها على حلّ المترجم فذكر منها: الذّكاء وجلاء

الخاطر والنّشاط واللّغة والنّحو والتّصاريف والتّراكيب المستعملة في اللّغة وغيرها، ومعرفة العروض والقوافي، وما يكثر استعماله من الحروف ويتوسّط ويقلّ، وما يتنافر ويتوافق من تراكيب الحروف، ومعرفة كلمات يكثر استعمالها ويقلّ ويتوسّط، ثنائيّة وثلاثيّة، ومعرفة الفواصل وذكر التّمجيدات، وكثرة الرّياضة بحصول التّمرين والدّربة بذلك[١٨].

كما عرض ابن الدُّريهم في رسالته الموسومة بـــ "مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز" لعُدّة المترجم فقال: "ولا بُدّ لمن يُعاني هذا العلم من: معرفة اللّغة التي يروم حلّ قلمها أو ما يُترجَمُ بلسانها وقواعدها. وما هو من الحروف أكثر وَقْعاً ودوراناً فيها كحروف المدّ واللّين في سائر اللّغات، وكالألف في العربيّ والسّين في الرّوميّ والأرمنيّ، والنّون في المُغْلي..."[١٩].

واستخراج المعمّى عند ابن دُنَيْنير من وجهين، **أحدهما:** المعرفة بالحروف التي تكثر وتقلّ في الكلام، والمتقاربة من الحروف. **والوجه الثّاني:** المعرفة بما يأتلف من الحروف وما لا يأتلف، وما يأتلف بالتّقديم والتّأخير، وما لا يأتلف بالتّقديم ولا بالتّأخير، وما يأتلف بالتّقديم دون التّأخير، وما يأتلف بالتّأخير دون التّقديم"[٢٠].

ثمّ قال: "وينبغي للرّجل الطالب لهذا العلم أن يكون ذكيّاً، دقيق النّظر، لطيف الحسّ، قويّ الحدس، نقيّ الفكر، صائب الظّنّ. وإن لم يكن على هذه الصّفات المذكورة لم ينتفع بشيءٍ من الطّرق التي ذكرتها في الاستعانة على الاستنباط..."[٢١].

ثمّ عرض لما يستعان به على استخراج المعمّى في الشّعر من كثرة الحروف وقلّتها، ونصّ على صفات المُستَنبِط، وهي: أن يكون عالماً بعلم العروض والقوافي وعلم الشّعر، بصيراً بالكتابة، كثير الحفظ للشعر، مكارا بالمعمّى. فإذا كان كذلك فلا يعْسُر عليه استنباط ما صَعُبَ منه[٢٢].

وشبيه بهذا ما ذكره ابن طباطبا العلوي[٢٣] وصاحب "رسالة في استخراج المعمّى من الشّعر"[٢٤].

ويستخلص ممّا تقدّم أنّ علم التّعمية وثيق الصّلة بعلوم العربيّـــة والعـــروض

والشّعر. وأضاف محقّقو رسائل التّعمية علماً آخر يعدّ أساساً في استخراج المعمّى، هو علم الرّياضيّات؛ إذ قالوا: "فمن العمليّات التي استعملت في استخراج المعمّى عمليّات حساب التّباديل والتّوافيق، وعمليّات الضّرب والقسمة التي استخدمت في إحصاء تواتر الحروف وفي تقاليب إمكانيّات ائتلاف الحروف مع بعضها في كلمات ثنائيّة أو ثلاثيّة أو رباعيّة أو خماسيّة، وما إلى ذلك من العمليّات الحسابيّة"(٢٥).

واستدلّوا على ذلك بنصّ مهمّ للخليل بن أحمد، قال: "إذا أردتَ أنْ تستقصيَ كلام العرب، وما كان على حرفين، ممّا تكلّموا به، أو رغبوا عنه، ممّا يأتلف أو لا يأتلف، مثل: قد، وكم، وعن، وأخواتها. فانظر إلى حروف المعجم، وهي ثمانية وعشرون حرفاً، فاضرب بعضها في بعض تبلغ سبعمئة وأربعةً وثمانين حرفاً، ولا يكون الحرف الواحد كلمةً. فإذا أزْوَجتهنّ حرفين صرن ثلاثمئة واثنتين وتسعين بناءً، مثل: دَمْ، وما أشبهه. فإذا قلبته عادَ إلى سَبْعمئة وأربعة وثمانين، منها ثمانية وعشرون بناءً مشتبهة الحرفين، مثل: هه، قَلْبُه وغير قَلْبه لفظ واحد. ومنها ستّمئة بناء صحيحة ثنائيّة، لا واوَ فيها ولا ياء ولا همزة، يجمعها ثلاثُمئة قَبْل القَلْب، ومنها مئة وخمسون بناءً ثنائيّة ممزوجة الأحرف الثلاثيّة المعتلّة: الياء والواو والهمزة، ويجمعها خمسةٌ وسبعون بناءً ثنائيّاً قبل القلب. ومنها ستّة أبنية ثنائيّة معتلّة، تجمعها ثلاثةُ أبنية قبل القلب. ومنها ثلاثة أبنية مضاعفة، وخمسة وعشرون بناءً صحاحاً مضاعفة. فافهم فقد بَيّنتُ لك عدّة ما يخرج من الثّنائيّ ممّا تكلّموا به أو رغبوا عنه.

وإذا أردتَ أن تؤلّف الثّلاثيّ فاضرب ثلاثة أحرف معتلّات في التّسعة الثّنائيّة المعتلّة، فتصيرُ سبعةً وعشرين بناءً ثُنائيّاً، حَرْف منها معتلّ وحَرْف صحيح، تصير أرْبعمئة وخمسين بناءً ثلاثيّاً، حرفان منها معتلّان وحرف صحيح، وتضرب الثّلاثة المعتلّات في ستّمئة بناءٍ صحيحة الحرفين، فتصيرُ ألفاً وثمانمئة بناءٍ ثلاثيّ، حرفان منها صحيحان وحرف معتلّ، وتضرب خمسةً وعشرين حرفاً في ستّمئة بناءٍ ثنائيّ صحيح الحروف، فتصير خمسةَ عشر ألفاً وستّمئة وخمسةَ وعشرين بناءً ثلاثيّاً. فهذا أكثر ما يخرج من البناء الثّلاثيّ.

فإذا أردت أن تؤلّف الرّباعيّ، فعلى هذا القياس، تضربُ الثلاثة المعتلاّت في السّبعة والعشرين بناء ثلاثيّا، ثمّ تضرب في أربعمئة وخمسين ثمّ في الألف والثمانمئة، ثمّ تضرب الخمسة والعشرين الصّحاح في الخمسة عشر ألف بناء ثلاثيّ صحاح الحروف. فما بلغ فهو مبلغ عدد الأبنية الرّباعيّة. وكذلك سبيل الخماسيّ. فأمّا السّداسيّ فلا يكون إلاّ بالزّوائد"(٢٦).

وبعد،

فعلى ضوء ما ذكره أصحاب التّعمية من الاحتيال لاستنباط الكتاب المعمّى، والأمور التي يُستعان بها على حلّ المترجَم، والعلوم اللاّزمة لذلك، وما نصّوا عليه من الصّفات التي ينبغي أن يتحلّى بها مُستنبِط المعمى، أجيبُ عن السّؤال ذي الشّقّيْن مبتدئا بالشّق الأخير، وهو: هل كان الخليل بن أحمد أهلاً لعمل كتاب في التّعمية؟

أورد فيما يلي ما قاله العلماء القدامى في الخليل ابتداءً من القرن الثّاني الهجريّ إلى نهاية القرن الخامس الهجريّ:

١- **يونس بن حبيب النّحويّ (١٨٣هـ):** "كان يستدلّ بالعربيّة على سائر اللّغات، ذكاءً منه وفطنة"(٢٧).

٢- **ابن المعتزّ (٢٩٦هـ):** "كان الخليل بن أحمد أعلم النّاس بالنّحو والغريب، وأكثرهم دقائق في ذلك. وهو أستاذ النّاس، وواحد عصره، وأوّل من اخترع العروض وفتقه، وجعله ميزاناً للشّعر، وكان ذكيّاً فَطِناً. وهو صاحب كتاب "العين" الذي جمع فيه أصول الكلام للعرب كلّها"(٢٨).

٣- **أبو الطّيّب اللّغويّ (٣٥١هـ):** "كان أعلم النّاس وأذكاهم". ثمّ ذكر أبو الطّيّب اجتماع أدباء كلّ أفق، وتذاكرهم أمر العلماء، وأنّهم أجمعوا على أنّ الخليل أذكى العرب، وهو مفتاح العلوم ومصرّفها(٢٩).

ثمّ نقل أبو الطّيّب ما قاله محمّد بن سلاّم في الخليل، قال: "سمعتُ مشايخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصّحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع"(٣٠).

وقال أبو الطّيّب اللّغويّ: "وأبدع الخليل بدائع لم يُسْبَق إليها؛ فمن ذلك تأليفه

كلام العرب على الحروف في الكتاب المسمّى بكتاب "العَيْن؛ فإنّه هو الذي رتّب أبوابه، وتوفّي من قبل أن يحشُوَه"[٣١].

٤- **حمزة الأصفهانيّ (٣٦٠هـ)**: "وبعد، فإنّ دولة الإسلام لم تُخرِج أبدع للعلوم التي لم تكن لها أصول عند علماء العرب من الخليل. وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم أخذه، ولا على مثال تقدّمه احتذاه، وإنّما اخترعه من ممرّ له بالصفّارين من وقْع مطرقة على طَسْت... ومن تأسيسه بناء كتاب العين الذي يحصر فيه لغة كلّ أمّة من الأمم قاطبة. ثمّ إمداده سيبويه في علم النّحو بما صنّف كتابه الذي هو زينة لدولة الإسلام"[٣٢].

٥- **أبو سعيد السّيرافيّ (٣٦٨هـ)**: "كان الغاية في استخراج مسائل النّحو وتصحيح القياس فيه. وهو أوّل من استخرج العروض، وحصر أشعار العرب بها"[٣٣].

٦- **الزُّبَيْديّ**، أبو بكر (٣٧٩هـ): "كان الخليل ذكيّاً فطناً شاعراً، واستنبط من العروض ومن علل النّحو ما لم يستنبط أحد، وما لم يسبقه إلى مثله سابق"[٣٤].

٧- **العُتْبيّ**، سلَمَة بن مسلم (القرن الخامس الهجريّ): "وهو صاحب كتاب "العين" الذي هو إمام الكتب في اللّغة، وما سبقه إلى تأليف مثله أحد، وإليه يتحاكم أهل العلم والأدب فيما يختلفون فيه من اللّغة، فيرضَوْن به، ويُسلّمون له. وهو صاحب النّحو وإليه يُنْسَب، وهو أوّل من بوّبه وأوضحه ورتّبه وشرحه. وهو صاحب العروض والنّقط والشّكل، والنّاس تَبَع له، وله فضيلة السّبق إليه، والتّقدّم فيه"[٣٥].

ويُستخلص من أقوال العلماء القدامى في الخليل بن أحمد أمران مهمّان يُعَدّان من الأسس التي يقوم عليها علم التّعمية واستخراج المعمّى. **أوّلهما:** سَبْقُ الخليل في ابتداع العلوم التي يُستعان بها في استخراج المعمّى، وهي: النّحو واللّغة والعروض.

ويندرج تحت هذا الأمر النّصّ الذي أثبته محقّقو كتاب التّعمية نقلاً عن "مجموع التّعمية"، وهو إحصاء الخليل ما جاء في كلام العرب على الثّنائيّ والثّلاثيّ والرُّباعيّ والخُماسيّ، ممّا يدخل في باب علوم الرّياضيّات[٣٦].

ثمّ يضاف إلى ذلك حذق الخليل بالشّعر؛ فلفظة الشّعر مشتقّة من العلم والإدراك والفطنة[٣٧]. وسمّي الشّاعر شاعراً لعلمه وفطنته[٣٨]. قال ابن الفضل العلويّ، ردّاً على مَن خالف الأصمعيّ والخليل في التّفريق بين الجناس والطّباق: "وهل مثلهما في علم الشّعر وتمييز خبيثه من طيّبه؟"[٣٩].

والأمر الثّاني: الصّفات التي ينبغي أن يتحلّى بها مستنبط المعمّى، وأهمّها الذّكاء والفطنة والعلم ودقة النظر وغيرها. وقد أجمع القدماء على وَصف الخليل بالذّكاء والفطنة والعلم.

وقد يُحتَجُّ على ما قاله يونس بن حبيب عن ذكاء الخليل وفطنته في الاستدلال بالعربيّة على سائر اللّغات، وأنّه كلام يجانب المنطق.

ويُجاب عن هذا الاحتجاج بما يلي:

عندما كنت أُعِدّ برنامج "لكلّ سؤال جواب" في إذاعة لندن سنة ١٩٨١م، جاءني سؤال عن الخليل بن أحمد، فذكرتُ في إجابتي أنّ من عجائب عبقريّة الخليل أنه كان يستدل على معاني المفردات في اللغات الأخرى بسعة اطلاعه على جذور العربيّة. ثمّ قلتُ مُعَقِّباً على قول يونس بن حبيب: "وهي قضيّة، إن صحّت، تدعو إلى إعادة النّظر في كثير ممّا كتب عن اللّغة العربيّة وعلاقتها باللّغات الأخرى القديمة".

ولم أكن وقْتها قد اطّلعت على كتاب محمّد أحمد مظهر: "Arabic the Source of all the Languages". فلمّا قرأته تأكّدتُ ممّا كان قد وقر في نفسي من أنّ العربيّة هي أصل اللّغات جميعها. فكتبتُ بحثاً عنوانه "معرّب القرآن عربيّ أصيل"، قُدّم في ندوة "الأصيل والدّخيل في التّراث العربيّ الإسلاميّ"، التي عُقدت في تونس سنة ١٩٩٨م.

وذكرتُ في هذا البحث ما قاله الزّبيدي عن الخليل وعمله كتاب المعمّى. كما ذكرتُ أنّ فكّ رموز المبهمات وقراءة الخطوط القديمة والنّقوش الحجريّة جزء مهمّ من علم التّعمية الذي يُعَدّ عربيّ المولد والنّشأة والتّطوير كما قال ديفيد كاهن، وجاء مفصّلاً في كتاب التّعمية[٤٠].

ثمّ عزّزْتُ ما جاء في كتاب "معرّب القرآن عربيّ أصيل" بمعجم رَسَمْتُ فيه قرابة خمسمئة لفظة في "لسان العرب"، زعم ابن منظور ومَن نقل عنه أنّها أعجميّة، فرددتها إلى عروبتها متّكئاً على القواعد التي ذكرها محمّد أحمد مظهر في كتابه المشار إليه آنفاً، في كيفيّة استرداد الجذور العربيّة من اللّغات الأخرى(٤١).

وعليه ليس مستغرباً ممّن أوتي ذكاء الخليل وفطنته أن يستدلّ بالعربيّة على سائر اللّغات.

وقد يُحتَجُّ أيضاً على ما ذكره أبو بكر الزُّبَيْديّ وتابَعَهُ ابن نباتة من أنّ الخليل بن أحمد فهم رسالة مكتوبة باللّغة اليونانيّة. فلمّا سئل عن ذلك، فسّر عمله بناءً على افتتاح الكتاب بالبسملة. وهو قولٌ يفتقر إلى الدّقّة؛ لأنّ اليُونانيّين لا يفتتحون كتبهم بالبسملة كما يفعل المسلمون. وعبارة الكنديّ أكثر دقّة من قول الزّبيديّ وابن نباته؛ إذ قال: "...أن يُعْرَف في كلّ لسان ما يقدّمه أهل ذلك اللّسان من التّمجيد، فيستشهد بتلك الحروف في جميع الكتاب...".

وذكر هذه التمجيدات ابن عَدْلان، فقال: "ومعرفة الفواصل، وذكر التّمجيدات...". والتّمجيدات لا تكون إلاّ في افتتاح الكتب.

فإذا جاز لي أن أجتهد في تفسير هذا الأمر أقول: ذكر الخليل في كتاب "العين" أنّ الكنعانيّين كانوا يتكلّمون بلغة تقارب العربيّة(٤٢). وفي "تهذيب اللّغة" و"لسان العرب": تضارع العربيّة(٤٣).

ويُفهم من هذا أنّ الخليل كان يعرف حروف الكنعانيّة. ومعروف عند كلّ الباحثين العرب والغربيّين أنّ الحروف الكنعانيّة، التي أطلق عليها اليونانيّون خطأً الفينيقيّة، قد انتشرت في كلّ أرجاء العالم شرقاً وغرباً. وأخذها الإرميّون عن الكنعانيّين، وعن الإرميّين أخذها اليونان. وبفعل هذا التّأثير كان اليونان يكتبون من اليمين إلى اليسار كما يكتب العرب. وليس لأبجديّتهم معنى في لغتهم، ولها معنى في العربيّة(٤٤).

والألفاظ تتكوّن من الحروف، وهذه الألفاظ ليست مفرغةً من حضارة الأمّة التي اخترعتها. ولا ننسى ما قاله هيرودتس عن جهل اليونان بالكتابة قبل قدوم

الفينيقيين، قال: "كان اليونان أمّة جاهلة إلى أن جاء الفينيقيون، فأدخلوا معهم الحضارة والكتابة وفنوناً أخرى"[٤٥].

ويشير بيير روسي إلى تقارب الإرميّة العروبيّة واليونانيّة: "إنّ لغةً واحدةً مكتوبةً ومتخاطَب بها قد انتهت إلى فرض نفسها... إنّها اللّغة الإرميّة، والإغريقيّة تابعتها والملحقة بها، التي كانت تقترب كلّ منهما من الأخرى بصورةٍ دقيقة. ثمّ تطوّرت الإرميّة منذئذ، طبيعيًا دون معارضة، إلى العربيّة، التي وجدت نفسها، منذ ذلك الحين، وارثة الماضي المصري والكنعانيّ والحثّي والبابليّ. ها هو ذا المعيار الدّقيق للثّقافة العربيّة أمّ الثّقافة الهيلينستيّة والموحية بها، والتي صاغت وشكّلت عقلها وقوانينها"[٤٦]. وهذا ما أكّدته الدّراسات الحديثة[٤٧].

ولمّا كانت الأبجديّة اليونانيّة مطابقة للأبجديّة الكنعانيّة شكلاً ومعنى، كما يتّضح من صور الحروف المدرجة في نهاية المقالة، فليس عسيراً على الخليل أن يفهم مضمون الكتاب الذي جاءه باليونانيّة.

وبعد،

فيتّضح من الإجابة عن الشّقّ الثّاني من السّؤال أنّ الخليل بن أحمد كان يتحلّى بالصّفات التي ينبغي أن تكون في مُستَنْبِط المعمّى، أي أنّه كان أهلاً لذلك. ولكن يبقى الشّقّ الأوّل من السّؤال قائماً: هل وضع الخليل كتاباً في التّعمية؟

أقول: ممّا يؤسف عليه أنّه ليس بين أيدينا ما يثبت ذلك سوى ما قاله أبو بكر الزّبيديّ ونقله ابن نباتة المصريّ. ولعلّ ممّا يرجّح ذلك النّقول التي نقلها أصحاب التّعمية عن الخليل في العلوم التي يُستعان بها على استخراج المعمّى، كما اتّضح من النصّ الذي أثبته محقّقو كتاب التّعمية في الجزء الأوّل، وأُثْبِت في موضعه من هذا البحث، على صلة علم التّعمية بعلوم الرّياضيّات. والنّصّ منقول عن مخطوطة "مجموع التّعمية". وشبيه بهذا ما قاله ابن طباطبا العلويّ: "اعلم أنّ جميع ما يُترجم ويُعمّى من الكلام المنثور أو المنظوم محصور في ثمانية وعشرين حرفاً. على صور مختلفة، لا تخرج عنها، ولا يُستغنى فيها عن تكريرها، وتبيين مقاطع كلماتها... وتكريرُ الحروف وعلمُ مقاطع الكلمات يوقِفُ على ما يُتَرجَم من

الكلام المنثور والمنظوم. وقد عرف أهل اللّغة العربيّة تأليف حروف الكلام وازدواجها، وما يَنْبو عند التّأليف من الحروف، وما يستعمل منها وما يُهْمَل على ما بيّنه الخليل بن أحمد في كتاب العين"(٤٨).

فلعلّ المستقبل يكشف لنا عن كتاب الخليل في التّعمية في إحدى المكتبات التي تحوي كنوزا غير مكتشفة.

لحق:

بعد أنْ أنهيت كتابة هذا البحث، اطّلعتُ على ما جاء في تَرجمة الخليل بن أحمد في كتاب "تاريخ التّراث العربيّ" لفؤاد سزكين، فوجدت فيه ما يلي: "ثمّ نعود إلى ما نُسب إلى الخليل بعد "كتاب العين":

٢- كتاب المعمّى ولعلّه هو عينه باب المعمّى في كتاب العين. ويوجد مخطوطاً في فاتح ٥٣٠٠ (٨٧أ – ٨٨أ) من القرن السّابع للهجرة".

ولمّا لم أجد باب المعمّى في كتاب العين، سارعتُ إلى الاتّصال بالمكتبة السّليمانيّة في تركيا، وطَلَبْتُ صورة من المخطوط. وأنا الآن في انتظار وصول المخطوط لأتحقّق من الأمر.

الحواشي:

(١) صدر الكتاب عن مجمع اللغة العربيّة بدمشق، سنة ١٩٨٧م؛ والمقالة نشرت في المجلّة الثقافيّة، عدد ١٦، ١٩٨٨م، ص٨٩-٩٥، وصورة منها مدرجة في نهاية البحث.

(٢) خزانة الأدب ٤٥٢/٦ فما بعدها.

(٣) عندي رسالة في التّعمية لابن فارس بعنوان: "شرح أبيات المعاياة".

(٤) خزانة الأدب ٤٥٩/٦-٤٦٢.

(٥) المقالة، ص٩١.

(٦) مقدّمة كتاب "علم التّعمية واستخراج المعمّى عند العرب"، ص٥.

(٧) المصدر نفسه، ص٢٥/ الحاشية.

(٨) المقالة، ص٩٣.

(٩) أهديت المخطوطتين إلى الأخ الباحث د. علي فهمي خشيم، وهو بصدد دراسة حولهما وحول اللّهجة الهيروغليفيّة.

(١٠) بروكلمان، تاريخ الأدب العربيّ، ٣٢٢/٤.

(١١) المصدر نفسه، ٣٢٢/٤.

(١٢) نفسه، ٣٢٢/٤؛ وقد أشار محقّقو رسائل التّعمية إلى هذا في جـ١/٥٧-٥٨؛ ثمّ نشروا بحثًا على الإنترنت حول الكتاب وفصوله وقيمته وصلته بعلم التّعمية والحروف الهيروغليفيّة؛ وفي سنة ٢٠٠٣م نشر إياد خالد الطبّاع كتاب "شوق المستهام" ضمن كتابه "منهج تحقيق المخطوطات"، وفيه إشارة إلى سبق ابن وحشيّة في حلّ رموز الكتابة الهيروغليفيّة. وفي الثّامن والعشرين من شهر شباط سنة ٢٠٠٤م، نشرت صحيفة الشّرق الأوسط، الصّادرة في لندن لقاء مع الدّكتور عكاشة الدّالي، ذكر فيه أنّ العرب فكّوا رموز الكتابة الهيروغليفيّة قبل شامبليون. وذكر الدّكتور الدّالي أنّه حصل على نسخة من كتاب ذي النّون المصريّ، أحد علماء الكيمياء، الموسوم بـ "حلّ الرّموز وبري الأقلام في كشف علوم أصول لغات الأقلام". ونشرت صحيفة الرّأي الأردنيّة في عددها رقم١٢٤٣٣، بتاريخ ٢٠٠٤/١٠/٥م، خبرًا عن الدّراسة التي عملها د. يحيى ميرعلم، أحد محققي كتاب التعمية، حول كتاب ابن وحشيّة. كما تناقل هذا الخبر عدّة مواقع على الإنترنت.

(١٣) طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص٥١.

(١٤) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص٢٦٨.

(١٥) الكنديّ، رسالته في استخراج المعميّ، في كتاب "علم التّعمية واستخراج المعمّى عند العرب"، ص٢١٦-٢١٧.

(١٦) المصدر نفسه، ص٢١٨.

(١٧) نفسه، ص١٢٦.

(١٨) نفسه، ص٢٧٠-٢٧١.

(١٩) نفسه، ص٣٢٢.

(٢٠) مقاصد الفصول المترجمة عن حلّ التّرجمة، في كتاب "علم التّعمية"، جـ٢ ص٢٣٤.

(٢١) المصدر نفسه ٢/٢٣٤.

(٢٢) المصدر نفسه ٢/٢٦٧.

(٢٣) نفسه ٢/٢٩٩، ٣١٣، ٣٢٦، ٣٣٧.

(٢٤) نفسه ٢/٣٣٧.

(٢٥) نفسه ١/٦٨.

(٢٦) علم التّعمية ١/٦٨-٧٠، نقلاً عن "مجموع التّعمية" تحت عنوان: "من كتاب العين". وذكر محقّقو الكتاب أنّهم لم يجدوا هذا النّصّ في المطبوع من كتاب "العين" وأنّه بتمامه في "جمهرة اللّغة" ٣/٥١٣-٥١٤. ونقله عنه السّيوطي في المزهر ١/٧٣-٧٤، ونصّه فيهما أتمّ وأقوم.

أقول: جاء الكلام في "الجمهرة" و "المزهر" منسوبا إلى ابن دريد وليس إلى الخليل، مع أنّ مضمونه ألْيق بالخليل من ابن دريد، ولا سيّما إذا قبلنا الشّعر الذي يتّهم ابن دريد بسرقة كتاب "العين"، كما جاء في ترجمة الخليل عند الصّفديّ في "الوافي بالوفيات" ٣/٣٩١.

(٢٧) طبقات الشّعراء، ص٩٧.

(٢٨) المصدر نفسه، ص٩٦.

(٢٩) مراتب النّحويّين، ص٥٥.

(٣٠) المصدر نفسه، ص٥٧.

(٣١) نفسه، ص٥٧.

(٣٢) التّنبيه على حدوث التّصحيف، ص١٢٤.

(٣٣) أخبار النّحويّين البصريّين، ص٥٤.

(٣٤) طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص٤٧.

(٣٥) الإبانة في اللّغة العربيّة ١/٣٦-٣٧.

(٣٦) علم التّعمية ١/٦٨.

(٣٧) نضْرة الإغريض في نُصْرة القريض، ص٧.

(٣٨) المصدر نفسه، ص٨.

(٣٩) نفسه، ص٩٨.

(٤٠) معرّب القرآن عربيّ أصيل، ص٢٥.

(٤١) العربيّة أصل اللّغات جميعها (بالإنجليزيّة)، محمّد أحمد مظهر، ص٩٤-١٢٨.

(٤٢) كتاب العين ١/٢٠٥.

(٤٣) تهذيب اللّغة ١/٣١٩؛ لسان العرب: كنع.

(٤٤) معرّب القرآن عربيّ أصيل، ص١٠-١١ وما في حاشيته رقم ٢٥ من مصادر ومراجع.

(٤٥) Herodotus, Book V, pp.214-215.

(٤٦) مدينة إيزيس، تاريخ العرب الحقيقيّ، ص١٨-١٩.

(٤٧) معرّب القرآن عربيّ أصيل، ص١٠ وما في حاشيته رقم ٢٢ من مصادر ومراجع.

(٤٨) علم التّعمية ٢/٣١٣.

المصادر والمراجع.

- العربية:

١- **الإبانة في اللّغة العربيّة:** سلمة بن مسلم العَوتبي، تحقيق الجزء الأول جاسر أبو صفيّة، وزارة التّراث القومي والثّقافة، مسقط، عُمان.

٢- **أخبار النّحويّين البصريّين:** أبو سعيد، الحسن بن عبد الله السّيرافيّ، تحقيق محمّد إبراهيم البنّا، دار الاعتصام، القاهرة، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٣- **بحوث ندوة " الوحدة والتنوع في اللهجات العروبية القديمة "**: تقديم د. علي فهمي خشيم، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٤- **تاريخ التّراث العربيّ:** كارل بروكلمان، ترجمة السّيّد يعقوب بكر ورمضان عبد التّوّاب، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥م.

٥- **التّنبيه على حدوث التّصحيف:** حمزة بن الحسن الأصفهانيّ، تحقيق محمّد أسعد طلس، راجعه أسماء الحمصيّ وعبد المعين الملّوحيّ، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م.

٦- **تهذيب اللّغة:** أبو منصور محمّد بن أحمد الأزهريّ، تحقيق عبد السّلام هارون وآخرين، المؤسّسة المصريّة العامّة للتّأليف والأنباء والنّشر، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٧- **جمهرة اللّغة:** أبو بكر بن دريد الأزديّ، ط١، دائرة المعارف العثمانيّة، حيدرآباد الدّكن، ١٣٤٥هـ.

٨- **خزانة الأدب:** عبد القادر بن عمر البغداديّ، تحقيق وشرح عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٩- **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون:** جمال الدّين بن نباتة المصريّ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصريّة، صيدا- بيروت.

١٠- **طبقات الشّعراء:** ابن المعتزّ، تحقيق عبد السّتّار أحمد فرّاج، دار المعارف بمصر، د.ت.

١١- **طبقات النّحويّين واللّغويّين:** أبو بكر الزّبيديّ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم،

دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٨٤م.

١٢- **علم التّعمية واستخراج المعمّى عند العرب (الجزء الأول):** د. محمّد مرايات ومحمّد حسّان الطيّان، ويحيى ميرعلم، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، ١٩٨٧م.

١٣- **علم التّعمية واستخراج المعمّى عند العرب (الجزء الثّاني):** د. محمّد مرايات ود. يحيى ميرعلم ود. محمّد حسّان الطيّان، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٨٧م.

١٤- **كتاب العين:** الخليل بن أحمد الفُرهودي، تحقيق د. مهدي المخزوميّ، ود.إبراهيم السّامرائيّ، دار مكتبة الهلال، د.ت.

١٥- **لسان العرب:** ابن منظور، دار صادر، بيروت.

١٦- **مراتب النّحويّين:** أبو الطّيّب اللّغويّ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، القاهرة، ١٩٧٤م.

١٧- **المزهر في علوم اللّغة وأنواعها:** عبد الرّحمن جلال الدّين السّيوطيّ، تحقيق محمّد أحمد جاد المولى وعليّ البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاه، د.ت.

١٨- **معرّب القرآن عربيّ أصيل:** جاسر أبو صفيّة، دار أجأ، الرّياض، ١٤٢٠هـ.

١٩- **منهج تحقيق النّصوص:** إياد الطبّاع، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٣م.

٢٠- **نضرة الإغريض في نصرة القريض:** المظفّر بن الفضل العلويّ، تحقيق نهى عارف الحسن، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

٢١- **الوافي بالوفيات:** صلاح الدّين خليل بن أيبك الصّفديّ، جـ١٣، باعتناء محمّد الحجيريّ، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

*** الغربية:**

1- Muhammad Ahmad Mazhar: Arabic the Source of All the Languages, Germany, 1972.

2- Herodotus, Book V. Vol.III, Cambridge, 1963.

*** المقالات:**

١-**علم التَعمية واستخراج المعمَى عند العرب:** جاسر أبو صفيّة، المجلّة الثّقافيّة، الجامعة الأردنيّة، عدد ١٦، ١٩٨٨م، ص٨٩-٩٥.

*** الصحف:**

١- صحيفة الرّأي الأردنيّة، عمّان، عدد ١٢٤٣٣، بتاريخ ٢٠٠٤/١٠/١٥م، ص٤٤؛ وعدد ١٢٧٩٨، بتاريخ ٢٠٠٥/٩/٢٧م، ص٤٢.

٢- صحيفة الشّرق الأوسط، لندن، عدد٩٢٢٣، بتاريخ ٨ محرّم١٤٢٥هـ، ٢٨ فبراير ٢٠٠٤م.

Major Alphabets

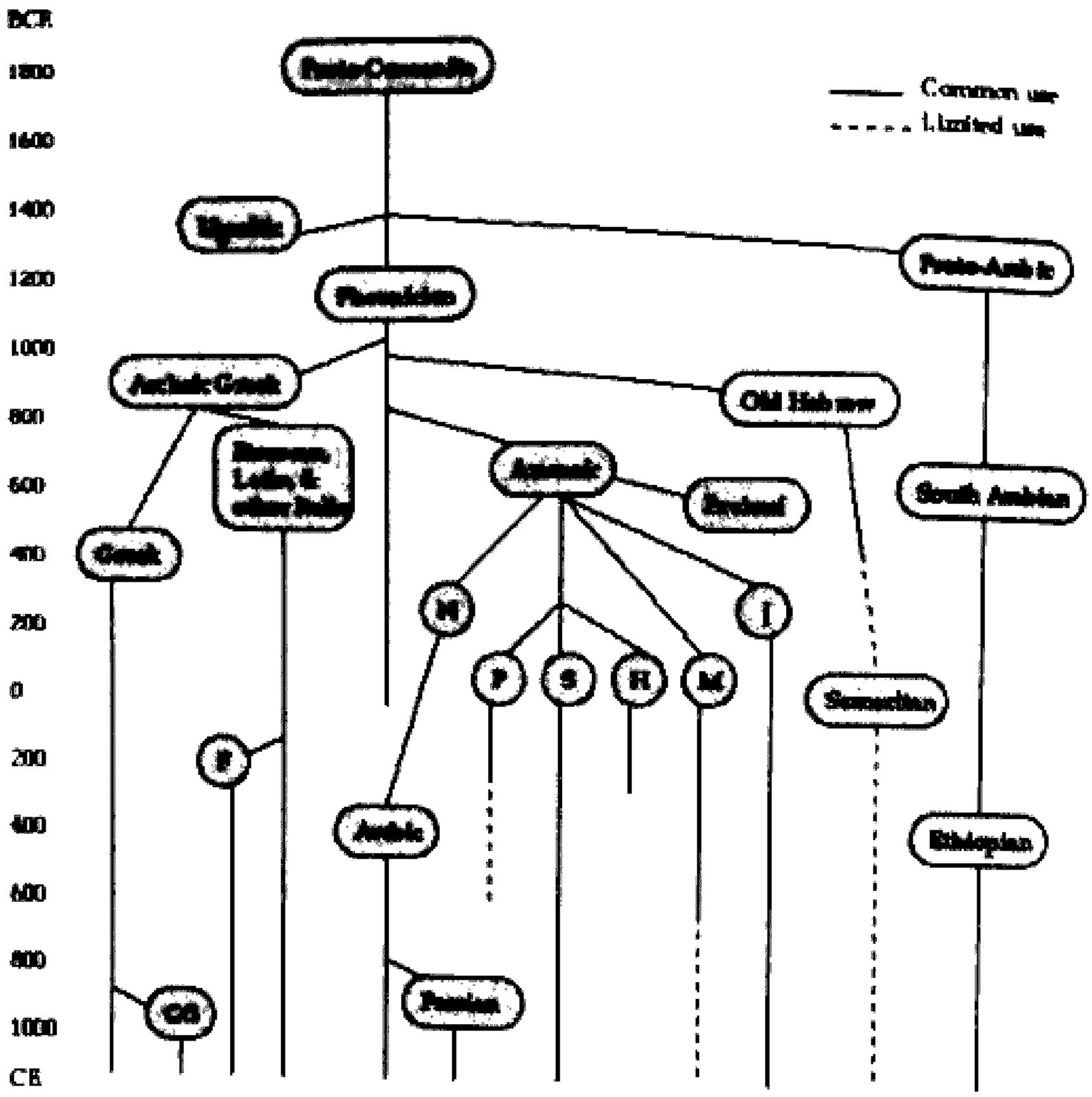

	'aleph	[']		lamedh	[l]
	beth	[b]		mem	[m]
	gimmel	[g]		nun	[n]
	daleth	[d]		samekh	[s]
	he	[h]		'ayin	[ʿ]
	waw	[w]		pe	[p]
	zayin	[z]		tsade	[ṣ]
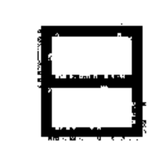	heth	[ḥ]		qoph	[q]
	teth	[ṭ]		reš	[r]
	yodh	[y]		šin	[š]
	kaph	[k]		taw	[t]

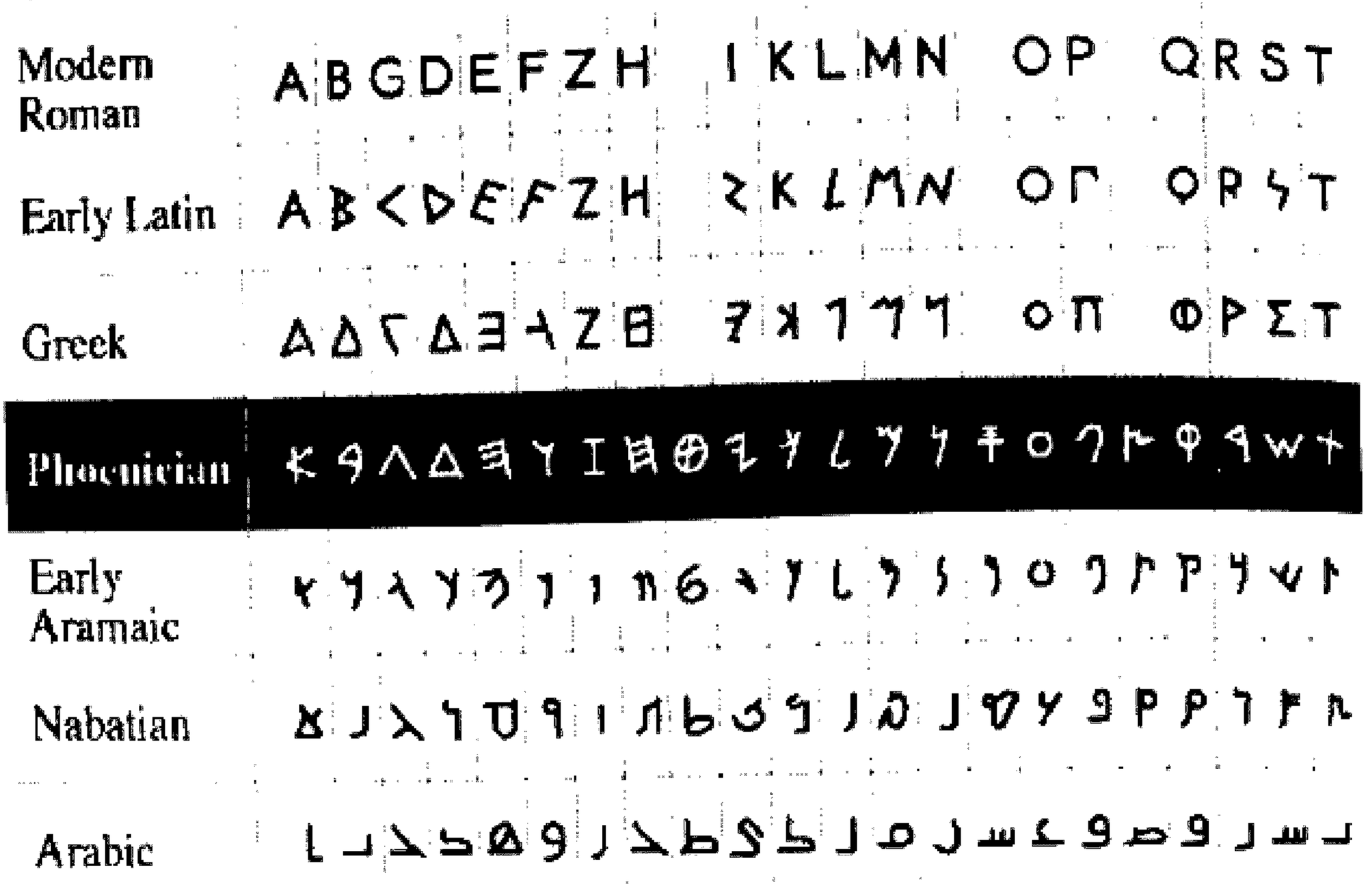
Modern Roman
A B G D E F Z H I K L M N O P Q R S T
Early Latin
A B < ▷ E F Z H ≷ K L M N O Γ Q R ϟ T
Greek
Α Δ Γ Δ Ǝ ⊣ Z B ∄ ⊀ ⅂ ⅂ ⅂ o Π Φ P Σ T
Phoenician
Early Aramaic
Nabatian
Arabic

The place of early Greek letter forms in the development of Phoenician letter forms

Phoen. names	PHOENICIAN				GREEK		PHOENICIAN			Greek names
	Shipitbaal I (Byblos) (= *DR* No. 7) *c.* 900	Cyprus Stele (= *DR* No. 30) *c.* 900–871	Nora Stone (Sardinia) (= *DR* No. 40) 9th cent.	Kilamuwa (Zincirli) (= *DR* No. 24) *c.* 825	Dipylon jug (Athens) *c.* 740	Lefkandi, Pithekoussai *c.* 710–25	Limassol (Cyprus) (= *DR* No. 31) *c.* 710–25	Karatepe (= *DR* No. 36) *c.* 720	Ipsambul *c.* 190	
ʾalf	K ⊬	⊬ ⊬	⊬	⊬	⊁	ΑΑΑ	⊬	⊬	⊬ ⊬	alpha
bēt	ϙ	ϙ ϙ	ϙ	ϙ			ϙ	ϙ	ϙ ϙ	bēta
gaml	^	⅂	⅂	⅂ ⅂				⅂	⅂	gamma
delt	⊿⊿	⍙ ⍙	⍙	⍙	⍳	⍳	⍙	⍙	⍙	delta
hē	⋿	⋿	⋿	⋿	⋿	⋿ ⋿		⋿	⋿	ei
wau	Y Y	Y ϒ		ϒ ϒ		Y		Y Y	ϒ	[wau]
zai	I	I		I		I	I	I		zēta
ḥēt	⊟			⊟ ⊟	⊟	⊟	⊟	⊟ ⊟	⊟ ⊟ ⊟	[h]ēta
ṭēt	⊖						⊖	⊖		thēta
yōd	⅁ ⅁	⅁ ⅁	⅁	⅁ ⅁	⅂	ι	⅁	⅁ ⅁	⅁ ⅁	iōta
kaf	⊬ ⊬		⊬	⊬ ⊬ ⊬		ϰ	⊬	⊬ ⊬	⊬ ⊬	kappa
lamd	⅃ ⅃	⅃	⅃	⅃ ⅃	⅂	⅃	⅃	⅃	⅃	lambda
mēm	ξ ⟩	ξ	ξ	ξ	⋔	⋔ ⋔	⋔	⋔ ⋔ ⋔	⋔	mū
nūn	ϟ	ϟ ϟ	ϟ ϟ	ϟ ϟ	ϟ	ϟ	ϟ	ϟ	ϟ	nū
semk				⋿			⋿	⋿	⋿ ⋿ ⋿	xei
ʿain	o	o	o	o	o	o	o	o	o	ou
pē	⅂	⅂	⅂		⅂	⅂		⅂	⅂ ⅂	pei
ṣādē			⍼	⍼		⋔	⍼	⍼	⍼ ⍼ ⍼	san
qōf	Φ	Φ		Φ			P	Φ	Φ	qoppa
rōš	ϙ ϙ	ϙ ϙ	ϙ	ϙϙ	ϙ	ϙ	ϙ	ϙ ϙ	ϙ	rhō
šin	w w	w	w	w	z ⅀	⅀ ⅀ ⅀	w	w	w w	sigma
tau	+ X	⊤	X	⊤	T⊤	T T	⊤	X	X ⊤	tau

All signs are drawn from right to left.
Phoenician forms are based on Friedrich Röllig, 1970: end table.

Table of Phoenician and Greek letterforms from Powell 1996.
The character names are taken from Theodore Nödeke's reconstruction are shown in the first column.

نظرات في معجم العين

أ.د. محمد البوقاعي

جامعة سيدي محمد بن عبد الله ـ المغرب

نظرات في معجم العين

أ. د. محمد البوقاعي

مقدمة عن الخليل ومكانته العلمية:

إن الحديث عن الآثار اللغوية لهذا العالم الجليل، وعلى رأسها آثاره المعجمية، المتمثلة في معجمه العين يقتضي منا، أولا التعريف بشخصيته وبأهم المجالات المعرفية التي أبدع فيها، فمن هو إذن الخليل؟ وما هي مجالات إبداعه وابتكاره؟

هذا الرجل العظيم الذي جعل مدارا لكل بحوث هذه الندوة العلمية المباركة وخلد اسمه في ذاكرة كل الحاضرين هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ الأزديّ، ولد في البصرة حوالي ١٠٠هـ، وتوفي بها حوالي ١٧٥هـ، عاش فقيرا زاهدا راغبا عن الدنيا، منقطعا كليا إلى العلم والمعرفة، وقد كان رحمه الله عبقريا بعيد الأفق، عليما واسع العلم والثقافة، فهو مبتكر علم العروض، ومخترع علم النحو، ومخترع علم الموسيقى، وهو أول من جمع اللغة وأول من ابتكر المعجم العربي، وبعض العلوم الرياضية. وبهذا الذي ذكر يكون السيوطيّ صادقا في ما قاله عن الخليل فهو بحق "أوحد العصر وقريع الدهر، وجهبذ الأمة، وأستاذ أهل الفطنة، الذي لم ير نظيره ولا عرف في الدنيا عديله"[١]. وقد تكررت مثل هذه العبارة عند الكثير من أهل الذكر من علماء العربية قديما وحديثا، وهذا أكبر دليل على أن الخليل كان "أكبر علماء زمانه في العربية ومختلف علومها وأشدهم ذكاء وأخصبهم عبقرية"[٢]، فهو إذن من العباقرة الكبار الذين قلما يجود الدهر بأمثالهم، وسنقف عند بعض مظاهر عبقريته في معجمه العين الذي جعلته محورا لهذه النظرات المتواضعة.

١ـ نظرة في منهجية معجم العين وأهدافه:

يعتبر مجال الدراسة اللغوية عموما، والدراسة المعجمية خصوصا من أهم مجالات الإبداع العلمي عند الخليل؛ فإذا كان ابن عباس ثم أبان بن تغلب هما

واضعا النواة الأولى للمعجم العربي، وكانا الفاتحين الرائدين، فإن الخليل بن أحمد الفراهيديّ يعد بحقّ وبدون منازع أول من صنف معجما جديرا بهذا الاسم، لأنه جمع ألفاظ اللغة وشرح معانيها ورتبها ترتيبا علميا محكما[٣]. وإذا كان هناك من يريد أن يبخس هذا العالم حقه بالقول: إنه كان مسبوقا في عمله من قبل بعض الأمم كاليونان والهند: "فإنه من الحق أن نذكر أنه لم يكن مقلدا أحدا أو ناهجا على طريق سابق، بل كان مبتكرا ومخترعا في الفكرة والمنهج والترتيب، ومعجمه معجم حق، أما المعاجم التي عرفت في اليونان والصين وعند الآشوريين فتعد معاجم خاصة لا عامة، وما كان شبه عام لا يصل إلى مرتبة كتاب الخليل، وفوق هذا لم يقصد أحد من مؤلفي تلك المعجمات ــ باستثناء الصين ــ إلى حصر اللغة وشرح كل ما استطاع من مفرداتها كما صنع الخليل"[٤].

وقبل الخوض في مجمل القضايا التي آثارها هذا العمل المعجمي نرى أنه من المفيد الوقوف أولا عند منهجيته وأهدافه.

أ. منهجيته:

يعرف المنهج الذي سلكه الخليل في ترتيب مداخل معجمه بالمنهج الصوتي وهذا المنهج يقوم على الأسس الآتية:

* مراعاة الحروف الأصلية للكلمة دون الزوائد:

وقد أصبحت هذه الطريقة معتمدة في جلّ المعاجم العربية العامة التي جاءت بعد الخليل، باستثناء بعض المعاجم الخاصة.

* ترتيب الكلمات بحسب مخارج الحروف:

إن الخليل لم يرتب أبواب كتابه بحسب الترتيب الهجائي المعروف: أ، ب، ت، ث...، بل بحسب ترتيب مخارج الحروف، فبدأ بحروف الحلق، فاللسان، فالأسنان، فالشفتين إلخ... وختم كتبه بحروف العلة مما أدى إلى جعل ترتيب الكتاب على الشكل التالي: ع ح ه خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ز ف ب م و أ ي. كما أنه اتبع الطريقة نفسها في ترتيب مفردات كل باب

على حدة، فلفظة (عقل) مثلا نجدها في باب العين قبل (عقف) وهذه اللفظة قبل (عقب)....إلخ.

*** وضع الكلمة ومقلوباتها في مادة واحدة:**

فهو إذا ذكر مثلا مادة (عقل) في باب العين وشرحها انتقل بعدها إلى المواد الآتية: (علق) و(لقع) و(لعق) و(قلع) و(قعل)، وهو ما اصطلح لغويو العرب على تسميته بالاشتقاق الكبير.

*** ترتيب الكلمات المندرجة في مادة لغوية واحدة ترتيبا داخليا على أساس الأبنية:**

فمادة (عق) ومقلوبها (قع) نجدهما في حرف العين في باب سماه المضاعف، وهو ما كانت عينه ولامه من جنس واحد، ومادة (عجل) وتقاليبها (علج، جعل، لجع، جلع، إلخ) نجدها في حرف العين نفسه في باب الثلاثي الصحيح، وقد جعل في كل حرف أبوابا أخرى للثلاثي المعتل، وهو ما كان أحد حروف أصله حرف علة، واللفيف، وهو ما كان في حروف أصله حرفا علة، وللرباعي، والخماسي.

هذه باختصار هي الأسس التي يقوم عليها الترتيب الصوتي الذي ابتدعه رائد المعجمية العربية الخليل بن أحمد، وقد سار على نهجه – مع اختلاف يسير – مجموعة من اللغويين منهم:

١- أبو علي القالي (ت ٣٥٦هـ) في معجم "البارع".
٢- الأزهري (ت ٣٧٠هـ) في معجمه "تهذيب اللغة".
٣- الصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ) في معجمه "المحيط"
٤- ابن سيدة الأندلسي (ت ٤٥٨هـ) في معجمه "المحكم والمحيط الأعظم".

ب- في أهدافه:

لقد سعى الخليل في معجمه العين إلى حصر اللغة وجمعها على أساس علمي مقبول واستقصاء الواضح والغريب منها، وقد كان يقصد من ذلك كله

حراسة القرآن من أن يقتحمه خطأ في النطق أو الفهم، وحراسة العربية من أن يقتحم حرمها دخيل لا ترضى عنه، وصيانة هذه الثروة من الضياع بموت العلماء ومن يحتج بلغتهم، فكما أن كتابة المصحف كانت بسبب كثرة القتل في الصحابة، حفظة القرآن، والخشية من أن يضيع شيء منه، فكذلك دونت اللغة بواسطة المعجمات والكتب اللغوية خشية أن يضيع بعض موادها، أو يندس إليها غريب تنبو عنه أصولها وقواعدها(٥). وللإشارة فإن الهدف الذي تحدثنا عنه لم يكن خاصا بالخليل وإنما كان هدفا مشتركا بين كل اللغويين الأوائل. يقول رمضان عبد التواب مبرزا هذه الحقيقة: "وقد بدأت الدراسات المعجمية في العربية ــ ككل الدراسات اللغوية عن العرب – لخدمة الدين الإسلامي ولغرض فهم القرآن الكريم، المصدر الأول للتشريع الإسلامي ودستور المسلمين؛ فالقرآن الكريم، هو محور الدراسات العربية كلها كما عرفنا من قبل وهو الأساس الذي من أجله قامت هذه الدراسات"(٦).

وإذا كان أمر هذه النظرة التي خصصناها للمنهجية والهدف قد تم عقله ولم يعد في حاجة إلى فصل خطاب فلنقصد إلى النظرة الموالية لنعرف موقف العلماء من نسبة العين للخليل.

٢ـ نظرة في نسبة العين إلى الخليل:

لقد اختلف علماء اللغة في حقيقة كتاب العين، أهو للخليل أم لغيره؟ فمنهم من أنكر هذه النسبة، ومنهم من وقف منها موقفا وسطا، ومنهم من أيدها. وسنقصر حديثنا على الفئة الأولى والثانية أما الثالثة فسنغض الطرف عنها، لأنها جاءت على الأصل، ومن جاء على أصله لا يسأل عن علته كما يقول أهل الذكر من علماء النحو.

فأما الذين أنكروا النسبة فأكثريتهم من القدماء ومنهم: النضر بن شميل، وأبو حاتم، والأزهري، وابن فارس، وابن جني، وأبو علي القالي، وابن النديم، وأبو الطيب اللغوي، والفخر الرازي(٧).

وبما أن أقوال هؤلاء متقاربة وتشير كلها إلى أمر واحد وهو الإنكار فسنكتفي هنا بإيراد قولين فقط تجنبا للإطالة والتكرار، فأما الأول فهو لابن النديم ونصه: "لم يرو هذا الكتاب عن الخليل أحد، ولا روى في شيء من الأخبار أنه عمل هذا

البتة"[٨]، وأما القول الثاني فهو لأبي عبد الله فخر الدين الرازي الذي يقول فيه ما يأتي: "أصل الكتب المصنفة في اللغة كتاب العين وقد أطبق الجمهور من رجال اللغة على الطعن فيه"[٩] ومن الأدلة التي ساقها هؤلاء لإثبات دعواهم ما يأتي:

١- إن الخليل من نحاة البصرة وما في العين مما يتصل بالنحو على مذهب الكوفيين. فكيف يتفق أن يترك مذهبه إلى مذهب آخر يختلف عنه.

٢- إن نسخة العين تحتوي على أوهام، وسقطات، وأغلاط لا يقبل بحال أن تنسب إلى عالم كعبه عال في معظم علوم عصره وعلى رأسها علم النحو واللغة والشعر.

٣- إن كتاب "العين" لم يظهر إلا بعد موت الخليل بحوالي ستين سنة، فلو كان له لكان في أيدي الناس، ولعلم به العلماء، وللهج به تلامذته، ولروى عنه الأصمعي وابن السكيت وغيرهما.

تلكم إذن هي أهم الأدلة التي اعتمد عليها المنكرون، وهي في نظرنا قابلة للنقض لأنها لا تصمد كثيرا عند النقد العلمي الرصين: أما الدليل الأول، الذي يفيد بأن مذهب العين يخالف مذهب الخليل فيما يتعلق بالمسائل النحوية فقد يكون مردّه إلى تلك الخصومة التي كانت بين الكوفيين والبصريين، فهذا عبد الغفور عطار لا يستبعد أن يكون بعض الكوفيين هم الذين غيروا في العين بعض القضايا النحوية "ليكون حجة لهم على البصريين، عندما يستدلون على تأييد آرائهم بقول رائد مدرسة البصرة الأول الخليل بن أحمد"[١٠].

وأما الدليل الثاني الذي يفيد بأن في العين من الخطأ والتصحيف والتحريف ما لا يتفق مع علم الخليل فقد يكون مرده إلى النساخ، بدليل اختلاف النسخ بعضها عن بعض، وقد يكون مرده إلى أن الخليل لم يحشُ كل عمله بيده وإنما ترك بعضه أو جله لبعض تلامذته لعجز أو مرض أو موت ...إلخ.

أما الدليل الثالث القاضي بعدم علم تلامذة الخليل بالعين فينقضه أن للنضر ابن شميل كتابا اسمه "المدخل إلى كتاب العين" وهو من أخلص طلبته وأن للمفضل ابن سلمة ردودا على العين واستدراكات وقد توفي المفضل سنة ٢٥٠هـ. وينضاف إلى ذلك أن المبرد كان يرفع من شأن قدر كتاب العين، وأنه لا توجد لأبي إسحاق

الزجاج حكاية في اللغة إلا منه ثم إن أبا علي القالي قد أتى في كتابه "البارع" بكل ما في العين وزاد عليه(١١).

وإذا كان موقف هذه الفئة قد اتضح فلنقصد إلى بيان موقف الفئة الثانية حتى تكتمل الصورة للقارئ الكريم.

هذه الفئة تتكون من ثلة من العلماء الأخيار العارفين بمسالك الدراسة المعجمية ومهالكها ومعظمهم من أبناء عصرنا ومنهم: حسن ظاظا، ورمضان عبد التواب، وأمجد الطرابلسي، وعبد الغفور عطار، ومهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، وغيرهم كثير.

وإذا كان هؤلاء العلماء قد اختلفوا في العبارة، فإن موقفهم واحد وهو القول بأن الخليل هو صاحب الفكرة والتصميم، والناسخ لجزء من الكتاب، وأن المتمم للعمل هو أحد تلامذته، يقول عبد الغفور عطار:"وموجز القول: إن العين للخليل، وأنا مطمئن إلى ذلك كل الاطمئنان، ويجوز أنه ألفه ولم يستطع إتمامه، فأتمه غيره، ويجوز أن يكون أتمه كله فأضاف إليه الناسخون ما وجدوا من تعليقات وروايات عن متأخرين أدخلوها على متن الكتاب جهلا منهم، وقد أثبت الدكتور عبد الله درويش في رسالته التي ألفها عن كتاب العين، وقدمها لجامعة لندن ونال بها إجازة الدكتوراه- أن العين للخليل"(١٢) ويقول محققا كتاب العين: "بعد الوقوف على أهم نسخ العين الموجودة ومقابلتها بما في التهذيب والبارع والمقاييس والمحكم أو بما حكته أمهات المعجمات هنا وهناك نصل إلى النقطة الآتية: إن كتاب العين بتأسيسه وبحشوه، وبيانه وتفسيره واستشهاده، إنما هو كتاب الخليل لأنه بعلمه وعقله أشبه"(١٣).

ونظرا لما في هذه الكلمات الأخيرات من دلالات وبينات، فإنها قوية الإثبات وتغنينا عن التعليقات، ومن ثم جاز لنا متابعة النظرات بالحديث عن الفوائد والثمرات.

٣- نظرة في القيمة العلمية والحضارية لمعجم العين:

من الأمور المسلم بها عند أهل العلم من علماء العربية، أن المعجم يعتبر من المصادر الأساسية، التي يحتاج إليها الباحث بين الفينة والأخرى "فهو المرجع الذي

لا غنى عنه في كل بحث مهما كان نوعه، وهو المرجع الذي يستوي في الحاجة إليه الناشئ المتعلم والباحث المنقب" وإنما كان أمره كذلك لأنه عظيم الفائدة. وسنقف عند بعض منافعه انطلاقا من معجم العين، باعتباره أول معجم عربي.

من فوائد هذا المعجم ما يأتي:

١- المساعدة على ضبط الألفاظ، والاطلاع على تطور معانيها من عصر إلى آخر، وتحقيق كثير من الشواهد والروايات المتضاربة.

٢- التعرف على خصائص بعض اللهجات العربية؛ ذلك لأن الخليل قد اعتنى باللهجات عناية كبيرة، فقد "أشار إليها في نيف وخمسة وثلاثين موضعا من الجزء المطبوع قديما، وسمّى ثلاث لغات عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة وقطعة طيء، وأورد بعض اللغات التي نسبها إلى اللغات المعروفة، دون تسمية معينة، مثل لغات هذيل، وتميم، والخفاجيين من بني عقيل، واليمن، بل أورد أشياء من لغة المعاصرين له في إقليمه العراق، أو بلدته البصرة خاصة"(١٤).

٣- التعرف على الحياة الحضارية للأمة العربية في العصور الأولى، ذلك لأن هذا المعجم يضم ثروة لغوية هائلة "وليس في مقومات حياة الشعوب ما يؤرخ لها بقدر ما تؤرخ لها لغتها،إذ اللغة هي المرآة الصادقة التي تعكس حياة الشعب الذي صنعها، فهي كنزه الذي يخزن تجاربه في الحياة، ومشاعره، ومشاهداته وبيئته، الجغرافية والاجتماعية ومبدعاته ونجاحاته وفشله...إلخ، ومن هنا يكون معجم اللغة بدلالته هو التاريخ النفسي والحضاري والبيئي للشعب الذي صنع هذه اللغة"(١٥). وبكلمة واحدة فإن المعجم كما يقول أمجد الطرابلسي -رحمه الله- هو فكر الأمة ومنطقها وتاريخها(١٦). وبناء عليه فإن معجم "العين" للخليل يمكنه أن يساعد في إعادة كتابة التاريخ الجاهلي للأمة العربية، خاصة وأن المؤرخين يقرون بأن "تاريخ الجاهلية هو أضعف قسم كتبه المؤرخون العرب في تاريخ العرب، يعوزه التحقيق والتدقيق، والغربلة، وأكثر ما ذكروه على أن تاريخ هذه الحقبة هو أساطير، وقصص شعبي، وأخبار أخذت عن أهل الكتاب ولاسيما اليهود، وأشياء وضعها الوضاعون في

الإسلام لمآرب اقتضتها العواطف والمؤثرات الخاصة"[١٧]، ثم إن علماء اللغة العربية الذين تعرضوا للآداب الجاهلية بالدراسة والتحليل، حاولوا أن يفصلوا هذه الآداب عن محيطها الاجتماعي والثقافي ظنا منهم أنهم بصنيعهم هذا يخدمون الإسلام. والحال أنهم كانوا يسيئون إليه من حيث لا يحسبون.

ذلكم بعض ما يحققه هذا المعجم من الغايات. وبالحديث عنها نصل إلى آخر نظرة من هذه النظرات، وقد خصصناها لأهم ما سجل على هذا الكتاب من هنات.

٤. نظرة في بعض هنات معجم العين:

بما أن هذا المعجم من عمل الإنسان، والإنسان يعتريه الخطأ والنسيان، إذ الكمال لله وحده، وبما أن هذا المعجم قد جاء في أصعب الفترات ألا وهي مرحلة البدايات، فقد سجلت عليه جملة من الملاحظات نعرض لأهمها في ما يأتي:

١- **صعوبة المنهج:** رغم أن معين هذا المعجم لا ينضب لكون ثماره زكية وقطوفه دانية، فإن صاحبه بتعقيد طريقته قد صعّب على الباحث بلوغ ضالته وبهذا يكون رحمه الله قد وضع للناس موردا عذبا وخلاهم عنه وارتاد لهم مرتعا مريعا ومنعهم منه، فقد أخّر وقدّم وقصد أن يعرب فأعجم، فرق الذهن بين الثنائي والمضاعف والمقلوب وبدد الفكرة باللفيف والمعتل والرباعي والخماسي، فضاع المطلوب"[١٨] ، ولله در ابن دريد كم كان صادقا حينما قال إن الخليل قد ألف معجمه لثقوب فهمه وذكاء فطنته[١٩].

ولعل الناشرين يحسنون صنعا لو فكروا في إعادة نشر هذا المعجم نشرا حديثا يقرب مأخذه دون أن يمس جوهره بأذى، وذلك وفاء لروح الخليل الطاهرة، وتشجيعا لجمهور المثقفين على الإقبال على معجمه عذب المورد. وما ذلك على أولي العزم من هؤلاء المخلصين بعزيز.

٢- عدم الاعتناء بالترتيب التاريخي لمعاني الألفاظ.

إن هذا المعجم كغيره من المعاجم القديمة، لا يعنى كثيرا بالجانب التاريخي لمعاني اللفظ الواحد، فكثيرا ما يشير إلى المعاني المختلفة للفظة من الألفاظ مؤيدة

بشواهد كثيرة من القرآن والشعر الجاهلي والحديث النبوي، لكن لا يحاول أن يضبط هذه المعاني بالضوابط الزمنية، مع العلم أن المعاني المختلفة للفظة الواحدة كثيرا ما تكون نتيجة تطور تدريجي "ولو أن معاجمنا اصطبغت بالصبغة التاريخية لاستطعنا بفضلها أن نعرف متى ظهرت اللفظة على وجه التقريب، ومتى أهملت، ومتى بعثت حية من جديد، وفي أي عصر اكتسبت كلا من معانيها المختلفة، ذلك أن اللغة كائن حي في تجدد وتطور مستمرين، فمن المفردات ما يهمل ثم ينام نومه الأبدي، ومنها ما يهمل ثم يبعث حيا، كما أن هناك ألفاظا تفد على اللغة من طرق شتى أجنبية ومحلية، ومعاني جديدة تكتسبها الألفاظ القديمة، والمعجم لا يكون حيا إلا إذا كان صورة دقيقة لحيوية اللغة"(٢٠).

٣- قصور التعريف وغموضه.

لقد اشترط المناطقة في التعريف المعتبر أن يكون جامعا مانعا، وقد وجدنا بعض التعاريف في معجم العين التي لا يتحقق فيها هذا الشرط، ذلك أن هناك بعض التعاريف التي قدمت لبعض النباتات أو الحيوانات أو الحشرات لا تزال في حاجة إلى تعريف؛ ومن أمثلة ذلك قول الخليل في مادة "دع" والدعاعة حبة سوداء تأكلها بنو فزارة، والدعاعة: نملة ذات جناحين، شبهت بتلك الحبة"(٢١).

ولعل بعض هذا القصور الذي لاحظناه على بعض التعاريف قد يكون بسبب استعماله لبعض التعاريف المحظورة كالتعريف بألفاظ العموم مثل قوله الكوسع(٢٢) معروف أو قوله باهلة(٢٣)، حي من العرب أو استعمال كلمة ضد أو نقيض أو خلاف أو عبارة تفيد النفي أو المثل وكل هذا موجود في هذا الكتاب.

٤- التصحيف.

وقد اتهمه بهذا الأمر معظم الباحثين، وقد أورد السيوطي في المزهر نماذج كثيرة منها (حوالي سبعين مأخذا)، وقال عقب سرده لها "هذا غالب ما ذكر أنه صحف فيه صاحب العين"(٢٤)، وهذا الكلام يوحي بأن هذا العد من قبيل التقريب لا من قبيل الضبط. وقد عزا الدكتور أحمد أمين هذا الأمر إلى كون الكتابة في ذلك العصر لم تكن تنقط. أما حسين نصار فيرى أن ذلك التصحيف راجع إلى كون

الخليل قد توفي قبل أن يتم عمله[٢٥]، ومن ثم فالذي وقع في التصحيف فضلا عن باقي الأخطاء الأخرى تلامذة الخليل وليس الخليل إمام أهل اللغة والنحو في زمانه.

خاتمة:

وخلاصة القول فإن كتاب العين رغم ما أخذ عليه من مؤاخذات وسجل عليه من ملاحظات يبقى كنزا ثمينا من أثمن كنوز التراث العربي، وموردا عذبا لكل الباحثين والدارسين. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الحواشي.

(١) السيوطي، المزهر، ج١، ص٨٠.

(٢) أمجد الطرابلسي، نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب، ص٢٢.

(٣) يقول أمجد الطرابلسي في هذا الصدد: "يكاد يتفق المؤرخون على أن أول من جمع اللغة أو حاول جمعها في معجم هو الخليل بن أحمد الفراهيدي"، نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب، ص٢٢.

(٤) أحمد عبد الغفور عطار، مقدمة الصحاح، ص٤٩.

(٥) مقدمة كتاب الصحاح، ص٤٢.

(٦) فصول في فقه العربية، ص٢٣٠.

(٧) مقدمة الصحاح، ص٦١.

(٨) الفهرست، ص٤٦.

(٩) المحصول في علم الأصول نقلا عن مقدمة الصحاح، ص٦٣.

(١٠) مقدمة الصحاح، ص٦٩.

(١١) مقدمة الصحاح، ص٦٨.

(١٢) مقدمة الصحاح، ص٧٠.

(١٣) مقدمة المحققين، ج١، ص٧.

(١٤) حسين نصار، المعجم العربي، ج١، ص٢٠٢.

(١٥) محمد نجيب البهبيتي، المدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين، ص٦٢٦.

(١٦) نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب، ص١٠.

(١٧) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج١، ص٤٢.

(١٨) انظر : مقدمة لسان العرب.

(١٩) مقدمة الجمهرة، ص ٣.

(٢٠) أمجد الطرابلسي، نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب، ص ٥٠.

(٢١) انظر العين حرف العين باب الثاني كتاب العين والدال.

(٢٢) "العين" حرف الكاف، الثلاثي الصحيح، الكاف والسين والجيم.

(٢٣) العين حرف الهاء الثلاثي الصحيح، الهاء واللام والباء.

(٢٤) المزهر، ج٢، ص١٩٣.

(٢٥) المعجم العربي، ج١، ص٢١٦.

مراجع العرض:

١. فصول في فقه العربية: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي القاهرة ط٣، ١٩٨٧م.

٢. كتاب العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠م.

٣. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى ومن معه، دار الجيل، بيروت (د.ت).

٤. المعاجم العربية: بوشتى العطار، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء، ط١، ١٩٩٠م.

٥. معجم العربية الجاهلية: محمد البوقاعي، رسالة جامعية مرقونة بكلية الآداب جامعة محمد الخامس، الرباط، وقد نوقشت سنة ١٩٩٥م.

٦. المعجم العربي نشأته وتطوره، حسين نصار، دار مصر للطباعة، ١٩٨٨م.

٧. مقدمة تاج اللغة وصحاح العربية: عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، لبنان، ط٣، ١٩٨٤م.

٨. نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب: أمجد الطرابلسي، دار قرطبة للطباعة والنشر، ط ٥، ١٩٨٦م.

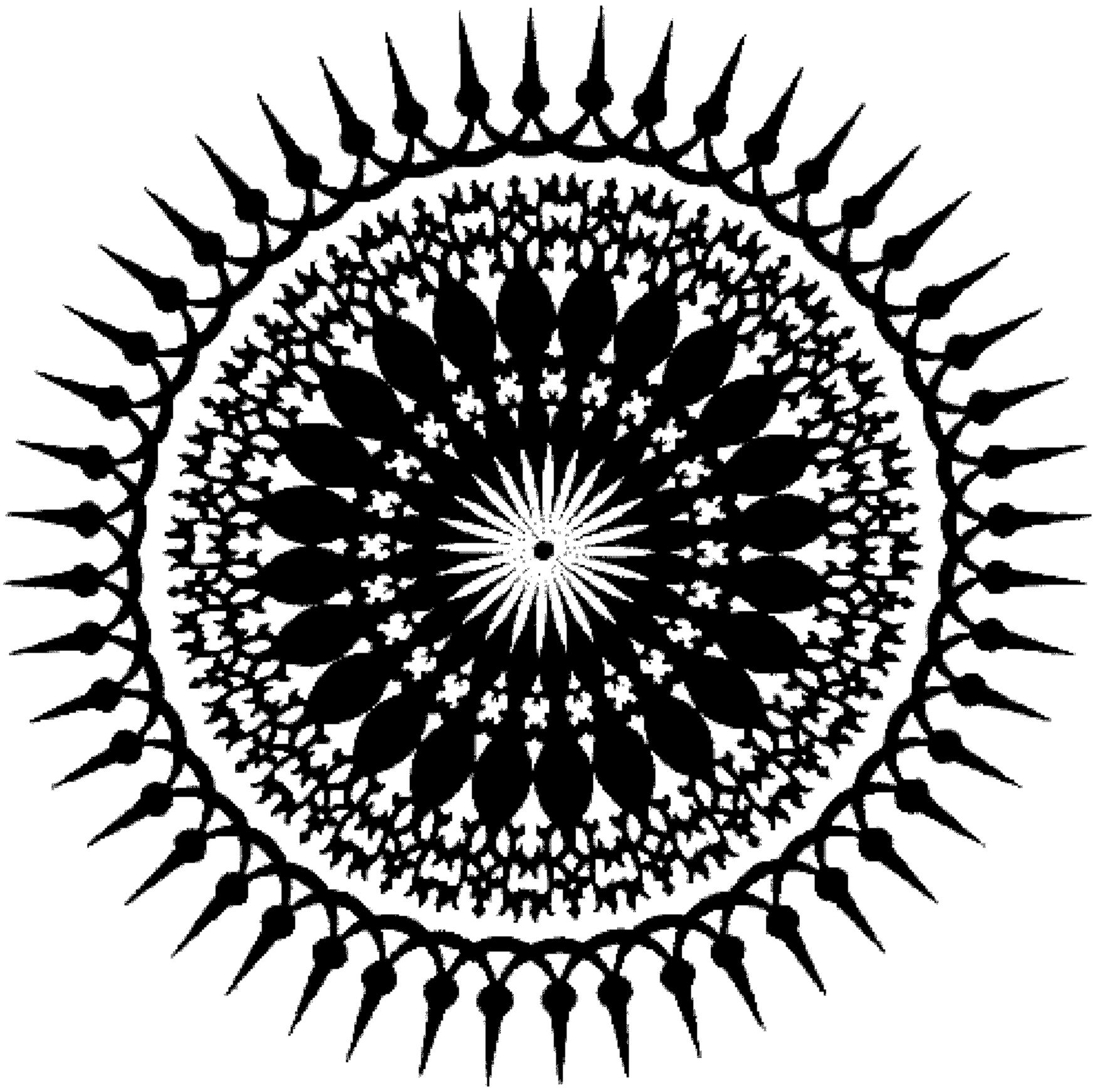

أثر مقدّمة كتاب العَين في المعاجم العربيّة

د. عيسى عودة برهومة
الجامعة الهاشمية ـ الأردن

أثر مقدّمة كتاب العَين في المعاجم العربيّة

د.عيسى عودة برهومة

المقدمة:

نحن في عصر أبرز ما يميزه الثورة الكميّة والكيفيّة في مجال العلم، فاتسعت أكمامه إلى حد هائل، وتنوعت مداخله التقنيّة تنوعا أمسى المرء عاجزا عن اللحاق بركبها؛ نظرا للتسارع الذي اصطبغ به هذا العصر، فحلّت الحواسيب في كل مناشط الحياة وتشكلاتها.

ولعل التقدم والرقي لم يكونا منصبَّين على المنجز المادي حسب، بل شملا الجوانب الثقافية والاجتماعية على مستوى الجماعة والفرد، وأخذ التغيير والتطور يتسلّلان إلى معاقل اللغة، كونها منشطا حيويًا يتأثر بمعطيات الحضارة، فصار درسها متكئا على ما أنتجته التقنيّة من أدوات ووسائل تمنح النتائج دقة وصدقيّة، ولكن هذه التحقّقات الكبرى في الدرس اللغوي لم تغض من قيمة ما خلّفه القدماء من جهود كانت القاعدة التي استوى عليها البحث العلمي الحديث، ولعل من الطريف أن نبحث الظواهر العلمية واللغوية القديمة برؤى حديثة للوقوف على تجلياتها وكشف هذا المخبوء من تفكير القدماء، وفي هذا الصنيع خدمة للتراث والعلوم في العصر الحديث، لئلا نبدأ خطوها من الصفر. والمستقرئ لتراثنا العربي عامة والدرس اللغوي خاصة يُشْدَه بهذه النظرات الثاقبة التي قدّمها علماؤنا في محاكمة النصوص وسبر أغوارها، ولعل من القامات التي يكاد ينعقد الإجماع على فرادتها ونباهتها الخليل بن أحمد الفراهيديّ، الذي أوتي رجاحة عقل وعمق مكّناه من أن يخوض في مسائل اللغة وغيرها من ضروب المعرفة، فتتبدى له الأسرار الكامنة في أعطافها، وتتخلّق الدهشة من أنظاره السابرة، فاقترن بهذا العبقري علم العروض، وبزوغ أول معجم في العربية، ناهيك عن جهوده في الموسيقى والرياضيات والنحو كما هو ماثل في الكتاب لسيبويه، وما شرعه في الدراسات اللغوية العربية من نهج احتذى أثره اللاحقون.

وحين هممتُ في أن أختار ملمحا لعبقرية الخليل وأثره فيمن خلفه رأيت أن أُلمع إلى أثر مقدمة كتاب العين في المعاجم العربية؛ وذلك أن الباحث حين يُملي النظر في مقدمة المعجم يجدها قد انطوت على معرفة دقيقة في الأصوات العربية التي تعد رافدا للمعجم ودليلا هاديا لمستعمله، فراح اللغويون من بعده يتمثلونها في مصنفاتهم اللغوية ولاسيما المعجمية؛ لذا ارتأيتُ أن أتتبع هذا الملمح في المعاجم العربية، لما أؤمّله من تجليات قد تكشف عنها هذه المُدارسة.

تنبه الخليل إلى أن الصوت هو جوهر الكلام ومادته، وقد شغلته هذه المسألة كثيراً، فخطّ لنفسه منهاجاً خاصاً مميزاً قائما على ذوق رهيف وخبرة تمتح من معارف متنوعة، كالموسيقى والرياضيات والفلك والجبر علاوة على المعارف الدينية واللغوية، وهذا ينم على سعة أفق ورؤية نافذة وعن شعور بالمسؤولية تجاه هذه اللغة، فكان الرائد في جمعها وتصنيف أول معجم عربي متكامل، فسطّر منهجية رائدة في المعجميّة العربية العربية.

مقدمة كتاب العين والخليل بن أحمد الفراهيدي.

للمقدمة مكانة مرموقة في اللغة، طرح فيها الخليل مقولاته الصوتية الرائدة التي تعدُّ أساس الفكر الصوتي عند العرب، فكانت غايته من هذه الآراء الكشفَ عن مغزى تلك الظاهرة الصوتية في تداول الناس وتواصلهم اللساني، وتلمُّس السبيل الأنجع في تصنيف حروف المعجم وترتيبها، فأوحى إليه تفكيره الثاقب إلى التقسيم الصوتي للحروف مبتدئا بأقصى الحلق ومنتهيا بالشفتين، ثم مضى يحلل هذه الأصوات وفقا لأحيازها وصفاتها، والحكم على المفردات أصيلها من دخيلها تبعا للمعايير الصوتية التي قرَّرها الخليل بعد استقراء عميق لكلام العرب وسننها، وقد أحسن الخليل بن أحمد حين ضمّن معجمه مقدمةً صوتيةً للحروف العربيّة؛ وذلك أن إدراك كُنْه المفردة يعوزه مهاد صوتي لأن الصوت أصغر وحدة لغوية، فكان التصنيف الصوتي مدخلا رتب على أساسه معجمه ليكون عليه مدار كلام العرب وألفاظهم ولا تندّ عنها شيء، وأسعفت فكرةُ التقاليب الخليلَ في إحصاء جميع مفردات اللغة المستعملة والمحتملة، فنلحظ توظيفه لمعارفه الرياضية في ابتداع هذه

الفكرة، فأدرك أن هذه العملية التي يسير عليها لابد أن تحفظ اللغة دون تكرار، وقد رأى أن الترتيب الصوتي وفق مخرجها ابتداء من أقصاها في الحلق إلى الشفتين هو الترتيب المنطقي العلمي الطبيعي.

وسنتبين فضل الخليل في المعاجم والأثر الذي خلَّفه في اللغويين والمعجميين، ونبيِّن أن المحاولات المعجمية التي جاءت بعد كتاب العين إنما احتذت حذوه وترسمت سيماء منهجه الذي كان قِبلة التف حولها التلاميذ المخلصون لمواصلة الإبداع الفكري وليحفظوا مسيرة الأستاذ المعلِّم، فما من معجم عربي إلا وكان لكتاب العين فيه نصيب نهجا أو مادة.

لقد شغل الخليل نفسه بعلوم اللغة العربية وتراكيبها وأوزانها، واستنبط لنفسه وسائله وأدواته الخاصة شأن كل صابغ ماهر وعالم حصين يعكف على تطوير ما بين يديه، ليبقى ما يقوم به مخلَّدا ومعمقا في العلم، فوقف وِقفة العالم المجدد الذي لم تكبله قيود المتقدمين، فظلت روحه تتوق إلى اجتراح إبداعات لم يستطعها الأوائل على أسس علمية مسوَّغة تحرص على استنباط أسرار العلم واستخلاص النتائج، فجاء بأفكار سَرعان ما غدت قواعد تمثَّلها أصحاب المعاجم من بعده.

وبالنظر في معجم العين نجد أن الخليل قد أبدع طريقة لتسجيل جميع مفردات اللغة، وأثرت طريقته وطموحه في أجيال متعاقبة من المعجميين، من خلال الترتيب المخرجي، والتقاليب والكمية والجذرية، وبهذا يكون الخليل أرسى قواعد المعجمية والأصوات والنحو.

وعلى الرغم من أن نظام الخليل في العين معقَّد وصعب التأتِّي، فإنه أسهم في تعميق التفكير في طبيعة اللغة وكيفية علمها، وشجَّع على إرساء البحث الصوتي والمعجمي على أركان مكينة، فأثَّر في صناعة المعاجم وإنتاجها لأحقاب ممتدة.

وبابتكاره لمعجم العين رسَّم نهجا جديدا للدرس الصوتي والمعجمي في العربية فنبَّه إلى مثل هذه العلوم وألمح إلى فكره الوقَّاد، وهذا الفكر أزال ما ران حول نسبة كتاب العين: أهو للخليل أم لتلاميذه على رأسهم اللَّيث بن المظفَّر، وقد أخذت هذه المسألة نصيبا وفيراً من تفكير جمهور من العلماء كالمبرِّد والسجستاني

والقالي والزبيدي، وغيرهم. ولا يسع هذا المقام أن نخوض في مستنداتهم والرد عليها، ولكن المتأمل في مقدمة كتاب العين لا يساوره شك في أن هذه المقولات اللغوية تنبئ عن عقلية فذة لا تتوافر إلا للخليل الذي ابتدع علم العروض وفتّق أكمام النحو وعلله وكان له سهم وافر في العلوم العقلية والموسيقى، فلا غضاضة أن يصفه معاصروه -لأجل هذا- بأنه رجل جُبِل من المسك والذهب، وقد قال عنه النَّضر بن شميل: ما رأى الراؤون مثل الخليل ولا رأى الخليل مثل نفسه. وسئل ابن المقفع كيف رأيت الخليل؟ فقال: رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه(١).

ومن فرط إعجاب المستشرق برونلش بنظريات الخليل صرح بأن نظام العين ليس غريبا أن يكون من عمل الخليل، بل الغريب ألا يكون منسوبا إليه، ونشر هذا المستشرق مقالا طويلاً في مجلة إسلاميات بعنوان الخليل وكتاب العين. فإذا كان من الشاق إلى حد بعيد أن يتوصل إنسان في عصر الخليل إلى مثل ما توصل إليه في محاولته البارعة عصر مواد اللغة، فثمة صعوبة اعترضت هذا الذهن المتوقد حين أراد بدء تدوين مواد اللغة تدوينا علميا سليما لا يتوجه إليه نقد، فكانت دراية الخليل الرياضية مُعينا في تذليل الصعوبة الأولى، وكانت خبرته بعلم الأصوات مرشدا إلى الطريق في الثانية(٢) .

إن هدف الخليل بن أحمد من إنشاء المعجم وابتكاره إياه ضبط اللغة وحصرها دون تكرار، فاللغة تعدُّ من أبرز السمات التطورية لحياة الإنسان، ومع ظهور الدين الإسلامي واختلاط الناس بعضهم ببعض، ظهر اللحن وفشا بين العامة والخاصة ففسدت سلائق الناس، فنهض قوم من اللغويين يصلحون للناس أمر لغتهم ويصوبون ما داخلها من لحن، ويقعّدون لهم أصولا تقيهم من الخطأ وتحفظ لهم لغتهم السنية، وراح فريق آخر يجمع ألفاظ اللغة خشية أن تضيع مع تقادم الأزمان، فعكفوا على تصنيفها وتبويبها في صورة رسائل لغوية ومعاجم، وكان قصب السبق في المعجمية العربية لكتاب العين.

الأسس التي قام عليها كتاب العين.

الأساس الصوتي: رتّب الخليل الحروف حسب مخارج الصوت، وقد عدّه الخليل

أساساً في ترتيب مواد اللغة وهي: (ع ح ه خ غ – ق ك ج ش ض – ص س ز – ط د ت – ظ ذ ث – ل ر ن – ف ب م – و ا ي همزة).

التقاليب: وهو حصر جميع مفردات اللغة في موضع واحد وبيان المستعمل والمهمل. "وقد حاول الخليل أن يظهر ضروب المعاني مع تقليب المادة، وترتيب حروفها في موضع واحد، ومعنى هذا أن الخليل استطاع عندما وضع معجمه بهذه الطريقة أن يحصي عدد الكلمات المعجمية العربية، وأن يشير إلى الصيغ المهملة في كل التقليبات الثلاثيّة والرباعيّة والخماسيّة[٣].

الأبنية: وهي أربعة؛ ثنائية، ثلاثية، رباعية، خماسية، على عدد حروف المادة الأصلية.

إن مقدمة العين تدل على أن الخليل كان على علم بالجهاز الصوتي وتركيبه وأجزائه، وما اشتمل عليه من أحياز ومدارج، فاستطاع بذلك أن يحدد مخارج الأصوات وأن يبتكر علم الأصوات والتقاليب، ولكن لم يرد مصطلح صوت عنده بل ورد حروف الكلمة وتعني أصواتها[٤]. وقد استعمل الخليل في توصيفه لأصوات اللغة ألفاظا عربية تؤكد أصالتها، "وتنتمي هذه المصطلحات إلى مجال الدلالة الحسي لارتباط معظمها بالمعطيات الحسية لا الذهنيّة"[٥].

وقد جعل الخليل للحروف العربية ستة عشر مخرجا، كما عُني باللغات عناية كبيرة، إذ أشار إليها في نيّف وخمسة وثلاثين موضعا، كما اتبع الخليل القياس في معجمه، واعتمد في أقيسته على الاشتقاق، وقد أولع الخليل بالقياس ولعا شديداً.

وقد اختار الخليل في ترتيب معجمه حسب مخارج النطق من أقصى الحلق إلى الشفتين مبتدئا بالعين، ومن هنا جاءت تسمية المعجم، وقد وزّع العين على أبواب؛ باب لكل حرف من حروف الهجاء، وفي داخل كل باب عرضت تقليبات ذلك الحرف مع جميع الحروف الأخرى لتسجيل الجذور التي تشتمل على ذلك الحرف، وبعد ذلك يقسم كل باب إلى فصول طبقا لعدد أصول الجذور ثنائي، ثلاثي، رباعي، خماسي، وفي داخل كل فصل يُقلّب الجذر الواحد لاستعارض الجذور الممكنة الأخرى منه. [٦]

فالخليل قد أنشأ علم الأصوات "ويبدو أنه كان محتاجا إلى إظهار هذا العلم، والحاجة أم الاختراع؛ لمبلغ الاعتماد عليه في إنشاء معجم شامل للعربية، وليس بين أيدينا دليل يشير إلى أن أحداً تقدم على الخليل في هذا المجال، لذلك يعد رائدا لهذا العلم(٧). والمصطلحات الواردة في مقدمة العين مصطلحات عربية المصدر لغة ومعرفة، وهي مصطلحات حية تداولها العلماء على اختلاف مجالات اختصاصهم وجعلوها عدتهم في الدرس الصوتي وطبقوها على النحو، وتجلى الأثر في علم التجويد خاصة(٨). فمصطلح المخرج: من مصطلحات الخليل، فقد استعملها محددا في مواضع خروج الأصوات، فالأصوات الذلقية تخرج من ذلق اللسان، والشفوية مخرجها من بين الشفتين، وهذا المصطلح لم يكن مستقرا عنده استقرار تاما، فقد استعمل لفظا آخر وهو "المبدأ" ومع اختلاف معنى اللفظين إلا أن معنى المخرج ومصطلحه كان واضحا محددا لديه(٩).

وذكر الأحرف الذلقية، والأحرف الحلقية، والأسلية، والهوائية، والانفجارية، وحددها ضمن الترتيب الذي بيناه آنفا. والتزم الخليل ترتيب الحروف المخرجي في أبواب معجمه، ولكنه لم يلتزمه في بعض الفصول، وهذه المخارج الصوتية ميزت العين من غيره من المعاجم. فعُدَّ من أوائل العلماء العرب الذين حددوا بدقة مخرج الصوت، وهو الذي ابتكر المصطلحات الصوتية، نحو: مخرج، حيز، موضع، مدرج(١٠).

ثم نقد الخليل الصيغ الرباعية والخماسية، وبيّن الأصيل منها والدخيل في اللغة، وأقام نقده على الناحية الصوتية فيها، كأن اللغة تحولت عنده إلى أصوات وأنغام فالمتناسق عنده عربي صحيح، والنشاز مولّد دخيل(١١).

ونظّمت الكلمات عند الخليل تبعا لحروفها الأصلية بقطع النظر عن الأحرف الزائدة فيها، وهذا المبدأ ظل متبعا في كل مراحل تطور المعجم العربي من وقت الخليل إلى يومنا هذا، كما أن تبويب الكلمات خضع لنظام الكميّة، وكان التقسيم عنده كالآتي: الثنائي، الثلاثي الصحيح، الثلاثي المعتل اللفيف، الرباعي، الخماسي، المعتل.

ولاحظ الخليل أن الكلمة إذا كثرت حروفها فبلغت أربعا أو خمسا، وجب أن يكون بعضها من الحروف الذَّلق أو الشفهية؛ فإن وردت عليك رباعية أو خماسية معرّاة من الحروف الذلقية أو الشفوية، ولا يكون من تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك، فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليس من كلام العرب، (مقدمة كتاب العين). وعدَّ الخليل نحو عشرين كلمة مستثناة من تلك القاعدة، وهذا يضاف إلى الجهد الذي بُذل في معجم العين.

وحين النظر في كتاب العين نجد أن الخليل قد وصف المادة وصفا دقيقا لمدارج حروف الهجاء، وهذا دليل واضح على علو كعب الخليل ودقة ملاحظته، ورغبته الأكيدة في أن يأتي معجمه على مثال مُشاكل لبراعته وذهنه الثاقب وعبقريته الفذَّة.

ويختم الخليل مقدمة العين بالتقاليب، وعددها في كل بناء وكيفية الوصول إليها، ويضرب الأمثلة ويفرّق بينهما على أساس المستعمل والمهمل، ويظهر الأثر الرياضي في هذه النظرية، ليحقق بتوظيفها حصر جميع المفردات وإحصاءها، وبناء عليه فإن الترتيب الصوتي أكثر نجاعة من الترتيب العادي.

لم يكن أثر العين في المعاجم حسب بل امتد إلى النحو فأخذ عنه سيبويه، فالذي يقرأ الكتاب يجد الخليل حاضراً في أغلب المواضع، يعرض آراءه صادرا في ذلك عن استيعاب لنهج العرب في كلامهم وأساليبهم، معضّدا رؤاه بلطف النظر ورجاحة تفكيره في القياس، ويذهب أبو سعيد السيرافي إلى أن "عامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل، وكل ما قاله سيبويه وسألته أو "قال" من غير أن يذكر قائله فهو للخليل"(١٢). وقد حدّد الاستشهاد بشعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ولم يأخذ من المحدثين وسار على نهجه أكثر المتأخرين، وقد ذكر سيبويه للخليل قدرا هائلا من الآراء الصرفية، مما يرجّح أنه أول من تكلم في الصرف بمسائله المتفرعة، وأول من عمل الميزان الصرفي المعروف(١٣).

كما تأثّر بالخليل ابنُ جني وأخذ عنه التقاليب، وأقام نظريته في الاشتقاق الأكبر على هدى فكر الخليل، علاوة على اقتفاء ابن جني أثر الخليل فيما تركه من تواليف.

وحقيق بنا أن نأتي على المعاجم التي صُنِّفت بعد كتاب العين لنتلمُّس أثره فيها.

المدرسة الصوتية أو مدرسة التقاليب: ضمَّت هذه المدرسة معجم البارع لأبي علي القالي، وتهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، والمحيط في اللغة للصاحب بن عباد، والمحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن بن سيده، إضافة إلى معاجم وكتب أخرى اتخذت من كتاب العين موضوعا للدراسة، استدراكا وتصويبا ، "ومنها ما رأى عيبا فأراد إبرازه والدفاع عنه، ومنها ما رأى إطالة فأراد الاختصار ومن رأى الإجمال فأراد الإيضاح، وقد عُثِر على حوالي خمسة عشر كتابا منها[١٤].

البارع للقالي: معجم البارع في اللغة لأبي علي القالي، وسجّل محقق المعجم هاشم الطعان عن البارع في اللغة أنه "أول معجم أندلسي من حيث مكان التأليف، أما المادة فهي مادة كتاب العين للخليل بن أحمد موصولا... وبهذا يكون البارع أقدم نسخة وصلت إلينا من كتاب العين[١٥].

فلا يختلف القالي عن الخليل فيما عالجه في مواده من ألفاظ تتصل بالحيوان أو النبات أو البقاع أو ما إلى ذلك من موضوعات، وكذلك المعاجم العربية الأخرى، فمثلا اهتم القالي باللغات اهتماما ملحوظاً وأخذ عن الخليل بعض ترجيحاته بين اللغات: قال الخليل: التيه والتوه لغتان، يقال: تاه يتيه توها وتيها، والتيه أعمها".

واتبع القالي من حيث الجذرية كما فعل جميع المعجميين وذلك بتجريد الكلمة من الزوائد كما فعل الخليل، أما الكمية البنائية فقد تابع الخليلَ في معجم العين إجمالا، مع بعض الاختلافات، وجاءت الكمية الصوتية البنائية في البارع كالتالي: الثنائي، الثلاثي الصحيح، الثلاثي المعتل، الحواشي (الأوشاب) الرباعي، الخماسي، وهي كترتيب العين. فانظر مثلا في باب الجيم والزاي في الثنائي: قال الخليل: "الجزّ جز الشعر والصوف والحشيش ونحوه، والجزز الصوف الذي لم يستعمل بعد ما جزّ، تقول صوف جزز، والجزاز بفتح الجيم كالحصاد واقع على الحين والأوان...، ويذكر بعدها مقلوبة، زج: ويذكر العلماء ويذكر منهم الخليل". وقد ملأ القالي أبوابه بالتقاليب على نمط الخليل دون أدنى تغيير وقد ميَّز كل تقليب

بتصديره كلمة مقلوبة[١٦]. كما أن القالي قد اتخذ منهج الخليل في ترتيب الحروف بحسب المخارج مع تغيرات كثيرة فهي عنده، ه ح – ع خ غ – ق ك – ض ج ش – ل ر ن – ط د ت ص ز س – ظ ذ ث – ف ب م – و ا ي – همزة.

ويمكن حمل الاختلاف في ترتيب مخارج الأصوات عند الخليل في المنهج على تذوق الأصوات والنظر إلى خصائصها ومميزاتها، فكل عالم يتذوق الأصوات تبعا لحسه الموسيقي وإدراكه للأصوات التي تؤدي إلى تقديم الأصوات بعضها على بعض، مع الأخذ في الاعتبار أن هناك جامعا مشتركا يحصر هذه الأصوات[١٧].

وكان الخليل في تصنيفه الأبنية أدق من القالي، مع أنه تفرّد بذكر نوع جديد هو الأوشاب، وهو باب ذكر فيه أسماء الأصوات ومحاكاة الطيور والحيوانات. وقد اتبع ترتيب المفردات فهو على وجه الإجمال كترتيب العين مع مراعاة التقليبات والأبجدية الصوتية وتقسيم الكلمات من حيث الكمية إلى ثنائية، ثلاثي، رباعي، خماسي.[١٨]

تهذيب اللغة للأزهري: اتبع الأزهري في معجمه التهذيب المنهج الذي وضعه الخليل في مقدمة العين بحذافيره، فالتزم ترتيب المخارج الذي ابتكره الخليل في العين، كما أنه حشا الأبواب بما حشاها الخليل، فوضع في باب الثنائي الأبنية الثنائية والرباعي المضاعف وما ضوعف من فائه ولامه، والخفيف وخلط بين المعتل الواوي واليائي والمهموز.

ويتفق الأزهري في معجمه مع الخليل في العين، في نظام التقاليب ومراعاة الأبجدية الصوتية وتقسيم الكلمات بحسب الكمية من الثنائي إلى الخماسي، بالإكثار من الروايات والنقل عن اللغويين[١٩]، وقد وضح الأزهري في معجمه الطريقة التي سينهجها في تنظيم الكلمات فقال: إنه لم يجد أصوب ولا أوفى من مقدمة العين التي وضعها الخليل ولذلك سيعتمد عليها وينقلها بين يدي كتابه، وقد بدأ بحرف العين احتذاء بالخليل[٢٠].

ومعجم التهذيب أقرب المعاجم إلى العين، ومن أخذ عن التهذيب ومختصر العين للزبيدي أيضاً فكأنه رجع إلى العين مباشرة، ويذهب حسين نصار في حديثه

عن الصغاني: وخلاصة القول في العباب أنه صدَّر في مواده لمعظم ما أتت به المعاجم التي قبله وخاصة الصحاح والتهذيب والمقاييس والمحيط؛ يعني ذلك العين والجمهرة بل كل ما فيها عدا التافه، فلا فرق بينه وبين التهذيب أكبر المعاجم التي قبله إلا في إكثار هذا من أقوال اللغويين المختلفين في اللفظ الواحد ومعانيه(٢١).

والأزهري في تهذيب اللغة يرتب المادة اللغوية في معجمه على نظام الأبجدية الصوتية التي ابتكرها الخليل، كما التزم طريقته في تقليبات المادة اللغوية، كما كان تابعا للخليل في معالجة المادة اللغوية تبعية كاملة، حتى إنه نقل مقدمة العين في مقدمته لمعجمه نقلا يكاد أن يكون حرفيا، بل نقل مواد كثيرة برمتها من العين إلى التهذيب(٢٢).

وطريقة التقاليب هي طريقة ابتكرها الخليل وسار عليها من بعده الأزهري في معجمه تهذيب اللغة؛ وسار الأزهري على نظام ترتيب الحروف حسب المخارج الصوتية، فكتاب التهذيب يسير على نمط كتاب العين في ترتيبه وتأسيسه، فهو: (ع ح ه خ غ- ق ك- ج ش ض- ص س ز- ط د ت - ظ ذ ث- ل ر ن- ف ب م – و ا ي ء)، وهذا يعني أن الأزهري اقتفى طريقة معجم العين، ويمكن أن نرجع أغلب ما في التهذيب إلى كتاب العين لاتفاقهما في كثير من التعبيرات فضلا عن تنظيم الكلمات وتبويب الأبواب، وهذا يجعلنا نقرر أن العين نواة لما أتى بعده من المعاجم.

ومع أن الأزهري اتبع منهج الخليل وطريقته ونقل أكثر ما جاء في مقدمة العين، إلا أنه شكك في نسبة معجم العين للخليل وعزاه لتلميذه الليث، وقد قال إنه لن يأخذ عن هذا الكتاب، ولكن حين تَعقد مقارنة بين الكتابين تجد أن الأزهري نقل أغلب ما جاء في كتاب العين.

كما قسَّم معجمه إلى أبواب على عدد حروف الهجاء، فسمّى كل حرف بابا، وكلّ بناء كتابا، على نحو الآتي:- الثنائي، الثلاثي الصحيح، الثلاثي المعتل، اللفيف، الرباعي، الخماسي، وباقتفائه منهج الخليل فقد نبه إلى المستعمل والمهمل من الألفاظ، وفي ذلك ترسُم طريقة الخليل.

معجم المحيط في اللغة للصاحب بن عباد : وقد سمّى معجمه بالمحيط؛ توسعا وتمكّنا من القدرة على الإحاطة بمفردات اللغة، وكان أستاذه ابن فارس، صاحب معجمي المجمل والمقاييس، ولكنه لم يتبعه بل اتبع الخليل لأنه يرى فيه قدوة حسنة في الإحاطة والشمول، ولذا سلك منهجه ورسم معجمه وفق نظام المخارج الصوتية والتقاليب، وقد اتبع منهج الخليل الصوتي والترتيب للأبواب داخل كل حرف. وسلّم بمنهج الخليل وعبقريته في تتبع منهجه ورسم طريقة معجم العين فقال: "واعلم: أن الخليل لّما همّ بجمع كلام العرب أجال فكره فيما يبني عليه كتابه، ويدير عليه أبوابه، فنظر في الحروف كلها، وذاتها، ووجد مخرج الكلام كله من الحَلْق، فصيّر أوّلاها بالابتداء أدْخل حرف منها بالحلق وكان بذلك العين، فجعلها أول الكتاب(٢٣). وسار على آثار العين، وعلى ترتيب الخليل للحروف، وتأثر بالخليل تأثراً كبيراً، وقد بيّن منهجه الذي سار فيه على منهج الخليل بما ذكرناه سابقا، أما الترتيب الصوتي فهو أبجدية الخليل وترتيبه المخرجي وهي: ع ح ه خ غ – ق ك – ج ش ض – ص س ز – ط د ت – ظ ذ ث – ر ل ن – ف ب م – و ا ي – همزة. وقسّم معجمه إلى ستة أبواب تقسيما كميا وترتيباً صوتياً كما فعل الخليل وهي: الثنائي المضاعف، الثلاثي الصحيح، الثلاثي المعتل، اللفيف، الرباعي، الخماسي، ولم يكتف ابن عباد باتباع ترتيب الخليل حسب، بل سعى جاهدا إلى الاستناد على تعليلات الخليل وحججه في ترتيب الأصوات وصرح بذلك قائلا: "إن الهمزة والهاء وإن كان لهما التقدم في المخرج على أخواتهما من الحروف الحلقية، فإن الخليل إنما عدل عن الابتداء بهما لأن الهمزة مهتوتة مضغوطة فإذا رفّه عنها لانت(٢٤)، وبهذا يكون الصاحب بن عباد في معجمه المحيط في اللغة اتبع معجم العين للخليل نهجا ومادة.

معجم المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده: لم يكن ابن سيده مختلفا في نهجه عن علماء هذه المدرسة فد رتب الأصوات وفق ترتيب المدرسة ولم يشذ عنها، فكان بذلك خاتمة علماء هذه المدرسة في اعتماد النظام المخرجي بوصفه أساسا لترتيب المعجم، فضلاً عن نظام التقاليب، وسميت هذه المدرسة عدة أسماء مدرسة العين،

مدرسة التقاليب، ومدرسة المعجمية الصوتية وبذلك تكون المدرسة الرائدة في دراسة هذا العلم؛ لأن الخليل هو رأس هذه المدرسة وكان الأسبق في الريادة.

جاء ترتيب المحكم وفق ترتيب الخليل، وقد أخذ عنه ورجع إليه وقد صرح بذلك في مقدمته: وأما ما ضمّناه كتابنا هذا من كتب اللغة: ... الكتاب الموسوم بالعين، ما صح لدينا منه، وأخذنا بالوثيقة عنه[٢٥]، وقسّم الحروف إلى أبواب: الثنائي المضاعف، الثلاثي الصحيح، الثلاثي المضاعف المعتل، الثلاثي اللفيف، الرباعي، الخماسي، السداسي، وهو مما استدركه في حروف الهاء والحاء والجيم، وساق أمثلته من اللغة الفارسية حينا، وآخر من أسماء الأصوات، وهي ما تطرق إليه الخليل بن أحمد في معجم العين وما ذكره سيبويه في الكتاب وابن جنّي فصّله في الخصائص[٢٦] كما يعد المعجم الأخير الذي التزم طريقة الخليل، كما سار على نظام التقاليب والأبجدية الصوتية عند الخليل.

وفي حين ظهور معجم المحكم لابن سيده ظهر معجم الصحاح والمجمل وكانا على خلاف طريقة العين وهي طريقة أيسر من طريقة الخليل، إلا أن ابن سيده، رأى أن يلتزم طريقة العين ولا يعدل إلى الأبجدية العادية، إذ الثانية من السهولة بدرجة أنه لا ينبغي للضالعين في اللغة أن يؤلفوا على أساسها في نظره[٢٧]. في حين سار على نهج الخليل وأحسن تطبيقه في معجمه الكبير بعد أن رآه مطبقا على مختصر العين. وبذلك يكون محكم ابن سيده أحسن المعاجم التي التزمت منهج الخليل في العين ترتيبا للأبواب والمواد، وأوجزها تعبيرا وأحفلها بالتعليلات والتخريجات النحوية والصرفية ومن أجمعها للصيغ والألفاظ والتفسيرات[٢٨].

وقد أخذ ابن سيده في معجمه منهج الخليل بعدما أدخل الزبيدي عليه من إصلاح في مختصره، وسار عليه دون أدنى تغيير، ومن ثم نجد كتابه ينقسم إلى حروف مرتبة على ترتيب الخليل للمخارج وكل حرف ينقسم إلى أبواب -كما ذكرنا-[٢٩] وبهذا يكون قد اتبع من سبقه وذلك إعجابا منه لهذه المدرسة وللخليل، فيكون آخر معجم في مدرسة التقاليب، ولأنه جاء متأخراً عن الخليل فهو أكثر تفصيلاً من غيره، فالخليل رجح الهمزة في حروف العلة وابن سيده ذكرها وحدها،

كما نجد أن الخليل احتسب الألف اللينة حرف علة، ولكن ابن سيده لم يعدها إطلاقا وهو في هذا يتماشى بدقة مع الصرفيين ، وهذه التفرقة التي رسمها ابن سيـــده هي الأصل الذي اتبعه المتأخرون كابن منظور والفيروزآبادي(٣٠).

وتحدّث الخليل عن نظرة هذه المدرسة التي اتفق علماؤها معه عليها، وإن اختلفوا في بعض الجزئيات، فعلى الرغم من اختلاف عباراتهم واجتهادهم إلا أن فكرة العمل والاتجاه كانت واحدة، فكانت طريقة الخليل في التذوق على مبدأ الأرفع فالأرفع في الترتيب المخرجي، وهي طريقة ذوقية قد يختلف فيها علماء الصوت، وهو لم يختلف كثيراً عن الدراسات الحديثة، بل حملت ما جاء به الخليل على التطور الصوتي.

وكان معجم مختصر العين للزبيدي من مدرسة العين، لأنه اتبع منهجية العين واختصر وحذف من معجم العين ليسهل على الجمهور. قال ابن خلدون: إن الخليل كان سابق الحلبة أول من فكر من اللغويين العرب في وضع معجم سماه العين وقد وضعه مفصلا مطولا، وقد اختصره الزبيدي مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله وكثيرا من شواهد المستعمل ولخصه للحفظ أحسن تلخيص(٣١).

مدرسة التدوير الألفبائية: ضمت هذه المدرسة جمهرة اللغة لابن دريد، ومجل اللغة والمقاييس في اللغة لابن فارس.

يقوم منهج **جمهرة اللغة لابن دريد الأزديّ** على الترتيب الهجائي؛ حيث رتب معجمه وفق الألفبائية العادية التي تقوم على ثمانية وعشرين حرفا، وكانت هذه المعاجم تختار ما بين المعاجم المادة والطريقة والمنهج. ويتبين للقارئ من الخاطر الأول في مقدمة ابن دريد أنها لم تخرج عن الموضوعات التي عالجتها مقدمة كتاب العين إلا في التفاصيل والجزئيات، أما المعالم الكبرى فيتحدان فيها إلى حد كبير، ومن الباحثين من عدّ الجمهرة من مدرسة العين؛ فالمنهج يوافق الخليل جملة، ويخالفه في الاهتمام ببعض الفروع من مثل الملحقات والنوادر، وكما أنه أخذ عن الخليل نظام التقليبات وعنايته البالغة باللغات.

وكما أثر الخليل في الجمهرة فقد صنف الأبنية على تصنيف الخليل مع بعض زيادات، فهي عنده ثلاثية، ورباعية، وخماسية، فمثلا يشترك ابن دريد مع الخليل في كثير من الظواهر التي سادت كتابيهما لتواليهما، أما في المادة اللغوية فيتفقان في بعض الصيغ الأساسية، وينفرد كل منهما ببعض الصيغ، ويشتركان في بعض الشواهد وينفردان في أكثرها، فلم يستشهد ابن دريد بأحد من المولدين إلا أنه ذكر بشار بن برد مرة وعدّه غير حجة، وقد اتفق مع الخليل في إنشاد الشواهد الشعرية دون نسبة إلى قائلها[٣٢]، فهو متأثر بشكل واضح وشديد في صوغ القواعد والمادة بالخليل.

وجميع من تبع نظام العين سار في التقاليب على قاعدة وضع المفردات المأخوذة من أصل ثلاثي واحد تحت الحرف الذي هو أسبقها من حيث المخرج ما عدا ابن دريد الذي اتبع في تقلياته نظام وضع المفردات المتحدة الأصل تحت الحرف الذي هو أسبقها في الأبجدية العادية، وهذا الاختلاف فرعي يجعلنا نعدّ ابن دريد صاحب جمهرة اللغة أيضا من المؤلفين الذين اتبعوا في ترتيبهم نظام العين[٣٣].

وتأثر ابن دريد في معجم العين تأثراً واضحاً وذلك لما شملته مقدمة الجمهرة من امتدادات لما دونه الخليل في مقدمته، فقد تكلم عن صفة الحروف وأجناسها، فقد وضعها في سبعة أجناس: المصمتة والمذلقة، فالمذلقة ستة أحرف، والمصمتة اثنان وعشرون حرفا، وعلل لتسمية حروف الذلاقة بأن عملها من طرف اللسان وطرف كل شيء ذلقه وسميت الأخرى مصمتة لأنها أصمتت أن تختص بالبناء إذا كثرت حروفه لاعتياصها على اللسان، ويبين مدارج الحروف الستة وهي قريبا من البيان الذي ورد في كتاب العين[٣٤].

وذكر ابن دريد عن الخليل في الجمهرة: «قد ألف الخليل بن أحمد كتاب العين فأتعب من تصدى لغايته، وعنّى من سما إلى نهايته، فالمنصف له بالغلب معترف، والمعاند متكلف، وكل من بعده له تبع، أقر بذلك أم جحد، ولكنه رحمه الله ألف كتابه مشاكلاً لثقوب فهمه وذكاء فطنته، وحدة أذهان أهل دهره"[٣٥]. وهذا دليل يؤكد أن كل من جاء بعد الخليل تبعه وسار على نهجه وما الجمهرة إلا

للتيسير والتبسيط. وقد أشار إلى العلماء الذين رجع إليهم من نحو: الخليل، الأصمعي، "أبو حاتم"، "أبو عبيدة"..

واعترف ابن دريد بجهود من سبقه في الميدان اللغوي وشكر لهم صنيعهم، فقال: "ولم أجرِ في إنشاء هذا الكتاب إلى الإزراء بعلمائنا ولا الطعن في أسلافنا، وأنّي يكون ذلك، وإنما على مثالهم نحتذي، وبسبيلهم نقتدي، وعلى ما أصّلوا نتبنى"[٣٦]، فقد اقتبس ابن دريد ألفاظ الخليل الواردة في كتاب العين فيقول: "لولا بحة في الهاء لأشبهت العين، فلذلك لم تأتلفا في كلمة واحدة" وبعضهم يعد كتاب ابن دريد تطوراً تاريخياً لمعجم العين.

كما أنه خطا على خطى الخليل لكنها تختلف عنها في الترتيب فقط، فأخذ الترتيب الألفبائي فقد اتفق ابن دريد مع الخليل في التقاليب والأبنية[٣٧]. مع أنه يعد تطورا عن كتاب العين إلا أنه اختلف ابن دريد عنه في التنظيم، فكان الخليل أحسن تصورا للمعجم وأحسن تقسيما وترتيبا، إذ سار الخليل على نظام الأبواب القائمة على أساس واحد هو الأبنية في جميع كتابه، في حين اضطرب نظام ابن دريد ولم يستفد من نظام الخليل وترتيبه. [٣٨] على الرغم من التشابه الكامل بين أسلوب ابن دريد في شرح الكلمات وبين أسلوب الخليل، وكذلك في الشواهد والأبيات فهي في الكتابين، وهي ظاهرة عامة في كل كتب اللغة حيث يعتمد بعضها على بعض، وقد كان ابن دريد أمينا، فصرح بأنه اعتمد على معجم العين. وبذلك عد نفطويه الجمهرة سرقة للعين فهو ما جاء بالجديد، فقط غيّر معجم العين ووضع جمهرة اللغة، لكنه رد عليه، ويبقى الجمهرة مظهرا واضح المعالم في رحلة تطور المعجم العربي.

مجمل اللغة والمقاييس في اللغة لابن فارس:

يعد هذان المعجمان من الحلقات المهمة في تاريخ صناعة المعجم العربي، فقد رتب ابن فارس مدخلاتهما وفق نظام الألفبائية التدويرية ملتزما الحرف الأول، فالثاني (الترتيب العادي) وقد ألف المجمل بداية وألف آخر عمره المقاييس فكان المقاييس مختلفا عن المجمل ومتطورا وفيه عمق ودراسة.

ومن أهم مصادر ابن فارس في معجميه كتاب العين للخليل، ومعجم جمهرة اللغة لابن دريد، وما يوثق من الثقات، كما أنه يرد المادة إلى أصلها فهو يتعامل بتجرد ونزاهة وموضوعية.

لقد أرسى معجم المقاييس دعائم فكرة الأصول اللغوية وأسهم في بيان وجوه التصاهر اللغوي الذي أفاد منه الصغاني في العباب والزبيدي في تاج العروس.

وتبع ابنُ فارس الخليلَ في أن لا يستهل الباب أو الفصل إلا بالحرف المعقود له مع ما يليه، نحو: باب الباء مع الباء أو التاء، باب التاء مع الثاء لا الحروف التي قبلها، وهذا الترتيب ضروري، فقد انتبه إليه الخليل لأنه جمع التقاليب في موضع واحد. كما تأثر به في أبواب الثنائي المضاعف فأدخل فيها الرباعي المضاعف وسماه المطابق وغلب عليه تأخيره إلى ختام المادة كالخليل[٣٩]. فمثلاً يرجع في شروح المادة مواده إلى الأصل، وهذا الأصل يرجعه إلى الخليل، يقول: العين والقاف أصل واحد يدل على الشق، وإليه يرجع فروع الباب بلطف نظر، قال الخليل: أصل العصر الشق. كما أخذ ابن فارس في معجميه المجمل والمقاييس عن ابن دريد في منهجه في الاشتقاق [التقاليب]، وبهذا يكون ابن فارس نهل من المنبع الأول وهو الفراهيديّ رائد منهج التقاليب. فصرّح باعتماده على السابقين وذكر العين للخليل، والجمهرة لابن دريد، وغريب الحديث والغريب المصنف لأبي عبيد، وإصلاح المنطق لابن السكيت. فيقول وهذه الكتب الخمسة معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة، وما بعده هذه الكتب محمول عليها وراجع إليها[٤٠]. واستكشف الخليل النظريات وأيدها وأثبتها الآخرون من مثل ابن فارس، فيقول عن النحت: والأصل في ذلك ما ذكره الخليل من قولهم حيعل الرجل: "إذ قال حيّ على..." وفي الأصول قال: والخليل عندنا في هذا إمام[٤١] وهذا شاهد على تأثره بالخليل ذي العبقرية الفذة.

المدرسة الألفبائية: ويأتلف في هذه المدرسة كتاب أساس البلاغة والمصباح المنير ومحيط المحيط وقطر المحيط وحشد كبير من المعاجم الحديثة.

أساس البلاغة للزمخشري: سار فيه على ترتيب المفردات حسب الأبجدية العادية، وذكر في مقدمته أن الناشئة في عصره بحاجة إلى معجم تبسط فيه الألفاظ العربية وتوضح معانيها المجازية والحقيقية. ومع أنه سهل ويسير لكن أعرض عنه المعجميون المتأخرون كابن منظور والفيروزآبادي، وقد رجع إلى الخليل والجمهرة لابن دريد في شرح المادة مع حذف الشواهد، كما ذكر كثيرا من صيغ كتاب العين، وأثبت أنه تطرق إلى العين ونقل بطرق مباشرة وغير مباشرة.

كما أنه قام على الاختيار والاستقصاء، وقد رجع إلى ابن فارس والمعاجم التي سبقته، فيكون قد أخذ مادته من العين ملمحا إلى ذلك[٤٢]، واعتمد على غيره في المنهج الذي اتبعه على معجم الجيم للشيباني مقدما الحرف الأول ثم الثاني فالثالث.

معجم المصباح المنير للفيومي: سار على منهج أساس البلاغة، وأكثر من المصطلحات الفقهية واللغوية، وقد كتب هذا المعجم ليشرح به ألفاظ شرح الوجيز الذي كتبه الرافعي على مختصر الغزالي، كما ملأ الفيومي المصباح بالروايات المختلفة نقلا عن اللغويين وأصحاب المعاجم، ونقل وأخذ عن الجمهرة لابن دريد، والمجمل لابن فارس، وتهذيب اللغة للأزهري، والبارع للقالي، وديوان الأدب للفارابي، والصحاح للجوهري، وإصلاح المنطق لابن السكيت، وقد ظهر في معجمه بعض الروايات عن الخليل، وليس معنى هذا أنه رجع إليه بطريقة مباشرة، ومَن أخذ من الجمهرة وتهذيب اللغة والبارع فكأنه أخذ عن الخليل.

مدرسة التقفية.

ابتدع الجوهري نظاماً جديداً اتخذ فيه الترتيب الأبجدي العادي أساساً ولكنه جعل ترتيب الكلمات فيه على أساس الحرف الأصلي الأخير في الكلمة، يستقي من العين والجمهرة وغيرهما، ولكنه يزيد عليها كثيراً في حين نقل صيغه عما في التهذيب كثيراً أيضاً وجميع ما فيه موجود في التهذيب إلا بعض الشواهد التي يأتي بها من عنده[٤٣]، وتأثر الجوهري في الصحاح بكل ما تقدمه من معاجم لغوية، كالعين والجمهرة وتهذيب اللغة فيما جمعه من المادة اللغوية واشتقاقاتها والتقفية. ومال إلى الاقتباس من طريقة الخليل في النظر إلى أواخر الأصول[٤٤] وظهر في معجم الصحاح

استخدام عبارات الخليل ويدل هذا على أن الجوهري نقل عن العين بطريقة مباشرة، وممن أخذ عنهم أيضا الأزهري وابن دريد وابن فارس وقد صرح بأسمائهم.

وحين المقارنة مع بعض العبارات بكتاب العين نجد اتفاقاً كبيراً بين التعبيرين، وهذا يدل في رأينا على أنه نقل عن العين مباشرة أو بصورة غير مباشرة وذلك من خلال المعاجم التي تأثرت بالخليل، وكان يصرح الجوهري بأسماء من نقل عنهم مواد معجمه كابن دريد والأزهري وابن فارس.

ومع تأثُّر الجوهري بالخليل من حيث مواد معجمه بيْد أنه تطلع إلى ترتيب لم يسبق إليه بابتكار طريقة التقفية، وقد ذكر في مقدمة معجمه: "أما بعد فإني قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة التي شرف الله تعالى منزلتها وجعل علم الدين والدنيا منوطا بمعرفتها على ترتيب لم أسبق إليه، وتهذيب لم أغلب عليه في ثمانية وعشرين بابا، وكل باب منها ثمانية وعشرون فصلا على عدد حروف المعجم"[٤٥] وقد ذهب إلى تسجيل البنية اللغوية الصحيحة للوحدات اللغوية، والتمييز بين ما يصح ولا يصح. وسار على منهج الجذرية وهذا المنهج من ابتكار الخليل، كما نهج طريق الخليل بطريقة غير مباشرة عن طريق الرجوع إلى الأزهري وابن دريد وابن فارس في تعريف الوحدات اللغوية وفي شرح المفردات والترتيب عنده ترتيب ألفبائي، فأول الأبواب الهمزة وآخرها باب الياء.

معجم لسان العرب لابن منظور: يعد أكبر المعاجم العربية حجماً إذ تبلغ نسخته المطبوعة عشرين جزءاً، وكان منهج ابن منظور كمنهج الصحاح في ترتيبه، لكنه أكثر من ذكر أسماء الرواة، فهذه المعاجم التي تلت معجم العين قد نسخت الكثير منه.

أخذ ابن منظور من الخليل الترتيب المخرجي، وقد عالج ألقاب حروف الهجاء عند ابن كيسان والخليل، وفي مواده يرجع إلى الخليل وإلى ما ذهب إليه، كما وفاته الاطلاع على العين في كثير من الصيغ والمعاني والشواهد.

وصرح بأنه لم يتبع طريقة العين قائلاً: إنك إذا وضعت معجما على طريقة الخليل، تصبح كأنك وضعت للناس مورداً عذباً ثم منعتهم أن يرتووا منه" وهو يرجع إلى صعوبة منهج الخليل انصراف الناس عن المعاجم التي اتبعت منهجه،

وفي هذا الكلام إقرار بعظمة ما قام به الخليل، وليس كما يقول عبد المجيد الحر سببا مقنعا في رفض ابن منظور لمنهج الخليل(٤٦).

كما ويشير ابن منظور في معجمه لسان العرب إلى أنه أخذ عن خمسة كتب هي التهذيب للأزهري، والمحكم لابن سيده، والحواشي على الصحاح لابن بري، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري، والصحاح للجوهري قائلاً: "وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمتّ بها، ولا وسيلة أتمسك بسببها سوى أني جمعت فيه ما تفرّق في تلك الكتب من العلوم وبسطت القول فيه ولم أشبع باليسير، فطالب العلم منهوم، فمن وقف فيه على صواب أو زلل أو صحة أو خلل، فعهدته على المصنف الأول، وحمده وذمه على الأصل الذي عليه المعوّل، لأنني نقلت من كل أصل مضمونه، ولم أبدّل منه شيئاً فيقال: إنما إنه على الذي يبدلونه، بل أديت الأمانة في نقل الأصول بالنص وما تصرفت فيه بكلام غير ما فيه من النص، فليعتد من ينقل عن كتابي هذا أنه ينقل عن هذه الأصول الخمسة"(٤٧).

وقد قلنا من يأخذ عن التهذيب فكأنه أخذ عن العين، ومحكم ابن سيده شبيه بالعين، وهذا نقل عن العين بطريقة غير مباشرة، فيعد معجم العين للخليل بن أحمد أصل الكتب المؤلفة والمصنفة في اللغة.

القاموس المحيط للفيروزآبادي: اتبع مؤلفه منهج الصحاح، وقد ذكر اسم الخليل من الرواة، وسار على نهج سابقيه من اللغويين من مؤلفي المعاجم ولم يخرج على إجماعهم، فصرّح في مقدمة معجمه بأنه أخذ مادته مما اشتمل عليه من المحكم لابن سيده والعباب للصغاني واعتمد بشكل مكثف على الصحاح للجوهري، وقد أخذ عن القاموس المحيط المعجم الوسيط. ويقوم على أساس اعتماد الحرف الأخير من الكلمة المجردة، وقد أخذ عن جمهرة اللغة لابن دريد، وتهذيب اللغة للأزهري.

تاج العروس للزّبيدي: وهو شرح القاموس المحيط للفيروزآبادي، وهو من مدرسة الثقفية، والتزم النظام نفسه، وأصوله الأساسية هي جمهرة اللغة لابن دريد، وتهذيب الأزهري، ومقاييس ابن فارس، وأساس البلاغة للزمخشري، والأزهري وابن دريد

اتبعا منهج الخليل فقد أخذ منهم شرح المادة اللغوية، وقد تنبه إلى المواد التي فاتت أصحاب المعاجم الأولى الخليل، وابن دريد، والأزهري، والجوهري.

وبعد هذا توالت المعاجم والمدارس الصوتية والمعجمية الحديثة على أثر مقدمة الخليل، فقد أثر العين في المعاجم التالية تأثيراً عميقاً وفعالاً وهذا أمر غير مستغرب، فهو كتاب افتتح التأليف المعجمي، وشرع للغويين منهجا وسن لهم سنته حتى أضحت السمات التي اتسم بها مبادئ التزم بها كثير ممن أتوا بعده وحذوا حذوه في التأليف المعجمي باتباع أمارات المنهج أو بتطويره عبر مسيرة التأليف المعجمي. وكما تجدر الإشارة إلى أن الدراسات اللغوية حول المعاجم العربية في هذا العصر لم تغفل دور الخليل في ابتكاره هذا العلم.

الخاتمة:

بعد هذا الإطافة السريعة بين القديم والحديث في المعجمية، والتنبيه على أثر معجم العين فيها وما خلفه للمعجميين اللغويين نخلص إلى:

يمثّل كتاب العين نواة للمعاجم العربية، وظهرت تجلياته في النهضة اللغوية التي أخذت منه في مجال الدرس اللغوي، ويعبر هذا المعجم عن نهضة متكاملة الأركان مضت بخطى واثقة ورؤى تستجلي المشهد اللغوي بفضل ما اجترحه العلماء من أنظار واعية، وقد سعى الخليل في كل عمل من أعماله على وجه العموم يزيل الغموض عن اللغة ويبتكر فيها، ليفيد بذلك جمهور المتأخرين. وكان الخليل أول من شرع منهاجا للناس في الدرس الصوتي والمعجمي بعدما كانت معطيات هذين العلمين موزعة بين معارف لغوية عامة ومختلطة بفنون علمية متباينة. فكان معجم العين نقطة البدء الحقيقية في تأليف المعاجم اللغوية، وكما أنه صاحب القدح المعلّى في هذا المضمار، واللغويون كلهم له تبع.

وتبدّت في مقدمة العين نظرية متماسكة في علم الأصوات النطقي كالحديث عن جهاز النطق وأعضائه وتحديد المنظومة الصوتية، وتقسيم الأصوات إلى صوامت وصوائت، كما ضمّت مبادئ علم الأصوات الوظيفي حين عرض لائتلاف الحروف والصفات التركيبية، وغيرها من نظرات صاغها من عقلية وقّادة من غير

أن يعتمد على ما للأمم السابقة من إسهامات، إذ إن الخليل لم يدرك حركة المثاقفة بين الشعوب، وتوفي قبل عصر الترجمة الذهبي (٢٠٥هـ-٢٥٦هـ) وهنا تكن أسرار عبقريته ونبوغه.

وشكل الخليل منعطفا مهما في تاريخ النطق باللغة العربية وصار بمثابة نهاية عصر وبداية عصر جديد في التعامل مع اللغة العربية عن طريق الضوابط التي وضعها بنتاج فكره الرصين، فقام منهج تأليف العين على نظرية صوتية وهي الأخذ بالمخرج الصوتي لترتيب الحروف في المعجم ترتيباً يبدأ من الحروف التي تخرج من الحلق، ثم تقدم شيئاً فشيئاً حتى انتهى بالحروف التي تخرج من الشفة ثم بعد ذلك حروف العلة ثم الهمزة. وشكّل العين بذلك أول معجم عربي ابتدع طريقة جديدة، وسميت مدرسة بأكملها مدرسة العين تأثراً بمعجم العين واحتذاء به، ويؤكد هذا أهمية ما جاء به الخليل، فقد تلت معجم العين وخاصة مدرسة العين أو التقاليب وأصبحت تختار المواد اللغوية وتستقصي منها ما تريد وتضعها مادة بمعجمها، كما تختار الطريقة الترتيبية، فكان أيها أسهل وأيسر وأكثرها تداولا يختارها اللغوي.

ويعود الفضل في أصول علم الأصوات وإبراز مصطلحات حديثة إلى الخليل بن أحمد كالموضع والحيّز، والمذرَج، وكان عمله في علم الأصوات عبارة عن تشريح الجهاز النطقي، ومعرفته بهذا الجهاز أعانته على اكتشاف نظام التقاليب وإبداعه ، وعرفت فيما بعد بالاشتقاق وساعده على هذا براعته في الرياضيات.

إن الخليل بن أحمد له فضل ارتياد الطريق إلى وضع معاجم الألفاظ على أسس علمية دقيقة، فلم يترك لمن بعده غير البحث عن تيسير السبيل ورصفها، وكان منهم من تابع نهجه بإنشاء كتب كالبارع للقالي، وتهذيب اللغة للأزهري، والمحيط للصاحب بن عباد، والمحكم لابن سيده، ومنهم من لخصه كمختصر العين للزبيدي، ومنهم من استفاد منهم بطريقة مباشرة وغير مباشرة كمدرسة القافية، ومدرسة الألفبائية، ومدرسة التدوير، والمدارس المعاصرة الحديثة، إن لم يكن باتباع المنهج فبتمثُّل شرح المادة اللغوية، ومن ثم فلابد من الاعتراف بريادة الخليل، فقد أثبت علمه ورسخ منهجه وفكره.

إن المادة التي بيّناها تلمع إلى عِظم ما تركته مقدمة العين في العلوم اللغوية عامة والمعاجم خاصة.

وحاولت الدراسة إبراز سمات النواة الأولى للمعاجم العربية، وتوضيح دور الخليل بن أحمد، في الابتكار والإبداع في كيفية جمع مادة غزيرة، وافرة المعلومات ولها قيمتها التاريخية في حفظ ثروة أدبية وفكرية ولغوية، وهي المنبع الأساس في المعاجم العربية، وكانت الشرارة الأولى التي قدحت زناد أجيال متعاقبة من المعاجم العربية. فلا غرو أن يجمع العلماء قديما وحديثا على نبوغ الخليل ورفعة قدره وإخلاصه لدور العالم في الأمة.

الحواشي.

(١) جمال الدين القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي بالقاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية ببيروت، ط١، ١٩٨٦، ج١، ص٣٨٠. وانظر: حكمت فواز: كتاب العين، دراسة وتحليل ونقد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص١٣

(٢) عبد السميع محمد، المعاجم العربية، ودراسة تحليلية، دار الفكر العربي، ص٢٣.

(٣) ديزيرة سقال: نشأة المعاجم العربية وتطورها، دار الصداقة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص٣٩.

(٤) حكمت فواز: كتاب العين، ص٣٩.

(٥) أحمد قدور، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠١، ص٤٤.

(٦) علي القاسمي: المعجمية العربية، بين النظرية والتطبيق، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٣، ص٣٢.

(٧) أحمد قدور: اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، ص٤١-٤٢.

(٨) أحمد قدور: اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، ص٥٠.

(٩) انظر: عبد العزيز الصيغ: المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، دار الفكر المعاصر ودار الفكر، ط١، ٢٠٠٠م، ص٥١.

(١٠) انظر: علاء جبر محمد: المدارس الصوتية عند العرب، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢١.

(١١) حسين نصار: المعجم العربي، نشأته وتطوره، دار مصر للطباعة، ط٤، ١٩٨٨م، ص١٨٨.

(١٢) أبو سعيد السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تحقيق، طه الزيني ومحمد خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م، ص٣١.

(١٣) جعفر عبابنة: مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، دار الفكر، عمان، ط١، ١٩٨٤م، ص٢٨.

(١٤) حسين نصار: المعجم العربي، ص٢٣٢.

(١٥) القالي: البارع، تحقيق هاشم الطعان، ١٩٧٥م، بيروت، ص٦٤-٦٦.

(١٦) حسين نصار: المعجم العربي، ص٢٤٨.

(١٧) علاء جبر محمد: المدارس الصوتية عند العرب، ص٣٢.

(١٨) عبدالله درويش: المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم العين، مكتبة الشباب. (د.ط، د.ت)، ص٣١- ٣٣.

(١٩) عبدالله درويش: المعاجم العربية.

(٢٠) انظر الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، ١٩٦٧م.

(٢١) حسين نصار، المعجم العربي، ص٤٢٧-٤٢٨.

(٢٢) صلاح راوى: المدارس المعجمية العربية، ص٩٣. وعبد القادر عبد الجليل: المدارس المعجمية، دراسة في البنية التراكيبية، دار صفاء، ط١، ١٩٩٧م، ص١٤٩-١٥٢.

(٢٣) الصاحب بن عباد، معجم المحيط في اللغة: تحقيق محمد حسين آل ياسين، ص٦٠.

(٢٤) السابق، ص٦٤.

(٢٥) ابن سيده، المحكم، ص١٥.

(٢٦) عبدالقادر عبد الجليل: المدارس المعجميّة، ص١٨٢.

(٢٧) عبدالله درويش: المعاجم العربية، ص٤٢.

(٢٨) انظر حكمت فواز: كتاب العين، ص٩٦، وكتاب عبدالقادر بن الجليل: المدارس المعجميّة.

(٢٩) حسين نصار: المعجم العربي، ص٣٤٤.

(٣٠) عبدالله درويش: المعاجم العربية، ص٤٣.

(٣١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٩٨٤م، ص٥٤٨-٥٤٩.

(٣٢) انظر حسين نصار: المعجم العربي، ص٣٣٤.

(٣٣) عبدالله درويش: المعاجم العربية، ص١٨.

(٣٤) عبدالسميع محمد أحمد: المعاجم العربية، دراسة تحليلية، دار الفكر العربي، ص٤٣

(٣٥) الجمهرة لابن دريد، ج١، ص٣.

(٣٦) الجمهرة، ج١، ص٣.

(٣٧) ديزيرة سقال: نشأة المعاجم العربية، ص٤٤- ٤٩.

(٣٨) حكمت فواز: كتاب العين، ص٧٧.

(٣٩) حسين نصار: المعجم العربي، ص٣٤٣.

(٤٠) مقدمة معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الحلبي، القاهرة، ص٤- ٥.

(٤١) ابن فارس، المقاييس، ج١، ص٤٤٠.

(٤٢) الزمخشري، أساس البلاغة، ص٢١٨.

(٤٣) انظر حسين نصار: المعجم العربي، ج٢، ص٢٤٩.

(٤٤) عبد المجيد الحر: المعجمات والمجامع العربية، نشأتها، أنواعها، نهجها، تطورها، دار الفكر العربي، ط١، ٩٤، ص٦١.

(٤٥) انظر مقدمة الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار.

(٤٦) انظر عبد المجيد الحر، ص٦٩.

(٤٧) ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٨.

المصادر.

- أحمد بن فارس: مجمل اللغة، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة.
- ... : معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة.
- الأزهري: معجم تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون وآخرون، ٦٤- ٦٧.
- الجوهري: معجم الصحاح، مكتبة مشكاة الإسلامية (د. ت).
- الخليل بن أحمد الفراهيدي: معجم العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مطابع الرسالة، الكويت، ١٩٨٠م.
- ابن دريد: معجم جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.
- الزبيدي: معجم تاج العروس في جواهر القاموس، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ط١، ١٩٦٥م.
- ابن سيده: معجم المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، القاهرة ١٩٥٨م.
- الصاحب بن عباد: المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسين آل ياسين، عالم الكتب، القاهرة، د.ت.

- الفيومي: معجم المصباح المنير، تحقيق، عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، ط٢.
- القالي: معجم البارع في اللغة، تحقيق هاشم الطعان، مكتبة النهضة، بغداد، دار الحضارة العربية، بيروت، ١٩٧٥م.
- ابن منظور: لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، ١٩٨٦م.

المراجع.

- أحمد قدور: اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، دار الفكر المعاصر، دار الفكر دمشق، ط١، ٢٠٠٥م.
- جعفر عبابنة: مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، دار الفكر، عمان، ط١، ١٩٨٤م.
- حسين نصار: المعجم العربي ، دار مصر للطباعة، ط٤، ١٩٨٨م.
- حكمت فواز: كتاب العين دراسة وتحليل ونقد دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٩٨٥م.
-ديزيرة سقال: نشأة المعاجم العربية وتطورها، دار الصداقة العربية، ط١، بيروت، ١٩٩٥م.
- أبو سعيد السيرافي: أخبار النحويين البصريين، تحقيق طه الزيني ومحمد خفاجي، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م.
- صلاح راوي: المدارس المعجمية العربية نشأتها وتطورها ومناهجها، دار الثقافة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٩٠م.
- عبد الله درويش: المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم العين، مكتبة الشباب (د.ت، د.ط).
- عبد السميع محمد أحمد: المعاجم العربية، دراسة تحليلية، دار الفكر العربي، (د.ت، د.ط).

- عبد العزيز الصيغ: المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، ط١، ٢٠٠١م.
- عبد القادر عبد الجليل: المدارس المعجمية دراسة البُنية التراكبية دار صفاء، ط١، ١٩٩٧م.
- عبد المجيد الحر: المعجمات والمجامع العربية نشأتها، أنواعها، نهجها وتطورها، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٩٤م.
- علاء جبر محمد: المدارس الصوتية عند العرب، النشأة والتطور، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٦م.
- علي القاسمي: المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق مكتبة لبنان ، ناشرون، ط١، ٢٠٠٣م.
- القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ودار الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.
- نعيم سلمان البدري: كتاب العين في ضوء النقد اللغوي، دار أسامة للنشر، عمّان، ط١، ١٩٩٩م.

أثر كتاب العين للخليل بن أحمد في كتاب الإبانة للعوتبي

أ. د. صلاح محمد جرار
الجامعة الأردنية ـ الأردن

أثر كتاب العين للخليل بن أحمد في كتاب الإبانة للعوتبي

أ.د. صلاح جرار

تقوم هذه الدراسة على محاولة الكشف عن تأثير معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيديّ في كتاب الإبانة للعوتبي، وبيان صور استفادة العوتبي من كتاب العين. وكتاب "الإبانة في اللغة العربية" مصنّف لغوي موسوعي ضخم مرتّب على حروف المعجم يضمّ في تضاعيفه ثروة لغوية وصرفية وصوتية ثمينة، ويقوم على التتبع والاستقصاء والتوسّع والاستطراد وإيراد مختلف الأقوال والآراء في المسائل اللغوية التي يتناولها ومعاني المفردات التي يسوقها، ولذلك نجد مؤلف العوتبي يعتمد على مختلف مصادر اللغة المصنّفة قبله.

أما مؤلّفه فهو أبو المنذر سلَمة بن مُسلّم العوتبي الصُحاري العُماني الوهبي الإباضي المحبوبيّ، المولود في محلّة (عَوتَب) من صحار في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والمتوفى في النصف الأوّل من القرن الخامس الهجري[١].

وللعوتبي عدد جمّ من المؤلفات في الفقه واللغة والأنساب والأدب والحكم والأمثال، وقد حقق بعضها مثل كتاب (الضياء) في الفقه، وصدر في أربعة وعشرين جزءاً[٢].

ولئن كان العوتبي في هذا المعجم يتفرّد بتناول كثير من المسائل والقضايا اللغوية ويعرض كثيراً من الآراء الخاصّة في هذه المسائل، إلاّ أنّه كان شديد الحرص على تتبع ما انتهى إليه من جهود السابقين في اللغة والنحو والصرف والتفسير والقراءات والأمثال وغيرها، وكان بارعاً في التأليف بينها والاستفادة منها، من دون أن يظهر تحيزاً واضحاً إلى البصريين أو الكوفيين.

وقد كان اعتماده واضحاً على معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت ١٧٥هـ)، وكتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ)، وكتاب اللغات في القرآن لعبد الله بن عباس، وكتب الفرّاء أبي زكريا يحيى بن زياد

(ت٢٠٧هـ): معاني القرآن، والمذكر والمؤنث، والمنقوص والممدود، والأيام والليالي والشهور.

وأكثر العوتبي في كتاب الإبانة من الاعتماد على كتاب "الزاهر في معاني كلمات الناس" لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ)، حتى إنه نقل معظم ما ورد في كتاب الزاهر، واتبع طريقته في وضع عنوانات للمادة اللغوية، يبدأ كل منها بعبارة: وقولهم... بحيث يشتمل العنوان على العبارة المستخدمة بين الناس والكلمة التي يريد معالجة معانيها.

وذلك بالإضافة إلى كتب التفسير وغريب القرآن وغريب الحديث والقراءات والأمثال وكتب النحو ودواوين الشعر العربي.

غير أن المتأمل لكتاب الإبانة يجد احتفاءً خاصاً بالخليل بن أحمد ومعجمه (العين)، ويعود ذلك إلى أسباب عدّة منها:

أولاً: أن الخليل هو أول من وضع معجماً شاملاً للعربيّة أحصى فيه مفردات اللغة كلّها المستعمل منها والمهمل، باتباع منهج إحصائي دقيق ومتقدّم، ولم يستطع أي لغويّ من اللغويين الذين جاءوا بعده إلاّ الاستفادة منه والأخذ عنه.

ثانياً: أن الخليل بن أحمد والعوتبي عُمانيّان، وقد أظهر العوتبي في مقدّمة كتابه احتفاءً خاصّاً بمن عرف من أهل عُمان من الفقهاء والخطباء والبلغاء والشعراء وعرّف بعدد منهم، حيث يقول: "ومن أهل عُمان الفصحاء والخطباء والبلغاء والشعراء الذين يُعرفون ولا يُجهلون كثيرٌ غيرُ قليل، ولهم أخبار شاهدة وأحاديث سائرة"(٣).

ثم يعرّف بعدد منهم مثل صُحار العبدي وصعصعة بن صَوْحان ومُرّة بن التليد وعرفجة بن هرثمة البارقي وبشر بن المغيرة بن أبي صفرة وأبي بكر بن دريد والخليل بن أحمد(٤)، ويشير إلى أسواق العرب في عُمان في الجاهلية(٥).

ثالثاً: أنّ مؤلف الإبانة إباضيّ المذهب، وله عناية خاصّة بأهل مذهبه، وألّف كتاب الضياء في الفقه الإباضي، وكان من الطبيعي أن يولي في كتاب الإبانة

عناية خاصّة بالخليل بن أحمد الذي وصفه الأصمعي قائلاً: "كادت الإباضيّة تغلبُ على الخليل"(٦).

إنّ هذه العوامل تفسّر لنا الصورة التي قدّمها العوتبي للخليل بن أحمد وهو يعرّف به قائلاً: "ومن أهل عُمان: الخليل بن أحمد الأزدي، وكان خرج إلى البصرة وأقام بها، فنُسب إليها، وهو صاحب كتاب (العين) الذي هو إمام الكتب في اللغة، وما سبقه إلى تأليف مثله أحد، وإليه يتحاكم أهل العلم والأدب فيما يختلفون فيه من اللغة، فيرضَوْن به ويسلّمون له. وهو صاحب النحو وإليه يُنْسَبُ، وهو أوّل مَنْ بوّبه وأوضحه ورتّبه وشرحه، وهو صاحب العروض والنقط والشكل، والناسُ تَبَعٌ له، وله فضيلة السبْقِ إليه والتقدّم فيه"(٧).

ويبيّن العوتبي في موضع آخر دور الخليل في النحو واللغة والعروض قائلاً « وأبو الأسودِ الدؤلي هو أوّلُ من وَضَع نقطَ المصاحف، ثمّ فتح بابَ الشكْلِ الخليلُ ابنُ أحمد، والخليلُ الذي استنبط من علم النحو ودقائقه ما لم يسبقهُ سابق، ولم يلحقه لاحق، ووضع علم العروض.

وعن أبي عثمان المازني قال: سمع أبو الأسود رجلاً يقرأ: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[سورة التوبة: الآية ٣] بكسر اللام، فقال أوَ قد بلغ الناسُ إلى ما أرى؟ ابغوني كاتباً ذهناً. فجاؤوه برجل، فدفع إليه مصحفاً، ثم قال له: قلّمكَ بيدك، واسمعْ كيفَ أقرأ، فإذا رأيتني ضممتُ فاي فألْقِ قدّام الحرف نقطةً، وإذا فتحتُ فايَ فألقِ على الحرْفِ نقطةً، وإذا كَسرتُ فايَ فألقِ تحت الحرفِ نقطةً، فشكل المصحفَ كلّه على ذلك، وهي سنّةٌ باقيةٌ. ثم وَضَعَ الخليلُ صُوَرَ الشكل، فجعلها مفاتح مستغلَق الكلام، ومترجم معاني متشابهه، وهي تسعةُ أوجه: ضمٌّ وفتحٌ وتسكين وهمزٌ وتشديد ونصْبٌ منوّن ورفعٌ منوّن وجرٌّ منوّن...

وأخذ ذلك البصريّون عن الخليل، فهو الإمامُ فيه، وله فضيلة السبْقِ عليهم"(٨).

إن حُكم العوتبي على كتاب العين بأنه: "إليه يتحاكم أهل العلم والأدب فيما يختلفون فيه من اللغة، فيرضون به ويسلّمون له" تظهر آثاره جليّة في كتاب الإبانة، حيث قام منهج الإبانة على عرض الآراء المختلفة لعلماء اللغة في كلّ

مسألة، ويبدأها أو يختمها برأي الخليل في كثير من الأحيان مسلّماً به، وكأنه هو القول الفصل في كلّ خلاف لغوي.

وقد بلغ من احتفاء العوتبي بالخليل بن أحمد أن اتخذ من شعره في أكثر من موضع في كتابه مادة لغوية يحتجّ بها، فمن ذلك أنه يستشهد بشعر للخليل على معنى سخيت بنفسي عن الشيء أي تركته. قال الخليل بن أحمد:

أبلغ سليمان أني عنه في سعةٍ وفي غنىً غير أني لستُ ذا مالِ
سخَى بنفسيَ أنّي لا أرى رجلاً يموتُ هُزْلاً ولا يبقى على حال(٩)

وورد البيتان في العين (مادة: سخو) في السياق ذاته، وفيه:... لا أرى أحداً... كما أورد قول الخليل بن أحمد في الحثّ على تعلّم اللغة:

أخذ النبيّ عليه رحمـــةَ ربـــه من كلّ ما لغةٍ أصحُّ وأعرب(١٠)

ومن ذلك استشهاده بشعر الخليل في معنى كلمة "جاهل" حيث يقول: قال الخليل بن أحمد:

لو كنْتَ تعلمُ ما أقول عذرتَني أو كنتُ أجهلُ ما تقولُ عذلتكا
لكنْ جهلْتَ مقالتي فعذلتَني وعلمتُ أنّك جاهلٌ فعذرتُكا(١١)

وقد قمت برصد عدد المرات التي ورد فيها ذكر أعلام اللغة في كتاب الإبانة، فكان عدد المرات التي ذكر فيها الخليل بن أحمد مائة وعشرين مرّة، وهو ثاني أكبر عدد بعد الفرّاء الذي ورد مائة وتسعاً وثمانين مرّة، يليهما أبو عبيدة معمر بن المثنى الذي ورد مائة وست عشرة مرّة.

إنّ عدد المرّات التي ذكر فيها الخليل بن أحمد في كتاب الإبانة يعدّ مؤشراً مهمّاً على مدى اعتماد العوتبي على كتاب العين، إلاّ أنه ليس دليلاً كافياً على عدد المواضع التي نقل فيها العوتبي عن الخليل، إذ إنّ هناك مواضع كثيرة جداً نقل فيها عن العين دون أن يشير إلى مصدره.

وربما يكون ذلك عائداً إلى أنّ العوتبي كان ينسب إلى الخليل ما ينفرد به، ولا ينسب إليه ما هو مشترك بين اللغويين وإن كان ورد في كتاب العين.

* وفيما يأتي بعض صور احتفاء العوتبي بكتاب العين:

أ. اعتماده ترتيب كتاب العين.

ففي حديثه عن باب الحروف ، أورد العوتبي قول الخليل بن أحمد في تلك الحروف، وأتبع ذلك بالقول: "وقد ذكرتُها على ترتيب تأليفه، وسميتُ كلّ حرف منها باسمه تحته، ليكون أسهل لطلبه"(١٢).

وفي حديثه عن كل حرف من هذه الحروف، اعتمد العوتبي كثيرا على ما ذكره الخليل في كتاب العين.

ب. الدفاع عن آراء الخليل وتعزيزها بالأدلة والشواهد.

ومثال ذلك حديثه عن كلمة "الفدّادون" حيث يقول: "وقال الخليل: الفدّادون هم أصحاب الإبل. وقال في الحديث: هَلَكَ الفدّادون إلاّ مَنْ أعطى في نجدتها ورسلها" يقول: "إلاّ مَنْ أخرج زكاتها في شدتها ورخائها. فالفدّادون هنا هم أصحاب الإبل"(١٣).

ولئن كان معظم هذا الكلام قد ورد في كتاب العين إلا أنّ العوتبي ساقه بطريقة يبغي منها تأكيد ما قاله الخليل(١٤).

ومن أمثلة دفاعه عن رأي الخليل في معنى كلمة "وَيْ" فقد عرض العوتبي آراء اللغويين في ذلك وبدأ بقول الخليل حيث يقول: "وَيْ كلمةٌ تكونُ تعجّباً ويكنى بها عن الوَيْل، تقول وَيْكَ إنّك لا تسمعُ موعظتي. قال عنترة:

ولقد شفى نفسي وأبْرأ سُقمها قيلُ الفوارس، وَيْكَ عَنْتَرُ أقْدِم

هذا قول الخليل" ثم يورد العوتبي أقوال الفرّاء والقُتَبيّ والكسائي، إلى أن يصل إلى قول بعضهم: وَيْ صلةٌ في الكلام فيعلّق "وهذا شاهدٌ لقول الخليل فيها"(١٥).

ج. اعتماد رأي الخليل قولا فصلا في بعض المسائل التي يختلف فيها اللغويون.

من ذلك حديث العوتبي عن كلمة (أيْش) حيث يقول: "كلمةٌ قد أُميتَتْ إلاّ أنّ الخليل ذكر أنّ العربَ تقول: ائْت به منْ أيْش وأيش، ولم يستعملوا أيْش إلاّ في هذه فطّ، ومعناه كمعنى من حيثُ هو في حال الكينونة والجدة والوَخْذة"(١٦).

ومن ذلك أيضاً ما ورد في الإبانة في سياق الحديث عن كلمة مَنْشِم، "ومُختَلَفٌ في مَنشِم، قال الخليل: هي امرأةٌ من حِمْيَر أو من هَمْدان، عطّارة، وكانوا إذا تطيّبوا بطيبها عند الحرب اشتدّت بينهم، فصارت مثلاً في الشر"(١٧).

د- الاكتفاء بإيراد أقوال الخليل دون غيره من سائر اللغويين.

ومثال ذلك ما بدأ به الباب الذي أطلق عليه اسم "باب في الحروف" حيث يقول: "قال الخليل: حروف العربيّة تسعةٌ وعشرون حرفاً، منها خمسةٌ وعشرون حرفاً صحاحاً لها أحواز ومخارج، وأربعة حروف جُوف وهي الواو والياء والألف اللّيّنة والهمزة، وسميّت جُوفاً لأنها تَخرج من الجوْف، فلا تقع في مَدْرَجةٍ من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلْق، ولا من مدارج اللهاة"(١٨).

هـ- البدء بأقوال الخليل ثم إتباعها بأقوال غيره من اللغويين.

ففي الفصل الذي يتناول فيه العوتبي معنى كلمة منطق، أورد من أقوال علماء اللغة أوّل ما أورد كلام الخليل "قال الخليل: وكلامُ كلّ شيءٍ منطقه"(١٩)، ثم أورد بعده كلام أبي بكر ابن الأنباري وخالد بن كلثوم وابن الأعرابي، لكنه يعود في ذلك إلى الأخذ عن كتاب العين دون أن يذكر الخليل.

ومثال ذلك أيضاً حديث العوتبي عن التصغير(٢٠)، حيث بدأ بكلام الخليل ثم أتبعه بكلام غيره، حيث بدأ قائلاً: "التصغير عند العرب على أنحاء أربعة في قول الخليل: تقريبٌ وتقليلٌ وتصغيرٌ وتحقير. وقال غيره: على ضربين: تقليل وتعظيم...".

و- الاختتام بأقوال الخليل بعد إيراد أقوال غيره من علماء اللغة.

مثال ذلك حديث العوتبي عن معنى "فلانٌ خجلٌ"، فقد بدأ بالحديث عن أصل الخجل وساق شواهد من الحديث النبوي الشريف والشعر، ثم أورد ما قاله أبو عبيدة وابن الأعرابي، وختم برأي الخليل "وقال الخليل: الخَجَلُ أن يفعل الإنسانُ فعلاً فيستحي منه فيبقى متشوّراً"(٢١).

ز- إيراد أقوال الخليل وإتباعها بعبارة: هذا قول الخليل أو عبارة:

وبه يقول الخليل... أو ما أشبه ذلك(٢٢).

ح. التعليق على قول الخليل.

ومن ذلك إيراده لقول الخليل في معنى كلمة (العُهْعُخ) وهي شجرة يُستداوى بورقها حيث يقول العوتبي "قال الخليل: هذا موافقٌ لقياس العربيّة وللتأليف، وإن كان قد ذكر في أول كتابه أن العين والخاء: عخ، خع مهملان"(٢٣).

ط. إيراد أقوال الخليل وأقوال معارضيه دون التعليق بشيء.

وقد مثّل ذلك السمة العامة في الكتاب إلاّ في مواضع قليلة لم يستطع أن يخفي فيها انحيازه إلى رأي الخليل.

وقد نوّع العوتبي في صور النقل من كتاب العين، فاتخذ النقل عدة صور، منها:

أ- دقة النقل.

وهي السمة الغالبة على ما نقله العوتبي عن الخليل.

ب- التصرّف أحياناً بما ينقله عن كتاب العين.

فمن ذلك ما ورد في الإبانة: "قال الخليل: والكلمة المبتدعة التي تكون غير مشوبة بشيء من هذه الحروف مثل الخَضَعْتَخ والكَشَعْضَج وأشباه ذلك، فإذا جاءت كلمة خماسية ليس فيها حرفٌ أو حرفان من الحروف الذُلْق والشفوية وهي: ر ل ن ذَلَقيّة، ف ب م شفوية، ستة أحرف، فاعلم أنها ليست بعربيّة، وهي مثل: العُضائج، لأنه ليس فيه من الستّة الأحرف شيء"(٢٤).

وقد ورد هذا النصّ في كتاب العين ولكن بعبارات مختلفة(٢٥).

ج- النقل من كتاب العين دون الإشارة إليه، ويزيد عدد هذه الحالات.

عن عدد الحالات التي كان ذكر فيها مصدره.

ومثال ذلك قوله: "وكلامُ العرب مبنيٌّ على أربعة أصناف: على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي..." في نحو صفحتين(٢٦)، وقد ورد الكلام بنصّه مع اختلاف طفيف في معجم العين(٢٧)، إلا أن العوتبي لم ينسبه للخليل ولم يذكر مصدره.

د-نسبة أقوال للخليل وهي غير موجودة في العين.

ومن أمثلة ذلك "وقال الخليل: ضيزى: عوجاء، وأضوز: أعوج"(٢٨).

ولم يرد هذا القول في كتاب العين، بل جاء في العين (ج٧، ص٥٣): "وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[سورة النجم: الآية٢٢]، أي ناقصة".

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ورد في الإبانة "قال الخليل: الرِفْد: القَدَحُ الصغير القصير الجوانب"(٢٩)، إذ لم يرد هذا النصّ في كتاب العين مع أنّ الخليل أطال الحديث في مادة (رفد)(٣٠).

ومن ذلك أيضاً ما ورد في الإبانة "وقال الخليل: والزَّيْفُ من وصف الدراهم، يقالُ: درهمٌ زائفٌ، وقد زافت عليهم دراهمهم، وهي تَزِيفُ عليهم، وهي زيوفٌ نعتٌ لها"(٣١)، ولم يرد في العين سوى قول الخليل "يقال: زافت عليهم دراهم كثيرة، وهي تزيف عليه زيفاً"(٣٢).

ومن ذلك أيضاً ما ورد منسوباً للخليل في معنى كلمة "البَهَق" "وقال الخليل: البَهَقُ بياضٌ دونَ البَرَص يعلو البَشَرة. وقال: البقاقُ أسقاطُ متاعِ البيت..." (٣٣)، وهذا القول لم يرد في العين.

هـ- نقل الشواهد الشعرية وأشطار الأرجاز الواردة في معجم العين.

لقد نقل العوتبي مئات الشواهد الشعرية وأشطار الأرجاز ممّا ورد في معجم العين، إلاّ أنّه لم يذكر أنه نقلها من كتاب العين إلاّ عندما كان ينسب الأقوال إلى الخليل، وهذا ما يفسّر ورود بعض الشواهد غير منسوبة لشاعر في الإبانة والعين على السواء، من ذلك، قول الشاعر:

وما ذاتُ طوْقٍ فوقَ خُـوطِ أراكـةٍ إذا قرقرت هاج الهـوى قرقريرهـا(٣٤)

وقول الشاعر:

إذا غرّد المكّاءُ في غيـر روضـه فويـلٌ لأهـل الـشـاء والحُمُـرات(٣٥)

وهنالك أبياتٌ وردت منسوبة في الإبانة وغير منسوبة في معجم العين، وهذه النسبة مما أضافه العوتبي إلى جهود الخليل، ومن ذلك قول امرئ القيس يصف عدو فرسه وإظهاره الجرذان من جحورهن بشدّته:

خفـاهنّ من أنفـاقهنّ كأنّما خفاهُنَّ ودْقٌ من سحابٍ مُجَلَّبِ(٣٦)

وفي أحيانٍ أخرى ترد الشواهد منسوبة لقائلها في الإبانة والعين، مثل قول الأعشى:

وإدلاج ليـــلٍ على غِـرّةٍ وهـــاجرةٍ حَرُّها يَحْتَدِم(٣٧)

وفي أحيان أخرى يكون البيت منسوباً في العين وغير منسوب في الإبانة، مثل قول امرئ القيس:

أعددْتُ للحربِ صارماً ذكراً مُجَرَّبَ الوَقْعِ غيرَ ذي عَتَبِ(٣٨)

و- إيراد روايات وأخبار رواها الخليل

- من ذلك قوله: وعن الخليل قال: سمعتُ أيّوب السختياني لَحَنَ، فقال: أستغفرُ الله(٣٩).
- وقوله: قال الخليلُ بن أحمد: دخلتُ على سليمان بن عليّ (عمّ السفّاح) فرأيتُه يلحنُ اللحنةَ بعْدَ اللحنةِ، فقلت: أيّها السيّد، أبوك عليٌّ السجّاد، وعمّك عبد الله الحبْر، والعبّاس بن عبد المطّلب جدّك، وما ولدَك إلاّ خطيبٌ أو فصيح، وأرى في كلامك سقَطاً. قال: أقليلاً أم كثيراً ؟ فقلت: بك بقَلٌ. قال: إنّك لا تسمعه منّي أبداً بعدها. قال: فما أذنَ لأحدٍ سنة. ثم دخلت عليه، فرأيته أفصح الأولين والآخرين. ثم غبرتُ عنه يومين أو ثلاثة، فأتيتُه بأبيات عملتها فأنشدته:

يكونُ السَرِيُّ مثلَ الدنيّ لا ولا ذو الذكاءِ مِثْلَ الغبيّ

... إلخ (تسعة أبيات)(٤٠).

- ومن ذلك ما ساقه من شعر الخليل أيضاً حيث يقول: "وضع عيسى بن عمر في النحو كتابين سمّى أحدهما (الجامع) والآخر (المكمّل)، فقال الخليل بن أحمد:

بَطَلَ النحوُ جميعاً كلُّه غيرَ ما ألّف عيسى بن عُمر
ذاك إكمالٌ وهذا جامعٌ فهما للناس شمسٌ وقمر"(٤١)

خاتمة:

وبإزاء هذا الاحتفاء الكبير للعوتبي بالخليل بن أحمد وكتابه (العين)، من خلال الاعتماد على ترتيب معجم العين وكثرة النقل منه والتنويع في التعامل مع نصوص الخليل، فإنّ كتاب الإبانة للعوتبي يعدّ مصدراً مهمّاً من مصادر دراسة كتاب العين واستدراك أي نقص اعترى نسخه التي وصلتنا؛ ولا سيّما أنّ كتاب الإبانة يعدّ من أكثر معاجم اللغة اعتماداً على العين وقرباً من زمانه ومكانه.

كما يصلح كتاب الإبانة أن يكون مصدراً أساسياً من مراجع دراسة الخليل ابن أحمد نفسه لما يشتمل عليه من أخبار وأشعار وآراء للخليل بن أحمد.

ويقدّم كتاب الإبانة للعوتبي شاهداً جديداً على مدى أهميّة كتاب العين في الجهود اللغوية والنحوية العربية اللاحقة ومدى تأثيره في ما ألف بعده من معاجم اللغة العربية.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أنّ العوتبي لم يكتف بنقل آراء الخليل في معاني المفردات فقط، بل اعتمد على آرائه في كثير من المسائل النحوية والصرفية والصوتية ومسائل في القراءات والتفسير.

الحواشي.

---

(١) إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، تأليف: الشيخ سيف بن حمود بن حامد البطاشي، عُمان، ج١، ص٢٧٣.

(٢) سلطنة عُمان، ١٩٩١م.

(٣) الإبانة، ج١، ص٣١.

(٤) نفسه، ج١، ص٣٥-٣٧.

(٥) نفسه، ج١، ص٣٢.

(٦) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ص٤٨.

(٧) الإبانة، ج١، ص٣٦-٣٧.

(٨) الإبانة، ج١، ص٢٢-٢٣.

(٩) الإبانة، ج٣، ص٢١٧.

(١٠) الإبانة، ج١، ص١٣.

(١١) الإبانة، ج٢، ص٣٧٩.

(١٢) الإبانة، ج١، ص٨٣.

(١٣) الإبانة، ج١، ص٣٦٠.

(١٤) انظر: العين، ج٨، ص١٢.

(١٥) الإبانة، ج٤، ص٤٨١-٤٨٢.

(١٦) الإبانة، ج٢، ص١٧٠.

(١٧) الإبانة، ج٢، ص٣٠٣.

(١٨) الإبانة، ج١، ص٨٣. والنصّ موجود مع اختلاف طفيف في كتاب العين، ج١، ص٥٧.
والنظر أمثلة أخرى على ذلك في: الإبانة، ج٢، ص٢٧٠-٢٧١، ج٢، ص٢٧٥. ج٢، ص٣٣٠. ج٣، ص٧، ج٤، ص٥٦٠.

(١٩) الإبانة، ج١، ص٢٤، معجم العين: مادة: نطق.

(٢٠) الإبانة، ج١، ص٣٣١.

(٢١) الإبانة، ج٣، ص٣٦-٣٧، وانظر أمثلة أخرى في: الإبانة، ج٢، ص١٠٧، ج٢، ص١٧١، ج٢، ص٢٧٢، ج٣، ص٦٩٦.

(٢٢) انظر: الإبانة، ج٢، ص١٠٤، ج٢ ص٢٤٤، ج٣، ص٩٦.

(٢٣) الإبانة، ج١، ص١١٠، وقابل بالعين، ج١، ص٦١، ج٢، ص٢٧٤.

(٢٤) الإبانة، ج١، ص٥٨-٥٩.

(٢٥) كتاب العين، ج١، ص٥٢.

(٢٦) الإبانة، ج١، ص٥٧-٥٨.

(٢٧) ج١، ص٤٨-٤٩.

(٢٨) الإبانة، ج٣، ص٤١٨.

(٢٩) الإبانة، ج٣، ص١٤٧.

(٣٠) العين، ج٨، ص٢٤-٢٦.

(٣١) الإبانة، ج٣، ص٢٠٣-٢٠٤.

(٣٢) العين، ج٧، ص٣٩٠.

(٣٣) الإبانة، ج٢، ص٢٤٤.

(٣٤) الإبانة، ج١، ص٩٧، العين، ج١، ص٢١٤.

(٣٥) المصدران السابقان.

(٣٦) الإبانة، ج١، ص٢٢٧. وقابل بالعين، ج٤، ص٣١٤.

(٣٧) الإبانة، ج١، ص٢٣٣. العين، ج٣، ص١٨٨.

(٣٨) الإبانة، ج١، ص٢٦٧. العين، ج٢، ص٧٥.

(٣٩) الإبانة، ج١، ص١٤.

(٤٠) الإبانة، ج١، ص١٥-١٦.

(٤١) الإبانة، ج١، ص٢٢.

مصادر الدراسة.

١- الإبانة في اللغة العربية (٤ج)، العوتبي، سلمة بن مسلّم العوتبي الصحاري، تحقيق: الدكتور عبد الكريم خليفة والدكتور نصرت عبد الرحمن والدكتور صلاح جرار والدكتور محمد حسن عواد والدكتور جاسر أبو صفية، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٢- إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، البطاشي، سيف بن حمود بن حامد، عُمان.

٣- الزاهر في معاني كلمات الناس، ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم، تحقيق: حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٤- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٧٣م.

٥- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيديّ، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٦- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٤م.

٧- معاني القرآن، الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.

٨- الدراسات اللغوية في عمان في القرنين الرابع والخامس الهجريين: العوتبي نموذجاً، د.حسن الملخ، الملتقى العلمي الأول حول تراث سلطنة عمان، جامعة آل البيت، ٢٠٠٢، ص٣٩٧-٤١٨.

أثر الخليل في مجمل ابن فارس

دة. حنان محمد حمودة
جامعة الزرقاء الأهلية ـ الأردن

أثر الخليل في مجمل ابن فارس

د. حنان محمد حمودة

مقدمة:

لا أحد ينكر جهود العرب في تصنيف المعاجم قديماً وحديثاً، وقد كانت – وما زالت– جهود القدماء مصدر فخر واعتزاز، ومعاجمهم المعين الذي لا ينضب، و"المعجم العربي منذ نشأته كان يهدف إلى تسجيل المادة اللغوية بطريقة منظمة"(١)، وكانت معاجم الألفاظ "ترمي إلى ترتيب الكلمات ترتيباً خاصاً يسهل على من يريد الوقوف على معنى أي كلمة الرجوع إليها في مواطنها"(٢)، وجاءت المعاجم بجهود فردية استحق أصحابها الثناء، والوقوف عند عملهم المعجمي الفريد؛ إذ إن العمل المعجمي الشامل المثاليّ يتطلب تضافر جهود العلماء في شتى الميادين؛ في الصرف، والنحو، والصوتيات، والدلالة، وفي كل العلوم من طبّ، وفيزياء، وكيمياء، وجغرافيا.

وهذه الورقة ما هي إلاّ وقفة إجلال وإكبار لجهود الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت ١٧٥هـ)(٣) المعجمية لبيان أثرها في مجمل اللغة لأحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)(٤).

إن معجم العين من أعظم المعاجم التي وصلتنا ليس لأنه الأول السابق إلى التأليف المعجمي وإنما لاقترانه بالخليل وعبقريته الفذة(٥)، وتتالت المعاجم من بعده مطورة ومنوعة ومختصرة، وقد أشار إقبال الشرقاوي في كتابه معاجم المعاجم إلى أن المعاجم التراثية قد بلغت ألفاً وأربعمائة كتاب صنفها في تسع مجموعات متنوعة(٦)، ومعظم هذه المعاجم لم تستخدم لفظ (معجم) بل سميت بأسماء مختلفة منها: العين، وجمهرة اللغة، وتهذيب اللغة، والمجمل في اللغة، ومقاييس اللغة، ولسان العرب. وقد انطلقت من "رؤية جامعة سلطها الفكر الخليلي على المعرفة عموماً والعربية خصوصاً... تعتمد على الوصف والمشاهدة والاستنتاج"(٧).

موقف ابن فارس من العين ونسبته إلى الخليل:

مما تجدر الإشارة إليه أن ابن فارس اتخذ من العين مصدراً من مصـــادره،

وأتكأ عليه في معجمه (المقاييس) مع غريب الحديث، ومصنف الغريب، والمنطق، والجمهرة، وكان قد استمد المادة اللغوية - في معظمها- من العين والجمهرة، وكذلك كان في المجمل إذ روى فيه مائتين وأربعين قولاً عن الخليل، غير اتفاقه معه في ترتيب الأبنية (ثنائي، ومضعف الثنائي، وثلاثي، وما زاد على الثلاثي)[٨]، مع أنه خالفه في الترتيب الصوتي فاختار الترتيب الألفبائي للحروف، ومع كل هذا كان دائم التأكيد أن العين كتاب منسوب[*] إلى الخليل فكيف يصر على ذلك، ويكون العين رأس مصادره في المجمل والمقاييس؟!!

وهذا الشك يكاد يختفي في المقاييس ليحل مكانه الإعجاب والتقدير ففي المقدمة يقول: "وبناء الأمر في سائر ما ذكرناه على كتب مشتهرة عالية تحوي أكثر اللغة، فأعلاها وأشرفها كتاب أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد كتاب العين"[٩].

وتناقض ابن فارس واضح في المجمل فنجده يقر بنسبة الكتاب تارة ويشك في ذلك تارة أخرى ويتردد بين النسبة والشك بنسب مختلفة في أجزاء الكتاب فقد جاءت معظم الروايات في الجزء الأول تميل إلى استعمال (الكتاب المنسوب إلى الخليل) إلا القليل منها، في حين جاء الجزء الثاني ليكون عكس موقفه في الجزء الأول فهو يحيل إلى الخليل مباشرة دون الشك إلا النادر الذي وقع في آخر الجزء الثاني، أما الجزءان الثالث والرابع فقد جاء الشك على قدر الإثبات. وصيغ النسبة جاءت على النحو الآتي: (وفي كتاب الخليل)، و(كان الخليل يقول)، و(ذكر الخليل)، و(قال الخليل)، و(حكى الخليل)، و(كذا هو في كتاب الخليل)، و(هذا خلاف ما قاله الخليل)، و(القول قول الخليل)، و(كذا قال الخليل)، و(فيما ذكر عن الخليل)، و(حُدِّثنا عن الخليل).

أما ما يتضمن الشك فقد جاء على النحو الآتي: "وفي الكتاب المنسوب إلى الخليل، و(كذا في الكتاب المنسوب إلى الخليل)، و(روي في الكتاب المنسوب إلى الخليل)، و(في الكتاب الذي يقال أنه للخليل)[١٠]. فالمجمل لا يتخذ نسقاً واحداً فيما يروي عن الخليل وهذا يستدعي الترجيح في أنه قد اعتمد على ما سُمع عن الخليل وتلاميذه بطريق المشافهة بدليل استخدامه: (يقول، حدّث، ذكر، حدثنا) وبعض

الأقوال أخذها عن نسخة من العين أو أكثر تختلف عما بين أيدينا، ويؤكد ذلك قوله في آخر المجمل "اقتصرت على ما صح عندي سماعاً"[١١] وقوله: "وفي بعض نسخ الكتاب المنسوب إلى الخليل"[١٢]، وهذا يفسر اختلاف الأقوال التي نقلها ابن فارس في المجمل عن الأصل في كتاب العين. فهي تأتي بصيغ مغايرة حيناً ومنقوصة أحياناً أو بزيادة –وإن ندر ذلك– ويعود الاختلاف[١٣] إما لخطأ في السماع أو لإخفاق النساخ وخطئهم، وقد أوضح د. نعيم البدري ما أثير حول كتاب العين ونسبته وأعاد الخلل الذي وقع في العين إلى كثرة النسخ وتعددها خاصة في القرن الرابع، "فيظهر أنه اعتمد على نسخة واحدة من الكتاب في تأليف معجميه (المجمل والمقاييس) هي النسخة التي تلقاها عن أستاذه علي بن إبراهيم القطان (ت ٤٣٥هـ)"[١٤].

ولا يبدو الأمر كذلك فإشارات ابن فارس متناقضة ومن مظاهر التناقض قوله: (وأما نسختي من كتاب الخليل) وقوله (وفي بعض نسخ الكتاب المنسوب إلى الخليل)[١٥]. إن هذا الموقف المضطرب المتذبذب بين الشك والإثبات في كتاب المجمل يكاد يختفي في المقاييس فلا نكاد نعثر على جمل تُشعر بالشك. ويرجع ذلك إلى أن ابن فارس قد نضج فكره اللغوي واتضح موقفه وانعكس ذلك على المقاييس الذي ألفه بعد المجمل وأشار إلى ذلك عبد اللطيف الصوفي: "إن ابن فارس ألف كتاب المجمل قبل المقاييس لأنه كان في كتابه الأخير أعمق نظراً وأنضج فكراً"[١٦].

وإذا كان المقاييس كتاباً لغوياً في ثوب معجمي[١٧]، فإن المجمل معجم لغوي أراد له صاحبه أن يكون أكثر سهولة وبساطة من المعاجم السابقة لتيسير الوصول إلى المادة اللغوية، وقد علق حسين نصار بالقول: "وصفوة القول في المجمل إنه اختار ما في العين والجمهرة وبعض المراجع الأخرى وسرده سرداً مختصراً خفيف الحمل بترتيب جديد يفيد المبتدئين"[١٨].

تحليل المواد:

ولتحليل مواد العين ومواد المجمل لابد من تتبع طريقة كل واحد في معالجة مواده، ولنقف عند مادة عوج، قال الخليل: "عوج كل شيء: تعطفه، من قضيب وغير ذلك. وتقول: عُجْتُه أعوجه عَوْجاً فانعاج، قال: وانعاج عُودي كالشظيف

الأخشن والعِوَج الاسم اللازم منه الذي تراه العيون من خشب ونحو، والمصدر من عَوِجَ يَعْوَجُ: العَوَج فهو أعوج، والأنثى: عَوْجاء، وجمعه: عَوجٌ. قال أبو عبد الله: يقال من العِوَج: عَوج يعوج عَوَجاً، ومن العَوْج: أعوج اعوجاجاً فهو مُعْوَجّ. وعوّج الشيء فهو مُعَوَّج. والخيول الأعوجية منسوبة إلى فرس كان في الجاهلية سابقاً، ويقال: كان لغنيّ، قال طفيل:

بنات الوجيـــه و الغراب ولاحق وأعوج تنمي نِسبَة المتنسِّـــب

ويقال: أعوجي من بنات أعوج، والعوج: القوائم من الخيل التي في أرجلها حنيب. والعائج الواقف. والعاج: أنياب الفيلة، لا يُسمى غير الناب عاجاً. وناقة عاج إذا كانت مذعان السير، لينة الانعطاف. قال ذو الرمة: تَقَدُّ بي المومأة عاج كأنها وإذا عجعجت بالناقة قلت: عاج عاجِ خفض بغير تنوين، وإن شئت جزمت على توهم الوقف. وعججتها: أنختها.

وعُوج بن عوق، يقال إنه صاحب الصخرة، الذي قتله موسى عليه السلام، ويقال: إنه إذا قام كان السحاب له مئزراً، وكان من فراعنة مصر"[١٩].

فالخليل يبدأ غالباً بالفعل اللازم المجرد الماضي ثم المضارع ثم المصدر ويأتي بالشاهد إن وجد ثم يورد الأسماء مع ذكر شاهد دون أن يفسره، ثم يذكر الجمع وينتقل إلى الفعل المزيد بحرف مع ذكر المشتقات منه، ومن ثم يذكر الفعل المزيد بحرفين وما يشتق منه، ثم يتحول إلى إيراد الفعل المتعدي ومعانيه وصيغه، والأسماء المشتقة منه مع تفسير كل ذلك وبيان الجمع وينهي بالمضاعف الرباعي. فالخليل كان ميالاً إلى تنظيم معالجة مواده وترتيب الصيغ فيها.

وشواهده في الغالب منسوبة إلاّ القليل وقد يتطرق إلى الحديث عن النواحي الصرفية أو النحوية وقد يعرّف بلغات العرب في محاولة لجعل العين معجماً شمولياً وقد نجح في ذلك.

أما مادة عوج في المجمل فقد جاءت على النحو الآتي: "عوج: العوج: عطفك رأس البعير بالزمام، تقول عُجتُهُ أعوجُهُ. والعائج: الواقف. وذكر ابن الأعرابي: فلانٌ ما يعوج عن شيء، أي ما يرجع عنه. والقوس عوجاء. والعَوَج

في كل منتصب كالحائط والعُود. والعِوَج: ما كان في بساط أو أرض أو دين أو معاش، يقال: في دينه عِوَج، و الرجل الأعوج: السّيئ الخَلْق، وهو بَيِّن العَوَج. والعُوجُ من الخيل: التي في أرجلها تحنيب، والأعوجية من الخيول: تُنسب إلى فرس كان في الجاهلية سابقاً"(٢٠).

رتب ابن فارس مواده بذكر المصدر ثم الأفعال بصيغها المجرّده ثم المزيدة مع ذكر الشواهد، ويستقصى صيغ الأفعال غالباً، أما الأسماء فهو يذكرها مع الحرص على ذكر المفرد والجمع، والمذكر والمؤنث، ويلاحظ أن الخليل يعمد إلى الشمولية والتفسير والواضح في مواده في حين أن ابن فارس كان يعمد إلى الاختصار والإيجاز وكان ذلك على حساب وضوح المعنى في بعض الأحيان فكان يكتفي في مواضع كثيرة بالقول (معروف)(٢١)وهذا شرح مبهم يتناقض ووظيفة المعجم ويزيد الإبهام باستخدام ابن فارس حالات غير محددة مثل قوله: (سبق ذكره)، دون أن يحدد الموضع الذي وردت فيه، أو أن يقول: (وعامة هذا الباب مكتوب في موضعه)(٢٢). وهذا يؤدى إلى صعوبة في الوصول إلى معرفة معنى المادة المطلوبة.

الشواهد:

اتفق ابن فارس مع الخليل في إيراد الشواهد دون شرح غالباً، والتركيز على الشاهد الشعري، "وقد ثارت ضجة حول شواهد العين، ورماه الزبيدي بالاستشهاد وبالمرذول من أشعار المحدثين ولكن هذا الأمر غير صحيح، لأننا رأينا الخليل لم يستشهد بغير من وثق بهم من أمثال بشار، فإذا كان الزبيدي رأى في نسخته شيئاً من ذلك فهو ولا شك من زيادات النساخ(٢٣).

وتتضح صورة الشواهد من خلال الأرقام فقد اعتمد الخليل على ستة وتسعين ومائتي شاعر وكان النابغة أبرز الشعراء إذ اختار له مائة وثمانية وثلاثين شاهداً، واختار من شعر امرئ القيس مائة وخمسة عشر شاهداً، وبلغت الشواهد من رجز رؤبة بن العجاج خمسة وثمانين وأربعمائة، وعند استعراض أسماء الشعراء الذين اختار من شعرهم" نجدهم من شعراء الطبقتين الأوليين من أمثال

شعراء المعلقات، وأوس بن حجر، وساعدة بن جؤية، ودريد بن الصمة، وأمية بن الصلت... وشعراء الطبقة الثالثة من أمثال الأحوص والأخطل والفرزدق... والرجاز المشهورين كأبي النجم والعجاج ورؤبة..."[٢٤].

وهو في هذا لم يخرج عما كان معهوداً عند اللغويين، أما استشهاده بشعر بشار فقد كان من أشهر المولدين فصاحة ولذلك قال أبو عمرو بن العلاء عن شعره لقد كثر هذا المحدث حتى هممت بروايته، وجعله الجاحظ أشعر الشعراء المولدين.

أما الأشعار التي لم يصرح بأسماء قائليها فقد أثارت مشكلة أوسع من السابقة لعدم جواز الاحتجاج بشعر لا يعرف قائله، "فهذه الأشعار ربما لا نعرفها نحن، ولكن الخليل عرفها، وعرف قائليها ووثق بهم، وهو ثقة يؤخذ بتعديله وتجريحه"[٢٥].

ثم نصل إلى الاستشهاد بالقرآن والحديث والأمثال والأقوال فنجد طريقة الخليل لم تختلف إلا في شرحه لبعض الآيات والأحاديث، ولم تكن الأحاديث على وتيرة واحدة وإنما كانت تختلف قوة وضعفاً والخليل في هذا ليس غريباً عن لغوي عصره ومن كان قبلهم ومن جاء بعدهم وكذلك كان حال الأقوال التي استشهد بها.

أما ابن فارس فقد اعتمد على عدد أكبر من شعراء العين، فبلغ عددهم لديه أربعمائة وأحد عشر شاعراً، وكان الأعشى أبرز الشعراء إذ اختار له مائة وخمسة وعشرين شاهداً، واهتم بشعر ذي الرمة فاختار له سبعة وثمانين شاهداً وكان رؤبة ابن العجاج من أكثر الرجاز الذين اختار لهم ابن فارس فقد اختار من شعره مائة وخمسة شواهد.

وغالباً ما كانت الاستعانة بالشاهد الشعري كاملاً[٢٦]، وقد يستعينان بجزء من البيت وهذا واضح عند ابن فارس أكثر من الخليل، فقد كان يعمد إلى اختصار الشاهد لا حذفه كما ذكر حسين نصار "وفي سبيل هذا الإجمال لجأ المؤلف إلى حذف الشواهد والاقتصار على المشهور منها إن أورده"[٢٧]. ويبلغ الاختصار مبلغه فلا يذكر الشاهد ولا بعضاً منه، وإنما يكتفي بالقول – على سبيل المثال–: "المهق: خضرة الماء في قول رؤبة"، و"اليد للإنسان وغيره، والجمع أيد والتصغير: يُدية وجمعت في شعر عدي على الأيادي"[٢٨]. وكان ابن فارس يهمل النسبة غالباً طلباً

للإيجاز، في حين أن الخليل يحرص عليها في الأغلب الأعم. وركز العالمان على الاستعانة برجز رؤبة وكأنهما يتفقان في الميل إلى المستعمل ولكنهما لا يُعنيان بشرح الشاهد الشعري إلا نادراً والأقوال التي أخذها ابن فارس عن الخليل تخلو من شواهده الشعرية إلا النادر(٢٩)، حيث وردت ثلاثة أقوال بشواهدها.

ويشترك ابن فارس مع الخليل في طبيعة الشواهد من القرآن والحديث والأقوال، ودرجة التركيز على الشاهد الشعري ثم يأتي الحديث في المرتبة الثانية ثم القرآن والأقوال.

اختلاف الأقوال:

الحق أن الأقوال التي أخذها ابن فارس عن الخليل ليست على نسق واحد فهي:

١- أقوال نسبها ابن فارس إلى الخليل ولم ترد في العين.

٢- أقوال أضافها ابن فارس ولم تكن عند الخليل.

٣- أقوال ذكرها بزيادة عما في العين.

٤- أقوال ذكرها مع حذف واختصار.

٥- أقوال أوردها بصيغة مغايرة لصيغ الخليل.

جاءت الأقوال المنسوبة إلى العين ولم ترد فيه قليلة اقتصرت على: "التفريق بين الحض والحث، أحدم، ارْجَحَنّ، الضغث، تكرع"(٣٠)، وهذا يؤكد اعتماد ابن فارس لنسخة مغايرة لما هو موجود الآن، وأمر مستبعد أن نسم ابن فارس بعدم الدقة.

أما استدراك ابن فارس على الخليل بذكر بعض الأبنية فهي قليلة وجاءت على النحو الآتي: "(أت)، ولم يذكره الخليل، و(رطع): لا نحفظ عن الخليل شيئاً، و(سكم): وما أحسب الخليل ذكره، و(اليمي): لم ترد في العين، و(عقس): ولم يذكرها الخليل، و(عقش): والباب في كتاب الخليل مهمل"(٣١).

وعلى قلة هذه الأقوال التي انفرد بذكرها ابن فارس عن الخليل إلا أنها تشعر بإعجاب ابن فارس بالخليل، هذا الإعجاب الذي جعله حريصاً على ذكر التعليقات تلك ولكنه إقرار بإمامة الخليل في العمل المعجمي هذا الإقرار الذي جعله يقدم أقوال الخليل على غيره من اللغويين، وهذا الاستدراك لا يضير الخليل وإنما

شأن طبيعي أن يكمل اللاحق مسيرة السابق وأن يعالج نقص المواد وخللها ولكن ذلك لم نجده عند ابن فارس فيما أخذ عن الخليل بل كان أدنى من السابق شرحاً وتفسيراً وتعليلاً.

أما الأقوال التي أخذها ابن فارس من العين وزاد عليها فهي قليلة: "(برز): رجلٌ بَرْزٌ: طاهر عفيف، وبَرَّز الرجل والفرس إذا سبقا"، ووردت في العين دون "وبَرَز الرجل والفرس إذا سبقا"، وفي مادة (بشم): ذكر عن الخليل "بشم: البَشام شجر، وبَشِمْتُ منه مثل سَئِمتُ، والبَشَم مخصوص به الدسم وبه يقال للفصيل بَشِم من كثرة اللبن" وما في العين جاء على النحو الآتي: "بشم: البشام: من شجر السواك والبشم تخمة من الدسم، وربما بَشَم الفصيل من كثرة اللبن، ومادة (ويح): في المجمل: "ولم نسمع على بنائه إلا ويس، وويه، وويل، ووبح، وويك، ووبب" ووردت في العين بالصيغة نفسها دون ذكر (ويك، ووبب).

وفي مادة (حصر) جاء في المجمل: قال الخليل حصير الأرض: وجهها، والحَصِرُ: الكتوم للسر. وقد جاءت في العين دون ذكر الحَصِرُ: الكتوم للسر"[٣٢].

وهذه الإضافات ليست من وضع ابن فارس وإنما نسبها إلى الخليل ولم تكن في العين وهذا يعني أن اعتماد ابن فارس على السماع[٣٣] وعلى نسخة مغايرة أدى إلى هذا الاختلاف.

أما الأقوال التي نقلها ابن فارس عن الخليل وكتابه مع حذف واختصار فهي كثيرة، وهذا يتوافق مع منهجه في الكتاب الذي أقامه على الحذف، "وكان همه الأول يتجه نحو الجمع والترتيب والإيجاز، لذلك اقتصر فيه على ذكر المشهور من الشواهد فقط، واختصر في التفسير، ولم يوجه عناية تذكر للعبارات المجازية"[٣٤]، والحذف كان لبعض صيغ المادة[٣٥] وذلك سعياً منه للاقتصار على الصحيح[٣٦]، "فلا يذكر الغريب من الألفاظ مع أنه لم يلتزم بذلك"[٣٧]. وقد حذف بعضاً من المصادر، والأفعال المضارعة، والأبنية القياسية، والشواهد فلم يذكر من شواهد الخليل في أقواله المنقولة عنه إلا النادر[٣٨].

وجاءت الأقوال التي نقلها ابن فارس عن الخليل مع تغيير في الصيغة هي

الأكثر[٣٩] بل نادراً ما نقل القول وكان متوافقاً مع ما ورد في العين تماماً، ولا نرى تفسيراً لذلك إلا التغاير في فعل النساخ والاعتماد على السماع، وقد أخل التغيير والحذف بتفسير المفردات وشرحها ومثال ذلك:

ورد في المجمل: "أحدمت الشمس الشيء فاحتدم" ووردت في العين: "الحدم: شدة إحماء الشيء بحر الشمس والنار، تقول: حدمه فاحتدم"[٤٠]، ونقل ابن فارس عن الخليل: "الدجال: الكذاب، وإنما دجله كذبه لأنه يُدجل الحق بالباطل، أما عند الخليل فكانت: الدجال: المسيح الكذاب، وإنما دجله كذبه، لأنه يدجل الحق بالباطل أي يخلطه وهو رجل من اليهود يخرج في آخر هذه الأمة"[٤١]، وفي مادة (دحل) ورد في المجمل: "الداحول: ما ينصبه الصائد من الخشب" في حين وردت في العين: "الداحول وجمعه دواحيل: خشبات على رؤوسها خِرق كأنها طرادات قصار تُركز في الأرض لصيد الحمُر"[٤٢].

وكذلك نقل "الشخل: الغلام ووردت في العين الشخل: الغلام الحدث يصادق رجلاً"[٤٣]، ومثلها: ضغت: اللوك ووضحها الخليل بقوله: اللوك بالأنياب والنواجذ"[٤٤].

وأبرز وجوه الاختلاف والتفوق عند الخليل الدقة في شرحه لكثير من المواد، إلا أن ابن فارس قد أخفق في ذلك لتعمده الاختصار المخل الذي يصل به أحياناً إلى الخطأ ومن ذلك نقله عن الخليل: "فأما الخليل فزعم أنه للنحوص إذا وحمت فاستعصت على الجأب: إنها ذات شغب وضغن" وقد جاءت في العين: "يقال للأتان: ذات شغب وضغن إذا وحمت فاستعصت على الفحل" وهكذا وردت في اللسان وغيره من المعاجم[٤٥].

وروي ابن فارس عن الخليل "الأفُ: وسخ الظفر"، وفي العين: "الأفُ: وسخ الأذن، والتفُ: وسخ الأظفار"[٤٦].

وقد اتفق ابن فارس مع الخليل في اعتمادها على التفسير الاشتقاقي[٤٧]. في بعض المواد، ولكنه استدرك على الخليل بذكر بعض الأبنية[٤٨] وهذا أمر طبيعي، ولا يضير الخليل. ويبقى كتاب العين رائد المعاجم العربية، ومهما قيل في نقده فإن أثره واضح في المعاجم التي تلته، وتفوقه على كثير منها بيّن، ولم يستطع كثير من

اللغويين بعده أن يبلغوا هامته فصغرت المعاجم أمام معجم العين وصاحبه، ولا تنكر ما لها من خطوات في سبيل الرقي بالعمل المعجمي، فابن فارس أقام معجمه على التفسير الدائري الألفبائي الشائع لتيسير الوصول إلى المادة، وطرح الترتيب الصوتي الذي حكم أبواب العين ولولا بعض الاضطراب في تقسيمه لكان متميّزاً في ذلك، ولجأ إلى الاختصار ولكنه أهمل كثيراً من النواحي الصرفية واللغوية دون ذكر للغات كما وردت عند الخليل، ولم يستطع تلافي التصحيف أو الإبهام في الشرح، وتمييز المعاني الحقيقية من المجازية، وافتقر كالعين إلى توضيح نطق المفردات إلا ما ندر.

ومهما يكن من الأمر فقد بقي المجمل لا يُداني العين، وكان العين أول معجم يضم محاولة معجمية مكتملة توافرت فيها أغلب العناصر المطلوبة من معاجم الألفاظ من ترتيب وتعريف وشواهد، ويكفي الخليل أنه كان شاغل الناس ولا يزال. وويل لأمة لا تحترم أسلافها، ولا تعتزّ بآثارهم.

الحواشي.

(١) البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص٣٤٠.

(٢) فقه اللغة، علي عبد الواحد، ص٢٧٧.

(٣) لمعرفة ترجمة الخليل انظر: الأعلام، ج١، ص٣٦٣، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي، ص٢٤-٣٨. وإنباه الرواه، ج١، ص٣٤١-٣٤٧. والأنساب ٤٢١أ . والبداية والنهاية، ج١٠، ص١٦١-١٦٢. وشذرات الذهب، ص٢٧٥-٢٧٧. وطبقات الزبيدي، ص٤٣-٤٧. والفهرست، ص٢٤٢-٢٤٣. وكشف الظنون، ص١٤٤١-١٤٤٤. ومعجم الأدباء، ج١١، ص٧٢-٧٣. والنجوم الزاهرة، ج١، ص٣١١-٣١٢، ونزهة الألباء، ص٥٤-٥٩.

(٤) لمعرفة ترجمة ابن فارس انظر: الفهرست، ص٨٨. ويتيمة الدهر، ج٣، ص٣٩٧. ودمية القصر، ج٢، ص٤٨٥. ومعجم الأدباء، ج٢، ص٦. وطبقات النحاة واللغويين، ص٩٧. والكامل في التاريخ، ج٨، ص١١١. ووفيات الأعيان، ج١، ص١١٨. والبداية والنهاية، ج١١، ص٣٣٥. وإنباه الرواه، ج١، ص٩٢. ونزهة الألباء، ص٢٣٥.

(٥) انظر: مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، جعفر عبابنة، ص٢٦.

(٦) معجم المعاجم، أحمد إقبال الشرقاوي، المقدمة.

(٧) المعجم العربي المعاصر (إشكالات ومقاربات)، محمد الحمزاوي، ص٢٢٣.

(٨) الثلاثي عند الخليل ثلاثة أنواع (صحيح/ معتل/ لفيف) وجعله ابن فارس واحد، وجعل الخليل باباً مستقلاً للرباعي، وآخر للخماسي، في حين أن ابن فارس جمعها في (ما زاد على الثلاثي) وسيتضح ذلك لاحقاً في وصف الأبنية.

(*) وتتلخص آراء اللغويين في انقسامها إلى ثلاثة أقسام:

أ- قسم ينكر نسبة العين إلى الخليل ويرى أنه لليث تلميذ الخليل.

ب- قسم يقر بنسبة العين إلى الخليل منهجاً وخطة ومادة.

ج- وقسم يرى أن الخطة والمنهج للخليل وحشو الكتاب لغيره وعزاه كثير منهم إلى الليث.

(٩) المقاييس، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، ص٣.

(١٠) انظر-على سبيل المثال لا الحصر- المجمل، ابن فارس، مادة: برز، وبظ، وجسد، وحذم، وجلع، ودقل، وخج، وتوف، وعرس.

(١١) المجمل، ابن فارس، ص٩٤٤.

(١٢) المجمل، ابن فارس، مادة: أجّ.

(١٣) الاختلاف المقصود به؛ اختلاف نسخ كتاب العين، واختلاف المجمل عن الأقوال التي استقاها من العين.

(١٤) كتاب العين في ضوء النقد اللغوي، نعيم البدري، ص١١٣.

(١٥) المجمل، ابن فارس، مادة : أجّ.

(١٦) اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية، عبداللطيف الصوفي ص١٥١. وانظر المعجم العربي نشأته وتطوره، حسين نصار، ج١، ص٣٦٨.

(١٧) انظر مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، عدد خاص من بحوث ندوة المعجم العربي، مجلد ٧٨، ع٤، سنة ٢٠٠٣، منهج أحمد بن فارس في النقد اللغوي في معجم مقاييس اللغة، محمود الجفال، ص١٠٩١.

(١٨) المعجم العربي نشأته وتطوره، حسين نصار، ج٢، ص٣٧٤.

(١٩) العين، الخليل، مادة عوج.

(٢٠) المجمل، ابن فارس، مادة عوج.

(٢١) انظر المجمل، ابن فارس، مادة: مطر، مسح، مرق، مشط، مدر، لحم، أوى، مخ.

(٢٢) انظر المجمل، ابن فارس، مادة: قاه، غذو، كحب، فيج، صبر.

(٢٣) المعجم العربي (نشأته وتطوره)، حسين نصار، ج١، ص٢١١، ولمعرفة رأي الزبيدي انظر المزهر، السيوطي، ج١، ص٤٢.

(٢٤) المعجم العربي، نشأته وتطوره، ج١، ص٢٠٩.

(٢٥) المعجم العربي (نشأته وتطوره) ج١، ص٢١١.

(٢٦) انظر العين، والمجمل: مادة لجح، قفح.

(٢٧) المعجم العربي (نشأته وتطوره)، حسين نصار، ج٢، ص٣٦٩.

(٢٨) انظر المجمل، مادة: مهق، لجح، يد.

(٢٩) المجمل، مادة: نهج، يُمّ، طوف.

(٣٠) انظر المجمل، ابن فارس، مادة: حض، وحدم، رجج، وصفث، وتكرع.

(٣١) السابق: مادة: أت، رطع، وسكم، وبمي، وعقس، وعمش.

(٣٢) انظر العين والمجمل مادة: برز، وبشم، ووبح، وحصر.

(٣٣) المجمل، ابن فارس، ص٩٤٤.

(٣٤) اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية، عبد اللطيف الصوفي، ص١٥١.

(٣٥) انظر العين والمجمل مادة: أنك، وبذر، وثأب، وجذا، وحمج، وحدم، ودقل، ورهد، ورخو.

(٣٦) انظر المجمل، مادة (رحب) حيث ذكر الشاذ منها.

(٣٧) المعجم العربي نشأته وتطوره، حسين نصار، ج٢، ص٢٦٩.

(٣٨) انظر المجمل مادة: رجز، ورحب، ونأى.

(٣٩) انظر المجمل- على سبيل المثال-: مادة: حصف، وحشن، وحضف، ودقل، ودحل، ورخو، وسخف، وشغب، ونحص، وعرق.

(٤٠) انظر العين، والمجمل مادة حدم.

(٤١) السابقان، مادة دجل.

(٤٢) السابقان، مادة دحل.

(٤٣) السابقان، مادة شخل.

(٤٤) السابقان، مادة ضغث.

(٤٥) انظر العين، المجمل، اللسان، مادة شغب.

(٤٦) العين، والمجمل، أفّ.

(٤٧) انظر العين، المجمل، ببة، وخدع، ودجل، وقضع، ونجث.

(٤٨) المجمل، أت، ورطع، وسكم.

المصادر والمراجع:

١. البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٤، ١٩٨٢م.

٢. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت.

٣. ونسخة أخرى من كتاب العين، بتحقيق هادي حسن حمودي، د.ن، ١٩٩٤م.
٤. فقه اللغة، علي عبد الواحد، د. ن، ط٦، ١٩٤١م.
٥. كتاب العين في ضوء النقد اللغوي، نعيم البدري، دار أسامة، عمان، ط١، ١٩٩٩م.
٦. اللغة معاجمها في المكتبة العربية، عبد اللطيف الصوفي، دار طلاس للنشر، ط١، ١٩٨٦م.
٧. المجمل، أحمد بن فارس، دراسة وتحقيق زهير سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.
٨. معجم المعاجم، أحمد إقبال الشرقاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
٩. المعجم العربي: نشأته وتطوره، حسين نصار، دار مصر للطباعة، ط٤، ١٩٨٨م.
١٠. المعجم العربي المعاصر: إشكالات ومقاربات، محمد رشاد الحمزاوي، وزارة الثقافة، تونس، المؤسسة الوطنية، ١٩٩١م.
١١. المقاييس، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ط٢، ١٩٦٩م.
١٢. مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، جعفر عبابنة، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٨٤م.

الدوريات:

١- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – عدد خاص عن بحوث ندوة المعجم مقال بعنوان "منهج أحمد بن فارس في النقد اللغوي في معجم مقاييس اللغة (نقد الخليل وابن دريد نموذجاً)، محمود الجفال، مجلد٧٨، الجزء الرابع، عام ٢٠٠٣م، ص١٠٨٧.

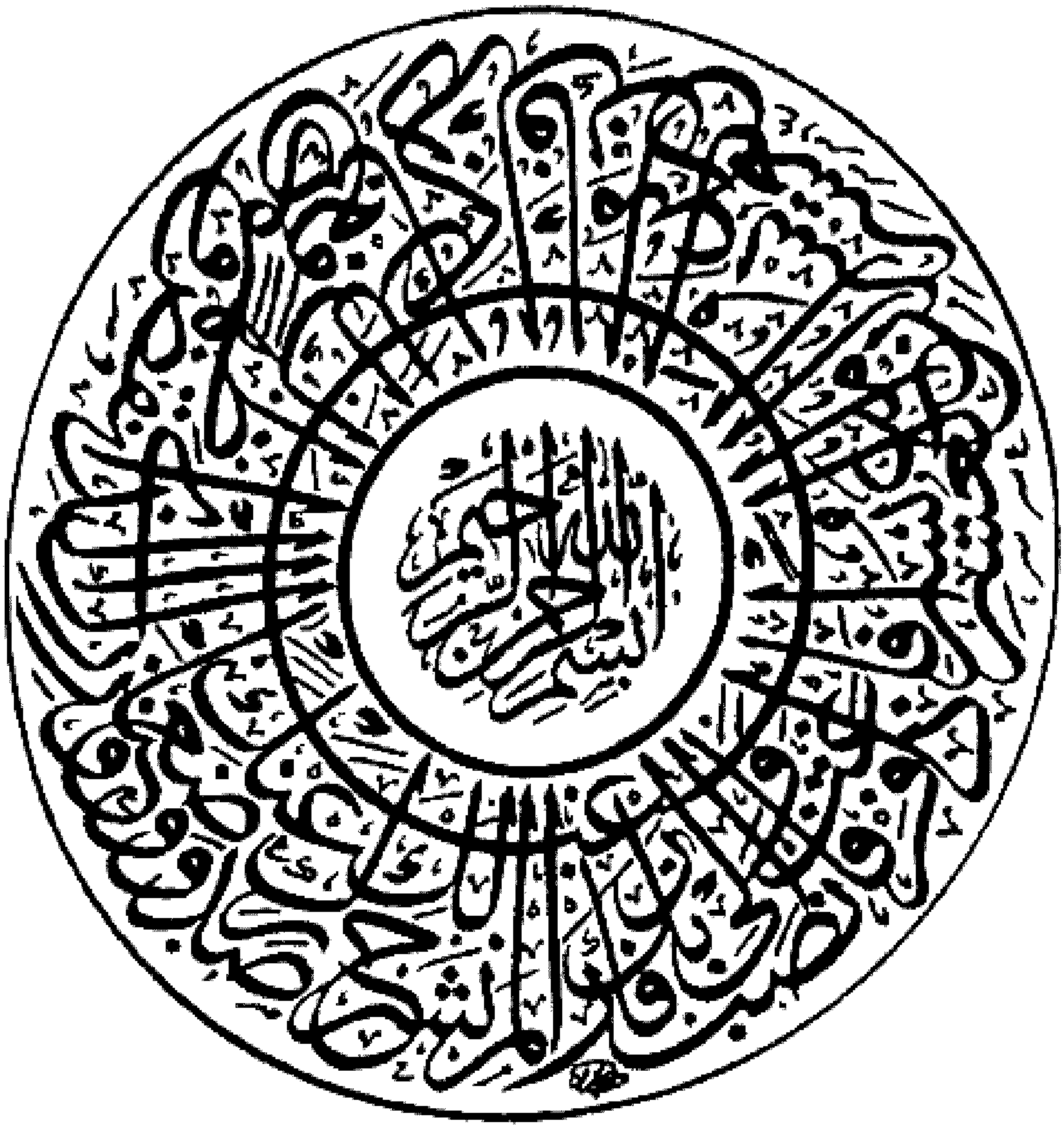

لغات العرب في معجم العين

د. وليد أحمد العناتي
جامعة البترا الخاصة – الأردن

لغات العرب في معجم العين

د. وليد أحمد العناتي

مقدمة في صفة البحث.

يشبه القول في لغات العرب أن يكون مكروراً معاداً؛ فقد أكثر القدماء القول فيه وناقشوا المسألة من جميع جوانبها التداولية الاستعمالية وجوانبها التقعيدية والتفسيرية، وتجاوزوا ذلك إلى تبيان تعالق لغات العرب بعلوم القرآن والحديث من حيث إنهما وجهان من وجوه تحقق العربية في صورتها المتداولة آنذاك، فحمل كثير من غريب القرآن والقراءات ورسم المصحف على اختلاف لغات العرب، وكذا القول في غريب الحديث الشريف.

وصنع المحدثون صنيع الرواد، وتجاوزوهم، على ما تقتضي دورة الزمن، إلى جوانب بحثية جديدة كمحاولة تلمس وجوه تطور لغات العرب، وهي تعرف الآن باللهجات، صوتياً ونحوياً وصرفياً ودلالياً، وكذلك تلمس امتداد اللهجات القديمة في الحديثة.

ولما كان ذلك كذلك لم يسرف البحث في تناول التفاصيل الدقيقة للغات العرب في غير كتاب العين للخليل الفراهيديّ. ولعل هذا التصريح يثير في القارئ مقولة التناقض في البحث، وليس الأمر كذلك؛ ذلك أني وجدت أكثر الناس من المتقدمين والمتأخرين لا يشيرون إلى اعتناء الخليل بلغات العرب القديمة، رغم أن كثيراً منهم، كالأزهري في التهذيب، قد استفادوا كثيراً من العين في هذا المجال. وأنا أذهب إلى أن الخليل في كتابه العين قد تقدم على كثير ممن عنوا بلغات العرب القديمة. وهو يحتج بها في القراءات القرآنية وغيرها من المسائل اللغوية.

إن هذا البحث يشبه أن يكون انتصافاً للخليل ومعجمه العين في حقل لغات العرب القديمة، وسيجد القارئ الكريم ما يدعم ذلك. وقد جعلته في قسمين رئيسين: الأول يتناول مقدمات منهجية لدراسة لغة العرب في العين، واشتمل على: منزلة لغات العرب في الدرس اللساني العربي، ومنهج الخليل في دراسة لغات العرب،

ومستويات دراسة لغات العرب في العين. وأما القسم الثاني فهو موارد لغات العرب في معجم العين بلفظ الخليل مرتبة ترتيباً هجائياً، وينبغي أن أشير هنا إلى ملحظ منهجي مهم هو أنني لم أوثق تلك الموارد على هيئة حواشٍ في ذيل النص، إنما وثقتها في متن النص جوار كل مورد؛ اختصاراً وتسهيلاً على القارئ، وتجنباً لإملال القارئ من كثرة العودة إلى الحواشي. وختمت بجدول يبين تواتر القبائل ولغاتها في معجم العين.

منزلة لغات العرب في الدرس اللساني العربي:

١- توثيق صورة العربية منطوقة.

يشبه التراث اللهجي العربي أن يكون تمثيلاً أميناً لكثير من خصائص العربية المنطوقة منذ العصر الجاهلي؛ وذلك أنها حفظت لنا كثيراً من سمات العربية المتداولة في القبائل العربية على اختلاف مساكنها وطباعها وسجاياها، وما انفردت به كل قبيلة على التعيين، وما كان مشتركاً بين اللهجات جميعها.

وتظهر الدراسات اللهجية العربية القديمة والحديثة[١] أن السمات الصوتية هي أغلب ما حُفِظَ عن العرب. وتتباين هذه السمات وتتدرج بدءاً بخصائص الأصوات منفردة وانتهاءً بالتنغيم ونطق الجملة كاملة. فقد أوردت لنا المصادر التي بحثت في لغات العرب اختلاف القبائل في نطق الأصوات مفردة، أي اختلافها من حيث المخرج أو هيئة النطق، والجهر أو الهمس؛ فأكثر أهل الحجاز يُسَهِّلون الهمزة والتميميون كانوا يحققون. وكانت القبائل تتفاوت في نطق القاف والضاد. وتجاوزوا ذلك إلى أثر البنية المقطعية في خصائص الأصوات وتأثرها بالمجاورة، واختلاف القبائل في إجراء المماثلة الصوتية وتحويل الصوت إلى صوت آخر على التعيين، في حين تحوله قبيلة أخرى إلى صوت آخر. ويتجاوز الأمرُ البنيةَ المقطعيةَ إلى الجملة، فتفاوتت اللهجات في الإمالة وعدمها، وفي كيفية التخلص من التقاء الساكنين وفي حركته أيضاً. كذلك تتفاوت في الوقف وفي حركة الضمير.

بل إننا نجد في المصادر اللغوية العربية توصيفاتٍ دقيقةً لهيئة نطق الحروف (الأصوات) كما في معجم العين و كتاب سيبويه وكتب القراءات وأحكام

التجويد. أما الأطباء فنجد عندهم وصفاً دقيقاً للجهاز النطقي ومدارج الأصوات العربية كما في رسالة أسباب الحروف لابن سينا.

ولعل الخليل يكون سباقاً في دراسة علم أصوات العربية؛ إذ ترصّد خصائص أصواتها منفردة ومجتمعة، ودلّ على مخارجها، بل إنه تجاوز ذلك لتحديد قيود التتابع في البنية العربية، واتخذها آلية في تبيُّن العربي الأصيل من المعرّب أو الدخيل. قال الخليل: "المهندس: الذي يُقَدِّرُ مجاري القني... وهو مشتق من الهندزة، فارسي صُيِّرت الزاي سيناً؛ لأنه ليس بعد الدال زاي في شيء من كلام العرب"(٢).

٢.توجيه كثير من الوجوه النحوية.

ولما كان بناء العربية قد أقيم على ائتلاف عريض من اللهجات العربية كان طبيعياً أن يظهر هذا التباين والتعدد في الوجوه النحوية والقواعد اللغوية، أكان ذلك في المستوى التداولي أم في المستوى العلمي التقعيدي. وصارت مسألة تعدد الوجوه ظاهرة شائعة في توجيه المسائل النحوية والصرفية التي لا تتوافق والوجهَ الشائع الفصيح، وتجاوز الأمر ذلك إلى عد التعدد اللهجي وجهاً إضافياً مُستأنَساً في توجيه ما يَشْغَب على النحاة من المسائل، وصاروا يستعملون عبارات تشير إلى نسبة الشاهد والتعليل إلى قبيلة ما. بل إن كثيراً من الأبيات الشعرية التي وردت في دواوين الشعراء، وكانت خارجة على الوجه الفصيح، حُمِلت على لهجة قبيلة الشاعر.

والأمثلة في هذا الباب كثيرة أهمها: ما التميمية وما الحجازية، ولغة أكلوني البراغيث، وحذف خبر لا النافية للجنس، ونصب خبر إن، وغيرها كثير، وهي مبثوثة في الكتب الأصول(٣).

٣ - توجيه وجوه من القراءات القرآنية.

والمنطلق هنا الترجيح في مسألة اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، فقد اختلف اللغويون العرب في هذه المسألة اختلافاً بيناً، فمنهم من ذهب إلى أنه أنزل بلسان قريش لا غير، وذهب آخرون إلى أنه أنزل بعدة لهجات. على أن الراجح

أنه تضمن مفردات وسمات لهجية من غير لغة قريش، ويعزز ذلك أحد توجيهات حديث الرسول ﷺ المشهور " أنزل القران على سبعة أحرف كلها شافٍ وافٍ"، بأن المقصود بسبعة الأحرف أنها لغات العرب. وأشهر من قال بهذا أبو عبيد وثعلب والأزهري(٤). وقد عبر أبو عبيد عن ذلك بقوله:" ليس المراد أن كل كلمة تُقرأ على سبع لغات، بل اللغات السبع مفرقة فيه، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة تميم، ومما يبين ذلك قول ابن مسعود: إني قد سمعت القراء فوجدتهم متقاربين، فاقرأوا كما عُلِّمتُم؛ إنما هو كقول أحدكم: هلم وتعال، وكذلك قال ابن سيرين: إنما هو كقولك هلم وتعال وأقبل"(٥).

وهكذا حُمل كثير من وجوه القراءات على لغات العرب، وإليك بعض الأمثلة المشهورة.

- قال الفراء معلقاً على الآية ﴿إذا بُعثِر ما في القبور﴾: "سمعت بعض أعراب بني أسد قرأها بُحثِر وهما لغتان: بعثر وبحثر"(٦).
- قرأ السبعة ﴿ما له به من علم إلاَّ اتباعَ الظن﴾، وبنو تميم يقرأونها بالرفع؛ يجعلون اتباع الظن علمهم(٧).
- وقرئت ﴿ما هذا بشراً﴾ برفع (بشراً)على لهجة تميم.

وهذه الأمثلة صورة مصغرة عن مدى اعتماد القراءات القرآنية على لغات العرب. وهكذا تمثل معرفة لغات العرب شرطاً مهماً لتلاوة القرآن تلاوة صحيحة، كما تمثل معرفتها ضرورة لتجنب تخطئة الآخرين في القراءة.

٤ـ تفسير القرآن العظيم.

لا شك أن تفسير القرآن يعتمد اعتماداً كلياً على معرفة نظام اللغة العربية في أصواتها وصرفها ونحوها وتركيبها وأساليبها ومعجمها، ولعل الشرط الأول فيمن يتصدى لتفسير القرآن وتأويله أن يكون عالماً بالعربية وطرائقها في البيان حتى يتسنى له الوصول إلى تأويل وتفسير مقبول ينطلق من أعراف اللغة العربية وأعراف المجتمع الذي أنزل فيه، ولما رجح أن في القرآن لهجات متعددة وجب على المفسِّر أن يكون عارفاً باللهجات العربية ولا سيما في معاني المفردات، وذلك

أن ثمة مفردات تنفرد باستعمال لهجي مخالف لما عليه العربية المشتركة، ولـــذلك وجب التثبت من معانيها وصولاً إلى تأويل صحيح. ومما ورد في القرآن منـــسوباً إلى قبائل على التعيين، وهو مخالف للعربية المشتركة:

- ﴿فلا رفث﴾. الرفث: الجماع، بلغة مذحج[٨].
- ﴿فمن خاف من موصٍ جَنَفاً﴾. الجنف: تعمد الميل والجور، بلغة قريش[٩].
- ﴿وما مسَّني السوءُ﴾. السوء: الجنون، بلغة هذيل[١٠].

ولك أن تتخيل الفهم الذي يتبادر إلى الذهن عند قراءة الآية ﴿لقد كنتَ فينـــا مرجوّاً﴾[١١]؛ إذ لا شك أن أول ما يخطر بالبال أنهم يرتجون منه الخير ويعتمدون عليه، على ما تعارفنا في العربية المشتركة، ولكن النظر في كتب التفسير أو لغات القرآن سيقـــفنا على معنى مغاير تماماً؛ إذ المرجوُّ هو الحقير بلغة حمير! [١٢]

٥. توجيه الرسم القرآني.

وذلك أن رسم القرآن قد وجِّه توجيهات عدة، كان أحدها مبنياً على احتمـــال موافقة الرسم للقراءات، والقراءات جاءت على لغات العرب. ويقوي هذا أن مـــن شروط صحة القراءة أن توافق الرسم العثماني[١٣].

٦. تفسير غريب الحديث.

لا خلاف أن الرسول ﷺ كان أفصح العرب وأبْيَنَهُم، وأن الله لم يمكنه مـــن معرفة اللغات الأجنبية حفظاً له من الاتهام، وإن كانوا اتهموه بتلقي القـــرآن مـــن الأعاجم. والثابت أن الرسول الكريم كان على معرفة واسعة بلغـــات العـــرب؛ إذ تذكر كتب السيرة وكتب غريب الحديث مواقف كثيرة تحدث فيها الرسول الكـــريم إلى وفود القبائل بلهجاتهم، تسهيلاً عليهم وتقريباً لهم وتحبيباً في الإســـلام. ولعـــل النظر في مثل هذه المواقف الحوارية يقفنا على مفردات غير مألوفة تستعجم علينا، فلابد من تفسيرها وتبيينها لأن معرفتها شرط ضـــروري لفهـــم الحـــديث النبـــوي الشريف وما ينطوي عليه من تشريعات خاصة، بل إن فيها دروساً وعبراً لاحترام الإسلام لغات الآخرين وحرصه على ألا يرهق هؤلاء في التحول عن لغتهم التـــي اعتادوها منذ الصغر.

وهذا نصٌّ أورده الزمخشري في الفائق في غريب الحديث على لسان الرسول الكريم مخاطباً وافد همدان: "إن لكم فراعها ووهاطها وعزازها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها ويرعون عفاءها، لنا من دفئهم وصرامهم ما سلّموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثُّلبُ والنَّاب والفصيل والدَّاجن والكبش الحوريُّ، وعليهم فيها الصَّالغُ والقارحُ"[١٤].

وهو، على ما نرى، نص مستغلق على مَنْ لم يكن همدانياً ولا عارفاً بلغات العرب. ولعل كثرة القبائل العربية وتعدد لغاتها، واختلافهم في مخاطبة الرسول ومخاطبة الرسول إياهم، قد ولّد حاجة علمية ودينية تتمثل في ضرورة تفسير ما قد يغمض على غير هؤلاء من المسلمين، فكانت كتب غريب الحديث تدبيراً سديداً لتحقيق هذه الغاية.

٧. توثيق الصورة التاريخية للعربية.

وتمثل اللهجات العربية القديمة مادة حية للعربية في امتدادها التاريخي منذ خمسة عشر قرناً؛ إذ يعتمد عليها المهتمون باللسانيات التاريخية للوقوف على التطورات التي طرأت على العربية في أعصرها المختلفة. وقد انتهى عدد من اللسانيين إلى أن التطور اللغوي من الأسباب المهمة في ظاهرة تعدد الوجوه في العربية، ولم يتوقف الأمر عند الصورة المتداولة للعربية (صرفاً ونحواً ودلالة)، بل تجاوزها إلى الأركان الأساسية في نظرية النحو العربي كالبناء والإعراب[١٥].

كما اتخذ المهتمون بالساميات المقارنة اللهجات العربية القديمة مادة للدراسة وصولاً إلى اللغة السامية الأم، انطلاقاً من أن العربية هي اللغة السامية الوحيدة التي لا تزال تحتفظ بخصائص السامية الأم. ولعل لغة "أكلوني البراغيث" تكون أظهر الأمثلة على هذا الجانب البحثي. فقد رأى إسماعيل عمايرة أنها "ذات أصل قديم تشترك فيه العربية مع اللغات السامية، وأن "أكلتني البراغيث" التي أصبحت المعيار والقاعدة تطور لاحق"[١٦].

وينضاف إلى ذلك اتجاه في الدرس التاريخي يتلمس حضور اللهجات القديمة وامتداداتها في اللهجات العربية الحديثة؛ رغبةً في تأصيل اللهجة المحلية والبرهنة

على أنها ذات أصل فصيح، وأنها الأقرب إلى الفصحى.

ويستأنس كثير من اللغويين باللهجات القديمة في مساجلات التصحيح اللغوي؛ إذ يعتمدون على النصوص القديمة والمصادر الأصول في عدّ بعض الاستعمالات صحيحة أو عدّها من باب اللحن.

منهج الخليل في دراسة لغات العرب:

يسهل على الناظر في معجم العين أن يتبين ملامح منهج الخليل في تناول لغات العرب، ولعل هذه الملامح تكون:

١ـ التباين بين النسبة وعدمها.

يشبه أن يكون هذا الملمح سمة عامة في المصادر التي تناولت لغات العرب القديمة، وإنما ينبع ذلك من حجم المادة اللغوية المجموعة وتوزعها على رقعة جغرافية كبيرة، وعدم اقتدار اللغوي منفرداً على التثبت من نسبة الظاهرة (السمة) اللغوية إلى قبيلة أو جماعة على التعيين، ولعل هذا ما يفسر انفراد بعض اللغويين بإيراد معلومات لم يوردها غيرهم.

فقد وجد اللغويون بين أيديهم مادة ضخمة أقلها منسوب ومعظمها غير منسوب، على أن المادة المنسوبة يغلب أن تمثل باباً نحوياً أو صرفياً يَسْهُلُ معه تثبيت نسبتها إلى قبيلة تعييناً، وأما المفردات والخصائص الصوتية فإنه لا يمكن ضبطها أو الاعتماد على عينات لإثبات النسبة، ولذلك لا يمكن الوثوق بهذين الجانبين إلا ما ثبتت نسبته إلى قبيلة ما.

ويغلب أن تكون الظواهر اللغوية غير المنسوبة معروفة بتعددها وتشعبها؛ بأدلة السماع والتداول التي تُصرِّح بوجود لغتين متداولتين أو أكثر.

ولما كان الخليل صاحب أول معجم لغوي في العربية كان طبيعياً أن تظهر هذه الصورة بوجهيها في معجمه، الوجه المجهول النسبة وهو جُلُّ المعجم، والوجه المنسوب وهو أقله. وقد تمثلت دلالة الخليل على غير المنسوب بألفاظ صريحة تُظْهِرُ أنَّ ثمة لغاتٍ في الكلمة أو الظاهرة اللغوية، ومن الألفاظ التي استعملها: لغة، تقول العرب، بعضهم يقول، لغتان، فيه أربع لغات. يقول الخليل:

- الثَّغْر والثُّغْر لغتان[١٧].
- العَدَم فقدان الشيء وذهابه، والعُدْم لغة[١٨].
- والعرب تحذف التاء من استطاع، فتقول: اسطاع يَسْطيع بفتح الياء، ومنهم مَنْ يضمُّ الياء فيقول: يُسْطيع، مثل يُهْريق[١٩].
- والعنوان: عنوان الكتاب، وفيه ثلاث لغات: عَنْوَنْتُ، وعَنَّنْتُ، وعَيْنَتُ، وعنوان الكتاب مشتق من المعنى، يقال[٢٠].
- الحَوْف: القرية في بعض اللغات[٢١].
- العَبَوْثران: نبات مثل القيصوم في الغبر، ذَفِرُ الريح.....وفيه أربع لغات بالياء والواو، وضم الثاء وفتحها[٢٢].

على أنه لا يمضي بالتصريح على هذا النهج، فقد يورد صوراً متعددة للبنية الصرفية أو الصوتية تشي بتعدد الوجوه. يقول:

- نَفَحَ الطِّيبُ يَنْفُحُ نَفْحاً ونُفوحاً[٢٣].
- التَّرَحْلُفُ والتَّزَحْلُقُ والتَّزَحْلُكُ واحد[٢٤].

أما القسم الأهم فهو ما نُسِب إلى قبائل على التعيين، وهو جُلُّ مادة البحث، وقد تجاوز مئتي مادة. وأكثر هذه المواضع معروفة وشائعة بين اللغويين الذين خلفوا الخليل، وبعض المواضع تفرَّد بها الخليل دون غيره. وهكذا كانت المادة اللهجية التي أوردها الخليل هنا، ونقل معظمها سيبويه، الأساس الذي بنى عليه المتأخرون دون أن يشير معظمهم إلى ذلك صراحة، بل إن بعضهم سطا على علم الخليل وادعاه لنفسه، كصنيع الأزهري في التهذيب[٢٥].

وهذه بضعة أمثلة حسب، لأنني استنفدت لغات العرب في المعجم في القسم الثاني من البحث.

- الضَّحْك: الثَّلْج. ويقال: جَوْف الطلع، وهي من لغة بني الحارث[٢٦].
- وتقول: حضِرَت الصلاةُ لغة أهل المدينة، بمعنى حَضَرَت، وكلهم يقولون: تَحْضُر[٢٧].

- الحَوْف بلغة أهل الجوف، وأهل الشَحر كالهودج وليس به، تركب به المرأة البعير[٢٨].

ومما نسبه الخليل وأصّلهُ الألفاظ الأعجمية والمعرّبة، وقد وردت بكثرة، ومن أمثلته:

- خاقان: اسم لكل ملك من ملوك الترك، وخقّنت الترك فلاناً رأسته، من قولهم خاقان[٢٩].
- طَرْخان اسم رجل بلغة خراسان[٣٠].
- الخَيْذ: أصلها خِيذ فارسية، فحولوا الذال دالاً تعريباً[٣١].
- المهندس: الذي يقدر مجاري القني، وهو مشتق من الهندزة، فارسي صُيّرت الزاي سيناً؛ لأنه ليس بعد الدال زاي في شيء من كلام العرب[٣٢].

والكلام في الأعجمي والمعرّب في العين محتاج إلى بحث مستقل لما فيه من أنظار لطيفة للخليل في آليات التعريب وطرائقه.

٢.تسمية السمات اللهجية بأسمائها الاصطلاحية.

وغالباً ما يذكر الخليل السمات بأسمائها الاصطلاحية، كالعنعنة والكشكشة والقطعة. يقول: "مَنْ ترك عنعنة تميم وكشكشة ربيعة فهم الفصحاء. أما تميم فإنهم يجعلون بدل الهمزة العينَ. قال شاعرهم:

إن الفؤادَ على الدِّلفاء قد كمِدا وحبها موشكٌ عَنْ يصدعَ الكبدا

وربيعة تجعل مكان الكاف المكسورة شيناً. قال:

تضحك منّي أن رأتني أحترش ولو حَرَشْتِ لكشفتِ عن حرِش

ويقال: بل يقولون : علَكِيش وبِكِش. ويقال: بل يبدلون في كل ذلك[٣٣].

ويقول في موضع آخر: "والقطعة في طيئ كالعنعنة في تميم"[٣٤].

ولكننا نرد على بعض السمات اللهجية المعروفة بمصطلحات خاصة دون أن يخصها الخليل بتلك المصطلحات، كالاستنطاء مثلاً، فقد اكتفى بالقول: "الإنطاء لغة في الإعطاء"[٣٥] دون أن يتوقف كثيراً عندها. ولعل سبب ذلك أنها لم تكن

معروفة أيام الخليل بذلك المصطلح، وأنه من وضع اللغويين المتأخرين، ويؤيد ذلك أن الخليل لم يستعمل مصطلح " اللغات المذمومة أو المستبشعة أو المستقبحة" وهي المصطلحات التي صارت عَلَماً على خصائص لهجية على التعيين.

٣- التعميم والتخصيص.

وهذا خاص باللغات المنسوبة؛ وذلك أنه ينسب اللهجة نسبة فضفاضة لا يمكن الإحاطة بها تعييناً، وأحياناً أخرى كان ينسبها نسبة محددة على التعيين ويجعلها في أهل مدينة أو إقليم بعينه. وهذه بعض الأمثلة.

- البَزْخ: الجَرْف بلغة عمان[٣٦].
- البَرْح: الرخيص بلغة عمان[٣٧].
- المخلاف: الكورة بلغة أهل اليمن[٣٨].
- الشَّبُّوط: ضرب من السمك.... كلمة عراقية[٣٩].
- الكَبَرُ: طبل له وجه، بلغة أهل الكوفة[٤٠].
- الدُّرَيْنة: الأحمق بلغة ناس من أهل الكوفة[٤١].

ولعل أظهر تفسير لذلك يكون أنه يستخدم الاسم العام (العراق، اليمن، أهل عمان) حين تكون الكلمة أو السمة اللهجية عامة في لغة أهل تلك البلاد، كأنها لغتهم المشتركة ؛ فعندما يشير إلى أن (الشَّبُّوط) عراقية فإن هذا يعني أنها لأهل العراق جميعاً، وأن جميع أهل العراق يعرفونها. فإن خصَّص " الكَبَرُ" بلغة أهل الكوفة علمنا أن اللفظة عامة فيهم. وإن خصَّص أكثر وقال: " الدُّرَيْنة" من كلام ناس من أهل الكوفة عرفنا أنها خاصة بجماعة على التعيين، فهي ليست معروفة لدى أهل العراق جميعاً ولا لأهل الكوفة جميعاً، وإنما يعرفها قوم من أهل الكوفة حسب.

٤- الاستدلال بالقراءات القرآنية.

ثم إنك ترى الخليل ينوّه بالقراءات القرآنية من حيث إنها وجه من وجوه اللهجات العربية المنطوقة آنذاك، وهذا دليل على سعة علمه وأصالة آرائه في اللهجات. وقد وردت الإشارة إلى القراءات في العين بكثرة يصح معها أن تفرد في

بحث مستقل. وهذه بعض استشهادات الخليل:

- عَكَفَ يَعْكِفُ ويَعْكُفُ.... وهو إقبالك على الشيء لا تصرف عنه وجهك.... وقرئ "يَعْكِفون على أصنامٍ لهم"، و يَعْكُفون[٤٢].
- شَعَفَني حبُّه وشُعِفْتُ به وبحبه، أي غشي الحبُّ القلبَ من فوق. وقرئ ﴿فشعفها حباً﴾[٤٣].
- وفي قوله تعالى: ﴿في عَمَدٍ ممدة﴾ ويقرأ في "عُمُدٍ" لغة[٤٤].

٥. المفاضلة بين اللغات.

فاضل الخليل بين لغات العرب وفقاً للمعايير الآتية:

أ- المعيار اللغوي. ومن أمثلته:

- الأحجية اسم المحاجاة، والأُحْجوَّة لغة، وبالياء أحسن لطول الكلمة[٤٥].
- العرب تختلف في زجر البغل، فيقول: عَدَس، وبعض يقول : حَدَس، والحاء أصوب[٤٦].
- الأعشى: الضبع الكبير، والأنثى عَشْواء، وفي لغة عشياء، والواو أصوب[٤٧].
- القَرَبوس: حنو السرج، وبعض أهل الشام يُثَقِّلُهُ، وهو خطأ، ويجمعه قَرابيس وهو أشد خطأ[٤٨].
- يقال: وَعِل و وَعْل، ولغة للعرب: وُعِل بضم الواو وكسر العين من غير أن يكون ذلك طرداً؛ لأنه لم يجئ في كلامهم (فُعِل) اسماً إلا دُئِلَ وهو شاذّ[٤٩].

ب- المعيار الكمّيّ.

- الرَّضحُ : رضحك النوى بالمِرْضاح أي بالحجر، والخاء لغة قليلة[٥٠].
- العِلْوض: ابن آوى بلغة حمير، ولم يعرفه الضرير ولا غيره[٥١].

ج- المعيار الذاتي/ الشخصي.

- ويمكن أن يتداخل فيه اللغوي بالذاتي وإن كان لا يصرح بذلك.
- الصوم مَصَحَّة ومَصِحَّة، ونصب الصاد أعلى من الكسر[٥٢].
- وكذلك امتحى إذا ذهب أثره. الأجود امَّحى، وأما امتحى فلغة رديئة[٥٣].

- الإنجار لغة قبيحة[٥٤].
- الطعام اسم جامع لكل ما يؤكل.... والعالي في كلام العرب أن الطعام هو البُرُّ خاصة[٥٥].
- أفْلَطَني، في لغة تميم بمعنى أفلتني، وهي قبيحة[٥٦].
- والبرُّ مَكيل.... ولغة بني أسد مَكُول، وهي لغة رديئة، ولغة أردأ: مُكال[٥٧].

مستويات دراسة لغات العرب في العين:

لا شك أن التباين اللهجي في العربية القديمة شمل جميع مستويات اللغة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والكتابية، على أن طبيعة كتاب العين تفرض غلبة الجوانب الصوتية والمعجمية، وفيما يأتي تمثيل للتباينات التي تضمنها كتاب العين.

المستوى الصوتي:

وأبرز قضاياه:

١- الإبدال الصوتي؛ إبدال صوت بصوت أخر أكان لذلك الإبدال داعٍ صوتي (كالمماثلة) أم لم يكن، وسواء أكان الإبدال مضطرداً أو غير مضطرد. ومنه:

- إبدال (س) زاياً : عرطس.... عرطز.
- إبدال (ر) لاماً : عَكَر.... عَكَلَ.
- إبدال (ص) سيناً : صَفَعَ.... سَفَعَ.
- إبدال (د) تاءً : مِسدَع.... مِستَع.
- إبدال (و) همزة: وِعاء.... إعاء.
- إبدال (ض) صاداً: حَضَبَ.... حَصَبَ.
- إبدال (ح) عيناً: عَدَس: حَدَس.
- ..... إلخ.

٢- تسهيل الهمزة، مثل: عظاءة وعظاية.

- **المستوى الصرفي:**

وقد تكون قضايا الصرف في لغات العرب هي الأكثر وروداً بعد القضايا الصوتية، ومن هذه القضايا:

- اختلاف بنية الكلمة الواحدة بين صورتين أو اكثر، وقد تكون إحدى الصورتين منسوبة إلى قبيلة والأخرى منسوبة إلى أخرى، وإن يغلب أن لا تنسب. ومن أمثلته: العَدَم والعُدْم، عَشْوة وعِشْوة وعُشْوة، ونُخاع، وعَضُد وعُضْد وعَضْد، والحِجْرُ والحَجْر لغتان.
- فَعَلَ وأَفْعَلَ بمعنى واحد (في التعدي واللزوم). ومن أمثلته:
- عَقَبَ وأَعْقَبَ، و حَزَنَ وأَحْزَنَ، و رَعَصَ وأَرْعَصَ، ونَضَجَ وأَنْضَجَ لغتان.
- فَعَلَ وفَعَّلَ بمعنى واحد. ومن أمثلته: رَسَعَ ورَسَّع.
- تعدد مصادر الفعل الواحد. ومن أمثلته:
- نعيْتُ نعياً ونُعْيان، الذَّهاب والذُهوب لغتان.
- في التذكير والتأنيث. ومنه: أهل الحجاز يقولون: هي الذهب. وبلغتهم نزلت "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله" ولولا ذلك لغلب المذكر على المؤنث... وغيرهم يقولون: هو الذهب[٥٨].
- ومنه: عطشى وعطشانة، وكسلى وكسلانة.
- اختلاف بنية الفعل المضارع. ومنه: نَحَتَ يَنْحِتُ ويَنْحَتُ، وسَحَوْتُ أسحو وأسحى وأسحي، و طحى يطحو ويطحى.
- المقصور والممدود، ومثاله: حيا الشاة؛ مقصور وممدود.
- ما كان واوياً ويائياً. ومن أمثلته: طُغيان وطُغوان، و القيُّوم والقيَّام، ونهيتُ عنه نَهَوْتُ عنه.
- القلب المكانيّ. ومنه: عَفَنْقَس وعَقَنْفَس، والبِطَّيخ والطِبِّيخ.

المستوى النحوي:

وقضاياه قليلة، منها: لغة أهل الحجاز وتميم في (سُحْقّ وبُعْدّ)، وتخفيف (إن) وتثقيلها وعملها مخففة ومثقلة، وتصريف (هلُمَّ) في لغة بني سعد.

المستوى المعجمي:

وهو جُلُّ مادة البحث التي اقتضتها طبيعة المعجم، وستأتي في بابها.

- المستوى الهجائي.
- وأمثلته نادرة، منها: الحيوة كُتِبت بالواو لِيُعْلَمَ أن الواو بعد الياء. ويقال: بل كتبت على لغة من يُفَخِّم الألف التي مرجعها إلى الواو نحو: الصلوة والزكوة[٥٩].

لغات العرب في معجم العين:

وهذه هي موارد لغات العرب في معجم العين، وهي مرتبة ترتيباً هجائياً حسب اسم القبيلة أو الإقليم بلفظ الخليل، وتوثيق كل موضع بإزائه يبدأ بالمجلد ثم رقم الصفحة.

الأزْد:

- الدَّغْر: الاقتحام من غير تثبُّت.... ولغة الأزد لصبيانهم: "دَغْرى لا صَفَّى" أي: احملوا ولا تُصافُوا. ٣٩١:٤
- الزَّقْفُ: لغة الأزد في السَّقْف، يقولون: ازدقفْ، أي استقِف. ٨١:٥

أهل البصرة:

- نوى العقوف: نوىٌ. وهي من كلام أهل البصرة، ولا تعرفه العرب في بواديها. ٦٣:١
- الحرّاقات: سفن فيها مرامي نيران يُرمى بها العدو في البحر بالبصرة، وهي أيضاً بلغتهم: مواضع القلاّئين والفحّامين. ٤٤:٣
- وسمعتُ أهل البصرة يُخَطِّئون من يقول: الجِهاز، بالكسر. ٣٨٥:٣
- الخَلالُ: البلح بلغة أهل البصرة، وهو الأخضر من البُسْر قبل أن يُشْقِحَ (يحمرّ أو يصفرّ)، الواحدة: خَلالة. ١٤١:٤
- السَّقِيفة: خشبة عريضة دقيقة طويلة تُلَفُّ عليها البواري فوق سطوح أهل البصرة، هكذا رأيتهم يسمونها. ٨٢:٥

والكنية للرجل، وأهل البصرة يقولون: فلان يُكنى بـأبي عبـد الله، وغيـرهم يقول: يكنى بعبد الله. وهذا غلط، ألا ترى أنك تقول: يسمى زيـداً، ويـسمى بزيـد، ويكنى أبا عمرو، ويكنى بأبي عمرو؟ ٤١١:٥

- الأشْل من الذَرْع، بلغة أهل البصرة.٢٨٦:٦

- الفرْصاد: شجر معروف، وأهل البصرة يسمون الشجرة فِرْصاداً وحمْلـه التـوت. ١٧٨:٧

- وأهل البصرة في أسواقهم يسمون السّاقي الذي يطوف عليهم بالماء بَيَّاباً. ٤١٥:٨

أهل بغداد:

- الكُراخة: الشُقَّة من البواري، بغدادية..... والكَرْخ سوق ببغداذ. ١٥٦:٤

أهل بيشة:

- ذوى يَذْوي ذَيّاً، وهو أن لا يصيب النباتَ والحشيشَ ريُّهُ. ولغة أهـل بيـشة ذأى. ١٩٩:٨

أهل تهامة:

- تقول: وفى يفي وفاءً..... وفَيْتَ بعهدك، وأهل تهامة: أوفيت. ٤٠٩:٨

أهل الجزيرة:

- الوافه: القَيِّمُ على بيت النصارى الذي فيه صليبهم، بلغة أهل الجزيرة. ٩٦:٤
- الفاثور عند العامة الطَّست خان، وأهل الشام يتخذون خواناً من رُخـام يـسمونها الفاثور. وفي بعض كلام أهل الشام والجزيرة: على الفاثور الواحد، يعني: علـى البساط الواحد. ٣٢١:٨

أهل الجوف:

- والحَوْفُ بلغة أهل الجَوف وأهل الشّحر كالهودج وليس به، تَرْكَـبُ بـه المـرأة البعير. ٣٠٧:٣
- شَلَطٌ: السِكِّين بلغة أهل الجوف. ٢٣٦:٦

أهل الحجاز:

- السُّحْقُ: البُعْدُ. ولغة الحجاز: بعدٌ له وسُحْقٌ؛ يجعلونه اسماً، والنصب على الدعاء عليه، أي : أبعده الله وأسحقه. ٣٧:٣
- الذَّهب: التِّبر. وأهل الحجاز يقولون: هي الذهب. وبلغتهم نزلت" والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله" ولولا ذلك لغلب المذكر على المؤنث... وغيرهم يقولون: هو الذهب. ٤٠:٤

والآية: ٣٤ من سورة التوبة.

- والمَذْهب: المُتَوَضَّا بلغة أهل الحجاز.
- وأهل الحجاز يقولون في الإجابة: ها، خفيفة. وفي هذا المعنى يقولون: ها بدل من ألف الاستفهام، تقول: ها إنك زيدٌ؟ معناه: أإنك زيدٌ؟ أو يقصر بعضهم فيقال: هَإنك زيدٌ؟ ١٠٣:٤
- الطِّبِّيخ: لغة في البِطِّيخ، حجازية. ٢٢٥:٤
- الخَوْخة: مفترق بين بيتين لم يُنْصَبْ عليهما باب، بلغة أهل الحجاز. وناس يسمون هذه الأبواب التي يسميها الفُرْسُ (بنجرقات): خَوْخات. ٣١٦:٤
- وأهل الحجاز يقولون: هذه الشجر، وهذه البُرُّ، وهي الشعير وهي التمر، وهي الذهب، لأن القطعة منه ذهبة، وبلغتهم نزل: "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله" ولذلك لم يقل: ينفقونه، لأن المذكر غالب للمؤنث، فإذا اجتمعا فالذهب مذكر والفضة مؤنثة. ٣١:٦
- وأهل الحجاز يسمون فساطيط عُمَّالهم: الأجواف. ١٨٩:٦
- المِشْمِشُ: وأهل الحجاز يسمون الإجَّاص مِشْمِشاً. ٢٢٥:٦
- وأهل الحجاز يثبتون الياء والواو في نحو صَيِدَ وعَوِرَ، وغيرهم يقول: صاد يَصاد وعار يَعارُ. ١٤٤:٧
- السَّبْطُ: الشعر الذي لا جُعودةَ فيه، ولغة أهل الحجاز: رَجُلٌ سَبِط الشَّعْرِ، وامرأة سَبِطة. ٢١٩:٧
- الطَّغْيَة: من خوص المَقْل، وهي حجازية. ٤٥٧:٧

- الدُفّ: لغة أهل الحجاز في الدَفّ الذي يُضْرَبُ به. ٨:١١
- الدَوِيّة: مفازة ملساء بلغة تميم، وداوِيّة لأهل الحجاز بلغتهم. وامرأة دَوِيّة؛ الواو مكسورة خفيفة على فَعِلَة، وإن خفّفتَها للنعت فالواو ساكنة مع الياء، والإشمام فيه أحسن من الإسكان. وناس من أهل الحجاز يفتحون ما كان من (ذو) ويقولون: رجلٌ دَوَى وامرأة دَوَى سواء. ٨:٩٢
- ومن العرب منْ يحذف لام ظَلِلْتُ ونحوها حيث يظهران، فأما أهل الحجاز فيكسرون الظاء على كسرة اللام التي أُلقِيَتْ، فيقولون: ظِلْنا والمصدر الظُلول... وقرئ:" ظِلْتَ عليه...". ٨:١٤٩

والآية ٩٧ من سورة طه.

- يُحكى بِـ (منْ) الأعلام والكنى والنكرات في لغة أهل الحجاز، إذا قال: رأيت زيداً قلتَ: من زيداً؟ وإذا قال: رأيت رجلاً قلت: منا يا فتى، وتقول في النصب والخفض إذا استفهمتَ عن رجل أو قوم قلت: مَنا للرجلْ، وإن قلت: مررت برجل قلت: مناً، ومَنَيْنَ للرجلين، ومَنِينَ للرجال، وتقول في الرفع: مَنو للواحد، ومَنان للاثنين، ومَنون للجميع. ٨:٣٩٠
- وللعرب في (إنْ) لغتان: التخفيف والتثقيل؛ فأما مَنْ خفّفَ فإنه لا يرفع بها، إلا أن ناساً من أهل الحجاز يخففون وينصبون على توهم الثقيلة. وقرئ :" وإنْ كُلًّا لما ليوفينهم" خففوا ونصبوا (كُلاً). ٨:٣٩٧

والآية ١١١ من سورة هود.

أهل حمص:

- الحظُّ.... وناس من أهل حمص يقولون: حَنْظ، فإذا جمعوا رجعوا إلى الحظوظ. وتلك النون عندهم غُنَّة ليست بأصلية، وإنما يجري على ألسنتهم في المشدَّد نحو: الرُزّ، يقولون: رُنْز، والتُرُجَّة: اترُنْجة، ونحو: إجّار: إنجار. فإذا جمعوا تركوا الغنة ورجعوا إلى الصحة فقالوا: أجاجير وحظوظ. ٣:٢٢

أهل السَواد:

- الكارخ: الذي يسوق الماء إلى الأرض، سواديّة. ٤:١٥٦

- والجُنْبُخ: الخابية الصغيرة، بلغة أهل السّواد. ٤:٣٢٨
- القَسْتة: القرية الصغيرة بلغة السواد. ٥:١٢
- الباقِلِيّ : اسم سواديّ وهو الفول، وحَبُّه: الجِرْجِر. ٥:١٧٠
- القاشي: الفَلْسُ الرّديء، سوادية. ٥:١٨٣
- الكَشوثُ: نباتٌ مُجْتَثٌّ مقطوع الأصل، أصفر يتعلق بأطراف الشوك، ويُجْعَلُ في النبيذ، من كلام أهل السواد، وليست بعربية محضة. يقولون: كشوثاء. ٥:٢٩١
- الكُسْبُج: الكُسْب في لغة أهل السواد. ٥:٤٢٤
- الخزير بلغة أهل السواد: رجل يختاره أهل القرية لما ينوبهم من نفقات مَنْ ينزل بهم من قِبَلِ السلطان. ٦:٦٣
- التراجيل: الكَرَفس بلغة العجم. وهو اسم سوادي من بقول البساتين. ٦:١٠٢
- الشَّرْان، فَعْلان، من كلام أهل السّواد، وهو شيء تسميه العرب: الأذى، شبه البعوض يغشى وجه الإنسان، لا يعض. ٦:٢١٧
- الرَّفْش والرُّشف، لغتان: سوادية. وهي المجرفة يرفش بها البُرُّ رَفْشاً. ٦:٢٥٤
- الشَّيلم والشَّالَم، بلغة أهل السواد: الزُّوان، يكون في البُرّ. ٦:٢٦٥
- سُنْسُن: اسم أعجمي يسمّي به أهل السّواد. ٧:١٩٨
- الزُّوان: حَبٌّ يكون في البُرّ يسميه أهل السواد: الشَّيلم، الواحدة زُوانة. ٧:٣٨٧
- النَّاطِر: الذي يحفظ الزَّرع، سوادية، غير عربية. ٧:٤١٣

أهل الشام:

- الخَرْنوب والخرُّوب شجر ينبت بالشام له حَبٌّ كحب الينْبوت، يسميه أهل العراق القِثّاء الشّاميّ، وهو يابس أسود. ٤:٣٣٧
- القِنْدأوْ: صحيفة للحساب وغيره، لغة أهل الشام ومصر. ٥:١١٨
- القَرَسطون: القَبّان، شامية. ٥:٢٤٩
- القَسْطرى: الجِهْبِذ، شامية. ٥:٢٤٩
- القَرَبوس: حِنْو السَّرْج، وبعض أهل الشام يثقّله وهو خطأ، ويجمعه قرابيس، وهو أشد خطأ. ٥:٢٥٢

- الفُنْدُق: خان من هذه الخانات التي ينزلها الناس في الطرق والمدائن، بلغة الشام. ٥:٢٦١
- الإصطبل: موقف الفرس، شامية. ٧:١٨٠
- الفاثور عند العامة الطَّست خان، وأهل الشام يتخذون خواناً من رُخام يسمونها الفاثور. وفي بعض كلام أهل الشام والجزيرة: على الفاثور الواحد، يعني: على البساط الواحد. ٨:٣٢١

أهل الشَّحْر:

- الاعتزاء:.... وكلمة شنعاء من لغة أهل الشَّحْر، يقولون: يَعزى لقد كان كذا وكذا، ويَعزيك ما كان ذلك. كما تقول: لعمري لقد كان كذا وكذا، ولعمرك ما كان ذاك. ٢:٢٠٦
- الخَسَفُ: تحميلك إنساناً ما يكره. والخَسَفُ: الجَوْزُ بلغة الشَّحر. ٤:٢٠٢

أهل الصَّمَّان:

- قال الخليل: سمعت أعرابياً فصيحاً من أهل الصَّمَّان يقول: كل فُرْجة تكون بين شيئين فهو عُقْرٌ وعَقْر لغتان.... ١:١٥١

أهل الطائف:

- الزَّرَجون بلغة أهل الطائف، وأهل الغَوْر: قُضبان الكرم. ٦:٦٣ وأيضاً: ٦:٢٠٢
- الفِرْصاد: حبُّ العِنَب والزبيب، والفِرصيد لغة فيه، طائفية. ٧:١٧٩

أهل العراق:

- أهل العراق يسمون البيت المُرَبَّع كَعْبة. ١:٢٠٧
- اللَّعْزُ: ليس بعربية محضة. لعزها: فعل بها ذاك. ومن كلام أهل العراق: لَعَزها لَعْزاً: باضعها. ١:٣٥٥
- صلْمِعَ رأسُهُ وصلْفِعَ: إذا استؤصِلَ شَعْرُهُ، بلغة أهل العراق. ٢:٣٣٨
- الواقَةُ: من طَيْر الماء، عراقية. ومنهم مَنْ يهمز الألف؛ لأنه ليس في كلام العرب واو بعدها ألف أصلية في صدر البناء إلا مهموزة نحو: الوَألة. ٥:٢٣٩

- القُنَيْبير: نبات يسميه أهل العراق: البَقْر، فيمشي كدواء المشيّ. ٢٦٤:٥
- المكُّوك: مكيال لأهل العراق. ٢٨٧:٥
- البرْنكان: كساء أسود، بلغة أهل العراق. ٤٣٢:٥
- الإستاج والإستيج من كلام أهل العراق، وهو الذي يُلَفُّ عليه الغـزل بالأصـابع. تسميه العجم: أستوجة وأُسجوتة أي دناجة. ٤٩:٦
- الأنْجرُ: مِرْساة السفينة، وهو اسم عراقي. ١٠٦:٦
- النَّشوط: كلمة عراقية، وهو سمك يُمقَرُ في ماء وملح. ٢٣٨:٦
- الشَّبُّوط: ضرب من السمك.... كلمة عراقية. ٢٤٠:٦
- داشِن معرَّب من الدَّشْن، والدَّاجن مثله، وهو كلام عراقي ليس من كـلام البادية ٢٤٣:٦
- وطائر يسميه أهل العراق: ابن آصى، فَعْلى وهو شبيه بالباشـق إلا أنـه أطـول جناحاً وأخبث صيداً، وهو الجدأ. ١٧٧:٧
- التَّبليط، عراقية: أن تَضرب فَرْع أذنٍ بطرف سبّابتك ضرباً يوجعه، تقول: بلَّطـتُ أذنه تبليطاً.
- البرانيّ بلغة أهل العراق: الذَّيكة الصغار أول ما تدرك. ٢٧٠:٨

أهل عُمان:

- السُّعْن: ظُلَّة يتخذها أهل عمان فوق سطوحهم من أجل ندى الوَمْدة. ٣٣٨:١
- الهيْس: أداة الفدّان بلغة عمان. و: هيسِ هيسِ تقولهـا العـرب فـي الغـارة إذا استباحت قرية أو قبيلة فاستأصلتها، أي لا بقي منهم أحد. ٧٢:٤
- البَرْخ: الجرف، بلغة عمان. ٢١١:٤
- البَرْخ: الرُّخيص بلغة عمان. والبَرخ: الحرب. وأهـل عمـان يقولـون: كيـف أسعاركم؟ فيقول المجيب: بَرْخ، هكذا، أي: رخيص. ٢٥٧:٤
- القَدْف: غَرْفُ الماء من الحوض، أو من شيء تصبُّه بكفِّك، بلغة عمان. ١١٩:٥
- الناقم: تمر بعمان، وحي باليمن. ١٨١:٥
- الوَيخ: خشبة الفدّان، بلغة عمان. ١٩٧:٦

- الزَّفْن: بلغة عمان، ظُلَّة يتخذونها فوق سطوحهم تقيهم وَمد البحر، أي: حرُّه ونداه. ٣٧٢:٧

أهل الغَوْر:

- ولغة أهل الغور: هدَيْتُ لك، أي بيَّنْتُ لك. وبها نزلت: " أفلم يهدِ لهم" الآيـــة ١٢٨ من سورة طه. ٧٨:٤
- وأهل الغور: قَضبان الكرم. ٢٠٢:٦
- الثُّغاء: الخَرْنَل، بلغة أهل الغور، والواحدة بالهاء. ٢٤٦:٨

أهل الكوفة:

- الكَبَرُ: طبل له وجه، بلغة أهل الكوفة. ٣٦١:٥
- الثُّرثِئة: الأحمق بلغة ناس من أهل الكوفة. ٢١:٨
- وقال أهل البصرة وبعض أهل الكوفة: هذا هو المرَوَّب، فأما الرَّائب فالـــذي أُخِـــذ زُبْده. ٢٨٤:٨

أهل المدينة:

- وتقول: حضرتِ الصلاةُ، لغة أهل المدينة، بمعنى تحضرُ، وكلهم يقولون: تَحْضُرُ. ١٠٣:٣
- الهَدِيَّة: ما أهديتَ إلى ذي مودة من برٍّ، ويُجْمَع: هدايا. ولغة أهل المدينة: هَداوى. ٧٧:٤
- وجاءت (الفُتْيا) لغة في الفَتوى لأهل المدينة خاصة. ١٨٧:٥
- الزَّاووق: الزَّنْبق لأهل المدينة. ويدخل في التصاوير. ١٩١:٥
- ويقال: الفُتْيا فيه كذا، وأهل المدينة يقولون: الفَتْوى. ١٣٧:٨
- سكبتُ الماء فانسكَبَ: صببته. وأهل المدينة يقولون: اسكُبْ على يدي، أي اصْبُبْ. ٣١٦:٥

أهل مكة:

- وأهل مكة يسمون ضربا من الثياب أخضرَ: الخَوْخة. ٣١٨:٤

- البَطَّة: الدّابّة بلغة مكة. ٧:٨٠٤

أهل مصر:

- هَيْتَ: من كلام أهل مصر. ٤:٨١
- الوهين بلغة أهل مصر: رجل يكون مع الأجير في العمل يحثُّه على العمل. ٤:٩٣

أهل اليمن:

- والمِعْلاق: ما عَلِقَ من العنب ونحوه. وأهل اليمن يقولون: مُعْلوق، أدخلوا الضمة والمدّة، كأنهم أرادوا حذْوَ المُذْهُن والمُنْخُل ثم مدّوا. ١:١٦٣
- العنْكُ: الباب بلغة اليمن. ٢:٢٠٣
- الفُرْقُعة وهي الأست بلغة يمانية. ٢:٣٠٢
- العنكبوت بلغة أهل اليمن : العنكبوه والعنكباه. ٢:٣٠٩
- الفَقْحة: الراحة بلغة اليمن. ٣:٥٢
- القَحْبة: المرأة بلغة اليمن. ٣:٥٣
- الكَحْبُ: البَرْوَق بلغة أهل اليمن، والحبة منه كَحبة. وهو الحِصْرِم. ٣:٦٥
- الذَّهبُ: مكيال لأهل اليمن. ٤:٤١
- الهِبْرِزِيّ: الخُفُّ الجيد بلغة أهل اليمن. ٤:١٢٣
- المِخْلاف: الكُورة بلغة أهل اليمن. ٤:٢٦٧
- الخال: ثوب ناعم من ثياب اليمن. ٤:٣٠٤
- والجُنْبُخ: القَمْلَةُ الضخمة بلغة أهل اليمن. ٤:٣٢٨
- الزَّفْد: كلمة يمانية. وزَدَقَ لغة لهم في صَدَقَ. ٥:٨٨
- وبزقوا الأرض أي بذروها، وهي يمانية. ٥:٩٣
- الإقليد: المفتاح، يمانية. ٥:١١٧
- القَلُّوب: الذئب، يمانية، وكذلك القَلوب، ويقال: قَلَّاب. ٥:١٧١
- وما زِلتُ أستقري هذه الأرضَ قريةً قريةً، والقِرْية لغة يمانية، ومن ثمَّ اجتمعوا في جمعها على القُرى فحملوها على لغة من يقول: كُسْوة وكُسى. ٥:٢٠٣
- المِقْوَل: اللِّسان. والمِقْوَل بلغة أهل اليمن: القَيْل ، وهم المَقاولة والأقيال والأقوال ،

والواحد القَيل. ٥:٢١٢

- الشُكْدْ كالشُكْر لغة أهل اليمن، يقال: هو شاكرٌ شاكد. والشُكْدْ لسائر العرب: ما أعطيت من الكَدْس عند الكيل، ومن الحُزَم عند الحصد. ٥:٢٩٠
- الكَلْوة لغة في الكَلْية، لأهل اليمن. ٥:٤٠٥
- الجَرين: موضع البيدر بلغة اليمن، وعامتهم بكسر الجيم، وناس يسمون الموضع الذي يجمعون فيه التمر جريناً، والجميع الجُرُن. ٦:١٠٤
- الويح والويل: باليمانية، اسم الخشبة الطويلة بين الثورين. ٦:٧٥
- الإنجار لغة يمانية في الإجّار وهو السَّطح، وقد يجيء في كلامهم أنه الحُجْرَة التي على السطح. ٦:١٠٧
- الجَفْنُ: ضرب من العنب، ويقال: هو نفس الكرْم بلغة اليمن. ٦:١٤٦
- الشَّرْناق: ورق الزرع إذا طال وكثر حتى يُخاف فساده فيقطع، فيقال: شَرْنَقَ الزَرع، وهي كلمة يمانية. ٦:٣٠٢
- المَضْد: لغة في الضَّمد في بابه، يمانية من المقلوب. ٧:٢٤
- وناس من أهل اليمن مما يلي الشَّحْر وعمان يكسرون (فاء فَعيل) كلَّه، فيقولون للكَثير: كِثير. ٧:١٧٥
- وأما كسر كَثير وأشباه ذلك من غير حروف الحَلْق فإنهم ناس من أهل اليمن، وأهل الشَّحْر، يكسرون كل (فَعيل)، وهو قبيح إلا في الأحرف الستة، وفيها أيضاً يكسرون صدر كل فعل يجيء على بناء (عَمِلَ)، نحو: شِهِدَ وسِعِدَ، ويقرؤون: " وما شهِدنا إلا بما علمنا". الأية ٨١ من سورة يوسف. ٧:٣١٧
- الزُبُّ: اللِّحية بلغة أهل اليمن. وزُبُّ الصبي معروف، وهو ذَكَرُهُ بلغة أهل اليمن. ٧:٣٥٣
- النَظُّ: الشَلُّ بلغة أهل اليمن. ٨:٥
- البُرْتُ: الفأس بلغة اليمن، والبُرْتُ بلغتهم السُكَّرُ الطَبَرْزَد. ٨:١١٨
- التَلْمُ: مَشَقُّ الكراب في الأرض بلغة اليمن. ٨:١٢٦
- تقول: آتيتُ فلاناً على أمره مؤاتاة، ولا تقول: واتيته مواتاة إلا في لغة قبيحة لليمن.

وأهل اليمن يقولون: واتيت وواسيت وواكلت ونحو ذلك، ووامرت من أمرت، وإنما يجعلونها واواً على تخفيف الهمزة في يؤاكل ويؤامر، ونحو ذلك. ٨:١٤٧

- اليَنَمُ: بلغة اليمن نظير البركة. ٨:٣٨٨
- وتكون (أمْ) مبتدأ الكلام في الخبر، وهي لغة يمانية، يقول قائلهم: هو من خيار الناس أمْ يطعم الطعام أم يضرب الهام.... وهو يُخْبِرُ. ٨:٤٣٥
- قال الخليل: مدة الواو منها(مُوَيْات) تصير إلى أصلها، وكذلك ألف الياء من اليـاء لا تهمز إنما مدّوا في لغة اليمن ياء فعلى ذلك يُبْنى ويُحتذى. ٨:٤٤٤

بنو أسد:

- قَعن. اشتق منه اسم قُعَيْن، وهي في أسد وفي قيس أيضاً. ويقال: أفصح العرب نَصْرُ قُعَيْن أو قُعَيْنٌ نصر. ١:١٦٩
- كالَ البُرَّ يكيل كَيْلاً، والبُرُّ مكيل. ويجوز في القياس: مَكيول. ولغة بني أسد مَكول، وهي لغة رديئة، ولغة أردأ: مُكال. ٥:٤٠٦

بنو الحارث:

- الضَحَك: الثَّلج. ويقال: جوف الطَّلْع، وهي من لغة بني الحارث، يقال: ضحِكَتِ النَّخْلَةُ إذا انشقَّ كافورها. ٣:٥٨
- البَألة: القارورة بلغة بلحارث، وهي بالنبطية بالتاء. ٨:٤٢

بنو سعد:

- هَلُمَّ: كلمة دعوة إلى شيء والتثنية والجمع والوحدان، والتأنيث والتذكير فيه سواء، إلا في لغة بني سعد فإنهم يحملونه على تصريف الفعل؛ فيقولون: هَلُمَّا وهَلُمُّوا ونحو ذلك. ٤:٥٦

بنو عدي:

- ولغة بني عديّ: كُدتُ أفعل كذا، بالضم. ٥:٣٩٥

تَغْلِبُ:

- القَشْم: اللَّحم إذا نضج واحمرّ لونه فسال وَدَكُه، الواحدة قَشْمة بلغة تغلب. ٥:٤٧

تميم:

- من ترك عنعنة تميم وكشكشة ربيعة فهم الفصحاء. أما تميم فإنهم يجعلون بدل الهمزة العين. قال شاعرهم:

إن الفؤاد على الذّلفاء قد كمدا وحبُّها موشك عنْ يصدع الكبدا. ١:٩١

- الخَبْعُ: الخَبء في لغة تميم. يجعلون بدل الهمزة عيناً. وخبع الصبيُّ خبوعاً: أي فحِمَ من شدة البكاء حتى انقطع نفسُهُ. ١:١٢٣

- والعَقِب: مؤخّر القدم، تؤنثه العرب، وتميم تخففه. ١:١٧٨

- وإذا اهلَكتَهُ لما نزل به من سوء قُلْتَ: بُعداً له، كما قال: "بَعِدَت ثمود". ونصبه فقال: بُعداً له لأنه جعله مصدراً ولم يجعله اسماً. وفي لغة تميم يرفعون وفي لغة أهل الحجاز أيضاً. ٢:٥٤

- للعرب في "حيث" لغتان، واللغة العالية: حيثُ الثاء مضمومة وهو أداة للرفع يرفع الاسم بعده. ولغة أخرى: حَوْثُ؛ رواية عن العرب لبني تميم. قال:

ولكن قذاها واحد لا تريده أتتنا بها العيظان من حوث لا ندري

وقد نسب المحققان هذا البيت للأخطل ٣:٢٨٦

- احولّت عينه احوِلالاً واحوالّت احويلالاً، ولغة تميم: حالت عينه تحال حَوَلاً. ٣:٢٩٩

- ولغة تميم: شَهِدَ بكسر السين؛ يكسرون "فَعِلَ" في كل شيء كان ثانيه أحد حروف الحلق. وكذلك سفلى مضر. ولغة شنعاء يكسرون كل "فَعِل"، والنصب اللغة العالية. ٣:٣٩٨

- العَرْجَلة: القطيع من الخيل، وهي بلغة تميم: الحرجلة. ٢:٣٢٠

- الهيف دقة الخصر، وصاحبه: أهْيَف وهيفاء. والفعل: هَيِف يَهْيَف. ولغة تميم: هاف يهاف هَيَفاً. ٤:٩٦

- الصِّماخ: خَرقُ الأذن إلى الدماغ، والسِّماخ لغة فيه. والصَّاد تميمية. ٤:١٩٢

- وانظر أيضاً: ٤:٢٠٦

- يقال: خراب، وثلاثةُ أخربة، والجميع: خَرِبٌ كالكلمة والكلم. ولغة تميم: خِرْبٌ

وكِلْمٌ، الواحدة: خِرْبة وكِلْمة. ٢٥٥:٤ وانظر أيضاً: ٣٧٨:٥.

- لَصِقَ يَلْصَقُ لُصوقاً، لغة تميم. ٦٤:٥
- الوَقْطُ: موضع يستنقع فيه الماء يتّخذ فيه حياض تحبس الماء إذا مُرَّ بها... ويجمع أيضاً: وِقاطاً ووِجاذاً، ولغة تميم إقاط، وهم يصيرون كل واو يجيء في مثل هذا ألفاً. ١٩٤:٥
- لقيته لقيةً واحدة ولقاءة واحدةً، ولغة تميم لقاءةً. ٢١٢:٥
- نَكِلَ يَنْكَلُ تميمية، ونَكَلَ حجازية. ٣٧١:٥
- الاصاتم جماعة الأُصْطُمَّة بلغة تميم، جمعوها بالتاء على هذه اللغة لأنهم كرهوا التفخيم (أصاطم) فردّوا الطاء إلى التاء. ١٠٧:٧
- رجال صُيّام، ولغة تميم صُيَّم ١٧١:٧
- والإسادة....وهو اسم وقع على وسائد، وهي لغة بني تميم، وكذلك لغتهم في كل واو مكسورة في الأدوات على فِعال وفِعالة، والجميع وسائد. ٢٨٤:٧
- أَفْلَطَني في لغة تميم بمعنى أفلتني، وهي قبيحة. ٤٣٠:٧
- الدَّوِيّة مفازة ملساء بلغة تميم، وداوِيّة بلغة الحجاز. ٩٢:٨
- الأَيْدُ: القوة، وبلغة تميم الآدُ، ومنه قيل: آدَ فلانٌ فلاناً إذا أعانه وقوّاه. ٩٧:٨
- الوَدُّ: الوتِدُ بلغة تميم، فإذا صغّروا ردوا التاء فقالوا: وُتَيْد. ١٠٠:٨
- الرَّبَذة: صوفة يؤخذ بها القطران فيُهْنأ بها البعير... والرَّبْذة تميمية، والثُّملة حجازية. ١٨٣:٨
- أولاء: يُقْصَرُ في لغة تميم، وأهل الحجاز يمدون أولاء. ٣٧٠:٨
- فأما تميم فإنهم يجعلون ألف كل (أنَّ وأنْ) منصوبة من المثقَّل والمخفَّف عيناً، كقولك: أريد عَنْ أكلمك، وبلغني عنْك مقيم. ٣٩٨:٨
- ومن العرب من يقول: هذه ماءة، كبني تميم، يعنون: الرَكِيَّة بمائها. ٤٢٣:٨

جُهَيْنة:

- دافَفْتُ الرجلَ دِفافاً ومُدافَّة، وهو إجهازك عليه أي مبادرة إلى قتله، والآمِرُ الذي يأمُرُ يقول: دافَّ الرجلَ أي: ائتِ عليه، ويخفف في لغة جهينة فيقال : دافَيْتُه ،

ويأمر فيقول: دافِ ياهذا. ٨:١١

حمْيَر:

- العلْوَش: الذئب بلغة حمير. وهي مخالفة لكلام العرب؛ لأن الشينات كلها قبل اللام. ١:٢٥٦
- العلْوَض: ابن آوى بلغة حِمْيَر، ولم يعرفه الضرير ولا غيره. ١:٢٧٩
- العُكسوم: الحمار بالحميرية، ويقال: هو الكسْعوم. ٢:٣٠٥
- الحَجَمة: العَيْن بلغة حمير. وحَجَمتا الأسد: عيناه، بكل لغة. ٣:٨٨
- الشُّخاف: اللَّبَنُ بالحميرية. ٤:١٧٢
- امرأة بَيْدَخة: نارّة، لغة حمير. ٤:٢٣٤
- القباية: المفازة بلغة حمير. ٥:٢٢٩
- شَقَلْتُ الدنانير: غيَّرْتها، وهي كلمة عبادية حميرية ليست بعربية محضة. ٥:٤١
- الشَّشْقَلة: كلمة حميرية عباديَّة، لهَجَ بها صيارفة العراق في تغيير الدينار، ليست بعربية محضة. ٥:٢٤٥
- وفي لغة حمير: ثِبْ معناه: اقعد، والوثاب الفِراش بلغتهم. ٨:٢٤٧
- الشَّنْتَرة: الإصبع بالحميرية، وجمعه الشَّنائر. ٦:٣٠١
- المُبَلَّت بلغة حمير: المَهْر المضمون. ٨:١٢٥

الخَفْجيَون:

- وفي لغة الخفجيين: عَكَبَتِ حولهم الطَّيْرُ فهي طير عَكوب أي: عَكوف. ١:٢٠٦

ربيعة:

- من تَرك عنعنة تَميم وكشكشة ربيعة فهم الفصحاء... وربيعة تجعل مكان الكاف المكسورة شيناً. قال:

- تَضحَكُ مني أن رأتني أحتَرِش ولو حَرَشْتِ لكَشَفْتِ عن حرِش

- قال: بل يقولون: عَلَيْكِش وبِكِش. ويقال: بل يبدلون في كل ذلك. ١:٩١
- السُّخَب: الصَّخَب بلغة ربيعة. ٤:٢٠٣

- لَصِقَ... لغة تميم، ولَزِقَ لربيعة، وهي أقبحها إلا في أشياء نصفُها في حدودها. ٦٤:٥
- الكشكشة: لغة لربيعة، يقولون عند كاف التأنيث: عَلَيْكِش، إِلَيْكِش، بِكِش بزيادة شين. ٢٦٩:٥
- الذِّكْرُ ليس في كلام العرب، وربيعة تغلط فتقول: الذِّكرُ للذكر، ويقال: هو اسم موضوع من الذكر. ٢٧:٥
- المطعمون اللحم بالعَشَجّ وبالغداة كُتَلَ البَرَنِجّ، يريد بالعشجّ: العشيّ، وبالبرنجّ: البرنيّ، لغة لربيعة يجعلون الياء القليلة جيماً أعجمية. ٣٣٧:٥

طَيِّئ:

- والقطعة في طيِّئ كالعنعنة في تميم وهي أن يقول: يا أبا الحكا، وهو يريد: يا أبا الحَكَم، فيقطع كلامه عن إبانة بقية الكلمة. ١٣٧:١
- المَحْو لكل شيء يذهب أثره. تقول: انا أمحوه وأمحاه، وطيِّئ تقول: مَحَيْتُهُ محياً ومحواً، وامتحى الشيء يمّحي امّحاء، وكذلك امتحى إذا ذهب أثره، والأجود: امّحى، والأصل فيه: انمحى. وأما امتحى فلغة رديئة. ٣١٤:٣
- وتقول: آخيته. ولغة طيِّئ: واخيته، وهذا رجل من آخائي بوزن أفعالي، وتقولك آخيْتُ على أصل التأسيس، ومن قال: واخيت، بلغة طيِّئ، أخذه من الوخاء. ٣١٩:٤
- وقَفْيْكَ، بإبدال الألف ياءً لغة طيِّئ. ٢٢٢:٥
- السَّدِكُ: المولَعُ بالشّيء، في لغة طيِّئ. ٣٠٥:٥
- ولغة طيِّئ: هذه رَجُلة وهذا رجل، وهذا رجل أي: راجل، وهي رجلة أي: راجلة، وقال في الرجلة التي هي المرأة:
- خَرَقوا جَيْبَ فتاتهم لم يُبالوا سَوْءة الرَّجُلة ١٠١:٦
- السُّؤْدُد: لغة طيِّئ. ٢٨١:٧

مُضَر:

- الفَخِذُ: وَصل ما بين الورك والساق، ويُخفَّفُ فيقال: فِخْذ في لغة سُفلى مضر ٢٤٥:٤

- الجُنْبخ: الضَّخْم بلغة مضر، النون قبل الباء. ٣٢٨:٤
- الفقُّوص: البطِّيخ. بلغة مضر: الذي لم ينضج. ٦٧:٥
- ركِنَ إلى الدنيا يَرْكَنُ رَكَناً، وركَنَ يَرْكُنُ ركوناً لغة سُفلى مضر. ٣٥٤:٥
- قالوا: نَعِيم وبَئِيس..على فَعِيل، ولغة لسُفلى مضر: نِعيم وبِئِيس، يكسرون الفاء في فَعِيل إذا كان الحرف الثاني من حروف الحلْق الستَّة، وبلغتهم كُسرَ: الضئين ورئِيس ودِهين. ٣١٧:٧

هُذَيل:

- وهذيل تقول للقصّاب: الفَعْقَانيّ. ١٢٣:١
- والقَنوع بمنزلة الهَبوط، بلغة هذيل، من سطح الجبل. ١٧٠:١
- عَرَجَ يعْرُجُ عُروجاً، ولغة هذيل: يَعْرِجُ ويَعْكِف، هم مولعون بالكسر. ٢٢٣:١
- العَنَجُ بلغة هذيل هو الرجل. ويقال بالغين، وهذيل تقول: غَنَج على شَنَج. ٢٣٢:١
- المعصوب: الجائع بلغة هذيل، الذي كادت أمعاؤه تتيبس. ٣٠٩:١
- عَبْدٌ مُسْبَعٌ في لغة هذيل: عبد مُتْرَف. ويقال: تُرِك حتى صار كالسبع لجرأته على الناس. ٣٤٤:١
- القُمَيْعُل: القَدَح الضخم بلغة هذيل. ٣٠٠:٢
- كُرِّم: كَثُرَ بلغة هذيل. ١١٥:٣
- الكَرْهاء: أعلى النُّقرة بلغة هذيل. ٣٨٥:٣
- سحابة خَلوج: متفرقة بلغة هذيل. ١٦١:٤
- الخَموش: البعوض بلغة هذيل. ١٧٤:٤
- أخرات المزادة: عُراها بينها القصبة التي تُحْمَلُ بها، الواحدة خُرْتَة، هذلية ٢٣٧:٤
- المُسْتَخْمِرُ: الشَّرِّيب، هذلية. ٢٦٣:٤
- وتقول هذيل: غَنَج على شَنَج، أي رجلٌ على جَمَل. ٣٥٧:٤
- ويقال: سمعت طَغْيَه، أي صوته، هذلية. ٤٣٦:١
- القِتْرُ: سهام صغار هذلية..... وتقول هذيل: أكل حتى اقترَّ، في الناس وغيرهم، والاقترار الشِّبع. ١٢٥:٥

- قام فلان على مِقْوَس، أي على حِفاظ، هذلية. ١٨٩:٥
- قَيْنة: الأمة، وجرى في العامة أن القَيْنة: المُغَنِّيَة.... وهي هذلية. ٢١٩:٥
- وهذيل تسمي الزَّمَتَيْن، حرفا رأس السهم، الفُوقَيْن. ٢٢٥:٥
- وتقول هذيل: غَنَج على شَنَج، أي رجلٌ على جَمَلٍ، فالغنج هو الرجل والشَّنَجُ هو الجمل. ٣٨:٦
- الجَرْدُ: ثَوبٌ خَلَقٌ، لغة هذيل، وهذيل تقول: لُبْسٌ جَرْدة، وأرض مجرودة ومَجْرَدٌ وجُرْدةٌ، أي: ليس فيها سترة من شجر وغيره. ٧٧:٦
- الفَريج: البارد، هذلية. ١١٠:٦
- الشَّتْن: النَّسج. يقال: شَتَنَ الشَّاتِنُ الثوب، أي: نسجه، وهي لغة هذلية. ٢٤٦:٦
- الصَّوْم: شجرٌ بلغة هذيل. ١٧٢:٧
- كلام نسيف: خفيّ، هذلية. ٢٧٠:٧
- الواسط: النبات، هذلية. ٢٧٩:٧
- الأزْيَب: ريح من الرِّياح، بلغة هذيل، أراها: الجنوب. ٣٩٢:٧
- رجل مُتَوَزِّم: شديد الوطء، هذلية. ٣٩٣:٧
- لقيت فلاناً افْلاطاً، أي: بغتة... هذلية. ٤٣٠:٧
- اللِّيط: اللَّوْن، هذلية. ٤٥٣:٧
- وهذيل تقول: لَدَّهُ عن كذا، أي: حبسه. ٩:٨
- وتقول هذيل: ائْرَبِتْ الصَّيْدَ، أي : خاتله. ٦١:٨
- الذَّبر بلغة هذيل خَفِيَّة يذبُرُها ذبراً. ١٨٢:٨
- الثَّلْب: الشيخ، هذلية. ٢٢٧:٨
- الرَّبابة: خِرقة تُجْعَلُ فيها القداح، هذلية، واشتقاقه من رَبَبْتُ الشيء: جمعته. ٢٥٩:٨
- وقال بعضهم: بل الإِيرُ: ريح الشمال الباردة بلغة هذيل. ٣٠٤:٨
- الفَليل: السَّيْف... والفليل: الشَّعر، هذلية. ٣١٦:٨
- كتاب مُنَمَّل: مكتوب، هذلية. ٣٣٠:٨
- النَّوْب: القُرْب، خلاف البعد، هذلية. ٣٧٩:٨

ملحق بتواتر القبائل وسماتها اللهجية في العين

اسم القبيلة الجماعة	التكرار
الأزد	٢
أهل البصرة	٩
أهل بغداد	١
أهل بيشة	١
أهل تهامة	١
أهل الجزيرة	٢
أهل الجوف	٢
أهل الحجاز	١٧
أهل حمص	١
أهل السواد	١٨
أهل الشام	٨
أهل الشحر	٣
أهل الصمان	١
أهل الطائف	٢
أهل العراق	١٥
أهل عمان	٨
أهل الغور	٣
أهل الكوفة	٣
أهل المدينة	٦
أهل مكة	٢
أهل مصر	٢
أهل اليمن	٣٨

بنو أسد	٢
بنو الحارث	٢
بنو سعد	١
بنو عدي	١
تَغلب	١
تَميم	٢٥
جُهَينَة	١
حِمْيَر	١٢
الخفجيون	١
ربيعة	٦
طيئ	٧
مضر	٤
هُذَيل	٣٩

الحواشي.

(١) انظر مثلاً: نهاد الموسى، في تاريخ العربية. ووليد العناتي، التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية.

(٢) العين، ٤: ١٢٠.

(٣) انظر في تفصيل هذه المسائل: نهاد الموسى، في تاريخ العربية، ووليد العناتي: التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية.

(٤) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ١:١٥٨.

(٥) غريب الحديث، ٣:١٥٩-١٦٠.

(٦) معاني القرآن، ٣:٢٨٦.

(٧) أوضح المسالك، ٢:٢٢٩-٢٣٠.

(٨) أبو عبيد القاسم بن سلام، لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم: ٥٧. الآية ١٩٧ من سورة البقرة.

(٩) أبو عبيد، المصدر السابق:١٥٧، والآية ١٨٢ من سورة البقرة.

(١٠) المصدر نفسه: ١٠٩، والآية ١٨٨ من سورة الأعراف.

(١١) سورة هود، ٦٢.

(١٢) لغات القبائل الواردة في القرآن ١٣٥، والإتقان في علوم القرآن، ١:١٧٥.

(١٣) غانم قدوري الحمد، رسم المصحف، ٢٠٥-٢٣١.

(١٤) نقلاً عن كتاب اللغة وبناء الذات :٤١.

(١٥) لتفاصيل وافية في هذه المسألة: ظاهرة الإعراب في اللهجات العربية القديمة، في كتاب: في تاريخ العربية لنهاد الموسى.

(١٦) المستشرقون والمناهج اللغوية، ٣٢.

(١٧) العين، ٢:١٣٩.

(١٨) نفسه، ٢:٥٦.

(١٩) نفسه، ٢:٢١٠.

(٢٠) نفسه، ٢:٢٥٣

(٢١) نفسه، ٣:٣٠٧.

(٢٢) نفسه، ٢:٣٣٩.

(٢٣) نفسه، ٣:٢٤٩.

(٢٤) نفسه، ٣:٣٣٣.

(٢٥) انظر مقدمة التحقيق.

(٢٦) العين، ٣:٥٨.

(٢٧) نفسه، ٣:١٠٣.

(٢٨) نفسه، ٣:٣٠٧.

(٢٩) نفسه، ٤:١٥٢.

(٣٠) نفسه، ٤:٢١٦.

(٣١) نفسه، ٤:٢٩٥.

(٣٢) نفسه، ٤:١٢٠.

(٣٣) نفسه، ١:٩١.

(٣٤) نفسه، ١:١٣٧.

(٣٥) نفسه، ٧:٤٥٤.

(٣٦) نفسه، ٤:٢١١.

(٣٧) نفسه، ٤:٢٥٦.

(٣٨) نفسه، ٤:٢٦٧.

(٣٩) نفسه، ٦:٢٤٠.

(٤٠) نفسه، ٥:٣٦١.

(٤١) نفسه، ٨:٢١.

(٤٢) نفسه، ١:٢٠٥ والآية ١٨٧ من سورة البقرة.

(٤٣) نفسه، ١:٢٦٠ والآية ٣١ من سورة يوسف.

(٤٤) نفسه، ٢:٥٧.

(٤٥) نفسه، ٣:٢٥٩.

(٤٦) نفسه، ٢:٢٣١.

(٤٧) نفسه، ٥:٢٥٢.

(٤٨) نفسه، ٥:٢٥٢.

(٤٩) نفسه، ٢:٢٤٩.

(٥٠) نفسه، ٣:١٠٤.

(٥١) نفسه، ١:٢٩٧.

(٥٢) نفسه، ٣:١٤.

(٥٣) نفسه، ٣:٣١٤.

(٥٤) نفسه، ٦:١٧٤.

(٥٥) نفسه، ٢:٢٥.

(٥٦) نفسه، ٤٣٠:٧

(٥٧) نفسه، ٤٠٦:٥.

(٥٨) نفسه، ٤٠:٤. والآية ٣٤ من سورة التوبة.

(٥٩) نفسه، ٣١٧:٣.

المصادر والمراجع.

- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ط٦، مكتبة الإنجلومصرية، القاهرة، د.ت.
- إبراهيم السامرائي، في تاريخ العربية، منشورات المركز الثقافي في جامعة الموصل، ١٩٧٧م.
- أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، د.ط، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣م.
- إسماعيل عمايرة، المستشرقون ومناهجهم اللغوية، ط٢، دار حنين، عمان، ١٩٩٢م.
- جامعة عدن، مركز البحوث والدراسات اليمنية، ندوة الألسنة واللهجات اليمنية، ط١، ٢٠٠١م.
- ابن الجزري، أبو الخير محمد بن أحمد (ت ٨٣٣هـ)، تقريب النشر في القراءات العشر، ط٢، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢م.
- تشيم رابين، اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية، ترجمة عبد الكريم مجاهد، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٢م.
- جميل سعيد وداود سلوم، معجم لغات القبائل والأمصار، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٨م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت٣٩٢هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.
- أبو حيان الأندلسي، أثير الدين (ت٧٤٥هـ)، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ط١، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٧م.
- الخليل بن أحمد الفراهيديّ (١٧٦هـ)، العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط، د.ت، د.مكان نشر.

- نفسه، الجمل في النحو، تحقيق فخر الدين قباوة، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.
- داود سلوم، المعجم الكامل في لهجات الفصحى، ط١، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧م.
- السجستاني، أبو حاتم سهل بن محمد (ت٢٥٥هـ)، فَعَلْتُ وأَفْعَلْتُ، تحقيق ودراسة خليل إبراهيم العطية، جامعة البصرة، ١٩٧٩م.
- ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب (ت٢٤٤هـ)، الإبدال، تحقيق حسين محمد شرف، الهيئة العامة لشؤون المطابع، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٧٨م.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (ت ١٧٧هـ)، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار القلم، ١٩٦٦م.
- السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين (ت٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق عصام فارس ومحمد أبو صعيليك، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.
- نفسه، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وضبط محمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، ط١، مطبعة البابي الحلبي، مصر.
- عبد الغفار هلال، اللهجات العربية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م.
- عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.
- عبد الرحمن بو درع وآخران، اللغة وبناء الذات، كتاب الأمة، العدد ١٠١، ٢٠٠٤م.
- أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (٢٤٤هـ)، غريب الحديث، تحقيق حسين محمد شرف ومراجعة عبد السلام محمد هارون، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٤م.
- نفسه، لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم، شرح وتحقيق عبد الحميد السيد طلب، ١٩٨٤م.
- غالب المطلبي ، لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، منشورات وزارة الثقافة

والفنون، الجمهورية العراقية، بغداد، ١٩٧٨م.
- غانم قدوري الحمد، رسم المصحف: دراسة لغوية تاريخية، ط١، بغداد، ١٩٨٢م.
- كراع النمل، أبو الحسن علي بن الحسن الهنائي (٣١٠هـ)، المجرّد في غريب كلام العرب ولغاتها، تحقيق محمد بن أحمد العمري، ط١، ١٩٩٢م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٥هـ)، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، ١٣٩٩هـ.
- نهاد الموسى، في تاريخ العربية: أبحاث في الصورة التاريخية للنحو العربي، ١٩٧٦م.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين (٧٦١هـ)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، شرح وتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨م.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين (٧٦١هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ط١، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م.
- وليد العناتي، التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية، كتاب الشهر، العدد ١٨، وزارة الثقافة الأردنية، ٢٠٠١م.

الماء في كتاب العين للخليل:
دراسة مقارنة

أ.د. حميد لحمداني
جامعة سيدي محمد بن عبد الله ـ المغرب

الماء في كتاب العين للخليل: دراسة مقارنة

أ.د. حميد لحمداني

ملخص.

الدراسة التي نقوم بها لمفهوم الماء في كتاب العين مقارنة مع ما ورد في المعاجم العربية وبعض المصادر التراثية اللغوية والأدبية اللاحقة – ليست دراسة مألوفة لأنها لن تكتفي بضوابط البحث المعجمي في اللغة العربية عن مدلولات الماء، بل تحاول معرفة ما وراء الدلالات المعجمية للفظ الماء ومشتقاته وللكلمات المتصادية معه (باعتبارها تتألف من نفس الحروف ولكن بترتيب متفاوت) مما له علاقة بالإنسان وتفكيره وتأملاته في الكون وتراثه الديني والثقافي وطموحاته وأحلامه وتفكيره الأسطوري . ولن تكون جميع المنطلقات المعجمية في هذا البحث إلا ذريعة لارتياد هذه الأبعاد الثقافية والبحث في إمكانياتها وممكناتها.

وقد وقفنا بالطريقة الفريدة التي وضع بها الخليل معجم العين على عدد من الترابطات، وما تستدعيه من إمكانيات تأويلية تتيحها المقارنة بين معاجم اللغة العربية، وهي كثيرة وغنية بالمعلومات التي تخص علاقة الإنسان بلغته، وارتباط هذه اللغة كما رأينا بأحلامه وطموحاته ومخاوفه. ولعل هذا البحث سيسمح مستقبلا بتناول الدراسة المعجمية من زاوية وظيفية، أي في علاقتها بالإنسان وظروفه الخاصة وهواجسه وتطلعاته.

خصوصيات التأليف في كتاب العين:

نشير في البداية إلى أن كتاب العين هو أقدم معجم لغوي في العربية، بني على أساس علمي في استقراء المستعمل من الصيغ على الأوزان الآتية: الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي. لكن الخليل انطلق من البنية التشكيلية الافتراضية لحروف اللغة داخل هذه الصيغ الصرفية وهي تقوم على الأساس الاحتمالي الرياضي، فعلى سبيل المثال: يعطينا التأليف بين الحروف الثلاثة: (ك ت ب) ست إمكانيات تأليفية هي، كتب، كبت، تكب، تكب ، بتك، بكت. ولا يمكن اعتبار إحداها

أصلا فكل صيغة هي أصل مستقل بذاته عن الأصول الأخرى.

لذا وجب التنبيه إلى أن المأخذ المعروف لدى أحمد أمين وقد جاء فيه (أننا لا نعلم (لدى الخليل) ما هو الأصل وما هو المقلوب)[١] لا يراعي الطبيعة الرياضية الاحتمالية التي أسس عليها الخليل معجمه اللغوي وهي، كما يأتي:

- الثنائي له وجهان.
- الثلاثي له ستة أوجه.
- الرباعي له أربعة وعشرون وجها.
- الخماسي، له مائة وعشرون وجها.

وأنه من الناحية النظرية جميع الأوجه أصلية احتماليا لكن لابد من تخريج ما هو مستعمل منها في اللغة العربية مما ليس مستعملا.

لذا نرى أن الخليل أولى أهمية بالغة للقوة الاستعمالية باعتبارها دليلا على الوجود التداولي لبعض وجوه الصيغ المذكورة. وهذا دفع مهدي المخزومي إلى القول بأن الخليل: "كان ينظر إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية، فلابد أن تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية الأخرى ولابد أن يدرسها دراسة علمية طبيعية قائمة على الاستقراء والتجربة"[٢] وقد أشار إلى أن الخليل كان يعتمد على المرويات والمسموعات ويتجول في بوادي نجد والحجاز ليلتقط جميع الوجوه المستعملة في العربية. مع حرصه على التمييز بين العربي والدخيل[٣].

إن اعتماد الخليل على نظام التقليب أو "التصرف"(حسب عبارته) يدل على القدرة التجريدية الكبيرة التي كان يتمتع بها، وهي نفسها ما كان قد أهله لاكتشاف البنى التجريدية لأوزان الشعر العربي[٤].

الجانب الثاني الذي نرى أن له أهمية بالغة في كتاب العين للخليل هو دراسة الأصوات في اللغة وتعليل ما يكون خفيفا منها في النطق، علما بأنه كان يرى أن معظم الصيغ المتداولة في العربية تكون مرتبة صوائيا بطريقة مستساغة، وما لا يستساغ من كلام العرب هو غالبا من الدخيل .

فالثلاثي عموما هو أخف التراكيب العربية أما الرباعي والخماسي ففي حاجة

في نظره إلى التطعيم بما سماه حروف الذلاقة وهي النون واللام والراء والفاء والباء والميم، وذلك لكي تصبح سهلة المخرج في اللسان. (٥)

وعلى العموم يستنتج من ذلك أن جعل اللغة تنساب في أعضاء النطق بسهولة رهين باختيار كلمات ثلاثية، أما ما زاد على الثلاثي فلابد من أن يتصيد المتكلم فيه ما يحتوي على بعض حروف الذلاقة في المقام الأول أو حروف اللين كالسين والدال في المقام الثاني.

كلام الخليل عن هذا الجانب الموسيقي على مستوى الصيغ الصرفية والاستعمالات الموجودة منها في العربية له أهمية بالغة في تأسيس دراسة خاصة عن الموسيقى الداخلية في الكلام العربي، وخصوصا في الكتابات النثرية. ولعل الاهتمام بهذا الجانب سيمكننا من القيام بدراسة تعبيرية صوتية لأساليب كُتاب العربية الكبار، خصوصا أولئك الذين تميزت أعمالهم بسلاسة ملحوظة تجعل القراء يزدردون عباراتهم مع الإحساس بقوة موسيقية داخلية آسرة في كلامهم رغم انتمائه إلى النثر. كما يمكن أن تُطبَّــق هذه المبادئ الصوتية المفسرة للسلاسة على ما يسمى في وقتنا الحالي قصائد النثر التي لا تعتمد على أوزان أو تفعيلات ولكن على موسيقى تتصيد الحروف في مسار العبارات. ونشير هنا إلى أن كتاب **قصيدة النثر من التأسيس إلى المرجعية** لعبد العزيز موافي حاول أن يلامس هذا الموضوع في الباب الرابع وهو بعنوان **إيقاع القصيدة** لكنه انحرف إلى جوانب أخرى أكثرها مرتبط بالدلالة تبعا لما كان يرى أنه الهدف الأساسي للنحو الوظيفي(٦). لكننا نرى أن دراسة هذا الجانب يمكن أن تكون صوتية بالدرجة الأولى كما بين الخليل، وبعد ذلك يمكن الانتقال إلى ما يمكن تسميته على الأصح نظرية النظم الوظيفي التي نرى أن مسارها انطلق في الثقافة العربية مع عبد القاهر الجرجاني.

الماء في كتاب العين دراسة تأويلية مقارنة:

توضيح أولي:

الدراسة التي نقوم بها لمفهوم الماء في كتاب العين مقارنة مــع ما ورد في

المعاجم العربية وبعض المصادر التراثية اللغوية والأدبية اللاحقة ــ ليست دراسة مألوفة لأنها لن تكتفي بضوابط البحث المعجمي في اللغة العربية، بل تحاول معرفة ما وراء الدلالات المعجمية مما له علاقة بالإنسان وتفكيره وتأملاته في الكون وتراثه الديني والثقافي وطموحاته وأحلامه وتفكيره الأسطوري . ولن تكون جميع المنطلقات المعجمية في هذا البحث إلا ذريعة لارتياد هذه الأبعاد الثقافية والبحث في إمكانياتها وممكناتها.

وقد فتح أمامنا الخليل هذه الإمكانية عندما اتبع كما أشرنا طريقة الحديث عن جميع صور الكلمات المولدة من حروف محددة في موضع واحد في الغالب وهذا الإجراء قد نبهنا إلى إمكانية المقارنة بين مدلولات هذه الصيغ المختلفة، وما يكون بينها من ترابط أو تكامل من جهة أو ما يحصل بينها من تباين أو تناقض من جهة ثانية.

لاحظنا أنه أشار إلى الماء في موضعين من كتابه العين:

في الجزء الرابع في باب الهاء والميم والواو: فمن الصيغ التي ذكرها من تركيب هذه الحروف ــ وهي من المستعمل ــ صيغة:

موه، ومنه المُوهَةُ: لون الماء يقال ما أحسن موهة وجهه. ونلاحظ أن الخليل أدرك أن الجذر "**موه**" يعود بنا إلى لفظ الماء لذا قال مباشرة بعد كلامه السابق: "وتصغير الماء مويه والجميع المياه والنسبة إلى الماء ماهي. وماهت السفينة تموه وتماه إذا دخل فيها الماء وأماهت الأرض إذا ظهر فيها النز وأماهت السفينة بمعنى ماهت"(٧).

ونرى هنا أنه استخلص صيغتين للفعل من الماء : ماه وأماه وأن للفعل الأول (ماهت) صيغتين في المضارع وهما تموه وتماه. ولم يذكر ما سيرد في بعض المعاجم اللاحقة ومنها كتاب الصحاح للجوهري بصيغة أخرى وهي تميه بالياء التي رأى أنها مجرد صورة مخففة عن الواو.

أما الموضع الآخر فهو موضع ورد في الجزء الثامن، حيث أشار إلى الماء في باب ما سماه: اللفيف من الميم. وأورد في هذا الموضع تحت مادة "**ماء**" ما يأتي: الماء مدتُهُ في الأصل زيادة ، وإنما هي خلف من هاء محذوفة، وبيان ذلك أنه في التصغير مويه وفي الجميع مياه (كتاب العين، ص٤٢٢).

ونلاحظ هنا أنه شرح ما كان قد سكت عنه في الموضع الأول وهو أن الموهة توحي بأن أصل الهمزة في الماء هاء لكنه هنا تحدث عن المدّة ولا شك أنه يقصد أيضا امتدادها إلى الهمزة، لأنه في تصغير الماء بمويه تقع الهاء في موقع الهمزة. وإذا ما قارنا كلامه هذا بما قاله أصحاب المعاجم اللاحقون فإننا نجد على سبيل المثال في مختار الصحاح لزين الدين الرازي في باب موه:

"الماء معروف والهمزة فيه مبدلة من الهاء في موضع اللام وأصله موهٌ بالتحريك لأن جمعه أمواه في القلة ومياه في الكثرة مثل جمل وأجمال وجمال والذاهب منه الهاء لأن تصغيره مويه" (انظر موقع الوراق مادة موه).

أما ابن سيدة في المحكم والمحيط الأعظم فيذكر الأصل وبديله على السواء فيقول: "الماء والماه والماءة معروف... وهمزة ماء منقلبة عن هاء بدلالة ضروب تصاريفه... وجمع الماء أمواه ومياه وحكى ابن جني في جمعه أمواءٌ" (موقع الوراق مادة موه).

والواقع أن الأشكال الصرفية للفظ الماء غنية لأنها تسمح باستعمال صيغ ثلاث: وهي موه، وماه وميه ففي المخصص لابن سيدة يذكر أنهم قالوا "ماهت الركية تموه وتماه وحكى أبو زيد ماهت تميه ميها وظاهر هذا أنه من الياء لا من الواو وينبغي أن يكون بدلا للياء من الواو لضرب من التخفيف وأصل هذا أن يكون ماه يميه من الواو كفعِلَ يفعِلُ..." (موقع الوراق مادة موه).

ويتبين لنا أن لفظ الماء يغتني بالدلالات المتعددة من جهتين:

- الجهة الاشتقاقية الخاصة بحروفه الثلاثة وما كانت عليه في الأصل وما عوّض به بعضُها للتخفيف.
- والجهة الثانية ما ينتج عن التقليب أو "التصرف" في حروف هذه الصيغ من أصول جديدة لها معان قريبة من دلالات الماء أو مختلفة كل الاختلاف بحيث تصل إلى حد النقيض.

فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار تلك الصيغة التي لم يذكرها الخليل وذكرها بعض من جاء بعده وهي ميه وبحثنا عن مقلوبها عند الخليل فإننا نجده يقول تحت

هذا المقلوب وهو هيم ما يأتي:

الهيمان: العطشان. الهائم المتحير. هام يهيم. والهَيَامُ من الرمل ما كانا دُقاقا يابسا (وقيل في معاجم أخرى دقاقا)، والهُيامُ كالجنون من العشق... والهيماء. مفازة لا ماء فيها (...) وكذلك اليهماء. (كتاب العين الجزء الرابع، ص١٠١).

لذا نلاحظ أن معكوس صيغة ميه إذا صحت وهو هيم يعطينا معكوس دلالة الماء على الارتواء وهو العطش واليبوسة والهيام كحالة جنون لا ارتواء فيها للعاشق، وفي النهاية يعطينا رمز الهلاك وانعدام الحياة وهي المفازة أي الصحراء. ألا يكون هذا التقابل العكسي بين ميه وهيم في جذري اللغة العربية دالا على عنصرين أساسين من عناصر الطبيعة الأربعة وهما الماء والنار؟

العجيب في الأمر أن الخليل نفسه يؤكد لنا صحة هذه النتيجة التي وصلنا إليها حين يورد تحت جذر يهم يقول الأيهمان: السيل والحريق لأنه لا يُهتدى فيهما كيْفَ العملُ، كما لا يهتدى في اليهماء (أي الصحراء) (كتاب العين، الجزء الرابع).

ولا نستطيع القول بأن مقلوب صيغ الكلمات دائما يعطي في العربية معاني عكسية ولكننا نلحظ وجود نماذج دالة على ذلك من خلال كلمات أخرى مما ذكره الخليل أو غيره فإذا أخذنا على سبيل المثال الجذر كتب ومقلوبه بتك نجد في كتاب العين ما يأتي:

- "**كَتَبَ**: الكتْبُ خرزُ الشيء بسير، والكُتْبَةُ الخرزَةُ ضَمُّ السير كِلا وجهيها، والكتبُ الخرْزُ بسيْرين" (موقع الوراق).

- (**بَتَكَ**: البتك قبضك على الشيء، على شعَر أو ريش أو نحو ذلك ثم تجذبه إليك فَيَنْبَتِكُ من أصله أي بنقطع وينتَتِفُ (...) والبتك قطعُ الأذن من أصلها قال الله تعالى: ﴿فليُبَتِّكنَّ آذانَ الأنعام﴾" (موقع الوراق).

فمن جهة نرى الكتْبَ يعني: الخـــرز، والضم، ومن جهة أخرى نرى المعكوس وهو البتك يعني القطع والانتتاف.

ولكي نؤيد بأن المسألة واردة وملحوظة على هذا المنوال في عدد من أفعال العربية يمكن أن نقدم مثالا آخر من كتاب العين دائما، يقول الخليل:

- ".. **علِق** بالشيء نشب به... وعلُقتُ فلانة أي أحببتها...".

ثم يقول بعد هذا في مادة **قَلَعَ**:

ـ "قلعتُ الشجرةَ وأقتلعتها فانقلعتْ.... ورجلٌ قَلْعٌ لا يثبتُ على السرج ..".

وها أنت ترى أن المعكوسين علق وقلع أحدهما يمضي في اتجاه مدلول الارتباط والآخر في اتجاه مدلول الانفصال.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نحن واجدون أثرا للماء في أشكال التقليب أو "التصرف" الأخرى المنبثقة من الحروف الثلاثة في موه، بمعنى أننا نجد على عكس ما أشرنا إليه سابقا تصاديا دلاليا مع الماء حتى في الصيغ الأخرى التي تتألف من حروف الماء، ونذكر على سبيل المثال ما ورد تحت الجذر: مهو في كتاب العين (العدد الرابع ص٩٩- ١٠٠):

- (المهو: السيف الرقيق..)

والتشابه واضح هنا في الخصائص المشتركة: الرقة واللون اللماع.

- (وشراب مهو: كثر فيه الماء) وهنا حضور مباشر للماء في الشراب المعني.
- (والمهو شدة الجري وأمهيت الفرس إمهاء أجريته والمهي إرخاء الحبل ونحوه).

وهنا نعود أيضا إلى التماثل في الخصائص، ومنها أن الماء هو مادة جارية، أو أنه يكون هكذا في كثير من الحالات.

- (وأمهيت السكين: سقيتها ماء) هنا أيضا نجد حضورا مباشرا للماء .

هكذا نرى أن الانتقال من صيغة إلى أخرى في التقليب أو التصرف الاحتمالي لترتيب حروف موه لا يلغي أبدا حضور دلالة كل صيغة في الصيغ الأخرى في جميع الاتجاهات، مما يدل على أن التصرف في اللغة بإمكانيات حروف محددة كان يدور أحيانا في نطاق حقول دلالية متقاربة، ومحور حروف الماء يؤكد هذه الدعوى كما رأينا.

ولكي نبين بمزيد من الأدلة عن طريق المقارنة بين تلك التقليبات هذا الترابط الدلالي الموجود بينها، نذكر ما ورد في المخصص لابن سيدة تحت جذر موه مع أنه يعالج أيضا ما أصله مهو: "والمها مقصور جمع مهاة وهي البلورة التي

تبِصُّ من بياضها وإنما قيل للبقرة مهاة تشبيها لها بذلك، فإذا وصفت المرأة بالمهاة التي هي بلورة فإنما يعنى "بياضها وصفاءها" وإذا وصفتها بالمهاة التي هي البقرة فإنما يراد بها عيناها (...) ويدل على أن ألف مها بدلٌ من واو أنه من معنى الماء لبياض البلورة وصفائها ، وقد قالوا موه عليَّ إذا حسَّن حديثه وجعله كأن عليه ماءً" (المخصص لابن سيدة، موقع الوراق). والعلاقة بين الماء والتمويه قائمة في الطبيعة- فالماء يمحو الآثار ويغير المعالم، خصوصا إذا كان سيلا.

وهذه الدلالات تماثل ما رأيناه عند الخليل في كلامه عن الموهة التي هي لون الماء بحيث يقال: "ما أحسن موهة وجهه...".

وفي هذا المعنى نفسه ما ورد في معاجم أخرى، منها تهذيب اللغة للأزهري:... "موهت الشيء إذا طليته بفضة أو ذهب (لاحظ الاحتفاظ بصفات اللمعان المائي) وما تحت ذلك حديد أو نحاس، قلت ومنه قيل للمخادع مموِّه وقد موه على الباطل إذا لـــبَّسه، وأراه في صورة الحق" (انظر موقع الوراق).

هكذا نرى كيف تتناسل المعاني، تتقارب أحيانا إلى حد التلاقي وتبتعد أحيانا أخرى إلى حدود قصوى رغم احتفاظ الكلمات بصفات لها علاقة مع الماء. وفي هذه الحالات قد يتخذ الماء معاني متعارضة مثل الانتقال من الارتواء إلى التمويه أو إلى النضارة والحسن الوجه.

ويهمنا بعد هذا أن نتأمل فيما ورد سابقا في المخصص لابن سيدة من أن المرأة توصف أحيانا بالمهاة أي البلورة لبياضها وصفاء لونها أو لبريق عينيها مثل بقر الوحش. وسنجد هذا الوصف يتنوع في صيغ أخرى في ارتباط دائم مع المرأة. ففي اللسان: "الموهة ترقرق الماء في وجه المرأة الشابة، وموهة الشباب حسنه وصفاؤه.."[٨].

ويقول بعد هذا (ج١٣، ص٥٤٥): وماوية: اسم امرأة. قال طرفة:

لا يكن حُبك داءً قاتلا ليس هذا منكِ ، **ماويَّ** بِحُرّْ

وفي لسان العرب أيضا: ".. قال أبو منصور: ماوية كانت في الأصل مائية كما يقال رجل شاويٌّ. وماوية اسم امرأة وهو من أسماء النساء.."(نسخة موقع

الوراق، ص١٣٨٨).

وقال ابن جني في شرحه لكلمة ماوية في اسم "عبيد بن ماوية الطائي": "الماوية: المرأة. وكأن المرأة سميت بذلك لنقائها وماء جسمها ألا ترى أنها منسوبة إلى الماء".

ولعل اسم ميّة له علاقة وطيدة بماوية فقد أورد الخليل في معرض كلامه عن الماء أن القردة الأنثى تسمى ميّة، وهي اسم امرأة أيضا.

ولا ندري لماذا سميت القردة مية، أما المرأة فقد تبين أنها سميت بماوية وماويٌ بالترخيم ومية لصفاء جسمها ونضارة وجهها على العموم كما ذهب إلى ذلك ابن جني. وقد عرفنا العلاقة القائمة حتى الآن بين الماء والمرأة والبلور. ويبقى أن نشير إلى مسألة هامة وهي أن لفظ ماوية له دلالة على السمكة أيضا وخصوصا منها تلك التي فيها لمعان الفضة فقد ورد في يتيمة الدهر للثعالبي قول أحد الشعراء في سمكة مشوية:

ماوية فضية، لحمـــــها لذُ ما يأكله الأكل (موقع الوراق، ص٥٣٧).

ولعل "الأكل" هنا مماثل لـــ"الشُرب" (والمقصود بهما جماعة الأكلين وجماعة الشاربين).

وما يثيرنا حقا في تلك الأشياء والموجودات القريبة أو البعيدة عن الماء هو هذا التناسل العجيب للدلالات والعلاقات القائمة بينها وما نجد لها من صدى في بعض ما ابتكره خيال الإنسان على سبيل المثال حول المرأة وعلاقتها بالماء وما يوجد في الماء من لؤلؤ وسمك. فقد سبقت الإشارة إلى أن المرأة توصف بالمهاة أي حجر البلور عند الخليل، أما عند الصاحب بن عباد في المحيط في اللغة فالمهاة هي الدر والمهو هو اللؤلؤ ومن هذه الأحجار ما يوجد في البحر أي في موطن الماء الأعظم. ويحق لنا أن نتساءل لماذا تصور الإنسان منذ القديم أن المرأة والسمكة تجتمعان في مخلوق واحد هو بالذات عروس البحر وما علاقة الماء بالأنوثة رغم أنه مذكر؟ وإن كان لا ينبغي أن يغيب عنا أن معظم علماء اللغة أوردوا صيغة تأنيث الماء وهي ماءةٌ أو ماةٌ كما يقول الخليل وغيره.

وعلى العموم فالعلاقة بين الماء والمرأة راسخة في أعماق الوجدان البشري

واللغة العربية تعكس كما رأينا هذا التداخل بين الماء والموجودات الأخرى. وهذا لا ينبغي أن يكون أمرا غريبا في الثقافة العربية والإسلامية.

فقد ورد في القرآن الكريم:﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[سورة الأنبياء: الآية٣٠] ويرجح الطبري تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ بمن قال إن كل شيء حي خلق من الماء يدخل في ذلك ذواتُ الأرواح وغيرها من الزروع والنبات والأشجار (انظر الموقع التالي: www.altafsir.com).

ويأخذ الزمخشري بهذا المعنى ويضيف إليه أنه إن تعدى فعل الخلق إلى مفعولين فإن المعنى يكون (صيرنا كل شيء حيا بسبب الماء لابد له منه). (نفس المرجع السابق).

وأضاف القرطبي في الجامع لأحكام القرآن معنى ثالثا أي: (وجعلنا من ماء الصلب كل شيء حي قاله قطرب، وجعلنا بمعنى خلقنا). (المرجع السابق)، وهذا التأويل الأخير ليس غريبا عن الحقل المعجمي العربي فقد ورد في اللسان (أماه الفحلُ إذا ألقى ماءه في رحم الأنثى) وذكره أيضا الجوهري في الصحاح والفيروز آبادي في القاموس المحيط.

إن أهمية الماء في المعاجم العربية وفي كتاب العين باعتباره أول معجم مفصل تدفع إلى تأمل دوره الأساسي بالنسبة للكائنات وإلى حضوره الجوهري في الوجود. وارتباطه الدائم بالعناصر المركزية الأخرى: الهواء، التربة، النار. إن علاقة الماء إذن بمدلول الحياة قائمة على الدوام. ولهذا السبب نجد بعض الدراسات الحديثة أيضا قد أولت أهمية لحضوره الحاسم في الوجدان البشري. ذكر باحث من المغرب في بحث تحت عنوان: "حداثة العتيق: الماء والنار" ما يأتي: "الماء في أصليته وتلوناته، في قوته وضعفه في تكيفه مع الأشياء وتكييفه لها، في تبادله المواقع مع النار العنصر المنافس له في صنع الحياة مع بقية العناصر... هذا هو الوجود العميق الجارف الذي يجري في أعماقنا، النبع الذي يتفجر من الصخر ولا يتفجر منه الصخر النهر الذي يصبح شلالا أو بركة أو بحرا (...) الماء عين

ومرآة سعة وعمق، إذن صور الزمان من الماء، لذلك هو أصل الكون والحياة منبع المعرفة والوجود..)[٩].

بعض هذه الدلالات التي أشرنا إليها نراها متجلية بأشكال تخييلية في النتاج العربي القصصي الذي يعالج موضوعات لها مثلا علاقة بالماء والمرأة أو لها علاقة بالصحراء والسراب والحاجة إلى الارتواء بمعانيه المباشرة والرمزية.

وقد سبق لنا أن درسنا بعض هذه النماذج في دراسات منشورة نذكر ببعضها هنا:

الدراسة الأولى: كانت تحت عنوان: "سلطان البحر والمرأة في قصة بحران نشوان لسلمى مطر سيف[١٠] وهي كاتبة من الإمارات العربية. ورد في هذه القصة ما يأتي: "أغمض عينيه ثم فتحهما على مدى اتساعهما عدة مرات ورش على وجهه وجسده ماء البحر، فرأى المرأة تدخل وتطلع من البحر، كانت امرأة في لون التراب النجومي: "آه...آه" زعق سلطان غير مصدق (...) وتأمل الجسد الأسطوري من البعد "آه... ما أعظمه"..."[١١].

لذا أشرنا إلى أن صورة المرأة في مجموع القصة تجعلنا نفكر في تلك العلاقة الغامضة التي أنشأها الإنسان بين المرأة والبحر من خلال صورة عروس البحر، مما يؤكد أن خيال الإنسان قد رسم البحر وكأنه رمز للرحم الأصلي وبهذا امتلكت المرأة دلالة شبه أسطورية لعلاقتها الأساسية بفعل الإنجاب كما حصلت في الثقافة العربية على الخصوص على حق تسميتها بالماوية وأصل الكلمة مائية، وهي أيضا المرآة أي العمق، لكن القصة في الوقت نفسه تصور إغراء المرأة وكأنه تهديد حقيقي بفقدان الرجل لسلطته الذكورية، خاصة بالنسبة لمن يعتقد من الذكور بأن له سلطة على البحر. هكذا كانت عروس البحر في الميثولوجيا والفلكلور العالميين تمتلك سلطة مزدوجة: سلطة المرأة الفاتنة التي تغري رجال البحر بجمالها وشعرها، وسلطة السمكة التي لا ترهبها الأمواج ولا أعماق الماء، علما بأن عروس البحر كثيرا ما يحكى أنها تغري الصيادين أو البحارة بالوصول إلى كنوز البحر، وهذا وجه علاقة المرأة مع اللؤلؤ أو الدر.

أما الدراسة الثانية، فكانت تحت عنوان: دور السياق في قراءة وتأويل القصة القصيرة[١٢]، في هذه الدراسة قمنا بتحليل قصة قصيرة نموذجية للكاتبة الجزائرية جميلة زنير وعنوانها "السائق والطيف". وأحداثها تدور في الصحراء على خلاف القصة السابقة لكن جميع العناصر التي ذكرناها سابقا تُستدعى في هذه القصة من أجل تشكيل بنية أسطورية معاكسة ومتصادية في نفس الآن مع مدلولات القصة الأسطورية السابقة، هناك حضور ملتبس للماء والمرأة في الصحراء هو مماثل تماما لوجود وهم الماء في الصحراء من خلال السراب.

"تبيَّنها جسدا عائما في بركة من الألوان، وفتح عينيه فوجدها قمرا يلتمع في المدى الممتد اطمأن بعض الشيء حين وجدها امرأة تبدي بعض فتنتها وهي تلتف في حائكها الحريري". (ص١١٠، عمود ١–٢).

وبالنظر إلى أن الرجل كان يسوق شاحنته وحيدا في الصحراء فقد وقع ضحية وهم مزدوج بالارتواء بالماء وبالمرأة على السواء. "كان وجهها يفيض عذوبة تترقرق كالماء". نقول ضحية لأن هذه المرأة لم تكن سوى الوجه الآخر لعروسة البحر وهي عروسة الصحراء. وكان من الطبيعي في هذه الحالة أن تستبدلَ المرأة هنا نيل السمكة بحافر يلائم ركوب الرمال في الصحراء، كما كان من الطبيعي أن تتحول عذوبة الماء في وجهها إلى شعلة من النار في عينيها، كما جاء في القصة: ".. تهلل وجهه وطفحت فرحة طفولية على قسماته لولا أنها قذفت بحافرها نحو أنفه وتوجهت نحوه فاستدارت عيناها مثل كرتين من نار واشتعلتا بالألوان الصارخة قبل أن تتحولا إلى عيني أفعى أهدابها مخالب...". (القصة، المرجع السابق).

لم تكن دراستنا هذه هادفة إلى حصر مجال البحث كما رأينا في نطاق الاشتقاق اللغوي كما درج عليه المهتمون بالمعاجم، وإنما كان منطلقنا هو النظر إلى اللغة باعتبارها مجموعة معقدة ومتشابكة من العلاقات والإمكانيات التدليلية. فهناك تصاد وتبادل للمواقع بين الكلمات والمدلولات، وأكثر ما يتجلى هذا الترابط في الاشتقاق، لكن الكلمات المختلفة المؤتلفة من حروف واحدة تبقى بينها دائما بعض

العلاقات، وعلى العموم فمن الناحية المدلولية فكل كلمة تستدعي مدلولات مجاورة لها إذا ما راعينا الحالة الوظيفية التي تعني أن اللغة مرتبطة بحياة الإنسان.

فعلى سبيل المثال نستطيع عن طريق التداعي القول بأن الدلو يستدعي البئر والبئر يستدعي الماء والماء يستدعي العطش والعطش يستدعي الحر والحر يستدعي الصحراء إلى ما لانهاية من الترابطات الممكنة.

وقد وقفنا من خلال الطريقة الفريدة التي وضع بها الخليل معجم العين على ما يقارب تلك الترابطات وما تستدعيه من إمكانيات تأويلية تتيحها المقارنة بين معاجم اللغة العربية وهي كثيرة وغنية بالمعلومات التي تخص علاقة الإنسان بلغته وارتباط هذه اللغة كما رأينا بأحلامه وطموحاته ومخاوفه. ولعل هذا البحث سيسمح مستقبلا بتناول الدراسة المعجمية من زاوية وظيفية أي في علاقتها بالإنسان وظروفه الخاصة وهواجسه وتطلعاته.

الحواشي.

(١) انظر ما كتبه مهدي المخزومي عن مآخذ أحمد أمين على كتاب العين في ضحى الإسلام في كتاب العين: للخليل بن أحمد الفراهيديّ، أعماله ومنهجه، دار الرائد، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، ص١٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٩.

(٣) نفسه.

(٤) انظر ما ذكره عبد القادر المهيري تحت عنوان: الخليل بن أحمد وكتاب العين، في كتابه: أعلام وآثار من التراث اللغوي، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٣م، ص١٦ و٣٣.

(٥) مهدي المخزومي، الخليل بن أحمد الفراهيديّ، أعماله ومنهجه، دار الرائد، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، ص١٦٠- ١٦١.

(٦) انظر: عبد العزيز موافي، كتاب قصيدة النثر من التأسيس إلى المرجعية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م. ص٢٥١-٢٥٥.

(٧) أبوعبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ(١٠٠-١٧٥هـ)، كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، الجزء الرابع، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٨م، ص٩٩.

(٨) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مقدم له بتاريخ هجري بقلم أحمد فارس ١٧ رجب ١٣٠٠هـ، بقلم أحمد فارس، المجلد ١٣، ص٥٤٤.

(٩) د.الميلودي شغموم، حداثة العتيق: الماء والنار، مجلة الثقافة المغربية، العدد ١٧ أكتوبر ٢٠٠٠م، ص٩، عمود١.

(١٠) انظر مجموعتها القصصية "عشبة"، دار الكلمة للنشر، ط١، بيروت، ١٩٦٦م، ص٢٨.

(١١) نشرت بمجلة شؤون أدبية، السنة السادسة عشرة، العدد ٤٤، ٢٠٠١م، من صفحة ٢٤ إلى صفحة٣٥.

(١٢) شاركنا بهذا البحث في الندوة الدولية التي أقيمت تحت عنوان "القراءة والتأويل في اللغة والآداب والحضارة"، أيام: ١٥/١٦أبريل ٢٠٠٤م بالمعهد العالي للغات بتونس قسم اللغة العربية والترجمة، جامعة ٧ نوفمبر بقرطاج، المشاركة كانت بعنوان: "دور السياق في قراءة وتأويل القصة القصيرة"، ونشرت الدراسة فيما بعد بمجلة البيان، العدد المزدوج ٣٨٤-٣٨٥، يوليو/ أغسطس ٢٠٠٢م، ص١١٠-١١١.